سياسة

CYNTHIA SAMPSON ◆ MOHAMMED ABU-NIMER ◆ CLAUDIA LIEBLER ◆ DIANA WHITNEY

المقاربات الإيجابيّة لبناء السلام



تحرير:

سنثيا سامبسون

محمّد أبو نمر

كلوديا ليبلر

ديانا ويتني



ترجمة: فؤاد سروجي

مراجعة وتدقيق: عماد عمر

POSITIVE APPROACHES TO PEACEBUILDING
A RESOURCE FOR INNOVATORS

سياسة



المقاربات الإيجابيّة لبناء السلام



المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص. ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ◆ منشوراتنا في العام ٢٠٠٦م
◆ الغلاف: زهير أبو شايب.

المقاربات الإيجابيّة لبناء السلام

سياسة

المقاربات الإيجابيّة لبناء السلام

تحرير:

سنثيا سامبسون

محمّد أبو نمر

كلوديا ليبلر

ديانا ويتني



ترجمة: فؤاد سروجي

مراجعة وتدقيق: عماد عمر





الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب : 7772 عمّان 11118

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، مقابل طيران الشرق الأوسط (ممم)
بجانب البنك المركزيّ ، مكتب القاصة

مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

المقاربات الإيجابيّة لبناء السلام
تحرير : (سينثيا سامبسون ؛ محمّد أبو نمر ؛ كلوديا لير ؛ ديانا ويتني) / الولايات المتّحدة الأمريكيّة
ترجمة : فؤاد سروجي / الأردنّ ◆ مراجعة : عماد عمر

الطبعة العربيّة الأولى ، 2007
حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** 95297109 7 00962 ، الأردنّ

®

الصفّ الضوئي : **إيمان زكريّا خطّاب** ، **عمّان** ، **هاتف** 079/5349156

المحتويات

القسم الثالث: التحول الاجتماعي

القسم الرابع

القسم الخامس: رأب الصدع والمصالحة

أنت لست هنا فقط لتعتاش

أنت هنا لتجعل العالم يعيش.

يعيش حياةً أوفر ورؤية أكبر

وروحاً من الأمل والإنجاز أكثر رقّةً

أنت هنا لتغني العالم

وسوف تفقر نفسك إذا نسيت هذه الرسالة

ودرو ويلسن



عرفان وتقدير

هذا الكتاب «مقاربات إيجابية نحو بناء السلام» هو نتاج مؤتمر طليعي. وهو اكتشاف قام به أصحاب مهن، في مؤتمر عقد بالجامعة الأميركية في واشنطن دي سي في الفترة ما بين 28-29 سبتمبر 2001. ونحن نرفع تقديراً خاصاً إلى مركز السلام الدولي الذي استضاف المؤتمر، وبالتحديد إلى مدير المركز د. عبدالعزيز سعيد ومساعدته بيتي سيتكا. كذلك نشكر بحرارة جد بوتر وهيذر وودمان من منظمة «مبادرات اكتشاف السلام» لاهتمامهم الواسع بإدارة المؤتمر وباحتياجات المشاركين، كذلك نشكر الذين أداروا المؤتمر، ديفيد كوبر رايدر، وديانا ويتني وكلوديا ليبيلير ومحمد أبو نمر، لقيادتهم لنا عبر اكتشاف حيوي وتجربة من الأفكار الجديدة. كذلك نرفع تقديرنا إلى العديد من منظمات بناء السلام التي شاركت في المؤتمر، وإلى جماعات البحث التقديري التي شاركتنا في تسويق المؤتمر، وإلى جميع من أسهموا بشكل أو بآخر في ضمان نجاحه. وأسماؤهم مدونة في نهاية كلمة الشكر.

ونقدم امتناننا العميق إلى الأعضاء السابقين والحاليين لهيئة مديري مبادرات اكتشاف السلام PDI، جون كوشران، ليبي هوفمان، بروس جيفري، سوزان ماكفارلين، آني بوتر، سينثيا سمبسون، وهيذر وودمان – الذين كانت لهم رؤية لتطوير المقاربات الإيجابية نحو بناء السلام، منذ تأسيس المنظمة عام 1999. وقد بادرت PDI بهذا المشروع وقدمت له كوادر العمل وشكلت أمانته العامة على امتداد عمله.

نرغب أيضاً في تقديم الشكر لثلاث منظمات رافقتنا وقدمت لنا الدعم في هذا العمل وساعدتنا على تطوير أفكارنا على امتداد عدة سنين: مبادرة الديانات الموحّدة، مع الشكر الخاص لزملائنا باربرا هارتفود وتشارلز غيبس: وبرنامج تمويل النزاعات

التابع لجامعة المانونايت الشرقية والتي أسهم أساتذتها وموظفوها في تقدم تلك الأفكار عبر المساقات، وقدموا الفرص لنا للمشاركة معهم، كما أسهموا في تحرير هذا الكتاب بعدة طرق: كما نقدم الشكر إلى معلمي وموظفي مبادرة GEM السابقة، والتابعة لجامعة Case Western Reserve ، الذين استقبلوا إحدى ناشطات السلام ضمن برامج تدريبهم حول البحث التقديري لتطوير أصحاب المهن، وكما شجعوا جميع خطواتها على هذا الدرب. نحن شاكرون للفرص التي أتيحت لنا لتقاسم تلك الأفكار في تعلم البيئات خلال الأشهر الأخيرة من خلال مساقات تدريبية حول البحث التقديري لصانعي السلام في الجامعة الأميركية، ومن خلال الدورة الصيفية لجامعة المانونايت الشرقية، ومعهد بناء السلام، وعبر الدعم الذي تلقيناه من مبادرة الأديان المتحدة (URI) وبرنامج أساتذة كوكس في سويسرا، إضافة إلى المجمع الدولي لمبادرة الأديان المتحدة في ريودي جانيرو. وقد أنعش المشاركون في تلك الأحداث، اكتشافاتنا وأسهموا في تعميق تفهمنا للمقاربات الإيجابية نحو بناء السلام. نود أن نشكر هؤلاء الأشخاص الذين عرضوا تقديم فصول في هذا الكتاب ولم يتمكنوا من تحقيق ذلك لأي سبب كان. فهم أيضاً أسهموا في تقديم أفضل أفكارهم وهذا الكتاب هو الأغنى بالنسبة لهم.

نقدم امتناننا أيضاً إلى الناشرين « منشورات باكت » وإلى إيفان بلوم بشكل خاص، الذي احتضن هذا الكتاب بفورية وبحرارة، وإلى سابرينا أتووتر، وكريستفور بينيت وسارا نيوهول وكريستال وودز لحماسهم ولدعمهم الملموس في إخراج هذا الكتاب إلى الطباعة. كذلك نقدم شكراً فائضاً وخاصاً إلى جيني فيربر التي وضعت التصميم الأولي لهذا الكتاب، وإلى ميشيل بينا التي أوصلت النواحي التصويرية والمطبعية إلى النهاية، وإلى بيل وجانيت تود اللذين قدّما فهرس الكتاب.

وأخيراً نقدم عميق تقديرنا لممولينا، الذين لولاهم لما وصل شيء مما ورد في هذا الكتاب إلى حد الإمكان: وإلى معهد الولايات المتحدة للسلام الذي قدم لنا منحة

كريمة، رغم أن معظم الأفكار والاستنتاجات والخلاصات والتوصيات التي وردت في هذا الكتاب تعبر عن آراء كاتبيها. كذلك لن ننسى التمويل الرئيسي الذي وردنا من مبادرات اكتشاف السلام ومساهميها الكرام.

المنظمات المشاركة في المؤتمر:

- خدمات الإغاثة الكاثوليكية
- مركز السلام الدولي، الجامعة الأميركية
- تحويل النزاعات بين الحضارات (CONTACT)، كلية التدريب الدولي
- برنامج تحويل النزاعات، جامعة المانونايت الشرقية
- الهيئة العامة للكنيسة والمجتمع، ومركز السلام العادل للتوسط وحل النزاعات، الكنيسة المنهجية المتحدة
- معهد تحليل النزاعات وحلّها، جامعة جورج ماسون
- معهد الدبلوماسية المتعددة المناهج
- معهد الإنذار الدولي
- برنامج حل النزاعات الدولية، جامعة كولومبيا
- مبادرات اكتشاف السلام
- برنامج السياسة الوقائية، مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية
- منظمة البحث عن أرضية مشتركة
- مبادرة الأديان المتحدة
- شبكة غرب أفريقيا لبناء السلام نساء من أجل السلام

المنظمات الشريكة:

- مركز مصادر البحث التقديري
- التعاون من أجل التغيير الإيجابي

- مبادرة الإبداع الدولي في الإدارة، جامعة Case Western Reserve
- برنامج سيجما للتعاون الإنساني والتحرك الدولي، جامعة Case Western Reserve
- معهد تاوس

إذا أردت أن تغني أغنية هذه الأرض، عليك أن تصغي إلى أحلام ساكنيها.

فقط هؤلاء الذين يستطيعون الشعور بالأمل في المستقبل يملكون الشجاعة لحلحلة عقد الماضي.

إذا أردت أن تغني بعيداً عن الخوف، وتغني بعيداً عن المعاناة، فإن عليك أن تلتقط أحلام شعبك وتذيبها من أجل تحرير مستقبله.

ديفيد لا شابل

المقاربات الإيجابية لبناء السلام

مورد للمبدعين

علينا أن نشكل نماذج كاملة في التفكير وننظر فيها باستمرار، وإلا فلن نستطيع أن نصنع منها حياة كريمة ونبيلة.

ماري بيكر إيدي



مقدمة

سينثيا سمبسون

وُلد هذا الكتاب في خضم التبعات الفورية للاعتداءات الإرهابية التي وقعت ضد الولايات المتحدة يوم 11 سبتمبر 2001. بعد سبعة عشر يوماً من هذا التاريخ، التأم شمل خمسة وسبعين شخصاً في مؤتمر عُقد بالجامعة الأميركية تحت عنوان: «مقاربات إيجابية لبناء السلام: استكشاف مهني» . ورغم الاضطراب الهائل الذي عمّ البلاد والعالم كله في ذلك الوقت، لم يلغ أحد مشاركته نتيجة الأحداث باستثناء مشاركة واحدة، قالت أن السبب ليس خوفها من الطيران بل لأنها لا تريد أن تبقى بعيدة عن منزلها إذا وقعت حرب ما.

بعد مضي سنة ونصف، وبينما نحن بصدد تجهيز نسخة الكتاب للإصدار، أخذت غيوم الحرب تسحب معها القاذفات الأميركية لتحول السماء داكنة فوق أجواء العراق.

ما الذي يضيفه هذا الكتاب إلى المشهد الدولي لصناعة الحرب وبناء السلام؟ كان الجاذب للعديد من الذين حضروا المؤتمر هو التطلع نحو « شيء جديد » وهذا الكتاب يحاول أن يملأ هذا التطلع.

الكتاب لا يقدم دواءً شافياً لجميع حالات بناء السلام، لأن هذه الأدوية الشاملة لا يمكن تركيبها في عالم أصبح يتسم بالعصبية نتيجة دمار الإرهاب الذي جرّ معه العالم إلى أبعاد جديدة ونتيجة تعلق القوة العظمى في هذا العالم بسياسات القوة العسكرية. كذلك لا يقدم الكتاب طريقة جديدة وشاملة في صنع الأشياء أي وصفة

لترك القديم – لا شيء يمكن أن يكون أكثر رعونة وإحباطاً وإذلالاً للصابرين على طريق على بناء السلام. ولكن « الشيء الجديد » هنا يختلف بشكل كافٍ مما يجعله يقف منفصلاً ويحمل معه عنصراً جديداً ومتميزاً في خلطة بناء السلام. كما أنه شيء ما زال جنينياً بما يكفي ليحجم الآخرين عن رفضه أو إهماله، ولكنه قد يجذب نظر البعض، ربما إلى خوض مغامرة أو التجرؤ للقيام بعمل ساذج ومقدس.

قبل أيام فقط من غزو الجيوش الأميركية والبريطانية للعراق، كان أحد الأمناء العامين المساعدين في الأمم المتحدة، وأحد الحالمين بالسلام، ويدعى روبرت مولر يرى شيئاً مميزاً في المشهد العالمي حين يقول: « بقدر ما أنا مستاء وحزين لهذه الحرب التي تدور حولنا، إلا أني أجد عزاءً كبيراً فيما يحدث في العالم اليوم. فالمجتمع الدولي بدأ بشنّ السلام ». ويتابع مولر: سوف يسجل التاريخ بأن القرن الحادي والعشرين بدأ بوضع كان فيه المجتمع الدولي يخوض حواراً عاماً وغير مسبوق حول شرعية شن الحروب. الأمر مثير وصعب ويحمل الكثير من التحدي، إلا أن مثل هذا النوع من الحوار لم يشهده العالم على هذا المستوى من قبل. إن هذه الفترة هي فترة مذهلة من الإصغاء الدولي والحديث الدولي والمسؤولية الدولية... هذا ما يمكن أن ندعوه « شن السلام »... (2003).

هذه الكلمة أعطت روحاً للعديد ممن كانوا يبدون قلقاً عميقاً حول التحرك في الشرق الأوسط، ورغم أنه كان من المؤكد أن هذه الحرب سوف تقع، إلا أن رؤية مولر أعطت انطباعاً بأن العالم لن يكون كسابقه على الجانب الآخر من الحرب كما كان دائماً بعد الحروب السابقة. وهذا الانطباع أعطى لدى البعض أملاً وتحليقاً في الخيال: كيف يمكن لعالم بعد الحرب أن يكون مختلفاً في ضوء هذا الحوار الدولي وكيف يمكننا أن نساعد على إدراك هذا الوعد لهذه الفترة الجديدة من الاحتمالات.

ورغم أننا نحاول الضغط مبكراً لمعرفة كيف يمكن للعالم أن يكون مختلفاً في فترة ما بعد الحرب هذه، إلا أن هذه القصة توفر لنا توضيحاً زمنياً حول مقدمة البداية لهذا

الكتاب. أي أنه بدون رؤية إيجابية، وتصور لمستقبل أفضل يمكن أن يشد انتباهنا إلى آفاق جديدة، ويحرك طاقاتنا ويعطي نبضاً لتحركاتنا، فإن من الصعب معرفة إلى أين نتجه، ومن الصعب أكثر الوصول إلى حيث نتجه. إن في كتابة روايات جديدة، وفي تصور مشاهد جديدة، تكمن إمكانية الإبقاء على الأمل حيّاً ورسم طريق أكثر وضوحاً وتوكيداً لمستقبل يكون من اختيارنا.

هذا الكتاب يُعنى بإيجاد طرق محددة لتنفيذ مثل هذه الأهداف العليا ولإدراك الإمكانات الجديدة في بناء السلام. وهو لا يطلب من كل منا، كقراء الشيء القليل. بل يطلب منا أولاً أن نشترك معاً في تقدير أفضل التصورات لممارسة بناء السلام اليوم من خلال بعض الأمثلة الرائعة التي تظهر على صفحاته. كما يطلب منا بشكل منفرد وجماعي أن نستحضر أفضل تصوراتنا لكيفية إدخال الطرق والمقاربات الحديثة، أو تعزيز الممارسات الحالية بطرق أكثر حيوية في عملية بناء السلام. ومن ثم يدعونا إلى الشجاعة في ابتكار ممارساتنا لبناء السلام – أو ربما تقديم يد الدعم لآخرين ممن تجرأوا على فعل ذلك. كما يدعونا أيضاً إلى الاقتناع بأن نظاماً عالمياً جديداً قد وُجد وأننا مشاركون في إيجاده، وقد يحتاج الأمر من بعضنا ببساطة أن يبدؤوا ويقرؤوا، أو ربما يتطلب منهم بعض العمل الإيماني، أو نبذ بعض المعتقدات الخاطئة أو قياساً سليماً لعمل مقدس وبسيط. مهما كانت الحالة، دعونا نبدأ.

ماذا نعني بالمقاربات الإيجابية

المقاربات الإيجابية هي مجموعة من الأفكار، والنظريات والنشاطات التي تعمل باتجاه إحداث تغيير في العلاقات، والمنظمات والمجتمعات وغيرها من الأنظمة الإنسانية[2]. ومع تطورها بشكل رئيسي في قطاعات التنمية المؤسسية والتعليم والتدريب والمعالجة النفسية والاستشارات، تميزت المقاربات الإيجابية عن غيرها من المقاربات الأكثر تقليدية والتي تركز على المشاكل نفسها، بالافتراضات التي تحملها والصفات التي تتشارك فيها. والافتراض الأساسي لمعظم المقاربات الإيجابية هو أنه

ضمن الأنظمة الإنسانية توجد أشياء تعمل جيداً أو عملت جيداً في الماضي، وأن هذه الأشياء يمكن تحديدها وتحليلها وبناء أسس عليها من أجل تصور التغيير والتخطيط له وتنفيذه. وتعتمد المقاربات الإيجابية غالباً على التحقق من جمع المعلومات والانتباه بشكل خاص إلى كيفية تأطير الأسئلة، كما كان هناك إمكانية للسعي من أجل اكتشاف متى وكيف تعمل الأشياء على أفضل وجه.

والعقيدة الأساسية للفكر الاجتماعي الإصلاحي، التي ترفد معظم التفكير في المقاربات الإيجابية هي وجود ارتباط بين الصورة وبين العمل وبين الصورة الإيجابية والعمل الإيجابي. لذلك تمتلك المقاربات الإيجابية اتجاهاً ينظر إلى الأمام في إحداث التغيير، بدلاً من التركيز على تحليل مساوئ الماضي، وتضع هذه المقاربات ثقل تركيزها على رؤية وإنتاج الصورة الإيجابية للمستقبل المختار.

ومع تجذرها في تجارب وحياة وتواريخ الأفراد والجماعات في النظام، ترتبط المقاربات الإيجابية مع الحضارة وتسير في سياقها نحو كل اتجاه جديد. فهي تُثمّن التعددية كمصدر للإبداع والابتكار، وتسعى إلى مشاركة أطراف معينة متعددة بحيث يتم تمثيل النظام بأجمعه في أي مبادرة للتغيير تؤثر عليه. كذلك توفّر المقاربات الإيجابية أدوات لجمع الناس من أجل اكتشاف القيم والأهداف المشتركة ومن أجل المساعدة في وضع خطة لمجموعة تعددية يمكنها أن تعمل بشكل مشترك من أجل مستقبل مشترك. وهي تعزز أيضاً توزيع الثروة عبر مجمل النظام، مانحةً بذلك الفرص لأي طرف معني من أجل أن يتقدم لدور قيادي حسبما تملي الظروف. وهكذا تفسح الفكرة التقليدية التي تدور حول السيطرة المركزية والتعاون المركزي الطريق لظهور فكرة أخرى تتبنى مراكز تعددية للسيطرة ونقاطاً متعددة للتعاون.

السمات العامة للمقاربات الإيجابية

هناك عدد من السمات التي تتقاسمها معظم المقاربات الإيجابية نحو التغيير الاجتماعي[3]:

- جميعها تتشارك في التوجه نحو القوة والإمكانية الإيجابية للبشر، وتضع تركيزها التحليلي على تلك الإمكانية الإيجابية بهدف حشدها بشكل أكثر فاعلية.
- هناك تركيز على أهمية صنع المعنى – والذي يتم عادةً بشكل جماعي وضمن ارتباط مع الآخرين في النظام.
- هناك تركيز على استنباط القصص وروايتها كوسيلة لنقل الحكمة الشمولية والمعرفة والمعنى.
- هناك تركيز للانتباه على الموارد الفطرية للتغيير – تلك القوى والقدرات والممارسات والخبرات الموجودة أصلاً في كل نظام.
- هناك تركيز على إطلاق تصورات مرئية وإظهار أمثلة إيجابية.
- النية تتجه نحو التحفيز والتعبئة للتحرك.

هذه السمات الإيجابية تجد تعبيرها في عدة أشكال موسعة. فالمقاربات الإيجابية لبناء السلام قد تتخذ شكل وسيلة أو أداة أو ممارسة معينة؛ أو شكل منهجية مرحلية أو ممارسة على شكل مجموعة، أو استراتيجية موسعة لإحداث تغيير منهجي. أو ربما تشمل تدخلات، ومراحل وأساليب و/أو عمليات تعددية، أو تأخذ شكلاً فنياً كالموسيقى أو الدراما، أو فلسفة حية. وفي هذا الكتاب سوف نواجه أمثلة على مثل هذه الأشكال.

المقاربات الإيجابية لبناء السلام

في هذا الكتاب، نولي اهتماماً خاصاً بالتطبيقات المحتملة في بناء السلام من خلال البحث التقديري، وهو عبارة عن منهج إيجابي للتغيير يشمل تحريك الأطراف المعنية داخل نظام معين عبر عملية من أربع مراحل هي الاستكشاف، الحلم، التخطيط والتنفيذ (أو الهدف) وهي عملية تُعرف بالإنجليزية بدائرة المراحل الأربعة D4 «الاكتشاف والتسليم Discovery and Delivery، التخطيط Design، الحلم Dream» ترتبط بالقدرات والقوى والتجارب المعاشة داخل النظام، وتخلق رؤية مشتركة

للمستقبل، وتحشد من أجل تحرك خلاّق باتجاه تحقيق هذه الرؤية. وقد وُلّدت عملية البحث التقديري وسط حقل التطوير المؤسسي في أواسط حقبة الثمانينات من القرن العشرين وتُستخدم بشكل واسع عبر العالم اليوم، في الأعمال التجارية والمجتمعية والتطوير الدولي ومؤسسات التغيير الاجتماعي بجميع أشكالها.

وقد استخدم صانعو السلام الذين يتعاملون بالبحث التقديري، معظم المراحل في بعض الأحيان وجزءاً منها في أحيان أخرى. وأكثرها شيوعاً تلك التي تتناول المقابلات التقديرية في مرحلة الاستكشاف. والمقابلات التقديرية تشكل نوعاً عن الممارسة التي تستخدم الأسئلة الإيجابية للاستعلام من الأطراف المعينة حول العناصر الإيجابية الجوهرية في حياة النظام. والعناصر الإيجابية الجوهرية هي الأساس في منح الحياة – وتعزيز السلام وإيجاد الموارد والقدرات والخبرات وسط نظام النزاعات، كما أنها الأساس الذي يمكن اعتماده لبناء السلام. وتشمل هذه العناصر القيم والفضائل، والحكمة الشمولية والمعرفة، والطقوس والتقاليد، والممارسات والإرشادات الثقافية والدينية المتأصلة التي تقوم بتشجيع التسامح والتعددية والعدالة والسلام، إضافة إلى التجارب المعاشة للناس وللجماعات، والتي تختزنها رواياتهم عن الشجاعة والقوة والثبات والتراحم والتعاون في الحياة مع الخلافات، وتشمل كذلك آمالهم وأحلامهم ورؤاهم لمستقبل أفضل. إنها هذه القوى الخيّرة التي يقوم منهجيو التغيير الإيجابي بنبشها من أجل استلهام الرؤى والدفع نحو التحرك.

وأحياناً، يقيم صانعو السلام هذه العناصر الإيجابية الجوهرية عبر أشكال أخرى من العملية التقديرية (بالإضافة إلى الاستعلام والتحقيق) مثل البحث العلمي، والحوار والتعامل مع الطقوس وغيرها من التعبيرات الفنية. وعلى طريقة البحث التقديري، تقف تلك العمليات التقديرية وحدها كنوع من التدخل، أو ربما يتم دمجها مع أدوات أخرى لحل النزاعات وبناء السلام، بما فيها مقاربات متعلقة بالتوجه نحو المشكلة.

نظرة مسبقة لما سيأتي

في هذا الكتاب، سنقوم باستكشاف المقاربات الإيجابية لبناء السلام، نظرياً وممارسةً والجزء الأول من الكتاب « أصول ومقابلات » يمهد الأرضية لفحص سلسلة واسعة من التطبيقات الواردة في بقية الكتاب. وفي الفصل الأول، يطرح محمد أبو النمر أسس هذا الاستكشاف في ميدان حل النزاعات وبناء السلام من خلال تقديم رسم تاريخي لتطور هذا الحقل، والتعريف بالفرضيات والمبادئ الأساسية التي تقف وراء بناء السلام. ووصف العناصر الإيجابية في الممارسة الحالية لبناء السلام. بعد ذلك تقدم ديانا ويتني، وكلوديا ليبلير وديفيد كوبر رايدر نظرية البحث التقديري وممارسته كما انبثقتا عبر التطور التنظيمي وكيف توسعتا وتكيفتا مع التطور الدولي وينهي الكُتّاب الثلاثة تقديمهم باقتراح خمسة مجالات يمكن للبحث التقديري أن يسهم فيها في ممارسة بناء السلام. وفي الفصل الثالث، تقوم كلوديا ليبلير وسينثيا سمبسون بربط الأسس الفكرية والنظرية للبحث التقديري مع ممارسة بناء السلام وعرض بعض الطرق التي يمكن فيها لحلقات البحث التقديري الأربعة D4 أن تخضع للتجربة والتكيف ضمن سياق بناء السلام.

وتستعرض الأجزاء التي تلي ذلك خمسة أصعدة لممارسة المقاربات الإيجابية لبناء السلام. أما في الجزء الثاني « نحو ثقافات السلام » فتستعرض إيليز بولدنغ منهجيتها في تصور عالم لاعنفي وتصف استنتاجاتها خلال ورشة عمل تصورية. أما مارك شب فيصف عملية إيجاد منطقة محلية للسلام وسط إقليم معرض للعنف في دولة السلفادور ما بعد الحرب. ويقدم جون بول ليديراخ مقالاً قصيراً لا نظري حول كيفية عمل المقاربات الإيجابية كمقدمة لحالة دراسية يعرض فيها بمشاركة هيرم ويفر مدى قوة الموسيقى والرواية في الدفع نحو رؤية إيجابية لكيفية تمكن مدرسة ثانوية من المساعدة في جلب السلام للعالم. ويصف جوزيف مونتفيل وهايدي باولسون ويندر كيفية استخدام مشروع توثيقي لتاريخ طويل من التعايش الخلاّق بين المسلمين

واليهود والمسيحيين في إسبانيا المسلمة وحوض المتوسط الأوسط في تعزيز رؤية التعايش لدى الإسرائيليين والفلسطينيين المعاصرين.

في الجزء الثالث « التحول الاجتماعي » يضع سام غبايدي دو، تقييماً للفرص الاستراتيجية أجرته شبكة غرب أفريقيا لبناء لسلام، في غينيا – كوناكري، كجزء من استراتيجية لتعزيز قدرات توليد السلام في ذلك البلد. ويخبرنا بيتر دي لاهايي وبهارات كريشنان كيف استخدما البحث التقديري في ولاية ناغالاند الهندية من أجل إشراك أطراف معنية متعددة، بما فيها الأطفال بأعداد كبيرة في تطوير رؤىً وأفكار ملموسة من أجل تحقيق تقدم باتجاه التنمية الاقتصادية والاجتماعية، والسلام والحاكمية الراشدة لتلك الولاية. أما ماري هوب شفوبل وإيرين ماكندلس فتصفان كيف استخدمت العملية التقديرية كجزء من استراتيجية تعزيز وضع المجتمعات المهمّشة في زمبابوي ومن ثم دراسة إمكانية استخدام البحث التقديري في البناء المعقد للسلام وفي سياقات التنمية.

في الجزء الرابع من الكتاب « حل النزاعات » يخبرنا مايكل هندرسون قصة مبادرات مركز التغيير من أجل المصالحة في كوكس، سويسرا، وكيفية استخدام القصص الشخصية والإنتاج المسرحي لنقل حقائق تاريخية وأمثلة إيجابية عن التغيير الشخصي الداخلي وعن الشجاعة الأخلاقية والتسامح والمصالحة. ويقدم توماس بورتر ومارك مانكاو نموذجاً لتحويل النزاع داخل الكنيسة المنهجية المتحدة في الولايات المتحدة وهو نموذج يجمع بين استخدام الممارسة الدائرية، والأسئلة التقديرية ومبادئ إعادة تحقيق العدالة. أما موريسيو ريوس وسكوت فيشر فيقترحان نموذجاً لورشة حوار تقديرية من أجل الدفع بعملية السلام وسط النزاع البحري الذي مضى على نشوبه مدة طويلة بين بوليفيا وتشيلي.

وفي القسم الخامس: « رأب الصدع والمصالحة » تصف بيفي غرين تجربتها في استخدام الأسئلة التقديرية لتسهيل الحوار بين مثليي الجنس والمسيحيين الإنجيليين. وتستخدم أنا ستازيا وايت عدسة إصلاحية اجتماعية لتفسير العملية التي تحوّلت فيها

علاقتها مع خصم سابق من نظام جنوب إفريقيا العنصري، عبر إعادة كتابة رواياتهما الخاصة عن النزاع. وتستكشف نانسي غود سايدر دور المقاربات الإيجابية في إصلاح الضرر ما بعد الحرب والتنمية وتقدم استنتاجات مأخوذة عن مقابلات تقديرية أجرتها مع صنّاع السلام الذين عانوا من هذا الضرر. وتكتب باولا غرين وتامرا دي ستراي حول ممارسة منح صوت للذين لا صوت لهم في أوضاع النزاعات وتتحدثان كيف أن غرس مجموعة حوار من الجيل الثاني للناجين من الهولوكوست وسط مجموعة حوار بين البشناق (المسلمين البوسنيين) والبوسنيين الصرب أعطت الأخيرين نموذجاً لعلاقة رأب الصدع. وتستكشف أميلا وراندي بولجك شانك السؤال التالي: كيف يمكن لرأب الصدع أن يحصل؟ ثم يتفحصان تقاطع مبادئ البحث التقديري وأساليبه مع مختلف المقاربات المستخدمة في رأب الصدع خلال فترة ما بعد النزاع.

في الجزء السادس «تصميم منظمات بناء السلام»، يصف تشارلز غيبس وباربرا هارتفورد كيف أسهم البحث التقديري في تطوير تصميم ودستور وثقافة المنظمات وتطوير برنامج بناء السلام للشبكة العالمية التابعة لمبادرة الديانات المتحدة.

ويخبرنا جاكو سيللير، وروبن غوليك، وميغ كنغ هورن، كيف تم استخدام المقاربات التقديرية، بما فيها البحث التقديري في تحسين استراتيجية الرواية وعمليات التصميم والتخطيط لبرنامج بناء السلام لدى خدمات الإغاثة الكاثوليكية.

وفي الخلاصة، يلقي المحررون الضوء على الاستنتاجات الأساسية في الكتاب ويناقشون السياقات الملائمة لاستخدام المقاربات الإيجابية في عملية بناء السلام، إضافة إلى التحديات الرئيسة لاستخدامها. ومن ثم يقترحون جدول أعمال للمزيد من البحث والتجربة باستخدام المقاربات الإيجابية في بناء السلام.

ملاحظات:

1 Divine *naivete* is a term coined by John Paul Lederach, which he defines informally as "when you pursue things that along the way don't seem that important, or even advisable, but later turn out to be key and the most important" (2003).

2. This section is based on unpublished work (dated March 2003) by Andrea Strimling and Claudia Liebler in conceptualizing how positive approaches might be used in advancing interfield cooperation in complex conflicts.

3. This section is drawn from unpublished work (dated March 2002) by Claudia Liebler and Cynthia Sampson on a typology of positive approaches to peacebuilding.

مراجع :

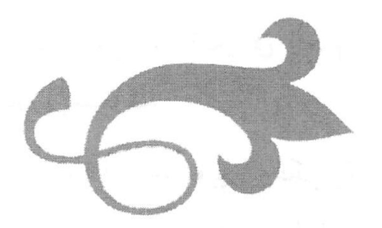
Lederach, John Paul. 2003. Email message to the author (April 24).
Muller, Robert. 2003. "Waging Peace: Taking Comfort from Footholds Gained." As reprinted at http:/Iwwwgoodmorningworld.orgldodumentslo3o3 19.pdf.

القسم الأول

أصول ومقابلات

نحن نسكن في عالم يتشكل من خلال
تفاعلاتنا معه. عالمنا لا يمكن تثبيته. بل هو في
تغير دائم وبلا نهاية. وأكثر إمتاعاً مما قد نتصور

مارغريت ويتلي



الفصل الأول

نحو نظرية وممارسة المقاربات الإيجابية لبناء السلام

محمد أبو النمر

يؤسس هذا الفصل من الكتاب لاستكشاف المقاربات الإيجابية لبناء السلام، أولاً من خلال تقديم نظرة شاملة وموجزة عن تطور حقل حل النزاعات وبناء السلام على مدى العقود الأربعة الأخيرة، في شمال أميركا، وفي العالم خلال الزمن الحديث - وهو تاريخ يأخذنا إلى الفترة الحالية من إمكانيات التطور الحديثة. وثانياً، من خلال النظرة إلى صلب فرضيات ومبادئ بناء السلام التي تضع إطاراً عبر استكشافات الكتاب لرؤية الطرق التي تعمل فيها المقاربات الإيجابية بالترافق مع الفرضيات والقيم التي يقوم عليها بناء السلام وتدعم فيها النواحي الأساسية لممارسة بناء السلام، بالإضافة إلى الطرق التي تُقصّر فيها هذه المقاربات الإيجابية بحيث يتطلب الأمر التخلي عنها جانباً أو تطويرها بشكل أكبر. ويختتم الفصل بمناقشة حول العناصر الإيجابية في ممارسة بناء السلام الحالي كخطوة أولى باتجاه دراسة وممارسة أكثر منهجية للمقاربات الإيجابية لبناء السلام والتي تم تكريس هذا الكتاب لأجلها.

*

شهد حقل بناء السلام وحل النزاعات تطوراً هائلاً خلال العقود الثلاثة الماضية. وقد منحت المئات من البرامج الأكاديمية شهادات في هذا الحقل، وتجري حالياً عملية تهدف إلى إعطاء صفة المهنية والاحتراف لمثل هذا الحقل مع انخراط

الآلاف من المنظمات غير الحكومية (NGOs) وأصحاب المهن المستقلين في العمل اليومي الساعي إلى حل النزاعات[2] بين الأشخاص وبين المجتمعات.

إضافةً إلى ذلك، تحاول المئات من الهيئات والمبادرات الحكومية وبين الحكومية وغير الحكومية أن تعالج النزاعات على المستوى الدولي. وقد حدد معهد Multi-Track الدبلوماسي تسعة قطاعات أو مسارات مختلفة لممارسة بناء السلام: الحكومة؛ الدين؛ البحث والتدريب، التعليم؛ الأعمال؛ التمويل؛ منظمات الإغاثة والتنمية الإنسانية، الحكومية منها والخاصة؛ المواطنون الفرديون، الناشطون، وأخيراً الإعلام والاتصالات (دايموند ومكدونالد 1996).

وقد أسهمت عدة حركات اجتماعية وسياسية في انبثاق حقل حل النزاعات في شمال أمريكا. فخلال عقدي الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين، استطاعت الدراسات المتعلقة بالعلاقات الإنسانية تطوير أفكار ومقاربات للتعامل مع التعصب والتصلب الفكري. وأشعلت حركة حقوق الإنسان التي انطلقت في عقدي الخمسينات والستينات من القرن العشرين، وعياً جديداً لإمكانيات التغيير عبر تقوية وتنشيط الأقليات. وأدى التفهم الجديد لموضوع النزاعات في حقل العلاقات المؤسسية في عقدي الستينات والسبعينات من القرن العشرين إلى ظهور مقاربات تعاونية في علاقات العمل وإدارة العمالة. كذلك، بدأ نظام أمريكي قضائي مهيمن في تلك الفترة بإحالة القضايا والشكاوي الصغيرة، كأمور الطلاق وغيرها على محامين مدربين في أعمال التوسط والتحكيم فيما أصبح يُعرف بالبديل لحل النزاع أو « ADR ». وفي أوائل حقبة التسعينات تم إنشاء مراكز قضائية في أحياء أو دوائر اجتماعية للتوسط من أجل وضع حلول لمعاناة الأفراد والفئات المختلفة[3].

وعلى الصعيد الدولي، شهدت حقبة أواخر الستينات والسبعينات من القرن العشرين أول تجارب تشمل إقامة ورشات عمل لحل المشاكل وذلك في محاولة لتطبيق الأفكار المتعلقة بحل النزاعات على النزاعات الدولية والعرقية[4]. كذلك شهدت هذه

الفترة تنشيطاً لجماعات الكويكرز وقد أطلقنا اليوم على هذا النشاط اسم قطاع الأديان وعلاقات الأديان في بناء السلام، وهو قطاع أخذ يشهد توسعاً متسارعاً[5]. وانصبّ الاهتمام خلال حقبتي الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين على النواحي الحسية والنفسية المسلكية للنزاعات ولطرق حلّها. وعلى استخدام الموارد الروحية والحضارية والدينية والطبيعية لحل النزاعات وصنع السلام واستخدام عمليات التسامح والمصالحة ورأب الصدع إلى أن وصل الاهتمام حديثاً إلى إعطاء دور للروايات والطقوس والاستعارات والفنون وغيرها من الطرق الشاملة لتحديد وتعريف وتحويل النزاعات.

وأخيراً شهدت فترة ما بعد الحرب الباردة في عقد التسعينات تطوراً موسعاً في عمليات بناء السلام تجاوز أميركا الشمالية وأوروبا، وفي عمليات التدريب وإقامة ورش العمل، ومراكز بناء السلام، كما شهدت ظهور المنظمات غير الحكومية العاملة في بناء السلام عبر أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط وأميركا الجنوبية. واليوم، أصبح من الأمان القول بأن الأفكار والمقاربات المتعلقة ببناء السلام أصبحت تطبق وتطوّر على الصعيد الدولي، وأن ميدانها آخذ في التوسع أكثر وأكثر من خلال استكشاف الروابط النظرية والعملية بالميادين الأخرى، مثل التنمية الدولية، وحقوق الإنسان، والبيئة والاتصالات والإعلام والأعمال.

وهذا الكتاب بحد ذاته، يعتبر مثالاً على إحدى الجبهات الجديدة المستكشفة، ويتعلق أساساً في هذه الحالة بالفكر الإصلاحي الاجتماعي، ومنهج البحث التقديري اللذين انبثقا وسط ميدان التطور المؤسسي وفي ميدان التنمية الدولية بعد ذلك. وفي موازاة انبثاق منهجيات التغيير الإيجابي في ميادين عديدة أخرى[6]، يمثل البحث التقديري وغيره من المقاربات الإيجابية في بناء السلام دفعاً جديداً نحو وسائل تشدد على صنع السلام، وتشجع ظهور الإمكانيات الإيجابية للتحول الموجود في جميع الأنظمة الإنسانية.

وسوف نتحول في الفقرة التالية إلى مناقشة بعض الفرضيات والمبادئ الجوهرية في حل النزاعات وبناء السلام والتي ستغذي بحثنا عن المنهجيات النظرية والعملية في التغيير الإيجابي بشكل عام، وعن عمليات البحث التقديري بشكل خاص.

الفرضيات والمبادئ الأساسية لبناء السلام

رغم وجود العديد من عمليات حل النزاعات وبناء السلام التي يتم تنفيذها من قبل الفاعلين على الأرض وتحليلها والتنظير لها من قبل العلماء، إلا أن هناك إمكانية لتحديد مجموعة من الفرضيات والمبادئ الجوهرية التي تتشارك فيها أغلبية صنّاع السلام. وهذه بدورها تلقي الضوء على القيم التي تحرك هؤلاء الفاعلين المهنيين والعلماء على الانخراط في هذا العمل.

النزاع كمصدر للتغيير

إحدى الفرضيات الأساسية في هذا الحقل، هي أن النزاعات ليست بالضرورة سلبية أو سيئة. فمعظم صنّاع السلام ينظرون إلى النزاع على أنه يؤدي غالباً إلى تغيير ضروري ولذلك يمكن اعتباره قوة خلاّقة تولّد خيارات جديدة لحل المشاكل الموجودة. فاختلاف الآراء، وتضارب الأهداف والتنافس في المصالح ليست في طبيعتها قوى مدمرة، على الرغم من أنها قد تقود الأطراف للتورط في أعمال عنف أو غيرها من المسلكيات ضد الأطراف الأخرى. وعندما تحدث تلك المسلكيات، يتم تهميش أو تحطيم نواح أخرى من العلاقات الموجودة بين الأطراف المتنازعة. لذا، ورغم أن النزاع بحد ذاته يعتبر عملية طبيعية، إلا أنه يمكن أن يؤدي إلى نتائج بناءة أو مدمرة، بناءً على الطرق التي تتعامل فيها الأطراف مع القضايا التي يقوم عليها الخلاف، ومع بعضهم البعض. لذلك، يتوجب على الذين يتصدون لحل النزاعات أن يساعدوا الأطراف المتنازعة على تحديد الطرق المحتملة للتغيير والتي يمكنها استيعاب وتأمين حاجات ومصالح جميع الأطراف.

السيادة الأخلاقية والواقعية لمبدأ اللاعنف

من المفترض أن تكون الوسائل اللاعنفية ضمن حقل حل النزاعات أكثر فعالية في حث الأطراف المعادية على تغيير منظوراتها وحل القضايا والموافقة على إخماد النزاع، من الوسائل التي تستخدم العنف.

على المدى القصير والطويل، تعتبر المقاربات التي تستخدم العنف أعلى كلفةً وأكثر إيقاعاً للضرر على الأطراف المتنازعة من تلك التي لا تستخدم العنف (اللاعنفية). فالوسائل اللاعنفية تتيح المجال للأطراف المتنازعة بأن تبني وتُنّمي علاقات وروابط أكثر إنتاجية من تلك التي يجيء بها استخدام العنف. وبينما يؤمن معظم العاملين في بناء السلام وحل النزاعات من مهنيين وعلماء بأن الوسائل اللاعنفية تحمل معها سيادة أخلاقية على وسائل العنف، لا يستثني جميع أنصار السلام الاستخدام المحدود والمشروط للقوة (العنف) في حل بعض أنواع النزاعات.

التعاون من أجل حل الاختلافات

هناك فرضية أخرى تقول بأن الاختلافات في القيم والمصالح والحاجات يمكن حلّها بطريقة مشتركة وتعاونية. وتولّد العلاقات التعاونية طاقات وإمكانيات تمكّنها من التغلب على الاختلافات عندما لا تنغمس الأطراف المختلفة أو تحدّد نفسها مسبقاً بنتيجة ربح وخسارة. وتضم الأطراف المختلفة جهودها من أجل حل المشاكل بإرادة تهدف إلى مناقشة الاختلافات بدلاً من أن تتنافس كل على حدة من أجل تحقيق مصالحها وإنكار مصالح الطرف الآخر. ولكن، ومن أجل أن يأخذ التعاون مجراه، يتوجب على الأطراف المختلفة أن تمتلك فهماً أساسياً للقضايا التي يدور حولها الخلاف، وإرادة بمعرفة المنظور الذي يحمله الطرف الآخر. لذلك يتم تكريس جهد كبير في عمليات حل النزاعات من أجل تصويب الأفكار الخاطئة وكسر القوالب السلبية الجامدة وإعادة تصوير العدو بصورة إنسانية. وعندما تبتعد الأفكار عن حالة العداء والكراهية وتتحول إلى الثقة والرغبة في التعاون، يصبح حل القضايا الأساسية أكثر إمكانية.

الناس ليسوا مشاكل

هذه الفرضية التقليدية القائلة بأن الناس ليسوا مشاكل (فيشر ويوري 1981) تقف في أساس التفاوض والتوسط، وغيرهما من مقاربات حل النزاعات. ويركز العاملون في هذا الحقل على المشكلة (اختلاف القيم والمصالح والأهداف والحاجات) ويحترمون الناس كأفراد. كما يعيدون تأطير المشكلة على أساس كونها هَمّاً متبادلاً ومشتركاً، على جميع الأطراف أن تسعى معاً لمعالجته، ضمن احترام أصيل للأشخاص ولحقوق جميع الأطراف المعنية. ومن خلال حمايته للشخص، يتجنب المفاوض أو الوسيط أي إهانات وأي احتياج للتعامل مع الأضرار الفردية. ويفترض العامل في هذا الحقل سهولة حل المشكلة عندما تعيد الأطراف توجيه اهتمامها وطاقتها نحو القضايا، وتتجنب الصفات الشخصية أو الجماعية للأطراف المنخرطة في الحل. ويهدف النزاع في جوهره إلى تعزيز وحماية الكرامة الإنسانية وتلبية الحاجات الإنسانية الأساسية (بيرتون 1990).

الاتصال كوسيلة لتغيير المنظور

رغم انخراط الأطراف المعنية في جدال حول توزيع أو إعادة توزيع الموارد المادية، تبقى هناك ضرورة أساسية لتغيير منظوراتهم وبالتالي أنماط اتصالاتهم من أجل حل القضية. فالاتصالات تعتبر قناة رئيسة يمكن من خلالها اكتشاف المشاعر والمنظورات السلبية، ومن ثم إصلاحها أو تعديلها بين الأطراف المعنية. ومن أجل إحداث هذه التغييرات، يجب اتباع وسائل اتصال فعالة (الإصغاء النشط، إعادة تركيب العبارات، تفهم عواطف الطرف الآخر.. الخ)، بغض النظر عن طبيعة النزاع ونوعيته. مثل هذه العملية تتطلب تكوين بيئة من الأمان والثقة والرغبة في تجشم المخاطر في التحرك نحو حل النزاع.

وعندما يتخذ العاملون في حل النزاعات موقفاً أصيلاً عبر الإصغاء النشط دون إصدار الأحكام، وعبر السماح للناس بأن يرووا قصصهم وأن يصفوا معاناتهم

وآلامهم، يصبح بإمكان الأشخاص والجماعات المنخرطة في النزاعات أن يغيروا مواقفهم. وسواء كان هذا التغيير عميقاً أم مؤقتاً، فإنه لن يحدث أي تغيير في المواقع ما لم يتم تغيير المنظورات والمفاهيم عبر الاتصالات.

حل المشاكل بالطرق التعاونية والخلّاقة

يستند حل النزاع إلى أساس أولي هو العمل التعاوني من أجل حل المشاكل. وهو عمل يطمح إلى تحريك الأطراف ذات الاختلافات الحقيقية والمعقولة نحو حلول مشتركة ومقبولة. وبمساعدة طرف ثالث أو بدون مساعدته، يفترض هذا العمل وجود قدرة لدى الأطراف المعنية على حل مشاكلها الخاصة وعلى إيجاد الحلول المرضية للقضايا العالقة. وتتطلب أي عملية فعالة لحل النزاعات وجود اتصال وإرادة أساسية من جانب الأطراف المتنازعة لمواجهة خصومهم أو مواجهة الآخرين ومعالجة المشاكل بشكل مشترك والسعي لإيجاد مختلف الطرق من أجل تلبية احتياجاتهم ومصالحهم أو رغباتهم. والقدرة على الخلق والإبداع في حل النزاعات تتيح للأطراف المتنازعة ترك مواقعهم المريحة الآمنة والتحرك مع معارضيهم لاستكشاف خيارات جديدة.

بناء علاقات مستدامة

لا يمكن الوصول إلى علاقة مستدامة إلا عندما تقوم الأطراف المتنازعة بمصالحة تاريخها السابق وإدراك خلافاتها الحالية والاتفاق على رؤية مستقبلية للحفاظ على العلاقة. واستدامة التسويات في حل الخلافات تتطلب من هذا الحل أو الحلول توفير آليات للأطراف المتنازعة من أجل حل خلافاتهم ونزاعاتهم المستقبلية بشكل سلمي عبر مفاوضات واتفاقيات متبادلة. وحين يتم إصلاح العلاقة الممزقة، تبرز أنواع جديدة من العلاقات بين الأطراف، تقوم على أساس الاحترام لحقوق الأفراد والجماعات وإدراك استقلالية الروابط التي تربط بينهم. مثل هذا الأمر يضمن عدم تصعيد أي خلافات في المستقبل إلى درجة النزاع المسلح، كما يضمن حل هذه النزاعات بطرق ترضي الطرفين. ويتطلب الأمر من أجل الوصول إلى هذا، اهتماماً

بقضايا العدل والتعامل بفعالية مع المظالم الحقيقية والتاريخية، وهي أمور تعد جوهرية من أجل إنجاح أي عملية سلمية.

إيجاد عناصر تغيير

تفترض عمليات بناء السلام بأن التغيير في الناس والعلاقات والأنظمة، هو شيء ممكن وضروري من أجل حل النزاعات، لذلك يعتبر تجهيز المتنازعين ليصبحوا عناصر تغيير، مبدأً مركزياً في هذا الحقل. وتهدف ورشات العمل التي تقام للتدريب على صنع السلام وحل المشاكل، إلى إيجاد عناصر تغيير يمكنها حمل الرسالة حين تعود إلى مجتمعاتها وأوطانها لتصبح محفزاً للتغيير وينطوي الخطاب الرئيسي في أطر التغيير الاجتماعي والسياسي ضمن عملية بناء السلام (خاصة في النماذج الأميركية الشمالية) على الرؤية والتحضير لأنواع التغيير التدريجية مقابل التغييرات الثورية المفاجئة في قيادات النخبة أو الحركات الجماهيرية. وغالباً ما يتم استثناء المقاومة السلمية وغيرها من الفعاليات الاجتماعية من برامج تدريب وتعليم حل النزاعات وصنع السلام.

تحويل علاقات القوة

تهدف عمليات بناء السلام وحل النزاعات إلى أحداث تغيير في علاقات القوة الموجودة داخل المجتمع أو بين الأطراف المتنازعة من خلال تحويل التحركات المدمرة التي يقف وراءها مبدأ هيمنة القوة إلى علاقات بناءة متوازنة تعزز وضع جميع الأطراف (كيرل 1971؛ لاووكورميك 1978) ومن خلال تحويل القوة التعسفية أيضاً (عبر العقيدة أو الإكراه أو السيطرة على الموارد... الخ) إلى قوة مشتركة بناءة ومستخدمة بشكل صحيح. وتعتبر مسألة منح الصوت إلى الذين لا صوت لهم، بالإضافة إلى تقوية المهمشين، مبدأً مركزياً في عملية بناء السلام.

إن تعزيز المهمشين والمحرومين ومنح الصوت للذين لا صوت لهم، هما أمران يمكنهما إطلاق طاقة هائلة للتغيير والتحول من طرف الأفراد أو المجتمعات كما أنهما أساسيان في استدامة السلام.

التحرك والتنمية

تكمن أهمية التغيير المنهجي الأساسي المتكامل الذي يأتي نتيجة لعملية حل النزاع في اكتساب إدراك أكبر في حقل بناء السلام، خاصة ضمن سياق التنمية الدولية.

فالتحركات والتغييرات الملموسة في واقع الأطراف المتنازعة يضمن استدامة العملية ونتائجها. وفي العديد من الأوضاع، تشكل التنمية الاقتصادية وتحسين الأحوال المعيشية أموراً أساسية قد تتطلب مختلف أنواع التأييد والنشاط الاجتماعي من أجل تحقيقها. مثل هذه النتائج تؤمن سير عمليات حل النزاعات كجزء أساسي من عمليات التغيير الأكبر في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمع، مقابل أن تصبح فقط آليات للحفاظ على الوضع الراهن وعلى علاقات النفوذ والقوة الحالية.

العناصر الإيجابية في ممارسات حل النزاعات

بينما يتم تصميم جميع الفرضيات والمبادئ الجوهرية المتعلقة ببناء السلام من أجل إحداث تغيير إيجابي وبنّاء في الأنظمة المتنازعة، يلقي هذا الفصل الضوء على نواحي الممارسة في بناء السلام التي تتشكل عليها أسس صنع السلام أو توجد حراكاً آملاً، ومتعاطفاً وتعاونياً في العلاقات داخل الأطراف المتنازعة مما يمنح بدوره حياةً لعملية بناء السلام برّمتها.

أحد المبادئ الرائدة في ممارسة الوساطة هي على سبيل المثال، تحديد القواسم المشتركة بين الأطراف المتنازعة وبناء الاتفاقيات الصغيرة عليها من أجل أن تشكل أساساً لتوقيع اتفاقيات وتسويات أكبر. ويتطلب هذا المبدأ غالباً من الوسيط أن يسلط الضوء حتى على أصغر إنجازات العملية، على سبيل المثال: أن الأطراف تجلس مع بعضها البعض وحتى اللحظة الأخيرة في جو من التعاون، ودون تبادل أي إهانات، أو أنها تتوصل إلى اتفاق على زمن ومكان عقد الاجتماعات وعلى جدول أعمال الاجتماع القادم.

وعلى وجه مشابه، يسعى صانعو السلام إلى تحديد فترات من التعاون وسط الصعيد الأوسع من علاقات النزاع وتضخيم حجم هذه الفترات من أجل إظهار إمكانية العلاقة الإيجابية بين الأطراف المتنازعة وغرس الأمل والدافع نحو التغيير. إن الاحتفاء بفترات الترابط والتعاون، رغم كونها قليلة العدد أو ضئيلة الحجم إلا أن بإمكانها مع ذلك أن تكون فعالة جداً في إطلاق طاقة إيجابية بين الأطراف المتنازعة وتعزيز عملية بناء السلام. إحدى هذه اللحظات من التعاون التي تمّ تحديدها والتي شكلت إلهاماً للآخرين، جاءت من حالة المرأة الإسرائيلية داليا لانداو التي ورثت منزلاً في مدينة الرملة يعود بناؤه بالأصل إلى عائلة فلسطينية كانت قد هُجِّرت قسراً من منزلها خلال حرب عام 1948. فقد قامت هذه المرأة بالاشتراك مع زوجها الحاجام حزقيال لانداو وبالتضامن مع أفراد من عائلة «الخيري»، المالكين الأصليين للمنزل بتخصيص المنزل للقيام بنشاطات تعليمية وسلمية بين العرب واليهود، وأطلقوا عليه اسم المنزل المفتوح (جنتايل، 2002).

ممارسات أخرى مثل إعادة بعث التعاطف مع الآخرين وإظهار وجههم الإنساني، تعتبر أعمالاً مركزية في بناء السلام. وتنطوي هذه العملية ليس على إدراك الوجه الإنساني لكل شخص فحسب، بل على المساواة الفطرية بين الناس جميعهم والمساهمة المحتملة التي يمكن أن يقدمها الأفراد المختلفون والجماعات المختلفة في تعزيز وإغناء التجربة الإنسانية. كذلك تعزز هذه الممارسة إيجاد حسّ بالترابط الإنساني وباعتماد الخصوم على بعضهم البعض، وتواجههم باحتمال حدوث عواقب ضارة للجميع إذا استمروا في إيقاع الأذى ببعضهم البعض.

كذلك يعتبر استخدام الروايات لنقل المعاني الشاملة وتغذية الرعاية والترابط بين الأطراف، أداة أساسية في عملية بناء السلام من اجل إظهار الإنسانية في الآخرين ورفع المعاناة. ويعمل صُنّاع السلام خلال التدريب والتوسط وتسهيل اللقاءات وورشات العمل المتعلقة ببناء السلام على إفساح المجال أمام رواية القصص، سواء كانت قصصاً مؤلمة أو قصصاً تطفح بالأمل والتفاعل الإيجابي (دوريا وبوتس 1993).

ومثل هذه القصص إذا رويت بصدق وتعاطف وحنان، تستطيع تغيير المفاهيم وغرس الأمل بإمكانية التغيير وبجدارة العمل من أجل إحداث ذلك التغيير، إضافة إلى إلهام المشاركين ودفعهم لاتخاذ إجراءات ملموسة من أجل تحويل حقائق النزاع. وسوف نشاهد كذلك في هذا الكتاب كيف استطاع أحد مشاريع رواية القصص أن يبدد الشعور بالعجز ويطلق طاقة إيجابية ويشير إلى طريق العمل الملموس الذي يجب القيام به من قبل الشباب الأميركي لتفهم العالم العربي إثر هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية (انظر الملحق للفصل 6).

كذلك، يستخدم صنّاع السلام الطقوس التي تحدث ظواهر التفاعل التعاطفي المفهوم من أجل غرس المعنى والحياة وأشكال جديدة من التجارب المشتركة في نظام مُخْتلّ للعلاقات. وتسمح الطقوس للناس بالاتصال دون استخدام الكلمات أو العقائد، عبر روحيتها وعبر الترابط الإنساني العالمي وهي بهذا تشكل دعامات قوية لإعادة الاعتبار الإنساني للخصم ولرسم صور لعلاقة إيجابية. حتى الطقوس البسيطة مثل الولائم المشتركة والموسيقى والرقص والرياضة، يمكن استخدامها من قبل صانعي السلام للتأثير على اللقاءات بين الإثنيات (انظر شيرش [2001] حول استخدام الطقوس بين الشباب التركي واليوناني في قبرص: وأبو النمر (1999) حول طقوس الحوار الإسرائيلي الفلسطيني).

معظم عمليات بناء السلام تفترض أن «العلاج هو في الألم» وأنه يجب إعطاء الفرصة للمتنازعين لكي يستذكروا معاناتهم وينفسوا عن أوجاعهم وعن مشاعرهم السلبية معاً في جو آمن وبيئة آمنة من أجل أن يصلوا إلى تفهم وإعادة صياغة ذكرياتهم بشكل مختلف. مثل هذه التجربة تعتبر مرهقة وتستنزف طاقة المشاركين فيها وقد تؤدي إلى إغراقهم بإحساس من العجز وضخامة المشكلة. وغالباً ما يشعر المشاركون بمدى بعدهم وإحباطهم نتيجة هذه المرحلة من العملية (انظر أبو النمر 2001). ولكي يتم الالتفاف على هذه التأثيرات، يتوجب على صانعي السلام سواء مباشرة بعد هذه التجربة أو تزامناً معها، إدخال نشاطات تتعلق ببناء الثقة وفرض علاقات

إيجابية عبر الألعاب أو الفكاهة أو الفن أو الموسيقى أو غيرها من نشاطات التسلية وتخفيف عبء التجارب.

كذلك، تعمل عمليات بناء السلام على غرس الأمل ومساعدة الأطراف المتنازعة على وضع رؤية جديدة لمستقبل العلاقات. وقد استخدم منهج اليز بولدنغ لتصور عالم بدون عنف (انظر الفصل 4)، على سبيل المثال في إقليم أوسولوتان بالسلفادور من أجل مساعدة الخصوم السابقين في الحرب الأهلية التي اندلعت في تلك البلاد على إيجاد رؤية مشتركة لمجتمع مسالم في الإقليم، وتشمل تفاصيل كاملة متعلقة بأدوار ووظائف آليات مجتمع الدولة والمجتمع المدني والشرطة والقضاء والطقوس التقليدية الحضارية والقطاع المدني في تعزيز السلام.

وغالباً ما يقوم العاملون في تسهيل إقامة الحوارات واللقاءات بين الإثنيات، بتصميم عملية تدخّل تحمل معها مهمة للأطراف المتنازعة لا تمت بصلة مباشرة إلى القضايا المتنازع عليها. ففي إيرلندا الشمالية، أو في إسرائيل وفلسطين على سبيل المثال، تعامل المعلمون والطلاب من كلتا الجهتين المتنازعتين من أجل إيجاد منهاج للدراسات البيئية، يمكنهم استخدامه لتدريس طلابهم كل على حدة. وقد أعطى إنجاز هذه المهمة لكلا الطرفين فرصة لبناء الثقة وخبرة النجاح في القيام بجهد مشترك.

الخلاصة

يرتبط بناء السلام بإحداث تغيير في العلاقات الإنسانية والمؤسسات، وكما رأينا من الأمثلة التي مرت سابقاً، فإن العديد من وسائل ومقاربات بناء السلام تبحث عن القوى الإيجابية المانحة للحياة داخل كل نزاع من أجل تمكين الناس العالقين وسط دائرة العنف من رؤية الاحتمالات الموجودة في مستقبل مختلف. وتقوم هذه المقاربات على فرضيات بوجود مصادر للطاقة وإمكانيات للإبداع والتراحم والأمل والتخيل والتحول داخل النظام الإنساني – الناس، العلاقات، الجماعات، والمجتمعات – والتي إذا ما تم إيقاظها، يمكنها أن تشكل قوة محركة ودافعة للتغيير. وفي الحقيقة يعتبر تعلم

وممارسة طرق تحديد وإيجاد هذه المصادر الإيجابية كمعبر نحو المستقبل، أحد الأشياء التي تميز صانعي السلام عن باقي الأشخاص الذين يختبرون النزاعات.

نموذجياً، يهدف صانعو السلام إلى تعزيز قدرة المجتمعات، أساساً من خلال تكريس طاقة هائلة للمصادقة على المعاناة والمظالم وإدراكها وإعلانها، آملين أن يشكل هذا حافزاً للناس لكي يتمكنوا من رؤية البدائل السلمية المحتملة. والعديد من العاملين منا في هذا الحقل ما زالوا يضخمون قضايا المعاناة والذبح في عمليات التدخل والحاجة إلى إظهار العواقب المدمرة للعنف أمام المشاركين. وتنطلق فرضيتنا من أن الناس حين يدركون الحقيقة المرعبة للحرب، يعمدون لكونهم بشراً عقلانيين إلى تجنب العنف واختيار البدائل السلمية.

وفي نفس الوقت، يفقد الناس الذين يعيشون وسط نزاع مستمر أي أمل في مستقبل إيجابي، والأنكى من ذلك، أنهم يفقدون الثقة في قدرتهم كأفراد أو كمجموعات على الإسهام في التغيير الإيجابي. ولعل هذا يدعونا كصانعي سلام إلى تحفيز الناس والجماعات ومساعدتهم على إيجاد القوة والشجاعة والثقة من أجل التغيير. ومثل هذه الأمور يمكن العثور عليها بشكل أفضل إذا ما تشارك الناس في معرفة ما يطمحون إليه في الحقيقة وما هو شكل أحلامهم بالسلام، كذلك إذا تعلموا كيف ينظرون إلى أنفسهم كعناصر للتغيير الإيجابي بدلاً من كونهم ضحايا لا حول لهم ولا قوة.

وأخيراً، تبقى الرغبة الأساسية الذي تميز الأفراد والجماعات المجتمعة من أجل صنع السلام هي تحسين حياتهم كأفراد ومساعدة مجتمعاتهم على التقدم إلى الأمام عبر تخفيف العنف وحل النزاعات. وهذه الرابطة المفهومة ضمنياً والتي تجمع الناس من الأطراف المتعارضة للالتقاء لأيام قليلة (حتى لو كان الارتباط مؤقتاً ولأيام قليلة) تعتبر قوة إيجابية شديدة رغم تبخيس قدرها وقلة استخدامها في العديد من عمليات بناء السلام، ولعل الاختيار البنّاء لإيجاد رغبة عميقة في تحقيق علاقات ومستقبل أفضل، تظل هي التحدي الرئيسي في ميدان صنع السلام.

ويشدد هذا الفصل على حقيقة أن صنّاع السلام يمكنهم أن يكونوا أكثر فعالية في إحداث التغيير، إذا استطاعوا دمج العناصر والعمليات والمقاربات الإيجابية ضمن ممارساتهم الحالية. لأن في مثل هذه الأنواع من المقاربات، يمكن للأطراف المتنازعة أن تشعر بحريتها وقدرتها على الارتباط ببعضها البعض وإدراك إمكانية قيامها بدور في تغيير النظام. والتحدي الذي يواجه صنّاع السلام يجب أن يتناغم باستمرار مع العناصر الإيجابية الموجودة ضمن سياق عملياتهم على أن يستمروا في تقييمها وتفعيلها. كذلك، وبعيداً عن هذه المقاربة التدريجية، يحتاج الأمر إلى وضع إطار للمقاربات الإيجابية في صنع السلام، وما يبقى هو حاجة لتطوير الاستراتيجيات والوسائل من أجل تحقيق دمج منهجي وشمولي لمبادئ وممارسات التغيير الإيجابي في جميع نواحي عملية بناء السلام، بما فيها عمليات التدريب والتعليم. وعلى طريق تحقيق هذا الهدف، يضع هذا الكتاب التزامه.

ملاحظات :

1. The term *peacebuilding* is used here as an umbrella term that includes the full spectrum of conflict resolution and transformation frameworks and approaches, including negotiation, conciliation, mediation, facilitation, alternative dispute resolution, problem-solving workshops, education and training, advocacy, and nonviolent resistance, among others.
2. See, for example, the *Global Directory of Peace Studies and Conflict Resolution Programs* of the Consortium on Peace Research, Education, and Development (O'Leary 2000).
3. On the development of the conflict resolution field in the United States, see Scimecca (1991).
4. For a full review of the historical development of the conflict resolution field, including the problem-solving workshop, see Kriesberg (1997) and Fisher (1997).
5. On the development of the religious and interreligious sector of the peace-building field, see Sampson (1997), Appleby (2000), and Smock (2002).
6. For a brief survey of positive, strengths-based approaches in psychology, criminal justice, social work, and in the treatment of trauma survivors, see chapter sixteen.
7. Some of the assumptions discussed in this section were identified in Abu-Nimer (1999).
8. In various surveys of Israelis and Palestinians, for example, on the issue of Jerusalem, which is one of the most difficult obstacles for peace between these two groups, the majority of people agreed that there were many possible solutions. At least thirty-two options were identified by Jerome Segal (1989) to resolve the status of Jerusalem. None of these options could be pursued, however, without a minimal degree of trust and willingness to cooperate on the part of the parties.

مراجع :

Abu-Nimer, Mohammed. 1999. *Dialogue, Conflict Resolution, and Change: ArabJewish Encounters in Israel.* Albany, N.Y.: State University of New York Press.

____ 2001. "Education for Coexistence in Israel: Potential and Challenges." In *Reconciliation, Justice, and Coexistence: Theory and Practice.* Mohammed AbuNimer, ed. Lanham, Md.: Lexington Books.

Appleby, R. Scott. 2000. *The Ambivalence of the Sacred.* Lanham, Md.: Rowman and Littlefield.

Burton, John. 1990. *Conflict Resolution and Provention.* New York: St. Martin's Press.

Curle, Adam. 1971. *Making Peace.* London: Tavistock Press.

Diamond, Louise, and John McDonald. 1996. *Multi-Track Diplomacy: A Systems Approach to Peace.* West Hartford, Conn.: Kumarian Press.

Duryea, Michelle LeBaron, and Jim Potts. 1993. "Story and Legend: Powerful Tools for Conflict Resolution." *Mediation Quarterly* 10:4, pp. 387—395.

Fisher, Roger, and William Ury. 1981. *Getting to Yes: Negotiating Agreement without Giving In.* New York: Penguin.

Fisher, RonaldJ. 1997. *Interactive Conflict Resolution.* Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press.

Gentile, Derek. 2002. "Jew, Arabs Working to Promote Peace." *Berkshire Eagle* (July 15), as reprinted at http://www.openhouse.org.il!article2s.shtml.

Kriesberg, Louis. 1997. "The Development of the Conflict Resolution Field." In *Peacemaking in International Conflict: Methods & Techniques.* I. William Zartman and J. Lewis Rasmussen, eds. Washington, D.C.: U.S. Institute of Peace Press.

Laue, James, and Gerald Cormick. 1978. "The Ethics of Intervention in Community Disputes." In *The Ethics of Social Intervention.* Gordon Bermant, Herbert C. Kelman, and Donald P Warwick, eds. Washington, D.C.: Halsted Press.

O'Leary, Daniel. 2000. *Global Directory of Peace Studies and Conflict Resolution Programs.* Fairfax, Va.: Consortium on Peace Research, Education, and Development.

Sampson, Cynthia. 1997. "Religion and Peacebuilding." In *Peacemaking in International Conflict: Methods & Techniques.* I. William Zartman and J. Lewis Rasmussen, eds. Washington, D.C.: U.S. Institute of Peace Press.

Schirch, Lisa. 2001. "Ritual Reconciliation: Transforming Identity/Refraining Conflict." In *Reconciliation, Justice, and Coexistence: Theory and Practice.* Mohammed Abu-Nimer, ed. Lanham, Md.: Lexington Books.

Scimecca, Joseph A. 1991. "Conflict Resolution in the United States: The Emergence of a Profession?" In *Conflict Resolution: Cross-Cultural Perspectives.*
Kevin Avruch, Peter W Black, and Joseph A. Scimecca, eds. Westport, Conn.: Greenwood Press.

Segal, Jerome M. 1989. *Creating the Palestinian State.* Chicago: Lawrence Hill Books.

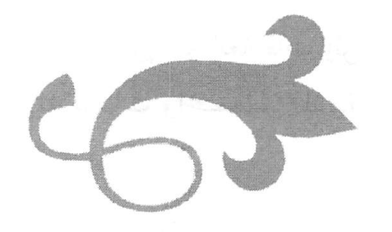
Smock, David, ed. 2002. *Interfaith Dialogue and Peacebuilding.* Washington, D.C.:
U.S. Institute of Peace Press.



السلام هو حالة ذهنية وطريق للتحرك. إنه فكرة، وهدف وتجربة وطريق. والسلام هو شيء مثالي، ملموس وغير محسوس، معقد وبسيط وهادئ ومثير. إنه شيء شخصي وسياسي، روحي وعملي، محلي ودولي. إنه عمل ونتيجة. وفوق كل شيء إنه طريقة للحياة.

لويز دايموند





الفصل الثاني

البحث التقديري في المؤسسات والتنمية الدولية

دعوة للمشاركة والتعلم من خلال الميدان

ديانا ويتنين كلوديا ليبلير، وديفيد كوبر رايدر

يقدم هذا الفصل نظرة شاملة إلى نظرية وممارسة البحث التقديري الذي يعتبر مقاربة للتغيير الإيجابي تستخدم للإبداع المؤسسي وبناء القدرات والتخطيط الاستراتيجي والشراكة وبناء شبكات الأعمال أو ائتلافاتها، وتستخدم كذلك من قبل هيئات التنمية الدولية والمنظمات العاملة في التغيير الاجتماعي بكافة أنواعها.

معززاً بمبدأ الشمولية، يضم البحث التقديري أناساً من كل فئة معنية بالارتباط بالجوهر الإيجابي لبناء قدرات نظام ما، وتعزيز قوته وموجوداته من أجل إيجاد حلم مشترك للمستقبل وحشد الطاقات الخلاّقة في سبيل تحقيقه. وبعد أن يقدم تعريفاً للبحث التقديري، يأخذ هذا الفصل قارئه في رحلة عبر دائرة المراحل الأربع 4 D Cycle (الاكتشاف، الحلم، التخطيط والتسليم) يعرض فيها أمثلة عن العمل الذي يتم إنجازه في كل مرحلة. ثم يقدم وصفاً لقمة البحث التقديري وهي عملية المشاركة الكاملة بكل طاقاتها ويختتم الفصل جولته باقتراح خمسة مجالات يمكن فيها استخدام البحث التقديري في بناء السلام.

*

لا يوجد في قلوبنا وأذهاننا مسعىً أكثر استحقاقاً من بناء السلام. فمن رعايتنا للسلام الداخلي فينا إلى إيجاد المجتمعات السلمية وإلى حل النزاعات بين مختلف

الأشخاص والجماعات والأمم، إلى رأب الصدع ولأم الجروح وإقامة العلاقات إثر أحداث العنف، يقف بناء السلام في جوهر كفاءة إقامة المؤسسات والمجتمعات المدنية المستدامة، إضافة إلى المجتمعات الدولية القابلة للحياة.

جميع المؤسسات والمجتمعات لديها الوسائل لحل الخلافات والحفاظ على التوافق والانسجام بين أعضائها. وكما توجد بعض المقاربات التي تعتبر سلمية وبعضها الآخر الذي لا يعتبر كذلك، توجد وسائل تمنح الحياة وأخرى تنتزعها. وكما توجد مقاربات تحررية ومقاربات قمعية، توجد كذلك وسائل تعزز العلاقات ووسائل تقطعها، ووسائل تعمل لما هو أفضل للإنسانية وأخرى تمحو الإمكانات الإنسانية.

عندما ننظر اليوم إلى المقاربات البارزة في حل النزاعات، نجد العديد من الحوارات المغلقة – المطمورة وسط الاجتماعات السرية أو العالقة داخل أبعاد النزاعات دون أن تشمل الناس بأثرها. مثل هذه العمليات التي تجري على المستويات العليا تملك قوة وضعفاً في نفس الوقت وهي تلعب دورها على المسرح العالمي هذه الأيام. وهذا النوع من العمليات السلمية يعتمد في نهضته وسقوطه على قيادات من المستويات العليا ويفترض ما يلي: 1) إمكانية تحديد القيادات التي تمثله. 2) على هذه القيادات أن تتحدث عن القضايا المسببة للنزاع وأن تناصرها من منظور الفئة التي تمثلها. 3) تملك هذه القيادات القوة أو على الأقل النفوذ لاستخدام دعم الفئات التي تمثلها من أجل تطبيق الاتفاقيات التي يتم التوصل إليها (ليديراخ، 1997) ولكن ماذا يحدث لو أن الناس لم تعد تتبع البنى السلطوية الموحّدة؟ ماذا يحدث لو أن القيادات العليا مثل ياسر عرفات وإرئيل شارون لم يعودا يملكان السلطة أو النفوذ لإخضاع مناصريهم (مثلاً حماس في الجانب الفلسطيني والأجنحة اليمينية المتطرفة في إسرائيل). إذا لم يستطع منهج العمل التقطيري بالتدرج نحو السلام، كيف يمكننا إذاً بناء السلام؟

إن الاقتراح الذي سنقرّه في هذا الفصل هو أنه من أجل أن تكون هناك فرص لنجاح عملية بناء السلام على المدى الطويل، يتوجب أن نكون منفتحين أمام أي

شخص يملك رهاناً جدياً فيه مثل القيادات السياسية، المجتمعات الدينية، قطاع الأعمال، المربّين، الفنانين، الشباب، أفراد المجتمع الدولي، الإعلام، الضحايا والمعتدين وغيرهم آخرون. ومع لديراخ وغيره، نجادل هنا من أجل وضع مقاربة لبناء السلام ذات نظام موسع، تشمل معظم القطاعات المعنية من المجتمع، وعلى المستوى الأوسع، يتضمن هذا الاقتراح التكافؤ بين الوسائل والغايات في بناء السلام إلى درجة التساوي. فإذا أردنا تحقيق تغيير شامل في النظام، نحتاج إلى وسائل نظامية شاملة، وإذا أردنا تحقيق سلام مستدام، نحتاج إلى مقاربات إيجابية من أجل بنائه.

والهدف من هذا الفصل هو التعريف بنظرية وممارسة البحث التقديري والبدء ببناء جسر من ميدان إدارة الأعمال والقيادة حيث وُلد البحث التقديري وترك تأثيراً هائلاً، وكذلك من عالم التنمية الدولية حيث تم استخدامه بنجاح من بين وسائل أخرى، من قبل مبادرة الإبداع الدولي في الإدارة وعبر عملها مع المنظمات غير الحكومية[1] في ميدان حل النزاعات الدولية وبناء السلام.

في القسم الأول من الفصل، نتشارك في نظرة شاملة وموجزة إلى البحث التقديري تشمل تعريفه: ما هو وأين حقق نجاحاته في مجالات التنمية الدولية والتخطيط الاستراتيجي في الأعمال وفي مجالات أخرى لمؤسسات التغيير الاجتماعي. وفي القسم الثاني من الفصل، نصطحب القارئ عبر أربع مراحل من عمليات البحث التقديري أو ما نسميها 4-D cycle – وهي الاكتشاف، والحلم، والتخطيط والتسليم – عارضين أمثلة تطبّق في كل مرحلة. أما في القسم الثالث فندخل واحدة من أقوى الطرق المتبعة لاستخدام البحث التقديري ضمن نظام، وهذه الطريقة هي قمة البحث التقديري وهي منهجية تطبق على فئة واسعة وتشمل جميع المعنيين بربط الجوهر الإيجابي لماضي وحاضر النظام إلى رؤيا وتخطيط يعملان على تغييره. وفي القسم الأخير نقدم خمس طرق، نعتقد أن تبني وتطبيق البحث التقديري من خلالها يمكن أن يخدم مجال بناء السلام.

ما هو البحث التقديري

التقدير

1- تثمين: وهو العمل المتعلق بإدراك الأفضل في الناس أو في العالم حولنا، مؤكدين على قوى، ونجاحات وإمكانيات الماضي والحاضر من أجل رؤية الأشياء التي تمنح الحياة (الصحة والحيوية والإبداع) في الأنظمة الحية.

2- لزيادة قيمة الشيء. مثل: ارتفعت قيمة الاقتصاد. المرادفات: تثمين، تقدير، تكريم، إجلال.

البحث:

1- عملية الاستكشاف والاكتشاف.

2- طرح أسئلة من أجل رؤية إمكانيات واحتمالات جديدة.

المرادفات: اكتشاف، بحث، استكشاف منهجي ودراسة منهجية.

ويعتبر البحث التقديري فلسفة في التغيير الإيجابي ومنهجاً للمشاركة المرتفعة والتحول من خلال التعاون. ويقع في صلب البحث التقديري فهم أن الأنظمة الإنسانية تتحرك باتجاه ما تقوم بدراسته وتحليله ومناقشته باستمرار. لذلك يسمى البحث التقديري بنداء من أجل دراسة « الأسباب الجذرية للنجاح » بدلاً « من الأسباب الجذرية للفشل ». هو نداء من أجل إعادة تأطير تركيز الاهتمام من مخاطبة العجز، الذي ينطوي على جسم نامٍ من المفردات التي تنتجها المقاربات المتعلقة بالنقد والصعوبات إلى مخاطبة إيجابية تتعلق بالبحث الاجتماعي العلمي. هو أيضاً نقلة من التحقيق بالمشاكل، والآلام والمعاناة والفشل والانهيار والقتل إلى إبداء الفضول حول احتمالات الحياة، وعناصر النجاح الرئيسة، وتصور مستقبل مثالي، وأمل.

وكفلسفة للتغيير الإيجابي، يقترح البحث التقديري أن التغيير يحدث بسهولة أكثر عندما ينخرط الناس في البحث عن قوتهم ومواردهم وقدراتهم وأفضل

ممارساتهم ونجاحاتهم وآمالهم وأحلامهم ومُثُلهم – بكلمات أخرى عندما يبحثون، في الجوهر الإيجابي لتجاربهم المشتركة والحياتية. ويبدأ التغيير الإيجابي بالبحث والتحليل في الجوهر الإيجابي – في الموارد الأساسية التي تهب الحياة، وفي القدرات والقوى التي تعمل من أجل الخير – في قلب أي نظام إنساني.

لذلك نجد أن التعريف الأكثر شمولية للبحث التقديري هو:

البحث التعاوني لإيجاد الأفضل في الناس، وفي مؤسساتهم وفي العالم حولهم. ويشمل الاكتشاف المنهجي لكل ما يمنح الحياة لأي نظام عندما يكون في أفضل حالات كفاءته وقدرته ضمن المعاني الاقتصادية والبيئية والإنسانية. كذلك يشمل البحث التقديري فن وممارسة طرح الأسئلة التي تعزز قدرة النظام لرفع إمكانياته الإيجابية. وفي البحث التقديري، يفسح التدخل مجالاً للتخيل والإبداع بدلاً من الإنكار والانتقاد والتشخيص الحلزوني للاستكشاف والحلم والتخطيط. ويفترض البحث التقديري بأن كل نظام حي يملك اعتبارات غنية ومفتوحة وملهمة للإيجابيات. وعندما نربط هذا الجوهر الإيجابي للتغيير مباشرة بأي جدول أعمال للتغيير، تحدث تغييرات غير متوقعة، فجائية ومعبأة ديمقراطياً. (كوبر رايدر وويتني 1999، 10).

ولكن ماذا عن الصعوبات والآلام والمعاناة؟

هذا السؤال من أكثر الأسئلة التي يتكرر طرحها حول البحث التقديري « أليس إنكار الخطأ أمراً غير واقعي؟ » هكذا يتساءل الناس: أتطلب منا تجاهل الصعوبات أو التصرف على أساس أن المعاناة والعنف لا وجود لهما؟ لنكن واضحين: نحن لا نقول بإنكار أو تجاهل الصعوبات والآلام والمعاناة ولكننا نقول بأنك إذ أردت تحويل علاقة ما أو وضع ما أو منظمة أو مجتمع، فإن التركيز على عناصر القوة فيها أو فيه تكون أكثر فاعلية من التركيز على مشاكله. وعبر هذا الفصل، نعرض لكم قصصاً حول مؤسسات ومجتمعات استفادت من استخدام البحث التقديري من أجل تحويل انتباهها من المشاكل إلى الإمكانيات. ونحن نعمل في معظم الأحيان وسط ظروف

مشحونة بالقلق والتوتر والضغط، سواء كانت علاقات إدارة اتحادات، أو علاقات بين الأجناس والحضارات، أو مصالح متنافسة بين فئات متعددة ضمن نظام معين. مرة أخرى، عندما نحول انتباه الناس عما هو خطأ إلى من نحن وما هو الأفضل لنا، يتحول النزاع إلى تعاون.

ونحن هنا لا نلغي اعتبارات المشاكل والنزاعات والتوترات، ولكننا ببساطة لا نستخدمها كأسس للتحليل أو التحرك. نصغي لها عندما تظهر، ونصادق عليها كتجارب معاشة ونسعى لإعادة تأطيرها. على سبيل المثال، ضمن بيئة الشركات، تصبح مشكلة سرعة تدوير البضائع، تحقيقاً في بيئات العمل المتسارعة أو سؤالاً حول قدرة الاحتفاظ بالبضائع، وبذا يعاد توجيه تركيز التحليل. وتتحول مشكلة مصداقية الإدارة المتدنية، إلى تحقيق في فترات مصداقية الإدارة أو القيادة الملهمة. كما تصبح مشكلة التحرش الجنسي خلال العمل إلى سؤال حول علاقات العمل الإيجابية بين الجنسين، هذا التحويل البسيط في الانتباه يتيح للناس والمنظمات فرصة للارتفاع فوق الظروف أو تجاوز الظروف التي تواجدت فيها المشاكل في الأصل.

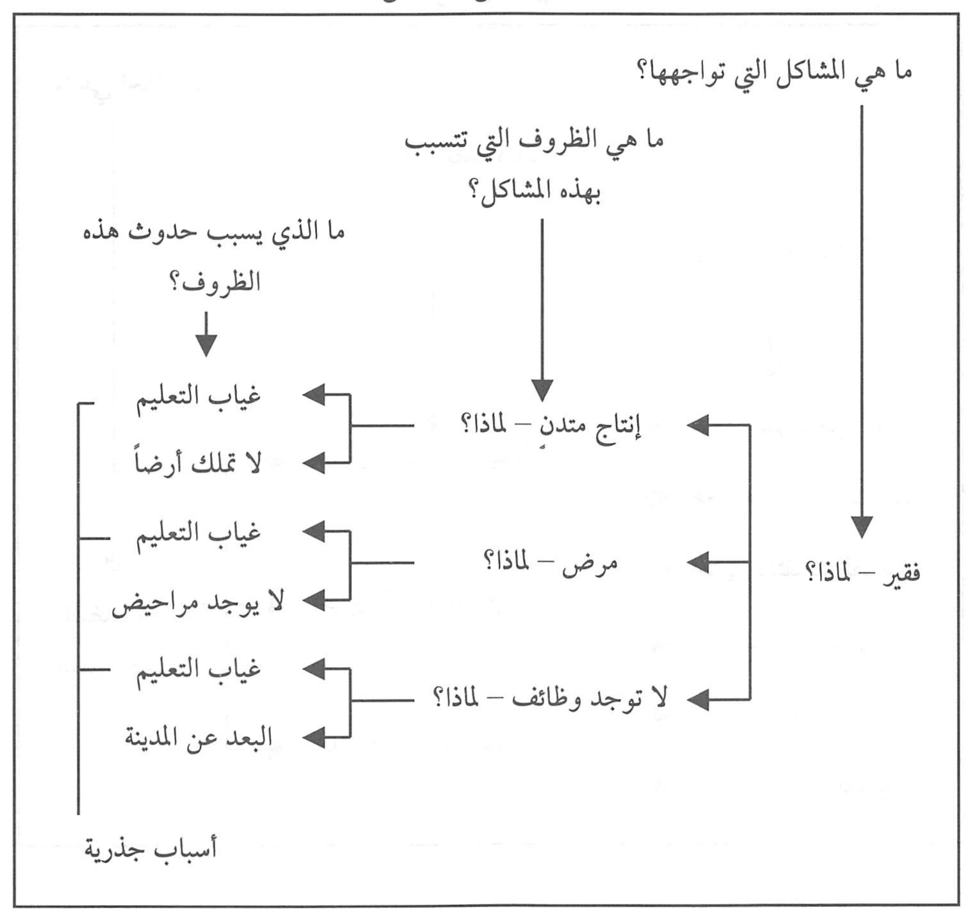
من حل المشاكل إلى الإمكانية

تاريخياً، ظل ميدان تنمية المجتمع يركز على تحديد المشكلة وحلها، وكانت مبادرات التنمية تبدأ بتحديد المشاكل وتنتهي إلى الحوار والتحليل حول ما الذي يحتاج إلى التغيير. وكان التركيز المؤسسي المركزي لهذا العمل هو « الأسباب الجذرية للفشل ». وتبين الصورة (1) مثلاً حول هذه المقاربة لحل المشكلة في التنمية بواسطة « شجرة حل المشاكل ».

أسهمت هذه المقاربة في عدد من أكثر خطط تنمية المجتمعات نجاحاً حول العالم. إلا أنه عندما تم تعريف مجموعة من موظفي التنمية في إفريقيا بهذه المقاربة، شعر هؤلاء بإمكانية وجود مقاربة أفضل منها. وعندما تم تعريفهم بالبحث التقديري، لاحظوا أن أي شجرة حل مشاكل نموذجية تأخذهم في دوائر دون أن تقودهم إلى فهم

صورة 1

شجرة حل المشاكل

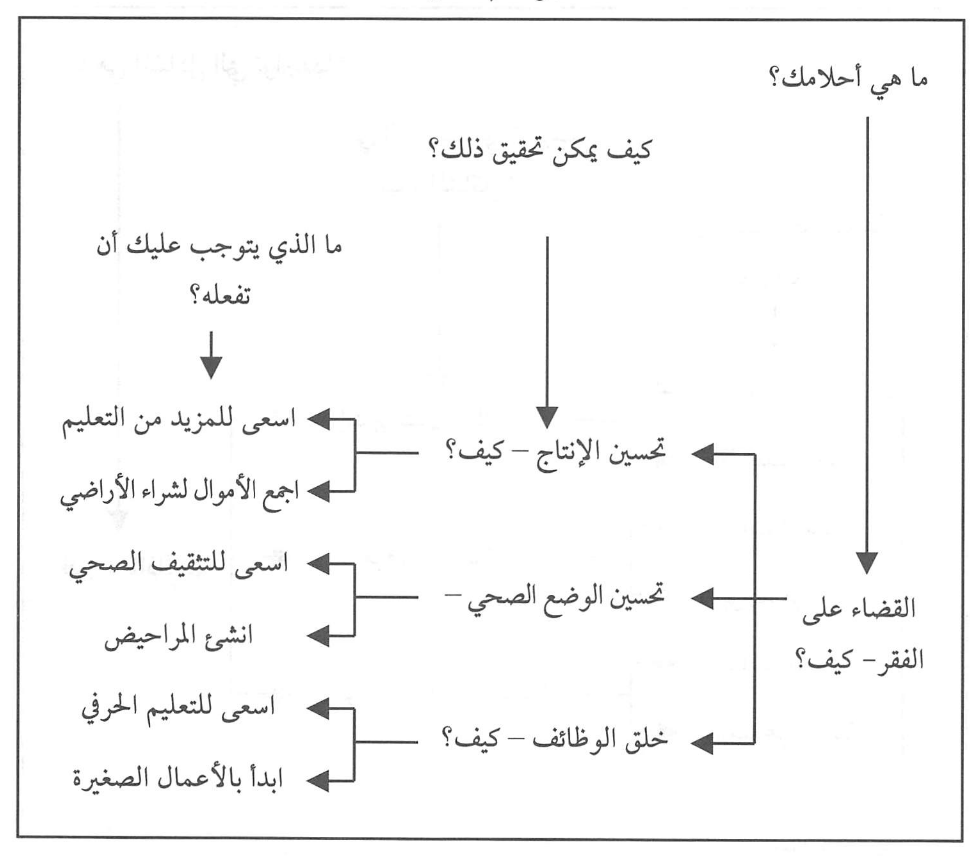


المصدر: CRWRC (1997، 86) تم إعادة طبعها بإذن من الناشر.

أو إجماع حول الإجراءات المحسوسة التي يتوجب اتخاذها. فقد اقترحت لهم شجرة حل المشاكل على سبيل المثال بأن غياب التعليم سببه الفقر الذي نتج عن قلة الوظائف والتي بدورها نتجت عن غياب التعليم. لذا، وبدلاً من ذلك، أوجدوا شجرة الإمكانيات (انظر الصورة رقم 2) التي نقلت التركيز من مشكلة إلى إمكانية وغير المعلومات والأفكار المنبثقة ودلّتهم إلى طريق التحركات المعنية التي يجب القيام بها.

صورة 2

شجرة الإمكانيات



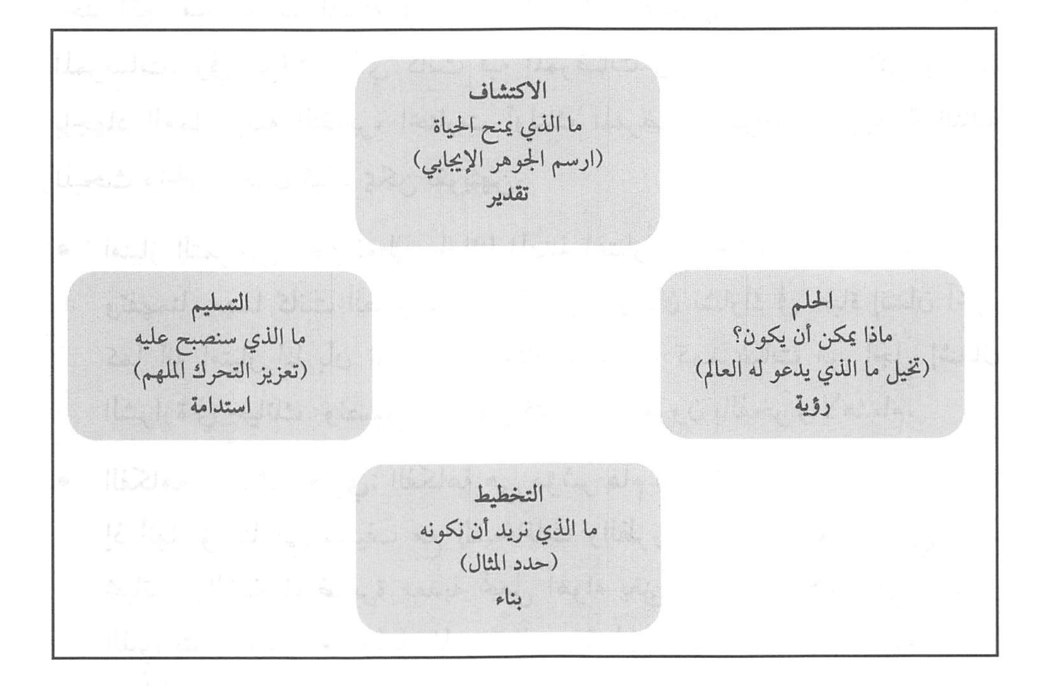
دائرة المراحل الأربع للبحث التقديري 4-D cycle

تتبع منهجية البحث التقديري عملية تدعى بالمراحل الأربع (كوبر رايدر وويتني 1999) والمراحل الأربع لهذه العملية يمكن أن تتم بسرعة وعفوية محادثة مع صديق أو زميل. أو بشكلية عملية رسمية مؤسسية أو مجتمعية تشمل جميع الأطراف المعنية. وتظهر الصورة 3 دائرة المراحل الأربع للاكتشاف والحلم والتخطيط والمصير (أو التسليم) وهي عملية تسير خطوة خطوة نحو بناء رؤية قائمة على معلومات تأتي من

تجارب إيجابية ومن ثم تعمل على تحقيق هذه الرؤية ميدانياً. يلي ذلك شرح موجز وتوضيح لكل مرحلة، بدءاً من تفسير موضوع اختيار إيجابي في منتصف النموذج.

الصورة (3)

دائرة البحث التقديري المراحل الأربع



اختيار الموضوع الإيجابي: قرار مصيري

نقطة البداية في عملية البحث التقديري هي تحديد تركيز العملية – المواضيع قيد البحث، التحقيق والحوار. وتتحرك الأنظمة الإنسانية أي العلاقات، المؤسسات، الفئات والمجتمعات، بالاتجاه الذي تتناقش فيه وتحلل وتفكر به. وكبحث في الشيء الذي يمنح الحياة للنظام الإنساني، يبدأ البحث التقديري بتبيان ما هو مرغوب في النظام المعني ضمن مجموعة من المواضيع الإيجابية.

فالعديد من المستشفيات حول العالم، على سبيل المثال، أخذت تتبنى البحث التقديري بين الأطباء والممرضات لإدخال صوت المريض في التخطيط الاستراتيجي وبناء ثقافات من الشمولية والاحترام. وقد شاركتنا زميلتنا المستشارة والعاملة في البحث التقديري سوزان وود المثال التالي حول اختيار الموضوع من خلال عملها مع أحد أكبر مستشفيات المدينة في تطبيق البحث التقديري كوسيلة لتعزيز قدرات الممرضات. وفي الوقت الذي كانت فيه الممرضات في العديد من الأماكن يشعرن بإجهاد العمل وقلة التقدير، اختارت أولئك الممرضات المواضيع الإيجابية التالية للبحث والحوار حول كيف يمكن تقويتهن.

- امتياز التمريض: نحن نعطي لحياتنا المهنية اعتباراً من خلال اهتمامنا، وإصغائنا وتفهمنا، مهما كانت الظروف. إنه لامتياز كبير بأن نشارك في حياة إنسان آخر، كما أنه امتياز لنا بأن نقدم لك الحنان والرعاية كممرضات من أجل إشعال الشرارة في حياتك. ونصبح جزءاً من كثيرين، يشعرون بالفخر والاهتمام.
- الفكاهة – مؤشر حيوي: الفكاهة هي مؤشر هام للحياة – وهي أساسية في بقائنا إذ أنها تؤهلنا كي نتكيف مع السخافات والظروف المحزنة والمخاطر التي تحيط بحياتنا. والضحك ظاهرة معدية تجعل الهواء يغني كما أن الفكاهة هي المنشور الذي يتمدد ويتوسع. ولعل المعرفة البديهية لمتى وكيف تستخدم الفكاهة تعتبر شيئاً لا يقدر بثمن.
- التقدير: نحن نرغبه ونطلب المزيد منه. نطلبه من بعضنا البعض من مرضانا ورؤسائنا وأنفسنا. يبدو وكأنه كلمات رقيقة، أو رسائل لطيفة تأتي من القلب.

في العديد من الحالات، يتطلب اختيار موضوع البحث إعادة تأطير مشكلة ما ضمن موضوع إيجابي كما تبين الصورة رقم 4.

وفي ميدان التنمية الدولية، تسببت النقلة من موضوع الصعوبات إلى موضوع إيجابي في إحدى الحالات إلى نتائج أنقذت حياة الناس[3]. فعندما أرسلت مؤسسة إنقاذ

صورة 4

إعادة تأطير المشاكل ضمن مواضيع إيجابية

زعامة دكتاتورية	زعامة تشاركية
تمييز	التعدد كمصدر للإبداع
نزاع عرقي	تعايش خلاّق
أصوات غير مسموعة	مشاركة تتيح الاستماع الكامل للأصوات

الطفل Save the Children السيد جيري ستيرنن وزوجته إلى فيتنام في أعوام التسعينات لافتتاح مكتب للمنظمة، كان نصف أطفال تلك البلاد يعانون من سوء التغذية. وقد منحته الحكومة الفيتنامية ستة أشهر فقط لإظهار الفرق. وبدلاً من أن يغوص في دراسة مسببات سوء التغذية، تحول ستيرنن إلى نظرية تضخيم الانحراف الإيجابي. ففي كل مجتمع أو فئة، يوجد أفراد يستطيعون من خلال تصرفهم المتميز أو ممارساتهم أن يحصلوا على نتائج أفضل من جيرانهم باستخدام نفس الموارد. ومن دون أن يدركوا ذلك، استطاع هؤلاء «المنحرفون الإيجابيون»، اكتشاف الطريق إلى النجاح بالنسبة للمجموعة برمتها، حين تم عزل طريقتهم وتحليلها ومن ثم إشراك الآخرين فيها.

لم يكن ستيرنن يعرف إلا القليل عن فيتنام ولكنه كان واثقاً من أن الطريقة الوحيدة لوضع خطته من أجل مكافحة سوء التغذية كانت اكتشاف هذه العلة ضمن ثقافة القرية الفيتنامية نفسها. وقد عمل آل ستيرنن مع موظفي منظمة إنقاذ الطفل ومع أحد المتطوعين المدعو نغوين ثانه هيين، وقاموا بتسجيل نساء القرى من أجل تحديد الأمهات اللواتي لا يعاني أطفالهن من سوء التغذية لأنهن استطعن اكتشاف الطرق لتغذيتهم ورعايتهم بكفاءة. وقد أتاحت الدروس المستقاة من هذه الحالات المتميزة فرصةً لجميع سكان القرية بأن يتعلموا بالممارسة مثل هذه المهارات من أجل البقاء. وخلال سنتين انخفضت حالات سوء التغذية بنسبة 65-85٪ في جميع القرى الفيتنامية.

تحدي الوضع الراهن

غالباً ما تطلبت عملية اختيار الموضوع من الناس أن يعيدوا التفكير بالطريقة التي يفعلون بها ما يفعلونه. وهي تشكل تحدياً للوضع الراهن من خلال الطلب من الناس التركيز على ما يريدونه أكثر من التركيز على ما لا يريدونه. ولعل مثال شركة الطيران البريطانية يوضح الأمر[4]. ففي عام 1998، اختارت دائرة خدمات العملاء في الخطوط الجوية البريطانية موضوعات للبحث على مستوى النظام. وقد تجمع لذلك أربعون شخصاً يمثلون اثنين وعشرين موقعاً لتعلم البحث التقديري وتحديد ثلاثة إلى خمسة موضوعات. ولم يمض وقت طويل حتى تم تحديد موضوع مثير اعتبر بشكل خاص على درجة أولى من الأهمية بالنسبة لعملهم – وهو موضوع الأمتعة – وتقاسم المشاركون قصصاً حول ثوب العرس الذي لم يصل في الوقت المحدد للعرس وقد تم استبداله على نفقة الخطوط الجوية البريطانية، وعن عدة التخييم التي لم تصل إلى منطقة جراند كانيون إلا بعد أن انتهت العطلة، وعن المشاكل اليومية لنقل الأمتعة من مطار هيثرو إلى مطار غاتويك في الوقت المناسب للحاق برحلات الطيران.

وقد قام العاملون في مجال البحث التقديري، بإعادة صياغة القصص لإظهار تفهمهم لقلق المشاركين من هذا الموضوع ومن ثم دعوهم لإعادة تأطير قضية الأمتعة كموضوع، ضمن مجموعات صغيرة. وجاء الرد بشكل جماعي وسريع رداً غير عادي بالنسبة للوضع « صحوة خدماتية أفضل ». « لنرى إذا كنا نملك هذا الحق » رد عليهم العاملون في البحث التقديري. « لا بأس بأن تفقد أمتعة الزبون طالما كانت لديك القدرة على العثور عليها فوراً. وبالطبع كان الجواب لا. إذن وأمام حقيقة أن المؤسسات تتجه في طريق ما تدرسه قال العاملون « ما هو الشيء الذي تريدونه منها بشكل أكبر؟ ما هو الموضوع الإيجابي الذي يمكن أن يحرك المؤسسة في الاتجاه الذي ترغبون به؟ ».

وبعد مضي اثنتين وعشرين دقيقة من المناقشات، خرجت إحدى المجموعات برد مبتكر ولافت للنظر: « خبرات وصول استثنائية ». ما الذي يتطلب أكثر لكي تكون

الخطوط الجوية البريطانية في أفضل حالاتها؟ أشار أحد الأشخاص، إلى أن يركز وكلاء خدمات العملاء على تقديم خدمات وصول استثنائية بدلاً من القلق حول الأمتعة الضائعة. كان هذا هو الموضوع الذي سيحقق تقدماً حقيقياً وقد تبنته المجموعة الكبرى بالإجماع.

المفتاح إلى الموضوعات الإيجابية الناجحة

كما بينت القصص الواردة سابقاً، فإن موضوعات البحث التقديري الجيدة هي أشياء يرغب أعضاء المؤسسات والمجتمعات أو غيرهم من الفئات أن يتعلموها بصدق وأن يحصلوا منها على الأكثر في حياتهم. وقد تأتي هي على شكل مشاكل أو هموم أعيد تأطيرها وقراءتها كما هو مرغوب. وتثير الموضوعات الإيجابية قصصاً عن الناس والمؤسسات والمجتمعات في أفضل حالاتهم. ويطلق عليهم صفة الموضوعات المصيرية لأنها ترسم أسلوب واتجاه الاكتشاف، والحوار والتعلم والتحول.

وأفضل موضوعات البحث التقديري هي تلك التي « تُنمّى في البيت » أي التي يختارها الناس المعنيون بالعملية. وخلال عملنا مع الشركات، يقرر الموظفون والمدراء معاً مجال التركيز في بحثهم من خلال اختيار الموضوعات. وينضم الإداريون في المؤسسات الصحية (المستشفيات) مع المرضى والأطباء والممرضات من أجل اختيار موضوعاتهم للبحث التقديري. وفي المدارس التي تبنت طريقة البحث التقديري، اختار التلاميذ والأساتذة والأهالي والإداريون موضوعات يعتقدون أنها سوف تساعدهم على تعلم وإعادة بناء المستقبل الذي يرغبون به. ومنذ البداية شكل البحث التقديري عملية ديمقراطية تعطي الأطراف المعنية أصواتاً بالتساوي.

مرحلة الاستكشاف: ابتداع الأسئلة وإجراء المقابلات

تنطوي مرحلة الاستكشاف الأولية على مهمة كشف القدرات الإيجابية. ويتم هذا الأمر عبر ابتداع الأسئلة الإيجابية حول الموضوعات المختارة والتي تشكل أساساً

للمقابلات التقديرية الموسعة. ولعل ما يميز البحث التقديري في هذه المرحلة هو إيجابية كل سؤال. وبالإضافة إلى كونها إيجابية، تستنبط أسئلة البحث التقديري الجيدة القصص، وتستخرج روايات غنية حول أفضل ما كان وما سيكون إضافةً إلى صور عما قد يؤول إليه الوضع[5].

من الذي يتوجب مقابلته؟ عندما نُسأل عن عدد الناس الذين يتوجب مقابلتهم في مرحلة الاستكشاف أو من الذين يجب أن نقابلهم، نجيب دائماً: « الجميع » لأن في هذه المرحلة، يستخلص الناس قدرتهم على التقدير وعلى المفاجأة وعلى الإلهام. وبينما يتواصل الناس عبر النظام من أجل دراسة الصفات والأمثلة والتحاليل ذات الجوهر الإيجابي - كل يقدِّر ويقدَّر - ينمو الأمل ويتوسع المجتمع.

لنأخذ مثل شركة ليدشير Leadshare وهي شركة محاسبة كندية كبرى استخدمت البحث التقديري لدعم انتقالها الصعب لخلافة شريكها الإداري الأسطوري في الإدارة التنفيذية. فقد اغتنمت ليدشير تلك اللحظة كفرصة لتنمية القيادة لجميع شركائها الأربعمئة وتم وضع بروتوكول لمقابلات تستغرق كل منها ساعتين وتركز على موضوعات إيجابية مثل: الابتكار، المساواة، المشاركة، سرعة الوصول إلى السوق وتقدير قيمة التنوع. وقد وضع الشركاء الثلاثون الأصغر مع الشركاء الأكبر ضمن أعداد زوجية لإجراء المقابلات وأقيمت روابط قوية وفورية عبر الأجيال وتم إبراز تاريخ المؤسسة حياً على شكل روايات تحكى وجهاً لوجه. ومثل مقطوعة شعرية رائعة تحمل معاني وتفسيرات لا تنتهي، بدأ الناس يروون تاريخ شركتهم مثل خزان من الإمكانيات الإيجابية. وفي الاجتماع الثاني للشركاء، والذي شهد حضور الأربعمائة شريك بأكملهم، تمت مزاوجة القصص والمعلومات التي خرجت بها المقابلات مع المستقبل من خلال عملية تخطيط استراتيجية. وأدت هذه القصص إلى غرس إحساس قوي بالاستمرارية وشكلت أساساً لتوجهات جديدة وجريئة نحو المستقبل. وقد تبين فيما بعد أن هذه الحلقة من التخطيط الاستراتيجي بقيت أفضل شيء يتذكره المشاركون (ريني 1996).

وتوجد مقاربة أقل منهجية، تستخدم في سياق التنمية الدولية، وغالباً ما تستخدم لإجراء المقابلات، ففي كندا، أجرى المعهد الدولي للتنمية المستدامة (IISD) بحثاً تقديرياً بالاشتراك مع سكونان فيرست نيشون Sknownan First Nation ، من أجل اكتشاف طريقة لاستخدام قيّم مبادئ سكان البلاد الأصليين (الهنود الحمر) في برامج استعمالات الأراضي وإدارة الموارد بمقاطعة مينيتوبا[6]. وقام فريق المشروع المؤلف من ممثلين عن IISD وسكونان بإجراء مقابلات تقديرية مع أكثر من مئة فرد من مجتمع سكونان خلال فصول ثلاثة. وقد مثّلت المقابلات فئات من جميع الأعمار، وجميع العائلات إضافة إلى توازن جنسي تقريبي، داخل عينة المسح وأجرى الفريق مقابلاته بطرق مستريحة وغير رسمية، وغالباً ما كانت المقابلات تجرى حول فنجان شاي في المنزل أو خلال عمل الأشخاص في الحقل. وكان مجري المقابلة يبدأ عادةً بالطلب من الشخص أن يروي قصة عن تجربة ناجحة – مثل قصة نجاح رائعة في صيد السمك أو صيد الحيوانات، أو رحلة عائلية لها وقع خاص في الذكرى. وبعد ذلك قد يسأله عن السبب الذي دفعه إلى تثمين ذلك النشاط وماذا كان يعني له من ناحية الفائدة الاقتصادية أو الرضا الروحي. وأخيراً قد يطلب منه أيضاً بأن يطرح أفكاراً حول كيفية جعل مثل تلك التجربة تحدث مراراً أو دائماً. وكان الرد عادةً يقود إلى حوار حول رؤية الشخص لسكونان فيرست نيشون في المستقبل.

كذلك، تم تطوير مقاربة أخرى من قبل MYRADA (ميرادا) وهي هيئة للتنمية تعمل في جنوب الهند بإقليم كاماسامودرام، فمن أجل أن يحصل على قصص حول ذروة اللحظات والإنجازات، كان فريق ميرياد يسير في القرية برفقة مجموعة من القرويين من أجل تحديد أمثلة عن إنجازات سابقة. فإذا عثر الفريق على تلّ أعيدت زراعته بالأشجار أو على معبد تم إنشاؤه، كان أعضاء الفريق يسألون القرويين عن شعورهم حيال إتمام هذا العمل. كما حاول الفريق تحديد القوى والقدرات التي اعتمد عليها القرويون من أجل إتمام هذا العمل.

كذلك طُرحت أسئلة تتعلق بالمنجزات التي يفتخر القرويون بإتمامها والتي يمكن أن يعرضوها كمثل لإنجازاتهم أمام أي زائر مهم. وكان الهدف من هذه الأسئلة هو إطلاق ذكريات الفخر والإعجاب لدى القرويين من أجل إيجاد جو يساعد على المزيد من رواية القصص الإيجابية (آشفورد وباتكار 2001).

الشركاء في المقابلات: قرائن غير محتملة

تعتبر المقابلات التقديرية، وسيلة استثنائية للجمع بين الناس الذي لا يتحادثون مع بعضهم البعض في العادة. دائماً حين يلتقي الناس عبر نقطة تقسيم – سواء كانت فئة العمر أو الجنس أو العرق أو الإثنية أو الدين، أو الطبقة أو السياسة أو العقيدة – تبقى هناك حاجة لإيجاد طريقة سليمة لعقد اللقاء بحيث يعبر الناس عن مكنوناتهم ويُسمعون أصواتهم. ولعل الطبيعة الإيجابية التي يتميز بها البحث التقديري تفرض السلامة وتسهّل بناء العلاقات.

لقد كنا نتفاجأ مرات ومرات بالعلاقات العميقة التي تبنى خلال المقابلات التقديرية. وكنا نراقب قيادات النقابات الغاضبين ومدراء الشركات وهم يقابلون بعضهم البعض وكنا نرى كيف ترتبط قلوبهم الإنسانية أو كيف تسقط الأدوار. كما كنا نرى الألم والأذى يتحول إلى دموع ندم والتزام تجاه شريك السلام حينما كانت الجماعات الدينية المتحاربة تلتقي وتتشارك في رواية قصصها. كذلك، كنا نشاهد في مقابلات الطلاب مع الأساتذة والمديرين كيف كان الكبار يجددون التزامهم بصنع عالم أفضل.

وفيما نحن نقوم بهذا العمل، كنا نسأل أنفسنا، من هم الناس الذين يحتاجون لمعرفة بعضهم البعض، شخصياً؟ من هم الناس الذين لم يشعروا بالأمان لدى مشاركتهم في رواية القصص وفي الآمال والأحلام ويحتاجون إلى من يُسمِع صوتهم؟ من هم الناس الذين استثمروا عاطفياً ومالياً واجتماعياً ومادياً من أجل خير هذه المؤسسة أو ذلك المجتمع؟ من هم كل الناس الذين يحتاجون إلى إشراكهم في العمل من أجل أن تصبح الأشياء أفضل وأكثر أمناً وحيوية وعدلاً واستدامة؟

ثم بعد ذلك، كنا نقوم بدعوة هؤلاء الأشخاص لإجراء مقابلات تقديرية مع بعضهم البعض حول المستقبل. والإصغاء لبعضهم البعض وتخيل مستقبلهم معاً. كانوا يركزون في حديثهم على الجوهر الإيجابي لحياتهم وثقافاتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وممارساتهم – إضافة إلى الاحتمالات الإيجابية لعيشهم معاً في المستقبل.

في عام 1998، أطلقت منظمة الإغاثة الكاثوليكية (CRS) بمساعدة من مبادرة GEM التابعة لجامعة كيس وسترن ريزيرف، مبادرة لتحسين نوعية مشاركتها للكنائس المحلية والمنظمات غير الحكومية في البلدان التي كان لمنظمة الإغاثة الكاثوليكية نشاطات فيها. وعبر الحوار الصادق مع الشركاء المحليين الذين كانوا على عكس المنظمة العالمية الكبرى في العديد من النواحي. ومن خلال تجميع القصص عن الإبداع التشاركي والابتكارات وأفضل الممارسات، خرجوا برؤية أجدد للمشاركة وتحركوا من اعتماد نموذج الاعتماد على أسس المورد إلى الاعتماد على المنفعة المتبادلة والقدرات (كينغ هورن 2001).

مرحلة الحلم: رؤية وتفعيل ما يمكن أن يكون

يشد التقدير انتباهنا نحو الحياة، ويحرك مشاعرنا، ويطلق فضولنا ويلهم تصوراتنا ورؤانا. ومرحلة الحلم في البحث التقديري تسأل الناس أن يتصوروا مستقبلهم المثالي وأن ينهضوا لتفصيله – مستقبل تصبح فيه الأشياء تماماً كما كانوا يرغبوها وزمن يسهمون فيه هم ومجتمعهم ومؤسساتهم نحو بناء عالم أفضل. ومع تشارك الناس فيما تعلموه من المقابلات التي تمت معهم ومن الإصغاء معاً لقصص عن لحظات حيوية في نظام حياتهم، يصبح المستقبل مرئياً عبر مثاليات دعكتها التجارب الحقيقية مما يشحذ طاقات الناس ويدفعهم للتحرك.

خلال قمة عقدت من أجل دمج خدمات تحسين معيشة الأطفال في نيفادا انتزع أحد الشباب الميكروفون وكان هو نفسه طفلاً بالتبني وقال مخاطباً المجتمعين: « لدي حلم... أريد أن أعيد تصميم قاعات المحاكم بحيث لا يعود الأطفال يشعرون بالخوف

عندما يذهبون هناك لسماع قرارات رعايتهم أو تبنّيهم. أريد أن تكون هناك طاولات مستديرة يجلس الجميع حولها – الأطفال، المحامون والعاملون في الشؤون الاجتماعية. حتى القضاة أنفسهم يجب أن ينزلوا من مكاتبهم المرتفعة ليجلسوا حول هذه الطاولات المستديرة.

أريد أن يرتدي القضاة ملابس عادية بدلاً من تلك العباءات السوداء كذلك أرغب أن تكون هناك بعض الحلويات على الطاولة كي يشعر الأطفال بالراحة أكثر ».

بعد هذا الكلام، سادَ القاعة صمت عميق بينما كانت الصور التي رسمها هذا الشاب تجد مستقراً لها في قلوب وأذهان موظفي الشؤون الاجتماعية والآباء المتقدمين للتبني والقضاة. ثم تكلم أحد القضاة فقال مخاطباً الشاب: « لقد أُعجبت بفكرتك، وأرغب بتطبيقها في قاعة محكمتي هل ترغب بمساعدتي لكي أصممها بالطريقة التي ترى أنها الأفضل للأطفال ». عند تلك اللحظة، ضجّت الغرفة بأصوات المتطوعين الذين انبروا لتقديم المساعدة على إعادة صياغة سياسة المحاكم وترتيب عفش الغرفة بحيث يصبح مناسباً لتحقيق هذا الحلم.

كلما ازدادت الصور التي نرسمها لمستقبلنا، إيجابية وأملاً وحيوية، أصبحت أعمالنا أكثر إيجابية وتأكيداً في الحاضر فالأحلام القوية والصور المؤثرة يمكن أن تؤدي إلى نتائج جذرية. ويمكن للمؤسسات أن تصبح مراكز تزدهر فيها العلاقات الإنسانية عندما تكون هناك عين تقديرية – أي عندما يرى الناس الأفضل في بعضهم البعض، وعندما يتحدثون حول أحلامهم وهمومهم بطرق إيجابية وعندما يتوصلون مع بعضهم البعض بكامل أصواتهم ليس من أجل بناء عالم جديد فحسب بل من أجل إقامة عوالم أفضل.

مرحلة التخطيط : إيجاد وقائع للمثاليات

عندما يتم إيضاح الحلم كرؤية لعالم أفضل، وهدف أقوى وتصريح مقنع بالاستراتيجية المقصودة – يتحول الاهتمام إلى إيجاد المؤسسات أو المجتمعات المثالية،

وعلى تصميم النظام في علاقته مع العالم. وعندما يأتي الإلهام على شكل حلم عظيم، تشعر المؤسسات، والمدارس، والفرق العاملة، أو المجتمعات بأنها مدفوعة إلى وضع تصاميم لشيء جديد وضروري.

إحدى النواحي التي تميز البحث التقديري عن منهجيات التخطيط الأخرى هي أن صور المستقبل تنبثق عبر أمثلة حقيقية من الماضي الإيجابي. والقصص التي تحمل أخباراً جيدة، تستخدم غالباً لإطلاق اقتراحات استفزازية يمكنها الوصل بين أفضل ما هو عليه الحال وبين الطموح الجماعي لما يمكن أن يكون. فالناس تتحدى الوضع الراهن كما تتحدى الفرضيات العامة التي تقف في أساس تصميم النظام، وهم يستكشفون: كيف سيكون شكل نظامنا إذا ما صُمّم لتحقيق أقصى ما في جوهر الإيجابيات والإسراع بتحقيق أحلامنا.

إطلاق الاقتراحات الاستفزازية

تأتي مرحلة التصميم في البحث التقديري على شكل مقترحات استفزازية (تعبيرات حول الاحتمالات) تأتي على شكل تعبيرات عن العلاقة المثالية أو المؤسسة المثالية أو المجتمع المثالي، وتكتب بلغة المضارع وكأن المثال موجود حالياً. والمقترحات الاستفزازية توسّع النظام في اتجاهات جديدة مرتبطة بالعناصر الرئيسة للتنظيم مثل العلاقات، توزيع السلطة والنفوذ، القيادة، الاتصالات، التعلم والمكافآت المالية أو المنتجات والتقنيات وخدمات الزبائن في حالة نظم الأعمال.

وتسعى العديد من المنظمات، على سبيل المثال لتقليص حوادث التحرش الجنسي في أماكن العمل. وتقضي هذه المنظمات جزءاً كبيراً من الوقت في دراسة المشكلة وأسبابها وعواقبها. وتنفق على ذلك الكثير من المال. نتيجة لذلك تصبح هذه المؤسسات غنية بالخبرة فيما يتعلق بالتحرش الجنسي ولكن دون أن تستطيع تخفيف وقائعها. ولكن إحدى المؤسسات استطاعت أن تحوِّل تركيز التحقيق والتحليل من التحرش الجنسي إلى موضوع إيجابي، أطلقت عليه اسم « علاقة عمل إيجابية بين

الجنسين » ففي شركة آفون بمكسيكو، قدمت القصص العديدة التي جُمعت ضمن الردود على هذا الموضوع صوراً إيجابية لعلاقات عمل صحية وقوية ومنتجة بين الجنسين وقدّمت المعلومات المطلوبة لإيجاد بيئة عمل آمنة وإقامة علاقات إيجابية.

وبدا واضحاً من المقابلات التي أجريت بأن علاقات العمل الإيجابية لا تنشأ خلال ورشات العمل، ولكنها تظهر عندما يعمل الرجال والنساء معاً على درجة من المساواة في اللجان والمشاريع والمهمات الأساسية. وبناءً على هذه النتيجة، كتب موظفو الشركة المقترحات الاستفزازية التالية: كل مجموعة عمل أو لجنة في شركة آفون، يجب أن تخضع ما أمكن لرئاسة اثنين واحد من كل جنس (أي امرأة ورجل) والنتيجة؟ : خلال سنتين، مُنحت هذه الشركة جائزة كاتاليست لعام 1997 على أنها المكان الأفضل في مكسيكو لعمل النساء. (شيلر 2002).

وعندما يتم توضيح الحلم، تصبح الحاجة إلى علاقات وبنىً وأنظمة وعمليات صنع قرار جديدة أكثر بروزاً. إلا أن إعادة تصميم السياسات والمؤسسات والمنظمات من أجل كبح الظلم وعدم المساواة، ليست بالمهمة البسيطة. لأنها تتطلب انتباهاً، ووقتاً وموارد وبيئة سياسية مناسبة والتزاماً من القادة ووعياً يؤهلها بالتحول من الشكوى حول سير الأنظمة إلى إعادة تصميم تلك الأنظمة. كذلك يتطلب الأمر تفكيراً عميقاً وحواراً بين الأطراف المعنية لإعادة تصميم الأنظمة كي تعكس قيم المعيشة الإنسانية واحترام الخلافات والمساواة والتعايش السلمي.

البحث التقديري وقيم السكان الأصليين (Aboriginal)

وبالعودة إلى قصة سكونان فيرست نيشون التي ذكرناها سابقاً، حيث أتُبعت مرحلة الاستكشاف بست ورشات عمل داخل المجتمع تم فيها صياغة تعبيرات محتملة حول ثمانية موضوعات على شكل « قيم، ورؤى وخطط عمل ».

- احترام الأرض: شعبنا يحترم الأراضي والمياه ونحن نعمل لكي نضمن أن تكون والأرض والمياه نظيفة وصحية لأطفالنا وحيواناتنا.

- المجتمع: يعمل شعبنا معاً لبناء مجتمع قوي، آمن وموحّد من اجل أطفالنا ومستقبل أجيالنا.
- العائلة: يقضي أفراد شعبنا وقتاً مع عائلاتهم كي يتعلموا من كبارهم ويمرروا الحضارة واللغة والقيم إلى صغارهم.
- الترويح عن النفس: يبني أبناء شعبنا كبرياءهم ووحدتهم وقوة أجسامهم وعقولهم من خلال التأمل والترويح عن النفس.
- التعليم: يكافح أبناء شعبنا للحصول على تعليم أعلى فنحن نتخرج في مدارسنا ونبدع في عملنا ونحقق أهدافنا ونعود إلى سكونان فيرست نيشون حاملين معنا وظائف ذات معنى تتطلب علماً ومهارات. كما يترعرع أطفالنا وسط قيمنا التقليدية ونحن نملك المهارات والمعلومات والاحترام الضروري للعيش على الأرض ويتكلم شعبنا لغة الأوجيبواي.
- الروحانية: يحترم أبناء شعبنا روحانية بعضهم البعض كما يحترمون طرقهم وعباداتهم سواء كانوا روماً كاثوليك أو يهوداً أو وثنيين أو تابعين للدين الأصلي. فنحن أحرار في ممارسة عباداتنا.
- الرزق – أسباب العيش: يعيل أبناء شعبنا عائلاتهم من خلال أعمال منتجة مبنية على نشاطات تقليدية على الأرض. وخلال عملنا الفردي ندعم مجتمعنا ككل.
- الصحة والغذاء: يتقاسم شعبنا الطعام الذي تقدمه الأرض أو من صيد الأسماك والحيوانات أو من البستنة الشجرية كما نتعلم من كبارنا طرق الطب التقليدية.

تم تطوير خطة عمل أولية لإنجاز بعض الأهداف التي تم تحديدها، مثل زراعة الأشجار والحفاظ على ثقافة السكان الأصليين من خلال النظام التدريسي وكذلك الحفاظ على سلامة أراضي السكونان التقليدية.

وقد انتهى المشروع بسلسلة من ورشات العمل التي شملت جماعات تركيز (تركز على هدف معين) وأتاحت المجال لشعب سكونان فيرست نيشون بالتواصل في

قِيمه ورؤيته مع صنّاع القرار، واستكشاف الفوائد والفرص التي يتيحها استخدام البحث التقديري، وكذلك مناقشة كيفية المشاركة في الأعمال التعاونية عندما ينتقل العمل إلى أماكن عيش السكان الأصليين.

مرحلة التسليم، تعزيز الأعمال الملهمة والمنظمة ذاتياً

البعض يطلق على هذه المرحلة اسم مرحلة المصير والبعض يسميها مرحلة التسليم. وفي كلا الاسمين، وجدنا أن زخم التغيير والاستدامة الطويلة الأمد ضمن المؤسسات يتزايدان كلما ابتعدنا عن الأفكار التقليدية في خطط العمل وتطبيق الاستراتيجيات، وعمليات المراقبة المتعلقة بالتسليم. فالتغييرات في النظام الإنساني يجب أن تظهر كأنها حركة ملهمة أكثر من كونها خطة منمقة أو نتاج مُهندس. وقصة GTE (واسمها الآن Verizon)، وهي واحدة من أكبر شركات الاتصالات في الولايات المتحدة، توحي بهذا الأمر. ويطلق عليها دان يونغ، وهو رئيس قسم التطوير المؤسسي في GTE وزملاؤه اسم: « تنظيم التغيير من القواعد الأساسية إلى الميدان » أو ربما نسميها طريق الاحتجاج الإيجابي أو استراتيجية التدمير الإيجابي.

بدأت العملية كعمل ريادي في GTE يهدف إلى استشعار ما قد يحدث إذا ما استخدم البحث التقديري مع الموظفين الميدانيين (العاملين على خط المواجهة مع الزبائن). وقام هؤلاء الموظفون بشن حملة دراسات من خلال المقابلات حول موضوعات مثل «الابتكار»، «القيادة الملهمة»، «التجارب الثورية مع الزبائن» و «التسلية».

وقد قام أحد الموظفين الذي تدربوا حديثاً على البحث التقديري، بإجراء مائتي مقابلة حول الجوهر الإيجابي لمركز اتصال رئيسي، يتعامل مع حجم ضخم من مكالمات الزبائن « أنا أحاول تعلم أفضل الابتكارات، وأنظر إليك كشخص يملك بصيرة في إيجاد الأوضاع التي يمكن أن تحدث فيها الابتكارات... هكذا كانت تبدأ المقابلة، وسرعان ما بدأت هذه المواضيع الإيجابية تجد طريقها في الاجتماعات وفي ممرات الحوار وحلقات التخطيط العليا. ثم بدأت نتائج هذه الحوارات بتغيير

اهتمامات الشركة، ولغتها وجداول أعمالها ومعرفتها. وقام عدد آخر من الموظفين بإجراء عصف للأفكار حول تطبيقات البحث التقديري، مثل إجراء مسح على الزبائن الراضين مئة بالمئة من خدمات GTE، ومن ثم تغيير مقاييس أداء مركز الاتصالات من مقاييس للنواقص إلى مقاييس للفعالية والنجاح.

وقد جذب هذا العمل الريادي طلبات من أناس جدد يرغبون في المشاركة وتم عقد عشر حلقات تدريب إقليمية ارتبطت فيها اللقاءات بالأقمار الصناعية. وعندما احتجت النقابات مبدية قلقها بسبب عدم استشارتها حول هذا الموضوع، تم عقد عدة لقاءات بين النقابات وإدارة GTE ، وخلال اللقاءات صرّح اثنان من زعماء النقابات بأنهما رأيا شيئاً جديداً وفريداً في هذا البحث التقديري ثم وافقا على جمع مائتين من زعماء النقابات معاً من أجل تقييم البحث التقديري والتصويت عليه لرؤية ما إذا كان له مكان في مستقبل GTE . وكانت النتيجة تبنّي العملية، وبعد ثمانية أشهر صدرت وثيقة داخلية تتضمن تصريحاً تاريخياً في المشاركة جاء فيها: « تدرك الشركة والنقابات أن عليهما تغيير علاقات إدارة العمل التقليدية التي تتسم بالعداء والتكيف مع سوق الاتصالات العالمي الجديد... » وهكذا اتفقت الشركة مع النقابات على التحرك في اتجاه جديد يركز على المشاركة[8].

دائرة (4D) أو المراحل الأربع ضمن سياق التنمية الدولية

كان تحول مشروع « SHARED » أو المشاركة، وهو مشروع لمنظمة « التعلم العالمي » الدولي غير الحكومية، مدته عشر سنوات وممّول من قبل الوكالة الأميركية للتنمية الدولية (USAID)، إلى مشروع مدعوم ذاتياً من منظمة أهلية غير حكومية، تجربة معقدة ومحبطة ورائعة، استغرقت وقتاً طويلاً[9]. وقد انطلقت التجربة عام 1990 عبر اتفاقية تعاون وقّعتها الوكالة الأميركية مع منظمة « التعليم العالمي » تحت اسم مشروع (SHARED) وكان المشروع يشكل أكبر مصدر تمويل فردي لتطوير قطاع المنظمات الأهلية غير الحكومية في مالاوي. وقام المشروع بتقديم مساعدة في إدارة المنح

وفي التقنيات لأكثر من خمسٍ وأربعين منظمة تعمل في قطاع Burgeoning غير الحكومي. وفي منتصف الطريق لتطبيق الاتفاقية، بدأت الأطراف تدرك أهمية استمرارية عمل مشروع (SHARED) لأكثر من إطار العشر سنوات المحددة له من أجل تحقيق أهداف الانتقال أو التغيير المستدام. وهكذا استقر رأيهم على فكرة إبداعية يصبح فيها المشروع في نهاية المطاف في يد المنظمات غير الحكومية الأهلية المستقلة. وهذا الكيان الجديد سيصبح الوسيلة التي يمكن فيها لخبرات وموارد مشروع (SHARED) أن تستمر كأداة أساسية لبناء قدرات المنظمات غير الحكومية في مالاوي.

وقد عملت مبادرة GEM مع جميع الأطراف في تخطيط وتنفيذ عملية المراحل الأربعة المكررة التي شملت أولاً الكادر الأساسي في SHARED ثم امتدت لتشمل مجموعة أكبر من المعنيين. ويستذكر أحد موظفي SHARED، إحدى ورشات العمل ويصفها بعلامة هامة في تبصر الطريق نحو التغيير. فيقول: « في ورشة العمل تلك، بدأت تظهر نواة الرؤية الواضحة، والاستراتيجية، والعمل. وكان الوضوح الذي اتّسمت فيه تلك الحلقة هو الذي دفعنا بالتأكيد نحو تحول كبير ونشيط ومحبط أحياناً. وكانت نقطة الفصل بالنسبة لي هي مشاركة جميع الأطراف المعنية في العملية مما أتاح المجال أمام اتخاذ القرارات التي ما زالت حتى اليوم ترشد أعمالنا ». (مبادرة GEM ، 11، 1999).

قمة (ذروة) البحث التقديري

تم تطبيق البحث التقديري في مجالات واسعة ومختلفة وبطرق واسعة ومختلفة أيضاً[10] وفي هذا القسم من الفصل نستعرض أحد تطبيقات البحث التقديري التي لمسنا فائدتها بالنسبة للشركات وللمنظمات غير الربحية للمجتمعات ونعتقد أنها تحمل آمالاً واعدة في سياق عملية بناء السلام.

وهذه الطريقة هي « قمة البحث التقديري »[11]. ونقدم هنا وصفاً أساسياً لعملية القمة آملين من القرّاء أن يستطيعوا تكييفها لتلائم احتياجات أوضاعهم ومجالاتهم.

وقمة البحث التقديري هي منهج للتغيير الإيجابي يشمل فئة كبيرة. وفيما يتم تفصيل كل استخدام للقمة لكي يلائم الوضع الفريد لكل منظمة أو مجتمع، تتقاسم القمم أربع صفات عامة هي أنها: جميعها تشمل النظام بأكمله وجميعها تركز على مهمة مشتركة وجميعها تنتظم حول المراحل الأربع وأخيراً جميعها تتبع الحوار الإيجابي والحيوي.

وسواء كان النظام، دائرة (قسم في مؤسسة) أو منظمة أو تحالف عدة منظمات أو مجتمع أو حركة اجتماعية عالمية، تتيح القمم المجال لكل شخص يضع رهاناً مهماً أو مصلحة أساسية على موضوع معين أو رؤية مستقبلية، كي ينضم إلى حوار قرائن « وجهاً لوجه » مع آخرين يتقاسمون معه ذلك الرهان أو تلك المصلحة. ففي إحدى القمم المدرسية، على سبيل المثال، يلتقي الطلاب على رسم طريق سير المدرسة في المستقبل. وترتكز القمة على فكرة مبسطة هي أنه في أي نظام، يتطلب الدفع نحو التغيير شحنة كبيرة من الطاقة الإيجابية والتنسيق الاجتماعي – أشياء مثل الأمل، الحماس، الإلهام، التعاون، إضافة إلى التزام مشترك ببناء المستقبل معاً – وأنه كلما اشترك عدد أكبر من الناس في العملية، ازداد التزامهم لبذل جهد في التغيير.

تركز جميع القمم في مقصدها إلى توليد الحوارات وفتح الإمكانيات أمام العمل، وقد تكون الجهة المقصودة هدفاً لشركة معينة (مثل وضع استراتيجية أو تطوير قيادة أو دمج أو استحواذ أو تحسين عملية أو تصميم مؤسسة أو توظيف أو الحفاظ على موظفين أو إرضاء الزبائن) أو قد يكون هدفاً اجتماعياً (مثل تنمية اقتصادية، صحة المجتمع، إصلاح التعليم، الحفاظ على البيئة، بناء السلام).. أو هدفاً تعليمياً ربما في نفس الوقت (إشراك النظام برّمته، للتعلم بقدر الإمكان عن تاريخه، وهويته، وطرق عمله التي تشمل أفضل الممارسات ومصادر الإبداع).

وتعمل المراحل الأربع كإطار لجدول أعمال القمة وتساعد المجموعات على استكشاف واستخراج قواها والتبصر في المستقبل الذي يرغب به أعضاؤها إضافة إلى تصميم النظام الذي يؤهلها لتحقيق أحلامها ومن ثم إطلاق فرق العمل لصنع المستقبل.

ورغم أنها ما زالت في أطوارها الأولى، كعملية تشمل فئة كبيرة، إلا أن منهجية « قمة العمل التقديري » أحرزت تقدماً ناجحاً في عدد من المبادرات الرئيسية. وشملت هذه المبادرات مراكز طبية (مستشفيات) وجامعات، وشركات، ومنظمات غير حكومية تعمل في التنمية الدولية، إضافة إلى عدد آخر من المنظمات التي تعمل من أجل التغيير الاجتماعي. وقد استخدمت القمة لصقل عملية المشاركة الإبداعية بين إدارة شركة GTE والنقابات (التي ذكرت سابقاً) ولشنّ حملة مبادرة الأديان العالمية المتحدة (التي يرد ذكرها في الفصل 19). وقد استخدمت شركتان برازيليتان هما « نوتريمنتال » و « ديا »، قمة البحث التقديري لجمع موظفيها مع زبائنها وموزعيها ومزوديها والقيادات الاجتماعية - المحافظون، ومخططو المدن، والمربّون وجماعات البيئة.. الخ من أجل التخطيط والتبصر الاستراتيجي. وقد جاءت مكافأة هاتين الشركتين من الناحيتين النوعية والكمية إذ حققتا نسبة منخفضة من التغيب والتقلب وارتفعت مداخيلهما إلى الضعف.

متى نعقد ذروة البحث التقديري؟

تعتبر ذروة البحث التقديري مداخلة اختيارية عندما تتطلب المهمة مستويات أعلى من المشاركة والتعاون. وتبلغ نسبة الحوار إلى نسبة التفرد خلال الذروة 9 إلى 10 بين المشاركين. بحيث لا يبقى وجود للاستعراضات القيادية الرسمية. فكل شخص يشارك بصوت متساوٍ في جميع الأوقات. وتكون جميع الأطراف المعنية (أو من يمثلها) مشمولة ومشاركة في الحوار الذي يتعدى الحدود، بذلك تشكل قمة البحث التقديري عملية واسعة المشاركة متكاملة الأصوات.

وتعمل القمة في أفضل حالاتها عندما تكون هناك حاجة لتسريع عملية التغيير. كما هو الحال في مثال الشركة البرازيلية نوتريمنتال. فالقدرة على جمع أعداد كبيرة من الناس معاً في عملية مشاركة تبني إجماعاً وزخماً خلال فترة قصيرة من الوقت وبذلك تتيح المجال أمام التغيير لكي يتم بسرعة وفعالية.

ومن خلال تجاربنا مع فئات على درجة عالية من الاختلاف أو العداء أحياناً، استطعنا اكتشاف قدرة القمة على بناء العلاقات التعاونية ورعايتها بين فئات مختلفة من الناس تتشارك في أعمال واسعة المصالح والإبداعات. وتوفر المشاركة في القمة، فرصاً لبناء العلاقات عبر قطاعات متفاوتة في المستوى وفي المهمات ضمن مؤسسة أو مجتمع إضافةً إلى مجموعات مناصرة لقضية ما أو عاملة من أجل مصلحة المجتمع. وتوفر القمة أيضاً ميداناً غنياً لحل المشاكل بطرق غير رسمية أو للمصالحة إذ تضع الناس أمام عمل إيجابي يتوجه بتركيزه نحو مهمة معينة. وتسهم عملية المشاركة في رواية القصص والأحداث، إضافةً إلى تعريف الناس على آمال وأحلام بعضهم البعض، والعمل معاً بشكل إيجابي، في بناء علاقات تحتفظ بتواصلها. وتسهم كذلك في إطلاق أي آليات وبنى رسمية قد تنتج عن التبصر والتصميم خلال القمة إذ تفضي العلاقات غير الرسمية التي تنشأ خلال القمة مراراً إلى تعاون خاص من أجل مصلحة المؤسسة. وبشكل عام، يأتي التعاون المعزز القوي نتيجة لأغلبية قمم البحث التقديري.

كذلك تعمل القمة كمظلة عندما تكون هناك حاجة لدمج الأشياء وإعطاء معنى لمبادرات تغيير متعددة. وكفلسفة ومنهجية تقدم القمة مجموعة من المبادئ والممارسات التي تعزز المشاركة وتقوي الالتزام بالتغيير. فالتغيير في العمليات الداخلية لمنظمة ما إضافة إلى طرق عملها في العالم، يتطلب على سبيل المثال عملية تشق طريقها في الارتباط والعمل على مراحل عبر النظام المؤسسي. وعندما تحدث مثل تلك التغييرات من خلال قمة البحث التقديري، تحمل معها معنى وسلامة. فالقمة تعمل كوسيلة دمج إذ تتيح الوقت للتبصر في مستقبل النظام وتنظيم جميع مبادرات التغيير الجارية والمخططة حديثاً.

هناك إدراك واسع بين القيادات في العديد من القطاعات لفوائد التغيير الإيجابي الشامل. وعندما سئل أحد المديرين الماليين لمستشفى طبي تمتلكه إحدى العائلات، من قبل رئيسه إذا كان باستطاعتهم إغلاق المستشفى لمدة يومين من أجل جمع الموظفين والمعنيين معاً، أجابه: إننا لا نحتمل أن لا نفعل ذلك، علينا أن نشمل الجميع في عملية صنع

مستقبلنا إذا ما رغبنا أن يسيروا معنا في نفس المركب نحو التغيير. وهكذا ولأول مرة منذ خمس وثلاثين سنة من تاريخه، أغلق المستشفى والتقى موظفوه المئة إضافةً إلى عدد من الأهالي وأصدقاء المرضى وأعضاء المجتمع، معاً، من أجل شق طريق مستقبل المستشفى.

تصميم قمة البحث التقديري

كنقطة بداية، نستعرض هنا عملية توضيحية لقمة بحث تقديري استغرقت أربعة أيام لشركة ما أو لنوع آخر من المؤسسات. وتحتاج العملية هنا إلى التكيف مع وضعية بناء السلام، وكل قمة تجمع الناس معاً من أجل مهمة فريدة ومعينة، كما أن كل مجموعة مشاركة في القمة تحمل معها خليطاً مختلفاً بحسب موقعها الحضاري والجغرافي، إضافة إلى مجموعة فريدة ومحددة من العلاقات بين أطرافها المعنية وطرقاً فريدة في التعبير عن قيمها الرفيعة وعن تثمينها للعلاقات وعن صنع معانيها واتخاذ قراراتها. وكل حالة من هذه الحالات الفريدة يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند تصميم عملية قمة البحث التقديري من أجل ضمان المشاركة والتجاوب والتعاون بين المشاركين.

اليوم الأول: الاكتشاف: تركزت نشاطات اليوم الأول حول اكتشاف الأوجه المتعددة للجوهر الإيجابي للمؤسسة. ويحتوي الاكتشاف على أسئلة مثل: من نحن، فردياً وجماعياً؟ ما هي الموارد التي نملكها؟ ما هي كفاءاتنا الأساسية؟ ما هي أحلامنا وآمالنا للمستقبل؟ ما هي أكثر الاتجاهات الكبرى الواعدة التي تؤثر فينا الآن؟ وما هي الطرق التي يمكننا تخيلها للسير معاً إلى الأمام.

وتشمل النشاطات المحددة لمرحلة الاكتشاف ما يلي:

- القيام بمقابلات بحث تقديري: ينخرط جميع المشاركين في مقابلات فردية تنظم حول مواضيع اللقاء.
- تحديد تركيز المهمة: تقدمة موجزة لسياق وهدف الاجتماع.
- من نحن في أفضل حالاتنا: استذكار لقصص يسلّط عليها الضوء من قبل مجموعة صغيرة وأفضل الممارسات المكتشفة خلال إجراء المقابلات.

- خريطة للجوهر الإيجابي: عملية تشمل مجموعة كبيرة لتوضيح القوى والموارد والقدرات والكفاءات والآمال والمشاعر الإيجابية والعلاقات والتحالفات... ضمن المنظمة.
- بحث في الاستمرارية: عملية تشمل مجموعة كبيرة من أجل وضع خطوط زمنية للتنظيم وللتصنيع (سياق المؤسسة) وخطوط زمنية دولية لتحديد العناصر التي أسهمت في استدامة المؤسسة عبر الزمن، وتعتبر مرغوبة في المستقبل.

اليوم الثاني – الحلم: اليوم الثاني هو يوم التبصر في الإمكانيات الكبرى للمؤسسة تجاه التأثير الإيجابي في العالم. وفيه تثار أسئلة مثل: نحن في العام 2015 وقد استيقظنا للتو من نوم طويل. وفيما أنت تستيقظ وتنظر حولك، ترى المؤسسة تماماً كما تمنيتها وحلمت أنها ستكون.. ما الذي يحدث؟ ما الذي اختلف في المؤسسة؟ هناك طريقة أخرى لطرح سؤال الأحلام هذا وهي: تخيل أنك في عام 2015 وأن مؤسستك قد ربحت للتو جائزة العام للمسؤولية الاجتماعية الفذة. لماذا أعطيت الجائزة لها؟ ما الذي يقال عن مؤسستك وهي تتسلم الجائزة؟ ماذا يقول الزبائن؟ والموظفون؟ ماذا تطلّب الأمر لنيل الجائزة؟

وتشمل النشاطات الخاصة بمرحلة الحلم ما يلي:

- تقاسم الأحلام – تناقش المجموعات الصغيرة، الأحلام التي تم جمعها خلال إجراء المقابلات.
- إحياء الأحلام – تناقش المجموعات الصغيرة أمثلة ملموسة ومحددة من أحلامها وتطور استعارات خلاّقة لها وتعرضها.
- إغناء الأحلام – تقدم المجموعات عروضها عن تفعيل الأحلام الجذرية إلى المجموعة الكبرى.

اليوم الثالث – التصميم (التخطيط): خلال اليوم الثالث، يركز المشاركون على وضع تصاميم للمؤسسة يكون فيها الجوهر الإيجابي حيّاً في جميع الاستراتيجيات،

والعمليات والأنظمة والقرارات والتنسيقات، وقادراً على تحقيق أحلامه. كما يقوم المشاركون بإطلاق مقترحات استفزازية وتصريحات إيجابية حول مستقبل المؤسسة. وهي تصريحات ومقترحات مقدمة بلغة الحاضر بحيث تسحب المؤسسة باتجاه أحلامها. وبينما لا تعتبر هذه التصريحات إجراءات محددة يجب العمل بها إلا أنها إجراءات قابلة للتطبيق. فعلى سبيل المثال يوجد لدى أشخاص في شركة XYZ قدرة واسعة عل الوصول إلى المعرفة، وحرية في اتخاذ القرارات. مثل هذا التصريح، رغم كونه مرغوباً بشكل كبير، إلا أنه يلزمه عمل ليتممه. وهو يمثل التزام المؤسسة بالتحرك في هذا الاتجاه.

وتشمل النشاطات الخاصة بمرحلة التصميم ما يلي:

- وضع البناء التصميمي للمؤسسة – تحدد المجموعة الكبرى التصميم الهندسي للمؤسسة الأكثر ملاءمة لعمليتهم.
- اختيار عناصر التصميم الأكثر تأثيراً في المؤسسة – تدرس المجموعة الكبرى المقابلات والأحلام لاختيار أكثر عناصر التصميم تأثيراً.
- تقديم مقترحات استفزازية لكل عنصر من عناصر التصميم في المؤسسة – تقدم المجموعات الصغيرة مقترحات استفزازية (تعبيرات عن التصميم) تشمل جوهر التغيير الإيجابي المتضمن في عناصر التصميم.

اليوم الرابع – التسليم: يشكل اليوم الأخير دعوة إلى العمل ألهمتها الأيام السابقة من الاستكشافات والأحلام والتصاميم. بالنسبة للبعض، يعتبر هذا اليوم، اليوم المنتظر أو اليوم الذي سينطلقون فيه أخيراً إلى العمل بخصوصيات ما يتوجب عمله عند هذه النقطة، نقوم بطلب مبادرة من الأشخاص أو المجموعات إضافة إلى التنظيم الذاتي. ونسعى لإظهار التزام المجموعة الكبرى بتحرك ودعم هؤلاء الذين اختاروا التقدم للعمل بالنيابة عن الجميع.

وتشمل النشاطات الخاصة المتعلقة بهذه المرحلة ما يلي:

- إطلاق التحركات المحتملة – تقوم المجموعات الصغيرة بعصف فكري حول التحركات المحتملة وتشارك فيها مع المجموعة الكبرى.
- اختيار التحركات الملهمة – يعلن الأفراد أمام الجميع نيّتهم بالتحرك بتحديد الدعم والتعاون المطلوبين.
- انبثاق تشكيلات مجموعات المهمات – تجتمع المجموعات ذاتية التنظيم لرسم الخطوات المقبلة للتعاون وإنجاز المهمات.
- اختتام لقاء المجموعات الكبرى.

الإمكانيات المثيرة لقمة البحث التقديري لبناء السلام

في شهر مايو من عام 2002، عقد مؤتمر عن طريق الفيديو، التقى فيه ستة من قيادات الأعمال الشجعان، قدموا من المملكة العربية السعودية ومصر والولايات المتحدة وإسرائيل من أجل التفكير بالأزمة بين الفلسطينيين وإسرائيل. وقد عقدت هذه الجلسة في وقت شهدت المنطقة أسوأ أحداث عنف لم ترها منذ سنين وقد ظهر القادة الستة على شاشة مكبرة، في صورة عرضت عالمياً تضم أيضاً 200 من كبار المسؤولين التنفيذيين من جميع أنحاء العالم كحضور في المؤتمر. كان التركيز في الحوار الذي استمر ساعتين يدور على مستويين: ما الذي يحدث لهؤلاء القادة شخصياً وما الذي يحدث بالنسبة لأعمالهم. ومن إحدى نقاط المؤتمر قال محمد وهو من قادة رجال الأعمال الفلسطينيين: لقد كتبت كلمة أمل على الورقة التي أمامي. فالشعب الفلسطيني بحاجة ماسة إلى الأمل، أي نوع من الأمل يريه ضوءاً في آخر النفق.

كان هذا المؤتمر الذي عُقد عن بُعد حاداً، ظهرت فيه تعبيرات لمشاعر عميقة وتوترات. وقد بدأ رجل الأعمال القيادي الإسرائيلي جوشوا حديثه في الجلسة بصوت راجف، فيما كان يخبر الحاضرين بأن عائلة زوجته قد أبيدت للتو بفعل قنابل فلسطينية، وتكلم محمد أيضاً على الصعيد الشخصي عن الإذلال والتأخير الذي لا ينتهي عبر الحواجز العسكرية الإسرائيلية خلال ذهابه إلى العمل فيما هو يحاول تأمين

وظائف لمئات من الموظفين. أما أمين من المملكة العربية السعودية فقد تحدث عن انهيار أعماله. كانت هناك لحظات ظهرت فيها الدموع فيما كانت مشاعر هؤلاء الرجال تطلق أصواتها عالياً.

راقب مشاهدو المؤتمر من كبار المسؤولين التنفيذيين هذا الحدث فيما كان الحوار ينقل العلاقات. في إحدى نقاط المؤتمر تُليت صلاة بطريقة عفوية من أجل جوشوا الإسرائيلي مشاركة له في أحزانه على فقدان أفراد عائلته فيما عبر آخرون عن مخاوفهم وعن آمالهم لأطفالهم وعن إحساس بالإرهاق. تلى ذلك ظهور مقترحات للتنسيق وخطط للمساعدة في الأعمال مثل توزيع المنتوجات والمؤن، وجمع الأموال من أجل إقامة مشاريع للتغيير الاجتماعي وغيرها.

وقد أبدى جوشوا ملاحظة بأن الأعمال، ربما أكثر من أصعدة غيرها، يمكن أن تشكل قوة دافعة لجمع الناس ضمن اتصال وتعاون إيجابيين. ثم علّق أحدهم مداعباً: نحن رجال الأعمال، يتوجب علينا أن نعقد قمة سلام خاصة بنا، وبعد ذلك بثلاثة أو أربعة أيام من العثور على حلول واقعية وآمال مشتركة، نقوم بفرض خططنا على الصعيد السياسي... ومع حالة الشلل التي تعاينها حكوماتنا، سيكون انخراطنا في الأمر أكثر سهولة. أليس كذلك؟ ضحك الجميع بارتياح لهذه الاستراحة الفكاهية.

ومع ذلك، التقت مجموعة من المسؤولين التنفيذيين في نهاية المؤتمر وقال أحدهم: « كثير من الحقائق يمكن أن ترد على شكل دعابة » قد تكون الأعمال واحدة من الأماكن التي يمكن أن يتم فيها إجراء مثل هذا الحوار الجيد. واقترح قائلاً أن فكرة ولدت هنا. ويمكن لقمة شرق أوسطية أن تعقد وتدار من قبل مسؤولين تنفيذيين في شركات فلسطينية وإسرائيلية يعملون معاً تحت عنوان: الأعمال كقوة دافعة نحو الأمل: « لقاء من أجل اكتشاف المستقبل الذي نرغب في إيجاده بعد النزاع ». اشتدت الإثارة بعد هذه الكلمات واقترح أحدهم استخدام البحث التقديري من أجل تهيئة القمة ووافقت إحدى المؤسسات على تمويل الفكرة.

متى يمكننا استخدام البحث التقديري في بناء السلام؟

فيما نحن نستعرض البحث التقديري أمام الشركات والمجتمعات حول العالم، واجهنا أسئلة وترددات بلغت حد المقاومة القوية في بعض الأحيان. ففي اليوم الأول لإحدى ورشات العمل التي عقدت في النمسا، وقفت إحدى المشاركات أمام المجموعة ونعتتنا بالسُّذّج وبأننا غير مطلعين على الحقائق السياسية في بلادها. وبيّنت أن الوضع العالمي قاتم ومليء بالاحتمالات الخطرة بحيث لا يمكننا تجاهل المشاكل. كانت هذه المرأة زعيمة لإحدى مجموعات المقاومة ذات النفوذ والتي بدأت تنمو وتحشد ضد القوى الفاشية الجديدة التي أخذ نفوذها السياسي يتصاعد في مجتمعها. وفي اليوم الثالث قدمت التماساً إلى المجموعة قائلة: أرجوكم ساعدوني. إني أرى الآن أن المقاومة ليست الوسيلة الأقوى لبناء المستقبل الذي أرغب فيه. علينا أن نساعد الناس لكي يؤمنوا بأنفسهم ويبصروا المستقبل الذي يريدونه. أرى الآن أننا ومن خلال البحث التقديري يمكننا مساعدة الناس على إيجاد العالم الذي يريدونه وليس فقط مقاومة ما لا يريدونه.

العديد من قرائنا، قد يكونون مثل تلك المرأة، يتساءلون إذا كان بالإمكان التحرك بعيداً عن الشكوك والمعاناة والظلم والإساءة والعنف من خلال إعادة تأطير التحديات العميقة والتعامل معها عبر مقاربات إيجابية لبناء السلام. نحن نؤمن بأنه ليس من الممكن فحسب، بل من الأساسي على هؤلاء منا الذين يرغبون في عالم يسوده السلام والعدل بأن يشرعوا في إيجاده – وبأن علينا وضع قلوبنا وأذهاننا واهتماماتنا وأفضل جهودنا للعمل على بناء بؤر للسلام، ونقاط من الضوء الذي سيظهر يوماً ما ويتجمع في عرض نابض بالحياة ليعرض أفضل ما في الإنسانية. كذلك نؤمن بأن البحث التقديري كفلسفة وكمنهجية يمكنه أن يقدم شيئاً في هذا المجال.

في هذا القسم من الفصل، نستعرض خمسة مجالات، يمكن حسب اعتقادنا للبحث التقديري أن يتكيف معها ويعمل فيها. وكل من هذه الأفكار يقف على

أسس تلك التي سبقته. والنتيجة هي تقدم في إمكانيات دمج البحث التقديري ضمن مبادرات بناء السلام. وهذه الأفكار مجتمعة تشكل فرضية عمل حول كيف يمكن للبحث التقديري أن يخدم في حقل بناء السلام.

إعادة تأطير القضية: تحويل الشعور بالعجز إلى التزام بالعمل

ينطوي البحث التقديري على إمكانية تغيير الطريقة التي يتحدث فيها الناس عن الرؤية والتجربة والعمل ضمن ظروف حياتهم. وفي بعض الأحيان، يمكن لإعادة تأطير القضية، متبوعة ببحث وحوار في موضوع إيجابي أن توفر استهلالاً آمناً لمبادرات الاتصال.

وحديثاً هاتَفَنا أحد الزملاء الذين يعملون مع مشروع للأمم المتحدة يهدف إلى تخفيض نسبة الإصابة بالإيدز، ليروي قصة استخدام البحث التقديري وسط أربعين من القيادات الحكومية في إحدى الدول الإفريقية. إذ أكّد بعض أعضاء المجموعة وجود عامل رئيسي يسهم في انتشار مرض الإيدز في بلدهم، وهذا العامل هو الإساءة للنساء وعدم احترامهن. في البداية اتخذ الرجال في المجموعة موقفاً دفاعياً، وساد شعور بين الجميع، نساءً ورجالاً، بالعجز عن تغيير أي شيء، إلى أن انخرط الجميع في بحث تقديري حول موضوع « احترام النساء ». وقد أجرى الرجال والنساء مقابلات مع بعضهم البعض وتقاسموا الحديث حول قصص قديمة تتحدث عن زمن كان الرجال يحترمون نساءهم وكانت النساء تشعرن بذلك الاحترام. بكى العديد من الحاضرين لدى سماعهم هذه القصص. ولاحقاً اشتركوا في التعبير عن مدى شعورهم بالراحة بأن يكونوا معروفين باحترامهم لنسائهم وبقدرتهم على إحداث تغيير. كذلك عبّرت النسوة، بعد أن روين قصصهن عن كيفية مقاومتهن للظلم والإساءة وعن راحتهن بأن أحداً أخذ يصغي لهن، وعن ثقتهن بأن الأمور يمكن أن تتغير. واعترف الجميع بأن التعليم، بشكل عام والتوعية الصحية التي تدعم بشكل خاص حق المرأة في قول لا للرجل، سوف يرفعان من درجة احترام النساء وقد يساعدان أيضاً على إيقاف

موجة الإيدز. كما اعترف الجميع بأن هذه المجموعة من الزعماء يتوجب عليها فعل هذه الأشياء وقد أبدى هؤلاء التزامهم بالعمل في هذا الاتجاه.

إن حالات مثل هذه، إضافة إلى عملنا المتعلق بظروف النزاع في مجالات الأعمال والتنمية الدولية، تعطينا الثقة في إمكانية وقدرة البحث التقديري على إعادة تأطير الأوضاع من أوضاع عجز إلى أوضاع أمل.

الجمع بين الناس الذين لا يمكن أن يكلموا بعضهم بعضاً بدون ذلك

بين الأشياء التي تعتبر أساسية في بناء السلام، خلق أجواء آمنة للحوار، وإيجاد آلية لإسماع أصوات الناس بالتساوي ضمن عملية البناء. من الأشياء التي تميز علم البحث التقديري، قدرته على جمع الأشخاص في حوار متعمق، وفي ظرف لا يمكن لوسيلة أخرى أن تجمعهم. والتركيز الإيجابي يوجد سياقاً آمناً وجذاباً للحوار. كما يضمن اختيار المواضيع الإيجابية المحلية المنشأ للمشاركين أن يكون الحوار الذي يرغبون في إدارته حول حياتهم ليس فقط على جدول الأعمال فحسب بل هو جدول الأعمال بحد ذاته. يعطي فرصة اللقاء الذي يتم على قدم المساواة والتحدث والإصغاء إلى قصص ذات معانٍ شخصية عميقة، فرصة يمكن أن تؤدي إلى معاودة النظر إلى العدو كإنسان ما أمكن. ولا شك أن الحرية التي تتضمن قدرة على إسماع الصوت، قد تم وصفها من قبل العديد على أنها واحدة من أهم عناصر النجاح الأساسية في البحث التقديري (ويتني وتروستن – بلوم 2003، 241-234) [12].

وتبين بعض الممارسات المحلية والممارسات المعاصرة الداعية إلى إعادة العدالة، أن رأب الصدع يتم عندما تجلس جميع الأطراف المعنية ضمن دائرة وتتحدث – عندما ينضم الضحايا، والمعتدون، وأفراد المجتمع، والمسؤولون عن تنفيذ القانون، والقضاة، معاً من أجل المشاركة في وضع خطة إصلاح. ويخبرنا أحد الإصلاحيين المعنيين بإعادة العدالة ويدعى ثوم ألينا أنه يجد في كل مرة يستخدم فيها البحث التقديري. أن الحوار ينكشف بشكل أسرع وأن الناس تزداد توقعاتها والحلول تصبح أكثر تنسيقاً وتعاوناً.

بناء الثقة والشجاعة – رأب الصدع من خلال الجوهر الإيجابي

تلتمس نظرية وممارسة إصلاح الأذى، حاجة لأن يطلق الناجون من الأذى أصواتهم حول خسائرهم وآلامهم. ويقترح البحث التقديري بأن رأب الصدع يتطلب وعياً للقوى والقدرات واستذكاراً أو إعادة تكوين الأحلام، إضافةً إلى إعادة الهوية للمجتمع. ويمكن لكل هذا أن يتم خلال المراحل الأربع.

ويتزامن النمو في حقل علم النفس الإيجابي (سيليغان 1998) مع تعليق العالم النفسي المعروف كارل يونغ الذي قال لدى نهاية عمله بأنه لم يرَ أبداً أناساً يتطورون من خلال مشكلة بل بدلاً من ذلك كانوا يتطورون تجاه قوة أخرى قادرة على بعث الحياة.

ونحن نتساءل فيما لو كانت هناك عملية من ثلاث خطوات لاستخدام البحث التقديري في حالات العنف والإساءة والأذى، أولاً ضمن مجموعات من الناجين كوسيلة يستخدمونها لاكتشاف واستيضاح قواهم ورؤاهم المنسية ولبناء الثقة والشجاعة من أجل التقدم في العلاقة مع الآخرين، وثانياً بين الجماعات المتنازعة كوسيلة لالتقاء الأطراف المعنية بشكل آمن من أجل مناقشة تجاربهم في المعاناة والأضرار إضافة إلى آمالهم وأحلامهم للمستقبل وثالثاً، عندما تسير الأطراف في العملية معاً، بما فيها المقابلات، والتصورات والتصميمات المتعلقة بمستقبل عادل، آمن ومشترك.

مثل هذه العملية التدريجية يمكن أن تقدم الوقت والأمان للأشخاص المتضررين، وتساعدهم على بناء الثقة والشفاء فيما هم يكتشفون ويناقشون أولاً قوى وقدرات وآمال وأحلام نظرائهم إضافة إلى قدراتهم وآمالهم وأحلامهم أيضاً. وأخيراً يمكن أن توفر لهم مهمة تشاركية هامة من أجل المشاركة في بناء مستقبلهم. ولقد اكتشفنا أن الناس الذين يعتبرون أنفسهم أعداء، يعملون معاً ضمن مهمة ذات أهمية، غالباً ما يبرؤون من نواقص العلاقات خلال العملية.

تصور المستقبل معاً

تختلف مرحلة الحلم في البحث التقديري عن غيرها من منهجيات التصور في طريقتين مهمتين: الأولى أنها محكومة بقصص تتولد خلال مقابلات مرحلة الاستكشاف، على سبيل المثال: أن أي شخص في أي مكان أو في أي مجتمع استطاع إيجاد نوع معين من البرامج، سوف يكون تصوره لهذا البرنامج على الأغلب حيوياً أكثر بالنسبة للمستقبل من شخص لم يعرف عن مثل ذلك، لأن معرفة أفضل الممارسات التي جرت في أماكن أخرى أو تمت تجربتها في أوقات أخرى تغني الحلم في المبحث التقديري.

الثانية: نحن نطلب من الناس أن يتصوروا العالم كمكان أفضل ومن ثم أن يتخيلوا صورة لهذا العالم ثم كيف وماذا يمكنهم أن يسهموا في هذه الصورة. وبهذه الطريقة يمكن دمج صورة المجموعة نفسها ضمن آمالها وأحلامها لهذا العالم وتصبح صورة تحمل معنىً وأساساً لإيجاد هذا العالم الأفضل.

ويمكن للبحث التقديري أن يسهم في بناء السلام من خلال منح الناس الوقت والمساحة لمناقشة وتصور الحياة التي يرغبون في عيشها معاً.

ولكن مع إدراكنا لمدى نفوذ السياسات المهيمنة والبنى السياسية والقمعية في العديد من أوضاع النزاع، تصبح التحديات التي تواجه البحث التقديري على الشكل التالي: 1) كيف يمكن جمع الأطراف المعينة المرتبطة والمتأثرة والمشتركة بهذه العملية معاً ضمن ظروف آمنة وقابلة للتطبيق. 2) كيف يمكن تعبئة ما يكفي من الوضوح والقدرة على الرؤيا والتحرك من أجل تحقيق التأثير الانتقالي الضروري لإجراء التغييرات السياسية والبنيوية والنظامية.

تصميم طرق أفضل لجمع الناس معاً

يذهب البحث التقديري إلى ما هو أبعد من القيم والعلاقات، ليصل إلى تصميم البرامج والسياسات والمؤسسات التي ترعى العدل والديمقراطية والصحة وأسباب

المعيشة بالنسبة للمواطنين. فضمن قطاع الأعمال، نستخدم البحث التقديري من أجل تسهيل إيجاد الأنظمة الديمقراطية والأنظمة ذاتية التنظيم. وفي قطاع التنمية الدولية، نستخدم البحث التقديري لتسهيل تصميم وإنشاء مؤسسات محلية ذاتية الإرادة. وفي العديد من سياقات بناء السلام، توجد حاجة ماسة للتغيير السياسي والمؤسسي. ونحن نؤمن بأن الطبيعة التشاركية والإيجابية العالية للبحث التقديري يمكن أن تخدم إيجاد ثقافات سلمية ومؤسسات تعمل على تطوير عادات وبالتالي مجتمعات سلمية.

أعطِ السلام فرصة، وأعطِ البحث التقديري فرصة

حتى تاريخ صدور هذا الكتاب، لا يكون قد مضى على ظهور البحث التقديري فلسفة وممارسة، سوى ثماني عشرة سنة. ويبين أحد الذين شاركوا في إطلاقه وهو ديفيد كوبر رايدر أنه وحتى تاريخ اليوم لم يقدم البحث التقديري من إمكانياته سوى 5٪ فقط، كمنهجية للتغيير الاجتماعي والمؤسسي. وفي هذا الفصل، حاولنا إعطاء صورة عامة عما تحقق، بالإضافة إلى إحساس عام بما هو ممكن. والدعوة الآن موجهة لكم، أيها القراء، لتأخذوا هذا النداء وتختبروا البحث التجريبي، ولتكيفوه مع عملكم وتنظروا ماذا يمكن أن نتعلم منه أكثر أو ما هي الطرق الجديدة التي يمكن لسكان العالم أن ينتفعوا عبرها من مبادئه وأفكاره وممارساته.

نحن نرحب بالتعاون بين ممارسي البحث التقديري وصنّاع السلام. ونرحب بأي أبحاث تجرى حول البحث التقديري وإمكانياته في بناء السلام، على مستوى العلاقات والمستويات المحلية والدولية. كما نرحب بتواصل الفرص لبناء الجسور عبر الحقول لتعزيز وتوسيع الجوهر الإيجابي لبناء السلام، والأكثر أهمية من هذا كله، نحن نرحب بكم في مجتمع مناصري المقاربات الإيجابية لبناء السلام، وهو مجتمع الناس الذين هم أنفسهم يشكلون التغيير الذي يرغبون به.

ملاحظات :

1. The GEM Initiative was a program of Case Western Reserve University from 1994 to 2001. Funded by the United States Agency for International Development, it provided innovative capacity-building programs in leadership, organizational strengthening, and partnership

building for NGOs all over the world. Its signature approach was based on the use of positive-change methodologies, with a special focus on Appreciative Inquiry. Through the GEM program, some one hundred NGOs were exposed to these methodologies and had the experience of using them successfully, often in the most trying of circumstances.

2. This section is excerpted from Whitney and Trosten-Bloom (2003, 18—19).
3. The following account is drawn from Dorsey (2000).
4. This section is drawn from Whitney and Trosten-Bloom (2003, 133—134).
5. For an explanation of how to craft appreciative questions, a description of what to do with the stories collected, and forty sample questions, see the *Encyclopedia of Positive Questions* (Whitney, Cooperrider, Trosten-Bloom, and Kaplin 2002).
6. This account, here and continuing in a section below, is drawn from IISD (2001).
7. This is the title of an annex to the project's final report (IISD 2001, 23—30).
8. For more on GTE'S use of Appreciative Inquiry, see Cooperrider and Whitney (1999, 7—9) and Whitney, Cooperrider, Garrison, and Moore (2002).
9. This section is drawn from Hlatshwayo, Khalsa, and Muyoya (2000).
10. For an overview of the various forms of engagement for Appreciative Inquiry, see Whitney and Trosten-Bloom (2003).
11. For a comprehensive description of the Al Summit and its uses, see Ludema, Whitney, Mohr, and Griffin (2003).
12. The other five freedoms commonly associated with Appreciative Inquiry are: the freedom to be known in relationship; the freedom to dream in community, the freedom to choose to contribute, the freedom to act with support, and the freedom to be positive (Whitney and Trosten-Bloom 2003 238-25 1).

مراجع :

Ashford, Graham, and Saleela Patkar. 2001. *The Positive Path: Using Appreciative Inquiry in Rural Indian Communities.* Winnipeg, Canada: Institute for Sustainable Development. http:Ilwwwiisd.org/pdfl200l/aijhe....positive..path.pdf.

Christian Reformed World Relief Committee (CRWRC). 1997. *Partnering To Build And Measure Organizational Capacity* Grand Rapids, Mich.: Christian Reformed World Relief Committee.

Cooperrider, David L., and Diana Whitney. 1999. *Appreciative Inquiry.* San Francisco: Berrett-Koehler.

Dorsey, David. 2000. "Positive Deviant." *Fast Company* (December). http://www.fastcompany.com/online/41/sternin. html.

GEM Initiative. n.d. [1998]. "Breakthrough Illustrative Stories." Internal evaluation report, GEM Initiative, Washington, D.C.

Hlatshwayo, Godwin, Gurudev Khalsa, and T.S. Muyoya. 2000. "The Dawning of the Development Centre in Malawi: A Case Study of North-South Cooperation In Transforming World Learning's SHARED Project." A study conducted by the Institute for Development Research, Boston, Mass.; MWENGO, Harare, Zimbabwe; and GEM Initiative, Washington, D.C.

International Institute for Sustainable Development (IISD). 2001. *Integrating Aboriginal Values into Land-Use and Resource Management: Final Report, January 2000 to June* 2001.



Winnipeg, Canada: IISD. http://www.iisd.org/ pdf/skownan finaLnopics.pdf.

Kinghorn, Meg. 2001. *The Partnership Toolbox: A Facilitator's Guide to Partnership Dialogue.* Baltimore: Catholic Relief Services; Washington, D.C.: Pact Publications.

Lederach, John Paul. 1997. *Building Peace: Sustainable Reconciliation in Divided Societies.* Washington, D.C.: U.S. Institute of Peace Press.

Ludema, James, Diana Whitney, Bernard Mohr, and Thomas Griffin. 2003. *The Appreciative Inquiry Summit.* San Francisco: Berrett-Koehler. Forthcoming.

Rainey, Mary Anne. 1996. "An Appreciative Inquiry Into the Factors of Culture Continuity During Leadership Transition.' *Organization Development Practitioner* 28:1 and 2, pp. 34—41.

Schiller, Marjorie. 2002. "Imagining Inclusion: Men and Women in Organizations." In *Appreciative Inquiry and Organizational Transformation: Reports from the Field.* Ronald Fry, Frank Barrett, Jane Seiling, and Diana Whitney, eds. Westport, Conn.: Quorum Books.

Seligman, Martin E.P 1998. "Building human strength: psychology's forgotten mission." *American Psychological Association Monitor* 29:1 (January). http:Ilwww.apa. orglmonitor/jan98/pres.html.

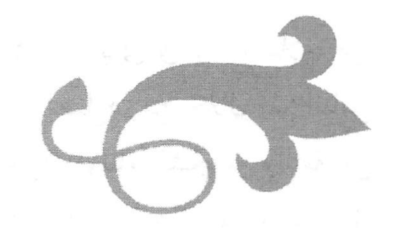
Whitney, Diana, David L. Cooperrider, Maureen E. Garrison, and Jean P Moore. 2002. "Appreciative Inquiry and Culture Change at GTE: Launching a Positive Revolution." In *Appreciative Inquiry and Organizational Transformation: Reports from the Field.* Ronald Fry, Frank Barrett, Jane Seiling, and Diana Whitney, eds. Westport, Conn.: Quorum Books.

Whitney Diana, David L. Cooperrider, Amanda Trosten-Bloom, and Brian Kaplin. 2002. *Encyclopedia of Positive Questions.* Cleveland, Ohio: Lakeshore Communications.

Whitney, Diana, and Amanda Trosten-Bloom. 2003. *The Power of Appreciative Inquiry: A Practical Guide to Positive Change.* San Francisco: Berrett-Koehler.

إن العالم الذي صنعناه نتيجة لمستوى الأفكار التي وضعنا، أوجد حتى الآن مشاكل لا يمكننا حلها على نفس مستوى الأفكار التي أدت إلى ظهورها.

البرت أينشتاين



الفصل الثالث

البحث التقديري في بناء السلام

تخيل الممكن

كلوديا ليبلير وسينثيا سامبسون

يدمج هذا الفصل بين تصورات مأخوذة عن الفصلين السابقين من خلال الربط بين الأسس النظرية للبحث التقديري وممارساته مع أسس حل النزاعات وبناء السلام. كذلك يربط الفصل أسس البحث التقديري بعدد من الحالات الدراسية لمقاربات إيجابية في بناء السلام وردت في هذا الكتاب. ويختتم الفصل باكتشاف كيف تم تطبيق المراحل الأربع للبحث التقديري (الاكتشاف، الحلم، التصميم، والتسليم) أو كيف يمكن تطبيقها في سياق عمليات بناء السلام. ويوضح بعض الطرق التي يمكن فيها إقران عملية البحث التقديري ببعض أنواع من حالات النزاع.

*

يقوم هذا الفصل بحياكة الخيوط الذي مرت سابقاً ضمن نسيج واحد ويشكل مدخلاً للفصول التي تليه. ففي الفصل الأول نظرنا إلى تطور حقل بناء السلام وإلى الفرضيات والمبادئ الأساسية التي تقف وراءه وإلى أمثلة عن العناصر الإيجابية الموجودة ضمن ممارساته. أما في الفصل الثاني فقد قمنا بإدخال نظرية وممارسة البحث التقديري كما تطورت من الأوضاع المؤسسية للشركات بشكل رئيسي إلى تطبيقات أخرى لها في التنمية الدولية وأصعدة التغيير الاجتماعي. وقد اختتم الفصل الثاني

بعرض رؤية لخمس طرق يمكن فيها استخدام البحث التقديري في بناء السلام: من خلال المساعدة بتحويل الإحساس بالعجز إلى الالتزام بالعمل؛ ومن خلال جمع الناس الذين لا يمكن أن يلتقوا لو لم تكن هذه الأداة موجودة؛ وبناء الشجاعة والثقة من أجل رأب الصدع بعد وقوع الأذى؛ ومساعدة الأطراف المتنازعة على تصور المستقبل معاً، وخامساً من خلال وضع التصاميم لطرق أفضل للعيش معاً.

في هذا الفصل، نقوم بالتقاط خيوط تلك الرؤية وننظر بشكل أكثر جدية إلى كيفية تطبيق البحث التقديري أو إمكانية تطبيقه في عملية بناء السلام[1]. ونبدأ باستكشاف الأسس الفكرية والنظرية لهذا البحث فيما يتعلق ببناء السلام ثم نربط بين المراحل الأربع للبحث – الاستكشاف، الحلم، التصميم، التسليم، وبين ممارسة بناء السلام. والهدف الرئيسي من هذه المهمة الأخيرة هو إيضاح بعض إمكانيات البحث التقديري في التكيف والارتجال ضمن سياقات بناء السلام.

وهذا الفصل يستمر بروح استكشافية وهو لا يدعي تغطية جميع الاحتمالات أو امتلاك جميع الأجوبة. ولكن بعيداً عن ذلك، نقدم لكم دعوة أخرى أعزاءنا القراء للاستكشاف والتوسع والتكيف مع الأفكار والممارسات الواردة هنا وفيما أنتم تفعلون ذلك، نأمل في أن تشركونا في تجاربكم وتحدياتكم ونجاحاتكم مهما كبرت أو صغرت[2].

الأسس النظرية والفكرية للبحث التقديري

لقد وصف البحث التقديري بأنه: بحث تعاوني من أجل تقديم الأفضل للناس، ولمؤسساتهم وللعالم حولهم. ويشمل الاكتشاف المنهجي لما يعطي الحياة لنظام ما عندما يكون في أفضل فاعليته وقدرته اقتصادياً، وبيئياً، وإنسانياً. كما يشمل فن وممارسة طرح الأسئلة. التي تعزز قدرة النظام على رفع درجة إمكانياته الإيجابية (كوبر رايدر وويتني 1999، 10).

وقد ينظر إلى البحث التقديري على أنه رحلة – ليست من النوع التي تخطط لها منذ ثلاثة أشهر أو تحجز نزهاتها وغرف فنادقها مسبقاً، ولكنها رحلة تبدأ بالارتجال وبدرجة معينة من المخاطرة؛ رحلة تبدأ برؤية عامة للاتجاه إضافة إلى فكرة محددة عن نوعية المركب الذي ستنطلق فيه مع بقاء الباب مفتوحاً لأحداث غير متوقعة قد تحصل على الطريق. وكما في رحلتنا هذه، علينا أن نتخذ عدة تدابير. وفي هذا القسم من الفصل، نقوم باستكشاف الأفكار والنظريات الأساسية الدافعة لعملية البحث التقديري، خاصة فيما يتعلق ببناء السلام.

الأفكار الرئيسة للبحث التقديري

تم تطوير البحث التقديري في أواسط حقبة الثمانينات من قبل دافيد كوبر رايدر وزملائه الذين كانوا يدرسون السلوكيات المؤسسية في كلية ووترهيد للإدارة والتابعة لجامعة كيس وسترن ريزيرف Case Western Reserve. وبناءً على الأبحاث التي أجروها في حقول مثل السلوك المؤسسي، وعلم النفس، والطب، والتعليم وعلم الاجتماع بالإضافة إلى تجاربهم الشخصية في العمل مع المؤسسات، قاموا بتحدي النظريات التقليدية للتغيير ووضعوا مجموعة جديدة من الأفكار التي خضعت للتجربة ثم تشكلت من قبل العاملين خلال سنوات التدخل. ونورد هنا بعض أهم الأفكار التي تشكل أساس البحث التقديري:

الربط بين الصورة والعمل: أظهر البحث الذي أجراه كوبر رايدر، وقدم فيه أمثلة من مختلف الحقول، بشكل واضح أن أعمالنا ترتبط بتصورنا للمستقبل (1990). ولعل أفضل النظريات المعروفة التي تبين هذا الربط هي نظرية تأثير الأدوية التي تُعطى لإرضاء المريض وهي نظرية مأخوذة عن الطب، ونظرية حركة بيجماليون Pygmalion Dynamic المأخوذة عن حقل التعليم.

وقد أظهرت دراسات نظرية تأثير الأدوية الموثقة والعائدة إلى تاريخ أواسط حقبة الخمسينات في الولايات المتحدة أن الناس الذين يُعطون حبوب سكر اعتقاداً

منهم أنهم يتناولون دواءً حقيقياً يتحسنون بنفس الدرجة التي يتحسن فيها أولئك الذين يتناولون الدواء الحقيقي. ورغم بقاء الموضوع محل خلاف لما يقارب العشرين سنة، إلا أن الجميع في حقل الطب أصبحوا يتقبلون الآن بأنه في أي مكان في العالم يُظهر ثلث إلى ثلثي المرضى تحسناً نفسياً وعاطفياً في الأعراض فقط من خلال اعتقادهم بأنهم يتناولون علاجاً فعالاً. (بيشر 1955، وايت، تيرسكي وشوارتز 1985).

وقد أظهرت دراسات بيجماليون التي أجريت داخل صفوف المدارس الأميركية خلال حقبة الستينات (روزنتال وجاكوسبون 1968) مدى قوة الصورة التي يحملها الشخص الآخر عنا، سواء كانت سلبية أو إيجابية في التأثير على مسلكية ذلك الشخص تجاهنا وفي تشكيل أدائنا أيضاً. في هذه الدراسات، تم إبلاغ الأساتذة بأن إحدى مجموعات الطلاب ضعيفة الإنجاز وضعيفة الذكاء أيضاً ولا تتصرف بشكل سوي في الصف. أما الفئة الثانية فقد وصفت بأنها مجموعة من الأذكياء، الناجحين والعاملين بجد في دروسهم وقد آمن الأساتذة بحقيقة الأمر رغم أن تقسيم الطلاب ضمن هاتين الفئتين كان في الواقع عشوائياً. وخلال فصل واحد، وبدون استثناء، ظهر أن الطلاب الذين وسموا بالضعف قد قدموا أداءً ضعيفاً بينما أبدعت الفئة الثانية. وقد تبين أن الصورة التي حملها الأساتذة عن الإمكانيات المستقبلية للطلاب قد أثرت على أداء الأساتذة من ناحية إبداء المزيد من الصبر مع الطلاب الذين وصفوا بالإيجابية، كذلك من ناحية مقابلتهم بشكل أكبر وتقديم التشجيع لهم وهكذا.. ولكن هذه التجارب تم إيقافها لأن نتائجها كانت مدمرة.

والمجموعات الناجحة هي تلك التي تمتلك صورة إيجابية مرشدة، واسعة المشاركة وتخضع للعمل. لذلك يقضي المشاركون في البحث التقديري وقتاً كبيراً في إيجاد الصورة المشتركة. وكذلك الأمر في بناء السلام، إذ تشكل عملية الربط بين الصور والأحداث هدفاً حتمياً للعاملين الذين يستخدمون أساليب مصممة لاستبدال الصورة السلبية للحرب أو العدو أو الآخرين الذين يعتبرون لا إنسانيين (المرتبطين بأعمال التدمير والشر) بمجموعة مختلفة من الصور والأحداث. وفي هذا الكتاب،

على سبيل المثال نرى كيف ساعد تطور رؤيا مشتركة لمجتمع سلمي من قبل أعداء سابقين على تطوير ثقافة للسلام داخل إقليم يوسولوتان المبتلى بالعنف في السلفادور (الفصل الخامس)؛ وكيف أدى التغير في صورة الآخرين إلى تحقيق اختراقات في التفاهم وإلى إقامة علاقات بين الأعداء السابقين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في أوروبا. (الفصل 11) وفي جنوب أفريقيا (الفصل 15) وفي البوسنة (الفصل 17).

تتحرك الفئات باتجاه الأسئلة التي تضعها

تحدد نوعية الأسئلة التي يطرحها الناس نتيجة أسئلتهم، وهذه النتيجة تضعهم في اتجاه التغيير. وفي بناء السلام، يحمل هذا الموضوع مضامين كبيرة للذين يرغبون في التدخل من أجل حل النزاعات، ليس بالنسبة لمحتوى الأسئلة فحسب بل بالنسبة لتأثير هذه الأسئلة أيضاً على رؤية الأطراف المتنازعة لبعضها البعض وإمكانياتهم الجماعية لإحداث تغيير بناء. والسؤال المحفز على صعيد بناء السلام هو: ما هي الموارد والشروط والممارسات والعلاقات الموجودة في النظام والتي من شأنها أن تعزز السلام، مثل هذه المقاربة تظهر بوضوح في التقدير الاستراتيجي للفرص في غينيا – كوناكري، والذي أجرته شبكة غرب إفريقيا لبناء السلام ضمن مساعيها لإطلاق قدرات توليد السلام الفطرية في المجتمع الغيني (انظر الفصل 8).

جميع الأنظمة الإنسانية تملك شيئاً في ماضيها أو في حاضرها تعتبره قيّماً

جميع الأنظمة، بغض النظر عن مدى اضطرابها، يمكنها العثور على ممارسات أو خبرات أو طرق للعيش تعمل بشكل جيد أو أنها كانت تملك مثل هذه الطرق في وقت ما من تاريخها (انظر على سبيل المثال، التاريخ المميز للتعايش الخلّاق بين المسلمين والمسيحيين واليهود في عهد إسبانيا المسلمة والعهود الشرق الأوسطية الوسطى؛ يرد وصفها في الفصل 7) ويشدد البحث التقديري تركيزه التحليلي على هذه الأنواع من العناصر – الأسباب الكامنة في جذور النجاح – كأسس لصنع التغيير، بدلاً من النظر إلى النواقص والمشاكل التي يعاني منها النظام.

وقد كتبت ماري إندرسون ما يلي: « حتى، عند اندلاع الحروب، تظل القدرات المحلية لصنع السلام موجودة، وهذه القدرات تعتبر مهمة لأنها توفر الأساس الذي يمكن بل يتوجب بناء السلام عليه ». وتحدد ماري إندرسون خمسة أصناف من قدرات السلام هي: النظم والمؤسسات، المواقف والأعمال، المصالح والقيم المشتركة، الخبرات المشتركة، والرموز والمناسبات. (1999، 24). وضمن لغة البحث التقديري، تعتبر القدرات السلمية التي تحتويها هذه الأصناف عناصر ذات جوهر إيجابي في نظم النزاعات يتم اكتشافها من خلال البحث وتقوم بتوفير أسس التصور والتخطيط والتنفيذ في عمليات تغيير النظم. ومن خلال استباق عملية الصور بالبحث الهادف إلى اكتشاف القيم الإيجابية والقوى الاجتماعية والموارد الثقافية والدينية، وممارسات حل النزاعات الفطرية، والتجارب الناجحة في العيش مع الاختلاف وغيرها من عناصر الجوهر الإيجابي، يتم تأسيس العمل نحو التغيير على حقائق هي أفضل ما في النظام.

خمسة مبادئ للبحث التقديري

هناك خمسة مبادئ رئيسية توجه البحث التقديري. كما أن بناء السلام، وبطرق عدة، يعتمد في توجهه على نفس هذه المبادئ، رغم عدم ظهورها بوضوح ضمن النظرية أو الممارسة. وفي هذا الفصل، سنقوم بتحديد كل من هذه المبادئ ونناقش علاقتها ببناء السلام.

المبدأ التفسيري: يمكننا إيجاد ما نستطيع تصوره، يقول المبدأ التفسيري أننا جميعاً نضع معنى لعالمنا بناءً على عاداتنا وتقاليدنا وتعاليمنا ونظرتنا إلى هويتنا. ما نؤمن أنه حقيقي في هذا العالم نوجده من خلال محادثاتنا الاجتماعية والحوارات التي نقيمها مع بعضنا البعض.

وهذه الحوارات تقودنا إلى الاتفاق حول رؤيتنا للعالم، وحول تصرفاتنا وحول ما يمكن أن نتقبله كحقيقة. والطرق التي نتفهم فيها العالم عادةً، إضافة إلى الأفكار والتصنيفات التي نستخدمها تكون في العادة محددة حضارياً وثقافياً. كما تعتمد تصنيفاتنا على الزمان والمكان الذي نعيش فيه وسط هذا العالم.

وهذه الأفق تترك أثرها على خبراتنا في النزاع. فنرى جون بول ليديراخ.. يقدم لنا وجهة نظر تفسيرية تبين أن الناس يتصرفون بناءً على ماذا تعني الأشياء لهم. ويأتي المعنى عبر معرفة متراكمة ومشتركة. وقد طوّر الناس من مختلف البيئات الثقافية طرقاً عديدة لإطلاق النزاعات والتعبير عنها إضافة إلى تفسيرها والتعامل بها. (1995، 10). والمعنى ليس ثابتاً ولربما يمكن إيجاد معنى بشكل مستمر عبر التجارب الجديدة والأشكال الجديدة للمعرفة المتراكمة والمشتركة.

لذلك، ينبغي لصانع السلام في أي ظرف كان، أن يكون ماهراً في فن القراءة، والتفهم وتحليل النزاع ضمن بناء إنساني حي. فما نظن أنه صحيح في أي نزاع – أي الطريقة التي نعرفه فيها – يؤثر على طريقة تصرفنا وعلى الطريقة التي نتوجه فيها للتغيير ضمن ذلك النظام (انظر، على سبيل المثال، الدور الذي تلعبه عملية إعادة كتابة القصص في تغيير علاقة عدائية سابقة بعد انتهاء مرحلة التمييز العنصري في جنوب إفريقيا (الفصل 15). إذن تنطوي مهمة صانع السلام في البداية على تفهم كيف يقوم الناس بتشكيل أنظمة معانيهم بالنسبة لمجتمعهم ولعدوّهم الذي وصفوه.

ونلاحظ هنا، على أي حال، أن القراءة الاجتماعية التفسيرية للنزاع لا تتم دولياً من قبل مؤيدين وعاملين ذوي توجهات إيجابية لصنع السلام، أو على الأقل لا تعتبر تفسيراً كافياً وكاملاً لمسلكيات النزاعات وحراكها. وفي نظرتهما إلى مدى الإسهام الإيجابي للبحث التقديري في السياقات المعقدة لبناء السلام والتنمية، تتحدى ماري هوب شفوبل وإيرين ماكاندلاس الفكرة القائلة بأنـّا نملك القوة الحتمية اللازمة لإيجاد فرص حياتنا وإعادة خلق ظروفها (انظر الفصل 10) كما تناقش الاثنتان بأننا ولدنا ضمن ظروف ومع ظروف متعددة في الحياة، وأن هذه الظروف قد تتحدد بنيتها من خلال المؤسسات أو الظروف البيئية أو الممارسات الحضارية التي تحيط بنا.

المبدأ الشاعري: في أي ثقافة، يعتبر ماضي الناس وحاضرهم ومستقبلهم مصادر لا نهاية لها بالنسبة للتعلم والإلهام والتفسير والاحتمالات، تماماً مثلما تعتبر القصيدة

الجيدة مفتوحة أمام تفسيرات لا نهاية لها. يقر المبدأ الشاعري بأن الناس وثقافتهم يشبهون كتباً مفتوحة، يشارك في كتابتها الناس أنفسهم بشكل دائم، إضافة إلى الناس الذين يتفاعلون معهم من الخارج. ويثمن المبدأ الشاعري رواية القصص كوسيلة لجمع المعلومات الشمولية التي لا تشمل الحقائق فحسب بل تشمل أيضاً المشاعر وتتجاوز المعلومات التي يمكن إثباتها أكثر اللحظات الملهمة التي تحمل معنى في حياة الفرد أو المجموعة أو المجتمع. فعلى سبيل المثال، وفي مجموعات الحوار التي تشمل المخنثين والكنيسة الإنجيلية في كاليفورنيا، تتم المشاركة في رواية قصص منقولة عن تجارب شخصية ودينية مؤثرة تتيح المجال أمام ظهور مستوى عميق من الترابط بين المسيحيين المنقسمين بشدة أمام التفسيرات اللاهوتية المتعلقة باللواط (انظر الفصل 14).

وتحمل القصص معاني وحقائق تراوغ حتى أكثر أنظمة التوثيق تعقيداً. وفي عمليات بناء السلام التي تستخدم مقاربات تستخرج قصصاً ذات معنى، يصبح بالإمكان تقييم التعلم المتضمن في حضارات وتجارب الناس من أجل وضع استراتيجيات سلام ملائمة حضارياً ومستدامة.

المبدأ التزامني: توجد بذور التغيير ضمن الأسئلة التي نطرحها. ويقر مبدأ التزامن أن البحث والتغيير لا يتمان في فترات منفصلة ولكنهما يأتيان متزامنين ولذلك يعتبر البحث عملية تدخل أيضاً. ولكن النتيجة التي نحصل عليها لا تأتي من طريقة تحليلنا للنزاعات وتقييمنا للحاجات فحسب، بل إن الأسئلة تقودنا إلى القصص التي توجد الحوارات والتي بدورها تشكل كيفية بناء الناس المنخرطين في النزاع لمستقبلهم.

ولعل أكثر الأشياء التي يفعلها صانع السلام تأثيراً، هي تشكيله للأسئلة. ولكي نقدم لكم مثلاً من هذا الكتاب، فقد قدّم البحث التقديري حول موضوع رأب الصدع والتنمية بعد وقوع الضرر، والذي أجري مع صنّاع سلام هم أنفسهم كانوا ضحية الضرر، رؤية ذات معنى حول الموضوع بالنسبة للباحثين الذين أجروا

المقابلات، إضافة إلى منظور جديد بالنسبة للذين تمت مقابلتهم. وقد ساعد هذا العديد منهم على تقدير مدى ما وصلوا إليه من درجة الشفاء وعزز من ثقتهم وعزمهم على دعم شفاء الآخرين (الفصل 16).

المبدأ التوقعي: نحن نتوقع المستقبل، بناءً على الصور التي نحملها في الحاضر. وهذه الصور توجهها عادات التصور الجماعي. ويقر المبدأ التوقعي بأن تصرفاتنا ليست مبنية على ما ولدنا معه أو ما تعلمناه في بيئتنا فحسب، ولكنها مبنية أيضاً على ما نتوقع، أو نتصور أو نعتقد أنه سيحصل في المستقبل.

وهذا المبدأ أساسي في بناء السلام، فالناس المنخرطون في النزاع يحملون توقعات سلبية، ويتصرفون بشكل يؤذي الطرف الآخر، بناءً على تجاربهم السابقة. وأحياناً يستمر هذا التوقع حتى في وجه ظهور دلائل تشير إلى عكسه. والعمل من أجل اقتلاع هذه الصور المحفورة بعمق حول النزاع ومن أجل إتاحة المجال أمام ظهور صور أكثر إيجابية يعتبر في صلب عملية بناء السلام.

ويزخر هذا الكتاب بالأمثلة حول الجهود المبذولة لاستخدام التصور الإيجابي في إحياء صور جديدة للمستقبل. ونورد هنا مثلاً إيجابياً خلاّقاً حول مشروع يتضمن أغنية أصلية ورواية قصص، أطلق كردّ على اعتداءات 11/9 الإرهابية في الولايات المتحدة، ووضع رؤية لكيف يمكن لمدرسة ثانوية واحدة أن تغير العالم وتجلب نهاية للحروب. ومع توسع هذه الرؤية ووصولها إلى مشاهدين أكثر وأكثر، أطلقت موجات من الردود تجاوزت حدود المدرسة وداخلها. (انظر ملحق الفصل السادس).

المبدأ الإيجابي: الموقف الإيجابي معدٍ كما الموقف السلبي. وتوجد هناك قوة في الأسئلة الإيجابية. ويحمل المبدأ الإيجابي فكرة رئيسية تقول أنه إذا كانت الصورة تؤدي إلى التحرك فإن الصورة الإيجابية تؤدي إلى تحرك إيجابي. وفي عملية بناء السلام، يصبح تقدير الأمل في الظروف التي تبدو يائسة، ضرورياً إذا رغبت الأطراف في المواظبة على إيجاد مستقبل مختلف. والبحث الإيجابي قد يشكل ترياقاً ضد السخرية.

وهذا المبدأ، على أي حال يبتعد عن المجرى الرئيسي لممارسات بناء السلام التي تركز على تحليل جذور أسباب الصراع بهدف إزالتها. وفي عملية بناء السلام، كما سنرى في عدد من فصول هذا الكتاب، يعتبر موقف: « كلا الطرفين معاً » موقفاً مضموناً. فعلينا أن نعطي مجالاً لسماع أصوات قصص المعاناة والضياع والألم ونساعد الناجين على إدراك قوتهم وشجاعتهم وقدرتهم على التحرك إلى الإمام وتجاوز الضرر. كما أن علينا السماح باعتراف يحترم المظالم التي وقعت سابقاً، وتشجيع التصور الإيجابي للمستقبل كطريقة لخلق التغيير الإيجابي. فقد رأينا، على سبيل المثال في الفصل الثاني، كيف سمحت المشاركة في قصص الحرب، لموظفي خدمات الإرشاد المسيحي في سيراليون، بتقدير قوة وقدرات هيئتهم التي ظهرت خلال أزمة النزاع وغرس البذور من أجل رؤية جديدة.

رحلة مع البحث التقديري / دعوة للتجربة

نتحول الآن لاستكشاف كيف تم استخدام البحث التقديري أو كيف يمكن أن يتم استخدامه في سياقات بناء السلام. في العادة، عندما يسمع الناس بالبحث التقديري لأول مرة، سواء كانوا عاملين به أو مشاركين محتملين، تبرز عدة أسئلة في أذهانهم.

هل يمكن للبحث التقديري أن يؤثر في ظروف النزاعات السياسية والإثنية العميقة الجذور؟ هل يمكن لهذه الطريقة في العمل التي انبثقت من حقل التنمية المؤسسية، أن تُستخدم من قِبل مجتمعات كاملة فيما هي تسير نحو تغيير العلاقات والبنى والأنظمة؟ هل يمكنه إصلاح المظالم وتغيير علاقات القوى غير المتكافئة؟ هل يمكن للبحث التقديري مساعدة الناس على التعامل مع الخوف وعدم التسامح وغياب الثقة والكراهية؟ .

بالنسبة لهؤلاء المتورطين في نزاع مدمر، يصبح السؤال شخصياً نوعاً ما. هل التركيز على الإيجابي يؤدي إلى تبسيط الوضع المعقد الذي وجدوا أنفسهم فيه ويؤدي بالتالي إلى طمس وتجاهل وتسخيف معاناتهم وآلامهم؟ هل سيسمع صوتهم؟ هل

سينظر بعين الاعتبار إلى معاناتهم وهل سيعلنونها؟ كيف يمكنني أن أثق بعدو ارتكب شخصياً الاعتداءات وتسبب بخسائر لي.

ندعوكم إلى أخذ مثل هذه الأسئلة، وتجربة هذه الأفكار باستخدام المراحل الأربع للبحث التقديري أو أجزاء منها وتكييفها مع الاحتياجات والخصوصيات التابعة لسياق عملكم. وبعيداً عن عملية صارمة ومصاغة سابقاً، توجد تطبيقات محتملة للبحث التقديري بقدر عدد العاملين به. وفي الأقسام التي تبقت من هذا الفصل سوف نقترح بعض الطرق من أجل التفكير باستخدام البحث التقديري في بناء السلام، ابتداءً من تحديد بعض الأصعدة الأخرى لممارسته حيث يمكن إيجاد موارد مساعدة.

تقييم ممارسة البحث التقديري

رغم أن القسم الأكبر من الخبرة المتعلقة بالبحث التقديري جاءت من عمليات بناء القدرة المؤسسية للشركات وللمنظمات غير الربحية، فقد تم استخدامه أيضاً في:

- بناء تحالفات وشبكات دولية وإقليمية من مؤسسات التغيير الاجتماعي مثل معهد ماونتن (كاغسماركي 1996) ومبادرة الأديان الموحدة (انظر الفصل 19؛ وجيبس وماهي [2003]).
- تقوية الشراكات بين المنظمات الدولية والمحلية غير الحكومية (انظر وكالة الإغاثة الكاثوليكية، عدة المشاركة، [كنغ هورن 2001]).
- تفويض المجتمعات لاكتشاف واستخدام قواها المتميزة وموجوداتها بكفاءة من أجل بناء مستقبل أفضل (انظر تخيل ناغالاند [الفصل 9] والمشروع الذي ألهم عملها، تخيل شيكاغو [كوبر برايدر 1996، براو 2001، بيلسي 2001]؛ انظر أيضاً تشيب [2002] حول استخدام البحث التقديري في نزاع عرقي شب في ضاحية كليفلاند).
- تصميم وتنفيذ سلسلة واسعة من برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية في حقول التعلم، والتثقيف والصحة والزراعة وغيرها. (انظر الأمثلة في الفصل 2؛ كذلك انظر أولي سينا وبووي [1997]؛ ليبلير وروش [1998]؛ أوديل [2002]).

بالإضافة إلى ذلك، ما زالت هناك تجارب صحية تستخدم أفكار البحث التقديري، على سبيل المثال، في دمج العمليات التقديرية مع البحث المستقبلي ضمن منهجية تعتمد رؤية جماعية وتحركاً تغييرياً (ويسبورد وجانوف 1995؛ كاغسمار سكي وخالصا 1997؛ صندوق الأمم المتحدة للأطفال 2000) تحت اسم تقنية الحقل المكشوف، وهي منهجية تستخدم لتنظيم اللقاءات عبر مجموعات عمل مدارة ذاتياً وعبر قيادة موزعة (أوين 1997 أ ؛ 1997 ب؛ معهد الحقل المكشوف. إن. دي 2003) وعبر المقاربات القائمة على القدرات التي أوجدها معهد تنمية المجتمع القائم على الموجودات (كرتزمان وماكنايت 1993).

وحول العالم اليوم، تتم تجربة البحث التقديري وغيره من مقاربات التغيير الإيجابية، وتكييفها مع الأطر المحلية لبناء السلام، كما يظهر العديد من فصول هذا الكتاب. والبحث التقديري والعاملون فيه هم جزء من حركة أكبر لهؤلاء الذين يقومون باستكشاف المقاربات الإيجابية للتغيير من أجل إنعاش عمليات التغيير بشحنات الأمل وإمكانية الإبداع والخلق،والتغيير الموجّه ذاتياً.

عملية البحث التقديري في بناء السلام

في هذا الفصل، سوف ننظر في بعض الطرق التي قد تستخدم فيها مراحل البحث التقديري الأربع ضمن أطر بناء السلام. غير أننا سننظر أولاً في بعض الخطوات التحضيرية لتقييم مدى ملاءمة استخدام البحث التقديري في إطار معين ووضع الأسس لتطبيقه، إذ اعتبر ملائماً.

التحضير لعملية بحث تقديري

لكي تدخل بفعالية في عملية البحث التقديري من أجل بناء السلام، يتوجب على الأطراف المتنازعة أن تجهز نفسها للتوجه نحو بناء مستقبل جديد معاً. ومن المهم إعطاء الوقت الكافي لاستكشاف فيما لو كان البحث التقديري هو المركب المناسب لهم لكي يستقلوه نحو الخطوة القادمة. ومن خلال المشاركة في نظرة عامة لفلسفة

البحث التقديري ومراحله الأربع، ومناقشة درجة رغبة الأطراف في دخول عملية تغيير إيجابية وتقاسم الآمال والتوقعات والمخاوف حول ما قد ينبثق عنها، يمكن إيجاد مساحة آمنة للبدء بهذا العمل.

يوجد هناك عدد من المؤشرات التي تدل فيما لو كان الوضع مناسباً بشكل خاص لهذه المقاربة. وتشمل هذه المؤشرات ما يلي:

- هل يوجد إحساس مشترك بأن الوقت مناسب للبدء بعمل نحو مستقبل إيجابي؟
- هل يشعر الزعماء بدرجة من الارتياح للأفكار التي يقدمها البحث التقديري.
- هل توجد لدى أعضاء المجموعة خبرة باستخدام العمليات التشاركية؟
- هل يوجد بين أعضاء المجموعة من يرغب في ارتياد المخاطر؟
- هل بينهم من يستطيع رؤية احتمالات لا يراها آخرون؟
- هل البيئة المحيطة (الأطراف المعنية، موقف الحكومة، حراك النزاع، الأحداث الدولية...) تدعم التغيير.

إذا ما تواجدت مثل هذه الظروف، تتواجد الإمكانية للتغيير. وحتى عندما لا توجد مثل هذه المؤشرات، تظل هناك إمكانية لاستخدام العملية من أجل إيجاد هذه المؤشرات، على سبيل المثال، من خلال عمل تقديري أولي مع الأطراف بشكل فردي (انظر لاحقاً) لذلك يبقى البحث التقديري طريقاً قيّماً للتقدم إلى الأمام.

تصميم عملية البحث التقديري من أجل بناء السلام – تغييرات في الفكرة

حال اتخاذ القرار بالانطلاق، تتحرك مرحلة التحضير إلى الأمام واضعة التصاميم المتعلقة بالعملية الشاملة من أجل استخدامها في البحث التقديري. كل وضع يكون فريداً بينما يمتلك البحث التقديري قدرة على التكيف والتعديل لكي يستفيد من الموارد المتواجدة في كل وضع وليطّلع على قيوده.

وفي سياق عملية بناء السلام، قد يكون من الملائم التحرك عبر المراحل الأربع أكثر من مرة أو استخدام الخطوات الأولى في الدائرة « الاستكشاف أو الحلم » ضمن

عمل أولي مع الأطراف المتنازعة، كل على حدة قبل محاولة تولي العملية بأكملها. في مثل تلك الحالة، يمكن للجولة الأولى أن تشمل البحث في عناصر الجوهر الإيجابي – مثل القيم، القدرات، الطاقات، الموارد من أجل السلام، وتجارب التعاون عبر حدود الاختلافات – إضافة إلى رؤية أولية ضمن أطر الجماعات الفردية – بعد ذلك يتم تبادل تلك القصص والأحلام بين الجماعات كخطوة أولى تجاه جلبهم للحوار. وإذا كانت تلك الجماعات تملك تاريخاً مشتركاً من علاقات العيش، تصبح الجولة الثانية عندئذٍ بحثاً مشتركاً في الجوهر الإيجابي للعلاقة بين الجماعات من أجل اكتشاف إمكانيات إيجاد علاقة بناءة ووضع الأسس لرؤية مشتركة لمستقبل يقوم على التعايش السلمي. وسوف نرى مثل هذه المقاربة ذات المرحلتين، مبنية على شكل نموذج ورشة عمل لحوار تقديري، تم اقتراحه من أجل معالجة النزاع القائم بين دولتي بوليفيا وتشيلي (انظر الفصل 13).

وقد يختلف مدى وسلوك مرحلة الاستكشاف بطرق أخرى كذلك، فإذا شمل البحث جميع الأطراف المتأثرة بشكل ما من الصراع، فقد يدخل في مئات المقابلات مع أشخاص من جميع القطاعات المتأثرة داخل المجتمع. ولعل بحثاً بهذا المدى، قد يستغرق إتمامه عدة أشهر. وعندما يكتمل جمع المعلومات وتجميعها، يصبح بالإمكان اختيار مجموعة ممثلة لمختلف الأطراف المعنية وجمعها معاً من أجل العمل بهذه المعلومات والتحرك عبر المراحل الأربع في بناء رؤية للمستقبل، وتصميم البناء الاجتماعي اللازم لدعم مثل هذه الرؤية ورسم الخطوات القادمة نحو التطبيق.

أو يمكن ضمان تركيبة عكسية بحيث تجرى المقابلات (أو المراحل الأربع بأكملها) ضمن مجموعة صغيرة في إطار ورشة عمل وثم إعادة الكرّة مع مجموعة أكبر إذا ما تم إيجاد دفع نحو اشتراك أكبر. والمتغير الثالث في تصميم العملية قد يشمل جمع المشاركين، سواء كانوا عشرة أو عشرات، للعمل معاً عبر المراحل الأربع خلال فترة عدة أيام بحيث تأخذ مرحلة الاستكشاف يوماً واحداً (انظر وصف قمة العمل التقديري يوماً بيوم في الفصل 2).

وأخيراً، هناك متغيران في السلوك الحقيقي للمقابلات، تجدر ملاحظتهما في سياق بناء السلام. فالمقاربة النموذجية هي أن تُجرى المقابلات فرداً لفرد، سواء ضمن أزواج من المشاركين في ورشة عمل بحث تقديري أو قمة، أو من خلال توجيه الذين سيجرون المقابلات لإجرائها مع أفراد من المجتمع الأكبر. أحد المتغيرات في عملية بناء السلام قد يكون إجراء المقابلات من قبل زوجين من الأفراد قادمين من طرفي النزاع بحيث يشترك الاثنان في إجراء مقابلات وسماع قصص من جهات مختلفة من أطراف النزاع ويبدءان بالتالي ببناء رواية مشتركة لهذه التجربة المشتركة. أما المتغير الثاني فيشمل قيام الأفراد بإجراء مقابلات عفوية وغير رسمية على الفور كلما سنحت فرصة مناسبة، مستخدمين دليلاً للمقابلات معدّاً من قبل. هذه المقاربة قد تعمل جيداً في أوضاع لا تسمح فيها العداوة بين الأطراف لأعضاء الفريق من أن يعملوا كمجموعة في المراحل الأولية للعملية أو تفرض قيوداً على تحركهم.

هناك عدة طرق يمكن من خلالها إجراء البحث، ولكن الهدف في كل مرة يبقى نفسه: اكتشاف عناصر الجوهر الإيجابي في النظام واستخدام المعلومات المتأتية من هذا الاكتشاف للمساعدة في تكوين تصور عن المستقبل. أما الأهداف الإضافية التي تدخل في سياق عمل بناء السلام فتقضي بأن تكتشف الأطراف المعنية طرقاً جيدة للنظر إلى النزاع وأن تتحول نظم المعاني في النزاع عبر الارتباطات الشخصية أو عبر اكتشاف مواضيع إيجابية مع الأفراد الذين يعتبرون ضمن الأعداء.

وعندما يتم تحقيق الاتفاق على استخدام البحث لتقديري، ويتم وضع خطة شاملة، تتحرك العملية باتجاه المرحلة الأولى من مراحل البحث التقديري الأربع وهي مرحلة الاستكشاف.

مرحلة الاكتشاف: تجميع قصص عن قدرات السلام

ينطوي جوهر مهمة مرحلة الاكتشاف على كشف وتقدير أفضل ما هو موجود وما كان موجوداً. فالأفكار الآملة والتعزيزية تنبثق دائماً من القصص الكامنة داخل

النظام في أفضل أوقاته والهدف هو مساعدة المشاركين على تفهم علاقاتهم كواحدة من الإمكانيات الإيجابية بدلاً من أن تكون علاقة جامدة متوترة تفرضها مجموعة من الظروف والأحداث.

وفي بناء السلام، يشمل هذا الأمر التركيز على القدرات المحلية للسلام داخل المجموعات الفردية وضمن العلاقة بين المجموعات. وفي النزاعات التي تتضمن حالات طويلة من العداء، قد يتحول الاكتشاف إلى بحث في أصغر أمثلة التفاؤل البناء والتعلم منها والتي لولاها لبقيت العلاقة عميقة الخلاف. بالنسبة للأطراف التي لا تملك تاريخاً مشتركاً من العلاقة الإيجابية، يركز البحث على الظروف المتشابهة في بناء السلام عبر خطوط الانقسام التي ترفضها تجارب الأطراف.

المواضيع الإيجابية في بناء السلام

يبدأ البحث التقديري وينتهي بتثمين الأشياء التي تمنح الحياة للنظم الإنسانية - اكتشاف قصة منح الحياة التي تعني في سياق بناء السلام قصة تعزيز السلام العادل - كما هي مفهوم ومرتبطة بالأشخاص المعنيين، والطريق إلى الاكتشاف يمر عبر اختيار مواضيع البحث الإيجابية. ومواضيع البحث التقديري. هي تلك الصفات في النظام التي يرغب الأعضاء في اكتشاف المزيد عنها والتي تؤدي بهم في النهاية إلى الحوار حول نوعية لمستقبل الذي يريدون رسمه.

إذا تبين خلال عملية السلام، صعوبة إيجاد مواضيع إيجابية بالنسبة للجماعات المتنازعة، فربما يكون من الأسهل لهم أن يحددوا الأشياء غير المرغوب فيها ومن ثم يعيدون تأطيرها بشكل إيجابي. على سبيل المثال، إذا أرادت إحدى الجماعات إيقاف اندلاع بعض أحداث العنف بين فئتين متنازعتين، فإن إعادة التأطير تتطلب طرح الأسئلة التالية: ما الشيء الذي ترغب في رؤيته كبديل للعنف؟ كيف ستبدو الأشياء عندما ينتهي العنف؟ وقد يكون الموضوع الإيجابي هو « الاهتمام والتعاون عبر الحدود ». أما المواضيع الأخرى المحتملة في سياق بناء السلام فهي:

- «القرائن البعيدي الاحتمال» – العثور على شركاء في عملية السلام لدى الطرف الآخر
- الموارد الدينية والحضارية للسلام
- لحظات الاختراق في فهم الآخرين
- أعمال الشفقة، الشجاعة
- الشهادة على الحقيقة بدون خوف
- أن تسامِحْ وأن تُسامَحْ
- نموات جديدة من تحت الرماد
- مفاتيح الحدود (الأشخاص الذين يتحركون عبر خطوط الانقسام)

الأسئلة التقديرية في بناء السلام

الخطوة التالية هي في تطوير أسئلة المقابلات بحيث تستكشف المواضيع المختارة. والأسئلة التقديرية الجيدة في المقابلات تستثير الذاكرة التقديرية من خلال مساعدة الشخص على تحديد التجارب التي يجدر تقديرها ومن خلال إطلاق القيم الأساسية والطموحات، وإخراج ما هو باعث للإلهام وشاهد للطاقة، ومعبئ للأمل وفاتح للأبواب أمام إمكانيات التغيير الإيجابي.

وهناك ثلاثة كتب تعتبر مثل دليل توجيهي للمقابلات وتوضح العديد من أنواع الأسئلة التقديرية، التي تم تطويرها في سياق بناء السلام وهي مذكورة في الملحق أ التابع لهذا الفصل. وقد استخدم الدليل الأول في مؤتمر « المقاربات الإيجابية لبناء السلام: استكشاف العاملين في هذا الحقل » والذي عُقد في أيلول 2001. والدليل الثاني تم تصميمه لاستنباط قصص عن القدرات الداخلية والنهوض الشخصي من الصعوبات و « أزمنة التجربة ». أما الدليل الثالث فقد استخدم في إطلاق الحوار والتخطيط خلال اللقاء التأسيسي لمنبر الزعماء الدينيين في نوفمبر 1998.

مرحلة الحلم: رؤية مثال السلام العادل

تتسبب الصور الذهنية لدى الناس وحواراتهم ضمن أي نظام في دفع نشاطاته وفي تقييدها على السواء. لذلك، ومن أجل توسيع النظام أو تعزيزه أو تغييره، يتطلب الأمر إعادة تركيب الصورة عبر إجراء الحوارات بين كل من المشاركين فيه والمتأثرين به. وتشمل مرحلة الحلم الأشخاص الذين يتحدون طريقة عمل الأشياء من خلال الحوارات الجريئة ويدفعون الجوانب الخلاقة للاحتمالات نحو تحقيق المثال.

وفي عملية بناء السلام، يعتبر الحلم والتبصر بمستقبل أفضل أمراً أساسياً في إبقاء جذوة الأمل مشتعلة وتقوية عزيمة الأفراد على الاستمرار في العمل من أجل السلام. وإبقاء حلمهم حيّاً قد يشكل مسألة بقاء للأشخاص الذين يعيشون في مناطق النزاعات. إلا أنه بالنسبة لمعظم الناس المحشورين في خضم النزاعات مع بعضهم البعض، يعتبر هذا الأمر المرة الأولى التي يدعون بها لإطلاق الأفكار العظيمة وخلق الاحتمالات الكبيرة معاً. وتتطلب عملية المشاركة في تخيل وبناء مستقبل مشترك مع العدو شجاعة ومغامرة، ولكنها إذا ما تمت، تشكل تعزيزاً ودافعاً قوياً نحو العمل المشترك. ولعل قصة « تخيل ناغالاند » (انظر الفصل 9) تبين كيف استطاع البحث التقديري في مرحلتيه « الاستكشاف والحلم » إشراك مجموعة مختلفة من المعنيين – من الأطفال إلى المسؤولين الحكوميين – من أجل تطوير رؤى دافعة لتقوية البنى التحتية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لتلك الولاية الهندية الواقعة في شمال شرق البلاد والتي ظلت على مدى عدة عقود من الزمان تشهد نزاعاً مسلحاً من أجل الحكم الذاتي.

وخلال مرحلة الحلم، وضع المشاركون بيانات الاحتمالات أو (اقتراحات استفزازية) تصف المستقبل الأكثر رغبة لديهم وكأنه موجود في الحقيقة. ومثل هذه التعابير توسع دائرة الأشياء وتتحدى الفرضيات العامة أو الروتين، وتشرح الرغبات الحقيقية وتقترح الاحتمالات لتغيير النظام. وإحدى الطرق التي يستخدمها الموجهون لمساعدة المشاركين على تقييم وإطلاق رؤيتهم للمستقبل هي إجراء تمرين تصور موجه. وتظهر عينة من هذا التمرين حول موضوع « التعايش الخلاق في مجتمعي » في الملحق ب.

وتعتبر تعابير الاحتمالات مسودات تبصريّة لمتابعة الأحلام المشتركة للمشاركين في البحث التقديري. كما أنها تعتبر تصورية وحقيقية في نفس الوقت. وهنا نأخذ مثلاً لتعبير الاحتمال الذي يلتقط حلماً بالتعايش السلمي في القدس، مأخوذاً عن التاريخ الحقيقي للتعايش بين المسلمين واليهود والمسيحيين في إسبانيا إبان العصور الوسطى. (انظر الفصل 7) وهذا المثل يظهر في الصورة رقم (1).

الصورة رقم (1)

عينة لبيان الاحتمال

داخل أسواق القدس الصاخبة، يتجمع المسلمون والمسيحيون واليهود من أجل بناء عالم مستنير. وهذا زمن تعيش فيه هذه المجتمعات الثلاثة معاً في انسجام لا وجود فيه لظالم أو مظلوم. وقد تمت دراسة مجتمع تلك الحقبة على مستوى دولي، ليس فقط بسبب الإبداع الثقافي الذي انطلقت إشعاعاته من المعارف الحديثة المشتركة في الفنون والعلوم والطب والهندسة والفلسفة والأدب ولكن أيضاً من مبادئ التسامح والتعايش الخلاق. وقد تمت نمذجة التعايش ليس ضمن نظرية بوتقة الصهر، ولكن بناءً على تبادل مختلف نقاط وجهات النظر عبر إجراء حوار موسّع.

مرحلة التصميم: إيجاد البنية التحتية لتحقيق الحلم

تشمل مرحلة التصميم وضع القيم والبنى والعمليات في صف واحد مع الرؤية للتغيير، ووضع تصاميم البناء الاجتماعي الضروري لدعم المستقبل الذي تعبر عنه الرؤية، وضمان القدرة على تطبيقه. وهنا يبدأ المشاركون بالتفكير حول أنواع التغييرات التي يحتاجون إجراءها في الترتيبات المؤسسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تتحكم حالياً في النظام من أجل إتاحة المجال لتحقيق رؤيتهم. وإحدى الطرق المتبعة لصنع ذلك هي كتابة تعابير احتمالات أكثر تفعيلاً حول كل جزء من النظام وطرق عمله.

وضمن سياقات بناء السلام، قد يشمل تصميم البناء الاجتماعي العناصر التالية من بين عناصر أخرى:

- قوانين وسياسات واتفاقيات.
- مؤسسات، بنىً وأنظمة.
- وسائل اتصالات.
- وسائل حل النزاعات.
- مقاربات متعددة الثقافات.
- علاقات مع المجتمع الأوسع.
- نشاطات ومشاريع مشتركة.
- استراتيجيات للاستدامة.

بالنسبة لبناء السلام، يجب على مرحلة التصميم أن تتناول عملية التغيير المرغوبة على ثلاثة مستويات: المستوى الشخصي (بين الأشخاص) ومستوى ما دون النظم ومستوى النظم الكبرى. كذلك يتطلب الأمر اهتماماً خاصاً بدعم نقل التغير في المواقف إلى داخل مجتمعات المشاركين الأصلية، وبوضع التصاميم للعناصر التي ستحافظ على طاقاتهم وتضمن سلامتهم عند عودتهم للوطن.

مرحلة التسليم: التنظيم من أجل البدء بالتنفيذ

وفي النهاية، تأتي مرحلة التسليم في البحث التقديري، حيث تضع المجموعة خططها لتخطو خطوات ملموسة نحو تحقيق الرؤية وتطبيق التصاميم. وعادةً ما تشكل مجموعات عمل من أجل المبادرة بالتخطيط ضمن عدة نواحٍ من الرؤية والتصميم وفي أفضل الحالات، يستمر الحوار خارج الحلقة المباشرة بحيث تعقد جولات من البحث عند المفاصل الرئيسية لعملية التنفيذ أو كلما شارك أعضاء جدد في العملية. ومرحلة التسليم تعتبر زمن التعلم المتواصل والتعديل والارتجال.

والتخطيط للعمل يعتبر بالطبع، جزءاً أساسياً في أي تدخل يتم لحل النزاعات لأنه يشكل خطوة ضرورية باتجاه التنفيذ. والتخطيط الجدي للتنفيذ أمر حيوي جداً في سياقات بناء السلام حيث يتم خلاله توقيع الاتفاقيات وتواجه فيه هذه الاتفاقيات

تحديات رئيسية في تطبيقها. ويتم التركيز بشكل متزايد على آليات التسليم والمراقبة على أساس أنها أمور جوهرية في استدامة السلام بموجب نصوص الاتفاقيات.

ويضاف إلى كل ما ذكر سابقاً، قلق جديّ يتعلق ببناء السلام وهو «عامل إعادة الدخول» ويرتبط هذا العامل بالسلامة المباشرة للمشاركين ومصداقيتهم بينما هم يعودون إلى مجتمعاتهم ويواجهون خطر الاستعداء من الذين ينظرون إليهم على أساس أنهم قد التقوا مع الأعداء، لذلك تحمل آليات التسلم والمراقبة طبيعتها ومداها وحِدَّتها، عبئاً إضافياً من القضايا الحقيقية التي تتعلق بمصداقية المشاركين وسلامتهم. بالإضافة إلى عدم تقويضها لعملية السلام الأكبر التي يعمل البحث التقديري تحت جناحها.

وإذا كان التطبيق الشامل للرؤية والتصميم يبدو مروّعاً أو بعيداً عن قدرة المجموعات المشاركة للتخطيط له، فإن بإمكان هؤلاء أن ينظروا عبر عدسة «التقدير – التأثير – السيطرة» وتشمل هذه العملية تحديد الأجزاء داخل البناء الاجتماعي وخصوصيات التصميم التي تدخل ضمن نطاق سلطتهم المباشرة وقدرتهم على التأثير والسيطرة. ويمكن لهذا أن يساعد في وضع استراتيجية لتأطير التنفيذ خلال الحركة. مع تحديد النقاط الحساسة وإجراء جولات من التخطيط لمرحلة التسليم كلما بدا الأمر ضرورياً أو مناسباً على الطريق.

الخلاصة

نختتم هذا الفصل بسرد إيجاز عن بعض نقاط اقترن البحث التقديري مع بناء السلام وعن بعض الأسئلة التي يجب التوسع فيها ضمن استكشافات الكتاب.

في الفصل الأول، عرض لنا محمد أبو النمر عدداً من الفرضيات والمبادئ التي تدخل في صلب عملية بناء السلام. فصانعو السلام يفترضون على سبيل المثال أن النزاع يشكل في أغلب الأحيان مصدراً للتغيير الضروري لذلك فهو لا يعتبر سيئاً أو حسناً إلا ضمن الطرق التي يتم فيها اتباعه. فالنزاع يمكن أن يشكل قوة خلاّقة وبناءة في التعامل مع القيم والمصالح والأهداف والحاجات المنافسة، شرط أن يتم حله

بطريقة لاعنفية وبأساليب تؤدي إلى تشجيع وتأهيل الأطراف جميعها على التعاون الخلّاق من اجل حل المشاكل. وتفترض عملية بناء السلام أن « الناس ليسوا هم المشكلة » ويسعى صانعو السلام إلى معاملة كل فرد باحترام وتكريم. ولكن تفترض العملية أيضاً أن التغيير في منظور الأطراف وفي أنماط اتصالهم ببعضهم البعض هو أمر أساسي في حل مشاكل النزاع العالقة وأيضاً في إيجاد علاقة مستدامة بينهم.

وباستثناء الاختلاف في التركيز والتحليل للبحث التقديري، أي ما يسمى بافتقاره إلى توجيه المشكلة، تتطابق فرضيات بناء السلام مع فلسفة البحث التقديري في التغير ومبادئ الممارسة. ويتشارك البحث التقديري مع بناء السلام في فرضيتين جوهريتين، تؤهل كل منهما جميع الأطراف للمشاركة بشكل تنسيقي وخلّاق في أحداث التغيير. الأولى تقول بأن مشاركة أطراف مختلفة في العملية تؤدي إلى أفضل النتائج ليس فقط من خلال ضمان وجود تمثيلي لعدة وجهات نظر ولكن أيضاً من خلال توفير مصدر للخلق والإبداع. والثانية تقول بأن النتائج تكون أكثر استدامة عندما يشارك جميع المعنيين في إيجادها. وتحترم عملية البحث التقديري كل فرد وتؤهل كل مشارك للمساهمة بشكل تام بأفضل ما عنده وأفضل ما باستطاعته. كما أن لديها الإمكانية على تغيير المنظورات والعلاقات من خلال ربط المشاركين بإنسانية وحسنات الطرف الآخر، إضافة إلى إشراكهم معاً في إطلاق رؤية خلاقة وحشد طاقاتهم للعمل.

وتوجد أيضاً مجموعة أخرى من الفرضيات المتعلقة ببناء السلام، التي يذكرها أبو النمر وتتعلق بقضايا شاملة. فالمطلوب لكي تبقى النتائج مستديمة، إجراء تغيير في علاقات القوة المهيمنة في المجتمع ودعم الاتفاقيات بإجراء تغييرات اجتماعية وسياسية واقتصادية ملموسة. لمثل هذه الأنواع من التغييرات الشاملة والمتعلقة يتم تكريس البحث التقديري كمنهج لتغيير نظامي شامل تمّت تجربته في أنظمة المؤسسات من جميع الأنواع بما فيها المؤسسات الكبيرة والمعقدة. كيف ستتم ترجمة هذه التجربة والتكيف مع الأنظمة الاجتماعية المنخرطة في نزاعات، هذا هو السؤال الرئيسي المطروح أمامنا في هذا الكتاب.

ويصل بنا هذا إلى نقطة الانطلاق للتنقيب بعمق وتوسع أكبر فيما يعرف حتى الآن باسم البحث التقديري في بناء السلام والمقاربات الإيجابية. والأقسام اللاحقة من الكتاب تقدم 17 فصلاً حول التطبيقات، التي تشمل في معظمها حالات دراسية تقدم جميعها بعض المفاتيح للأجوبة – أو على الأقل تساعد على إلقاء الضوء عليها – على هذا الموضوع وعلى الأسئلة الحقيقية والضاغطة المتعلقة بالمقاربات الإيجابية في بناء السلام.

ملاحظات :

1. Parts of this chapter have been adapted, with permission, from the practitioner's handbook of the Global Excellence in Management (GEM) Initiative of Case Western Reserve University (GEM Initiative 1999). We wish to extend warm appreciation to five colleagues who met with us for a day and contributed from the wealth of their experience and ideas in relating the theory and practice of Appreciative Inquiry to that of peacebuilding: Mohammed Abu-Nimer, Mark Chupp, Jayne Docherty, Susanna Mcllwaine, and Nancy Good Sider.
2. Please contact us at: Positive Approaches to Peacebuilding, do Pact Publications, 1200 18th Street, NW, Suite 350, Washington, D.C. 20036 (tel: 202-466-5666, fax: 202-466-5669).

مراجع :

Anderson, Mary. 1999. *Do No Harm: How Aid Can Support Peace—Or War* Boulder, Cob.: Lynne Rienner.

Belsie, Laurent. 2001. "'Look for what's right': Theory of 'appreciative inquiry' takes on a community's mental atmosphere." *The Christian Science Monitor* (September 13), pp. 15, 18.

Beecher, H. K. 1955. "The Powerful Placebo." *Journal of American Medical Association* 159, pp. 1602—1606.

Browne, Bliss. 2001. "Imagine Chicago." In *Lessons From the Field: Applying Appreciative Inquiry.* Sue Annis Hammond and Cathy Royal, eds. Piano, Tex.: Thin Book Publishing Company

Chupp, Mark. 2002. "From Culture Wars to Cultural Harmony" *Mennonite Conciliation Service Conciliation Quarterly* 21:1, pp. 4—5.

Cooperrider, David L. 1990. "Positive Image, Positive Action: The Affirmative Basis of Organizing." In *Appreciative Management and Leadership: The Power of Positive Thought and Action in Organizations.* Suresh Srivastva and David L.
Cooperrider, eds. San Francisco: Jossey-Bass.

______1996. "The 'Child' as Agent of Inquiry." OD Practitioner: Journal of the Organization Development Network 28:1 and 2, pp. 5—11.

Cooperrider, David L., and Diana Whitney 1999. *Appreciative Inquiry.* San Francisco: Berrett-Koehler.



GEM Initiative. 1999. *Appreciative Inquiry: Practitioner's Handbook.* Washington, D.C.:Global Excellence in Management (GEM) Initiative. Gibbs, Charles, and Sally Mahè. 2003. *Birth of a Global Community: Appreciative Inquiry as Midwife for the United Religions Initiative.* Cleveland, Ohio: Lakeshore Press. Forthcoming.

Kaczmarski, Kathryn M. 1996. "Evolution of the Mountain Forum: Global Organizing for Advocacy and Mutual Support" and "A Conversation with Dr. Jane Pratt, President and CEO of the Mountain Institute." *Global Social Innovations* 1:1, pp. 21—30. Also at http://ai.cwru.edulgemlmtnforum-vlil .html. Kaczmarski, Kathryn M., and Gurudev S. Khalsa. 1997. "Chartering and Appreciative Future Search." *Global Social Innovations* 1:2, pp. 45—52. Also at http://ai..edu/gemlchartering.html.

Kinghorn, Meg. 2001. *The Partnership Toolbox: A Facilitator's Guide to Partnership Dialogue.* Baltimore, Md.: Catholic Relief Services; Washington, D.C.: Pact Publications.

Kretzmann, John P, and John L. McKnight. 1993. *Building Communities from the Inside Out: A Path Toward Finding and Mobilizing a Community's Assets.* Evanston, Ill.: Institute for Policy Research.

Lederach, John Paul. 1997. *Building Peace: Sustainable Reconciliation in Divided Societies.* Washington, D.C.: U.S. Institute of Peace Press.

Liebler, Claudia, and Gregory Roche. 1998. *An Appreciative Inquiry Workshop: Sharing Our Strengths—Creating Our Dreams; An Approach for Revitalizing Ourselves and Our Schools.* Washington, D.C.: GEM Initiative and U.S. Peace Corps.

Odell, MalcolmJ. 2002. "Issues in Participatory Development: From *Participatory Rural Appraisal* to *Appreciative Planning and Action—A* Former Volunteer's Personal Journey of Discovery. Kathmandu, Nepal, and South Hampton, N.H.: Habitat for Humanity International.

Open Space Institute USA. n.d. [2003]. *Open Space World Website.* http://www openspaceworld.org.

Owen, Harrison. 1997a. *Open Space Technology: A User's Guide.* San Francisco: Berrett-Koehler.

______ 1997b. Expanding Our Now: The Story of Open Space Technology. San Francisco: Berrett-Koehler.

Rosenthal, Robert, and Lenore Jacobson. 1968. *Pygmalion in the Classroom: Teacher Expectation and Pupils' Intellectual Development.* New York: Irvington Publishers.

Ole Sena, Sarone, and Dirk Booy 1997. "Appreciative Inquiry Approach to Community Development: The World Vision Tanzania Experience." *Global Social Innovations* 1:2, pp. 7—12. Also at http://ai.cwru.edulgemltanzania.html.

United Nations Children's Fund. 2000. "The Children of Southern Sudan." Thirty-minute video on a UNICEF-sponsored Future Search conference, held April 12 in Nairobi, Kenya. Livonia, Mich.: Blue Sky Productions.

Weisbord, Marvin R., and Sandra Janoff. 1995. *Future Search: An Action Guide to Finding Common Ground in Organizations & Communities.* San Francisco: Berrett-Koehler.

White, Leonard, Bernard Tursky and Gary Schwartz, eds. 1985. *Placebo: Theory, Research, and Mechanisms.* New York: Guilford Press.

الملحق أ
عينة من دليل المقابلات رقم 1
المقاربات الإيجابية لبناء السلام
استكشاف للعاملين*

تضخيم الفترات التي تحمل معاني

كل منا، وخلال الأسابيع التي تلت أحداث 11 سبتمبر، تساءل ما هي الفائدة المحتملة – ما هي المفاهيم الجديدة، والطاقات، ودرجات الوعي والعلاقات والرؤى الروحية والمنظورات – التي ستنتج عن تلك الفترة؟ بالطبع هناك الكثير من الأجوبة، وهي في معظمها ليست مرئية بعد.

- ما الذي يجبرك على حضور هذا المؤتمر، وهل تستطيع أن تتقاسم هذه الآمال التي تحركك من الداخل، سواء تلك المتعلقة بهذا المؤتمر حول المقاربات الإيجابية لبناء السلام أم حول العالم ككل؟ ما هو الشيء الأكثر تحركاً في داخلك الآن وكيف تشعر بارتباطه مع عملك في المستقبل أو مع إحساسك الأكبر بهدفك؟

- أن لحظات مثل هذه توفر الفرصة لحدوث النقلات، الكبيرة منها أو الصغيرة. ولكن الفرص الملائمة لا تبقى متاحة إلى الأبد، والطريقة الوحيدة للإبقاء على حيويتها وتوسعها هي بتضخيم معاني القصص عبر الحوارات مع الآخرين. هل يمكنك أن تشارك في قصة أو في صورة أو في كلمة مقتبسة قوية التأثير – سواء جاءت من الإخبار أم من تجربتك الحالية الخاصة – وقدّمت لك تصوراً ثميناً أو مفهوماً جديداً أو تقديراً لما نستطيع نحن البشر أن تفعله بحسٍّ إيجابي.

خبرات بناء السلام: قصة هامة من حياتك

أنت، مثلك مثل أي شخص آخر، كنت نشيطاً في عملية بناء السلام – في العلاقات، في المنظمات، وفي المجتمعات. بالطبع واجهتك أوقات صعبة وأوقات سهلة، ونقاط ساخنة وأخرى باردة في عملك.

- بينما أنت تجري فحصاً سريعاً لتجاربك في بناء السلام، نرجوك أن تشاركنا في إحدى القصص التي انطوت على تجربة مؤثرة أو مبادرة استثنائية أو ذات طبيعة خارقة – أوقات شعرت فيها أنك شخص فعال، متحد، وحيوي ومتغير ووجدت نفسك تتعلم؟ نحن مهتمون بشكل خاص بقصة شعرت فيها وكأنك استخدمت جميع قدراتك وأنك كنت قادراً على استخراج أفضل ما في الآخرين الذين يعملون معك.
- إذا أقمت الآن حواراً مع بعض الأشخاص الذي يعرفونك تمام المعرفة، وسألتهم أن يشاركوك في معلوماتهم حول أفضل ثلاث صفات يرونها فيك – صفات أو قدرات تحملها معك إلى بناء السلام – ماذا يمكنك أن تقول؟

النماذج القائدة التي تريد تضخيم مثالها

خلال حياتك، من الذي كنت تعتبره مثالاً لصانعي السلام؟ ما الذي يعني لك أن تكون أو أنك كنت قريباً من هذا الشخص؟ كيف استطاع هو أو هي إلهامك؟ كيف قام هذا الرجل بعمله وكيف عاش حياته.

رؤية لعالم بعد الإرهاب ودور صنع السلام

لنفترض، أننا بعد هذا المؤتمر، ذهبنا للنوم وعندما استيقظنا، وجدنا أن الوقت قد تقدم 10 سنوات في المستقبل – وأن العالم هو 2011. وبينما نحن نغط في النوم، حدثت أعاجيب صغيرة وكبيرة عديدة وتغير العالم وتشكل على طريقة ترغب أنت

تماماً في حدوثها – لمصلحتك ولمصلحة أطفالك وأحفادك، ولمصلحة الطبيعة... الخ. الآن وقد استيقظت، تخرج إلى العالم وتلقي نظرة عامة. أنت سعيد بما تراه فهو عالم طالما رغبت في أن تصبح جزءاً منه، إذن قم الآن بإشراكنا في الذي تراه. ما الجديد وما الأفضل وأكثر صحة والأحسن فيما تراه؟

- والآن، وبشكل أكثر خصوصية، كيف ترى دور عملية بناء السلام، بغض النظر عن طريقة وصفك لها، في الإسهام بأحداث هذا التغيير؟ تخيل أشكال الشراكات والمشاريع والممارسات التي استخدمت أو تم إيجادها من أجل ذلك. ما هي وكيف تراها؟

إشاعة التغيير الإيجابي

قد يسأل الطبيب جوناس سولك الناس ثلاثة أسئلة بسيطة ولكنها قوية التأثير. دون أن تضم هذه الأسئلة أية إشارة إلى المرض. ففي رأي سولك، لم تكن الصحة تعني أبداً غياب المرض بل هي شيء مختلف نوعياً وأوسع معنىً.

أراد سولك أن يقوم الناس من خلال الدراسة المنهجية والوعي الإيجابي باكتشاف تلك الأشياء التي تجعلهم يشعرون أنهم في صحة جيدة. وقد أدهشته الحكمة التي يمتلكها الناس وتنوع الأساليب والمسلكيات والدروس التي حددوها. وكان يختتم كل حوار بالطلب التالي: أرجوكم أن تشركوا في رؤيتهم هذه أكبر عدد ممكن من الناس. وكان أمل سولك الكبير أن يكتشف معاني وأساليب نشر وباء الصحة الجيدة وكان يدرك أنه لا يوجد حوار ولا عمل ولا فكرة يمكن وصفها بالصغر. ففي الحقيقة، معظم الأفكار المفيدة تبدأ من نقاط صغيرة سرعان ما يتردد صداها.

- إذا كان بالإمكان تخيل حدوث مثل هذا الشيء، كيف يمكنك إشعال أو نشر وباء التغيير الإيجابي؟ .

عينة مقابلة دليل رقم 2

زمن التجربة**

الاعتماد على القوة الداخلية

الحياة مليئة بالتحديات وحالات الفشل والأحداث المأساوية التي لا يمكننا تجنبها ولكننا مجبرون على العيش معها. وغالباً ما نكتشف خلال تلك الأيام وجود مصدر للقوة في داخلنا، كأنه احتياط مخفي من الطاقة والحب، هو تماماً ما نحتاجه لعبور تلك الأيام الصعبة.

- أعط وصفاً لزمن اكتشفت فيه وجود مصدر للقوة في داخلك واستخدمته لعبور مرحلة صعبة. صف نوعيته بالتفصيل؟ كيف أظهر نفسه لك؟ ومن الذي ساعدك على عمله؟ ماذا علمت عن نفسك؟ ماذا يقول الآخرون عنك وأنت تعتمد على هذا المصدر لعبور محنتك. كيف استطعت الاعتماد على هذا المصدر في أوقات أخرى.

علامات في الرمال (تعميق أو اكتشاف الإيمان)

عندما تخرج الأمور عن سيطرتنا، نشعر بالعجز والضعف. لكن ربما يكون انفتاحنا على قوة أكبر وتسليم أمرنا للإيمان هو ما يمكّننا من إيجاد الإرادة للبقاء والاستمرار.

- صف زمناً شعرت فيه بحضور قوة في حياتك جعلتك تشعر بالاطمئنان أنك لست وحدك ووفرّت لك الدعم والتشجيع والتفهم والحب الذي كنت تحتاج. كيف شعرت بهذا الحضور؟ ما هي الحاجة التي ساعدتك على تلبيتها؟

النمو الشخصي

أوقات المحنة هي الأوقات الذي يخطو فيها الإنسان خطوات جبارة نحو النمو واكتشاف النفس، أوقات تنفتح فيها على الدروس التي يجب أن تتعلمها. وأحياناً لا يحدث هذا التعلم إلا بعد انقضاء مدة طويلة على الحدث.

- صف لنا وقتاً شهدت فيه نمواً شخصياً من قلب المحنة. ما هو الحدث؟ بماذا تحداك أن تفعل؟ كيف غيّر نظرتك إلى نفسك؟ ماذا تعلمت منه بشكل خاص وكيف قمت بتطبيق ذلك العلم في أوقات أخرى بطريقة ساعدتك على التغيير في نفسك وفي الآخرين.

الأيدي المساعدة

أحياناً يكون العطاء الذي لا يعرف الأنانية من قبل الآخرين هو الذي يساعدنا على تجاوز محنة ما. العائلة، الأصدقاء وربما حتى الغرباء الذين يمدون لنا يد العون. بطريقة غير متوقعة أحياناً، ويصنعون فينا الفرق بين اليأس والأمل.

- شارك معنا في قصة مساعدة تلقيتها من أحد خلال فترة محنتك. ماذا فعلوا؟ كيف ساعدك هذا العمل؟ كيف جعلك هذا العمل تنظر إلى نفسك؟ وإلى الذين ساعدوك؟ كيف غيَّر هذا العمل من طريقة تفاعلك مع الآخرين؟

أفضل اللحظات

قيل مرة أن أفضل نعمة يمكن أن نملكها نحن البشر هي أن نكون في أفضل حالاتنا عندما تكون الأمور في أسوئها.

- صف لحظة من أسوأ اللحظات، حيث استطعت أن تتدخل وأن تنقذ الموقف. ماذا كان الوضع وكيف فعلت ذلك؟ كيف وصفك الآخرون خلال هذا الوقت؟ ماذا تعلمت عن نفسك؟ كيف طبقت هذا الأمر الذي تعلمته في ظروف أخرى؟

عينة مقابلة دليل رقم 3

إيجاد منبر يمكن لزعماء الأديان في العالم أن يلتقوا فيه للحوار ولتبادل الاحترام***

استهلال الحوار

قصة عن مشوار حياتك

يمكن القول أن المهمة الرئيسة في حياتك هي اكتشاف وتحديد هدفك في الحياة ومن ثم العمل على تحقيقه ضمن أفضل قدراتك.

- هل يمكنك إشراكنا في قصة حول لحظة أو فترة من حياتك توضحت لك فيها كيف انبثق هدفك من داخلك - على سبيل المثال - لحظة جاءك النداء من داخلك ومثلت لك صحوة مهمة أو درساً - لحظة كان لك فيها تجربة خاصة أو تلقيت فيها رؤية مرشدة؟ .
- والآن بعيداً عن هذه القصة.. ماذا تشعر أنك يجب أن تفعل قبل أن تنقضي حياتك؟.

رؤى قادمة من مواجهات إيمانية مهمة

لقد تعرضنا جميعنا للتغيير في نظرتنا وفي حياتنا بسبب مواجهة أناس من مختلف التقاليد الروحية والأديان. خلال عملك كقائد، لابد أنك واجهت شخصاً أو شخصين أو أناساً ينتمون إلى تقاليد أخرى، وشكلوا أهمية خاصة في حياتك.

- هل يمكن أن تشركنا في قصة عن تجربة علقت في مخيلتك - على سبيل المثال لقاء خارج « منطقة الأمان » العادية، سبب لك الدهشة أو الإكبار، أو هل هناك تجربة تتعلق برأب الصدع أو بالأمل أو تجربة أصيلة تتعلق بالعطف والفرح والحب والصداقة؟
- سواء كانت تجربة صعبة أم سهلة، ما الذي أصبحت تحترمه أكثر، ليس فقط في ذلك الشخص بل فيما يتعلق بديانة أو ممارسة خاصة؟ .

رؤى من الماضي

أحداث وتوجهات عالمية جرت خلال المائة سنة الماضية

الخطوات التي تتخذ من أجل الشروع بحوار بين الزعماء أو الأديان لا تأتي عادة من فراغ.

- فكر بخمسة أحداث تاريخية هامة حدثت خلال المائة سنة السابقة - أحداث دولية أو محلية وتوجهات تترك فيك إحساساً بالسرعة والجاهزية أو تستدعي لعملنا هنا. ما هي التوجهات أو التحديات التي تراها أكثر أهمية؟

تقييم الوضع الحاضر: عالمنا والقضايا الصعبة

انبثاق قصة العلاقات بين الأديان

تورد موسوعة 1996 حول مشاكل العالم والإمكانيات الإنسانية أكثر من خمسة عشر ألف مشكلة دولية وتوثق، على سبيل المثال فإن نصف النزاعات المسلحة التي اندلعت في العالم أوائل عام 1993 لم تكن نزاعات بين أمم بل بين جماعات مختلفة دينياً. وفي مواجهة خلفية العديد من المشاكل والنزاعات الدولية توجد قصة أمل تقدم لنا بصيص نور حول ما يمكن أن يحصل عندما نجد الطرق الكفيلة بتعزيز السلام بدلاً من الحرب وتشجيع التعاون بدلاً من التحزب وتحقيق الاستدامة بدلاً من تدمير البيئة والقمع.

وقد شهد القرن منذ انعقاد اللقاء التاريخي في شيكاغو عام 1893 أي برلمان الديانات العالمية – توسعاً في الحوار بين الأديان، والصلوات المشتركة والتأمل والحج والعمل المشترك ودراسة الأديان العالمية. ويبدو، على وجه التأكيد أن هناك حافزاً عالمياً نحو التسامح والتحول والتعاون اليومي بين الناس المنتمين إلى كافة الديانات العالمية، من أجل بسط السلام بين الديان وازدهار الحياة تحت ظل الخالق. وكزعماء ننتمي إلى هذه الأديان، ما الذي نفخر به أكثر وما الذي نأسف له أكثر؟

- فكر بأكثر الإنجازات والتطورات والبنى التحتية التي تمت محلياً أو دولياً خلال فترة حياتك. ما هي التطورات التي تفتخر بها أكثر؟ .
- وعلى العكس من ذلك، وفيما أنت تنظر إلى الأحداث والاتجاهات التي تعمّ العالم، والردود الحالية لزعماء الدين، بمن فيهم أنت نفسك، ما الذي تأسف عليه أكثر؟ والأهم من ذلك ما الذي يجب أن تفعله أكثر أو بشكل مختلف؟ .

النظرة إلى المستقبل: رؤى لعالم أفضل

رؤيتك لعالم أفضل

قال داغ همرشولد، الأمين العام السابق للأمم المتحدة: أنا لا أرى أملاً في سلام دولي دائم. لقد حاولنا وفشلنا بأسى. وما لم يشهد العالم انبعاثاً روحياً جديداً، فإن

مصير الحضارة إلى الهلاك. لقد سبق وقيل أن القرن القادم إما سيكون قرناً روحياً أو لا يكون.

أطلق تفكيرك نحو ثلاثين سنة إلى الأمام، جيل أو أكثر. رغم أن المستقبل يبدو، غامضاً من نواحٍ عدة إلا أننا نريد أن نبدأ بتصور نوع العالم الذي تشعر أنك تحمل رسالة لتحقيقه، عالم أفضل، عالم ترغب به حقاً. ما الذي تراه في رؤيتك لعالم أفضل.

- وبالتحديد، ما هي التغييرات أو التطويرات الثلاثة في رؤيتك؟ ما الذي سيحدث في العالم بعد جيل من الآن، من ناحية إيجابية ومختلفة وكيف يمكن أن تعرف ذلك؟ كيف ستشعر لو أن هذه الأمور الثلاثة تحققت؟ .

رؤيتك للعلاقات بين زعماء الأديان في العالم

الافتراض المطروح في الدعوة الموجهة لاجتماع اليوم هو أن هناك حاجة، في عالم اليوم المعقد والمترابط إلى حوار مستمر ومستدام بين الزعماء الدينيين في العالم. والنظرية المبسطة تقول أن العالم سوف يصبح مكاناً مختلفاً، ومكاناً أفضل. ومن السهل رؤية قيمة شيء مثل هذا أليس كذلك؟.

دعونا نتخيل عياراً من واحد إلى عشرة حيث درجة عشرة تمثل النوع المثالي للعلاقة بين زعماء الأديان والتقاليد الروحية في العالم.

- كيف تبدو الأمور عند الرقم 10؟ نوعية العلاقات؟ نوعية الاتصالات والاحتكاك؟ .
- لنفترض أن عدداً كبيراً ومتزايد من زعماء الأديان المختلفة في العالم قد اختاروا معرفة بعضهم البعض – وأن الأمر قد بدأ يتكلل بالنجاح وقد تم إنشاء منبر خاص، آمن، غير ملزم ومتواصل. كيف سيتقيد العالم به؟ كيف يمكنك أنت ومجتمعك الإيماني أن تستفيدا؟ .

الملحق ب
عينة لتمرين تخيل موجه

الموضوع: التعايش الخلاق في مجتمعي

يقوم الموجه بإرشاد المشاركين على النحو التالي:

استريحوا، اغمضوا عيونكم إذا رغبتم وأثيروا موضوع التعايش الخلاق في أذهانكم. تخيلوا أن التعايش الخلاق قد تم تطبيقه بشكل تام في حياتكم وحياة الآخرين من مجتمعكم.

تخيلوا أنكم استيقظتم وأنكم متحمسون لمعرفتكم أنكم ستجدون أمامكم مجتمعاً مزدهراً، منسجماً وحياً ويتمتع بالمساواة، لأن الناس من جميع الفئات يتمتعون بعلاقة حية وخلاقة.

بينما أنتم تفكرون بالفئة العرقية أو الإثنية أو الدينية أو غيرها من الفئات التي تنتمون إليها، ما هي الصفات المتميزة والقدرات التي تقدموها إلى ذلك التفاعل الحيوي والبنّاء مع الفئات الأخرى في مجتمعكم؟ .

تجول بين سكان مجتمعك، وفيما أنت تتقابل الناس خلال اليوم، ما هي الصور الملهمة والنشطة التي تنبثق في طريقك؟ ما الذي تشعر به؟ ما هو الشيء المختلف الذي يفعله الناس – في الأحياء، في الأسواق، في أمكنة العمل وفي الحكومة؟ ما هي المهارات التي يتعلمها الأطفال في المدرسة؟ أي نوع من البرامج يعرض في التلفزيون؟ ما هي الأنواع الجديدة من النشاطات التي تنخرط فيها الطوائف الدينية؟

كيف تسير حياتك يوماً بيوم وكيف تغيرت؟ ما هو الحوار الذي تجريه مع عائلتك وأصدقائك وزملائك في العمل حول هذه التغييرات التي تحدث في مجتمعك؟

هنئ نفسك لكونك جزءاً من هذا التحول الاجتماعي السليم الذي يحمل معنىً. افتح عينيك وارجع إلى الغرفة على راحتك.

الجزء الثالث

نحو ثقافات السلام

ليكن هناك سلام على الأرض وليبدأ هذا السلام بي

جيل جاسكون وساي ميلر

الفصل الرابع

ثقافة سلمية لليوم والغد

إليز بولندنغ

لقد بيّن لنا التاريخ أن الصور الإيجابية للمستقبل قد عززت من التحرك الخلاق نحو أحداث تغييرات اجتماعية داخل مجتمعات الماضي. وإدراكاً منها لهذا الأمر، قامت الكاتبة بعقد عدة ورشات عمل حول « تصور عالم لا يوجد فيه عنف »، لعدة مجموعات مختلفة. وفي هذا الفصل تصف الكاتبة النتائج المشجعة لإحدى هذه الورشات، حيث التزم المشاركون بالتحرك في عمل كانوا جميعاً يرغبون فيه من أجل الوصول إلى عالم لا يسوده العنف ظلوا يتخيلونه منذ عشرين سنة. بعد ذلك تُشركنا الكاتبة في رؤيتها الخاصة من نقطة أفضلية لعام 2032، حول إحساس جديد يتعلق بمواطنية من ثلاثة أبعاد ظهرت إلى الوجود. وقد ألحقت بهذا الفصل دليلاً حول إدارة مثل هذا النوع من ورشات العمل التصورية.

*

أطلقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على العقد الأول من القرن الواحد والعشرين اسم عقد التثقيف من أجل حضارة من السلام واللاعنف. وفي ردٍّ على هذا التفويض، التقت مجموعة من المربين والطلاب وناشطي السلام في حوار جرى آخر الأسبوع في جامعة تافت Tuft أوائل ربيع عام 2001 وتناول موضوع ثقافة السلام. ما هو نوع التحضير الذهني لثقافة السلام الذي قد يجده المرء في مجموعة

ملتزمة بدراسات حول السلام، وحسنة الاطلاع على جميع التحاليل الفكرية للبنى والمؤسسات والعمليات المشاركة في الظواهر الاجتماعية للنزاع والعنف وبناء السلام، ومدركةً تماماً للعراقيل التي تقف في وجه السلام ضمن الوضع الدولي الحالي؟ وبما أنه قد طلب مني ترؤس حلقة من التصورات المستقبلية لعالم تسود فيه ثقافة السلام، فسوف أقوم بعرض بعض النتائج المدهشة والتي بدت لي مشجعة تماماً.

يحتاج تصور المستقبل إلى تأسيس حسي للحاضر كعملية يدعى فيها المشاركون للدخول ذهنياً في حاضر يمتد مائتي سنة من الزمان منذ الذكرى المئوية لولادة أول المعمرين في الحاضر إلى الذكرى المئوية لولادة أطفال اليوم. وقد قمنا بذلك أولاً من خلال مراجعة الحركات الاجتماعية والأحداث التي جرت في القرن السابق (السلبية منها والإيجابية)، وثانياً من خلال التركيز على التجارب الإيجابية الشخصية لنشاطات التغيير الاجتماعي. وعند هذا فقط خطونا داخل النصف الثاني من حاضر المئتي سنة وركزنا على كيف سيكون شكل عالم السلام عام 2031، أي بعد ثلاثين سنة من منتصف الفترة الزمنية (وهي سنة يعيش معظم المشاركين ليشاهدوها).

وبعد فترة من التأمل الشخصي، انقسم المشاركون إلى مجموعات من ستة أشخاص، وشاركوا بعضهم البعض في صور إيجابية لعام 2031، تشمل تعددية إنسانية تعيش فوق كوكب مزدهر ومحفّز يتم فيه حل النزاعات بطريقة سلمية. بعد ذلك تم تغطية جدران القاعة بأوراق صحف تم تجهيزها من كل مجموعة، تصور عام 2031 بشكل مسالم، ملون ومرح.

ولأن ورشة العمل المختصرة هذه جرت ضمن إطار زمني لا يتعدى الساعتين، لم يكن هناك وقت كافٍ لنا كمجموعة لكي نتأمل في عام 2031. ولكنني أشرت إلى أن المستقبل سيأتي، وإلى حد ما، كنتيجة للتحركات الاجتماعية والتطورات السياسية والاقتصادية والثقافية التي ستجري في العام 2001. وبعد التفكير بهذا الأمر، طلبت من المشاركين أن يختاروا ما الذي يريدون الالتزام بفعله الآن للمساعدة في إنتاج مثل

هذا العالم الذي تخيلوه للتو، وأن يسجلوا التزاماتهم بالتحرك الشخصي على قطعة من الورق.

وبعد دقائق قليلة من التفكير والكتابة، شبك أفراد المجموعات البالغ عددهم 100 شخص، أيديهم في دائرة عملاقة لتأكيد الالتزامات التي تعهدوا بها للتو ثم وضعوا أقاصيص الورق في وعاء كنت أحمله وهم يغادرون الغرفة. كان الجو مكهرباً وكنت بالكاد أستطيع الانتظار لأصل إلى البيت وأقرأ ما كتبوه.

لقد أدهشتني النتائج تماماً. فقد كنت أتوقع أن تكون الالتزامات على شكل عمل اجتماعي، وقد كانت كذلك، ولكن الذي لم أتوقعه كان أن 43 من 107 أوراق قدمت لي كانت تحتوي على التزام أو أكثر وعلى تصريحات تتعلق بالتطور الشخصي للمشاركين كبشر. مثل هذا الرد أظهر أن العديد من المشاركين كانوا يشعرون أنهم لم يولوا اهتماماً كافياً في حياتهم إلى التطور الداخلي المطلوب لكي يصبحوا صنّاع سلام. غالباً وليس دائماً، ترافقت هذه التصريحات حول تطوير الذات بتصريحات حول عمل مجتمعي، كذلك طوّر بعض الأساتذة الذين كانوا حاضرين أفكاراً جديدة حول طريقة تدريسهم. وقد غطت الموضوعات الثلاثة – حول التطور الشخصي والعمل المجتمعي والتعلم – سلسلة واسعة من المقاربات. إلا أنها جميعها مثلت درجة من التفكير العميق حول ما تكتنزه ثقافة السلام، تتجاوز التصنيفات العادية للنشاطات المتعلقة بالتغيير الاجتماعي.

التطور الشخصي

كان ردي المفضل يتألف من كلمتين، طبعتهما بشكل أنيق على قطعة ورق فردية « تنفس السلام ». إن هذا يشكل تمريناً جيداً للتأمل! أكثر المواضيع التي تكرر ذكرها في التطور الشخصي (11 جواب) كانت تتعلق باتباع أسلوب معيشة بسيط بما فيه قيادة أقل للسيارات، والمشي على الأقدام أو استخدام الدراجة الهوائية، والمشاركة في السكن واستخدام البريد القديم بدلاً من البريد الإلكتروني متى كان الأمر ممكناً

(شيء مفاجئ). وقد أعقب هذا الموضوع، موضوع آخر حول الأطفال يتحدث عن تربية الأطفال ليكونوا صنّاع سلام، وتبني أطفال، والتعامل مع العائلة بسلام (10 أجوبة) تطوير سلام داخلي وعدم ممارسة العنف في الحياة الشخصية، سواء بالتطور الروحي أو بالسلوك الاجتماعي وقد ظهرت هذه الأخيرة في عشرة أجوبة.

ثم ظهرت ملاحظة جديدة: اضحك كثيراً والعب أكثر واسترخِ أكثر (6 أجوبة) وأعقبتها ملاحظة بأن تكون مستمعاً جيداً، تتعاطف مع محدثك (5) تليها نقطة تقول: اكتب كتاباً عن السلام (4) ثم التزامات بتطوير استقلالية روحية، واكتشاف صوتك الداخلي، والنظر إلى الآخرين بإيجابية ثم أن تحب شخصاً جديداً كل يوم (30). اعثر على عمل يتيح لك الإسهام في صنع السلام (3) كن معلماً (3) وأنهِ ما بدأته وكن أكثر تركيزاً في حياتك (3). أما الملاحظات التالية فقد برزت كل منها مرتين: كرّس وقتاً أكثر للتعلم وكن مدركاً لما يحصل من ظلم اجتماعي. وأخيراً ظهرت الملاحظات التالية مرة واحدة لكل منها: كن أكثر إدراكاً لذاتك وللكوكب الذي تعيش فيه، غيّر العالم بتغيير شخص واحد يومياً؛ ساعد الآخرين على تنمية سلام داخلي في قلوبهم، وتكلم الإسبانية بطلاقة.

باختصار، كان هؤلاء المشاركون في المؤتمر يشعرون أن ثقافة السلام تستدعي اهتمامهم بداخل حياتهم، وطرق حياتهم وأساليب حياتهم. وتاريخياً، كانت ثقافة السلام تتميز بأساليب خاصة للعيش، ولم تتغير هذه البصيرة رغم تسارع ثقافة الاستهلاك التي نعيشها.

العمل المجتمعي

أظهرت التزامات العمل المجتمعي وعياً مشابهاً للأبعاد النوعية لثقافة السلام. كان هناك موضوع أساسي يقضي بأن يصبح الشخص أكثر معرفة بالمجتمع المحلي وأن يبني عمله في بناء السلام على الموارد الموجودة، بالإضافة إلى التركيز على إيجاد مجالات تلتقي فيها جماعات السلام والعدالة المحلية من جميع الأعمار ومن أجل

التفاعل عبر الأجيال. وقد شملت موضوعات بناء المجتمع ما يلي: تطوير مشاركة أكثر في المساكن؛ العمل مع أطفال الريف والمدن من أجل تطوير مهارات لحل النزاعات بطريقة لا عنفية وبالتعاون مع المدارس والكليات المحلية والجماعات الدينية؛ وتشجيع عملية بناء السلام من خلال الفنون؛ والعمل مع برامج إعادة العدالة.

كذلك كان هناك موضوع قوي يتضمن حشد قوى المجتمع للتحرك حول القضايا الدولية: إلغاء الأسلحة النووية؛ مساعدة ضحايا الحرب والعنف في العراق والبلقان وأميركا الوسطى؛ العمل مع منظمات السلام من أجل تحريك السياسة الأميركية باتجاه منع نشوب النزاعات؛ وشن الحملات من أجل انتخاب امرأة كرئيسة دولة. أيضاً كانت هناك التزامات تشمل العمل من أجل تحقيق عدالة اقتصادية للفقراء، وتعهد مشاريع تعمل على الاستدامة المحلية، وفقط التواجد في الساحة لتلبية احتياجات المجتمع.

من الواضح أن معظم المشاركين كانوا يفكرون في ثقافة السلام عبر بناء السلام على المستوى المحلي، ولكن هذا التفكير ترافق مع موضوع متكرر يتحدث عن الارتباط وإقامة الشبكات مع منظمات غير حكومية أخرى موجودة في العالم وتعمل في شؤون السلام والعدالة والبيئة وحقوق الإنسان. وقد غاب عن الالتزامات بشكل ملاحظ، استخدامات التقنية الحديثة وخاصة تقنية المعلومات. وكان التفاعل الذي يعتمد اللقاء وجهاً لوجه هو الجوهر في جميع النشاطات التي ذكرت.

التعليم

ثم كانت هناك الالتزامات التي ركزت على الأدوار التعليمية. أولاً وقبل كل شيء كان الالتزام بتطوير وتوسيع الدراسات حول السلام في الكلية أو الجامعة التي ينتمي إليها المشارك، وبإدخال دراسات السلام ضمن برامج تدريب المعلمين التي تستهدف معلمي الجيل القادم في المدارس الحكومية. وقد تضمنت معظم الالتزامات ما يلي: تطوير مساق دراسي حول اللاعنف، يحتوي بشكل خاص على تدريس مهارات

بناء السلام مع تركيز على التعددية الثقافية، والعمل مع الفئات الطلابية المؤيدة للسلام وتشجيعها، والعمل على تطوير برامج تعليمية عن السلام في المدارس المحلية العامة. كما أن الاهتمام بزيادة تعليم قضايا السلام، ترافق مع التزام بالتركيز على فرص تدريب على العمل المجتمعي لتعزيز قدرات الشباب في تطورهم كناشطي سلام.

ومن بين المائة والسبع ورقات، التي قدمت إليّ، احتوت اثنتان فقط على رسالة بسيطة سوف أعلنها لاحقاً. وأنا آمل أن يخبرني هذان المشاركان فيما بعد ما الذي قرراه.

قوة الصور الإيجابية

كانت ورشات العمل التي صُمّمت من أجل تصور المستقبل تهدف إلى تعزيز قدرات الناشطين الاجتماعيين، المبنية على فكرة فرد بولاك التي تتعلق بعمل تصورات المستقبل على إطلاق الطاقة الاجتماعية في مجتمعات تحمل مثل تلك التصورات[2]. لذلك كان مشجعاً أن نجد بأنه حتى ضمن بيئة أكاديمية في أساسها، تجاوب المشاركون بشكل ملموس جداً مع طلب التعبير اللفظي عن بعض الالتزامات المعينة بمصلحة المستقبل الذي قاموا بتصوره. وقد تجاوزت هذه الالتزامات حدود نشاطات الحرم الجامعي والقواعد الاجتماعية التقليدية لتشمل تركيزاً أشد على تغذية التطور الشخصي والمجتمعي، إضافة إلى تطوير مهارات التغيير الاجتماعي السلمي والاستراتيجيات المرافقة له. ولما كان هؤلاء المشاركون يدركون جيداً مدى تصاعد وتيرة العنف حول العالم، فقد كان من المهم جداً التركيز على بناء ثقافة سلمية على المستويات التي يمكن أن يصلوا إليها – الشخصية والمجتمعية – مع وجود استراتيجية داعمة من الشبكات الوطنية والدولية.

ويعكس التركيز على التطوير الشخصي وعلى النشاطات المحلية من قبل مجموعة تمتلك معرفة ملموسة حول نظام دولي شديد التعقيد، حكمة قديمة تواصلت حية عبر العصور. وتظهر بوضوح في العبارة التالية: « ليكن هناك سلام، وليبدأ هذا السلام بي ». إن وجود مثل هذه الحكمة في دراسات السلام أمر يجب الاحتفال به على الدوام.

أفكار جديدة لعمل ثقافة السلام

نعم، ما زالت الحكمة القديمة قابلة للاحتفال، ولكنني اليوم، وفي مرحلة ما بعد 11 سبتمبر، أشعر بحاجة إلى التفكير بالتحول الفجائي الذي طرأ على الولايات المتحدة، والتي كان من المفترض أن تكون في سلام، نحو حرب على الإرهاب دفاعاً عن اعتداء صغير على سيادتها (صغير نسبةً إلى حجم الموت الهائل الذي تسببت به القنابل النووية التي أُلقيت على اليابان خلال الحرب العالمية الثانية والحرب التي دارت رحاها في البلقان حديثاً). ما الذي كنا نفتقده في حقل الدراسات عن السلام في تعاملنا مع تعقيدات عالم متشابك المصالح ويعتمد على بعضه البعض؟ هل نقدم الاهتمام الكافي لمخاوف جدية قد تطرأ نتيجة التعددية التي تميز معظم المجتمعات الوطنية في الدول؟ .

والخوف من التعددية ليس مشكلة ضمن الدول فحسب ولكنه أيضاً مشكلة بين الدول نفسها، تؤدي إلى إبعاد الأمم المتحدة عن لعب دورها الذي صُمّمت من أجله في بناء السلام. كم هي بطيئة ومترددة هذه الدول عندما يصل الأمر إلى توقيع معاهدات تحدُّ من خصوصيتها أو من سيادتها. خاصة تلك الدول الأقوى. ومع ذلك فإن هذه الدول نفسها تضم بداخلها مجتمعات هي نفسها تحمل معها خصوصيتها، والقليل من الدول تدرك وجود هذه التعدديات أو الإثنيات بداخلها، وتلك الفئات الحضارية التي تحمل كل منها تاريخاً خاصاً بها.

وتتألف الدول المائة والتسعون التي تشكل الأمم المتحدة، حقيقة من مجموعات مختلفة من بين العشرة آلاف مجموعة الموجودة على وجه الأرض[3]، تمتد معها هوياتها الحضارية على طرفي كل حدود وقد انخرطت هذه المجموعات المختلفة في العديد من الحروب الحالية التي وقعت سواء داخل الدول أو عبر حدودها. والبعض منها، وليس كلها، صُنّفت تحت اسم « مجموعات إرهابية ». ما الذي سينهي هذه النزاعات؟ دعونا نلقي نظرة جديدة على العالم الذي يمتد ثلاثين سنة أمامنا. في العام 2032، يمكنني أن

أتخيل جميع التطورات القيمة التي جرت في حقل بناء السلام، والتي جرى وصفها بدقة في هذا الكتاب، بحيث اتسعت لتشمل تطور إحساس جديد بالمواطنية التي تغلّف الوضع المحلي بكامل تعدديّته والوضع الدولي بكامل تعدديّته أيضاً. كانت المواطنية القديمة تشكل فكرة اجتماعية رائعة تعالج بطريقة متوازنة الاحتياجات الإنسانية الموائمة من الارتباط والاستقلال، والدعوة إلى المحبة والولاء والشعور بالمسؤولية أمام الكيان الوطني. ولكن في عام 2032 أصبح مفهوم المواطنية يتألف بشكل أساسي من ثلاثة أبعاد. البُعد الأول هو البُعد المحلي، أي الهوية الإثنية/الحضارية التي تؤطر الإنسان ضمن العائلة والمجتمع، وهي الهوية التي تعتبر الأولى ضمن العشرة آلاف مجتمع الموجود على وجه الأرض.

والبُعد الثاني هو البُعد القومي – الوطني، أي الدولة التي تخدم مؤسساتها حياة هذه الإثنيات التي تعيش ضمن حدودها، وتجتذب ولاءهم ودعمهم إلى الدرجة التي تجعلهم يعيشون باحترام ويتمتعون بالاعتراف بهم كمواطنين. أما البُعد الثالث فهو بُعد دولي – أي الأمم المتحدة بنفسها، التي تشكلت لحماية معيشة ستة بلايين إنسان يحيون ضمن عشرة آلاف مجتمع، وينتشرون عبر 190 دولة.

وعودة إلى عام 2002، حيث نسينا جميعاً بأن الأمم المتحدة قد جاءت إلى الوجود كمؤسسة تضمنا « نحن الشعوب » كما يقول دستورها التأسيسي، ولم يقل « نحن الدول ». وكان الهدف من هذه المؤسسة هو وضع نهاية للحرب.

وهذا يعني أننا نحن جميعنا الستة بلايين إنسان، نعتبر مواطنين في الأمم المتحدة ونراهن على بقائها تماماً مثلما نراهن على بقاء الدول التي نعيش فيها والفئة التي ننتمي إليها. وحمل مسؤولية هذه المواطنية يتضمن فيما يتضمن نمونا الشخصي على أعمق المستويات، إضافة إلى تطوير قدراتنا الفكرية والاجتماعية والمدنية. كذلك يتضمن طريقة مختلفة وغير مألوفة لوجودنا في العالم. وإذا وضعنا هذه المسؤولية ضمن معنى مسؤوليتنا المدنية، يصبح علينا أن نضمن قيام ممثلينا الوطنيين إلى الجمعية العامة

للأمم المتحدة وإلى المؤسسة الإقليمية التابعة لها، بتوقيع المعاهدات الضرورية التي تحمي أمن وسلامة جميع البشر (وكذلك الحياة على هذا الكوكب)[4]. كما نعرف ونحب وطننا. إن جميع المعاهدات التي فشلت الأمم المتحدة في توقيعها مع بداية هذا القرن تشكل مؤشرات على ضعف المواطنية من جهتنا. كما تشير إلى فشلنا في حبّ الأمم المتحدة بالشكل الذي تحتاجه، أي تماماً مثلما نحب بلدنا.

نحن لم نولد مواطنين، ولكننا لكي نصبح مواطنين، علينا أن نخوض عملية تعلم اجتماعي ونمو شخصي. والتحدي الذي يواجهنا هو تعلم « كيف تعمل الأشياء » بحيث يمكننا ممارسة مواطنيّتنا. فأنظمة المدارس يجب أن تلعب دوراً متزايداً في هذا الأمر، بالتعاون مع الهيئتين الأكثر أهمية على الصعيد المدني (المواطني) وهما المنظمات غير الحكومية، وخاصة الدولية منها. إذ إن هذه المنظمات التي يصل عددها إلى 25000 توفّر الروابط الأساسية التي تساعد في تنشيط المواطنية ذات الثلاثة أبعاد، وهي تفعل هذا من خلال نقل همومنا حول السلام والعدالة وحقوق الإنسان والبيئة من الفصول المحلية حيث نعيش (بما فيها مجتمعاتنا الإيمانية المحلية) إلى المكاتب الوطنية ومراكز الرئاسة الدولية لهذه المؤسسات، ومن ثم مباشرة إلى الأمم المتحدة نفسها[5]. وهناك داخل أروقة الأمم المتحدة، ومؤتمراتها ومرافعاتها ومفاوضاتها حول معاهدات القضايا المهمة، يمكن للمنظمات الدولية غير الحكومية إسماع صوتها، حيث يستطيع ممثلوها أن يظهروا الفرق بمهاراتهم التفاوضية عبر المصالح القومية المختلفة.

ومع دخول عام 2032، ما زالت المنظمات الدولية غير الحكومية، مثلما كانت عند بداية القرن، في مراحل تعلم كيفية استغلال معظم فرص تبادل التعلم والتعاون على كل المستويات، من المستوى المحلي إلى مستوى الأمم المتحدة. لقد تم إحراق آلاف الساعات من وقت المواطنين في سبيل تواصل الحوار مع الدبلوماسيين ومسؤولي الحكومات والأمم المتحدة من أجل الخروج ببرامج واتفاقيات ومعاهدات أصبحت الآن تعمل على أرض الواقع بعد سنين من الجهد[6]. إنها عملية بطيئة وصعبة ولكن

هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن فيها تفعيل أعراف جديدة في الحكم ونماذج جديدة للسلوكيات، مبنية على حل المشاكل بدلاً من استعراض القوة والعنف.

إن مقاربات صنع السلام التي جرى وصفها في هذا الكتاب، سوف تلفت النظر إليها كجزء من تطور مواطنية جديدة وشاملة تحتضن ثروات التعددية الحضارية والبيولوجية الموجودة على هذا الكوكب. هل سيكون هناك تغيير في الوعي، يرافق هذا التطور،ويدرك تماماً ماذا يعني أن نكون إنسانيين بحيث يصبح هذا الكوكب مكاناً مناسباً وسعيداً يحلو فيه العيش.

ملاحظات :

1. Part one of this chapter detailing the futures-imaging event held at Tufts University originally appeared as "Peace Culture and Social Action" in Boulding (2001), and is reprinted here by permission of the publisher, Taylor & Francis, Ltd. (wwwtandf.co.uk).
2. The Dutch historian Fred Polak was the first to write a macrohistory showing how positive images of the future have empowered creative action for social change in societies of past times, and how the lack of positive images of the future have led to social decay (1961; 1972).
3. *Ten thousand societies* is a term referring to the existence of thousands of ethnies, and appears in UNESCO'S report on "Our Creative Diversity" (1996), as well as in Ankerl (2000).
4. For insight into the workings of the U.N. process in relation to peace issues, see Peck (1988).
5. For examples of the activities of INGOs in relation to peacebuilding, see Boulding (2000).
6. A vivid description of citizens' involvement in the development of the law of the sea is found in Levering and Levering (1999).

مراجع :

Ankerl, Guy 2000. *Coexisting Contemporary Civilizations.* Geneva: INU Press. Boulding, Elise. 1990. *Building a Global Civic Culture: Education for an Interdependent World.* Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press.

_____. 1995, "Image and Action in Peace Building." In The Future: Images and Processes. Fuse and Kenneth Boulding, eds. Thousand Oaks, Calif.: Sage.

_____ 2000. Cultures of Peace: The Hidden Side of History. Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press.

_____. 2001, "Peace Culture and Social Action." Peace Review 13:4, pp. 567—570. Levering, Ralph B., and Miriam L. 1999. Citizen Action for Global Changes: The Neptune Group and Law of the Sea. Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press.

Peck, Connie. 1998. *Sustainable Peace: the Role of the U.N. and Regional Organizations in Preventing Conflict.* New York: Rowman and Littlefield.

Pollak, Fred. 1961. *Image of the Future.* Elise Boulding, trans. Dobbs Ferry, N.Y.: Oceana Press.

_____. 1972, *Image of the Future.* Abridgement by Elise Boulding. San Francisco: Jossey BasslElsevier.

UNESCO. 1996. "Our Creative Diversity" Paris: UNESCO Publishing.

ملحق

دليل إدارة ورشة العمل حول المستقبل

تخيل عالم لا يوجد فيه عنف عام ××20*

إليس بولندنغ – إدارة ورشات عمل

مقدمة

بما أنه من الصعب العمل على شيء لا يمكننا تصوره حتى في مخيلتنا، وبما أن الرؤى يمكنها أن ترشد العمل وتعززه، فإننا سوف نقضي الساعات المقبلة باستكشاف .... (اسم السياق) الذي تم فيه استبدال ثقافات العنف التي غطت القرن العشرين بثقافات سلام.

بعد المقدمة الدولية للعملية، يقوم المشاركون بما يلي:

1- وضع لائحة بآمالهم للمستقبل،
2- إجراء تمرين موجز « بالتذكر » من أجل اكتشاف كيف تعمل المخيلة في مجال المستقبل،
3- تمضي عدة دقائق ضمن .... (السياق) لاستكشاف ما يحدث في المستقبل، وكيف تبدو ثقافة السلام،
4- المشاركة بالتجارب الفردية ضمن مجموعات صغيرة .... حول (نوع واسم التجربة) ومن ثم تحليل هذه التجارب لاكتشاف كيفية عمل هذا العالم المستقبلي،
5- بناء تاريخ من المستقبل إلى الحاضر، ضمن المجموعة – كيف يمكن لهذا كله أن يحدث؟
6- اختيار استراتيجيات التحرك في الحاضر (الوقت الحالي) التي يمكن أن تساعد على إظهار شكل هذا المستقبل.

تصور المستقبل

ما هي الأهداف الاجتماعية المحددة والمتعلقة بالهدف الشامل لإلغاء نظام الحروب وإيجاد عالم تعددي شامل لا يسوده العنف، والتي ترغب في أن تراها قد

تحققت بعد ثلاثة عقود من الآن؟ فكر في أكثر طريقة متفائلة وآملة تستطيعها. ولا تحدد نفسك بما تتوقع أو بما تخشى أن يحدث.

تمرين التصور

بعد عدة دقائق سندخل عالم الثلاثين سنة القادمة عبر بوابة التخيل. أولاً نحتاج للدخول إلى صيغة التخيل. ولكي نفعل ذلك، يتوجب على كل منا دخول عالم ذاكرته الشخصية واختيار إحدى الذكريات لإعادة التمرن عليها. يجب لهذه الذكرى أن تكون جيدة وأن يتمتع المرء بإعادة إحيائها. سوف يكون باستطاعتك إيراد وصف تفصيلي للوضع، وللناس المشاركين، وللروائح والمشاهد والأصوات والإحساس بالمكان. وكلما طال اكتشافك للذكرى، رأيت منها أكثر. ضع بعض الملاحظات حول الذكرى بحيث لا تنسى تفاصيلها. إن الطريقة التي تتخيل فيها (تتذكر) التجربة الحقيقية السابقة، تجعلك قادراً على معرفة طريقة عمل مخيلتك وهذه الصيغة الذهنية نفسها سوف تأخذك إلى المستقبل حيث يمكنك تخيل (تذكر) شيء لم يحدث بعد.

ملاحظات ومخططات حول العالم في ثلاثين سنة

والآن، وقد مررت عبر حاجز يفصل الحاضر عن المستقبل. أنت في السنة (أعط رقم السنة). تحرك بحرية، وراقب بدقة، اسأل الناس الذين تقابلهم. سجل ملاحظاتك عما تجده. قدّم رسماً أو صورة عن العالم التي تجربه على ورق عرض سوف نقدمه لك.

بناء العالم

ضمن مجموعات صغيرة، شارك بتصورك الفردي حول عالم المستقبل، ثم ابدأ بطرح أسئلة تحليلية حول تصوراتك المجتمعة. ما هو شكل العالم الذي هناك؟ عد إلى موضوعات أهدافك من أجل إيجاد موضوع تبني عالمك حوله. اعتمد في ذلك على ذاكرة غيرك واجعل غيرك يعتمد أيضاً على ذاكرتك. ومن أجل هدف هذا التمرين، ما دمت في المستقبل – الحاضر. استخدم صيغة الحاضر في الحديث عن المستقبل –

الحاضر. وإذا أردت أن تشير إلى الحاضر، فافعل ذلك بصيغة الماضي. ما هي البنى التي يجب أن تكون موجودة في هذا العالم الذي أنت فيه من أجل الدلالة على ما تراه؟ كيف هو التنظيم الأسري في هذا العالم؟ ما هو النظام السياسي والاقتصادي؟ كيف يتم تنظيم التعليم؟ كيف تحافظ الحياة المدنية والثقافية على نفسها؟ ما الذي يحرك هذا المجتمع؟ ضع في حسابك مجتمعك المحلي ثم تحرك أبعد ما تستطيع عبر المناطق وعبر الكوكب ككل. هل هناك دول قومية؟ إن الوقت هنا سيكون عاملاً محدداً، لذلك ابدأ بالنواحي التي تهمك من المجتمع ويمكنك أن تضيف النواحي الأخرى فيما بعد (حتى بعد انتهاء ورشة العمل هذه) تبادل الأدوار مع غيرك في تحليل البنى التي يراها كل منكم في هذا العالم بشكل فردي. بناء على هذا التحليل، سوف تقوم المجموعة بتقديم رسم أو صورة على الورق، عما شاهدته في هذا العالم. ثم ستقوم كل مجموعة بمشاركة جميع المجموعات الأخرى المنخرطة في ورشة العمل في رؤيتها للعالم.

تذكر التاريخ

أيضاً، وضمن مجموعات صغيرة، قف وسط هذا العالم المستقبلي وانظر إلى الخلف. كيف تم تكوين هذا المستقبل؟ تذكر/ أو تخيل بعض الأحداث الرئيسية. ادخل العلامات الرئيسية في الاتجاهات العالمية أيضاً. السنة السابقة مثلاً؟ أو الخمس سنوات، أو العشر أو العشرين أو الخمس والعشرين؟ على كل مجموعة أن توجد حداً زمنياً للأحداث. وسوف تتم مشاركة هذه التصورات مع الجميع من أجل الخروج بتاريخ مشترك يتم تذكره.

التحرك في الحاضر

- الخطوة الأولى: عودة إلى المجموعات الصغيرة، فكر فيما يمكن أن تفعله أنت شخصياً الآن، أو هذه السنة من أجل الخروج بهذا العالم المستقبلي الذي تصورته في مخيلتك. أولاً فكّر بأوضاع التحرك المتوفرة لديك ضعها في لائحة: عائلتك،

الحي الذي تسكن فيه، مجتمعك، مكان عملك، المؤسسة التي تعمل بها، المكان الذي تتسوق منه... الخ.

- الخطوة الثانية: ما هي الأهداف التي يمكن أن تضعها لنفسك – أهداف ملموسة ومعينة يمكنك تحقيقها في وقت قصير أي بكلمات أخرى، في الأشهر القادمة. من سيكونون حلفاءك؟ كيف ستتعامل مع صانعي القرارات.
- الخطوة الثالثة: والآن ابدأ بتجسيد مشروع معين مبني على الأجوبة التي وضعتها لما سبق.
- الخطوة الرابعة: في الحلقة الختامية الشاملة، أشرك جميع المشتركين في ورشة العمل في مشروعك هذا.

من أجل إيجاد هذا المجتمع الجديد، علينا أن نمد أيدينا للصداقة دون حقد أو ضغينة، حتى ونحن نظهر عزماً شديداً، وعلينا أن لا نتذبذب أبداً في دفاعنا عن الحقيقة والعدالة... نحن نعلم أننا لا يمكننا بذر الحبوب بقبضات يد مغلقة، لكي تبذر الحبوب يتوجب عليك أن تفتح يديك.

أدولفو بيريز اسكويفل

الفصل الخامس

إيجاد ثقافة السلام في سلفادور ما بعد الحرب

مارك شوب

كانت مقاطعة يوسولوتان في السلفادور منطقة بالغة الأهمية خلال الحرب الأهلية التي خاضتها البلاد. وقد عانت هذه المنطقة بعد انتهاء الحرب من فقدان البنية التحتية وعدم وجود دعم من الدولة لآلاف العائلات التي حطت رحلها في الإقليم. إثر ذلك، قامت مجموعة من القرى بتكوين مؤسسة شعبية تحمل اسم La Coordinadora من أجل منع وقوع الكوارث وتعزيز التنمية المستدامة. وفي عام 1998، أعلنت المؤسسة نفسها منطقة محلية للسلام وأسست لبرنامج ثقافي سلمي من أجل التغلب على العنف المستشري وتعليم السلام. وبدلاً من تبني نموذج أجنبي لحل النزاعات، اختارت المؤسسة مستشارين دوليين يطرحون مقاربات مستخرجة من الواقع من أجل القيام بعملية سلمية فعلية ضمت في جوهرها مجموعة من قيادات الفلاحين، يقومون بتسهيل إجراء الحوارات وحلقات التفكير كوسائل لتثقيف القرى، وحل النزاعات وتعزيز العملية الديمقراطية. وقد قام المستشارون بتطوير مقاربة شاملة، ذات نظام شمولي تتضمن نشاطاً لا عنفي، ورؤية إيجابية للمستقبل وعملية تصميم برامج تعتمد على التجربة والتفكير. ورغم البطء الذي رافق العملية، إلا أنها استطاعت تجنب الاعتماد على أشخاص من الخارج وعملت وما زالت تعمل على تحويل المجتمعات إلى مناطق سلام.

تشكل الحرب الأهلية الحد الأقصى الذي يمكن أن تصله المجتمعات في انهيار قدرتها على إدارة خلافاتها بالطرق السلمية. فبعد توقف إطلاق النار، وبغض النظر

عن النتيجة، تعمّ نظرة الهزيمة. وفي محاولتها لإعادة بناء المجتمع، تنظر الدول الخارجة من الحرب دائماً إلى الخبراء الأجانب من أجل إعادة تجميع الفئات المستقطبة، وإدخال مقاربات جيدة لإدارة النزاع، وتعليم الناس مهارات التعاون والاتصال التي ضاعت خلال الحرب.

وبدعم من هيئات المساعدة الدولية، تدفق المستشارون في شؤون التوسط والمدربون إلى البلدان الخارجة من الحرب من أجل إعادة بناء الآليات اللاعنفية المستخدمة في معالجة الخلافات. وإذا كان هناك افتقار لتقدير الموارد المحلية، فإن إدخال نماذج أجنبية وآليات غريبة يزيد من تآكل ثقة الناس في قدرتهم الشخصية على معالجة الاختلافات.

وقد واجهت السلفادور، أصغر دول أميركا الوسطى وأكثرها كثافة بالسكان، مثل هذه المعضلة في حقبة التسعينات بعد عقود من القلاقل الأهلية واثنتي عشرة سنة من الحرب الأهلية المكشوفة. وكانت مقاطعة يوسولوتان، الواقعة في الجزء الجنوبي الشرقي من البلاد، على المحيط الهادي، من أكثر المناطق تضرراً نتيجة هذه الحرب. إذ احتل رجال العصابات خلالها منطقة يوسولوتان الاستراتيجية الممتدة إلى داخل نيكاراغوا عبر خليج فونيسكا. واليوم تكافح المنطقة من أجل السلام ويتألف سكانها من مجتمعات انبثقت عن عائلات العسكريين السابقين إضافة إلى مجتمعات مؤلفة من عائلات رجال العصابات السابقين. ولما كانت المنطقة في السابق تضم مساحات مبعثرة من مزارع القطن ينتشر سكانها حول المزارع، لم تستطع قوة الشرطة ولا البنية التحتية العامة أن تضمن الأمن أو العلاقات السليمة بسبب تبعثر السكان في أرجاء المنطقة وبسبب سوء تجهيزها. وظن الجميع أن عدم فعاليتهم جاءت كجزء من الجهود التي تبذلها الحكومة لتقويض معيشة الفلاحين ودفعهم إلى خارج المنطقة من أجل إفساح المجال أمام قيام زراعات واسعة ومن أجل تطوير المنطقة سياحياً (كوان 2001).

تشكلت حركة شعبية عام 1996، ضمت سبع مجموعات اتفقت على العمل معاً من أجل إيقاف فيضان المياه الذي نتج عن إطلاق المياه من سد حكومي. وقد عرف تآلف المجموعات السبع باسم لاكوردينادورا أو المجتمعات المتعاونة La Coordinadora [(1)]. ولم تعتمد هذه الحركة في نشاطاتها على الحكومة. ولا على النخبة المثقفة ولا على الخبراء الأجانب من أجل إحداث التغيير. ولكنها انطلقت على مركب بديل، بانيةً نشاطاتها على قدرات أفرادها وثقافتهم من أجل تغيير المنطقة وأخيراً، انضمت العشرات من المجموعات لمنع حدوث الكوارث الطبيعية ولتعزيز الاكتفاء الذي جاء كردّ على الفقر وعلى عجز الحكومة. ومع حلول عام 1999، قامت ثمان وستون مجموعة تمثل ثلاثين ألف شخص بتاسيس لاكوردينادورا، وتوسعت مهمتها لتشمل السلام والديمقراطية (كوان 2001).

واستلهاماً لفكرة الأمم المتحدة، أعلنت المؤسسة منطقتها منطقة سلام محلية، وقامت بتطوير حلقات اجتماعية لإعادة اكتشاف طرق حل المشاكل اللاعنفية الموجودة في ثقافتها. ومن أجل تطوير السلام حقيقة في المنطقة، بادرت المؤسسة بإطلاق برنامج ثقافة السلام المطوّرة محلياً، وهي مقاربة شمولية عملت على تعزيز السلام من خلال ثلاثة عناصر هي – إعادة إحياء المسؤوليات، ومبادئ حقوق الإنسان، وتعزيز السلام والوسائل المحلية لحل النزاعات، وتشجيع التحول في حياة المؤسسات نحو السلام والديمقراطية.

هذه هي قصتهم. وهذا الفصل يقدم نظرة شاملة موجزة على الحرب الأهلية وعن سياق العملية السلمية في يوسولوتان. ويصف تطور مؤسسة لاكوردينادورا وبالتحديد برنامج حول ثقافة السلام. كذلك يقوم الفصل بفحص الطرق التي تعكس فيها هذه الجهود توجهاً تقديرياً. ويقدم وسائل وأمثلة محددة لتوضيح كيفية ابتعاد برنامج ثقافة السلام في يولوسوتان عن النموذج التقليدي المتبع في شمال أمريكا. ويختتم الفصل حديثه بنقاش عن التحديات والفرص التي تواجهها هذه المقاربة الإيجابية نحو بناء السلام من قبل الحركة الشعبية.

سلفادور ما بعد الحرب

تمثل عملية بناء السلام في السلفادور سلسلة من التحديات التي يتوجب معالجتها في وقت واحد. فسياسياً تعتبر البلاد نموذجاً للاستقطاب حيث تقف البنى العسكرية والاقتصادية على طرف واحد من طرفي النزاع، أما اقتصادياً فتعاني البلاد من تمزق وسائل الإنتاج حيث تشح الموارد الغذائية وتنخفض نسبة التجارة وتتفاقم أعداد العاطلين عن العمل. وتعم الفوضى من الناحية الاجتماعية وحيث تعيش المؤسسات التي نتوقع منها في العادة تقديم الوسائل الصحية والتعليم وغيرها من الخدمات العامة في حالة من فوضى العمل، هذا إذا كانت تعمل على الإطلاق. وعلى الصعيد الثقافي، تم استبدال الطرق السلمية باعتماد زائد على العنف كرد على الاختلافات الشخصية والسياسية والاقتصادية.

وقد واجهت السلفادور التي تعد أصغر بلدان أميركا الوسطى وأكثفها سكاناً، جميع هذه الاستحقاقات عام 1992، مع توقيع اتفاقية السلام التي توسطت فيها الأمم المتحدة وبعد اثني عشر عاماً من الحرب التي خلفت ما يزيد عن 75 ألف قتيل كانت السلفادور تترنح تحت ثقل أشد النزاعات الحديثة وطأة في أميركا اللاتينية. كان الحكم في هذا البلد يتطابق مع أكثر سيناريوهات الثورة التقليدية – فقد كان على دفة الحكم نظام دكتاتوري مدعوم من الخارج (الولايات المتحدة)، وكانت ملكيات الأراضي غير متساوية أبداً، والطبقة الوسطى في حالة معارضة والفلاحون يعانون أشد المعاناة. وكانت جبهة تحرير فارابوندو مارتي قد تأسست عام 1980 من بين خمس حركات ثورية وأنشأت بذلك أقوى تحالف ثوري في نصف لكرة الأرضية. وكانت هذه القوى أكثر بأساً وأفضل تنظيماً من منظمة الدرب المضيء في بيرو ومن الحركات الثورية الأخرى في كوبا وفي نيكاراغوا (ماكليينتوك 1998).

الفرق بين النتائج التي خرجت بها السلفادور وبين جيرانها، كان في الالتزام القوي من قبل الولايات المتحدة للوقوف إلى جانب البلد. ربما، وبشكل جزئي بسبب

الخوف من أنه إذا سقطت السلفادور فسيعقبها سقوط غواتيمالا وغيرها من بلدان أميركا الوسطى في أيدي الحركات اليسارية الثورية. وقد شمل التزام الولايات المتحدة، إجراء تدريبات عسكرية مكثفة ودعماً عسكرياً بالإضافة إلى الدعم الاقتصادي. وفي عام 1987 قدمت الولايات المتحدة إلى السلفادور 574 مليون دولار على شكل مساعدات وشكل هذا المبلغ أكثر مما تُحصِّله صادرات البلد مجتمعة. ومع نهاية العقد كانت الولايات المتحدة قد أنفقت أكثر من 200.000 دولار مقابل كل مقاتل عصابات ومع ذلك فشلت في تحقيق انتصار على جبهة فارابوندو مارتي الثورية (ماكلينتوك 1998).

وفي عام 1989، وبعد سنين من القتال، أدرك كل من الطرفين أنه لن يتمكن من كسب الحرب. فقد خسرت الحكومة اليد العليا عسكرياً. كذلك على مستوى الإرادة العامة، كما تقلص الدعم من الولايات المتحدة بعد أن قتل عسكر السلفادور الذي تدرب على يد الولايات المتحدة ستة آباء يسوعيين. وفي نفس السنة أدركت جبهة فارابوندو مارتي أنها لن تستطيع كسب الحرب بشكل كامل خاصة بعد فشلها في الهجوم الأخير.

وتحت رعاية الأمم المتحدة، دخل الطرفان في مفاوضات خلال السنتين اللاحقتين، وأدت هذه المفاوضات إلى توقيع معاهدة سلام عام 1992. وقد ألغت بنود الاتفاقية معظم الفرق العسكرية السيئة الصيت والتي ارتبطت أعمالها بفرق الموت، وأعادت بناء قوة الشرطة الوطنية بعد أن انضم إليها رجال عصابات سابقين، وتعهدت بإجراء بعض الإصلاحات في الأراضي وإعادة توطين اللاجئين، كما نفذت إصلاحات سياسية وانتخابية لضمان حصول جبهة فارابوندو مارتي على مقاعدها كحزب سياسي.

وفيما نجحت بنود معاهدة السلام في إنهاء النزاع المسلح، إلا أنها لم تطبّق بالكامل ولم تكن تعني نهاية للعنف. فمع انتهاء عقد التسعينات، أصبحت السلفادور

وكولومبيا وجنوب أفريقيا من بين البلدان الأعلى نسبة في العنف بين دول العالم. ولكن السلفادور، وعلى العكس من كولومبيا، لم تشهد عنفاً مبنياً على السياسة بشكل رئيسي. فقد اندلع العنف فيها نتيجة أسباب اقتصادية، ونتيجة ظهور عصابات جديدة، وكان ببساطة هو الرد المألوف حتى على أكثر النزاعات تفاهةً.

لاكوردينادورا وبرنامج ثقافة السلام

كانت هناك عوامل متعددة أثرت بشكل معاكس على مقاطعة يوسولوتان الجنوبية، وقدمت الدافع لإيجاد اللاكوردينادورا وبرنامجها المتعلق بثقافة السلام. فقد انتزعت الحرب ثمناً ثقيلاً من المنطقة. على سبيل المثال، تم تدمير الجسر الرئيسي الوحيد الذي يقطع نهر اللمبا، وهو أكبر جسر في أمريكا الوسطى، خلال إحدى هجمات العصابات. وواجهت مسألة إعادة توطين مجموعات الناس بأكملهم في منطقة غير مسكونة سابقاً، عدم وجود بنية تحتية أساسية. وأمام حقيقة كون جبهة فارابوندو مارتي قد حكمت المنطقة خلال الحرب، كانت هناك نسبة كبيرة من العائلات المناصرة لها تعيش في تلك المنطقة، وقد أضيف إلى هؤلاء دفق لاحق من اللاجئين. وظلت الحكومة تتعامل ببطء، في تزويد المنطقة بالموارد والدعم لإعادة بنائها، جزئياً بسبب ثقل المهمة، وأيضاً لأنها كانت تحاول إبعاد الفلاحين عن المنطقة وتقدم لهم مقادير ضئيلة من المال مقابل إخلاء أراضيهم. وعلى أي حال، لم تكن الحكومة اليمينية راغبة في تعزيز منطقة تعتبر معقلاً لليسار. ومما فاقم من تعقيد الأمور، أنها حاولت أيضاً إيجاد توازن سياسي في المنطقة من خلال إسكان عائلات العسكريين السابقين فيها في تجمعات استراتيجية مجاورة لتجمعات عائلات اليساريين.

انبثقت لاكوردينادورا، كردٍّ على هذه الاحتياجات، في البداية، كانت تضم سبعة تجمعات التقت معاً من أجل معالجة أخطار الكوارث الطبيعية. فقد أدت الأمطار الغزيرة وتدفق مياه أحد السدود الكبيرة دون إنذار إلى حدوث فيضانات فجائية على ضفاف نهر اللمبا. إثر ذلك قامت شبكة من المتطوعين بإنشاء محطة

اتصالات بالراديو ترسل وتستقبل بالإضافة إلى نظام رد سريع. كذلك شكلت لاكوردينادورا مجموعة ضغط داخل الحكومة لإحداث تغييرات في سياستها من أجل بناء جدران تواجه الفيضان وإجبار الهيئة المائية الكهربائية الحكومية على إعطاء إنذار قبل إطلاق مياه السد.

ولدى رؤيتها لهذا النجاح، انضمت مجموعات أخرى إلى اللاكوردينادورا، فارضةً بذلك تغييرات داخلية على بنيتها ومأسستها. والتزاماً منها باتخاذ قرارات ديمقراطية ومشاركة محلية، كانت كل مجموعة بدورها تعقد هيئة عامة وتصوّت للانضمام إلى اللاكوردينادورا واختيار ممثل عنها. ومع ارتفاع عدد المجموعات المشاركة إلى ست وعشرين وثم إلى ثلاثة أضعاف ذلك الرقم خلال سنتين، لم يعد من الممكن أن تتخذ القرارات وأن تُسيَّر الأعمال عبر هيئة منتخبة من الممثلين. لذلك تبنت المؤسسة عام 1998 خطة لتشكيل منظمة غير حكومية NGO [2]. ولكي تضمن سيطرة المجموعات ضمن عملية ديمقراطية، ربط دستور المنظمة الجديدة إدارتها بهيئة من الممثلين المنتخبين. وعرفت المنظمة باسم منظمة المانغروف[3] (وهو نبات مائي مهدد بالانقراض. يعيش على طول شطآن إقليم اليوسولوتان) وتم تأسيسها عام 1999، ليس بهدف جمع التمويل وجلب المشاريع فحسب ولكن من أجل تعزيز وضع الناس ليصبحوا مكتفين ذاتياً أيضاً. وفي عام 1999، وكجهد منها لتصبح أكثر ديمقراطية – أعادت اللاكوردينادورا بناء نفسها مرة أخرى لإيجاد ثماني مجموعات محلية وأصبحت بذلك تضم أعضاء ينتمون لمجموعات تعيش في نفس المناطق ضمن الإقليم (صندوق المعونة الاجتماعي 2000).

ورغم وجودها على شكل منظمة غير حكومية منفصلة، ورغم الرواتب التي كانت تدفعها لموظفيها المهنيين، بقيت لاكوردينادورا في الواجهة. وكان توجيه البرامج والمهمات يوضع من قبل ممثلي الفلاحين، وليس من قبل هيئة مديري المنظمات غير الحكومية. وقد وضعت اللاكوردينادورا في مهمتها إيجاد الشروط أمام السكان من

أجل التنظيم والمشاركة وتنمية المهارات الفردية والجماعية وإحياء القدرات التي تقود إلى التنمية المتكاملة. وشملت مجالات تركيزها، التنظيم ومنع وقوع الكوارث، والمشاركة المحلية، ونشر ثقافة السلام، والإنتاج والبيئة. ومع شمول أهدافها أيضاً تعزيز الاكتفاء الذاتي، بدأت المنظمة بتأمين الأموال اللازمة واستئجار الخبراء الزراعيين وغيرهم من الاختصاصيين من أجل تطوير مزارع الربيان (الجمبري) الجماعية ومزارع الخضار العائلية التي تولد النقد.

ورغم أن زيادة الإنتاج ومنع الكوارث حسّنا بشكل ملحوظ من نوعية الحياة في المجتمعات، إلا أنهما لم يعالجا خطراً رئيسياً آخر – هو العنف الاجتماعي. فقد أظهرت إحصائية يكثر ذكرها أنه ضمن المعدل الحالي، فإن عدد الناس الذين يقتلون خلال الاثنتي عشرة سنة التي أعقبت انتهاء الحرب الأهلية في السلفادور عام 1992، سيكون أكثر من العدد الذي قتل خلال الحرب. فقد كانت النزاعات الشخصية تتحول إلى قتال بالأسلحة النارية. وشعر العديد من الناس أن العنف أصبح طريقة للحياة وأنه تغلغل داخل الثقافة كوسيلة لحل، حتى أتفه النزاعات. إضافة إلى ذلك، فقد عادت العائلات التي كانت تعيش في المنفى إلى منازلها، وعاد معها أولادها المراهقون الذين كانوا منخرطين في عصابات الشوارع التي تزخر بها مدن لوس انجليس وغيرها من المدن الأميركية. وغالباً ما كانت الحكومة الأميركية تقوم بشكل روتيني باعتقال أفراد العصابات السلفادورية وترحيلهم إلى بلادهم كمواطنين أحرار، لكي يبدؤوا بعد ذلك بتشكيل عصاباتهم داخل مجتمعاتهم المحلية (والاس 2000). وقد بقيت المجتمعات الصغيرة تعيش في حالة خوف من هذه العصابات المستوردة، حيث كانت عصابتا الشارع 13 والشارع 18 تتنافسان على أموال سباق الخيل.

الإعلان عن منطقة السلام المحلية

رداً على تزايد أعمال العنف، قامت اللاكوردينادورا يوم 15 آب/ أغسطس، 1998، وبدعم من منظمات عديدة أخرى، بالإعلان عن نفسها كمنطقة سلام محلية.

وكانت المنظمة قد بادرت، بالتعاون مع المركز الدولي لدراسة وتعزيز مناطق السلام في العالم، باستكشاف الفكرة التي وردت في عدة مقترحات للأمم المتحدة وفي أحد التصريحات التي أطلقتها منظمة اليونسكو. وكانت الأمم المتحدة قد أطلقت الفكرة، أولياً، عندما أعلنت المحيط الهندي كمنطقة سلام عام 1971 وبعده المحيط الأطلسي الجنوبي كمنطقة سلام وتعاون أيضاً. وقد تُوّجت إحدى الدراسات التي قامت بها جامعة السلام التابعة للأمم المتحدة في كوستاريكا ما بين الأعوام 1987 و 1990، باقتراح لإعلان أميركا الوسطى ومنطقة الكاريبي، مناطق سلام وتعاون. وفي ديسمبر عام 1990، قام رؤساء دول أميركا الوسطى بإعلانها « منطقة سلام » وتعاون، وتنمية ». وقامت الجمعية العامة للأمم المتحدة بالتصديق على هذه المعاهدة عام 1991 (المعهد السلفادوري لحقوق الإنسان 1996).

مثل هذه التصريحات المبكرة، كانت جميعها مقاربات من القمة إلى القاعدة تتجه نحو إيجاد مناطق سلام، منها واحدة في أميركا الوسطى عام 1990 وأخرى في السلفادور عام 1993. وكانت نية الأمم المتحدة من إعلانها منطقة سلام في السلفادور تتجه نحو تحويل مناطق ما بعد الحرب إلى مجتمعات مدنية غير عسكرية. ولكن هذه الجهود حول العالم لم تنجح للأسف في فرض حضور مرئي ومعروف على أرض الواقع. وجاءت مبادرة يوسولوتان لتشكل أول مبادرة تنطلق من القاعدة ومن قبل المجتمعات المعنية نفسها. وقد جاء في الإعلام:

« في منطقة السلام، يعتبر اللاعب الرئيسي هو المجتمع... وعلى جميع الجهود أن تكرّس من أجل الحفاظ على الحياة وحل النزاعات دون اللجوء إلى العنف ». وكان دور الحكومة محدداً في تخصيص الموارد وتعزيز المجتمعات.

تسبب العنف الشديد الذي ابتلى المنطقة بعرقلة جهود اللاكوردينادورا من أجل تنمية الإقليم ودفع بها إلى وضع برامج لإدارة النزاعات ومناطق السلام. وتم تأسيس منطقة السلام المحلية بناءً على عدد من المبادئ والقيم التي التزمت بها اللاكوردينادورا

من أجل إيجاد هوية جديدة للمنطقة. ومع انطلاق العمل بهذه النظرية السلمية، كان لابد لتعريف منطقة السلام المحلية ونشاطاتها أن يأخذا شكلاً مع الزمن. فقد قامت اللاكوردينادورا بتسهيل إقامة الاحتفالات بالمناسبات السنوية، بما فيها تلك المسيرة التي انطلقت من بلدة إلى أخرى وحشدت فيها ألفي شخص عام 1999. وقد لعب خوسيه «شينشو» آلاس، وهو راهب سابق من السلفادور، تعاون مع اللاكوردينادورا ودعمها من خلال مؤسسته الداعية للاكتفاء الذاتي في أميركا الوسطى[5]، دوراً محورياً في تعزيز المبادئ والقيم التي تقف منطقة السلام المحلية وراءها. وقدّم ما يقارب الخمسين ورشة عمل حول حقوق الإنسان والمسؤوليات التي تجمع الناس مع بعضهم البعض داخل مجتمعاتهم من أجل تعلم هذه الحقوق والمسؤوليات وتثبيتها.

شكلت منطقة السلام المحلية إعلاناً عن مكان جغرافي – وكانت من نواحٍ عدة، تعتبر شيئاً رمزياً وجوهرياً من حيث المبدأ. وأدى إيجاد برامج حديثة العهد حول ثقافة السلام إلى تجسيد هيكل منطقة السلام المحلية. ولكن المنطقة واجهت معضلة، تتمثل في عدم وضوح الرؤيا فيما يتعلق بوضع برنامج منفصل لثقافة السلام أو اعتبار جميع البرامج والنشاطات كانعكاس لهذه الثقافة. وكان الإعلان الأصلي لمنطقة السلام قد عكس التزاماً منها ليس بتشجيع حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية فحسب بل بضمان وجود مشاركة محلية، وديمقراطية، واكتفاء ذاتي. لذا، إذا كان على برنامج ثقافة السلام أن يصبح جزءاً من المنظمة، فإن عليه أن يؤثر على جميع عناصرها دون أن يفرض سلطته عليها. وقد تطلب حل هذه المعضلة حواراً متكرراً بين الممثلين ومجتمعاتهم، إلى أن تبلور البرنامج مع الأمن، واتخذ شكله المطلوب بعد أن تم تنظيم فريق. وتلقى هذا الفريق تدريبات أولية وقام بإنجاز أعمال ريادية داخل المجتمعات. وقد أملت الممارسة بذلك سياسات البرامج وإجراءاتها.

سعت اللاكوردينادورا للحصول على دعم مالي واستشارات من أجل تحويل المنطقة بالكامل إلى منطقة سلام. وقد استطاعت مؤسسة الاكتفاء الذاتي تأمين منحة

من المعهد الأميركي للسلام عام 1999 وبعد ذلك من مؤسسة هيوليت، من أجل تنمية وتطوير منطقة السلام المحلية. وكانت اقتراحات التمويل الأصلية التي تم تطويرها مع اللاكوردينادورا بالتعاون مع المستشار ريتشارد سالم، وهو مستشار من شمال أميركا لإدارة النزاعات الدولية، وأحد أنصار اللاكوردينادورا قد اتبعت نموذجاً أميركياً شمالياً تقليدياً في تدريب السكان المحليين على تفعيل مراكز التوسط داخل المجتمع. وما أن تلقى البرنامج تمويله، حتى قامت مؤسسة الاكتفاء الذاتي لأميركا الوسطى باستبقاء ثلاثة مستشارين من المانونايت للعمل على وضع تصميم مستنبط من داخل مجتمعات اليوسولوتان. فقد أدركت اللاكوردينادورا أن هذه المجتمعات سوف تحتاج إلى تطوير بنيتها وأساليبها من أجل تعزيز قدراتها على إدارة النزاعات بالطرق السلمية.

تطوير برنامج ثقافة السلام

ومع وجود رؤية عامة والتزام بالسلامة، تطور برنامج ثقافة السلام مع الزمن، فقد كان العامان الأولان من عمل منطقة السلام المحلية أي من آب 1999 وعبر عام 2000، حافلين بالاحتفالات والمناسبات السنوية وبالتغييرات التنظيمية الداخلية التي تهدف إلى ضمان أن تعكس المنظمة خط السلام والديمقراطية. وقد أعادت اللاكوردينادورا بناء هيئتها الإدارية لصالح زيادة التمثيل وعززت ديمقراطية اتخاذ القرارات داخلها. كما وسعت ثقافتها حول مواضيع الجندرة وجنّدت النساء ضمن طواقمها ومراتبها. كذلك وضعت سياسات ذات مقاييس واضحة لاختيار متلقي البرامج، دون أن تبني هذه القياسات على أية علاقات شخصية أو محاباة.

وقد تلقى برنامج ثقافة السلام في الواقع تمويلاً دولياً ودخل عبر مراحل رئيسة في تطوره، بدءاً بالرحلة الأولى للمستشارين الدوليين. وأدت الحوارات الداخلية والمشاريع الريادية ومدخلات المستشارين إلى تطوير مبادئ للممارسة وسياسات أوصلت الأمر في النهاية إلى البنية والمنهجية الحالية للبرنامج.

وقد ساعد ثلاثة من المستشارين العاملين في صناعة السلام من منظمة المانونايت، هم فيل توماس، ولزدي ستكي ومارك شب (المؤلف) في تطوير برنامج ثقافة السلام[6]. وبناءً على توصية سالم، تم اختيارنا ليس فقط للمقاربة التي قدمناها فحسب بل الأكثر من ذلك بسبب الخبرة المكثفة التي اكتسبناها في أمريكا اللاتينية. وقمنا بتوفير مجموعة من التدريبات، كما سهلنا إقامة الحوارات حول الإطار النظري لتحويل النزاعات. ومنذ الرحلة الأولى، في بداية عام 2000، لم نتخذ عملية الوساطة كنموذج ولكننا أدخلناها كوسيلة لتحويل النزاع. وقد قادتنا كمستشارين ستة مبادئ في الممارسة وانعكست هذه المبادئ في أول ورشة عمل أقمناها.

استخدم مقاربة مستنبطة من الواقع المحلي

بدلاً من إحضار أهداف مسبقة لتحضير جدول أعمال مجهز للتجربة، استهل المستشارون عملهم بمقابلة الموظفين وأعضاء البعثات. وقد ساعدتهم هذه المقابلات على بناء العلاقات وتفهم تاريخ المنطقة والمنظمة، واكتشاف الحاجات والرؤى التي أوصلت إلى إقامة منطقة سلام محلية، واستشفاف توقعات الأطراف المحلية بالنسبة للتدريبات القادمة. وبالتعاون مع القيادات الرئيسية، قمنا بتحديد الأهداف لأول ورشة عمل وكانت: 1) تفهم ما الذي يعنيه بالنسبة لنا كأفراد أن نعيش في سلام. 2) أن نتأمل ماذا يعني أن نكون مجتمعاً يعيش في سلام. 3) أن نكتشف دور ومهمة اللاكوردينادورا بالنسبة للرؤية المتعلقة بثقافة السلام. عندها فقط جلس المستشارون المدربون واختتموا نشاطات ورشة العمل.

استخدمت ورشة العمل الأولى وما تلاها من تدريبات، نموذج التثقيف الشعبي، الذي نظر إلى موقع المجموعة في سياق تطورها ثم استخدم تمارين أتاحت للمشاركين فرصة تجربة المحتوى من المصدر والتأمل في التجارب وعلاقاتها بمجتمعاتهم. وبتجنبنا استخدام أفكار مكوّنة مسبقاً في تدريب مجموعة من الوسطاء، استطعنا التركيز على الأسس النظرية لتحويل النزاع ومهارات إدارته. وأمام إدراكنا للفشل الذي مُنيت به

محاولات عديدة في تأسيس مراكز وساطة في أميركا اللاتينية، قمنا بتشجيع المشاركين في البرنامج على عدم الالتزام بنموذج واحد فقط.

وبناءً على الإطار الذي وضعه زميلنا جون بول ليدرباخ (1995) بادرنا إلى استخدام نموذج مستنبط من الواقع، وكنا نحن فقط المحفزين والمشجعين الذين يحاولون توضيح خبرات المشاركين. وبدلاً من استيراد نموذج، سعينا إلى وضع عملية استكشاف يمكن فيها للمشاركين تحديد المعاني والطرق الموجودة في ثقافتهم والتي يمكنهم استخدامها لتحويل وجهة النزاع من مدمِّر إلى بنَّاء. مثل هذا النوع من أطر التدريب يمكن اعتبارها دمجاً، لإسهامات الثقافة الشعبية، والتقنية والمناسبة، وعلم الانثروبولوجيا الوصفية. وكموارد أولية، قدم المشاركون حالات دراسية من واقع مجتمعاتهم ثم لعبوا الأدوار التي تظهر إمكانية إدخالهم لاتصالاتهم ولمهارات إدارة النزاع، بشكل طبيعي من أجل المساعدة في تحويل النزاعات. وقد أسهمت التمارين والمحفزات في إثارة الوعي لدى المشاركين والمصادقة بينما هم يختبرون تحركات ثقافتهم ضمن عملية التدريب نفسها.

تشجيع تحويل قوة اللاعنف

لم يكتف المدربون بتعليم أساليب حل النزاعات فحسب بل جلبوا معهم مفهوماً يقول بأن داخل كل إنسان توجد قوة للتغيير نحو السلام واللاعنف. واعتماداً على ما أسسه الكويكرز من بدائل لمشروع العنف[8]، افترضت فكرة قوة التحويل أن كل شخص يملك خياراً. فمهمة المدربين تقتضي زيادة وعي كل شخص لقوته وللمنافع التي يجنيها من فتح ذلك المصدر الداخلي للاعنف. وقد أدخلت ورشة العمل تمريناً فئوياً وقامت فيه كل مجموعة بتطوير شجرة الحياة. وهذه الشجرة إذا ما قطعت عمودياً، تُمثل العنف في نصفها الأول واللاعنف في نصفها الثاني. وكل جهة من هذين النصفين ترسم تفاصيل العناصر التي تشكل الجذور والجذع والأغصان والأوراق وثمار العنف واللاعنف. وفي نفس الوقت، لم يتم ذكر اللاعنف على أنه وصفة علاجية، بل جاء ذكره فقط كبديل منسي يمكنه أن يسهم في تغيير وضع مدمِّر[9].

شجِّع وجود مجتمع شامل ونظرة شمولية

أعطى كل من ظهور اللاكوردينادورا ومجموعة المستشارين المدربين قيمة عالية لتقديم مقاربة شاملة لا سلطوية. وقد شملت جولة التدريب الأولى أعضاء هيئات (من القيادات الشعبية للمجتمع)، وإداريين وموظفي البرامج، وحتى السكرتيرات وكتبة الحسابات. وكان أول تمرين لبناء الفريق يدعى «شبكة العنكبوت»، حيث يتوجب على المجموعة أن تمر واحداً وراء الآخر عبر شبكة معلقة بين شجرتين دون لمس الشبكة ودون استخدام الفتحة التي في الشبكة مرتين. لقي هذا التمرين تشجيعاً عالياً، وهتف جميع أعضاء المجموعة فيما كان آخر عضو فيها يتلقى المساعدة لعبور الشبكة. وقد شجع هذا التمرين إيجاد جو من الدعم المتبادل وأظهر مدى اختلاف الاحتياجات، واختلاف قدرات كل إنسان، كما شدد على أهمية إيجاد مكان لكل شخص.

بالنسبة للشمولية، تم انتهاج أسلوب أكثر جدية في اليوم الأخير من جولة التدريب الأولى، فقد تم طرح سؤال من قبل المستشارين يقول: هل تشمل منطقة السلام المحلية جميع هؤلاء المتواجدين في بقعة جغرافية معينة، أو أنها تشمل فقط المجتمعات التي انضمت إلى اللاكوردينادورا. وقد بينت المقابلات الأولى أن بعض القيادات والمجتمعات شعروا بوجود فروقات بينهم وبين المنظمة أو بنوع من الغربة عنها. وباستخدام مثال مائير دوغان المريح (1996)، بيَّن المدربون كيف يمكن تحليل نزاع معين من أجل رؤية الأسباب والتأثيرات التي يحملها معه على مستويات متعددة، من الفرد إلى العلاقة إلى المؤسسة وإلى النظام بأكمله. وهكذا استطاعت ورشة العمل تعزيز التزام المشاركين بالعمليات الديمقراطية وتشجيع روح المشاركة الشمولية لديهم مما دفعهم إلى توسيع رقعة تأثير برنامج ثقافة السلام لتشمل جميع المجتمعات التي تعيش في المنطقة.

اصنع تجارب لتذوق التغيير الذي ننشده

استخدمت تصاميم التدريب (انظر الصورة 1) ابتداءً من شبكة العنكبوت، مقاربة تعليمية تجريبية من أجل إيجاد الظروف التي تُمكّن المشاركين من تجربة التغير شخصياً وضمن مجموعة. وتلت تلك التمارين، حلقات تفكير، ركزت على المستويات المتعددة للتغير – التغيير الذاتي، التغير في العلاقات وفي الثقافة وفي النظام.

الشكل رقم 1
ورشة العمل التدريبية الأولى – فبراير 2000
لاكوردينادورا

النشاط	الشرح
اليوم الأول	
التعريف عن الموجودين بشكل زوجي	الاسم، المجتمع، شيء تثمنة في اللاكوردينادورا وشيء لا يعرفه أحد من الموجودين عنك.
أهداف الورشة وجدول أعمالها	مناقشة مقاربة التثقيف الشعبية وتطوير أعراف المجموعة (القوانين الأساسية)
شبكة العنكبوت	الهدف: إدخال جميع أعضاء الفريق من خلال الشبكة دون لمسها ودون استخدام أي فتحة فيها مرتين.
العنف – اللاعنف	وضع لائحة عصف فكري لكل معنى، والتفكير به.
تحويل النزاع • أدوات التحليل • مثال دوغان • تأملات في التحويل	مناقشة تأثير النزاع والعنف على جميع الأصعدة (العلاقات بين الأفراد، والمنظمات والمجتمع/ العالم).
حيوي وخفيف	هبوب الرياح القوية – لعبة شبيهة بلعبة قلب سلة الفواكه.
شجرة الحياة • إبداع المجموعات • عرض وتأمل	ضمن مجموعات صغيرة، ضع رسماً مفصلاً لشجرة الحياة، مقسمة عمودياً بين العنف واللاعنف.
دوائر متحدة المراكز • الجلوس ضمن دائرتين متحدتي المركز. • حرك الكرسي دائرياً بعد كل سؤال.	تخصص دقيقتان لكل شخص من أجل إبلاغ الشخص الآخر ردّه على أسئلة التقدير الذاتي، والقوى الشخصية والنجاحات وتجارب التسامح التي مرّ بها.
تقييم واختتام	

النشاط	الشرح
اليوم الثاني	
تمرين حول التكامل	
إعادة تركيب ومراجعة أحداث اليوم الأول	يلخص المدربون الأفكار التي تقدم بها المشاركون من اليوم الأول ويدخلونها ضمن محتوى الورشة.
رؤية سلمية للمجتمع بعد عشر سنوات. • عمل ضمن مجموعات صغيرة. • عرض وتقديم. • مناقشة أدوار المجتمع المدني والدولة في سلفادور تعيش بسلام	يتم تقسيم المجموعات إلى بلديات، تقوم كل منها برسم صورة مجتمعاتها بعد عشر سنوات. ما الذي يجعل من هذه المجتمعات ديمقراطية. ما الذي يجعلها مسالمة. كيف يتم معالجة الخلافات.
حيوي وخفيف	«النار والعاصفة» خلط المجموعات
تمرين تحفيز: أسس التنمية والديمقراطية والانسجام. • المنافسة على تلقي التمويل. • الاقتراحات يجب أن تشمل كيف يمكن للتعاونية أن تتخذ القرارات وأن تتعامل مع آراء الأقليات.	ضمن مجموعات صغيرة، حدد كيف يمكن تطوير مشروع تمويل يتطلب تعاوناً مع الحكومة المحلية ومنظمات أخرى.
تأملات وملاحظات من قبل المدربين.	مصادر القوة لدى الكوردينادورا ومجالات الخطر.
حلقة عمل: الاعتماد على القوى والقدرات للتغلب على المخاطر.	ضمن مجموعات صغيرة، قم بإجراء عصف فكري حول ما يمكن عمله للتغلب على جميع المجالات التي يكمن فيها الخطر.
تقييم	شفهي، مع عدة أسئلة مركزة.
اختتام	كل شخص يذكر شيئاً ألهمه.

بدأت ورشة العمل على المستوى الفردي، وقام المشاركون بإجراء المقابلات مع بعضهم البعض بشكل زوجي، مركّزين على شيء لا يعرفه أحد عنهم وعلى الأشياء التي يثمّنها كل منهم في اللاكوردينادورا. وبدلاً من تقديم أنفسهم إلى المجموعة، قام

كل شخص منهم بتقديم شريكه على أنه هو الشخص نفسه. وقد أسهم هذا الأمر بإيجاد صداقة حميمة وفتح المجال أمام التثمين الذاتي لكل شخص وأمام كيفية تثمين المجموعة للمنظمة. كما ركزت تمارين بناء المهارات على معرفة المشاركين ومهاراتهم. فلكي يقوموا بتعليم مهارات الإصغاء، على سبيل المثال، طرح المدرّبون سؤالاً على كل شخص يطلبون فيه تحديد الشخص الذي يصغي إليهم جيداً عندما يقصدونه. وقد أسهم وضع لائحة بالخدمات التي يقدمها أفضل الناس الذين يصغون كأساس لممارسة مهارات الإصغاء النشط.

وعلى مستوى العلاقات أو المجموعات، تميزت التمارين بصفات بناء الفريق. فجميع الحلقات كانت تعقد ضمن دائرة تعمل فيها المجموعات عمل المورد لبعضها البعض خلال أوقات التفكير. مثل ألعاب « خفيفة وحيوية – قصيرة ومتفاعلة وتعاونية – تلعب على إحساس الطفل في كل إنسان. وعلى مستوى أكثر عمقاً، جذب تمرين إصغاء يدعى « الدوائر المتحدة المراكز »، المشاركين إلى مشاركة منهجية بشكل فردي لآخرين منهم في رواية قصص شخصية، وشملت المواضيع عناوين مثل « الطريق التي أظهر فيها الاحترام لنفسي ». « عندما سامحني شخص ما ». « مناسبة فعلت فيها الشيء الصحيح رغم أني كنت أخشى فعله ».

وعلى المستوى الثقافي، أخرجت عملية التدريب بكاملها إلى الوجود، الصفات السلمية التي فطرت عليها المجموعة، والموجودة في مجتمعها. وقد أدت تجارب بناء الثقة والتعاون والتأمل بالتأثير التي تركتها هذه التجارب على المجموعة، إلى وضع أسس استكشاف كيف يمكن لثقافة السلام أن تتحقق بشكل أكبر في منطقة يوسولوتان الجنوبية.

ضع رؤية إيجابية للمستقبل

كانت القوة الدافعة وراء ظهور برنامج ثقافة السلام، تواصل اثنتي عشرة سنة من الحرب ووجود ثقافة عالقة بين مخالب العنف. ومما يدعو للأسف أن الإحساس الأكبر الذي سادَ بين المشاركين كان الإحساس برغبتهم في الابتعاد عن الشيء بدلاً من

رغبتهم في معرفة إلى أين يذهبون. لذا وباستخدام رؤية إليس بولندنغ حول مستقبل سلمي (1991، انظر الفصل 4)، بادر المدربون إلى تقسيم المشاركين في دورة التدريب الأولى إلى مجموعات تنتمي إلى نفس المنطقة الجغرافية، ثم طلبوا منهم أن يرسموا صورة لبلديتهم بعد عشر سنوات من السلام. ودعا المدربون كل شخص إلى التفكير بصمت، ثم الإسهام في رؤية عامة للمجموعة حول مجتمعهم المسالم. وقد أرشدناهم خلال العمل ضمن مجموعات من خلال طرح سؤال كيف يمكن للبلدية في المستقبل أن تكون ديمقراطية، وما الذي يجعلها تعيش في سلام وكيف يمكن معالجة الاختلافات. وقد أبدت كل مجموعة اهتماماً خاصاً بأدوار ووظائف الدولة والمجتمع المدني ضمن رؤيتها لمجتمع يعيش في سلام. وعندما قدّمت المجموعات أجوبتها بالكامل، قامت المجموعة كلها بالتفكير في أدوار مناسبة للشرطة والمحاكم، وفي معنى التنمية المتكاملة، والطقوس الحضارية، والأدوات التي يستخدمها القطاع المدني لتعزيز السلام. وقد أطلقت تلك الرؤى جواً مفعماً بالحماس وتم عرضها فيما بعد في المكتب المركزي.

ومع نهاية الرحلة الأولى، وصل المدربون المستشارون وقيادات اللاكوردينادورا إلى إجماع حول الدور المناسب الذي يتوجب على المستشارين أن يلعبوه، وقد ظهرت هناك ثلاثة أدوار هي: 1) مشاركة اللاكوردينادورا في استكشاف رؤية منطقة السلام المحلية. 2) تقديم الخبرات حول تحول النزاع في أجزاء أخرى من أمريكا اللاتينية. 3) تسهيل الوصول إلى عملية تطوير منطقة السلام المحلية.

وقد تطور البرنامج بشكل طبيعي على مدى السنة والنصف التي أعقبت انطلاقته وقام أحد المستشارين الدوليين أو اثنان منهم بزيارة البرنامج كل ثلاثة أو أربعة أشهر. وقد خدمت أنا شخصياً كمستشار أولي وكنت موجوداً في كل رحلة وفي نهاية الأمر، عينت اللاكوردينادورا سبعة ممثلين من بين عدد من المجتمعات للعمل كفريق وظل المستشارون يواصلون زياراتهم للإصغاء والتعلم والمشاركة وتمرير ما كانوا يسمعونه ويراقبونه في المقابل، وهم برفقة المجموعة خلال عملها داخل

المجتمعات، كما استمروا في التدريب على مهارات معينة. ومثلما حدث في فترة التدريب الأولى، تركز التدريب على إيضاح كيفية عمل المجتمعات المتنازعة. وشملت التدريبات مواضيع مثل الاتصالات وإعادة الثقة، تخللها تبادل للمعلومات الموجودة لدى المجتمعات مع المعلومات الموجودة لدى المدربين إلى أن استطاع فريق البرنامج أخيراً تحديد كيفية تطبيق ما تعلموه خلال فترات التدريب. ومع مزيد من التجربة المكتسبة، شرع أعضاء الفريق والمستشارون بإدارة حلقات تدريبية مع موظفي وأعضاء المجموعات والفئات داخل المجتمع.

عملية تصميم برنامج – تجريبي – تأملي:

استطاع البرنامج الوقوف على قدميه إثر جهد طليعي جرى تقديمه في بلدة تييرا بيانكا في تموز من عام 2000. فقد تسببت أزمة نتجت عن استخدام مقاربة مستنبطة من الواقع – دون وجود نموذج واضح يُتّبع – في إثارة بعض الفوضى والشكوك من حيث كيفية تأثير البرنامج على النزاعات الحقيقية. وفي جهد لإحراز تدخل أكثر منهجية. قمت بإجراء تدريب لمدة ثلاثة أيام حول بحث في العمل التشاركي للفريق. وكجزء من التدريب، قام الفريق بتطوير مقاييس لاختيار مجتمع يقوم بالتدخل فيه، وبروتوكول للمقابلات، واستراتيجية عامة للاقتراب من المجتمع. وبدعم من قيادة اللاكوردينادورا، اختار الفريق بلدة تييرابيانكا بسبب موقعها الاستراتيجي، وحجمها، وارتفاع مستوى العنف فيها.

وقد استمرت ورشة العمل خمسة أيام، وكان العمل فيها يتم مع مشاركين في الأبحاث من أفراد المجتمع (قيادات شعبية) بهدف إجراء مقابلات مع ثلاث وسبعين عائلة ومع قيادات المؤسسات في تييرابلانكا. وقد تمت جدولة المقالات وتصنيف أنماطها ومواضعها، وأقيمت مجموعة تركيز ضمت مقدمي المعلومات الرئيسيين من بين الذين تمت مقابلتهم. بعد ذلك تم عرض التحليل الأخير والتوصيات على أكثر من خمسين من أعضاء المجتمع مع نهاية الأسبوع. وقد تبين من التحليل والعرض أن

الهم الأول للمجتمع انصبّ على وجود عصابتين متنافستين روعتا المنطقة[10]. وعلى الرغم من أن أعضاء العصابتين هم من شباب تييرابيلانكا، إلا أن معظم السكان كانوا يخشون الخروج من بيوتهم بعد حلول الظلام. وقد شجّع التقرير المكتوب واللقاء الاجتماعي، سكان المنطقة على تسمية المشكلة وتشكيل لجنة مؤقتة للعمل على حل نزاعات العصابات بالإضافة إلى احتياجات المنطقة الأخرى.

ونتيجة لهذا العمل البحثي التشاركي، عقد الفريق بقيادة خوسيه « شينشو » آلاس، حلقتي وساطة على مدى الأسبوعين اللاحقين. وفي تطور جذري، وافقت العصابتان على إيقاف القتال والسعي إلى العثور على طرق للعيش معاً. كما قاموا بتطوير أهداف شخصية للتحول عن استخدام المخدرات والكحول والسعي إلى العثور على وظائف وعلى تدريبات حرفية. ولكن وللأسف، قامت الشرطة في نهاية حلقة التوسط باقتحام الكنيسة الكاثوليكية حيث عقدت اللقاءات واعتقلت أحد أعضاء العصابة. والغريب في الأمر أن الشرطة لم تختر سوى هذه الساعة كي تلقي القبض على الشاب إثر صدور مذكرة توقيف بحقه قبل ستة أشهر، رغم أنه كان يشاهد يومياً في شوارع تييرابلانكا. وقد وضع هذا الأمر مصداقية فريق التوسط على المحك، فيما كان شباب العصابتين يتساءلون إذا كان في الأمر مؤامرة للإطباق عليهم. ولكن أعضاء الفريق لحقوا برجال الشرطة ودافعوا عن الشاب أمام الادعاء العام وتمكنوا فيما بعد من إخلاء سبيله. وأدت هذه الحادثة في نهاية الأمر إلى تعزيز إحساس المجتمع بأن الشرطة ما زالت تشكل مشكلة ضمن مشاكل الموارد الموجودة.

نتيجة لهذه الإشكالية التي وقعت، ونتيجة لتزايد التوقعات التي أوجدها تطور العمل والعلاقات مع هذه العصابات عن قرب، من بين أسباب أخرى، قامت اللجنة التي تدير اللاكودينادورا بإجراء تقييم للبرنامج في أكتوبر من عام 2000. وكان السؤال الملحّ الذي برز هو: هل تحول برنامج ثقافة السلام إلى برنامج توسط بين العصابات، كما انتشرت الأقاويل في المقاطعة وكما ارتأى الناس في الفريق. قمت أنا بإدارة حلقة

التقييم الذاتي، التي التقى فيها أعضاء اللجنة، والفريق العامل، وأعضاء الجهاز الإداري بالإضافة إلى أشخاص من تييرابلانكا، ضمن مجموعات صغيرة بهدف مراجعة جميع حلقات التدريب السابقة. وقد استطاعت المجموعات بشكل جماعي وضع لائحة بالقيم والمبادئ التي يجب أن ترشد العمل. كما قامت بتحليل المشروع الريادي في تييرابلانكا كحالة دراسية، حددت فيها الهموم والاحتياجات والإسهامات والعلاقات وأدوار اتخاذ القرارات لكل مجموعة اشتركت في التقييم. كما قامت المجموعات أيضاً بالكشف عن لائحة طويلة من الإنجازات التي قام بها مشروع تييرابلانكا.

كان لدى حلقة التقييم التي تواصلت على مدى ثلاثة أيام، توجّه مستقبلي. كيف يمكن لبرنامج ثقافة السلام أن يعمل داخل المجتمعات، وأن يتخذ قرارات برامجية دون أن يتعدى قدرته. وقد التقت المجموعة المتعددة الأطراف من أجل وضع سلسلة من أهداف البرنامج وسياساته واتجاهاته لإرشاده نحو بوابة المستقبل. وقامت بتطوير سياسات حددت فيها أدوار ومسؤوليات جميع الأطراف المعنية كما أخذت بعين الاعتبار مختلف نماذج المنظمات الدولية قبل اتخاذ أي قرار بتبني نموذج متنقل، حيث يمكن لأي فريق إقليمي أن يعمل على تطوير البرنامج ضمن عدد من المناطق الصغيرة المحددة. وعندما يتم تأسيس هذا البرنامج في المنطقة، فإنه سيتمكن من الانطلاق والتوسع.

وقد تم تبني الوثيقة الصادرة عن حلقة التقييم عام 2001 من قبل اللجنة على أن تعمل كإطار نظري وبرامجي للبرنامج. وكان التركيز الرئيسي فيها على تعزيز ثقافة سلام شاملة يكون فيها التوسط عنصراً صغيراً. أما الدوافع الرئيسية للبرنامج فسوف نقدمها لاحقاً مرفقة بأهدافها وبالعناصر التي تشكل كلاً منها.

عناصر برنامج ثقافة السلام

التوعية والتثقيف بالسلام: والهدف من هذا هو دفع المجتمعات في منطقة السلام المحلية إلى التلاؤم مع مبادئ وقيم ومواقف وسلوكيات السلام وتطبيقاتها العملية. وتشمل العناصر الثلاثة التي تدخل في مجال التثقيف: أ) أفكار السلام. ب) حقوق الإنسان ومسؤولياته. ج) تحول النزاع.

وسائل تحول النزاع

والهدف من هذا هو إدراك المجتمعات التي تعيش في منطقة السلام المحلية للوسائل اللاعنفية الموجودة بينها وتطوير واستخدام بدائل جديدة للتفاوض والتوسط من أجل تحسين إدارة النزاعات وإحياء الأدوات اللاعنفية الموجودة وتشمل العناصر الثلاثة هنا: أ) استكشاف وإعادة إحياء الوسائل اللاعنفية الموجودة. ب) مهارات ووسائل إدارة النزاعات. ج) التدخل لفض النزاعات.

تنظيم عملية السلام والمشاركة فيها

والهدف هنا هو دفع المجتمعات التي تعيش في منطقة السلام المحلية إلى المشاركة في حلقات الحوار والتفكير، من أجل تشكيل لجان مبادرة للسلام المحلي، ومن أجل إظهار مبادئ وقيم السلام في جميع البنى التنظيمية. والعنصران الرئيسيان في هذه العملية هما بناء المشاركة الديمقراطية الداخلية ضمن تركيبة ثقافة السلام، إضافة إلى بنائها أيضاً داخل مؤسسات المجتمع.

وفي أكتوبر/ تشرين الأول عام 2000، قام البرنامج بتوظيف ماريو ميجيا كمنسق دائم، وميجيا سلفادوري يملك خبرة بالعمل في مجال حقوق الإنسان في غواتيمالا. ورغم عدم كونه وسيطاً محترفاً، إلا أنه أدخل خبرات ساهمت في تطوير البرنامج والمنظمة. وكمهني مثقف، قاد ميجيا العمل على الأرض وأدخل نظرية وممارسة تحويل النزاعات بسرعة إلى عمل البرنامج. وبذا أصبح الأخير أقل اعتماداً على المستشارين الدوليين، كما أخذ الفريق يكتسب خبرة ثمينة في عمله داخل المناطق الصغرى.

وعلى مدى الستة أشهر اللاحقة، استطاع الفريق تطوير منهجية أكثر وضوحاً، بعد أن واجه بعض التشويش بسبب النموذج الجوّال. وقد تركزت المقاربة الجديدة حول دوائر الحوار والتفكير التي عقدت حديثاً.

مثل هذه الدوائر غير الرسمية، التي كانت تعقد في الغالب تحت ظل شجرة وسط القرية، جمعت السكان حول موضوعات معينة. ولكونها أقل إكراهاً من

ورشات العمل التدريبية، فقد أوجدت هذه الدوائر مساحة آمنة للناس من أجل إظهار خبراتهم وتجاربهم الشخصية وبالتالي تحويل الحديث حول النزاعات إلى شأن معياري. كما أدت هذه الدوائر دورها التثقيفي ولكن الأمر المساوي في الأهمية هو أنها خلقت مجتمعاً أكثر ثقة بها مما خفف على الفريق من عبء إدارتها وجعل تدخله أقل أهمية.

ومن أجل تحقيق أهداف البرنامج، أدخلت العملية في منهجيتها عدة قطاعات داخل المجتمع نفسه ودمجت جماعات قادمة من مجتمعات مختلفة تعيش في المنطقة. وتظهر المنهجية المتبعة حالياً في الصورة رقم 2. أما الهدف الثالث – وهو التنظيم والمشاركة في السلام – فقد عمل عبر منهجية المشاركة مع القطاعات التي لا تتعاون في العادة، ووسّع قاعدة البرنامج لتشمل المجتمعات التي لم تدخل ضمن بنية اللاكوردينادورا (الجماعة المحلية) ويتوقع برنامج ثقافة السلام أن يقدم تدريبات مباشرة حول القضايا التنظيمية بعد أن يتم تطبيق العنصرين الأولين.

مقاربة إيجابية

تأسس برنامج ثقافة السلام واللاكوردينادورا على مقاربة إيجابية. ومن الواضح أن الدافع من وراء هذا التأسيس كان المشاكل والصعوبات التي واجهت المجتمعات، إلا أن هؤلاء القياديين الفلاحين كانوا يمتلكون من البصيرة والحكمة ما جنّبهم استخدم النماذج الاتكالية، فقد قام هؤلاء بإيجاد البنى والبرامج لتعزيز الاكتفاء الذاتي ووضع ثقافة سلام، وأثّر هذا التوجه على اختيارهم لتطوير البرامج، وللمستشارين، وللموظفين، وحتى للاستراتيجيات والوسائل التي قاموا بتطويرها للتقدم في ثقافة السلام.

وبعد الأخذ بعين الاعتبار عدة مستشارين محتملين، دعت اللاكوردينادورا أولئك المستشارين المقربين من جمعية المصالحة التابعة للمانونايت من أجل العمل معها. وقد جسّدت المقاربة التي استخدمها المانونايت التزاماً مشدداً بالسلام وبتحويل

النزاعات وانحيازاً نحو بناء المجتمعات، بالإضافة إلى أسلوب يساعد على تعزيز وتنمية الذات. كل هؤلاء المستشارين عاشوا في أميركا اللاتينية ورافقوا جماعات الفلاحين. وقد عكس هذا النموذج الذي استنبطه جن بول ليديراخ من داخل المجتمعات، وبشكل جزئي، المقاربة التي اتخذها أعضاء المانونايت في العمل التنموي منذ عقود في العالم تحت قيادة لجنة المانونايت المركزية. لذلك كان المستشارون الثلاثة بأجمعهم مقتنعين بأهمية العمل بدءاً من القاعدة في بناء حركة وتركيبة تظلّان متواصلتين حتى بعد انتهاء التمويل ورحيل المستشارين. وكانت الجهود تحتاج إلى شيء أكبر من حل المشاكل من أجل إيجاد مساحة آمنة وموثوقة لهذه المجتمعات كي تتحاور وتبني مستقبلاً مسالماً (شب، 2000).

ولعل العامل الأكثر أهمية في دفع جهود السلام باتجاه إيجابي، كان القرار الذي دعا بأن تصبح المنطقة منطقة سلام، معلناً بذلك وبكل جسارة أن تلك المنطقة التي كانت مسرحاً للعداء المكشوف والعنف ستصبح مكاناً لنشر ثقافة السلام. كانت الحرب قد نشبت بسبب انهيار الديمقراطية، على الأقل، لذا فقد أعلنت منطقة السلام المحلية إعادة إحياء الديمقراطية السلمية، وبفعلها هذا، أكدت اللاكوردينادورا على جوهر الممارسة الحرة للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وعلى حماية البيئة الطبيعية. إضافة إلى ذلك، دعت اللاكوردينادورا المؤسسات الحكومية وغيرها من المنظمات إلى وضع يدها بيد اللاكوردينادورا من أجل ضمان استدامة وتواصل الحياة (اتفاقية منطقة السلام المحلية 1998). وبذا، خرج العنف كوسيلة لحل النزاعات من ساحة اللعب، وتم استبداله بالتزام يقضي باستخدام الموارد المالية والبشرية من أجل تعزيز وتطوير البدائل السلمية التي تحفظ حقوق الإنسان.

وقد جاءت تصريحات وتوجهات المستشارين المدربين متوافقة في التزامها المشترك مع تعزيز تحول النزاع من قوة سلبية إلى قوة إيجابية، فالنزاع، قبل كل شيء هو بناء اجتماعي تؤثر فيه أفكار الإنسان على ردوده ومنظوراته.

وإذا ما نظر أحدهم إلى النزاع بإحساس من الخوف وقناعة بأن النزاع لن ينتج عنه أي شيء إيجابي، فإن ردّه بالنسبة لهذا الأمر سيكون سلبياً، ونتائجه مدمرة مما يعزز الأفكار السلبية. من ناحية أخرى، إذا كان المرء يعتقد بأن الخلافات والنزاعات هي جزء طبيعي من عالمنا المتعدد، فإن ردّه سيأتي أكثر احتراماً ونتائجه بناءة مما يعزز بعض الأفكار الإيجابية عن النزاعات. كانت مهمتنا تقضي بأن نعيد بناء أفكار معيارية عن النزاعات ووسائل للتفاهم المتبادل والإدراك الذاتي والسلام.

هذا الالتزام بالإيجابية يملك جذوره في الجوهر الإيجابي للحضارة السلفادورية وفي طبيعة اللاكوردينادورا ذاتها. فمنذ أول خطوة لها في العمل على منع الكوارث، تجنبت المنظمة لعب دور الضحية، وسعت بدلاً من ذلك لإيجاد الظروف التي من شأنها الحفاظ على الحياة وضمان استدامتها. وتجاوزاً لدورها في الدفاع عن مجتمعاتها أمام الحكومة، قامت المنظمة بحشد الناس حول الموارد التي يملكونها من أجل إحداث التغيير. ومن البرامج التي قامت بتطويرها وحتى بنيتها التنظيمية، اعتمدت اللاكوردينادورا على الموارد المالية والإنسانية الموجودة بينها من أجل إقامة بنية تحتية اجتماعية تضم مبادئها ورؤاها.

وشكلت مبادئ السلام والديمقراطية والاكتفاء الذاتي أسس الثقافة الجديدة التي تسعى لبنائها. فقد أظهرت اللاكوردينادورا مدى قوة المجتمع المدني من خلال إنجازاتها ومكّنت المواطنين من التحرك، وأسهمت في تثقيف أعضائها وسلطت الضوء على سوء استخدام القوة، ووجهت النقد إلى الحكومة. وعبر الدفاع عن القضايا، والتنظيم وبناء التحالفات، أوجدت المنظمات بنىً وشبكات محلية وخففت من وطأة الفقر. وكانت هذه الجهود تمثل إمكانية وجود ديمقراطية مستدامة، إذ استطاعت اللاكوردينادورا الكشف عن طريقة جديدة للعمل عندما لا يكون المستقبل واضحاً (كوين 2001).

كذلك اعتمدت مقاربتها على أفضل ما في الحضارة السلفادورية. فقد أدت عقود طويلة من الفقر وغياب الدعم الحكومي إلى ظهور روح من الاكتفاء الذاتي

حفزت الفئات الشعبية على تنظيم نفسها. وعلى نقيض الحركة الثورية التي قادها العسكريون في نيكاراغوا، عملت جبهة فارابوندو مارتي بشكل جماعي وطوّرت نوعاً من الوسائل الديمقراطية في اتخاذ القرارات. وحين قام أريستايدس فالنسيا، المدير التنفيذي لمنظمة لاكوردينادورا والقائد السابق في جبهة فارابوندو مارتي الثورية بالسعي إلى تحقيق النتائج، لم يستخدم منصبه في الجبهة من أجل تحقيق ذلك، بل سعى مراراً إلى إشراك المجتمعات في اتخاذ القرار، وكان ينظر إلى نفسه كعنصر يعمل على تسهيل العملية الديمقراطية. وغالباً ما كان الحوار حول مبادئ المشاركة الديمقراطية يسبق أي نقاش وأي قرار حول الموضوع المطروح.

كانت هذه الأعمال تشكل مختبرات حيّة، وتخلق في داخل المجتمعات، طرقاً لإقامة العلاقات السلمية التي كانت المجتمعات بحاجة إليها. وقد تطورت بنية المنظمة وأضافت أشكالاً من المشاركة فيما كانت مجتمعات أخرى تنضم إليها، وذلك من أجل أن تضمن بقاء العملية الديمقراطية ضمن خط سيرها، وبفعالية أكبر. وعكست مسائل التمويل والتوظيف مثل هذه المعتقدات. فحين يظهر مصدر محتمل للتمويل، كانت اللاكوردينادورا تسأل في بداية الأمر من الذي يسيطر على القرار - المجتمعات أم المصدر الممول - وكيف ستدعم هذه الأموال قدرة المجتمعات على الاكتفاء الذاتي، وكانت المنظمة تقوم أحياناً بتغيير اقتراح من أجل تجنب الدخول في علاقة تشجع على الاتكالية. كذلك التزمت المنظمة بتوظيف أعداد أقل من الموظفين الدائمين لأنها كانت تعتمد على الفلاحين أنفسهم في إنجاز الأعمال. وفي حالة برنامج ثقافة السلام، قامت المنظمة بتعيين فريق من الفلاحين قبل أن تقوم بتوظيف منسق مهني دائم.

وقد انبثقت ثقافة السلام عبر الزمن وتتبعت مساراً طبيعياً في تطورها. ومن خلال استثمار التدريب على مهارات معينة والتعلم من تجارب الغير وخبراتهم في مجال تحويل النزاع، استطاع الفريق تطوير الأساليب الملائمة التي تناسب سياق عمله. وبسبب حذره من الإفراط في التركيز على ورشات العمل، قام الفريق بتطوير استراتيجيته الخاصة لإدخال برنامج في المجتمع - الحوار وحلقات التفكير. وقد

جذبت هذه الحلقات، كونها غير رسمية، ولا تشكل تهديداً لأحد ولا تركز كثيراً على إفشاء المعلومات، أعداداً من الناس الذين رغبوا في التحدث. وأدى هذا التركيز، بوضوح إلى جذب المشاركين نحو تقاسم الحديث حول نزاعاتهم، وليس بهدف دفع الفريق إلى حل مشاكلهم. كانت العملية عبارة عن استكشاف متبادل – كيف أثر النزاع عليهم وما هي الموارد التي لديهم والتي من شأنها أن تساعد المجتمع على الخروج من أزماته. وهكذا فقد شكل بناء علاقات ثقة قوية داخل القرية – علاقات تمكّن الناس عبرها من التعبير بحرية عن مكنوناتهم، للحصول على الدعم أو تقديمه وهي علاقات تعتبر ضرورةً قصوى من أجل بناء ثقافة سلام.

الظاهرة الإيجابية الأخرى للبرنامج، تعود إلى الفريق نفسه. إذ لم يتم اختيار الفريق على أساس كون أعضائه الأكثر نفوذاً في مجتمعاتهم، وقد ساعد هذا على منع الآخرين من اعتبارهم خبراء في حل المشاكل، وفي الحقيقة، كانت المقاربة التي اعتمدت على التدريب التجريبي تعني أن الفريق ركّز بشكل أكبر على تطوره الشخصي وتحوله. وقام أعضاؤه بوضع نموذج لإمكانية استخراج قوى العطاء من داخل الناس لكي يتم استخدامها في خلق ثقافة السلام. وبينما كان أعضاء الفريق منهمكين في العمل على حل مشاكلهم داخل الفريق، مستخدمين الوسائل والمهارات التي اكتشفوها في حلقات التدريب، كانوا يتشاركون أيضاً في سرد قصصهم لبعضهم البعض.

لقد مثل برنامج ثقافة السلام، وإيجاد منطقة السلام المحلية مزيجاً من المقاربات الإيجابية والتقليدية لحل المشاكل. وتنبع دوافعهم من القلق العميق الذي يعتمر بداخلهم من العنف والنزاعات. وعندما يتأملون بماضيهم أو بوضعهم الحالي، يدور الحوار غالباً حول المشاكل وليس حول أفضل ما هو موجود. ومع ذلك تواجدت لديهم رؤية للمستقبل ترشدهم. وتتضمن هذه الرؤية في باطنها أموراً كالاكتفاء الذاتي والديمقراطية والسلام. ويعتمد البرنامج على حل المشاكل وبناء المجتمع على السواء.

كما أن هناك لغة جديدة أخذت تنبثق لتغيير الثقافة. فالناس يبتعدون عن التفكير القديم، بينما يقوم آخرون بحل مشاكلهم ضمن إمكانية وجود موارد لاعنفية داخلهم وداخل مجتمعاتهم يمكن أن تستخدم لإيجاد مجتمعات منسجمة.

كما ظهرت تحديات عديدة مع تقدم البرنامج إلى الأمام. فما زالت محاولة الحصول على نتائج يمكن قياسها مثل تلك النتائج المرتبطة بمراكز الوساطة المحلية، تعتبر إغراءً. إذ أن مصادر التمويل ترغب في رؤية نتائج ملموسة. وبعض الناس يجدون صعوبة في التخلي عن فكرة أن المشكلة تتطلب دائماً خبيراً يتوجب أن يأتي لحلها. وهناك تناقض في هذه المقاربة، فالالتزام بالتعليم الشعبي يعني أن تبدأ التعليم حيث يتواجد الناس، ولكن الفريق يحتاج بطريقة ما لأن يتجاوز السلبية من أجل امتلاك العناصر والقيم الإيجابية الموجودة في المجتمع. والإصغاء يمكن أن يضفي الشرعية على التفكير السلبي، بينما يعمل بناء الثقة والتمارين التعاونية على إيجاد إمكانية جديدة في أذهان الناس فيما هم يختبرون الفرح الناتج عن تعاملهم معاً في مواجهة التحدي.

مستقبل من الإمكانيات

إلى أين يتجه البرنامج؟ تتوقع المنهجية الجديدة أن يتم توسيع الحلقات ومن ثم اختيار مجموعة أساسية من داخلها من أجل تلقي الدعم الإضافي والتدريب. نموذجياً، من المتوقع أن يقوم هؤلاء الأشخاص بخدمة قراهم من خلال تسهيل عقد الحلقات وملازمة الذين يعانون من النزاعات. وتجاوزاً لإيجاد وسطاء أو مراكز توسط يرى البرنامج وجوب إيجاد ثقافة متغيرة تتمحور حول حقوق الإنسان ومسؤوليته – أي إيجاد مساحة في كل مجتمع يستطيع الناس فيها ممارسة عملية تغييرية تستدعي احترام الناس ورعايتهم لبعضهم البعض وإقامة مؤسسات ديمقراطية شمولية.

ومع تعلم الناس لمداخل ومخارج النزاعات، يمكنهم العمل كموارد لبعضهم البعض، وتقديم المساعدة بشكل غير رسمي لهؤلاء الذين يعرفونهم ويثقون بهم. وسيخرج من بين الناس أشخاص ليسوا معنيين بالضرورة ليكونوا وسطاء، يمارسون مجموعة من الوسائل الفطرية أو المكتسبة والتي من شأنها تسهيل العلاقات السلمية.

الشكل رقم 2

منهجية برنامج ثقافة السلام

1- اجمع معلومات أساسية عن المجتمع.
2- اقترب من المجتمع.
3- حدد واختر القطاعات أو الأشخاص المرجعيين للمشاركة في برنامج ثقافة السلام.
4- أدخل برنامج ثقافة السلام ضمن رؤية اللاكوردينادورا.
5- بالتنسيق مع الأشخاص المرجعيين، حفّز القطاعات المتلقية في المجتمع وادعوها للمشاركة في البرنامج.
6- شجع دوائر التأمل والحوار مع المجموعة المحلية من المجتمعات ومع القطاعات المهتمة.
7- درّب الأشخاص الذين تم اختيارهم من ضمن حلقات الحوار والتأمل من بين الراغبين في العمل كمدربين داخل مجتمعاتهم.
8- درّب وعزز المجتمع في شؤون العمليات التنظيمية التي تشجع على السلام.
9- رافق وتابع العمليات التنظيمية الموجودة.
10- شجع على تنظيم الأشخاص المهتمين بالتواصل مع برنامج ثقافة السلام.
11- قم بإجراء تبادل داخلي بين مختلف قطاعات المجتمع داخل المجموعة المحلية وبين المجتمعات من نفس المنطقة الأصغر والتي لم تنخرط ضمن المجموعة المحلية للاكوردينادورا.
12- قم بتبادل خارجي من أجل تقاسم الخبرات مع مختلف المناطق الصغرى.
13- درب أشخاص مختارين على إدارة النزاعات وتمويلها.
14- درّب أصحاب الاهتمام والمهارات الذين أفرزتهم حلقات التدريب على التفكير.
15- نظم وخطط مع المجتمعات على ضوء احتياجاتها وأولوياته.
16- رافق المجتمعات في إنجاز النشاطات التي من شأنها أن تعزز ثقافة السلام لاحقاً.
17- قيّم ورتّب العملية بشكل منهجي.

ومثل هذه المقاربة الشعبية، رغم اعترافنا بأنها أبطأ من تدريب مجموعة من القيادات المثقفة كوسطاء، تقدم نموذجاً أكثر استدامة. وفي عدم اعتماده على الخبرات الأجنبية أو على خبرات النخبة المحلية يستطيع برنامج ثقافة السلام أن يكسر نموذج الاتكالية والاعتماد على الغير – ربما لأول مرة بالنسبة لبرنامج إدارة نزاعات في أمريكا اللاتينية. ويتلقى البرنامج إرشاداته من قبل هيئة من قيادات الفلاحين التي تستلهم رؤياها من التوقعات المرجوة من برنامج ثقافة السلام ومن اكتفائها ذاتياً. وهنا يصبح الفريق أقل وأقل اعتماداً على التدريب الخارجي والاستشارات. ويتم اليوم إجراء تدريبات داخل البلاد على يد مجموعة موارد سلفادورية ناهضة لتحويل النزاعات تدعى « يك أنيمي » أي « العيش الكريم ». ويتم تشكيل شبكات داخل المجتمعات القروية فيما ينخرط برنامج ثقافة السلام في إدارة حوارات حول رؤية هذه المجتمعات وتجاربها مع مجموعة من صنّاع السلام في إقليم شالاتينانغو الشمالي.

وباستقلالها عن نموذج الاتكالية والاعتماد على الغير، تتوقع اللاكوردينادورا إنشاء مجتمع مدني قوي مؤهل للعمل من أجل بناء علاقات ومؤسسات ومجتمعات سليمة، تكون فيها المؤسسات الحكومية والقيادات السياسية مصادر رئيسية للخدمات العامة بحيث تتم محاسبتها من قبل المجتمع. كذلك تأمل أن تنشئ علاقة متوازنة تحمل أدواراً واضحة ودعماً متبادلاً بين الدولة والمجتمع المدني مع مرور الزمن.

إن الوعد لمثل هذه الرؤيا أصبح موجوداً الآن، رغم كونه صغير الحجم. ولعل مشاهدة الفريق وهو يكتشف المهارات والمعرفة التي بداخله، هو أمر يبعث على الإلهام. ففي نوفمبر من عام 2002، اكتشف الفريق إمكانياته بعد ورشة عمل لتدريب مدرّبين، وكان ذلك عندما دعوتُهم لإدارة ورشة العمل التي كنت قد خططت لها للتو. كانوا يتوقعون مني أن أدير دفّة التدريب خلال الأربعة أيام القادمة لورشة العمل التي شارك فيها ممثلون عن ست مجموعات محلية (مناطق صغرى). ولكنهم بعد الصدمة الأولى، بدؤوا يبحثون داخل أنفسهم ووجدوا أنهم يملكون الثقة التي تؤهلهم

لإدارة ورشة العمل بكاملها بأنفسهم. وقد أظهر الفريق ثقة مدهشة بينما كان كل من أعضائه يدير التمارين ببراعة ويترأس حلقات التأمل ويشرح بلغته الخاصة عن أفكار السلام وتحويل النزاعات. لقد تأثرت كثيراً وازدادت قناعتي بقدرة القرويين على بناء مستقبلهم السلمي.

بدأ إحساس جديد بالانتماء للمجتمع يظهر في يوسولوتان الجنوبية. وأخذت الجماعات المتعددة تنضم بعضها لبعض لمناقشة مستقبلها، كما بدأت تعيش الرؤية الجديدة للدعم المتبادل والشمولية والتنمية الشاملة والديمقراطية الحقيقية. لقد أعيد حَبْك نسيج المجتمع من جديد، وأخذ الرأسمال الاجتماعي – شبكات الثقة والتعاون – يمتد بحرية ليغطي جميع الناس بغض النظر عن انتماءاتهم السابقة. وفيما أخذ العديد من الناس الذين كانوا غرباء عن بعضهم البعض، يتعرفون كل على الآخر عبر استذكار لنشاطاتهم السياسية والعسكرية السابقة، سرعان ما فتحت هذه الحوارات الباب أمام اكتشاف ما يتشاركون به في هذه الحياة. إن اثنتي عشرة سنة من الحرب لا تنتهي بسهولة، وفي منطقة مثل هذه يحتدم فيها النزاع والاستقطاب بين العائدين إليها، تنبثق منطقة سلام محلية على أساس رؤية تمتد على مدى عشر سنين من السلام.

ملاحظات:

1. In Spanish the full name is La Coordinadora de Comunidades de Bajo Lempa y la Bahia de Juiquilisco, literally the Coordinator of Communities of the Lower Lempa River and Juiquilisco Bay The organization prefers to use "La Coordinadora" as both their English and Spanish name.
2. El Salvador law requires that NGOs be structured with two organizations— one the social entity and the other the administrative/fiscal entity
3. The mangrove is a threatened habitat for aquatic life and a source of self-sufficiency for the peasants living along the many miles of Usulutan shores. The organization chose this name to reflect its commitment to the indigenous way of life in the region and its commitment to preserving the natural environment.
4. These gangs have been transformed and carry their own names in El Salvador, *Mara Salvatrucha* 13 and 18. Even many active gang members are not familiar with the origins of these numbers with Los Angeles street gangs.
5. The Foundation for Self Sufficiency in Central America, a U.S. foundation dedicated to supporting La Coordinadora, employs Chencho and serves as a bridge between North

Americans and the program (see www.fssca.net). For more on José "Chencho" Alas, see chapter sixteen of this volume.

6. The proposals were initially written by international consultant Richard Salem, who accompanied the group of three Mennonite trainer-consultants in the first visits. The trainer-consultants were all fluent in Spanish and had lived in Latin America for extended periods. Thomas had lived in Guatemala and El Salvador; Stuckey is a Colombian now living in Arizona; and Chupp had lived in Guatemala, Nicaragua, and Costa Rica. All had worked previously under the Mennonite Central Committee.
7. The trainers provided an overview of various efforts to establish mediation centers in the region, most of which were based on North American mediation practice. These efforts failed in part due to the short time frame expected to train and organize such centers. In other cases, the efforts lacked sufficient local ownership.
8. The Alternatives to Violence Project began in New Iork in the mid-1970s, when Quakers and civil rights workers developed workshops for prison inmates. Today there are community and prison-based projects throughout North America and numerous other countries.
9. Aware of not having themselves lived through the Salvadoran civil war, the trainers were careful not to prescribe nonviolence as the preferred response to a given situation.
10. Gangs in El Salvador are a relatively new phenomenon, emerging as Salvadorans living in exile in Los Angeles returned with their sons who had joined gangs. Some hardened gang members returned to the streets of El Salvador after being arrested and deported from the United States. The 13th Street and 18th Street gangs are the imported rival gangs in this community and throughout the country.

مراجع :

Boulding, Elise. 1991. "The Challenge of Imaging Peace in Wartime." *Futures* 23:5, pp. 528—533.

Chupp, Mark. 2000. "Creating Space for Peace: The Central American Peace Portfolio." In *From the Ground Up: Mennonite Contributions to International Peacebuilding.* Cynthia Sampson and John Paul Lederach, eds. New York: Oxford University Press.

Communitas Charitable Trust. 2000. *Two Peasant Organizations in Central America.* An evaluation by the Communitas Charitable Trust, conducted by Harold Baron, Chicago, Ill.

Cowan, Ruth B. 2001. *The Contribution of a Civil Society Organization to Developing Democracy in El Salvador* Unpublished essay

Dugan, Maire A. 1996. "A Nested Theory of Conflict." *A Leadership Journal: Women in Leadership—Sharing the Vision* 1 (July), pp. 9—20. Lederach, John Paul. 1995. *Preparing for Peace: Conflict Transformation across Cultures.* Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press.

Local Zone of Peace Agreement. 1998. *Convenio para la Creacion de Ia Zona de Paz Local en Cent roamerica,* in translation. Unpublished document signed August 15 in Ciudad Romero, Usulutan, El Salvador.

McClintock, Cynthia. 1998. *Revolutionary Movements in Latin America: El Salvador's FMLN and Peru's Shining Path.* Washington, D.C.: U.S. Institute of Peace Press.

Salvadoran Human Rights Institute. 1996. *Zona de Paz Local: Un Rio que Busca su Cauce.* San Salvador: Libros de Central America.

Wallace, Scott. 2000. "You Must Go Home Again." *Harper~s Magazine* (August).

احلموا احلموا

فنحن خارجون من الظلام

دعونا نغمض أعيننا

ونحلم بالنهار

نحلم بغد جديد

ينهض من تحت حطام اليوم

نحلم بأشياء يمكننا أن نقوم بها

لنبني طريقاً أفضل

دعونا نحلم

هيرم ويفر



الفصل السادس

عامل « واو الدهشة » ونظرية اللانظرية في التغيير

جون بول ليديراخ

هذه « القطعة من التفكير » تحمل في طياتها مقاربة إيجابية نحو بناء السلام، كأنها « لحظة مركّبة »، ترفع فيها هذه العملية الخلاّقة، أنظارنا نحو رؤية جديدة وأكثر شمولية وتحفز تحركنا ليس بالتركيز على المشكلة بشكل مباشر ولكن بالتركيز على مجالات العلاقات المحيطة بالمشكلة. فبتغيير الناس، والعلاقات، والبيئة، تصبح العملية في النهاية قادرة على تغيير المشكلة نفسها. وهذه اللانظرية في التغيير مشتقة جزئياً من تجربة المؤلف خلال مشروع رواية قصص بعنوان « احلموا بالنهار »، وهو مشروع أعقب اعتداءات 11 سبتمبر/أيلول الإرهابية عام 2001 على الولايات المتحدة. وهناك ملحق بالفصل، يروي حكاية مشروع رواية القصص ومن ثم يقدم القصة نفسها، مع أغنية أصلية مرافقة للقصة.

*

تبين لي من تجربتي عبر السنين أن هناك سؤالين بديهيين أمام بناء السلام هما: ما الذي يخلق المحفز للتغيير البنّاء؟ وما الذي يحافظ على استدامة عملية التغيير بعد أن تنطلق؟ وكلا السؤالين يرجعان وراءً إلى المسرح الأساسي للبحث في الميدان الأوسع الذي لم يتم اكتشافه بشكل كافٍ بعد وهو السؤال التالي: ما هي نظرياتنا في التغيير.

تحمل هذه الأنواع من الأسئلة تأثيراً مباشراً على أطرنا الفكرية والعملية، كما أنها تحمل بشكل خاص تضمينات لمقاربات إيجابية نحو بناء السلام. فإذا ارتكزنا في نقطة انطلاقنا على الحاجة لإيضاح فرضياتنا الأساسية حول كيفية حدوث التغيير الاجتماعي، وخاصة في الظروف التي تنطوي على انقسامات واستقطابات عميقة، فإننا سنصل إلى ملاحظات مفيدة حول نظرياتنا الإرشادية الضمنية. وأنا أجد أن هذه الملاحظات، ومن خلال إيضاح الوعود والتحديات التي تنطوي عليها النظرية، تعقد أفكارنا حول التغير والتي هي في الغالب بسيطة جداً. ودعوني أبين لكم ذلك في مثالين:

تقترح إحدى النظريات الإرشادية والضمنية حول التغيير في حقلي العدالة وبناء السلام أن تزايد الوعي للظلم ولمصادر النزاع الأخرى تترجم نفسها في دوافع نحو متابعة التغيير. لذا، تبذل جهوداً كبيرة في عملية النشر، والخطاب والحملات الهادفة من أجل زيادة تعريض الناس للحقائق والمعلومات ودفعهم للرد والتحرك. والوعد المتضمن في هذه النظرية الداعية للتغيير هو أن المعرفة التأملية المرافقة للتأثير العاطفي تطلق رداً وتحركاً.

ولكن ما لم يتم اكتشافه إلى مدى كبير، هي تلك الأسئلة التي تتضمن كيف ومتى ولماذا يقوم الناس الذين يسمعون أو يقرؤون شيئاً حول وضع ما، بالرد عملياً لترجمة هذه المعرفة إلى تحرك، خاصةً عندما تستهدف تلك المعلومات معرفتهم التأملية أو تسهم فيها. هل تخلق المعلومات بصيرة وتنوراً يدفعان إلى التحرك؟ هل تغرس المعلومات إحساساً بالمسؤولية يدفع إلى التحرك؟. هل يجب على المعلومات أن توظف الشعور الاجتماعي بالذنب كي تدفع إلى التحرك؟ إذا قمنا بتفحص هذه الأسئلة بعمق، فإننا قد نكتشف في الحقيقة بأن العصر الإلكتروني للأخبار الدولية الفورية، والإنترنت والبريد الإلكتروني، كلها تخلق حمولة زائدة تؤدي إلى تخدير الوعي بمعلومات مفرطة بحيث تؤدي في النهاية إلى تقليص التحرك في الرد واقعياً.

وهناك نظرية إرشادية ثانية للتغيير تقول أن حل المشاكل هو مفتاح التغيير البنّاء. وتنطوي هذه النظرية على الافتراض القائل بأن تزايد المهارات خلال العملية يرفع

من درجة التغيير الاجتماعي. وبشكل أكثر تحديداً إذا قام الناس بزيادة مهاراتهم في مختلف النواحي المتعلقة بتحويل النزاعات مثل عمليات الاتصال وحل المشاكل، فسيكون هناك تزايد في اهتمامهم بتطبيق تلك المهارات في حل المشاكل التي تواجههم خلال حياتهم. وضمن هذا التوجه، يحمل التدريب وعداً جيداً. فكلما ازداد التدريب، ازداد التغيير الاجتماعي.

كذلك، ما لم يتم اكتشافها بعمق هي تلك الارتباطات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تقع في أساس تلك النظرية. من الذي ينجذب للتدريب ومن أي فئات من المجتمع يأتي؟ ما هي الأسباب التي تدفع الناس إلى السعي من أجل التدريب؟ ما هي المهارات التي تدرَّس وما هي أنواع المهارات التي يطلبها السوق؟ كيف يتم ترجمة أسس المهارات إلى عمليات تغيير اجتماعية؟ ما هو تأثير تعريف التغيير فيما يتعلق بالمشكلة؟ وكيف يهيئ لها لمسرح أوسع من التغيير الاجتماعي؟ هل ممكن أن يفرض هذا الأمر قيوداً بدلاً من ذلك؟

ما الذي تقترحه المقاربات الإيجابية نحو بناء السلام حول نظريات التغيير؟ بينما لا يزال هذا الأمر يشكل وجهاً جديداً ومتنامياً في هذا الحقل، تبين لي تجربتي، بأن هذه النظريات، مثلها مثل جميع نظريات التغيير الأخرى، تحمل معها وعوداً وتحديات، ولربما يحتاج الأمر إلى مراجعة سريعة.

أجد أن المقاربات الإيجابية لبناء السلام تحمل أكبر قدر من التأثير عندما تخلق لحظة مركّبة تتناول بعض نواحٍ متعلقة بالنظريات التي سبق ذكرها، ولكن مع بعض الالتفاف. وهناك عدة مفاتيح لخلق التركيب في تلك اللحظة بينما يتولى الإبداع والابتكار خلق اللحظة نفسها.

المفتاح الأول هو أن المقاربة الإيجابية لا تعرف نفسها بالمشكلة، بل بالنوعية التي تكمن وراء هذه المشكلة. والمشكلة الاجتماعية بذاتها غالباً ما تعكس ظاهرة لأمر عالق بعمق، وهناك حالات تصطدم فيها الطاقات الاجتماعية حول القضايا،

والحقائق والقرارات وتخلق تضاربات في كل من التحليل الاجتماعي، (كيف تُفهم المشكلة وكيف تجزأ ضمن أجزاء منطقية) والحلول الاجتماعية (حيث يبنى أفضل رد على القضية عادةً، على أسس تحليلها). والمقاربة الإيجابية لا تعرَّف كثيراً من خلال النظرة المتعددة لما هو ممكن ولكن من خلال الرغبة في رؤية الحياة خلف حدود المشكلة. والمقاربة تبحث عن التغيير، ليس في المشكلة، ولكن في مساحات العلاقات التي تحيط بها. ويشبه هذا الأمر محاولة التركيز عمداً على شيء في غرفة مظلمة، إذ كلما ركزت النظر إليه، أصبحت رؤيته أكثر صعوبة. ولكنك إذ نظرت حول الشيء، واضعاً إياه على طرف نظرك، فإنه يصبح عندئذ واضحاً ومستقراً.

والمفتاح الثاني للمقاربة الإيجابية هو مفتاح يحمل صفات متضاربة. فهو يتضمن العثور على تحرك اجتماعي يخلق طاقة مستقلة عن المشكلة، ولكنها تؤثر عليها في نهاية الأمر. وتحمل هذه الحالة تناقضاً في طيّاتها. فالتحرك يجب أن يكون عملياً (بمعنى « يا للدهشة » أن هذا أمر ممكن وأنا يمكنني عمله) أو بمعنى (يا للدهشة! هذا شيء عظيم!) كما يجب أن يكون سباقاً في نشاطه أي أن يشعر الناس بتأثيره مباشرة ويرون الفرق الإيجابي.

في القصة التي تحمل عنوان: « احلموا بالنهار » (انظر إلى ملحقات هذا الفصل)، نجد أن الرد المألوف الذي يتلقاه المراهقون كان بسيطاً. وكما علّق أحد التلاميذ في مقابلة معه: « لقد تركتنا أحداث 11 سبتمبر مخدرين فاقدي الحس ». وقد بدت الأجوبة المتوقعة وكأنها بعيدة جداً عما يمكننا عمله. إلا أن القصة احتوت على أشياء محددة يمكننا عملها وكانت متوفرة بشكل فوري: يمكننا تعلم لغة. يمكننا التحدث مع الناس في المسجد. يمكننا مراسلة صديق من الشرق الأوسط وإقامة علاقة معه. بدا الجواب وكأنه: « أنا لست مشلولاً » يمكنني أن أفعل شيئاً وهذا الشيء سيشكل الفرق (كينس، 2002).

أما المفتاح الثالث للمقاربة الإيجابية فهو الإبداع والابتكار، وأنا أسمي هذا الأمر « عامل الدهشة ». وهذا الأمر لا يمكن فهمه إلا بموازاة الفن والعمليات

الإبداعية في مواجهة العلوم والعمليات التحليلية. فالفهم في العلوم يأتي في معظمه، عبر عمليات التفكير التي تجزئ الظاهرة إلى أجزاء يمكن دراستها. أي أننا ننظر في التحليل من خلال الأجزاء. أما العملية الفنية، من الناحية الأخرى، فتذهب إلى أبعد من المشهد الذي نراه عبر العدسة الشحيحة، ليكون مشهداً شاملاً. وهي، أي العملية الفنية تقدم لنا طريقة لنرى – ونتبين ونستوعب – ما هو مرئي ولكننا لا نراه بأعيننا. ويظهر هذا في القدرة التي تمتلكها لوحة ما أو قصيدة أو مسرحية أو صورة. ففي هذه الشمولية الصغيرة، تنكشف حقيقة عميقة لشيء ما، ويتم فهمها. وعندما يطبق هذا الأمر على بناء السلام، فإن مثل هذه العملية لا تنطلق في تحركها عبر الإرادة المنطقية والتصميم الفكري، ولكن، وكما يقول بعض الفنانين، عبر الفطرة، وأنا أضم إلى هذه الفطرة كلمة النوعية. ومن ناحية تفهمي الروحي والتفسيري للأمر، أصف هذه العملية بالسذاجة المقدسة. لأنها تشكل تدخلاً من طاقة تذهب إلى أبعد من الفهم الإدراكي والمعرفي وتخترق عبر مستوى جديد من الفهم، والدافع، والتحرك.

وعندما تجتمع هذه الأشياء مع بعضها البعض – أي العزم على عدم النظر إلى التغيير في المشكلة ولكن إلى التغيير في أجواء العلاقات المحيطة بها؛ والتحرك الاجتماعي الذي يعمل بشكل مستقل عن المشكلة ولكنه يتأثر بها في نهاية الأمر؛ والعملية الخلاّقة التي تظهر نظرة جديدة وشمولية نحو الوضع – يظهر شيء يدخل الناس في بوتقته ويقدم لهم طريقاً لتحرك ذي معنى ويضيف إبداعاً جديداً إلى الوضع. مثل هذا الشيء الاجتماعي الجديد يترك تأثيره على المشكلة وعلى العملية؛ على الماضي وعلى المستقبل؛ على الفرد وعلى النظام. تماماً مثل التناقض الذي تحمله لوحة فنية، إذ لا يمكنك استيعابها أو إدراكها إلا إذا استعدت معها أحداثاً ماضية.

إذن ما الذي يقع في أسس نظرية التغيير؟ بالنسبة لمفهومي الحالي، يشكل هذا الأمر نوعاً من اللانظرية بمعنى أنه لم يصمم منهجياً ليدخل مباشرة إلى المشكلة. أو أنه يشكل نظرية يمكن تسميتها النظرية النسبية الاجتماعية. وهي قريبة من الطاقة التي

تُطلق عندما يتم تقسيم ذرة داخل بيئة العلاقات التي تحيط بالذرة. عندما توجد محفزاً يذهب إلى أبعد من المشكلة، فإنك بذلك تطلق شرارة عملية مشاركة مستقلة عن المشكلة ولكنها تؤدي إلى تغيير البيئة، والناس والعلاقات وفي النهاية المشكلة نفسها.

مراجع :

Kniss, Sharon. 2002. Interview with John Paul Lederach (April 3). Harrisonburg, Va.

ملحق

«احلموا بالنهار»: قوة رواية القصة في بناء السلام

جون بول ليديراخ وهيرم ويفر

يكمن التحدي الفردي الأكبر الذي يواجه المقاربات الإيجابية نحو بناء السلام في التضارب الظاهر في كيفية قيام الناس الذين يعيشون في خضم النزاع بتطوير تحرك خلاق وغير متوقع بينما هم عالقون في قبضة مأساة حقيقية، وظلم شديد وقمع ومعاناة. هذا التضارب اقتحم مَواطِن الأميركيين الشماليين في صحوة يوم 11 سبتمبر/ أيلول عام 2001. بالنسبة لكل منا نحن الاثنين، لم يبرز هذا الأمر كسؤال بلاغي أو نظري، رغم أننا كأساتذة أكاديميين كنا قد كتبنا حول عمليات المصالحة ورأب الصدع. لقد أصبحنا الآن نحن وهذا التضارب، كما يقال وجهاً لوجه.

قبل سنة من أحداث سبتمبر/ أيلول 2001، كنا قد اتفقنا على إدارة عدة أحداث مستعادة جاءت في أعقاب العنف الذي اندلع في نيويورك وواشنطن. كانت مهماتنا على السطح تشكل نسبياً نشاطات روتينية محلية، وغير ملموسة ضمن الصورة الأكبر للوضع. كان علينا أن نكون عرفاء حفل لعرض منوعات سنوي تقيمه كنيستنا التابعة لطائف المانونايت في بلدة هاريسون برغ بولاية فرجينيا. كما كان علينا أن نشارك في الاجتماع الوطني لمعلمي المدارس الابتدائية والثانوية الذين يدرِّسون في مؤسسات

المانونايت الخاصة. وأخيراً كان علينا أن نسهم في نشاطات التسلية المقامة لمناسبة أسبوع التجديد الروحي في مدرسة إيسترن مانونايت الثانوية في هاريسون برغ أيضاً.

هذه الارتباطات، جاءت في الواقع، على إثر الاعتداءات الإرهابية، كان جون بول آنذاك، يوم 11 سبتمبر/ أيلول في غواتيمالا، ولم يكن باستطاعته العودة بالطائرة إلى الوطن. وظل ينتقل من مطار إلى مطار. أقيمت حفلة الكنيسة يوم السبت الموافق 22 سبتمبر، أما الحلقة الشاملة التي حضرها 500 مربي، فقد جرت في ميريلاند يوم الجمعة الموافق 28 سبتمبر/ أيلول، كما عقدت الحلقات الصباحية الخمس للأربعمائة طالب من الثانويات والدراسات المدرسية العليا في الأسبوع الأول من أكتوبر، (من 1 أكتوبر إلى الخامس منه). ونعم! كانت حلقات محلية وشخصية. ولكن يا لها من فرصة سُنحت لممارسة فكرة كارل روجرز التي تقول أن أكثر الأشياء شخصية هي أيضاً أكثر الأشياء عالمية، واقتراح كينيث بولدنغ القائل بأن التغيير يحدث من خلال إظهار الإمكانيات وأن أي شيء موجود هو شيء ممكن.

كانت لدينا أفضلية محددة. فقد بقينا لسنوات نختبر الفن وبناء السلام ونعمل فيهما (نعم البعض قد لا يسمي ما نفعله بالفن). كنا نروي القصص ونغني الأغاني الموسيقية الفلوكلورية، ورغم أننا كنا نبتعد أحياناً عن حدود الوقار، إلا أن هدفنا كان دائماً التعلم والتبصر من تجارب الحياة. ومع وجود المأساة حولنا، شعرنا بالحاجة إلى إحداث تغيير طالما كنا نخطط له. وفي الليلة التي سبقت حفل المنوعات الكنسي، قررنا أن نختتم سهرة الفن هذه بقصة وأغنية تقدم ردّاً مقترحاً على 11 سبتمبر. كانت القصة شخصية جداً، ومبنية تقريباً على قصة حياة جون بول كصانع للسلام وعلى مساهمات من حقيقة الحياة لأناس موجودين بيننا في الجمع، وخاصة برنامج لغوي حاسوبي تم تطويره من قبل أحد أعضاء كنيستنا. في حفلات المنوعات السابقة، كان جون بول يروي قصصاً عن التواءات الحياة وكان يبدأ كلامه بالسطر التالي: « كل شيء في هذه القصة حقيقي، ما عدا الأجزاء التي قمت بتغييرها لأجعلها قصة أفضل ». وفي ليلة 22

سبتمبر/أيلول، وتحت ضوء النجوم في ظلمة وادي شينزدوا، بدأ جون بول قصته بالسطر التالي: « كل شيء في هذه القصة حقيقي، ما عدا الأجزاء التي لم تقع بعد ».

في تلك الليلة، كنا مبهورين بتجاوب الناس في جمعنا مع الاقتراح البسيط المقدّم لدراسة اللغة العربية وتطوير الاتصالات مع الناس، الأطفال منهم والمراهقين وطلاب المدارس في آسيا الوسطى والشرق الأوسط وفي الولايات المتحدة. بعد أسبوع قمنا بعرض القصة والأغنية أمام المربين بدلاً من إعطائهم محاضرة عن ثقافة السلام. كانت هناك دموع وكان هناك تشجيع. ولكن الأهم من كل هذا، هو رغبة الأساتذة في معرفة كيف يمكنهم أن يقيموا الارتباطات من أجل تطبيق الخطة بين طلابهم. وكان الأمر الظاهر هنا هو تلك التغذية الراجعة التي تلقيناها من عدة أشخاص حول كيفية إمكانية تحسين القصة بحيث يكون لها رد فعل أخف لدى الزعماء السياسيين وتحوُّل أكثر إيجابية نحو خطوات ملموسة يمكن القيام بها.

أجرينا بعض التعديلات في القصة للمرة الثالثة وبعد أسبوع قمنا بتوزيعها على الأشخاص المعنيين أصلاً: « طلاب المدارس الثانوية الذين غيّروا العالم ». وفي اليوم التالي أشركنا التلاميذ في عملية بسيطة تشمل إطلاق الاقتراحات لما يمكن فعله لاحقاً. وقد تراوحت الاقتراحات من دراسة اللغة والعثور على أصدقاء بالمراسلة في آسيا الوسطى إلى دعوة ضيوف محاضرين من الشرق الأوسط إلى المدرسة والسعي لإقامة علاقات مع المساجد المحلية، وإلى تحريك المدرسة لإرسال مساعدات إغاثة إلى أفغانستان.

وبتشجيع كبير من عدة أعضاء في الكنسية، قمنا بعد ثلاثة أسابيع بتسجيل قرص إلكتروني بعنوان « احلموا بالنهار – قصة وأغنية ». وخلال ذلك الوقت كان هيرم قد ألّف أغنية جديدة هي « حلم النهار ». وقد وفّرت هذه الأغنية مقدمة للقصة وختاماً لها. « كيف غيّر طلاب الثانوية العالم ». وتم تغطية كلفة الإنتاج بدعم كريم من الكنيسة مما أتاح توفير مئات النسخ المجانية من قرص « احلموا بالنهار » لتقديمها إلى أساتذة المدارس الثانوية في عموم الولايات المتحدة. كان الأمر في الحقيقة

مغامرة بيتية وشعبية. فقد اجتمع شباب الكنيسة وطلاب الثانويات لوضع العلامات على الأقراص الإلكترونية الخمسمائة الأولى وتغليفها. وخلال ستة أشهر تم توزيع أو بيع 2000 قرص بحساب التكلفة.

وفي نفس الوقت، بدأ خمسة وسبعون طالباً من المدارس الثانوية بتلقي دروس في اللغة العربية خلال الأشهر التي تلت، مع برامج كومبيوتر لغوية مجانية قدِّمت لكل شخص يلتزم بالدراسة مدة خمس ساعات في الشهر ولمدى ثلاثة أشهر. وقد كتبت بعض المدارس الأخرى بعد أن علمت بالأمر تطلب الشيء نفسه. وقام طلبة آخرون بمتابعة إيجاد أصدقاء بالمراسلة، وعثروا على أصدقاء في ثانويات لبنان لمراسلتهم عبر البريد الإلكتروني. وخلال اجتماعاتهم الأسبوعية حول « مجموعة الجيران » قامت المدرسة الثانوية بأكملها بإطلاق شعار « Afghans for Afghans » وتعني بالعربية: « البطانيات من أجل الأفغان ». وتم إرسال عدد كبير من البطانيات عبر إحدى منظمات الإغاثة إلى أفغانستان. واختارت مجموعة صغيرة من الطلاب أن يقوموا بالصيام والصلاة أيام الجمعة خلال شهر رمضان كبادرة محبة وتضامن مع الذين يعانون.

والآن بعد مضي سنتين، تم توزيع ألفي قرص إلكتروني أخرى إلى الجمهور، تبعها قرص آخر بعنوان: « في أغنيتك اسمع صوتي » سُجِّلت فيه الأغنية في اثنتين وعشرين لغة. وفي تحرك غير متوقع قبل وفاته، عام 2002، قام مالك ومخترع برامج لغة « روزيتاستون » السيد آلان ستولتفوز، وعبر مؤسسة عائلية بتقديم هدية مقدارها 3 ملايين دولار بحيث يتم توفير أقراص إلكترونية لتعليم اللغة العربية عبر أمريكا. وقد تم استخدام القصة والأغنية في عدد من مناسبات الذكرى التي أقيمت بمناسبة اعتداءات 11 سبتمبر.

وقد ذكرت إحدى الطالبات وتدعى أماندا ماوست وهي تستذكر أحداث خريف 2001، أن التأثير الرئيسي للقصة هو أنها تستدعي التفكير الفوري للقيام بالاتصال مع الناس الحقيقيين. وكنت أستطيع عمل ذلك حقيقةً مع الناس الموجودين

في الولايات المتحدة، وحتى في بلدتنا. وقد قدّمت أماندا اقتراح الصيام التضامني في رمضان في بيتها ثم نقلت الفكرة إلى نادي السلام في المدرسة لأنه وكما قالت: « كانت طريقة لإظهار الدعم لهؤلاء الناس الذين يختلفون عنا ولا يجب أن ننظر إليهم باحتقار بل علينا أن نفهمهم وندعمهم. لذلك، وبدلاً من تناول طعام الغذاء يوم الجمع، نقوم بالتجمع لإرسال الرسائل الإلكترونية إلى أصدقائنا في الشرق الأوسط » (2002).

أما شارون كينس وهي طالبة أخرى فقد استذكرت بأنها شعرت بنوع من التأهل وقالت: « حتى اليوم الذي سمعنا فيه القصة، كنا كأننا نراقب الأشياء تحدث، وننظر إليها من مسافة بعيدة دون أن نعرف ما نفعل. أما بعد سماعنا للقصة، فقد جمعنا أفكاراً عن أشياء محددة يمكننا القيام بها، إذا أردنا أن نبذل جهداً في سبيل ذلك. إن الشيء الأكثر الذي أحببته، ولفترة من الوقت، هو أن المدرسة هبّت جميعها من خلال اللجان – لجنة لإطلاق تعلم اللغة، ولجنة للاتصال بالأشخاص الذين تأثروا بأحداث نيويورك، ولجنة لإحضار أشخاص من الشرق الأوسط إلى مدرستنا، ولجنة للعثور على أصدقاء في الشرق الأوسط.. كان الناس راغبين في فعل شيء بدلاً من أن يجلسوا ويقولوا: « يجب علينا أن نفعل شيئاً ». كان لدينا طريق للعمل » (2002).

هل تم تنفيذ كامل البرنامج والتحرك اللذين وردا في القصة؟ كلا، على الأقل ليس إلى اليوم. هل استطاعت المدرسة الثانوية إيقاف الحرب أو تغيير العالم؟ كلا ولكن مرة أخرى ربما. فنحن ما زلنا نتلقّى العديد من الطلبات التي يمكننا تلبيتها لتنفيذ ما ورد في القصة. وما زال معلمو المدارس مستمرين في الكتابة لنا، من لويزيانا إلى البرتا، من أماكن لا نتوقعها، وهم يطلبون الحصول على القرص الإلكتروني « برنامج اللغة » وعلى المبادرة نفسها. وقد تم إقامة مواقع إلكترونية، وطلب كتبة الأغاني تصريحاً بتسجيل تتبع العنوان كما أرسلت جامعة إيسترن مانونايت آلاف النسخ من القصة كهدية عيد الميلاد إلى جميع خريجيها.

لا يمكننا تقييم مدى تأثير هذه المغامرة ضمن معايير كميّة تقليدية. ولكن ما نعلمه هو أن أهم تغذية راجعة كنا نتلقاها باستمرار من القصة ومن الأغنية هي ببساطة كما قال أحد الأشخاص: « شكراً لكم. ففي خضم هذه المأساة، كافحت كي أعرف ماذا أفعل. لقد أعطيتموني أفكاراً بسيطة بإمكاني أن فعلها مع أطفالي ». وكما سبق وكتبنا في إحدى مقدماتنا، فقد كان هذا ردّاً صغيراً على تحدٍّ كبير، ولكنه ردّ يُظهر على صغره أن كل ما هو جيد يبدأ بالأمل والإيمان وبخطوة محبة. نحن ممتنون لوجود فرصة لكي نشارككم هذه القصة وهذه الأغنية.

كيف غيَّرت مدرسة ثانوية، العالم

(الكورس)
احلموا احلموا
نحن خارجون من الظلام
فلنغمض أعيننا
ونحلم بالنهار
نحلم بغدٍ جديد
ينهض من ردم اليوم
نحلم بأشياء نستطيع أن نفعلها
ونبني طريقاً جديداً
دعونا نحلم

حدث الأمر في وضح النهار
مشحون بخوف لا يرضى الزوال
تنهض كومة ردم في الضباب
وأنا لا أجد القوة للصلاة.

(كورس)

تحول الخوف إلى غضب منذ ذلك اليوم
كانت صيحات الانتقام تسمع على الطريق
في مكان ما من الليل
كان صوت ناعم يقول
اصمدوا واحلموا بضوء النهار

أريد أن أروي لكم قصة عنوانها: « كيف غيّرت مدرسة ثانوية العالم ». وهذه القصة، هي قصة حقيقية، كل شيء فيها حقيقي ما عدا الأجزاء التي لم تحدث بعد.

كان هناك في أحد الأيام رجل عجوز، له عدد كبير من الأحفاد. وكان هذا الرجل يحب رواية القصص. وكان الأطفال يأتون في الليل ليطلبوا منه أن يروي لهم قصة، وكان هو يجمعهم حوله ويسألهم: والآن ما هي القصة التي ترغبون في سماعها؟

« اروي لنا يا جدي » كانوا يصيحون جميعاً بصوت عال. « اروي لنا قصة الحرب التي لم تبدأ أبداً ». وعندها كان الجدّ العجوز يبدأ بالحديث:

كان يا ما كان، في قديم الزمان، شاب انطلق في رحلة إلى الأراضي المقدسة. زار الشاب لبنان ومصر والأردن، وعَبَرَ نهر الأردن إلى فلسطين وإسرائيل. ثم زار مخيمات اللاجئين ومتاحف الهولوكوست ومكث في منازل المواطنين. حتى أنه أصيب بوعكة صحية وأمضى ليلتين في مستشفى القدس.

وفي عصر أحد أيام رحلته، قابل متطوعاً أميركياً يعمل في مدرسة للأطفال الفلسطينيين في بيت جالا. وقد تأثر الشاب كثيراً من قدرة الأميركي على التحدث باللغة العربية، كان يتكلمها بطلاقة. أحسّ الشاب بحركة عميقة في صدره، أراد أن يعود إلى بيت جالا ويتعلم اللغة العربية.

وعندما عاد إلى الولايات المتحدة، التحق بإحدى الوكالات التطوعية فوراً. وقد أجاب على سؤال في طلب الالتحاق يقول: أين ترغب أن تخدم؟ بالأجوبة التالية: كتب تحت سطر الاختيار: رقم 1: بيت جالا؛ رقم 2: بيت جالا؛ رقم 3: بيت جالا. وأرسل الطلب بالبريد وجلس ينتظر.

ولكن الردّ جاءه من الهيئة بعد ثلاثة أشهر يقول: إننا بصدد إغلاق مركزنا في بيت جالا، كما أننا لا يمكننا أن نرسلك إلى الشرق الأوسط، الوضع خطر جداً وهناك قتال شديد ومشاكل عديدة في المدرسة. وقد قدمت له الهيئة اقتراحات أخرى مثل: يمكننا أن نرسلك إلى مزرعة خيل في بولندا، أو إلى مشروع إسكاني لطلاب الجامعات في بلجيكا.

في تلك الليلة، خرج الشاب ينظر إلى النجوم وسط الظلام. كان منزعجاً ومشوش التفكير وجه نداء إلى السماء: لماذا يا ربي؟ لماذا ليس بيت جالا؟ ولكنه لم يسمع أي جواب.

وهكذا، اختار بلجيكا وهناك تعلم الفرنسية وعاش مع الطلاب العرب والأفارقة والآسيويين وطلاب أميركا اللاتينية. وكان يتعلم أشياء عن العالم آخر الليل حول لعبة شطرنج. وبعد ثلاث سنوات، ذهب إلى إسبانيا وتعلم الإسبانية وزار الناس الذين أودعوا في السجون لأنهم رفضوا تقبّل الدكتاتورية العسكرية. زار جميع أنحاء إسبانيا، ساعياً لسماع آراء الناس وقصصهم عن الحرب وعن رغبتهم في السلام. وتعلم هناك معنى الكفاح.

وبعد مضي خمس سنوات تقريباً، عاد إلى وطنه ليتابع دراسته، وحصل على شهادة، ولكن أهم ما حصل عليه كان حروقاً من الدرجة الخامسة، حين اكتسحت قلبه امرأة نضرة جميلة زيتونية البشرة، شكلت له أفضل اختيار لامرأة يمكن أن يقابلها. كانت تنتظره هناك تماماً في هيستون، بولاية كانساس. هل يمكن أن تصدقوا؟ في هيستون بولاية

كانساس. تزوج الاثنان وعادا إلى إسبانيا وبعدها إلى أميركا الوسطى حيث تعرّضا للعديد من المشاكل وتمت ملاحقتهما. ولكنهما في النهاية استطاعا مساعدة المئات من الأصدقاء الجدد على إنهاء الحرب في نيكاراغوا.

تعلم الشاب أشياء كثيرة عن المعاناة والالتزام. وتعلم أن السلام يمكن أن يكون محتملاً. وعندما عاد الاثنان إلى الوطن، أخذا يُدرِّسان تلك الفكرة للشباب، وهكذا انضم الشاب إلى كنيسة المجتمع في هاريسون بيرغ بولاية فرجينيا.

وفي أحد أيام الآحاد، في الكنيسة وقف رجل له مشية غريبة ونظارات معقوفة، وقال: لقد حلمت بأنني ذاهب لأدرِّس الناس اللغات من خلال الكومبيوتر، وأن عالمنا سيصبح أفضل هكذا. ابتسم الشاب، فقد كان يحب اللغات وأخبر الرجل ذا النظارات المعقوفة أن فكرته جيدة.

مرّ الوقت، وأصبح للشاب وزوجته أطفال. كبر الأطفال وأخذوا يمارسون لعبة كرة السلة، ويغنون مع الجوقة الغنائية. وفي الحقيقة لم يعد الشاب شاباً كما كان من قبل، فقد نما في رأسه الشعر الأبيض وبدأ كرشه يظهر من فوق زناره، ولكنه مع ذلك ظل يسافر إلى الأماكن التي تشهد نزاعات بين الناس، كان يحمل مهمة غريبة لا يستطيع أحد تفسيرها.

وعندما سأل المعلم ابنه يوماً ما: ما الذي يفعله والدك بالضبط في الصومال؟ أجاب الفتى: لقد ذهب والدي هناك ليخبرهم أن يلقوا أسلحتهم ويأكلوا طعامهم. وهذا ما كان يفعله ذلك الشاب الذي لم يعد شاباً.

وفي أحد الأيام، وبينما كان يركب الطائرة إلى طاجيكستان، تناول إحدى مجلات خطوط الطيران وهناك على مؤخرة غلاف المجلة شاهد إعلاناً لبرنامج تدريس اللغات بالكومبيوتر، يقدمه صديقه ذو المشية الغريبة والنظارات المعقوفة في الكنيسة جرى بإصبعه على لائحة اللغات جميعها حتى توقف عند اللغة العربية. ثم راح يفكر ببيت جالا، وبدأت معدته تتحرك.

وعندما عاد إلى منزله، بحث عن صديقه ذي النظارات المعقوفة في الكنيسة: « أصغي إليّ » قال له، « لقد رأيت إعلانك في المجلة. وأنا عائد للتو من طاجيكستان حيث لا أحد يتكلم الإنجليزية هناك وهم بحاجة لأن يروا برنامجك. أما أنا فأرغب في تعلم اللغة العربية وأملك حاسوباً صغيراً متطوراً ورقمياً وأريد أن أتعلم العربية ». عندها أعطاه صديقه ذو النظارات المعقوفة قرصاً إلكترونياً يتضمن برنامج تعلم اللغة العربية.

وخلال رحلته التالية إلى كولومبيا وغواتيمالا، حمل الشاب الذي لم يعد شاباً معه قرص تعليم اللغة العربية. وخلال سفره في الطائرة، وضع السماعات على أذنيه وفتح حاسوبه وابتدأ يتعلم درسه الأول.

ولد! كلب! أخذ يكرر الكلمات بينما كانت الصور تومض على شاشة الكومبيوتر. لاحظ أن الرجل الجالس في المقعد المجاور له على الطائرة ينظر إليه وكأنه كرة غريبة.

أنا أتعلم العربية. قال له وهو يشعر بقليل من الإحراج « ولد وكلب » تعني بالإنجليزية The boy and the dog وأشار بإصبعه إلى الأحرف العربية على الشاشة.

بعد ذلك، وقعت تلك الأحداث قبل عودته من رحلته. قام بعض الرجال بخطف ثلاث طائرات وتفجيرها في نيويورك وواشنطن دي-سي. كان الأمر يشبه طعنة في قلب أميركا. كان أمراً رهيباً جعل الشاب الذي لم يعد شاباً يشعر بألم في معدته وغضب وحزن.

كان ما زال عالقاً في غواتيمالا، عندما صعد في آخر الليل إلى سطح الفندق، منزعجاً ومشوش التفكير وصاح بأعلى صوته في المساء: لماذا يا رب؟ لماذا الآن؟ لماذا كل هؤلاء الناس الأبرياء؟ ولكنه لم يسمع أي جواب.

كان الشاب الذي لم يعد شاباً يرغب في العودة إلى وطنه وعائلته، ولكن الأمر لم يكن ممكناً، إذ لم يكن هناك طائرات، وكان الجميع خائفاً. استمع إلى الأنباء وهي تقول أن الخاطفين كانوا عرباً، فقد عثرت الشرطة على كتب وإرشادات باللغة العربية في السيارات المستأجرة.

شعر الشاب الذي لم يعد شاباً بحركة في معدته. جلس لوحده في غرفة الفندق وأخرج قرص اللغة العربية ونظر إليه: ماذا يجب أن أفعل؟ أخذ يتساءل بينما كانت الشرطة تخرج المسافرين من الطائرات المتوجهة إلى البلاد العربية. جلس مطولاً لوحده ثم أخرج القرص الوحيد الموضوع في علبة مجوهرات من حقيبته كان القرص من ابنته التي تنشد مع فرقة المدرسة الثانوية، وكان يحمل عنوان: يمكنني أن أخبر العالم. وضع القرص في حاسوبه وأصغى إليه حتى المقطوعة الثالثة: « والآن هو أهم ما في اليوم » آه، شعر بروعة تلك الموسيقى، ونظر إلى قرص اللغة العربية ثم إلى القرص الموضوع في علبة المجوهرات وابتسم ثم قال بصوت عالٍ: « لقد وجدتها ».

وضع قرص اللغة العربية الذي قدّمه له صديقه ذو النظارات المعقوفة داخل علبة الأقراص التي أهدتها له ابنته وأرسل الاثنين بالبريد إلى وطنه.

بعد أسبوع، تحدث الرجل في الاحتفال الكنسي وأخبر الحاضرين ما حصل معه، حول بيت جالا، وتعلم العربية، وقرص الكومبيوتر الذي يدرس اللغات، وجوقة المدرسة الثانوية. وفي الأسبوع التالي روى القصة نفسها أمام خمسمئة من معلمي المدارس في مؤتمر كبير. وعاد ليروي نفس القصة أمام الطلاب في مدرسة ابنته الثانوية. وفي كل مرة كان يختتم الحديث بالفكرة نفسها.

« أترى » قال الشاب الذي لم يعد شاباً، « تماماً مثلما لفّت علبة أقراص جوقة المدرسة الثانوية ذارعيها المحبين حول قرص اللغة العربية، يمكننا نحن أن نلفّ أيدينا حول هؤلاء الذين قيل لنا بأن علينا أن نكرههم. يجب أن نعثر على طريقة لتفهم بعضنا البعض في هذا العالم، وهنا أريد أن أقدم اقتراحاً بدعم مالي من الكنائس وبرنامج تعلم اللغات بالكومبيوتر، يمكننا أن نوفّر الأقراص الإلكترونية لتعلم اللغة العربية مجاناً، لجميع المدارس الثانوية الأميركية بحيث يتمكن طلابها من تعلم العربية ولكن، ضمن شرطين: الأول، أن توافق كل مدرسة على تطوير علاقة تآخي مع مدرسة ثانوية في بلد يتكلم أهله اللغة العربية، وثانياً، أن تقنع كل مدرسة ثانوية، مدرسة ثانوية أخرى بأن تفعل نفس الشيء ».

بالطبع، لم يقم الشاب الذي لم يعد شاباً باستشارة صديقه ذي النظارات المعقوفة وصاحب برنامج الكومبيوتر للغات، ولكنه كان يتصور بأن اقتراحه قد يلقى متابعة معنوية أكبر إذا وقع المجتمع بأكمله وراء الفكرة. ووراءها، سار الجميع.

فقد دبّ الحماس في مدرسة ابنته الثانوية وبدأ الطلاب بإنشاء نادٍ لتعلم اللغة العربية بعد الدراسة. وتقدم ستون طالباً بطلبات للحصول على أقراص تعلم اللغة العربية وبدأت الدروس. بعدها قام النادي بدعوة متحدثين عرب إلى الصفوف، كما عثروا على مدارس ثانوية تؤاخي مدرستهم، واحدة في الأردن والأخرى في سوريا، واستطاع ناديهم الدولي إقناع مدرستين ثانويتين في الولايات المتحدة بالانضمام إليهم. ولكن الأهم من ذلك كان قيام إحدى الصحف المحلية بنشر مقال حول جهودهم. وما أن سرى الخبر عبر أسلاك الأنباء حتى دعاهم برنامج « صباح الخير أميركا » وأجرى مقابلة مع اثنين من الطلاب، فيما قامت جوقة المدرسة بالإنشاد على شاشة التلفزيون الوطني.

وخلال شهر واحد، انتشرت الفكرة.

وصرّح الرجل ذو النظارات المعقوفة بأنه أرسل 5000 قرص لتعلم اللغة العربية ومجموعة كاملة لتعلم الإنجليزية إلى الشرق الأوسط.

وبدأت برامج تبادل المعلومات تظهر في كل مكان، وسرعان ما أخذ مئات التلاميذ في جميع أنحاء أميركا يتعلمون العربية ويرسلون الرسائل الإلكترونية إلى أصدقائهم في الشرق الأوسط الذين أخذوا يتعلمون الإنجليزية. لم يعد الأمر مجرد فكرة، أصبح الآن تحركاً.

وهكذا، كبر الأمر حتى وصل إلى واشنطن، وإلى مستشاري الأمن القومي وحتى إلى مكتب الرئيس. وبدا أن هذه الحركة تملك اتصالات مع الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، أكثر منها في أي مكان من البلاد. كان

هناك أصدقاء بالمراسلة في كل مكان، أثار الأمر فضول المستشارين وأصبح عليهم أن يعرفوا المزيد. لذلك دعوا قيادات هذه الحركة إلى واشنطن وكم كان الأمر مفاجئاً لهم عندما ظهر أمامهم ثلاثة مراهقين.

لم يُضِعْ المستشارون أي وقت: كيف يمكنكم أن تقترحوا تحقيق السلام بهذه الطريقة؟ بدأوا بالسؤال.

ولد! قال الأول؛ كلب! قال الثاني: « The boy and dog » قال الثالث.

ما هذا الجواب؟ سأل أحد المستشارين وهو يكاد لا يصدق ما تسمعه أذناه « تعلم العربية » أجابه المراهقون الثلاثة وتذكر آبي لنكولن.

عند هذه النقطة، توقف العجوز عن الكلام. وكانت الكلمات الخيرة ما تزال عالقةً في الهواء. راقب الأطفال وجهه بحذر إلى أن لم يعد باستطاعة أحدهم الانتظار.

ولكن يا جدي! انفجرت طفلة بالسؤال؛ ماذا عن آبي لنكولن؟

« حسناً » أجابها العجوز « لقد قال آبي لنكولن العجوز مرة بأن الطريقة الوحيدة للتخلص تماماً من العدو هي أن تجعله صديقاً لك ».

« وهكذا هل نشبت هذه الحرب يا جدي » سأله أحد الأطفال وهو يحدق به.

« آه لقد نشبت الحرب »، قال الجد العجوز، ولكن الشيء المدهش أن الحرب الثانية والثالثة لم تبدأ. فقد تعلم عدد كبير جداً من الأطفال اللغة العربية واعتقد أنهم فهموا في النهاية ما كان يعنيه آبي لنكولن. عاد الهدوء مرة أخرى، ثم سأله أحد الأطفال: هل استطاع الشاب العودة إلى بيت جالا؟

فكّر الجد العجوز قليلاً ثم أخفض رأسه قائلاً: لم يعد أبداً إلى بيت جالا ولكن أتعلم لم تفارق بيت جالا أبداً قلبه.

وفي وقت متأخر من تلك الليلة، وبعد أن ذهب الأطفال جميعهم إلى الفراش خرج الجد العجوز ونظر إلى النجوم لوقت طويل.

ثم همس: يا إلهي ما أروعك.

(لنغني)

حدثت بعض الأحلام منذ ذلك الوقت

غناء، ورواية قصص ولكننا في أحد الأيام

سوف ننتصر. كانوا يلعبون ويبنون الغد الجديد.

من ركام اليوم، يبنون غداً جديداً من اليوم.

احلموا احلموا

فنحن خارجون من الظلام

دعونا نغمض أعيننا

ونحلم بضوء النهار

نحلم بغد جديد

ينهض من ردم اليوم

نحلم بأشياء نستطيع أن نفعلها

ونبني طريقاً أفضل

دعونا نحلم

مراجع :

Kniss, Sharon. 2002. Interview with John Paul Lederach (April 3). Harrisonburg, Va.
Maust, Amanda. 2002. Interview with John Paul Lederach (April 3). Harrisonburg, Va.

المخيلة الحيّة تجبر الجسد كله أن يطيعها

أرسطوطاليس





التعايش الخلّاق في إسبانيا المسلمة
نموذج للسلام الإيجابي

جوزيف. ف. مونتنيل وهايدي باولسون ويندر

من أجل معرفة التاريخ الإيجابي الذي تقاسمه المسلمون واليهود والمسيحيون في إسبانيا المسلمة وحوض المتوسط في العصور الوسطى، قام سبعة مؤرخين بالإسهام في كتاب يبين بالتفصيل كيف إنه خلال الفترة الممتدة من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر، استطاعت الشعوب المؤمنة بهذه الأديان الثلاثة أن تبني أعظم حضارة شهدتها منطقة أوروبا الواقعة شمال جبال البرينيه. ويوثق هذا الفصل كيف أن مشروع الكتاب كان في قلب الجهود المبذولة من قبل البرنامج الدبلوماسي الوقائي السابق لمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، من أجل مكافحة التشاؤم الإسرائيلي والفلسطيني عبر تركيز الاهتمام على التسامح والتعددية الموجودين في صلب تعاليم الديانتين الإسلامية واليهودية. ويهدف البرنامج إلى تقديم خارطة طريق لبناء تعايش خلّاق بين العرب والإسرائيليين، ومع وجود الكتاب كحجر زاوية، تقضي الخطة بشنّ حملة معلومات متعددة الأعلام والمستويات بين الإسرائيليين والفلسطينيين تمكنهم من الاعتماد على ماضيهم الإيجابي لإيجاد رؤية لتعاونهم في المستقبل.

*

مع استمرار تصاعد الصراع المدمر بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وتزايد اليأس بين الطرفين من قدرة أي منهما على الوصول إلى سلام حقيقي، خرجت معاهدة

أوسلو للسلام عن خطّها وأصبحت تشكل محكاً للتشاؤم، وأصبح كل طرف يتهم الطرف الآخر بالتسبب في تواصل العنف والفشل في إقامة السلام.

ويعتقد العديد من الناس على جانبي النزاع بأن المفاوضات مع الطرف الآخر لم تعد ممكنة وقد صعّب هذا الموقف أكثر وأكثر من إمكانية القيام بعملية سلمية جديدة وفعالة، كما أن الناس في العادة يصبحون أكثر خطراً عندما يشعرون أن العنف هو خيارهم الوحيد القابل للتطبيق. وفي اعتقادنا أن العلاقة الإسلامية اليهودية داخل إسرائيل وخارجها بالإضافة إلى توقعات الاستقرار في هذه العلاقة، تتطلب مبادرة رئيسية تتعامل مع هذا التشاؤم العميق الذي يسود داخل مجتمعات اليهود في إسرائيل من حيث عدم إمكانية بناء مجتمع يعيشون فيه مع المسلمين وبين الفلسطينيين ومن حيث إنهم لن يعاملوا أبداً باحترام وكرامة من قبل الإسرائيليين.

ويكمن السبب الرئيسي لعدم الثقة والخوف بين المسلمين واليهود، اللذين استبقا انهيار عملية أوسلو وزادا من تفاقم التشاؤم الحالي، في ما يمكن أن يسمى « ثغرة القيم » بين الحضارتين. هناك إحساس ملموس جداً بأن الجانبين لا يمكنهما أن يعيشا بسلام أو حتى أن يعملا بسلام جنباً إلى جنب، كما ورد في اتفاقيات أوسلو، لأنهما لا يتقاسمان أبداً أية قيم مشتركة. فالشعبان منفصلان نفسياً عبر منظورات لا تحمل أي منها ارتباطاً ذا معنى بالطرف الآخر فيما عدا تبادل الكراهية وعدم الثقة. وقد وصلت هذه الفكرة إلينا بتركيز مذهل مع تواصل ارتفاع حصيلة القتلى من الجانبين ومع تزايد تدمير المنازل وتفجير المدنيين وتعطل محادثات السلام حتى قبل أن تبدأ.

مثل هذه الحالة من عدم الثقة وجدت لنفسها قوالب عميقة الجذور، عبر سنين من العنف والتنافس النفسي على كون كل منهما ضحية. فالإسرائيليون حملوا معهم آثاراً عميقة خلفتها فترات متواصلة من معاداة السامية القاسية في أوروبا المسيحية. (تأسيس دولة إسرائيل كان نتيجة نهائية لذروة الإساءة التي سببتها معاداة السامية – الهولوكوست).

وعانى الفلسطينيين من جهتهم إذلالاً ومهانة نتيجة فقدان وطنهم والعيش تحت الاحتلال. ومع وجود مثل هذين التاريخين المحزنين، حاضرين في الذاكرة الجماعية للشعبين، يكافح الفلسطينيون والإسرائيليون بإحساس عميق من الخسارة وشعور بالظلم، واللذين لو اجتمعا معاً لشكلا مزيجاً ساماً، حسب وصف جوزيف مونتنيل، وهو أستاذ في النزاعات الاثنية في كتابته التالية:

«إن صنع التاريخ واستيعاب التغير التاريخي هو إحدى طرق وصف النزاع العرقي عبر الزمن... وتوجد هناك علاقة مباشرة بين تاريخ وأُفُق وتواصل العنف بين الأعراق - واستيعاب التاريخ - وبين صعوبة بناء السلام بين الفئات العرقية المنخرطة في النزاع. بكلمات أخرى، كلما ارتفع مستوى الشعور بكون الفئات التي تعاني من النزاع، ضحية له، ازدادت صعوبة حل النزاع. والوضع الأكثر صعوبة هنا، يظهر حين يشعر كل من الطرفين بأنه ضحية – أي بمعنى آخر، وجود تنافس حول من هو الضحية وأي من الطرفين قد عانى أكثر من الآخر».

والشرق الأوسط هو مكان يكافح مع حاضره، ولكنه مشلول بسبب تاريخه. فكل من الفلسطينيين والإسرائيليين خاض تجارب تسببت له بخسائر تاريخية، لدرجة دفعته (أي كل منهما) إلى التعامل مع النزاع على أساس عقلية الضحية. وفي اعتقادنا أنه يجب التعامل مع هذه التواريخ الأليمة قبل الولوج في عملية سلمية حقيقية.

ولكن الذاكرة السلبية يمكن محاربتها بالذاكرة الإيجابية. وتقضي مهمة تحليل النزاعات العرقية والطائفية في المواضع التاريخية والسياسية الحساسة أن نكتشف متى وقعت الضربات للكرامة الذاتية الجماعية لدى الشعوب المتورطة في النزاعات. وتعتمد الاستراتيجيات الموضوعة لتحويل علاقات النزاع، بشكل ملموس على إعادة الكرامة الذاتية والإحساس بالعدالة للفئات التي تشعر بأنها هي الضحية.

وغالباً ما ينسى الناس الغارقون في نزاع الشرق الأوسط، أو لا يعون أن المسلمين واليهود يملكون تاريخاً طويلاً خالياً من النزاعات. وفي الحقيقة يملك الاثنان

تاريخاً مشتركاً، إذ توجد فترات واسعة من التاريخ لم يقم أي منهما فيها بإيقاع الأذى بالآخر، كذلك أبدع الاثنان في إظهار تاريخهما الإيجابي – قصص عن التعاون العربي اليهودي، قصص عن كيفية الارتقاء بهذا التعاون نحو عصر ذهبي للمسلمين واليهود – ومن خلال هذا الإبداع يمكن للأطراف المنخرطة في النزاع أن تبدأ بتصور هذا التاريخ المشترك، وهو تصور ضروري وأساسي في عملية السلام.

ويترك توزيع مثل هذه المعلومات الإيجابية تأثيراً اجتماعياً قوياً في بعض الحالات. وهناك دليل تجريبي لدعم فعالية حملة إعلامية واسعة. ويؤكد دبليو. سي. آدمز على أن الأبحاث حول الاتصالات الجماهيرية القوية الإقناع تظهر أنها وفي معظم الحالات تعزز من الآراء الموجودة حالياً بدلاً من تغييرها، على الأخص عندما يتعلق السؤال بالمواقف الجماهيرية تجاه المجموعات أو الأمم المرغوبة وغير المرغوبة. إذ تعمل حينها العناصر الاجتماعية – من شبكات اجتماعية إلى أنظمة القيم والزعماء المتنفذين والعوامل النفسية – كالعائلة والأصدقاء والعصبيات العرقية – كعراقيل تقف في طريق تلقي المعلومات الجديدة والإيجابية. ولكن، هذه العراقيل أيضاً يمكن تذليلها إذا تم نقل المعلومات الطيبة المتناثرة عبر الإعلام ومن مصدر موثوق، أو تكرر ذكرها وتنويعها، أو تم نقلها عبر وسائل إعلام متعددة مع تعزيزها بالاتصالات الشخصية، وكذلك إذا جاءت على شكل متوازن يرضي حسابات الطرفين (آدامز 1987، ص ص 263-267).

ويوافق إفيرين. إم. روجرز أستاذ الاتصالات في جامعة نيومكسيكو، على أن قنوات الاتصال الجماهيري فعالة في إيجاد المعلومات حول الأفكار الجديدة، ولكنها أقل فعالية في إقناع الناس لتبنيها. فتغيير المواقف يعتمد على الاتصالات بين الأشخاص أو الشبكات الاجتماعية حيث يتقبل زعماء الرأي المحترمون ومن ثم الأصدقاء والأقران تلك المعلومات الجديدة على أنها صحيحة ومن ثم يقومون بتغيير مواقفهم. ويورد إفيريت روجرز نتائج تجريبية تدل على أن الفكرة المبدعة إذا تمكنت

من التسرب إلى 15-20٪ من السكان، فستتبع درجة من الانتقال لا يمكن بعدها إيقافها. (1998).

الفكــرة

إذن كيف يمكن للمرء أن يشن هجوماً معرفياً على الوعي الجماعي للفلسطينيين والإسرائيليين؟ كيف يمكن للمرء أن يسلط التركيز على التواريخ الإيجابية وذكريات التعايش السلمي والخلاّق؟

لعل من أكثر الحقبات الإيجابية في التاريخ الإسلامي، حقبة يحلو للمسلمين التحدث عنها بكل فخر، تمتد من القرن الثامن الميلادي وحتى القرن الخامس عشر، استطاع فيها المسلمون والمسيحيون واليهود الارتقاء إلى مستوى حضاري في إسبانيا، أثار حفيظة الأوروبيين وامتاز على حضارة بغداد والقسطنطينية في ذلك الزمان، بالمقارنة. ورغم وجود بعض النقاط السيئة، إلا أن هذا التاريخ يعتبر إيجابياً بالنسبة للناس على جميع جوانب النزاع الحالي في الشرط الأوسط. فإسبانيا المسلمة، والتي كانت تسمى في ذلك الوقت بالأندلس، لم تشهد حقبة من الإبداع الثقافي والمادي فحسب، بل شكلت حقبة عاش فيها المسلمون واليهود والمسيحيون في انسجام نسبي لا ظالم فيه ولا مظلوم. وهي حقبة جديرة بالدراسة اليوم، ليس فقط من أجل فنّها ومعمارها بل من أجل مبادئ التسامح والتعايش الخلاّق التي سادت فيها.

لقد قام برنامج السياسة الوقائية السابق والتابع لمركز الدراسات الدولية والاستراتيجية (CSIS) بتصميم مشروع يبحث في جذور ذلك التسامح وكيف يمكن تطبيقه على النزاع الحالي – الدائر بين المسلمين واليهود في الشرق الأوسط. وكان الهدف من هذا المشروع هو مواجهة اليأس الحالي الذي استشرى في العلاقات بين الفلسطينيين والإسرائيليين وبين المسلمين واليهود عبر تذكير هؤلاء الناس بوجود سابقة تاريخية في السلام والتسامح عبر تاريخهم، انطلقت منها إنجازات حضارية متميزة. مثل هذه المبادئ المتسامحة التي ازدهرت في عهد إسبانيا المسلمة ومنطقة حوض المتوسط

خلال العصور الوسطى يمكن إحياؤها اليوم. كما يمكن لشعوب الشرق الأوسط أن تستفيد من مراجعة ذلك التاريخ المبدع الذي تميزت به تلك الحقبة.

تميز الحكام المسلمون الذين حكموا إسبانيا خلال العصور الوسطى بتطبيق التسامح الذي أوصى به القرآن على اليهود والمسيحيين، وأوجدوا بذلك جواً من التعاون والرخاء الاقتصادي والإنجاز العلمي الذي لم يحفظ المعارف القديمة فحسب، بل أضاف إسهامات ملموسة على الفن والعلوم والطب والهندسة والفلسفة والأدب. وكما كتب المؤرخ تي. آي. بيري عن الأندلس: « لم يكن التعايش مبنياً على نموذج «الذوبان في القدر » ولكن على تبادل وجهات النظر المختلفة، وعلى حوار يمتد من العقائد المألوفة والمشتركة في الفلسفة الأخلاقية إلى المواجهات الدينية والمناظرات القوية ». ولم تكن هذه المحاولة الثقافية الغنية ذات أهمية تاريخية فحسب، بل كان لها أهمية متواصلة لدى الثقافة التعددية الحديثة في بحثها عن نماذج للتعايش (1987، 4)

ويبين العالم المسلم عبدالعزيز ساشيدينا، أن هذا التسامح هو في صلب القرآن والممارسة الإسلامية:

« تقدم الديانة الإسلامية نظاماً دينياً تردد صداه المعتقدات التعددية الحديثة التي تقول بأن الأديان الأخرى ليست تظاهرات دينية وضيعة، بل أشكال متنوعة من الردود الفردية والاجتماعية على وجود نوع من السموّ في الحياة الإنسانية. فكل البشر خلقوا ضمن الطبيعة الإلهية، ويحملون نزعة تؤدي إلى معرفة الخالق الذي يتوجب عليهم عبادته لكونه خلقهم. مثل هذه المعرفة العالمية للمخلوق تساوي بين المؤمن وغير المؤمن، المتعبد لله أو الوثني. والأكثر أهمية هنا هو أن كلاً من الموحِّد أو الوثني يمكنه تفهم أن الله من خلال إلهام البشر بالإيمان في تسامحه وعفوه، يمكنه أن يرشد من يشاء إلى درب الخلاص » . (2001، 14).

ويقول الباحث الأكاديمي فؤاد عجمي، من الشرق الأوسط، في مقالة حماسية واضحة يستعيد فيها الأحداث، التي وقعت في الألفية الأولى:

« في الأندلس، التي اشتهرت بساحاتها وبساتينها الحضارية الرائعة، وأسواقها الصاخبة، وعلومها الجريئة، التقى المسلمون واليهود معاً – بشكل متقطع ودائماً تحت الضغط – ليبنوا عالماً من التسامح النسبي والتنوير. ومع مرور الزمن دبّت الفوضى السياسية، واستشرى الانحلال في إسبانيا المسلمة، ولكن مع أفول نجم الألفية الأولى للميلاد، برزت في مدينة قرطبة إمبراطورية إسلامية تنافس خصيمتها في الشرق، والتي تمركزت سلطتها الإمبراطورية حول بغداد... وفي العقود السبعة أو الثمانية التي تلت صعود عبدالرحمن الثالث في أوائل القرن العاشر، أصبحت المدينة عاصمة ذات تعددية كبيرة. وتميزت بوجود ريف خصب حولها، و 700 جامع و 3000 حمام عام وشوارع مضاءة ومساكن فخمة على ضفاف نهر غوادل الكبير، بالإضافة إلى مكتبات لا تحصى. وتقول الأساطير أن مكتبة الخليفة كانت تحتوي على 400,000 كتاب » (1999، 45-50).

كذلك، كتب إيرنا باريس وهو كاتب آخر، عن تلك الحقبة:

ما كان يمكن للبيئة التي سادت الحكم العربي في إسبانيا في قرونها الأولى أن تُقارن بتلك التي سادت أوروبا المسيحية أو بلاد القوط الغربيين المتوحشين. فبينما كانت أوروبا غارقة في الجهل والخرافات، شجّع سكان إسبانيا المسلمة ازدهار الثقافة والعلوم، وبينما كانت الديانة المسيحية تشوه الإحساسات، كانت إسبانيا المسلمة تزخر بها... وكان التعليم العام من أولويات الحكومة، فقد بنى الخلفاء المتعاقبون المكتبات وفتحوا أبوابها للجميع. وفي الحقيقة، كان أحد الخلفاء الذين حكموا مدة عشر قرن ويدعى حكم الثاني مهووساً بالكتب لدرجة أنه أرسل جواسيسه إلى بغداد لشراء كل مخطوطة كانت قد صدرت.. وكان الشعراء اليهود في الأندلس متأثرين بشدة من زملائهم المسلمين ومنذ القرن العاشر حتى القرن الثاني عشر، خلال ما يسمى بالعصر الذهبي لليهود الإسبان، كتبوا هم أيضاً أشعاراً في منتهى الروعة.

يشكل هذا مخزوناً غنياً للأعمال الصادرة عن الأندلس، والمتعلقة بالتاريخ السياسي وبالعلاقات الإسلامية اليهودية المسيحية، وبالأدب والفن والعلوم والارتباطات الاقتصادية وحتى هندسة أنظمة المياه. وهناك العديد من المواضيع التي يمكن سبر غورها من أجل توثيق الإبداع التعاوني التي تم بين المسلمين واليهود خلال العصر

الذهبي. وعندما استعاد المسيحيون سيطرتهم على شمال الأندلس، تمكن العمل التعاوني والتسامح بين اليهود والإسبان العرب المسلمين من جعل مدينة Toledo مركزاً تاريخياً للترجمة ونقل الأعمال العلمية والفلسفة والأدب، مما أدى إلى إشعال شرارة النهضة في إيطاليا.

قد يجادل بعض الأشخاص بأن نموذج الأندلس لا علاقة له بالوضع الحالي في الشرق الأوسط وأن التعايش الذي شهدته الأندلس كان مبنياً على وجود أقليات مسيحية ويهودية تحت الحكم الإسلامي. وهؤلاء الأشخاص يجادلون، ولديهم الحق، بأن إسرائيل اليوم لن تتخلى أبداً عن سيادتها، ونحن نتفق معهم بأن إسرائيل لن ترضى الخضوع لأي حكم مسيحي أو مسلم. ولكن الأندلس تقدم قالباً للوضع الحالي مبنياً على مبادئ التسامح والتعاون والتعايش. على سبيل المثال: تعتبر إسرائيل دولة في حوض المتوسط ودولة شرق أوسطية كذلك؛ والدول التي تحيط بها هي دول عربية مثلها مثل الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية وكذلك 20٪ من مواطني إسرائيل. ضمن هذا السياق الثقافي والاجتماعي يمكن تصور أنه لو قام سكان إسرائيل المتمحورون حول الثقافة الأوروبية بإدراك واحترام ثقافة وتاريخ العالم العربي المحيط بهم، فقد تنبثق أسس جديدة للسلام السياسي. كذلك الأمر يستطيع العرب تعلم مبادئ التسامح التي مورست في إسبانيا المسلمة لكي يتمكنوا من قبول الدولة اليهودية بين ظهرانيهم.

المشـروع

يعتبر هذا المشروع الذي بدأته (CSIS) مقاربة فريدة، وعالية التجريبية نحو بناء السلام في الشرق الأوسط. ورغم أن القتال بين الفلسطينيين والإسرائيليين قد هيمن على وعي كلٍّ من الشعبين، إلا أن مدير المشروع جوزيف مونتفيل استطاع الحصول على دعم متواصل من الإسرائيليين والفلسطينيين خلال زيارته التي قام بها إلى المنطقة في أكتوبر 2001. ونصّت المبادئ والأفكار التي وافقوا عليها، على ما يلي:

من خلال وسائل الإعلام المتعددة، ومجموعة من الأحداث الثقافية والأكاديمية والبرامج التثقيفية، سوف تجري محاولة لإحياء ذكرى إسبانيا المسلمة وحوض المتوسط خلال العصور الوسطى من أجل التشاؤم الفلسطيني والإسرائيلي الحالي بمعلومات جديدة، أو ربما بشكل أدق، بهجوم معرفي على كلا الشعبين. والرسالة هي: أن العرب واليهود يمكنهم بناء مجتمع مشترك تماماً كذلك الذي بنوه في الأندلس وقدّموا خلاله أعظم حضارة شهدتها أوروبا الواقعة شمال جبال البيرينيه.

ومن خلال دعوة مجموعات عمل من الخبراء لتقييم مادة المصدر، نقوم بتطوير مجموعة من الموضوعات التي توضح الإبداع المميز للتعامل بين الأديان في تلك الحقبة. وقد نتج عن هذه النقاشات فريق من سبعة مؤرخين متميزين، كتب كل منهم فصلاً عن أساليب الحياة والممارسة اليومية للعيش في تلك الحقبة، بالنسبة لليهود والمسلمين والمسيحيين - كيف تفاعلوا مع بعضهم البعض، كيف تسامحوا وأحياناً كيف تقاتلوا مع بعضهم البعض. والكتاب الصادر عن هؤلاء المؤرخين، والذي استهلّ بمقدمة من مونتفيل، سيتم ترجمته إلى العربية والعبرية والفرنسية الإسبانية.

بعد ذلك سيقوم المشروع بشنّ حملة معلومات متعددة المستويات بين الفلسطينيين والإسرائيليين وسيتم تشكيل هذا الجزء من المشروع عبر الاستشارات مع علماء نفس متميزين حول أفضل الطرق لنقل وتوزيع المعلومات والتصورات عن إسبانيا المسلمة وحوض المتوسط في العصور الوسطى، وخاصة مصر، على المسلمين واليهود والمسيحيين في إسرائيل وفلسطين. كما سيتم تطوير نماذج وآليات لفحص فعالية الحملة بهدف جعل هذه التجربة الرائعة قابلة للتطبيق في نزاعات عرقية أخرى.

وسوف يقوم المشروع بتشجيع ودعم إنشاء مدرسة ابتدائية، وثانوية وكلية مناهج لتعليم هذه المعلومات التي أعيد إحياؤها. وسوف نسعى لجلب الصحفيين ومنتجي البرامج التثقيفية في الإذاعة والتلفزيون وغيرهم من المسؤولين في المؤسسات الثقافية. كما سنطلق رحلات تاريخية في الأندلس لطلاب المدارس الثانوية والجامعات

الإسرائيلية والعربية ونؤسس مشاريع بحث ودراسات جامعية مزدوجة بين الطلاب الإسرائيليين والفلسطينيين حول تلك الحقبة. كذلك سنقوم باكتشاف إمكانية إقامة معارض متواصلة للفن والعلم والثقافة في إسرائيل وفلسطين والأردن ومصر ولبنان، يمكن نقلها فيما بعد إلى دمشق وبغداد. هذا العمل سيتم بناءً على تحالف قائم حالياً بين مركز البحوث الأندلسية ومركز الحوار بين الحضارات في الرباط. وجميع هذه النشاطات ستسهم في تحقيق الهدف العام القاضي بإغناء مصداقية المجتمع الإسرائيلي والفلسطيني في سعيه نحو مواصلة العملية السلمية.

استخدام المعلومات

بدأ هذا المشروع في الحقيقة بكتاب آخر لا علاقة له بإسبانيا المسلمة. والكتاب يدعى الجذور الإسلامية للتعددية الديمقراطية، بقلم العالِم الديني عبدالعزيز ساشيدينا. وينظر إلى الكتاب على أنه نتاج مرافق لبرنامج السياسة الوقائية، وقد كتب للقارئ المسلم وغير المسلم على السواء. ويتعهد الكتاب بمهمة كبيرة هي تسليط الضوء على القيم الإنسانية العالمية الموجودة في صلب القرآن والتي تثبت الديمقراطية في كل موضع خاصة فيما يتعلق بالتسامح الديني. ويذهب التحليل في هذه الدراسة مسافة طويلة نحو جسر الفجوة في القيم بين الإسلام والغرب. ورغم أن كتاب الجذور الإسلامية للديمقراطية التعددية لا يتناول بكل خاص موضوع إسبانيا المسلمة، إلا أنه يرتبط بالمشروع لأنه يتناول القيم الدينية الإسلامية التي تفسِّر كيف استطاعت التعددية أن تزدهر في إسبانيا وحوض المتوسط في القرون الوسطى.

وتشمل فصول الكتاب المذكور والذي من المفترض أن يكون قد صدر عام 2004 دراسة عن التجار المسلمين واليهود في دول حوض المتوسط خلال العصور الوسطى، بقلم أوليفيا ريمي كونستابل من جامعة نوتردام. كذلك كتبت ديانا لوبل من جامعة بوسطن فصلاً عن تأثير الصوفية على الفلسفة في إسبانيا المسلمة. وكتبت كاثرين ميلر مؤرخة ستانفورد رواية عن التعاون بين الأطباء المسلمين واليهود وفي

الكتاب أيضاً فصل كتبه ريموند. ب. شيندلين من المعهد اللاهوتي اليهودي حول قصيدة « معركة الفوينتي » للشاعر صامويل النجيد. ويظهر في القصيدة مزيج من الأساليب الأدبية العبرية والعربية، إضافة إلى وصف للمرتبة العالية التي وصلها صامويل النجيد وهو يهودي عمل في محكمة غرناطة الإسلامية. وكتب ثوماس غليك من جامعة بوسطن عن التعاون اليهودي الإسلامي في الرياضيات والعلوم؛ كذلك كتب أحمد دلال من جامعة ستانفورد فصلاً عن المركز القانوني وحقوق اليهود في اليمن خلال العصور الوسطى. وأخيراً أضاف مارك كوهن من جامعة برنستون فصلاً عن التعايش بين اليهود والمسلمين في مصر.

وقد قام المشروع أيضاً بتأسيس شراكات قوية مع شعوب إسرائيل وفلسطين. وفي هذا المضمار تعهد سامي عدوان من دائرة الثقافة في جامعة بيت لحم ودان بار من دائرة العلوم المسلكية في جامعة بن غوريون في النقب، ويعملان في إدارة مشتركة لمعهد بحوث السلام في الشرق الأوسط (PRIME)، بدعم هذا المشروع من أجل إحياء ذكرى إسبانيا المسلمة في الشرق الأوسط.

إضافةً إلى ذلك، دعم المشروع إصدار كتاب « الجيل الصاعد » بقلم دان رابينوفيتش وخولة أبو بكر، ويقوم بتشجيع ترجمته في الولايات المتحدة من العبرية إلى الإنجليزية. والكتاب هو عبارة عن صورة اجتماعية إنسانية عن الجيل الشاب من المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل، كذلك يسرد الكتاب سيرة حياة مؤلفيه وهما يهودي ومسلمة من نفس العمر، ترعرعا بشكل منفصل في نفس المدينة « حيفا ».

ويعتمد هذا المشروع بشدة على أنظمة الاتصال الجماهيرية، التلفزيون والراديو والمسرح والأدب، وسيقوم بإدخال معلومات عن إسبانيا المسلمة ضمن المناهج المدرسية العربية والإسرائيلية. وأخيراً نأمل أن تصبح معرفة وتفهم مسألة التعايش الخلاّق بين العرب والإسرائيليين في إسبانيا المسلمة، جزءاً من الحكمة التقليدية في الشرق الأوسط. وعندما يدرك العرب واليهود وجود سابقة للتعايش المنسجم والقيم

الدينية والثقافية التي جعلت هذا التعايش ممكناً، فسوف يبدؤون بإدخال هذا الفهم في حياتهم الخاصة وتخيل إمكانية نشوء سلام حقيقي.

ونأمل أيضاً أن نساهم في بناء سلام دائم وقابل للحياة في الشرق الأوسط من خلال توفير رؤية لمستقبل إيجابي مبني على ماضٍ أصيل.

مراجع :

Adams, W C. 1987. "Mass media and public opinion about foreign affairs: A typology of news dynamics." *Political Communication and Persuasion 4,* pp. 263—267.

Ajami, Fouad. 1999. "An Iberian chemistry." *U.S. News and World Report* (August 16), pp. 44—50.

Montville, Joseph. 1990. *Conflict and Peacemaking in Multiethnic Societies.* Lexington, Mass.: Lexington Books.

Paris, Erna. 1995. *The End of Days: The Story of Tolerance, Tyranny and the Expulsion of Jews from Spain.* Amherst, N.Y.: Prometheus Books.

Perry, T. A. 1987. *The Moral Proverbs of Santob de Carrion: Jewish Wisdom in Christian Spain.* Princeton, N.J.: Princeton University Press.

Rogers, Everett M. 1988. "Diffusion of the Idea of Beyond War." In *Breakthrough: Emerging New Thinking.* Anatolii A. Gromyko and Martin M. Hellman, eds. New York: Walker.

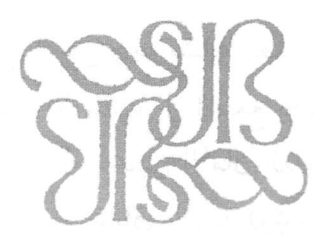
Sachedina, Abdulaziz. 2001. *The Islamic Roots of Democratic Pluralism.* New York: Oxford University Press.

الجزء الرابع

التحول الاجتماعي

لا يستطيع المرء أن يرمي الطفل مع مياه الاستحمام

مَثل إفريقي



الفصل الثامن

بناء السلام الوقائي في جمهورية غينيا

بناء السلام من خلال استثمار الإيجابيات

سام غبايدي دو

يتقدم هذا الفصل بنموذج جديد من بناء السلام – « بناء السلام الوقائي » ويحدد هذا النموذج القيم والآليات والعمليات التي تغذي وتديم السلام في المجتمع، إضافةً إلى تثبيتها وتعزيزها وتقويتها. كذلك يركز النموذج على قدرات المجتمع في مواصلة النزاع وتوليد السلام. وتؤكد قدرات مواصلة النزاع على الاستقرار النسبي أو السلام السلبي بينما تغذي عوامل توليد السلام، السلام الإيجابي وتحافظ عليه. وهنا نورد ذكر غينيا كوناكري كحالة دراسية تم فيها تطبيق السلام الوقائي. وقد تم تحديد عناصر توليد السلام في غينيا كوناكري على أنها: التاريخ، والتعايش والتلاحم بين الأعراق، والإمكانيات الاقتصادية، والدين بينما تم تعريف ثقافة الصمت على أنها القدرة على مواصلة النزاع.

*

ظهرت عدة تعريفات متناقضة لمعنى كلمة بناء السلام في العقدين الأخيرين. ويعتبر التقرير الذي رفعه السكرتير العام السابق للأمم المتحدة بطرس بطرس غالي بعنوان « جدول أعمال للسلام » نقطة تحول في هذا المضمار، إذ يضع التقرير مسألة بناء السلام في آخر دائرة النزاع (1992) ويصف الدبلوماسية الوقائية بأنها عملية

صنع السلام، وحفظ السلام وبناء السلام بعد انتهاء النزاع. وعلى وجه مشابه، يصف إيرني ريجير بناء السلام بأنه عملية فورية تعمل على فرض الاستقرار في المجتمع بعد أزمة عنيفة. ويختلف هذا التعريف عن السعي الطويل الأمد نحو تحقيق الأمان العام من خلال التركيز على تدابير طارئة قصيرة الأمد تؤخذ ضمن سياق الأزمة (ريجير 1995). من ناحية أخرى، يعرِّف جوناثان غودهاند وديفيد هولم بناء السلام على أنه تعزيز للتدابير المؤسسية والاقتصادية والاجتماعية على المستوى المحلي القومي من أجل معالجة الأسباب الكامنة وراء نشوب النزاع (1999). أما جون بول ليديراخ فيعرّف بناء السلام على أنه عملية شاملة، متكاملة متوافقة، يمكن من خلالها تحديد جذور النزاع وإدارة الأزمة وإقامة البنى التي تستطيع التخفيف من احتمال نشوب النزاعات وتكرارها، وتسهِّل انبثاق رؤية جديدة للمجتمعات ما بعد النزاع (1997).

إن هذا العالم الذي عاش تجربة أكثر النزاعات ترويعاً في العصر الحديث، لن يحتمل أبداً تكرار مثل هذا المستوى من العنف والموت. وقد قامت الأمم المتحدة اليوم بقيادة سكرتيرها العام كوفي عنان بوضع مسألة الوقاية من النزاعات ضمن أولوياتها القصوى، متعهدة بأن تعمل على نقل المجتمع الدولي من ثقافة رد الفعل إلى ثقافة الوقاية (عنان، 2002) وتعمل الحكومات والهيئات المتعددة الأطراف مثل الاتحاد الأوروبي والمؤسسات المالية التابعة لبريتون وودز على تشغيل وحدات وقاية من النزاعات وقد ظهر نشاطها الأولي في تقرير أعدّته حول المخاطر على المجتمعات. كما قامت مختلف المؤسسات بتوجيه نظرتها نحو رؤية العالم عبر عدسة النزاع الفردية. وتقوم مبادرات التنمية بتبني هذا التوجه. وتعتبر عبارة « تقييم تأثير النزاعات » اللغة المشتركة المستخدمة من قبل العاملين في التنمية اليوم. ويعالج هذا الموضوع كيفية تنفيذ مشاريع التنمية دون توليد، أو مفاقمة أو تعزيز استمرارية النزاعات.

ومع أني لا أجادل الادعاءات القائلة بأن بناء السلام يتضمن فيما يتضمنه تدخلاً في النزاعات، وكذلك لا أبخس من قيمة الجهود النبيلة والحديثة التي تبذلها

مؤسسات الأمم المتحدة وبريتون وودز لوَأْد النزاعات في مهدها قبل أن تستشري وتصبح مميتة، إلا أنه يبدو لي بأن ربط بناء السلام وسلامة الإنسانية استثنائياً بالنزاعات وما يترتب من تأثيرات لها هو أمر يحمل تقييداً رهيباً للعملية الرائعة التي تحيط بكل ما يتعلق بنوعية الحياة التي يعيشها الفرد الإنساني.

وبطريقة متواضعة، انطلقت لأجادل لصالح إيجاد بديل لهذه العدسة التي لا ترى في مداها إلا المشاكل والتي ينظر من خلالها زعماء العالم والعاملون في بناء السلام إلى العالم عن حسن نيّة. وأسمّي هذا البديل النموذجي: « بناء السلام الوقائي ». وأول من أدخل هذا التعريف Provention ، كان جون بيرتون الذي أراد فيه أن يصف ردّاً يستبق نشوب النزاع من خلال معالجة العوامل البنيوية والجهازية (1990). ويفترض جون بيرتون أن جذور النزاع موجودة في غياب الفرص أمام المرء لتلبية احتياجاته. أما أنا فأستخدم هذا النص بمعنى أن الوقاية تتضمن مزيجاً من النشاطات التي تستبق النزاع إضافةً إلى التدخل وهي عملية تدخل ضمن نشاط مستبق وليس ضمن حدود رد الفعل أي تدخل يستبق الحدث – كما أنها تشمل إشهار القيم والآليات والوسائل التي تغذي المجتمع السليم وتحافظ على استدامته. وهي بهذا تسحب التركيز بعيداً عمّا هو خطأ باتجاه ما هو صحيح، أي من العوامل المولّدة للنزاع إلى العوامل المولّدة للسلام. كما أنها عملية متواصلة في سياق بناء واستدامة المجتمع الإنساني. وتختلف هذه العملية عن التدخل التقليدي الذي يركز على المشكلة فهي ليست عملية إصلاح أضرار للمجتمعات التي دمرتها النزاعات فقط بل هي تبدأ بتحديد الخير في المجتمع ثم تبين أن المشاكل في أي مجتمع هي نتيجة لانحرافه عن قيمه ومؤسساته النوعية، أو نتيجة عدم تقدم مؤسساته بحيث أنها لم تعد تتجاوب مع الضروريات الحالية. ومن خلال البحث عما يولّد السلام في مجتمع ما، وكيف ترد مصادر توليد السلام على الأوضاع الحالية، يضع بناء السلام الوقائي نفسه بعيداً عن العمليات الأخرى.

وفي هذا الفصل، أسعى إلى إظهار كيف أن البداية الإيجابية التي تنطلق من تفهم أي وضع إنساني، تفتح النوافذ على الفرص والاحتمالات. كما أنها تبعث الأمل في

المجتمعات التي قد تستسلم دونها لقدرها، فقط لأن الآخرين قد نعتوها بالمجتمعات التعسة وغير القابلة للإصلاح. ولكي أجادل لصالح قضيتي، أقوم هنا باستخدام دراسة تجريبية أجرتها شبكة غرب إفريقيا لبناء السلام بالتعاون مع منتدى التحذير المبكر والرد المبكر. ومن خلال هذه الحالة الدراسية، أقدم بعض المقترحات من أجل بناء السلام الوقائي (أو بعض المقاربات الإيجابية لبناء السلام). وبناء السلام الوقائي ليس نشاطاً هامشياً أو مجرد جعجعة كلامية، إذ أنه يتطلب نقلة نموذجية ملموسة من التوجه نحو النزاع إلى التوجه نحو السلام، ومن المخاطرة إلى الفرصة، ومن الاستحالة إلى الممكن.

قضية غينيا كوناكري

في فبراير/ شباط عام 2000، قامت شبكة غرب إفريقيا لبناء السلام (WANEP) عبر منتدى الإنذار المبكر والرد المبكر (FEWER)، بتكليف من إحدى هيئات الأمم المتحدة (التي تفضل عدم ذكر اسمها) بإجراء دراسة تحذير مبكر حول غينيا كوناكري من أجل تنبيه المجتمع الدولي إلى المخاطر المحتملة لنشوب نزاع عنيف في تلك البلاد، وخاصة خلال مسيرتها نحو الانتخابات الرئاسية عام 2003. والتعريف الأساسي للإنذار المبكر هو أنه تجميع وتحليل للمعلومات بهدف تقديم خيارات استراتيجية لتحرك وقائي. وغالباً ما يوجه الإنذار المبكر نحو توقع النتائج المحتملة وليس نحو التنبؤ بها.

وقد تم تصميمه ليؤدي مهمة الإنذار من خلال تحديد الحالات الحرجة التي تحمل في طيّاتها احتمالات تصعيد النزاع بحيث يتم اتخاذ خطوات تحرك زمني يمكنها عكس هذا التوجه أو تخفيف تأثيره عبر التخطيط الطارئ (جونغمان وشميد، 1994).

ويفسّر الإنذار من قبل أصحاب النظريات على أنه تقييم التهديدات من أجل التقليل منها. وعلى نقيض أنظمة الإنذار التقليدية، يتوجه بناء السلام الوقائي بشكل أكثر إلى تقييم فرص السلام والتماسك الاجتماعي من أجل استخدامها كأسس للبناء. ولكن أكثر ما صعقنا خلال مناقشتنا لهذا العرض هو ما بدا لنا من غياب

الاهتمام بدوافع الاستقرار في غينيا كوناكري في مواجهة النزاعات العنيفة، لدى جميع الدول المجاورة؛ وتدفق اللاجئين إلى هذه البلاد منذ عقد من الزمن. كنا مقتنعين أنه من خلال تقييم قدرة غينيا على تحمل الضغوطات المجتمعة لهذه التنقلات الداخلية وللتدفق الجماعي للاجئين، بالإضافة إلى التهديدات الإقليمية، يمكن للعالم أن يتعلم من شعب هذه البلاد. لذلك وبدلاً من وضع تصاميم دراسة استراتيجية لتقييم المخاطر بناءً على طلب هيئة الأمم المتحدة، قمنا بدراسة استراتيجية لتقييم الفرص (دو وسويفون، 2000).

وكان الهدف من الدراسة هو تحليل إمكانية غينيا للاستقرار، وقدرتها على تحمل النزاع ومواجهة المحن وكنا نأمل أن تؤدي الدراسة إلى ما يلي:

1- دفع شعب غينيا إلى تطوير إدراكه للتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السريعة والجذرية التي تتطلبها ديمقراطيته الناهضة،

2- إيجاد جو من التعاون وتبادل المصالح بين الأطراف الحكومية وزعماء المجتمع المدني،

3- دعوة المجتمع الدولي لدعم غينيا في طريقها الشاق نحو التنمية الاقتصادية، والإدارة الجيدة للحكم والسلام المستدام.

كان السؤال الجوهري بالنسبة لنا هو: ما الذي يشكل أساس قدرة البلاد وشعبها على مواجهة التزايد المتسارع في الوهن الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي والعسكري؟

استغرقت الدراسة ستة أشهر، وتخللها عدد من الزيارات إلى البلاد واتصالات منتظمة مع العناصر الأساسية في حياة غينيا الاجتماعية والدينية والسياسية. وفي نهاية الدراسة قمنا بإعداد مؤتمر طاولة مستديرة استغرق يومين وحضرته شرائح من الغينيين وغيرهم من اللاعبين الدوليين في البلاد. وقد أعطى هذا المؤتمر فرصة للغينيين من أجل مناقشة نتائج بحثنا وتقديم الإيضاحات حيث احتاج الأمر. وقد قبل

وزير الداخلية، وهو المسؤول عن الأمن الداخلي، رغم عدم موافقته العلنية على بعض نواحي التقرير رسمياً بنتائج دراستنا وتحدى زملاءه بأن يتعلموا من دروسها.

يركز الإنذار التقليدي المبكر على السرية، ويميل الجزء الأكبر من معظم تقارير الإنذار المبكر إلى البقاء في دائرة الحظر والكتمان. ولكن التقييمات التي تجرى في ظل بناء السلام الوقائي لا تظهر علناً فحسب، بل تتم مناقشتها من قبل الأطراف المعنية الرئيسية والجهات التي يمكن أن تؤثر في التغيرات المرغوبة داخل المجتمع، ومن بين هذه الأطراف، الزعماء الدينيون والتقليديون والسياسيون، وكبار رجال الأعمال. كذلك تُستدعى الجهات الإعلامية من أجل بناء الوعي حول القضايا والموارد التي يتم تحديدها.

ولأسباب تتعلق بنا حالياً، سيقوم هذا الفصل بتسليط الضوء على النتائج الرئيسية ويستخلص العبر التي يمكن أن تسهم في التطوير النظري للمقاربات الإيجابية نحو بناء السلام.

السيـــاق

تقع غينيا كوناكري، وهي بلد صغير يبلغ عدد سكانه سبعة ملايين، على ساحل غرب إفريقيا المطل على المحيط الأطلسي، وتحدّها سيراليون وليبيريا وساحل العاج ومالي والسنغال وغينيا بيساو. وتعد عرقية الفُلاّح أو البويل، العرقية الأكبر في غينيا كوناكري والأقوى اقتصادياً، وتشكل نسبة 35٪ من السكان بينما تشكل عرقية السوسو 30٪ من السكان وعرقية المالينكي 25٪ . وهذه الأخيرة ينتشر أفرادها أيضاً في السنغال ومالي وبوركينا فاسو وساحل العاج وغامبيا وليبيريا. كذلك تعتبر غينيا كوناكري موئلاً لعدد من قبائل الغابات ومنهم الغويرزي أو الكبيللي، والمانون أو الكونو والكيسي.

في القرن الثالث عشر، سيطرت عرقية المالينكي على المنطقة، بما فيها غينيا العليا ومع حلول القرن الرابع عشر، تم احتواء غينيا بكاملها ضمن إمبراطورية مالي القوية. وفي عصرنا الحالي، شكّل عام 1958 نقطة تحول في كفاح غينيا من أجل الاستقلال

من الاستعمار الفرنسي، وجاء هذا التحوّل عندما حثّ قائد الاستقلال أحمد سيكوتوري على رفض الاستقلال الظاهري أو شبه الاستقلال الذي قدّمته فرنسا. ولدهشة المجتمع الدولي أذل الغينيون فرنسا عندما صوّتوا بكثافة بكلمة لا في الاستفتاء الذي أجرته حكومة الرئيس الفرنسي شارل ديغول. وأدى التحدي الذي أبداه سيكوتوري، رغم كل الضغوط التي وُجّهت ضدّه، إلى تقويض وجهة نظر فرنسا لإقامة مجتمع فرنكو - إفريقي وبرز أثرها سيكوتوري كشخصية عظيمة في تاريخ حركات الاستقلال الإفريقية. وقد تلخّص موقفه في كلماته التالية: إننا نفضل أن نعيش فقراء وأحرار على أن نعيش أغنياء في القيود. وفي عام 1958 استعدت إدارة ديغول الاستعمارية للرحيل فيما كان سيكوتوري يعلن استقلال ثاني مستعمرة إفريقية بعد غانا (التي نالت استقلالها من بريطانيا عام 1957 بالتفاوض).

إلا أن معركة غينيا لم تنتهِ بإعلان الاستقلال. فقد حاولت بعض القوى الغربية بمن فيها فرنسا أن تزعزع الوضع في غينيا. لكن الغزو الفاشل الذي شنّته قوات المرتزقة من البرتغاليين وغيرهم من الأجانب، والمدعوم زعماً من ألمانيا الغربية، عزّز صورة سيكوتوري كبطل إفريقي واجه بنجاح اعتداءات الإمبريالية والقوى المؤيدة للاستعمار في إفريقيا ما بعد الاستقلال.

ومن خلال تصويره الغرب كعدو لغينيا وصدّه للاعتداء البرتغالي، تمكّن سيكوتوري من نيل إعجاب الغينيين وحشد حماسهم الوطني وراءه.

ولكن حكم سيكو توري انتهى فجأة عام 1984، مع وفاته بسبب هبوط في القلب خلال زيارته للولايات المتحدة. وبعد ثلاثة أيام من دفنه، سيطرت القوات المسلحة الغينية على السلطة في انقلاب أبيض، ونصّبت رئيس الوزراء الذي كان يعمل كنائب للرئيس على الحكم. وقد وصف المجلس العسكري للإصلاح الوطني بقيادة الكولونيل لانسانا كونتي، حكم سيكو توري بالدكتاتورية الدموية الوحشية التي تميزت بانتشار الفساد، وأعلن راديو كوناكري أن القوات المسلحة قد استلمت السلطة من

أجل وضع الأسس لبناء ديمقراطية حقيقية ومن أجل منع ظهور أي ديكتاتورية فردية في المستقبل. وفي ذلك اليوم تم إطلاق سراح 1000 سجين سياسي. ومع ذلك فقد أشادت رسالة المجلس بإنجازات سيكوتوري ووصفته بالنصير العظيم للوحدة الإفريقية.

وفي عام 1985، وبعد ثلاثة أشهر من سيطرة الانقلابيين، أعلن المجلس العسكري اتخاذ عدة تدابير ثورية تهدف إلى إعادة إحياء الاقتصاد الغيني الذي أنهكته ست وعشرون سنة من العزلة. وبمساعدة صندوق النقد الدولي، تم إطلاق برنامج إصلاح بنيوي وبدأ الاقتصاد في الصعود، بناءً على تقارير صندوق النقد.

وفي عام 1991، وبعد ضغوطات وطنية ودولية كبيرة، وافقت الحكومة برئاسة كونتي على إعادة إنشاء نظام سياسي متعدد الأحزاب. وقد تنافس ثمانية مرشحين على مقعد الرئاسة في انتخابات عام 1993، بمن فيهم الكولونيل كونتي الذي كان رئيساً في ذلك الوقت. وقد شهدت فترة ما قبل الانتخابات توتراً، ووقعت عدة أعمال عنف بين أنصار الحكومة ومعارضيها. ربح كونتي الانتخابات في ظل ظروف مشبوهة بأغلبية ضئيلة فاقت قليلاً الخمسين بالمئة. كذلك اتسمت الانتخابات التشريعية عام 1995 بالتزوير والتلاعب بالأصوات والعنف، وشهد التوتر السياسي ذروته في التمرد العسكري الذي وقع في شباط عام 1996 عندما قامت مجموعة من ضباط الصف والجنود الساخطين على الوضع بالاحتجاج ضد رواتبهم غير الكافية وأوضاعهم المعيشية السيئة. وقد هدّأ كونتي مشاعر المتمردين بعد أن وافق على تحسين ظروف الجنود.

وفي عام 1998، امتحن الغينيون ديمقراطيتهم الفتية بانتخابات رئاسية ثابتة. وهنا أعاد التاريخ نفسه، إذ أعيد انتخاب كونتي بعد أن هزم أقرب متحديه ومنافسه السياسي الفاكوندي، الذي اعتُقل فيما بعد وأوقف بلا محاكمة لمدة خمسة عشر شهراً، ثم أدين بعد ذلك بتهمة التخطيط لغزو عسكري وأودع السجن لمدة خمس سنوات. بعد ذلك بعدة أشهر منح الرئيس كونتي عفواً خاصاً لكوندي.

وفي عام 2001، أصدر كونتي مرسوماً بإجراء استفتاء يسمح له بالرئاسة لفترة ثالثة. وقد شهدت العملية تلاعباً واضحاً ولكنه استطاع مع ذلك الفوز بفعلته. وكان الجميع يعتقد بأن الطبيعة السلمية للشعب الغيني إضافةً إلى تزايد التهديدات للأمن وخاصة من قبل حكومة ليبيريا، والدعم الدولي الذي تلقاه نظام كونتي بصفته حليفاً رئيسياً في حوض نهر مانو، أعطى الرئيس يداً مطلقة لانتهاك القوانين الديمقراطية والدستورية دون عقاب أو محاسبة.

الظروف التي تدعم الاستقرار في غينيا

حددت الدراسة التي قامت بها (WANEP) خمسة ظروف بارزة تشكل قوىً للدفع نحو السلام والاستقرار في غينيا. وهذه الظروف هي التاريخ والتعايش بين الأعراق والتماسك، والدين، والنمو الاقتصادي، وثقافة الصمت. وقد أظهرنا بأن غينيا تشكل بالنسبة للمجتمع الدولي مناسبة لبناء السلام بشكل إيجابي من خلال التعلم من الدروس التي تنبع من هذه الظروف والتعامل معها. ولكن ثقافة الصمت التي تنتشر في المجتمع الغيني تعتبر ظرفاً متساهلاً يثبّت السلام السلبي أي غياب العنف. ففي عالم يتجه بشكل أكبر نحو العولمة وتثبيت الحقوق، يعتبر الاستسلام لثقافة الصمت أو الخضوع للمسالمة أمراً غير مبرر من الأساس ضمن سياق المفهوم المعاصر للعدالة والحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية.

التاريـخ

تستمر الترتيبات السياسية والاجتماعية التقليدية التي ظهرت في عهد غينيا المستعمرة في تشكيل المجتمع الغيني الحديث. فما زال زعماء مرحلة مقاومة الاستعمار مثل، ديانا ساليفو، وألفا يحيا، وألمامي ساموري توري الإمبراطور الأسطوري لقبائل الواسولو، والذي قاد الفُلاح والمالينكي إلى مقاومة الهيمنة الاستعمارية، ينادى بهم كأبطال قوميين بلا منازع، على الرغم من أن المستعمرين الفرنسيين سحقوا التمرد الذي قامت به المالينكي بقيادة المامي ساموري توري عام 1898 وقبضوا عليه. وبذلك

غُرست بذور العداء والتنافر بين فرنسا وغينيا. واتسعت هذه الهوّة مع بروز أحمد سيكوتوري، وهو قريب للإمبراطور السابق. ورغم أن الحكومة الغينية الحالية تعتبر مرؤوسة من قبل قبيلة السوسو، إلا أنها أقامت نصباً تكريمياً لإمبراطور المالينكي الأسطوري ورعت عام 1999 مؤتمراً دولياً في الغابون تكريماً له أيضاً.

تنوء معظم الدول الإفريقية ما بعد الاستقلال بحمل الماضي. فقد أدت الصدامات الدموية بين الأعراق، ومحاباة المستعمرين لعرق دون الآخر، والتفسيرات المتناقضة للأحداث التاريخية والتلاعب في الحقائق التاريخية من قبل السياسيين الديماغوجيين، إلى إحداث تجزئة اجتماعية وسياسية واقتصادية في الحاضر.

يستخلص روبرت شرايتر بأن المجتمعات والأفراد هم البُنى التي تقوم عليها الذاكرة والتاريخ، وأي تسفيه لها أو تقليل من قيمتها أو تجاهلها يؤدي إلى تسفيه وتجاهل الهوية الإنسانية (1992، 19). وضمن هذا السياق، فإن أي تسفيه أو تجاهل للهوية الإنسانية يؤدي إلى تسفيه وتجاهل هوية مجتمع بأكمله أو فئة بأكملها. والمعالجة أو رأب الصدع في التاريخ يعتبران أمراً مؤلماً، تفضل معظم الأمم تجنبه، أملاً في أنه سيزول إذا ما أدارت ظهرها للماضي. وقليلة هي الأمم التي انتهجت نهج جنوب أفريقيا في الوصول إلى الحقيقة المرّة التي تقول بأنه لا يمكن بناء مجتمع جديد في الحاضر ولا حتى تقدير المستقبل دون أن يتم ترميم الماضي. وقد بقي الماضي يشكل حقيقة مؤلمة وممزِّقة في معظم المجتمعات الإفريقية (بوتمان وبيترسون 1996).

وقد حدد فامييك فولكان تفسيرين موضوعيين متطرفين للماضي هما « المجد المختار » و « المعاناة المختارة » – شكل كل منهما مصدراً فعالاً لبناء هوية الفرد والمجموعة (1988). وجاءت هذه التفسيرات المغلفة بالأساطير لتحدد الطرق التي ينظر فيها الأفراد ومجتمعهم إلى أنفسهم وإلى العالم حولهم وبينما يعتبر كل من هذين التفسيرين تفسيراً نفسياً ومبنياً على الإدراك الحسي، فإن أحد التفسيرين وهو المجد المختار يوّلد تقديراً مفرطاً للذات بالإضافة إلى قدرة معززة على مواجهة المستقبل.

أما التفسير الآخر – المعاناة المختارة – فيولّد الخوف والكراهية والتقليل من تقدير الذات بالإضافة إلى رغبة دائمة في الانتقام. وتعتمد الأمّة في سلامها واستقرارها على مدى قرب الآخرين المبعدين وعلى مستوى الوعي لدى العرّافين فيما يتعلق بتاريخهما.

وتقف غينيا على الجهة المحظوظة، فالتاريخ يقف في صالحها، كما أن موقعها هو في قلب إمبراطورية المالي العظيمة التي تعتبر مهد الحضارة في إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء. ويجمع الغينيون على تفسير الأحداث التاريخية التي تصفهم فقط على شكل منتصرين وغينيا اليوم لا تزال تملك صناعات إنسانية قديمة كانت تشكل في السابق رموزاً لإمبراطورية الماليان. وقد شكل انتصار إمبراطور الواسولو إمبراطور أمة الماليان على فرنسا، والذي أتّمه ابن أخته أحمد سيكوتوري قوة موحّدة لغينيا.

كما أوجدت السنين الطويلة من التصدي للتهديدات الخارجية، شعباً يتطلع أكثر إلى الداخل إذ تسببت هذه التهديدات بتعزيز تماسكه الداخلي. ولعل أفضل ما يمكن أن يحصل مع أي حكومة غينية هو أن يقوم عدو خارجي بمهاجمة البلاد. ففي سبتمبر عام 2000، على سبيل المثال، ورغم الأجواء السياسية المشحونة التي كانت تعصف بغينيا من الداخل، إلا أن تمرداً تدعمه ليبيريا وجبهة سيراليون الثورية المتحدة، كما زعم آنذاك، أدى إلى تخفيف التوترفورا وتوحيد البلاد ضد التوغل العسكري. إذ نفض الضباط الغينيون المتقاعدون منذ أيام سيكوتوري الغبار عن ثيابهم العسكرية وأسلحتهم وهبّوا للدفاع عن وطنهم الأم. كما تولى الطلاب والشباب أعمال الحراسة ليؤمنوا الدفاع عن قراهم وبلداتهم. وعلى عكس ليبيريا وسيراليون اللتين شهدتا خلال الحروب الأهلية التي عصفت بهما من الداخل، تفتتاً سريعاً لجيشهما الوطني، مع تواطؤ أجزاء كبيرة من الجيش مع المتمردين. كما شهدتا قيام رجال الأعمال والسياسيين فيهما بعقد صفقات مربحة مع المتمردين أيضاً، لم يحصل مثل ذلك في غينيا أبداً، بل على العكس من ذلك، بادرت طبقة رجال الأعمال

في غينيا إلى إنشاء صندوق لدعم المجهود الحربي، وأخذت فرق السلام الموسيقية بقيادة مغني أغاني التمجيد التقليدية بغناء الأغاني الوطنية القديمة من عهود سوفياتا وسامورو وسيكوتوري. بدا وكأن الأمة الغينية كلها تعيش حالة من النشوة مكّنت الحكومة الغينية من دحر المعتدين إلى خارج أراضيها في أقل من شهر.

وعلى المائدة المستديرة التي جرت حولها المناقشات حول نتائج هذه الدراسة، انسجم عدد من المشاركين في حالة من التوق للعودة إلى الماضي وقال أحد الوزراء السابقين في هذا الصدد: إن الوطنية التي كانت تمارس في الماضي لم تعد تمارس اليوم، « فالجيل الشاب أضاع ماضينا، ولم يعد حتى الكبار يظهرون حماسهم في أماكن عملهم ». وأبدى آخر أسفه قائلاً: إن الإرث الذي خلّفه سيكوتوري في التضحية الثورية آخذٌ في الاختفاء بسرعة. فقد كان جنود سيكوتوري وشرطته مدرّبين على الحسّ الوطني ومشبعين منه وكانوا دائماً على استعداد للدفاع عن بلدهم.

وباستلهامهم أفكاراً من الماضي، اقترح المجتمعون حول الطاولة المستديرة وبشكل عفوي تشكيل « لجنة تجديد وطنية » يتم التركيز فيها على الفرص الإيجابية المتاحة « من أجل حفظ موجودات غينيا وزيادة فرصها ومكاسبها ». كما كان على اللجنة أن تركز بشكل أساسي على حل مشاكل غير سياسية ومنتقاة كالصحة والفقر وتوليد الثروة، ومن ثم وبعد أن تلقى قبولاً في البلاد، يصبح بإمكانها تشجيع إقامة حوار عام حول المشاكل السياسية المتعلقة بالوطن.

يملك التاريخ إمكانية لتوليد المشاعر الإيجابية والسلبية، والمفرّقة والموحدة داخل أي مجتمع. كما يملك قدرة تراكمية يمكن للأحداث الحالية أن تستلهم الأفكار من خلالها. مثل هذا الإلهام يمكن أن يولّد إذعاناً وإيماناً بحتمية بقاء الوضع الراهن أو يمكن أن يقدم الأسس للكفاح من أجل التغيير عندما تتوفر الإمكانيات والبدائل.

وتبقى المكتسبات التاريخية، في الحالة الغينية، هي المثال بالنسبة للجيل الأقدم، فيما يدير جيل الشباب ظهره إلى ماضي بلاده الغني. ولسوف يعتمد بقاء الأمة على

الجهود الجديّة المبذولة لترجمة المكتسبات التاريخية من المثالية إلى الواقعية. فمحبة غينيا يجب أن تُلمس عبر طرق يظهر فيها الناس اهتمامهم بالصالح العام، وعبر كيفية تصرف موظفي الخدمات المدنية في أماكن العمل، وكيفية توزيع الحكومة للثروة، والتعاون الحذر للغينيين مع مصالح الشركات الأجنبية التي تستغل الدول الإفريقية الأخرى من خلال حكومات هذه الدول ومواطنيها. فالوطنية تظهر في الأعمال البناءة عندما لا يكون هناك عدو أو تهديد خارجي.

وبدون ذرّة شك، تقف غينيا لتصبح دولة عظيمة في حوض نهر مانو الواقع في إفريقيا الغربية، إذا ما تم استثمار إنجازاتها التاريخية بشكل ذكي. وتبدو هذه المهمة أسهل في غينيا منها في دول إفريقية أخرى حيث الحاجة تدعو إلى رأب الصدع والمصالحة وإعادة كتابة التاريخ قبل البدء بتعليم الشباب. ويتوجب على المجتمع الدولي وخاصة منظمة اليونسكو أن تساعد غينيا على دعم تاريخها. لأن كل مجتمع في غينيا يمتلك موارد غنية يمكنه من خلالها أن يعيد بناء تماسكه الاجتماعي واحترامه لنفسه. ويتطلب الأمر القيام بثورة داخلية، خاصة في المدارس، وإعادة إحياء تلك القصص وتلك المصادر أمام الأجيال الشابة.

توجد مجموعة أخرى بحاجة للدعم من أجل إعادة إحياء تراث غينيا الحيوي، وهذه المجموعة هي مجموعة منشدي أغاني المديح الذين كانوا سابقاً يحفظون القصص التاريخية ويروونها. فكل مجتمع يمتلك قصة محاكة ضمن الأشعار والأمثلة والحكايات، تروى بطريقة جميلة من خلال موسيقى المنشدين. ويشكل هؤلاء جزءاً لا يمكن فصله عن العديد من المجتمعات في غرب إفريقيا. ولكن أدوارهم وقيمهم الغنية تقلصت الآن إلى مجرد الغناء ومدح الأغنياء. ولعله بقليل من الدعم (التدريب، التمويل، وتقديم المعدات)، يستطيع هؤلاء المنشدون أن يعيدوا إحياء ذكريات ميتة وغرس حياة جديدة داخل المجتمعات.

كما تشكل وسائل الإعلام مجالاً آخر لدعم هذا التجديد الحيوي للتاريخ. إذ يمكن إعادة توحيد الأحداث التاريخية وإطلاقها على المسرح أو على الراديو

والتلفزيون. كما أن الوسائل الإعلامية الوطنية تركزّ الآن على تشجيع الموسيقى المحلية والمسرح المحلي، الأمر الذي يجب أن يعطى تشجيعاً أكبر.

التعايش بين الأعراق

يعتبر التماسك الاجتماعي بين الأعراق مصدراً آخر للقوة يتوجب الحفاظ عليه وتقويته. فغينيا هي واحدة من البلدان الإفريقية القليلة التي تمكّنت من إبقاء النزاع العرقي في أدنى مستوياته. وقد بيّنت أبحاثنا عدداً من العوامل المتعلقة بهذا التعايش السلمي. العامل الأول هو أن غينيا أمة موحدة بتاريخ قوي وقف فيه سكانها في وجه عدو خارجي مشترك. فمنذ عهد ديانا ساليفو وحتى عهد ألمامي ساموري توري، احتشد الغينيون للعمل معاً في سبيل إنقاذ أمتهم من الغزاة. والعامل الثاني هو عدم وجود أية قيود أمام اختيار الفرد لشريك أو شريكة حياته. فالزواج بين الأعراق أمر يشجعه الغينيون حتى بين الفئات الكبرى كالسوسو والمالينكي والفُلاَّح، والمجتمعات ترتبط ببعضها البعض، حتى بين القبائل الصغيرة من خلال التزاوج. أما العامل الثالث والأكثر بروزاً فهو العلاقة الاجتماعية. فالمجتمع الغيني متماسك اجتماعياً. بقي أن تنتشر مبادئ التفكير الحر والحريات الفردية التي تميز المجتمعات الغربية في غينيا، إذ أن السيطرة التي يتحكم فيها المجتمع بأفراده سواء كانوا متعلمين أم غير متعلمين، ما زالت قوية في غينيا.

معظم الغينيين الذين تحادثنا معهم لم يستطيعوا تصور استبدال أمن مجتمعهم وسلامته بحريتهم الفردية، فالقيم المجتمعية والتماسك الاجتماعي تعلو قدراً على الاحتياجات الفردية. ويتحمل الأفراد العاملون والمتعلمون في المجتمعات مسؤولية كاملة عن الأفراد العاطلين عن العمل أو غير المتعلمين. « لدرجة أن الخيار المتاح فيمن تدعمه أو تساعده في المدرسة لا يتحدد من قبل الفرد الذي يدفع الفاتورة فقط. بل من قبل العائلة والمجتمع ». ويشير أحد الذين أجابوا عن أسئلتنا بهذا الصدد قائلاً: هذا هو نظامنا في الضمان الاجتماعي – فكل مجتمع مسؤول عن نفسه.

وبالطبع، لا تخلو بعض هذه المصادر الاجتماعية للقوة من التجاوزات، ولكن تلك التجاوزات لا تبرر استبدال القيم الثقافية الاجتماعية والنظام الذي يسير عليه الناس من قبل أي فئة أخرى. بل يجب أن تتم معالجتها باستمرار من أجل رفع فعالية النظام. وقد شدد المجتمعون حول الطاولة المستديرة على حل المشاكل المتعلقة بمحاباة الأقارب في التوظيف والخضوع لالتزامات الفرد المتشددة أمام الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها في التعيين والتوظيف على حساب الجدارة والكفاءة. فعندما يكون هناك شاغر وظيفي في إحدى المؤسسات، لا يجد الغينيون أي حرج في تفضيل البحث بين أفراد جماعتهم لتعبئة الشاغر قبل أن يتوجهوا للبحث خارج تلك الجماعة. ويجد أصحاب المشاريع الريادية الخاصة من الغينيين صعوبة في التقدم بعملهم بسبب مسؤولياتهم تجاه مجتمعاتهم « فالتاجر يوظف أقاربه فقط، سواء كانوا مؤهلين أم غير مؤهلين، ويكون مسؤولاً عن معيشتهم ». كما يقول أحد الذين سألناهم، ويضيف آخر: « إن المسؤولية تجاه المجتمع تسبق الربح في معظم الأحيان ».

إن قيامنا بإدخال موضوع التماسك بين الأعراق في بحثنا هذا، لا يهدف إلى إظهاره كميزة تنفرد بها غينيا، ولكن لإبراز حقيقة أن هذا التماسك في غينيا لم يتعرض بعد للتدمير والتشويه من قبل السياسيين المتلاعبين بشؤون الأمة أو من قبل استراتيجية « فرّق تسد » التي تزدهر في أنحاء أخرى من إفريقيا. فغينيا لا تملك تاريخاً من العداوات السياسية التي تحركها العصبيات العرقية. ورغم كون مجموعته العرقية المالينكي قد نعمت بمعاملة متميزة من قبل الحكومة، إلا أن سيكو توري، الرئيس المؤسس والأطول مدة في الحكم، وسّع أفضاله لتشمل جميع الأعراق الأخرى، ولم يقم بمعاقبة الذين شكلوا تهديداً لحكمه على أسس تتعلق بالعرقية بل على أسس تتعلق بهم شخصياً.

يوجد من المشردين في بعض أغنى مدن العالم أكثر مما يوجد في كوناكري. فقد كان مستحيلاً تقريباً أن تجد فيها من ينام في الشارع. وهذا الأمر يمكن تفسيره من

خلال نظام الضمان الاجتماعي في غينيا حيث تقوم كل عائلة، وكل مجتمع برعاية أفرادها أو أفراده. ويقاس نجاح كل عائلة وشرفها من خلال نجاح أفرادها وشخصيتهم ومستقبلهم. ولكن هذا النظام التقليدي القوي تعرض للتقويض من قبل الرأسمالية التي تسود فيها قيم ودوافع تحقيق الربح فقط. إذ أن الضغوطات الخارجية التي مورست على غينيا من قبل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والشركات المتعددة الجنسيات وغيرها من استثمارات السوق، أخذت تدفعها لإجراء التعديلات والخصخصات والتغييرات في بنية اقتصادها. ومن أجل أن تسدد ديونها الحالية للدول الغنية. فإن غينيا قد تضطر في الحقيقة إلى الخضوع لرأسمالية السوق وإدارة ظهرها للاهتمام والرعاية بنظام القيم الإنساني المتحضر. وإذا ما حدث هذا، فلن تستطيع بنيتها الاقتصادية التحتية أن تستوعب الذين سيتخلفون عن هذا الركب مما يسهِّل تحولهم إلى السرقة والدعارة والسطو المسلح.. الخ، من أجل أن يتمكنوا من العيش ضمن النظام الجديد. وقد بدأت مثل هذه الشرور بالظهور حالياً في كوناكري.

وعلى الرغم من وجود مستوىً عالٍ من التعايش بين الأعراق في غينيا، إلا أن مثل هذا الوجود لم يستطع حتى الآن إنتاج تماسك وطني. فقد ظل الغينيون حتى لحظة مواجهتهم للتهديد الخارجي يعتبرون البهيل كدرجة أولى ثم المالينكي ثم السوسو ثم الكيسي ثم الكونو.. ويظهر هذا جليّاً في الولاءات الحزبية السياسية القائمة على العرق. وقد تسبب السياسيون الذين عملوا على تسييس النزاعات العرقية بأحداث عنف عرقية إذا قاموا باستغلال الفروقات والخوف لتحقيق مكاسب سياسية. وطالما بقيت السياسة تقاد من قبل الأحزاب القائمة على العرق في غينيا، يبقى هناك احتمال لتقويض وتفتيت هذا المستوى الرفيع من التعايش العرقي والذي يشكل اليوم مصدراً مهماً للاستقرار.

ولعل تصورنا لأن تتحول الدول الإفريقية إلى مجتمعات رأسمالية بحتة، يعني أن نتجاهل حقائقها الثقافية والاجتماعية. ومثل هذا التجاهل الوقح للقيم التي تملكها

إفريقيا من ناحية الاهتمام بالضعيف والمحتاج يعني تجريد القارة من هويتها ومن المصدر الرئيسي لاستقرارها. فالشعب الذي لا هوية له يسهل التلاعب به كما يسهل انزلاقه إلى الفوضى. وتشكل دول مثل ليبيريا وسيراليون والصومال وأنغولا وجمهورية الكونغو الديمقراطية، من بين دول أخرى عديدة، محصلة نموذجية لأزمات الهوية وغياب المؤسسات، تسببت في ظهور السخط واليأس والإحباط وبالتالي الفوضى. حتى الآن لم تبرز مثل هذه الظواهر في غينيا بعد ولكن التوجهات السياسية والاقتصادية المالية تظهر أن استقرار غينيا وتماسكها مهددان بالخطر، وأن هناك حاجة ملحّة لإطلاق نظام فعّال وشامل وموّجه نحو المجتمع.

الديــن

يعتبر الدين أحد أهم العوامل المسؤولة عن الاستقرار الاجتماعي في غينيا الحالية. وكان التجار المسلمون القادمون من المغرب والجزائر قد أدخلوا الديانة الإسلامية إلى غرب إفريقيا في العام 900 بعد الميلاد تقريباً، وتقبل حكام غرب إفريقيا الذين حكموا إمبراطوريات مالي وسونغاي هذا الدين بسهولة، واستطاع هؤلاء القادة من خلال الدمج بمهارة بين مناحي الإسلام والتقاليد أن يجعلوا هذا الدين الجديد مقبولاً لدى شعوبهم، بحيث أصبح الإسلام الدين المهيمن في غرب إفريقيا المعاصرة.

ويدين 80٪ من الغينيين بالإسلام، وعلى النقيض من الدول الإفريقية الأخرى التي شهدت تصاعداً في الحركات الإسلامية المتشددة وما تلاها من أحداث عنف، ظهر الإسلام كعنصر يدعم الاستقرار في غينيا، على الأقل حتى الآن. ولعب الأئمة المتنفذون في العصبة الوطنية الإسلامية دور الوسطاء في النزاعات العائلية والمجتمعية. كما أبقت العصبة عيناً ساهرة وحذرة على الحركات المتشددة ووقفت ضد فرض قانون الشريعة الذي هدّد التماسك الاجتماعي والمؤسسات الحكومية في كل من الجزائر والسودان ومصر وحالياً في نيجيريا. ولم تظهر في غينيا حتى الآن أية حركات متشددة مما يعكس حقيقة أن التطرف لا يأتي من الدين بل يأتي من كافة أشكال

الحرمان التي تدفع الأفراد والمجتمعات إلى إعادة صياغة أفكارهم ومعتقداتهم لاستلهام الطاقة والقوة في صراعهم ضد الأنظمة والحكومات القمعية.

ووفقاً لما يقوله الحاج مامادو ساليو سيلا، الأمين العام للعصبة الإسلامية الوطنية، فإن الإسلام يعني السلام. كما أن منظمته تستخدم المساجد وأوقات الصلاة لدفع الغينيين نحو المزيد من التحسس لقيم السلام وللعيش بانسجام مع غير المسلمين، وخاصة المسيحيون منهم. ووفقاً لما يقوله أحد الناس الذين قابلناهم، فإن العصبة تقوم في كل يوم جمعة من آخر الشهر بتنظيم اجتماعات للصلاة على الحدود مع الدول التي تعاني من الحرب الأهلية. وتشهد هذه الاجتماعات الشهرية حشوداً ضخمة، تتولى الصلاة من أجل السلام في غينيا ومن أجل تنبيه الناس إلى العواقب الوخيمة التي تتسبب فيها الحروب. وغالباً ما يُشاهد المسؤولون الحكوميون وأحياناً رئيس البلاد، على شاشات التلفزيون وهم يؤدون الصلوات مع الناس على الحدود.

إضافةً لذلك، لا تمنع العصب الوطنية الإسلامية الزواج بين المسلمين والمسيحيين، وقد ساعد هذا على تعزيز التعايش السلمي بين الأديان. ويلعب الإسلام دوراً مؤثراً في الحياة السياسية للبلاد أيضاً. فالزعماء السياسيون الذين يسعون إلى السلطة على المستويات المحلية والإقليمية والوطنية، يخضعون لشروط المؤسسة الدينية أو يُطلب منهم الحصول على بركة العصبة الإسلامية الوطنية. كما يقوم الزعماء السياسيون باستشارة المؤسسة الدينية حول عملية اتخاذ أي قرار رئيسي في البلاد. وفي عالم يتزايد فيه ربط الإسلام بمرتكبي الإرهاب، تكتسب دعوات الأئمة إلى السلام أهمية جديرة بالملاحظة. إذ يمكن اعتبار غينيا دولة نموذجية يتعايش فيها المسلمون والمسيحيون بسلام، ويمكن تعميم تجربتها على دول أخرى لا يستطيع فيها أولاد إبراهيم أن يعيشوا بسلام مع بعضهم البعض.

وعلى النقيض من ذلك، أشار بعض المجتمعين حول المائدة المستديرة أن حكومة سيكوتوري وحكومة كونتي حالياً قد استغلتا هذا الرصيد الديني من أجل منفعتهما

الشخصية. ومن وجهة النظر هذه، يكون الإسلام قد استخدم كمخدر لإبقاء الشعب غارقاً في جنّته الروحية فيما الحكومات تستغل حقوقه الأساسية. ومن المألوف جداً أن تسمع خلال خطب الجمعة في الصلاة رسائل مثل « تقبُّل مشيئة الخالق، والمحبة لسائر بني البشر، وتقبل أن ولي الأمر قد عُيِّن من قبل الله وأنه يبقى ولي الأمر مهما فعل... إذ أن الأئمة لا يقبضون أي أجر ويعتمد العديد منهم على ما يجود به الزعماء السياسيون عليهم لإعالة أنفسهم. وبالتالي تجد لدى بعضهم ميلاً للتغاضي عن الممارسات الفاسدة، وكما وصفها أحد الذين قابلناهم: « هناك اتجاه لإضفاء نوع من الأخلاقية على الجرائم في غينيا ».

في نقطة تعد نوعاً ما نقطة تحوّل، سيتمكن الدين، وخاصة الإسلام من تعزيز تأثيره الإيجابي على المجتمع الغيني إذا عمل مستقلاً وبعيداً عن تأثير الحكومات. ولا يعني هذا الأمر الفصل بين الدين والدولة وهو أمر يرفضه الإسلام، ولكنه يعني بدلاً من ذلك ضمان أن يلعب كل طرف دوره الخاص به في مساندة الدولة، كأن يبذل الأئمة ما يستطيعون من جهد ضد إغراءات دعمهم من قبل رجال الحكومة مقابل الصلاة لهؤلاء، وهي ممارسة تنتشر في البلاد حالياً، فما أسرع ما أخذت صيحات النبوة والأخلاق بالتآكل في غينيا اليوم تاركةً المجال للتراخي الأخلاقي بالحلول محل القيم النبوية. وقد يتطلب الأمر تجديداً أو إبداعاً من قبل العصبة الإسلامية الوطنية من أجل معالجة تزايد المعاصي الاجتماعية والإشراك البنّاء للحكومة في هذه الأمور. ففي مجتمع يصغي دائماً إلى دعوات الأئمة، يمكن للإسلام أن يصبح قوة إيجابية من أجل إقامة ومأسسة العدالة الاجتماعية واحترام كرامة الإنسان وحرمة الحياة، بشرط أن يعود الأئمة إلى القيم النبيلة التي جاءت بها النبوة.

النمو الاقتصادي

يعتقد الخبراء الاقتصاديون الغربيون أن غينيا حققت تقدماً اقتصادياً أفضل من معظم الدول الإفريقية. ففي عام 1996، وبمساعدة البنك الدولي وصندوق النقد

الدولي، شرعت السلطات الغينية بالقيام بإصلاحات اقتصادية لاستعادة التوازن المالي والاقتصادي. وكان الدافع لهذه الجهود هو الحاجة لإعادة إحياء الاقتصاد الغيني بعد سنين من الاضطرابات التي جاءت نتيجة هبوط المداخيل وسوء إدارة الأموال العامة.

وتنعم غينيا بثروة معدنية ملموسة فهي تملك ثلثي الاحتياط العالمي من البوكسايت الذي يشكل 80٪ من دخل الصادرات في البلاد، إضافةً إلى امتلاكها لخامات الحديد والذهب واليورانيوم والألماس. كذلك تملك غينيا إمكانيات استثنائية في مجالات الطاقة الكهربائية المائية.

والموارد الطبيعية يمكن أن تشكل عنصراً في الاستقرار أو عدم الاستقرار. فمع وجود قيادة شرعية، قوية وخلاّقة ووجود بنية تحتية مناسبة، يمكن للموارد الطبيعية أن تجلب الازدهار والسلام إلى البلاد. ولعل ليبيا تقدم مثلاً لبلاد استخدمت ثروتها النفطية للحفاظ على تماسك المجتمع وتوسيع رقعة الإيثار ومنفعة الغير إلى أجزاء من الشرق الأوسط ودول جنوب الصحراء الإفريقية. ولكن وجود الموارد الطبيعية في إفريقيا جنوب الصحراء شكل مصدراً للفساد والنزاع، خاصة في جمهورية الكونغو الديمقراطية، وسيراليون، وليبيريا وأنغولا والكاميرون والسودان ونيجيريا.

وفي ساحل العاج المجاورة، قام الرئيس السابق فيليكس هوفوي بووغني بتشجيع ورعاية القطاع الزراعي ليصبح أداة للاستقرار والازدهار. واليوم، تعتبر ساحل العاج أكبر مصدر للكاكاو والغذاء في العالم. مقابل ذلك، تعتبر غينيا أكثر ثروة وأفضل أرضاً، رغم أنه لم يتم بذل أي جهد لتطوير البنية التحتية ولم توضع سياسات لتنمية القطاع الزراعي. ولسنا هنا في معرض المغالاة بإمكانيات غينيا الزراعية، ولكن وجود قطاع زراعي متطور قد لا يعني فقط الاكتفاء الذاتي لغينيا ولكنه قد يجلب لها أموالاً طائلة من النقد الأجنبي عبر أسواق الغذاء الإقليمية الفرعية.

والفارق الاقتصادي البارز بين غينيا وجاراتها ليبيريا وسيراليون اللتين تقعان أيضاً على حوض نهر مانو، يكمن في مستوى الملكيات الخاصة التي في يد الغينيين.

بينما يختلف الأمر تماماً في ليبيريا وسيراليون التي يملك الأجانب (وخاصة اللبنانيون) 90٪ من الاستثمارات الخاصة في الصناعات الاستخراجية وتجارة الاستيراد فيما يمتلك الغينيون وخاصة (البهيل منهم) 70٪ من الاستثمارات الخاصة. ويشكل تركز الثروة القومية بين أيدي الغينيين عنصراً رئيسياً في مجال الاستقرار وخاصة أن أي قرار يتبنى المواجهة المسلحة أو الحرب سيتوقف على كمية الخسارة والربح التي سيتعرض لها أهل البلاد.

ولو أن إمكانيات غينيا بكاملها، تتوزع بين الناس، لما وقع الجيل الشاب في خيبة الأمل التي يواجهها اليوم، ولما حاول بعض المغامرين من الشباب التسلل مع حمولات البضائع في الطائرات الأوروبية، في محاولة للبحث عن مستقبل أفضل.

وتحتاج غينيا إلى البنية التحتية المناسبة وإلى نظام قيادي بعيد البصيرة وقابل للمحاسبة من أجل تحقيق المكاسب مما حبتها الطبيعة من معادن وأراضٍ ومياه.

ثقافة الصمت

منذ سني حكم سيكو توري وحتى تاريخ اليوم، ظلّ الغينيون بشكل عام قوماً مسالمين، يقفون غير مكترثين أمام القضايا الحساسة التي قد تستثير حشداً ضخماً وربما انتفاضة في دول أخرى. والخوف من السلطة الدستورية ومسؤولي الحكومة يعتبر مسلكاً مغروساً في العديد من الغينيين. وثقافة الصمت هذه لدى الغينيين يمكن تتبعها إلى تدابير ثقافية واجتماعية قديمة وتقليدية تواصل الحفاظ عليها عبر الأجيال. فالبنى الهرمية الصارمة، والطبقات الاجتماعية وسيادة بعض العائلات أو العشائر لم تتأثر بالقيم الغربية المتعلقة بالفردية والحقوق المتساوية. كما أن الموسرين يهيمنون على الفقراء، وهؤلاء بدورهم يتقبلون مصيرهم دون مساءلة على أنه قدرهم. وقد تم توطيد هذه التقسيمات الطبقية بين المالينكي والفُلاّح عبر تبني تفسير مفضل في الإسلام يدعم الولاء الشديد للخلافة أو للزعماء المقدسين. وقد أسهمت سنوات حكم سيكو توري الست والعشرون والتي تميزت بالدكتاتورية في زيادة تعزيز مثل

هذه المواقف المسالمة. فقد كان أي احتجاج يُقمع بعنف، وتم إخراس أو تحطيم المؤسسات التقليدية والزعماء التقليديين مما جعل من الحكومة السلطة الوحيدة إبّان فترة حكم سيكوتوري في غينيا.

وسواء كان هذا الموقف المتمثل في الخضوع أمام الاستفزاز والمصاعب عنصراً إيجابياً في الاستقرار إلا أنه يبقى أمراً متنازعاً عليه، وقابلاً للمناقشة. فالبعض يرى فيه ضعفاً ويتكهن بانقلابه عاجلاً أم آجلاً. والاعتقاد بأن كل شيء مقدَّر سابقاً وبالتالي لا يمكن تغييره يفسح المجال أمام إدانة الفكرة القائلة بأن التحرر من الارتباطات الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية المهيمنة، والتي تَعِد بها الديمقراطية الغربية، لا يمكن أن يُعطى بل يجب أن يُنتزع بالقوة. لذلك فالمجتمعات المسالمة لن توجد إلا في ظل حكم الدكتاتورية أو في أفضل حال تحت حكم ديمقراطية الحزب الواحد. والسيطرة على الجماهير من خلال العنف أو التهديد بالعنف أو عبر التلاعب والاستغلال الثقافي والاجتماعي يعتبر انتهاكاً كبيراً للحقوق الإنسانية، كما أنه يعتبر قانوناً دولياً يتوجب على جميع المجتمعات الالتزام به.

ما زال النظام الحاكم في غينيا يستخدم عصا سيكو توري التي استخدمها في القمع من أجل السيطرة على الحكم. ويبدو الأمر عصيّاً على التغيير. فبالإضافة إلى ذلك أخذ النظام يشعر بصعوبة أكثر وأكثر في التكيف مع معتقدات الديمقراطية الغربية المتعددة الأحزاب. من ناحية أخرى، لم يتمكن المجتمع حتى الآن من المشاركة مع النظام بشكل بنّاء بحيث يقوم كل منهما بدعم القيم الدولية لحقوق الإنسان والحكم الجيد.. وقد ازداد الشدُّ قوة بين الجمود الذي يبديه النظام اجتماعياً وثقافياً وسياسياً أمام تبني طرق جديدة في الحكم والديمقراطية وبين مطالب خارجية ملحة لنقل غينيا إلى عالم الديمقراطية والسوق الحرة وحقوق الإنسان والحكم الجيد. ويعتمد نجاح حركات حماية حقوق الإنسان وبناء السلام وغيرها من مظاهر المجتمع المدني، بشكل كبير على انتشار التعليم الشعبي وعلى التخطيط له بعناية. وبدون شك، فإن هذه المبادرات ستواجه مقاومة من قبل الحكومة وغيرها من بنى السلطة.

والمواجهة مع الحكومة قد تكون مأساوية. والخيار الأفضل هو كسب الحكومة كشريك في التغيير البنّاء من أجل تنمية مستدامة وسلام مستدام. وهذا يعني استهداف المؤسسات الحكومية من أجل إنجاز العملية التعليمية. وتركز منظمات حقوق الإنسان العاملة في البلاد، حالياً على رفع التقارير حول الإساءات التي ترتكبها المؤسسات الحكومية ضد حقوق الإنسان، مما يتسبب في استعداء الحكومة ولا يترك أي مجال لإشراكها. ونحن لا نقترح هنا حلاً وسطاً ينطوي على مظلمة ولكن حجتنا هي من أجل تغيير نظام مضى عليه قرون في طريقة عمله، لأن الإقناع والتثقيف والحوار هو أفضل الوسائل.

اقتراحات من أجل السلام الوقائي

أتاحت لنا الدروس المستقاة من هذا البحث طرح المقترحات التالية حول بناء السلام الإيجابي أو الوقائي:

بناء السلام الوقائي يجذب التركيز بعيداً عما هو خطأ إلى ما هو صحيح وينقله من العوامل المولدة للنزاعات إلى العوامل المولدة للسلام. كما أنه يحدد التاريخ أو التجارب واللاعبين والأدوات والبنى والأنظمة التي تشكل الأسس الوطيدة للسلام والعدالة والتماسك الاجتماعي داخل المجتمع وتعززها. كذلك يشجع بناء السلام الوقائي القدرات والقوى البنّاءة في المجتمع.

وتظهر لنا تجربتنا في غينيا إضافةً إلى التجارب التي جرت في عدة دول غرب إفريقية، قامت بتطبيق هذه المقاربة نحو بناء السلام، ثلاث نتائج فورية هي: أولاً استلهام الأمل في المجتمع، والأمل يشكل محفزاً أساسياً نحو التغيير الإيجابي. ثانياً: أصبح الناس أكثر اعتماداً على بعضهم البعض وأكثر ثقة. ولعل تحديد قدرات وفرص المجتمع يمكنه أن يولّد مواقف إيجابية تجاه التغيير. وثالثاً: إتاحة المجال أمام المرء للوصول إلى الصورة الشاملة للمجتمع. عندما يدخل المرء إلى المجتمع لتقدير المخاطر، وخاصة في غرب إفريقيا، تظل أمور كثيرة بعيدة عن رؤيته، أما بسبب أن رؤيته

محدودة بالتوجه لحل المشكلة أو لأن الأطراف المعنية تحجب معلومات يمكن أن تهدد مصداقيتها. وغالباً ما يتجاهل الأشخاص العاملون في تقدير الأخطار داخل المجتمع، الإمكانيات الموجودة في هذا المجتمع، وبذا يضعون ثقلهم وراء التدخل الخارجي.

عبر الإشارة إلى الموارد التي تولّد السلام مثل التاريخ والتعايش بين الأعراق، والاقتصاد والدين – تمكنا من الإسهام في حشد روح متجددة وتوليد تقدير ذاتي، وقد برز هذان فيما بعد (كما في القصة التي وردت سابقاً) على شكل حشود هائلة عبر البلاد وقفت في وجه غزو المتمردين القادمين من حدود ليبيريا، في سبتمبر من عام 2000 وبعد شهرين تماماً من انتهاء بحثنا. كما تلقى الزعماء البارزون الذين حضروا استشارات الطاولة المستديرة، تجديداً للمعلومات حول تاريخهم وحول موجوداتهم الاجتماعية والاقتصادية. ونحن لا ندعي هنا أن الاستشارات التي جرت شكلت الدافع الوحيد للحشد الوطني، ولكن الطاقة المتجددة، كما وصفها أحد المشاركين أسهمت في حشد فئات المجتمع المدني. وعلى أية حال، فقد دعم هذا الحشد الوطني تحليلنا الذي أجريناه حول المجتمع الغيني فيما يتعلق بكونه مجتمعاً يتجاوب بفعالية ضد التهديد الخارجي.

بناء السلام الوقائي هو طريق للاستكشاف

كان السبب في نجاح دراستنا هو أننا ذهبنا إلى غينيا بعقول فضولية ومتفتحة ومتمحصة. وبدلاً من أن نسأل عن الخطأ الذي في غينيا، سألنا عن أسباب الحياة فيها. ما الذي يثمّنه الغينيون في مجتمعهم؟ ما الذي يجعل مجتمعهم متماسكاً؟ في الواقع طلبنا من الناس الذين قابلناهم في غينيا أن يعلمونا شيئاً عن السلام، وكيف يعيشون معاً ومن هم. وكان ناشطو بناء السلام الوقائي شاهدين على السلام ولم يكونوا ممن تعهدوه، لذلك كان عليهم أن يحملوا أذهاناً متسائلة ومتمحصة. فإذا اتفقنا جميعاً على أن السلام الإيجابي هو عمل سليم في الأساس وعلاقة شاملة، فإن علينا أن نسترشد أيضاً بالحقيقة التي تقول أن العلاقات هي علاقات شخصية ومناسبة ومفهومة بالنسبة

للذين يملكونها أو يمارسونها فقط. فبناء السلام الوقائي هو رحلة مثيرة يكتشف فيها كل من صانع السلام والمجتمع إمكانيات رائعة لديه. وتدلنا تجربتنا على أنه لم يقم أي فريق أو أي فرد بعبور هذه الطريق دون أن يلمس تغييراً في داخله.

بناء السلام الوقائي مشروع لا ينتهي ويهدف إلى تعزيز وتحسين نوعية العلاقات الإنسانية

السلام أمر مرتبط بالعلاقات الإنسانية. وقصة الإنسان لا تبدأ بالعنف أو بالنزاع، بل تبدأ بالخلق والانتماء والتوليد والمشاركة والبناء. وجوهر المجتمع هو العلاقة، لأن المجتمع هو مجموعة من العلاقات. وتشمل هذه العلاقات الفئات المتشابكة والمعتمدة على بعضها البعض، كما تشمل الأفكار والقيم والمجالات المادية والعاطفية والنفسية. لذلك، فإن بناء السلام يعتبر مرادفاً لبناء المجتمع كما يعتبر السلام في المجتمع دليلاً على حيويته وسلامته. وفي غينيا كوناكري، كما في المجتمعات الأخرى، يترادف السلام مع التجمعات المتماسكة والمرتبطة ببعضها البعض ضمن نسيج قوي. ولا يمكن فكّ اللُّحمة بين الفرد والمجتمع. ويتوجب على الأنظمة السياسية والاقتصادية أن تخاطب الحقيقة الاجتماعية في إفريقيا. والإفريقي ليس شخصاً يتوجب عليه إرضاء مصالحه الخاصة، فهو عضو في مجتمعه ولا يمكنه أن يدير ظهره لهذا الواقع لأنه إذا فعل ذلك فسيجد نفسه مجرداً من هويته وشخصيته ووجوده.

السلام الوقائي هو أمر يتعلق بتفهم التغيير والشهادة عليه

يوجد مصدران أساسيان للتغيير، مصدر داخلي ومصدر خارجي. والتغيير الداخلي لا يفرض فرضاً بل يأتي نتيجة لقدرة المجتمع على التجديد أما التغيير الخارجي فيحدث نتيجة للمواجهات. وكل مواجهة تمثل فرصة للتعلم وللنمو والتطور. ويتطلب الأمر وجود شخص أو مجتمع مفكر كي يستطيع تحديد الدروس التي تمثلها المواجهة. وعندما يتم تحديد تلك الدروس ويتعلم المجتمع منها، تنشأ معانٍ جديدة يشكل منها المجتمع مواقفه الجديدة وبالتالي ثقافاته وتركيباته الجديدة.

وفي أغلب الأوقات، يفقد المجتمع الفرص التي تتيحها له المواجهات أو التحديات التي تواجهه بسبب ميل الناس إلى التركيز على التوترات والآلام التي ترافق هذه المواجهات، وفقدانهم القدرة على رؤية الدروس التي يمكن تعلمها والتطور الذي يمكن تحقيقه. فعلى سبيل المثال يكرس مركز مؤشرات النزاعات في السياسة الخارجية في جامعة كارلتون بكندا مشروعه حول تقدير المخاطر على تحديد التوترات في المجتمع ويشير إليها بكلمة مؤشرات بنيوية. وتشمل هذه التوترات، الضغوطات الديمغرافية (تزايد عدد السكان نسبة لقدرة المجتمع على تقديم الاحتياجات الأساسية لهم)، الضغوطات السياسية (وهي التوترات التي تنشأ نتيجة مطالبات خارجية بتبني الديمقراطية ومقاومة الأنظمة للتخلي عن طرق الحكم القديمة) كذلك الضغوطات التي تنتج عن تحركات اللاجئين.. وغيرها وتمثل هذه الأمور مؤشرات أساسية يتوجب مراقبتها من أجل التأكد من قدرة المجتمع على البقاء مستقراً.

وعندما يكون التركيز منصباً على أسباب الضغط في أي مجتمع، يأتي الرد بإزالة الأعراض وليس بتقوية المؤسسات والبنى الاجتماعية الكفيلة بالتخفيف من هذه الضغوطات بحيث تفسح مجالاً للتعلم. فأمام ارتفاع عدد السكان، على سبيل المثال، توجّه الموارد بشكل أكبر نحو موانع الحمل فيما يوجه التركيز في الهجرة إلى المدن على إعادة إسكان المجتمعات بشكل قسري. ولكن أي من هذه الحلول لم يسهم في إزالة أسباب الضغط التي تنتج الأنماط الاجتماعية المتعلقة بارتفاع نسبة المواليد وبالهجرة إلى المدن. مثال آخر هو الاستخدام المتواصل لوسيلة الانتخابات على أنها الدواء لجميع النزاعات المدنية في إفريقيا، أي الادعاء بإمكانية إزالة ضغوط الحرب من خلال تغيير النظام بكل بساطة، دون أن يعطى الوقت الكافي لتفهم أسباب انتشار الحروب الأهلية ولا لفرص التغيير التي تتيحها مثل هذه الحروب. وبسبب عدم رغبتنا في تفهم الحراك الداخلي الكامن وراء تطور معظم المجتمعات الإفريقية، تأتي ردودنا وحلولنا في أغلب الأحيان لتفاقم من الآلام والمعاناة التي تتسبب بهما هذه الضغوط. وهذا بالضبط ما تفعله وسائل بناء السلام التقليدية – بناء المؤسسات من أجل تجنب آلام المواجهة أو ربما أحياناً تجنب المواجهة نفسها.

وهناك عامل آخر يؤثر في التعلم من عمليات التغيير الداخلية وهو دور المراقبين. فالمراقبون أو المشاهدون الخارجيون لعملية التغيير والذين لا يتأثرون بها مباشرة بل يحاولون وصفها أو إعطاء معنى لما يشاهدونه، يقومون بإعطاء معنى لشيء لا يخوضون تجربته على عكس الناس الذين يخوضون هذه المواجهة ويسمونها. ويقوم هؤلاء المراقبون بتقديم الحلول والقرارات لما يجب فعله بخصوص التغيير.

لا يمكن لأي مراقب وبأي طريقة أن يعطي وصفاً مناسباً لشيء لا يخوض في تجربته. وهذا لا يعني بأن إسهامات المراقبين لا تحمل أهمية ولكنه يعني بأن تفسيراتهم واستنتاجاتهم متجذرة فقط في تجاربهم وأنه لا يجب فرض هذه التفسيرات والاستنتاجات على الذين هم في داخل هذه المواجهات. إن استخراج المعنى من المواجهة هو حق مطلق للذين يخوضون تجربتها ويجب أن يقتصر دور المراقبين والمتفرجين بشكل رئيسي على تسهيل عمليات استكشاف الدروس أمام المنخرطين في صلب المواجهة.

وعلى النقيض من ذلك، يزعم التغيير الخارجي أن الثقافات والبنى والأدوات والأنظمة الموجودة هي ناقصة وخاطئة ويجب استبدالها فوراً بثقافات وأنظمة وبنى وأدوات مختلفة في طبيعتها عن تلك التي اعتادت المجتمعات اتباعها لتحقيق التغيير. والتغيير الخارجي يأتي من الخارج، ولذلك فهو يعتمد على تجربة مجموعة خارجية تعتبر من واجبها فرض تلك التجربة على المجموعة التي تواجه التغيير في الداخل. وغالباً ما تكون هذه المجموعة الخارجية مقتنعة تماماً بأن التغيير الذي تطرحه هو لصالح الآخرين، حتى إنها قد تبدي دهشتها لترددهم في اعتناقها. والأمثلة التي أظهرتها الإمبراطورية البريطانية والتوسع الفرنسي سابقاً وتظهرها الديمقراطية الرأسمالية الفردية الأميركية حالياً هي أمثلة قليلة فقط على فرض التغييرات من الخارج على الدول والأمم، سواء كانت مجتمعات تلك الأمم ملائمة أو ناضجة لتلقي هذا التغيير أم لا، وسواء كانت هذه المجتمعات تمتلك البنى المناسبة لدعم واستدامة هذا التغيير، أم لا تملكها.

وهناك عدة مصادر للضغط تولِّدها تلك العمليات الخارجية المتعلقة بالتغيير. وتشمل هذه الضغوطات مطالبة الخارج بالتغيير في وجه جمود المجتمع الداخلي المقاوم لهذا التغيير. ومدى استساغة هذا المجتمع له، ودرجة المرونة أو القدرة على تقبل المجتمع لتغييره وأخيراً الوسيلة التي يتم التفاوض عليها من أجل التغيير.

المجتمع الغيني موجود منذ ألفي سنة، وتملك شعوبه تاريخاً هائلاً من تجارب المواجهات مع ظروف داخلية وخارجية على السواء. وبوعي أو بلا وعي، أوجدت هذه المواجهات شكلاً للمفهوم الغيني حول العالم وحول الحضارة التي ينتمي إليها. والحاجة إلى الدارسين أو المراقبين تقتصر فقط على مساعدة المجتمع في اكتشاف نفسه وتفهم التغيير الذي يحصل له. وقد ساعدت المقابلات غير المهيأة سابقاً والتي أجرتها جهات فضولية ومتمحصة، منظمة WANEP إلى إطلاق كميات هائلة من المعلومات التي أسهمت في تعلمنا، ليس فقط عن غينيا، بل أيضاً عن أنفسنا وعن الاستراتيجيات التي يجب أن نتبّعها في تدخلنا. كذلك، تعلم الغينيون وغيرهم من المجتمعات خلال العملية التي قمنا بها أشياء كثيرة عن إمكانياتهم وقدراتهم وعن التحديات التي تهدد سلامهم واستقرارهم. وبناء السلام الوقائي هو رحلة لتبادل التعلم، كما أن مؤتمر الطاولة المستديرة الذي عقد في نهاية العملية شكّل مجالاً للحوار يوازن بين كتل المعلومات ويضع الخطط للحلول المشتركة من قبل أعضاء المجتمع أنفسهم.

الخلاصـة

بدأت رحلتي كصانع للسلام بقصصٍ عن المآسي. فقد شهدت حرباً أهلية وحشية مزقت نسيج موطني في ليبيريا. وليبيريا هي بلد صغير يبلغ عدد سكانه ثلاثة ملايين نسمة، حصدت الحرب البربرية التي استمرت سبع سنوات ثلثمئة ألف منهم (أي بمعدل 1 لكل 10 أشخاص) كما امتدت الحرب إلى دولة سيراليون المجاورة التي ولدت فيها. ومنذ عام 1990، وأنا أعمل وسط مجتمعات مزّقتها النزاعات المسلحة في ليبيريا وسيراليون ومناطق أخرى من إفريقيا. وفي كل مكان سافرت إليه، وخاصة

خارج إفريقيا، أصبحت متلقياً للشفقة، فقد كان الناس يحبونني لأني ببساطة أعمل مع شعوب تعاني من آلام العنف. ولكني، في داخل نفسي، كنت أعلم أن مصدر الطاقة التي تحركني في عملي لا يكمن في تلك القصص الرهيبة. بل يأتي من رؤى الأمل، ومن القصص الصغيرة التي تحكي عن أفراد صغار ومجتمعات صغيرة ليست بذات أهمية ولكنها تملك شجاعة لا يمكن تفسيرها ومرونة في وجه الإرهاب. كانت بسماتهم وكان أملهم بغدٍ يعمّه السلام تشد من أزري على متابعة العمل.

وقد أجبرتني هذه التجارب على إعادة التفكير بالطرق التقليدية في بناء السلام والتي تركز على تحليل النزاع وعلى إدارة الأزمة وإعادة التأهيل ما بعد النزاع. وأدركت أن بناء السلام الذي كان موجهاً نحو النزاع لم يكن يروي القصة بأكملها ولم يكن يحقق العدالة للفكرة التي يحملها. بدا لي وكأنه توجه محدود لا يبعث إلهاماً بالأمل ولا يحشد الطاقات الضرورية للنمو.

قبل ثلاث سنوات، بدأت بتجربة فكرة المقاربات الإيجابية نحو بناء السلام. وكان تركيزي منصباً على المرونة فقد أردت أن أعرف ما هو السبب الذي يعطي بعض المجتمعات مرونة في وجه العدوان وماذا يمكن أن أتعلم من هذا. وقد نما اهتمامي بمجتمع مثل المجتمعات في غينيا، وكينيا، وغامبيا، وغانا والكاميرون، وهي مجتمعات تملك نصيباً عالياً من قابلية التصعيد ولكنها مستقرة نسبياً. وقد ضاعفت من زياراتي لتلك البلدان وبدأت بطرح الأسئلة حول أسباب القوة الكامنة فيها.

واستطعت تحديد صنفين من الموارد التي تفسر الاستقرار النسبي لتلك البلدان. ويسمي خبراء منع نشوب النزاعات هذه الموارد بقدرات توليد السلام وتحمل النزاعات. والأخيرة تشمل البنى السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية التي تمتص التوترات في المجتمع أو تستوعبها. ولكنها لا تعمل على تعزيز السلام، بل تضمن بدلاً من ذلك بقاء النزاع على مستوى منخفض. أما القدرات المولدة للسلام فتشمل تلك المؤسسات الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية التي تعمل على تعزيز

قيم السلام الإيجابي الدائم. وتستطيع أن تطلق عليها اسم المؤسسات التي تتحرك من أجل بناء سلام دائم.

وتلقي دراسة تقدير الفرص الاستراتيجية لغينيا، الضوء على هذين الصنفين من الموارد: فالظروف الأربعة الأولى – التاريخ والدين والاقتصاد والتعايش بين الأعراق – يمكن أن تشكل مولّدات للسلام بينما تعتبر ثقافة الصمت مورداً لقدرات تحمل النزاع. وقد عاشت أعداد من المجتمعات على قدرات تحمل النزاع، التي لعبت دوراً في الاستقرار السلبي دون أن تقدم أي ضمان لمنع اندلاع القتال المسلح في المستقبل.

ومن خلال شبكة غرب إفريقيا لبناء السلام نحاول حالياً تطبيق هذه المقاربة ضمن برنامجين لبناء السلام.

وعبر برنامج السلام الوقائي للتحذير المبكر وشبكة الحلول (WARN) نقوم بإجراء العديد من الدراسات العملية الموجهة نحو التحرك في مختلف الدول الإفريقية. وقد ساعدتنا التحقيقات التي نقوم بها كما ساعدت المجتمعات التي نتولى دراستها على اكتشاف الإمكانيات المطلوبة لتغيير ظروفهم. فمنذ قيامنا بإجراء الدراسة المذكورة في هذا الفصل، على سبيل المثال، أخذت مجموعات العمل المدني والهيئات الحكومية في غينيا باستخدام العلاقات السليمة لمعالجة مشاكلها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إلا أن غينيا تحتاج إلى المزيد من العمل من أجل بناء مجتمع مدني قوي يستطيع محاسبة الحكومة على انتهاكاتها السياسية وضد حقوق الإنسان.

في عام 2000، أعلنت WANEP برنامجها حول العمل السلمي اللاعنفي وثقافة السلام في سبع دول من دول غرب إفريقيا. وقد سعى هذا البرنامج لتعزيز المساعي والعمليات الاجتماعية التي تشجع على تحقيق العدالة والسلام والتماسك الاجتماعي ضمن المجتمعات عبر المدارس. ويقوم البرنامج بتشجيع قراءة التاريخ والأدب وغيرها من الفنون الموجودة في مجتمعات غرب إفريقيا والتي تعزز القيم والمواقف الداعمة للعمليات الاجتماعية. وقد ركزت المرحلة الأولى من هذا البرنامج على « مواقف

التعليم » وأظهرت الدور الذي يلعبه المعلمون في بناء المجتمع وكيف تسهم مواقفهم في بناء الأفراد من ناحية إحساسهم بهويتهم سواء كان هذا الإحساس إيجابياً أم مدمراً. وفي ليبيريا بشكل خاص، بدأ المعلمون باكتشاف أن الإيجابية، وإعطاء تغذية راجعة بناءة للشباب، ومن ثم إشراكهم في اتخاذ القرارات داخل غرف الدراسة، قد بدأت تترك أثراً ملموساً على حياة هؤلاء التلاميذ. فالنشء الجديد الذي يستفيد من هذا البرنامج أخذ يظهر تحسناً ملموساً في دراسته الأكاديمية ومهاراته الاجتماعية.

وقد أظهرت تجربتنا لثلاث سنوات في غرب إفريقيا أن بناءنا لصور إيجابية، يمكننا من حشد القدرات اللازمة لمعالجة العقبات والتحديات في العديد من المجتمعات. ولا ينكر بناء السلام الوقائي وجود مظالم بنيوية يتوجب تعريفها ومعالجتها ولكن ما فعله البرنامج هو حشد أشخاص أكثر جرأة وشجاعة. وهذه الشجاعة التي يعتمدون عليها للتعامل مع هذه البنى، تأتي من الأمل بوجود مستقبل متحرر على وجه التأكيد.

مراجع :

Annan, Kofi A. 2002. *Prevention of Armed Conflict.* New York: United Nations. Botman, H. Russel, and Robin M. Petersen. 1996. *To Remember and To Heal: Theological and Psychological Reflections on Truth and Reconciliation.* Cape Town: Human and Rousseau.

Boutros-Ghali, Boutros. 1992. *An Agenda for Peace: Preventive Diplomacy Peacemaking and Peace-keeping.* New York: United Nations.

Burton, John. 1990. *Conflict: Resolution and Provention.* New York: St. Martin's Press.

Doe, Samuel Gbaydee and Takwa Suifon. 2000. *Guinea Conakry: Potential for Stability and Instability* Forum on Early Warning and Early Response, www. fewer. org.

Goodhand, Jonathan, and David Hulme. 1999. "From Wars to Complex Political Emergencies: Understanding Conflict and Peace Building in the New World Disorder." *Third World Quarterly* 20:1 (February), pp. 13—26.

Jongman, A. J., and A. P Schmid. 1997. "Preventing Violent Conflict: Methods and Actors in the Field of Preventive Diplomacy." Milan: ISPAC.

Lederach, John Paul. 1997. *Building Peace: Sustainable Reconciliation in Divided Societies.* Washington, D.C.: U.S. Institute of Peace Press.

Regehr, Ernie. 1995. "Rebuilding peace in war-torn and war-threatened societies." *The Ploughshares Monitor* XVI:4, pp. 1—3.

Schreiter, Robert. 1992. *Reconciliation: Mission and Ministry in a Changing Social Order* New York: Orbis.

Volkan, Vamik. 1988. *The Need to Have Enemies and Allies: From Clinical Practice to International Relationships.* Northvale, N.J.: Jason Aronson.



يا نافا المستقبل دعونا نوقف هذا الشر

ليكن هناك سلام مرة أخرى

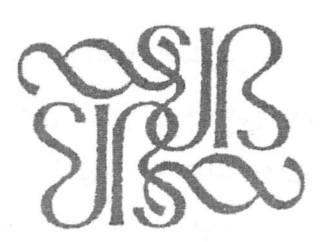
أوقفوا حضارة البنادق

فهي ليست حضارتنا

لأننا لا يمكننا أن نحيا في خضم

هذه الكراهية ، وهذا النزاع ، وهذا الفساد

شبيبة نافا



الفصل التاسع

تخيل ناغالاند

شجاعة الإيجابية

بيتر دالاهاي وبهارات كريشنان[1]

أطلقت الحركة الدولية من أجل الأطفال، التابعة للأمم المتحدة (GMC) تحدياً غير مسبوق إلى القيادات كي تتحد في خدمة الأطفال. وكان الاستماع إلى أحاديث الأطفال، محطّ تركيز الحلقة الخاصة التي أقامتها الأمم المتحدة حول الأطفال في أيار من عام 2002، بالإضافة إلى مشاريع أخرى قامت بها الحركة الدولية من أجل الأطفال في كافة أنحاء العالم.

ومثل هذا العمل، كان يجري بشكل مستقل عبر أنحاء العالم من خلال مجموعة من المشاريع التخيلية التي استلهمت مادتها من المشروع الأصلي «تخيل شيكاغو» والذي انطلق عام 1992. ومن بين هذه المشاريع مشروع يدعى تخيل ناغالاند، وهو مشروع أوجدته اليونيسيف (صندوق دعم الطفولة التابع للأمم المتحدة) عام 2001. وقد ألهم الحوار الذي جرى بين الأجيال ضمن محيط معقد في ولاية ناغالاند بالهند، تخيلات وآمالاً في أماكن كثيرة من العالم تواجه تحديات مشابهة. فمن خلال إشراك الأطفال والفتيان في أحلام المستقبل، عبر اختيار الاحتمالات الإيجابية من التاريخ، تم إيجاد طريقة لتطوير السلام.

*

وناغالاند هي ولاية هندية صغيرة نائية تقع على حدود ميانمار، شمال شرقي الهند، وقد تميزت بتاريخ من القلاقل السياسية خلال السنوات الخمسين الماضية. فما



بدأ ككفاح سلمي من أجل تقرير المصير في عقد الخمسينات من القرن العشرين تحوّل فيما بعد إلى نزاع مسلح، ما زالت قضاياه السياسية حيّة حتى تاريخ اليوم. ففي عام 1963، أصبحت ناغالاند الولاية السادسة عشرة في الاتحاد الهندي. ومنذ ذلك الحين، تغير وضع سكانها البالغ عددهم مليوني نسمة تغيراً جذرياً، إذا دار فيها صراع سجال أدى إلى « حالة من التأرجح بين الأمل واليأس » وفقاً لتعبير سانجوي هازاريكا[2]، ومع ظهورها كولاية، دخلت ناغالاند في فترة في التخطيط التنموي الاجتماعي والاقتصادي، أنهى قروناً من العزلة والإهمال، على الرغم من أن الأضرار والآلام التي حملها الماضي ما زالت تعيش في أذهان هؤلاء الذين عانوا أو فقدوا أحبّاءهم خلال النزاعات المسلحة التي دارت هناك.

وقد شهد الوضع تحسناً ملموساً منذ توقيع اتفاقيات وقف إطلاق النار من قبل حكومة الهند عامي 1997 و 2001، على التوالي مع الفئتين الرئيسيتين اللتين قادتا النزاع المسلح. ورغم ظهور بعض الشكاوي حول انتهاكات وقف إطلاق النار من حين لآخر، إلا أن الوضع أصبح أفضل من السابق وبشكل ملحوظ. وما يبعث على الطمأنينة اليوم، أن هناك رغبة أصيلة وحقيقية بين الناس للدخول في سلام دائم، إضافة إلى عزم ثابت لحل جميع القضايا المتنازع عليها، على طاولة المفاوضات وبطريقة ديمقراطية وسلمية.

« لا أتعب أبداً من ترداد القول بأن مجتمع ناغا يحتاج إلى التغيير ».

هذه الكلمة وردت على لسان وزير ناغالاند الأكبر: إس. سي. جامير، وهو أرفع شخصية سياسية في الولاية، خلال كلمته الافتتاحية التي ألقاها خلال قمة الحلم والتصميم في تخيل ناغالاند، والتي عقدت في شهر تموز من عام 2001. وقد تابع كلمته قائلاً: « أقول هذا بقناعة عميقة، لأنني أشعر أننا كشعب نميل إلى العيش في الماضي، بينما نتجاهل الحاضر والمستقبل القريب. إن تعلمنا من الماضي ومحاكاتنا للقيم التي ورثناها هي أمور صحية وسليمة، ولكن العيش في الماضي إلى الأبد يبقى

وسيلة للتهرب من الحقائق القاسية وتجنب ما يجب فعله. لا أحد ينكر أن ناغالاند بقيت لعقود طويلة مسرحاً للاضطرابات العنيفة التي تجاوز حجم العنف فيها حجم مجتمعها الصغير. لقد عانى شعب ناغا كثيراً وما تزال هناك جروح يجب لأمها، وقضايا سياسية عديدة يجب حلّها وشؤون اقتصادية عديدة ما زالت تقضّ مضاجعنا. فبالنسبة لولاية صغيرة، يبدو وكأننا نواجه عدداً من المشاكل لا يناسب حجمنا. إلا أن العيش في الماضي لن يساعد على حل أي من مشاكلنا. فالمشاكل يجب أن تحل في الحاضر وضمن استراتيجيات ملائمة لهذا الحاضر. إن العيش في الماضي بشكل دائم لن يسهم إلا في فتح الجروح وجلب الألم.

لم يكن الحفاظ على التوازن سهلاً بين ضمان التنمية وحفظ السلام في الوقت نفسه فقد كنا عالقين بين ضرورة تثبيت حكم القانون، وبين مواجهة عواقب النزاع والعنف المستمر في الولاية، في الوقت نفسه. ونتيجة لذلك، بقيت البدائل المطروحة لوضع جدول أعمال « للتطوير من أجل السلام » أو للسلام من أجل التطوير لغزاً يحتاج إلى جواب. ففي مقابل استمرار حضور كثيف للعناصر الأمنية وبشكل ملحوظ كوسيلة لتعزيز حكم القانون من القمة إلى القاعدة، استمرت المسيرات السلمية التي شملت أعداد كبيرة من الناس، إضافة إلى الطروحات السلمية التي قدّمها المجتمع المدني كرد من القاعدة إلى القمة يعكس الإصرار على جعل السلام ممكناً.

وحالياً تشكل الخدمات الحكومية السبيل الوحيد للعثور على الوظائف في تلك الزاوية الهندية التي تعاني من التخلف، فيما بدأ المستثمرون المحتملون لتوِّهم بتفهم تلك المنطقة الشمالية الشرقية من الهند واحتياجاتها التنموية الخاصة. ولكن الأمر ما زال موضع نقاش من حيث تواصل هذا الاهتمام بالاستثمار في حالة ثبات وقف إطلاق النار، مقابل سلبيات الموقع وعدم ملاءمة البنية التحتية. ومع ذلك فلا يمكن لناغالاند أن تبقى جامدة وعالقة في رواسب الزمن بينما العالم حولها ينمو ويتقدم. عليها أن تتحرك قدماً وتتحول من مجرد متفرج إلى مشارك في المبادرات العالمية الهادفة

إلى تحسين نوعية الحياة. وهناك سؤال أساسي يشكل تحدياً خطيراً يطرح على أوراق كل مسودة للتغيير في ناغلاند، وهذا السؤال هو إعادة توجيه مواقف ومقاربات موظفي الحكومة والمسؤولين من أجل لعب الدور التاريخي المتوقع منهم. فأمام هذا العدد الكبير من الموظفين الحكوميين في الولاية، أصبح من الضروري لهؤلاء أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم لاعبون رئيسيون ومحفزون استراتيجيون في مهمة تحويل ناغالاند إلى ولاية تتجاوب وتتحسس مطالب مواطنيها. إن على ناغالاند أن تطمح لكي تصبح ولاية نموذجية، تظهر وجهاً إنسانياً، عادلاً ومنصفاً في عملية تنميتها وتحترم البيئة وتحافظ عليها.

وهناك العديد من مفاتيح القوة في ناغالاند، ويمكن رؤية هذه العناصر على مستويات ثلاثة: المستوى الأول يشمل انخفاض الكثافة السكانية، وغياب التمايزات الطبقية والاجتماعية، ووجود رأسمال اجتماعي ملحوظ، ومؤلف من عشائر وقرىً وقبائل تتميز بروح مجتمعية قوية ولحمة اجتماعية متينة. وعلى المستوى الثاني يمكن للمرء ملاحظة وجود نسبة عالية من السكان غير الأميين إضافةً إلى نظام حكم محلي مؤهل، ومبني على أسس مثل مجالس قروية، وهيئات تطوير للقرى وعلاقات دينية متينة. وتملك ناغالاند على المستوى الثالث ثروات طبيعية هائلة بما فيها الغابات والنفط والغاز والمعادن التي تنتظر استثمارات معقولة وصديقة للبيئة.

في العام 2000، أطلق الوزير الأول في ناغالاند وهو أعلى مسؤول بيروقراطي في الولاية، تمريناً، خفيف التركيب للرؤية ضمن الدوائر الحكومية التي يرأسها، وكان التمرين عبارة عن عملية تنطلق من القمة إلى القاعدة بشكل أساسي وتدعى « تخيل ناغالاند ». كما كان الهدف من هذه العملية محاربة الإجهاد والإهمال في الدولة. وفي نفس الوقت كانت منظمة اليونيسيف العاملة في الهند في أتم استعدادها للتحرك العالمي من أجل الأطفال. وقد أسفر اللقاء التوافقي الذي عُقد على مأدبة غداء بين كوادر اليونيسيف والوزير الأول في ناغالاند عن وضع الأسس لكي تعمل لجنة التحرك

العالمي للأطفال مع فريق « تخيل ناغالاند » كجزء من سلسلة « تخيل »[3] وذلك بهدف التجانس مع تمرين الرؤية من القمة إلى القاعدة الجاري تنفيذه. كذلك قدّم هذا اللقاء فرصة لليونيسيف للعمل مع أطفال ناغالاند وإسماع كلمتهم بصوت أعلى كجزء من العملية الاستشارية التي تم تصوّرها. ولذلك تم الاتفاق مع حكومة ناغالاند بأن يكون الأطفال وأصواتهم في قلب هذا المشروع.

مرحلة الاكتشاف

شكل بيتر دالاهاي وبهارات كريشنان (المؤلفان) عصب الفريق وعقدا سلسلة من ورشات العمل استخدما فيها البحث التقديري في ناغالاند، بدءاً بأول ورشة عمل للاكتشاف في أوائل نيسان/ إبريل عام 2001. وفي رسالتهم إلى الوزير الأول، طلب الاثنان من هيئة مكتبه دعوة ما يصل إلى مائة مشارك إلى الورشة لتأسيس ما يسمى بنواة ناغالاند، أي ممثلين عن جميع الأطراف المعنية في الولاية على مثال سفينة نوح. وقد وصل العدد الأخير من المشاركين إلى سبعين، كان من بينهم ثلاثون طفلاً وشاباً. وباستخدام فلسفة البحث التقديري، طُلب من المشاركين البحث في السؤال حول بواعث الحياة في ناغالاند.

وقد أدّت هذه التمارين بالنتيجة إلى بروز ستة موضوعات رئيسية تم اختيارها من قبل المشاركين من أجل إجراء أبحاث مفصلة في جميع أنحاء الولاية وهذه الموضوعات هي: « الوحدة والسلام واحترام الجميع، التعليم والتوظيف، البيئة والتطوير، التنمية العادلة، احترام حكم القانون، وناغالاند التي نريدها في المستقبل ». (انظر الملحق حول إرشادات المقابلات). بالنسبة لعدد كبير من البالغين الذين شاركوا في الورشة، كانت هذه هي تجربتهم الأولى في التفاعل على قدم المساواة مع الأطفال والشباب. وقد وضع المشاركون الذين تشكلوا من فئات مختلفة شملت الأطفال، وموظفي الحكومة والبيروقراطيين الموضوعين تحت التجربة، وأعضاء المنظمات غير الحكومية والمشرعين ورجال الإعلام والمعلمين والأطباء وناشطي حقوق الإنسان،

هدفاً لهم، إجراء 20000 مقابلة استكشافية على مدى فترة عشرة أسابيع، وهذه المقابلات تمثل 1٪ من سكان الولاية.

ومن أجل تغطية سكان المقاطعات الثماني لناغالاند في مقابلاتهم، اضطر الفريق إلى إجراء سلسلة منظمة من المقابلات تم فيها الطلب من كل شخص أجريت معه مقابلة أن يجري مقابلة مع اثنين آخرين وهكذا دواليك، بحيث يتضاعف العدد بشكل هندسي. كذلك لمس الفريق وجود حاجة إلى توسيع عدد المستوى الأول من المقابلات وضمان تغطية جميع المقاطعات بشكل متناسب. لهذا السبب تم عقد ورشة استكشافية أخرى في الشهر التالي، حضرها مائة مشارك، وكان عدد الأطفال والشباب هذه المرة ستين. وتم التداول في نفس مواضيع الورشة السابقة ولكن المشاركين خضعوا لتدريب أكثف حول إجراء مقابلات البحث التقديري. وشمل هذا التدريب أولاً مقابلة أعز أصدقائهم ثم مقابلة أحد المشاركين في الورشة وأخيراً مقابلة عدد لا بأس به من أعضاء « نواة ناغالاند ».

أضواء على مرحلة الاكتشاف

تعتبر ناغالاند من الناحية الثقافية، مكاناً يظل فيه الأطفال كما هو متوقع متفرجين صامتين لا يتكلمون إلا إذا وُجِّه لهم الحديث. وكان التحدي الأول الذي واجه القائمين على الورشة هو كيف يمكن دفع هذا الخليط من الأطفال والبالغين إلى التفاعل على قدم المساواة في ورشة العمل الاكتشافية وكيف يمكن لاحقاً منح الثقة لهؤلاء الأطفال في إجراء مقابلات مع بالغين. لذلك تم تصميم جدول أعمال الورشة ليكون على شكل جزئي حمض نووي، مع وجود قنوات مستقلة للحوار لدى الأطفال (الذين لم يكن متوقعاً أن يشعروا بالراحة في تطبيقهم لنظرية البحث التقديري) والبالغين على السواء. كان يتم الجمع بين الفئتين في أوقات مناسبة من أجل تقاسم نتائج بحثهم.

وعندما أشرف اليوم الأول على الانتهاء، طلب من الأطفال والبالغين أن يخمّنوا ماذا دار في خاطر الفريق الآخر من أحلام وآمال وتوقعات. وقد افترض

البالغون أن نتاجهم سيكون أكثر واقعية ومبنياً على الخبرة والتجربة بينما كان الأطفال على ثقة بأنهم استطاعوا رسم مستقبل أكثر إشراقاً. وعندما التقت الفئتان، شكّل الحوار نقطة تحول في عمل الورشة. فقد دُهش البالغون من قوة أحلام الأطفال كما شعر الأطفال بأن البالغين لم يأتوا بشيء جديد. وقد أبدى الأخيرون وبشكل مكشوف تقديرهم لما جاء به الأطفال، وقرروا بعد ذلك أن يعمل الفريقان معاً، وبذلك تم تجاوز عقبة رئيسية.

وكان من بين فريق القائمين على الورشة شخص يملك خبرة هائلة في العمل مع الأطفال وأسهم إسهاماً لا يُقدّر بثمن في دفع الأطفال نحو المشاركة الكلية.

وبعد أن تم اختيار الموضوعات الستة من قبل المشاركين، واجهت الورشة تحدياً يتمثل في صياغة الأسئلة والعبارات الرئيسية في المقابلات. فقد كان الأطفال يحتاجون إلى تدريب على إجراء المقابلات ولكن النتيجة أثبتت أنهم أفضل من أجرى المقابلات. كان هناك فتى يحتاج إلى الكثير من الإرشاد (وبناء الثقة) من أجل أن يتدبر أمره حتى في مقابلته الأولى. وبعد أن أتم ذلك استمر في إجراء المقابلات بنجاح وكما أعلن في ورشة العمل الثانية، فقد أنهى إجراء 28 مقابلة مع كبار الموظفين ورجال الشرطة والمعلمين وأفراد من المجتمع.

كذلك قام أحد المشاركين الصغار بتصميم شعار رائع وبرّاق لمشروع « تخيل ناغالاند » (انظر الشكل (1))، وقد أصبح هذا الشعار فيما بعد رمزاً للأمل لدى المشاركين، حيث مثلت ألوان الشعار الغني الذي تتمتع به ناغالاند، ومثلث الأيدي المتكاتفة – الوحدة والقوة، والتلال – السلام والرزانة والقيم التي استمرت عبر العصور، كذلك تمثلت الحياة بصور الطيور ومثلت الشمس فجراً لبداية جديدة.

وقد شارك ما يقرب الدزينة من « المتدربون تحت التجربة » بعمق في العملية وكذلك فعلت مؤسسة التدريب وهي أعلى مؤسسات التدريب الحكومية. وفي الورشة الثانية تطور هؤلاء المتدربون ليصبحوا مساعدين في إدارة الورشة – وهو تطور



طبيعي، وغير مخطط، لقي ترحيباً كبيراً. فقد جاء المشاركون في هذه الورشة من كل من الثماني مقاطعات، وكان عليهم أن يعودوا ليقابلوا مئات الناس خلال الأسابيع القليلة القادمة. وقد شعر المتدربون أن عليهم الوصول إلى أمكنة أبعد وأعمق داخل المقاطعات ولذلك أقاموا وبمبادراتهم الخاصة، ورشة عمل في كل مقاطعة استغرقت يوماً. أما الأطراف المحلية المعنية مثل القرويين فقد شاركوا بنشاط ونقلوا معهم سلسلة من المقابلات إلى حدود جديدة. يمكن رؤية عمق هذا التحرك من خلال حقيقة أن العديد من الأطراف المعنية على مستوى القرى أبدت تأثرها العميق من العملية. والدليل على ذلك ما حصل مع مسؤول محلي في الكنيسة كان قد شهد إحدى الورشات التي عقدت في المقاطعات مبدياً تردداً ملحوظاً. ولكنه انخرط في العملية بكل ثقله وانتهى به الأمر بإجراء 64 مقابلة مع مزارعين وقيادات قروية وفعاليات حكومية محلية وأطفال، وشكلت هذه المقابلات مساهمة لا تقدر بثمن في المرحلة الاكتشافية لمشروع « تخيل ناغالاند ».

وقد تشكلت لجنة توجيهية تتألف من ممثلين عن جميع الفئات المعنية الرئيسية التي شاركت في ورشة العمل الأولى. وترأست هذه اللجنة اجتماعات المراجعة التي عُقدت في الفترة ما بين ورشات العمل الاكتشافية وقمة الحلم/ والتصميم، من أجل ضمان سير المقابلات والمعلومات المجموعة على الطريق الصحيح.

مرحلة الحلم والتصميم

ما أن حل الوقت لعقد قمة الحلم والتصميم في أواخر تموز/ يوليو عام 2001، حتى كان قد تم إنجاز ستة آلاف مقابلة، وتجهيز القصص وأفضل الممارسات والأحلام، على يد عصبة من التلاميذ والمتدربين وموظفي معهد التدريب الإداري الذين لا يعرفون الكلل. وحتى في الأيام التي شهدت قمة التصميم والحلم، ظلت المئات من نماذج المقابلات تتدفق كل يوم. ومن أجل تعزيز قدرة الولاية على الاستمرار بفلسفة البحث التقديري، تمت تقوية معهد التدريب الإداري بنواحي الأدب ووسائل العرض والكتب المتعلقة بالبحث التقديري. وقد أطلقت دعوة مفادها أن الفريق الأساسي على استعداد لتدريب أي شخص يرغب في تعلم في إدارة ورشات العمل باستخدام وسيلة البحث التقديري. وقد لبى الدعوة أربعون شخصاً وتم تدريبهم على الفور قبل عقد قمة الحلم والتصميم. وعمل الجميع كمساعدين لا غنى عنهم خلال القمة.

شارك في قمة الحلم والتصميم مئتا مشارك، كان العديد منهم قد شارك أيضاً في الورشتين السابقتين، ولكن ثلثهم كانوا حديثي العهد بالبحث التقديري، إلا أن قوة مشروع « تخيل ناغالاند » جذبتهم لحضور القمة. كذلك كان نصف المشاركين من الأطفال والشباب. وكان التحدي الذي واجه المشاركين هو تحديد وامتلاك أرضية مشتركة بين أحلام الأطفال والبالغين وكذلك الفريق الحكومي الذي ظل يتمرن في الأشهر السابق على رؤية موازية لعملية تخيل ناغالاند، تصل من القمة إلى القاعدة. وقد أمضى المشاركون اليومين الأولين من الورشة التي عُقدت لثلاثة أيام وهم يستعيدون منهجية الحمض النووي في التعامل مع ثلاث مجموعات من الأطراف المعنية بشكل مستقل ليقوموا بعد ذلك بتطوير أرضية مشتركة عبر حلقات يحضرها الجميع. وقد استخدمت في هذه الورشة وسيلتان جديدتان وبنجاح كبير، وهاتان الوسيلتان هما: الخرائط الذهنية للعصف الذهني الجماعي، وعروض السوق المستخدمة في النقاش العام. (انظر أسفل الصفحة).

أضواء على عمليات قمة الحلم والتصميم

طُلب من المشاركين تشكيل فرق لكل من الموضوعات الستة التي طُرحت في مرحلة الاستكشاف، على أن يعمل كل من الأطفال والبالغين في فرق مستقلة. وقد قام كل فريق برسم خريطة ذهنية من أجل تنظيم وإظهار الروابط بين المعلومات التي تجمعت من مقابلات مرحلة الاستكشاف وبين طموحات الأعضاء الخاصة ومعرفتهم الشخصية للمناطق التي قدموا منها. ومرة أخرى، وكما حصل في ورشات العمل السابقة، أذهل الأطفال الجميع في تخيلاتهم وفي قوة أحلامهم وشجاعة قناعاتهم. وقد تفوق الشبان على البالغين بجمعهم الساحر بين الغزارة والحكمة ومقترحاتهم المثيرة التي عكست جرأة أحلامهم عن المستقبل.

بعد ذلك، قامت الفرق المشتركة من الأطفال والبالغين بتجميع مقترحاتها المثيرة في مقترح واحد قوي لكل فريق ولكل موضوع. وقد عملت هذه المقترحات كمنارة لمرحلة التصميم.

كان هناك تحدٍّ يواجه القائمين على الورشة، تمثل في الجمع الشامل بين هذا العدد الكبير من العروض والمشاركين، وإخراج هذا العمل بطريقة مثيرة وذات معنى. وقد قرر القائمون على الورشة اتباع منهجية تسمى عروض السوق حيث أعطي كل فريق مساحة معينة (فسحة جدارية أو لوح عرض)، من أجل تقديم عروضهم بطريقة جذابة مستخدمين وشاحات ناغالاند وأعمال يدوية أخرى. كما أتيحت الفرصة لكل فريق لتقديم عرضه الخاص والاطلاع على العروض الأخرى لشراء أفكار، ضمن إطار زمني محدد. وقد جلب هذا العمل إثارة للجميع بالإضافة إلى إحساس بالمنافسة السليمة والتعاون بين مقدمي العروض.

وقد استخدمت منهجية عروض السوق، أولاً لعرض المقترحات المثيرة، واستخدمت في اليوم الثالث لعرض أفكار حول فرص التنمية. وفي هذه الخطوة الأخيرة من العملية، تم تقسيم المشاركين إلى فرق لكل من المقاطعات الثماني وفرقة

واحدة للولاية ككل. وقامت الفرق التسعة برسم « شجرة الإنجاز » على شكل شجرة ذات أغصان عريضة تعطي الأولوية لما يقارب اثني عشر برنامجاً تنموياً، كان كل فريق يشعر بأهميته، وهو يضع في ذهنه نتائج مقابلات مرحلة الاستكشاف، والخرائط الذهنية، والمناقشات التي شملت الجميع والميزات الفريدة للمقاطعة بالإضافة إلى مركزية أحلام الأطفال. وقد عرضت الأفكار المتعلقة بالمشاريع ذات النتائج المبكرة على شكل ثمار قريبة من الأرض بينما عرضت تلك التي تحمل إمكانيات أطول على شكل ثمار عالية. أما عروض السوق فقد جمعت معاً لِيُنظر إليها على مستوى أشجار المقاطعة على أنها « حديقة الإنجاز »، وهي التي وضعت الأسس لعمل أكثر تفصيلاً يفضي بالعملية إلى مرحلة المصير.

كان الهدف هو إدخال مشروع « تخيل ناغالاند » في الخطة العشرية للولاية، وبالتالي جلب الدعم المالي من المانحين في القطاع الخاص والشركات للبرامج التي لم يكن بإمكانها الحصول على تمويل حكومي، لذلك تم تسهيل عملية جمع هذه الأشجار ضمن « حديقة الإنجاز » من خلال إحدى الفعاليات الرئيسية في وزارة تخطيط الولاية، وهو شخص كان قد أمضى ثمانية عشر عاماً في العمل داخل المناطق الريفية، زار خلالها 1000 قرية من القرى الألف والمائة في الولاية.

أصوات الأطفال والشبان

« حول تخيل ناغالاند »

- «لقد حان الوقت لإخراج الثقافة من الغرف الدراسية وجلبها إلى منازلنا وقرانا ومجتمعاتنا».
- «من الواضح أن ما نواجهه اليوم هو عاقبة ما التزم به أسلافنا. لذلك فالوقت مناسب الآن لإعادة صياغة مجتمعنا مرة أخرى وإلا فإن المستقبل سيكون نتاج حاضرنا اليوم وسوف نتحمل مسؤولية ذلك».

أصوات تابع

- «إذا أهملنا بيئتنا، نكون نحن المدعين ضد أنفسنا والقضاة والمحلفين والجلادين».
- «أي نوع من التفاهم الإنساني هو طريق ذو خطين» .
- «الأطفال هم قيادات الغد، لذلك يتوجب علينا أن نحسن تثقيفهم إذا أردنا أن نقاد بطريقة جيدة» .
- «يجب أن يسمح للطفل بتركيز وتطوير توازنه العاطفي، كما علينا أن نساعد على رعاية مواهب الأطفال وقدراتهم. ولا يجب أن تعطى الأهمية للطفل بناءً على ذكائه فقط بل بناءً على إنجازه الأكاديمي» .
- «أنا أتخيل ناغالاند حيث الناس أقل شكوى وأقل انتقاداً، وحيث الأطفال يدخلون المدارس بحماس نتيجة المرافق الجيدة والنشاطات المنهجية الجيدة. وأتخيل القرى وهي تشارك في تنمية نفسها والجميع واعٍ لإرثه الحضاري، ويشارك فيه» .
- «إن ناغالاند رغم تنوعها واختلافها، يمكن أن تبقى متحدة بسبب وجود رغبة متأصلة بالانسجام لدى شعبها» .
- «ناغالاند هي أرض الاحتفالات وهذه الاحتفالات تتم عندما نتحد جميعاً – لذلك لماذا نبقي هذا الإطار الذهني في عقولنا طوال العام» .
- «لننسَ السلام بعض الوقت ولندعُ إلى الوحدة. فالسلام سيظهر في الصورة عبر تطوير الوحدة» .
- «من الأفضل إشعال شمعة واحدة بدلاً من لعن الظلام» .
- «أرغب أن تصبح ناغالاند أمماً متحدة» .
- «يجب إعطاء الفرصة للنساء كي يفصحن عن أفكارهن ويتحدثن بها، كذلك يجب تشجيعهن على إدراك أن مشاركتهن النشطة ضرورية لتطور المجتمع. وهذه المشاركة تبدأ بمساواتهن في المشاركة على جميع الأصعدة» .
- «لا يجب إخضاع التلاميذ للمعلم – بل يجب أن يتم التنسيق مع المعلم لإتاحة المجال للتلاميذ للوصول إلى قدراتهم الحقيقية» .
- «الحياة البرية والمحميات تعلم الأطفال أكثر من ألف كتاب» .

إحدى الأحداث الرائعة التي جاءت كمكسب إضافي من ورشة العمل الاستكشافي الثانية، كانت اكتشاف فنان شاب موهوب عبَّر عن شكره للقائمين على الورشة برسم سريع لصورة تخيلية شملت رؤيته لعملية « تخيل ناغالاند » وقد أصدر هذا الشاب لاحقاً مجموعة رسومات مدهشة لقمة الحلم والتصميم ضمّت رسومات لكل موضوع من موضوعات « تخيل ناغالاند ».

كيلهوسيدينيو: بداية الحياة:

قام ماهيتس بهات وهو أحد كبار مخرجي الأفلام في الهند بأخذ صور بالفيديو لقمة الحلم والتصميم. وقد صوّر الفيلم الذي صدر تحت عنوان « كيلهوسيدينيو أو بداية الحياة » أحلام الأطفال ونشاطاتهم ومشاركتهم في تخيل المستقبل. وكجزء من العرض الذي قدّمه ماهيش بهات، الذي لم يكن قد سمع بالبحث التقديري ولا زار ناغالاند من قبل، طلب القائمون على الورشة منه أن يشعر بتأثير الأطفال وأن يطلق العنان لنفسه لينقاد مع اندفاع العملية ونتائجها. كما طلبوا منه أن ينظر إلى القمة من منظور يضعها في مرحلة من ثلاث طبقات، الطبقة الأولى هي صوت الأطفال، والثانية مشروع تخيل ناغالاند والأخيرة عملية المصالحة التي تجري في الولاية.

وقد التقط الفيلم الذي تصوره ماهيش بهات تجربة شخص يزور الولاية للمرة الأولى، مع كل الذعر التي تحمله الزيارة نتيجة قصص النزاع المسلح الدائر في ناغالاند. كما يصور الفيلم الرحلة المثيرة لعبور النفق المظلم – أي الولاية التي تمتلئ قلوب سكانها بنذر الشر، واليأس والخوف والإجهاد – ومن ثم الخروج إلى ضوء الأمل والثقة والنشاط والقوة والرغبة في الحلم. وقد استطاع الفيلم تخليد الروح التي لا تُقهر لشعب ناغالاند وتصميمه على التحرك قدماً بعزيمة وأمل متجدد.

مرحلة المصير أو العمل

من ضمن التحضيرات لمرحلة المصير النهائية (وقت صدور النشرة) عمل فريق التخطيط الحكومي للحصول على قناعات حول نتائج قمة الحلم والمصير من أطراف

معنية أكثر على مستوى المقاطعة، ولتطوير أفكار البرنامج على شجرة الإنجازات كي تصبح مقترحات قابلة للدعم المالي من أجل عرضها على المانحين المحتملين.

وقد ركّز هذا التمرين الاستراتيجي في التخطيط على أحلام الأطفال وتوقعاتهم واشتركت فيه منظمة اليونيسيف بالإضافة إلى فريق من المستشارين التابعين للوكالة الأسترالية للتنمية الدولية. وأمضى المستشارون وقتاً مهماً مع الهيئة المركزية للتخطيط الاستراتيجي وناقشوا أفضل الطرق لدفع المبادرة إلى الأمام. وقد بيّنت تجربتهم لكبار مسؤولي الحكومة كيف يمكن وضع مجموعة من المقترحات المتعلقة بمشاريع التنمية تتماشى مع توجهات الخطة الخمسية العاشرة للهند للحصول على تمويل محتمل. ويعتبر إنشاء النظام الحديث لتوحيد المؤسسات والخدمات العامة في ناغالاند خطوة مهمة على هذا الطريق.

منذ ذلك الحين، بذلت حكومة الهند جهداً لتركيز اهتمام المانحين على المنطقة الشمالية الشرقية بأكملها من خلال عقد مؤتمر للمانحين حيث شاركت ناغالاند بقوة في هذه العملية. وحالياً تجتذب السياحة البيئية والتعليم والإيدز اهتمامات المانحين.

الخلاصة

بدأ شعب ناغالاند رحلته منذ سنتين، كجزء من الحركة العالمية من أجل الأطفال، وكانت رحلة مثيرة بقدر ما واجهت تحديات. ولعب مشروع تخيل ناغالاند دوراً في إطلاق التغيير في الحوار الداخلي (قوالب التفكير اليائسة والمجهدة والساخرة التي ميزت منظورات الشعب) الدائر بين أعداد كبيرة من الناس الذين يعيشون في منطقة النزاع. ومجتمع ناغا يدين بالمسيحية بشدة ويتطلع نحو ضرورة التسامح والمصالحة من أجل التغلب على النزاعات. ولكنه بدلاً من أن يتوه في الماضي، استطاعت عملية « تخيل ناغالاند » أن تركز طاقات واهتمامات أطفاله وشبابه وبالغيه قدماً عبر استنباط الإمكانيات الإيجابية الأفضل من الماضي. واليوم يجرؤ آلاف الناس على الحلم بمستقبلهم وعلى تخطيطه، وينتظرون موعداً مع المصير الذي يساهمون في

وضعه. وقد شارك فريق من الشباب بقيادة أحد القائمين على الورشة في « الاجتماع العالمي للتخيل » الذي عُقد في شيكاغو عام 2002 حيث تم تبني رسمة أحد الفنانين الشباب وهو عضو في الفريق، لتكون شعاراً للاجتماع وتسعى حكومة ناغالاند لمتابعة عملية التخطيط والتنفيذ ضمن أطرها. ولكن الأهم من ذلك هو ترسيخ مبادرات مستقلة أخرى، تستخدم البحث التقديري وتخيل التعايش كمنصة للانطلاق. فعلى سبيل المثال، قامت شبكة من المدارس التي تملك فروعاً في ناغالاند وسائر مناطق الشمال الشرقي باستخدام البحث التقديري لإعادة التفكير في مقاربات التعليم كجزء من تمرين تخطيط استراتيجي وطويل الأمد.

ملاحظات :

1. Imagine Nagaland was conceived by Peter Delahaye, deputy director, UNICEF India, and Bharat Krishnan, management adviser, as part of the Indian government's "Vision Nagaland."
2. Sanjoy Hazarika is managing trustee of the Centre for North East Studies and Policy Research. These comments were made on the occasion of the visit by Naga social reformist Niketu Iralu to Delhi in September 2001.
3. Involving citizens in sharing and working towards positive images of their community's future unleashes energy and commitment. Across the world, "Imagine" projects, inspired by the original Imagine Chicago, have begun in places as far ranging as West Australia, Scotland, Nagaland, Cape Town, London, Detroit, Denmark, and Vojvodina in Yugoslavia. These projects are discovering that hope can be cultivated through constructive dialogue, community engagement, and the forging of meaningful intergenerational connections.
4. The "glue" expression hails from Imagine Chicago's search for key people that made Chicago tick.
5. The Naga Reconciliation Initiative, begun in August 2001 by a resolution of representatives of various mass-based Naga organizations, called for "journeys of healing" internally among the Naga tribes and externally with other communities.

مراجع :

Cooperrider, David L., and Diana Whitney. 1999. *Appreciative Inquiry.* San Francisco: Berrett-Koehler.

ملحق

إرشادات حول مقابلات مشروع تخيل ناغالاند

ناغالاند مستقبلنا

جميعنا نتقاسم الإحساس بالفخر الكبير بحضارتنا وبطبيعة شعبنا الذي يعمل بكد واجتهاد، وبوفرة تنوع النباتات والحيوانات في بلادنا. لقد بذلت جهود حثيثة من أجل السلام والوحدة في الولاية، ونحن الآن في أنسب وقت يمكننا فيه البدء ببناء مستقبل جديد ومزدهر لأنفسنا. وكأشخاص بالغين نعتبر أنفسنا أمناء وحماة لأروع مستقبل يمكن أن يتوقعه أطفالنا ميراثاً لهم. وكأطفال، نحن مدينون لكبارنا في اعتمادنا على جميع الأشياء الجيدة التي منحوها لنا من خلال عملهم الجاد ومن قيمهم.

والأمر منوط بنا جميعاً الآن، سواء كنا أطفالاً أو بالغين كي نعمل معاً لبناء ناغالاند التي سنكون حقيقة جميعاً فخورين بها ونعتمد على قدراتنا الخاصة ونتعلم من أخطائنا، مع بقاء تفكيرنا دائماً تفكيراً إيجابياً بالحلم الذي نتشارك به جميعنا. إننا نملك الوعد والمصير كما أننا نحمل جميعنا فرداً وجماعة مسؤولية التأكد من أننا نسير في هذه الرحلة التنموية الرائعة لناغالاند بروح موحدة ومتفائلة.

وضمن هذا السياق، أطلب منكم أن تتشاركوا في قصصكم وتجاربكم وأحلامكم خلال الساعة القادمة، لعل هذه المشاركة تتيح لكم فرصة رائعة لتصبحوا شركاء في هذا البرنامج المثير «تخيل ناغالاند».

- كمواطن في ناغالاند، هل تشعر بارتباطك بها، ما هي الأشياء التي تُشعرك بأنك جزء من ناغالاند؟
- نشعر جميعنا، بأنه إذا طرأ تحسن على بعض الأشياء، فستصبح ناغالاند مكاناً أفضل للعيش. برأيك، أي الأصعدة يتوجب التركيز عليها كي نجعل هذه الولاية في وضع أفضل؟

- هل يمكنك تذكر حادثة شاهدتها أو سمعت عنها، ورغبت بالمزيد من نوعها كي تصبح ناغالاند مكاناً أفضل للعيش؟
- كل طفل يحمل إمكانية تطوير قدراته، لذا كيف تنظر إلى مستقبل ناغالاند حيث يمكن لكل طفل يحمل هذه الإمكانيات أن يسهم بعد عشر سنوات في تعزيز تطور وتمدن مجتمع سليم في الولاية؟
- اغمض عينيك وتخيل نفسك مسافراً عبر آلة الزمن لسبع أو ثماني سنوات في المستقبل وانظر إلى ناغالاند التي تغيرت تماماً، هل يمكنك أن تصف لنا ما هو نوع التغيير الذي حصل (سياسي، اجتماعي، ديني، اقتصادي، ثقافي) في هذه الولاية؟

التعليم والتوظيف

رغم أن رياح السلام التي تهبّ على ولايتنا، تحمل معها إحساسات بالأمل لسلام وحياة أفضل إلا أنها تحمل أيضاً صيحات ألم صادرة عن الأطفال وعن الكبار، مطالبة بتعليم نوعي، وخاصة في المرحلة الابتدائية. ويتوق الجميع الآن لضمان أن يعطى جميع الأطفال، وخاصة الفتيات منهم فرصة للتسجيل في المدارس بالإضافة إلى دفعهم لمتابعة دراستهم من خلال إنشاء نظام مدرسي يمتاز بالرعاية والتقدير والتشجيع. ويتشرب حبّ التعليم بانتظام والرغبة في تسجيل نجاحات جديدة في جميع مساعيه، وبناء على القيم التقليدية لسكان ناغالاند.

يوجد الكثير لنفعله من أجل تحويل نظامنا المدرسي والتعليمي ليصبح أكثر قرباً للمتعلم وأكثر متعة وأفضل نوعية. إذ يجب تعليم الطلاب قيماً متعلقة بشرف العمل. إن التحدي الذي يواجه مهمتهم هو بناء مجتمع إنساني وحيوي ومزدهر في ناغالاند.

ولا يمكننا الإفراط في التأكيد على الدور الحيوي الذي يلعبه المعلمون. إذ يتوجب توعية المدرسين بأن مهمتهم هي مهمة هامة جداً وتاريخية من حيث أنها تتضمن قولبة عقول النشء اليوم ليكونوا مواطنين مسؤولين في المستقبل. لأن في تقبلهم مسؤولية خلق جو ممتع للتعليم وفي تصديهم لهذه المهمة الجوهرية التي ائتمنوا بها، يتعلق مستقبل مجتمعنا.

- هناك إدراك واسع اليوم لحقيقة أن التعليم يجب أن يكون أكثر جذباً وإمتاعاً. ما هي باعتقادك الطرق التي يمكن فيها جعل نظامنا التعليمي ممتعاً وذا معنى ومناسباً لجميع مستويات التعليم – الأولية والابتدائية والثانوية والعالية؟
- نحن كمجتمع، هل نشجع أطفالنا (فتياناً وفتيات) على مواصلة تعليمهم؟ ما هي الخطوات التي يتوجب علينا أخذها لكي نشجع الأهالي وقيادات المجتمع على ضمان حصول كل شخص في المناطق الحضرية والريفية على تعليم جيد؟
- نرى العديد من الرياديين في مجتمعنا. ما الذي جعلهم يفكرون ويعملون بطريقة تختلف عن الباقين منا؟ إذا كنت تعرف أحد هؤلاء الرياديين، هل يمكنك أن تخبرنا قصته أو قصتها؟ هل أنت فخور بمعرفة مثل هذا الشخص؟
- إذا كنت أنت وزيراً للتعليم، ما هي الخطوات الثلاث التي يمكن أن تتخذها لجعل النظام الحالي أكثر توجهاً نحو الريادية وتوظيف الناس؟
- إذا كنت زعيماً لعشيرتك، ما هي الخطوات الخاصة التي يمكن أن تتخذها؟
- من أجل أن يحصل كل شخص في ناغالاند على مصدر رزق مستدام وذي معنى (سواء كان الأمر يتعلق بوظيفة أو عمل حر)، كيف يمكننا تجهيز طلابنا وشبابنا من أجل أن يحققوا هذا الحلم؟

التنمية العادلة

التنمية العادلة هي مطلب الساعة في ناغالاند، وهي تعني وصول خيرات ومنافع التنمية إلى كل جزء من مجتمعنا بشكل متناسب. كما أنها تعني أيضاً أن تسير عملية صنع القرارات والمحاسبة والتنمية يداً بيد على جميع مستويات نظامنا الاجتماعي، سواء كنا في قرية أو مقاطعة أو ولاية. وكل مجتمع مسؤول عن التخطيط لتنميته بدعم من الدولة.

هناك حاجة لتركيز الاهتمام في التوجه نحو تنمية متوازنة على الأصعدة التالية:

- تنمية جغرافية وإقليمية متوازنة، بدءاً من الأسباب الأساسية للحياة السعيدة.

- تمثيل عادل في جميع هيئات وشرائح صنع القرار، مع إعطاء الصلاحيات على جميع المستويات ذات الصلة بالموضوع.
- تنمية اقتصادية وإيجاد فرص عمل.
- فرص متساوية للفتيات والنساء في التنمية الشاملة.

نحن نطمح إلى تعزيز هذه التوجهات ولكن الأمر يتطلب مشاركة وقيادة من كل شخص في ناغالاند. وهذا هو بالذات الموضوع الذي جئنا نتناقش به معكم من أجل مشاركتكم في قصصكم وتجاربكم.

- إذا استعدت النظر في مجتمعك، هل يمكنك أن تتذكر مناسبة التقى فيها الناس (رجالاً ونساءً) من مختلف الخلفيات وشاركوا في اتخاذ القرارات؟
- هل نحن راضون عن الوضع الحالي للنساء والأطفال في مجتمع ناغالاند؟ إذا كان الجواب لا فكيف نبدأ؟
- لا يمكن للتنمية المتوازنة والعادلة أن تجري دون وجود عدالة وإنصاف واستقامة وشفافية. هل يمكنك إيراد أمثلة عن هذه الأمور في مجتمعك؟
- إذا نُصِّبت رئيساً للجنة التنمية في مقاطعتك، ما الذي يمكنك فعله لضمان مشاركة متوازنة من شعبك وتوزيعاً عادلاً للمنافع بعد ذلك؟

البيئة والتنمية

ناغالاند، بلاد جميلة، تتميز بوجود تنوع واسع من النباتات والحيوانات الرائعة. يعتاش الناس على هذا الإرث البيئي الغني، ولكن هذا الإرث يحتاج اليوم إلى من يصونه ويحميه ويحافظ عليه لأنه أصبح مهدداً.

تسعى ناغالاند اليوم من أجل تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية أكبر، وينصب اهتمامها على أحداث تنمية مستدامة تضمن بيئة مستدامة. والتوازن هنا بين حماية البيئة والتنمية المستدامة هو الجواب على تعزيز نوعية ومعنى الحياة في ناغالاند وهذا هو التحدي الذي يقف أمامنا. وحول هذا الموضوع، نود أن نمضي بعض الوقت في التحدث معكم:

- الموازنة بين البيئة والتنمية تفضي إلى حياة أفضل. هل يمكنك أن تتذكر بعض الأمثلة حول هذا التوازن في منطقتك؟
- ما هو باعتقادك، الدور الذي يجب للمجتمعات أن تلعبه، ناهيك عن الناس والحكومة، من أجل حماية هذا التوازن البيئي؟ اعتمد على تقاليدك التاريخية في ذكر بعض الأمثلة.
- بأي طريقة، تشعر أن مثل هذا التوازن الدقيق يمكن استعادته أو تشجيعه؟
- التنمية تعني عادة استخراج شيء من الأرض أو من الموارد الطبيعية. كيف يمكننا تعويض الطبيعة عن كل ما تقدمه لنا؟

الوحدة والسلام واحترام الجميع

الوحدة هي شعور بالانسجام دون وجود عوائق قبلية أو مجتمعية أو إقليمية. وجميعنا قادة وشعباً نحتاج لأن نتعلم كيف نسامح بعضنا البعض ونبقى متحدين من أجل الصالح العام لشعبنا، ومدركين أننا كبشر، لسنا كاملين أو معصومين عن الخطأ.

السلام يعتبر أهم عامل في أي تطور إنساني أو اقتصادي ذي معنى. علينا أن نبني جسور التفاهم من أجل تحويل آمالنا إلى حقيقة. وهناك ضرورة ملحة لتشكيل بنىً ديمقراطية في مجتمعنا.

وأمام السياق الحالي، فإننا نحتاج إلى توجه جماعي نحو معيشة اجتماعية سليمة. كيف يمكن لأي منا أن يسهم في هذا الجهد المبذول لبناء ناغالاند بحيث تساعدنا الوحدة التي يتمتع بها شعبنا والسلام السائد في مجتمعنا على السير قدماً نحو المستقبل مع باقي دول العالم.

هذا هو الموضوع الذي نطلب منكم الإسهام في إغنائه بمعلوماتكم:

- ماذا يعني السلام بالنسبة لك، وما هي آخر مرة تذكر فيها مثل هذا السلام؟
- متى كانت آخر مرة شعرت فيها بالفخر لكونك مواطناً في ناغالاند؟ هل يمكنك شرح هذه المناسبة الخاصة؟

- هل التعددية تعني الغنى بالنسبة لك تماماً مثلما ينظر إلى التعددية في النباتات والحيوانات على أساس أنها غنى الطبيعة؟ ثم لماذا نحن كشعب نكافح من أجل احترام التعددية بيننا؟
- ما هو الدور الذي يمكننا أن نلعبه كأشخاص باتجاه نشر السلام والوحدة؟
- إذا ذهبت في رحلة عبر الزمن إلى العام 2010، كيف ترى ناغالاند؟ ماذا يمكننا أن نعمل لنجعل حلمك يصبح حقيقة.

تعزيز حكم القانون

حكم القانون هو سمة المجتمعات المتحضرة، كما أنه يعتبر مؤشراً على احترام القوانين والأنظمة التي تم تأطيرها عبر الأساليب الديمقراطية، والتي تتبع التقاليد والعادات الحسنة، والانضباط والعدالة والإنصاف والتسامح أمام الحقد، والاهتمام بالناس الآخرين والإحساس بالمواطنة وحشد القيم التي تغني الحياة. وحكم القانون يلائم نسبياً الفئات الأكثر تعرضاً في المجتمع مثل النساء والأطفال والعجزة.

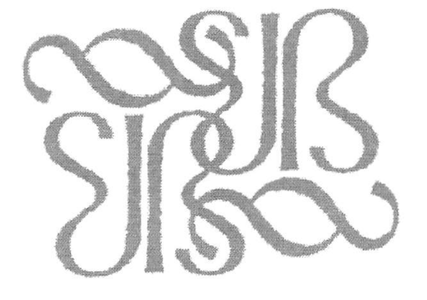
برزت ناغالاند خلال هذه الألفية على شكل مجتمع حديث متعلم ومتنور تعم فيه أجواء الشعور بالأمل والتفاؤل. وقد كان حجر الزاوية في هذا التقدم هو الاحترام العميق للقيم والتقاليد ولحكم القانون. ولكن هذه المسيرة نحو السعادة والوحدة والسلام والتنمية، بما فيها حماية الموارد الطبيعية، تعتمد على نسبة كبيرة من التسامح والانسجام والاهتمام بالآخرين، وجميع هذه الأمور تأتي من الالتزام بحكم القانون – سواء كان مكتوباً أم غير مكتوب.

وتشكل التوجهات الحديثة في جهود السلام سبباً من أسباب الأمل الكبير بالنسبة لنا، ونحن نرغب في التفاعل معكم حول هذا الموضوع المهم بحيث يمكننا تعزيز حكم القانون في ناغالاند لما فيه صالح جميع المواطنين.

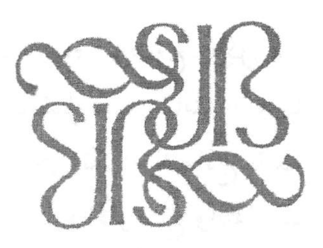
- كيف يقوم حكم القانون بمساعدة مجتمعنا؟

- نحن نكافح جميعنا لتأمين سعادة مواطنينا ولبناء مجتمع سليم. هل تشعر أن الالتزام بحكم القانون، سوف يعزز هذه العملية ويحسن من نوعية حياتنا؟
- هل تتشارك معنا في معظم الأصعدة المهمة التي يعود تعزيز حكم القانون فيها بفائدة للمجتمع؟
- هل يمكننا استذكار تجربة شهدت فيها تأثيراً إيجابياً لحكم القانون؟
- هل يمكنك إعطاؤنا بعض المقترحات العملية التي يمكن أن تجعل من حكم القانون أكثر جذباً للناس وأكثر فاعلية في التطبيق؟

دعونا نكون واقعيين. دعونا نفعل المستحيل



أرنستو غيفارا



الفصل العاشر

نحو نظرية وممارسة البحث التقديري في عملية بناء السلام المعقدة وفي سياقات التنمية

بقلم ماري هوب شفوبل وأرين ماكاندلس

يناقش هذا الفصل التطبيقات المحتملة للبحث التقديري في عملية بناء السلام المعقدة وفي أوضاع التنمية، وكذلك في تسهيل بناء النظرية والممارسة المرتبطتين بهذين الحقلين. ويلقي الكاتبان الضوء على الفرضيات والمقاربات المألوفة في بناء السلام والتنمية وفي البحث التقديري كمؤشر إلى إمكانية وجود تكامل مثمر. كذلك يخاطب الكاتبان الانتقادات المنهجية والمعرفية للبحث التقديري، خاصة فيما يتعلق بسياقات العنف المباشر والبنيوي بالإضافة إلى الفقر. وكمثال مأخوذ عن صندوق الدعاية والتنمية للمجتمع الإفريقي، توضح إحدى المنظمات غير الحكومية في زمبابوي كيف يمكن الجمع بين مقاربات البحث التقديري وبين مقاربات حل المشاكل من أجل معالجة الأوضاع بطرق تعزز قوة الشعب والمجتمعات من أجل إحداث تغييرات بنيوية واجتماعية، وكيف يمكن التغلب على بعض نواقص البحث التقديري عند استخدامه لوحده في مثل هذه السياقات. ويختتم الفصل باقتراح طرق إضافية يمكن فيها تكييف البحث التقديري من أجل إيجاد سلام إيجابي وتغيير اجتماعي إيجابي أيضاً.

*

هناك إدراك متنامٍ لدى أوساط بناء السلام والتنمية، بأن المقاربات المستدامة نحو إحداث تغيير في النزاعات المتجذرة ونحو التغلب على تحديات التنمية، هي تلك التي



تعزز قوة الشعب من القاعدة إلى القمة كالمشاركة والحساسية تجاه الموضوع. وكل من هذين الوسطين أخذ يولي انتباهاً أكبر للحالات المتعلقة « بأفضل الممارسات » أو ما يعمل منها جيداً بهدف تكرار تطبيقها في سياقات أخرى. ولكن تكرار النماذج أثبت تاريخياً بأنه لا يفضي إلى النتائج المرجوة حينما لا يأخذ في اعتباره الأوضاع والثقافات المحلية، في نقل النموذج إلى أوضاع مختلفة. والبحث التقديري يعتبر وسيلة ديناميكية لا تأخذ هذه الأمور في اعتبارها، بينما تولي تركيزها على ما ينجح عمله ضمن رؤية لما يمكن أن يصبح. مثل هذا التوجه يخلق مساحة نشطة للتغيير الاجتماعي، ومرغوبة من قبل العديد من الأكاديميين وصانعي السياسات في بحثهم عن بدائل للنماذج المهيمنة التي تبني قراراتها على فرضيات متشائمة وممارسات مادية مجردة.

ولكن النقاد قد ينظرون إلى البحث التقديري على أساس كونه نوعاً من المقاربات المتجذرة في المثالية الساذجة والتي تجعلك تشعر بالراحة. ومع وجود نزعة لدى عدد من الأكاديميين والمتمرسين في هذا العمل تميل إلى انتقاد النظرية وإلى إبداء القلق حول الطرق التي يتسبب فيها وجود بنى معينة في إثارة العنف واستعباد الشعوب، فإننا نعتقد بوجوب تكييف البحث التقديري منهجياً ونظرياً لمعالجة مثل هذه الشؤون. مثل هذا الأمر ينطوي على اعتبار الأسس المعرفية التي تقف وراءه، كي لا يصل الأمر بالغيورين عليه بالحكم عليه بأنه لا يصلح إلا للذين يقتنعون به فقط. فلا الجميع يؤمنون بأن كل شيء بناء ولا بأننا نملك القدرة الحتمية لإيجاد فرص في الحياة وإعادة خلق الظروف التي توقد تجاربنا. وهذه الأخيرة، كما يناقش الجميع يمكن أن تكون قد ولدت معنا أو نكون قد اكتسبناها، ومثل هذه الظروف يمكن أن تُحدَّد بنيوياً من خلال الظروف البيئية أو ظروف المؤسسات أو الممارسات الحضارية التي تحيط بنا.

ويهدف هذا المقال التأملي إلى وضع الأسس لكي يتماشى البحث التقديري مع معالجة الموضوعات المذكورة أعلاه حتى ولو شكّل قضية لمنفعة أساليب البحث التقديري بالنسبة لهؤلاء العاملين في مجالات بناء السلام والتطوير حيث أولوية الاهتمامات هي في كيفية تسهيل إحداث تغيير اجتماعي إيجابي. وقد تمت مناقشة

حالة دراسية من أعمال الصندوق الإفريقي لنشر العمل الاجتماعي والتنمية في زمبابوي وهي حالة مبنية على نفس الافتراضات التي يستخدمها البحث التقديري وتتبنى استراتيجيات مشابهة له من أجل إحداث تغيير شخصي واجتماعي بين المشاركين ضمن سياق تنمية بشرية لم يتم تحقيقها أو عنف بنيوي ومباشر.

وعبر الحالة الدراسية والتحليل المرافق لها، نبين أن البحث التقديري يتلاءم مع معالجة العنف البنيوي والمباشر طالما بقي هذا البحث متحركاً ومتماشياً مع سياقات معينة. وقد يتطلب هذا الأمر مناقشة شاملة من قبل المتحمسين للبحث التقديري حول أي من الفرضيات أو المبادئ يجب أن يعتبر جوهراً لا يقبل التغيير في تعريف البحث التقديري وأي منها يمكن أن يتماشى مع السياق. أحد هذه الاعتبارات على سبيل المثال هو السؤال المتعلق بحل المشاكل والذي لا يدخل ضمن نطاق عمل البحث التقديري كما بيّن منظّرو هذا البحث. وكما توضح الحالة الدراسية التي نحن بصددها، فإن المقاربات الإيجابية والمقاربات المتعلقة بحل المشاكل ليست بالضرورة متعارضة تماماً. إذ أنها في مثل هذه الحالة الدراسية التي تسود فيها المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، تعتبر مكمِّلة لبعضها البعض، إذ يتم فيها تعزيز قدرات المجتمعات المهمشة والمسحوقة من أجل إدراك مواهبها وقدراتها (المقاربة الإيجابية) بحيث تتمكن من توسيع وشحذ مهاراتها لمعالجة المشاكل البنيوية الهائلة المحيطة بها. وهنا تشكل رؤية إمكانيات جديدة وخلق فرص جديدة جزءاً من هذه العملية.

مقاربة البحث التقديري من أجل التغيير

يعرَّف البحث التقديري على أنه بحث تعاوني عن القدرات والعواطف وقوى الحياة الموجودة داخل كل نظام، والتي تحمل في طيّاتها إمكانية للتغيير الإيجابي والملهم.

والبحث التقديري هو عملية بحث تعاوني مبني على المقابلات والأسئلة الإيجابية التي تخرج إلى العلن أفضل وأرقى الصفات في نظام ما أو وضع أو إنسان. ومثل هذه الأخبار والروايات الجيدة التي يطلق البحث التقديري لها العنان تعمل على إثراء الهوية والروح والرؤية، وتستنبط الاستراتيجيات لإحداث تغير مقصود مبني

على أفضل المساعي لتحقيق الأحلام والإمكانيات حول ما يمكن للوضع أن يصبح عليه. (كوبررايدر وسريفاستفا، 1987).

هناك عدة افتراضات تقع ضمن أسس البحث التقديري، وتحكي هذه الافتراضات أن الحقيقة يمكن أن توجد بالمشاركة عبر لغة الشعوب وأفكارها وتصوراتها ومعتقداتها حول الحقيقة نفسها؛ وأن عملية طرح الأسئلة تؤثر في حقيقة النظام بنفس الطريقة (أي أن الأسئلة نفسها هي طريقة للتدخل)؛ وأن نوعية الأسئلة المطروحة تحدد نوعية الأجوبة المتلقاة وأن الناس يظهرون ما يركزون عليه ويتجهون نحو ما يسألون عنه. كذلك يعمل البحث التقديري على إشراك الناس في تغيير مؤسساتهم ومجتمعاتهم فهو بحد ذاته يشكل مقاربة منهجية شاملة للتغيير تسأل عن الأطراف المعنية بالعملية والأطراف التي تتأثر بها (كوبررايدر وويتني، 1999).

والبحث التقديري في أساسه، عملية حوارية، تحمل معها أسئلتها واهتماماتها حتى تصل إلى عمليتي تخطيط وتنفيذ التغيير الاجتماعي. وهي عملية تتألف من أربع مراحل وتعرف باسم دائرة 4-D . وعندما يتم اختيار الموضوعات ذات الاهتمام ورقعة تركيزها، يبدأ إجراء المقابلات من أجل اكتشاف القدرات والعواطف الموجودة داخل النظام ومن أجل تحديد الأنماط والموضوعات والإمكانيات. وتسمى هذه المرحلة، مرحلة الاكتشاف وتتعلق بتقدير وتقييم أفضل الموجود. أما المرحلة الثانية فتسمى مرحلة الحلم وتتضمن رؤية ما يمكن أن يكون، مطلقةً تصريحات جريئة حول إمكانيات مثالية. تسمى المرحلة الثالثة مرحلة وضع التصاميم أو التخطيط وتشمل إقامة حوار حول كيف يجب أن يتم الأمر، خاصة من ناحية الأولويات والمبادئ. والمرحلة الرابعة والأخيرة هي مرحلة تقرير المصير أو التسليم وتتضمن ابتكار ما سيحصل من خلال القيام بالتحرك ومواصلته.

ويتعلق الأساس المبدئي والمعرفي المركزي في البحث التقديري بمسألة التفسير – أي الفكرة القائلة بأن البشر يفسرون الحقائق بناءً على تجاربهم وأن هناك تمازجاً بين معرفتهم ومصير أنظمتهم.

ويكتب كوبررايدر، وويتني

> يذكرنا مبدأ التفسيرية بأن العالم هناك لا يملي علينا أسئلتنا، بل إن الموضوعات تنتج عن العمليات الاجتماعية (العادات الثقافية، علاقات القوة، البلاغة) والبحث التقديري يتحقق من أننا لا نعيد إنتاج عوالمنا مرات ومرات فقط عبر تكرار ساذج وممل لأسئلتنا... كذلك يقول لنا البحث التقديري، بإثارة، أن هناك مكاسب كبيرة نحققها من خلال الربط بين طرق الأسئلة ونهاياتها (1999، 26-27).

ومبدأ التفسيرية هو السبب الذي يدفع ممارسي ومنظري البحث التقديري للتأكيد على أن المبادئ التي تقف في أسس البحث التقديري تستثمر فيه إمكانية إحداث تغيير اجتماعي جذري. وعلى عكس هؤلاء الذين ينتفعون من الحقيقة الحالية ومن الوضع الراهن، يقترح البحث التقديري بأن عالماً أفضل هو عالم حقيقي، وأن هناك قصص نجاح موجودة حالياً حول التغيير الإيجابي وأن الناس تملك الموارد (أو على الأقل بعضها) الضرورية لإحداث هذا التغيير. « ومن خلال إدراكنا وتقديرنا لما هو موجود » (كما يبين كوبررايدر وويتني)، تتأسس أحلام المستقبل في الحقيقة وتصبح قابلة للتصديق (1999، 21). وتعزى الإمكانيات الجذرية للبحث التقديري إلى التغيير الاجتماعي أولاً وثانياً إلى مبدأ التزامن الذي يحافظ على تزامن الوقت بين البحث والتغير. ويعمل البحث التقديري على إشراك الأطراف المعنية من جميع الأنواع والمستويات في عمليتي تعلم وإبداع مشتركتين وتعاونيتين « عندما ينمو وعي كل شخص في الوقت نفسه يصبح من السهل الإيمان بإمكانية التغيير الجذري » (كوبررايدر وويتني، 1999، 18).

أما المبادئ الأخرى المشجعة على التغيير والتي توجد في أسس البحث التقديري فهي المبدأ الشاعري، ومبدأ التوقع والمبدأ الإيجابي. وينص المبدأ الشاعري على أن أي قصة لنظام ما تتواصل دائماً مع مؤلف جديد، أما مبدأ التوقع فيقول بأن ما يتوقعه الناس هو الذي يقرر ما الذي سيجدونه. ويفترض المبدأ الإيجابي أنه بينما تتعزز صورة الحقيقة، تبدأ التحركات بالاصطفاف وراء الصورة الإيجابية.

حالة دراسية: نشر المعلومات من خلال المجتمع في زمبابوي

يصف جرفاز بوشي وثوماس بيتمان (1991) عملية البحث التقديري على أنها مقاربة نظرية وعملية من أجل التأثير على التغيير الاجتماعي، مبنية على المبدأ القائل بأن التغيير يمكن أن يحدث من خلال الإصغاء لرغبات الشعوب بدلاً من الإصغاء إلى مشاكلها، ولكنه مع ذلك يحافظ على التوازن بين المقاربات التقديرية والمقاربات التي تعمل على حل المشاكل.

ويعتبر الصندوق الإفريقي للتنمية ونشر المعلومات عبر المجتمع (ACPDT) في زمبابوي منظمة غير حكومية استطاعت تطوير منهجية فريدة وناجحة جداً في تعزيز قدرات الناس والمجتمعات وسط سياقات اجتماعية صعبة، تسود فيها حالات الفقر والعنف الجسدي والبنيوي. وتصف المنظمة عملها بالطريقة التالية:

« عبر عملية تنظيم وتنمية معلومات مبنية على إشراك المجتمع، تهدف إلى تعزيز قدرة الفئات المهمشة على استخدام طاقاتها الخلاقة لبناء قيادة ديناميكية ومعالجة مسائل الفقر، وتحمل مسؤولياتها في الحياة إضافةً إلى اتخاذ القرارات التي تصنع مستقبلها (بوند – ستيورات وآل 2002) ».

ورغم أن المنظمة لا تشير مباشرة في عملها إلى نصوص مثل البحث التقديري أو العملية التقديرية، إلا أن عملها يعتمد على الكثير من الفرضيات المشابهة، ويضع العديد من الاستراتيجيات العائدة للبحث التقديري. وعملها هذا، يقع بكل أريحية ضمن عالم العمليات التقديرية إذ أنه يشمل غالباً البحث عبر خطوط عمليات الأسئلة التي يعمل عبرها البحث التقديري أيضاً.

وتشرح مديرة المنظمة السيدة كاثي بوند ستيوارت هذا الكلام كما يلي:

إن عملية نشر المعلومات من خلال المجتمع تعمل بشكل أفضل في الظروف الشديدة الصعوبة لأنها تطلق طاقة خلاقة تتناسب مباشرة مع درجة المعاناة التي يخوض المشاركون تجربتها.

تواجه زمبابوي حالياً أزمات سياسية واقتصادية قاسية تتمثل في الفقر المدقع (ما يقارب 80٪ من السكان) والنزاعات التي تنشب عبر الخطوط السياسية والعرقية. وتستخدم وسائل الإعلام الحكومية لأهداف الدعاية فقط، بينما يثير الحزب الحاكم عنفاً سياسياً من أجل خلق ثقافة رعب وإحباط، ومن أجل إخماد النشاطات وقتل فرص التغيير الاجتماعي لشعب زمبابوي.

وضمن هذا السياق أيضاً، استطاعت المنظمة تطوير وسيلة مبتكرة للتعليم التنموي تعتمد على بناء المهارات والثقة والقدرة على الإبداع لدى المجتمعات المهمشة من خلال إشراك هذه المجتمعات في الإنتاج الجماعي للكتب وتوزيعها. ويعتقد أرباب المنظمة أن نقطة الانطلاق في هذا التغيير تكمن في مساعدة ذوي الدخول الأقل والأضعف بين أفراد الشعب على قهر القمع الفكري والاتكالية. وخلال هذه العملية، يكتشف الناس قدراتهم ومهاراتهم ويقومون بتطويرها. وهذا من شأنه أن يساعدهم على إقامة علاقات أكثر حداثة وأكثر مساواة وقدرة، بينما هم يساهمون في نفس الوقت ببناء مؤسسات سياسية وثقافية قوية (ACPT, 2000, 28).

وهذه المقاربة المبتكرة للمنظمة تطورت من خلال أبحاثها التي أجرتها حول الفقر والتي شملت 150 شاباً (بعمر 18-35 سنة) وبلغت ذروتها في نشرة عام 1995 – التي صدرت بعنوان: « الذين يعانون هم حجر الزاوية في بناء الأمة ».

وعبر هذه العملية، أصبح من الواضح أن الحرمان المادي رغم شدة إيلامه إلا أن الحرمان النفسي هو أكثر إيلاماً. لذا فقد قامت الاستراتيجية الأساسية الأولى على منح الشعب إحساساً بقوته ومكانته في العالم. وقد تم تطوير هذه العملية وممارستها من قبل المشاركين في العديد من مشاريع المنظمة وشملت ما يلي:

- الكتابة عن قصص من حياتهم وعن تصوراتهم (غالباً حول المعاناة والظلم).
- تقديم تحليل حول السؤال التالي كيف أتاحت لهم قدراتهم التغلب على الظروف الصعبة؟ وتسمية المهارات والمواهب التي مكّنتهم من ذلك.

- تعلم طرق البحث والكتابة وتنظيم المهارات.
- تحديد جميع أشكال الإبداع المحلية وتعزيزها مع التركيز على الإيجابية حيث تم تنشيط الإحساسات أو الإمكانيات الإيجابية.

وباستخدام هذه الطريقة، تمكّنت المنظمة من إصدار عدة كتب حول موضوعات حساسة في التنمية والسلام بمساعدة المئات من الباحثين من أفراد المجتمع. وقد تمكن العديد من القراء من أفراد الشعب ومن الأكاديميين من الاطلاع على هذه الكتب، وكذلك صنّاع السياسة. فقد كانت كتباً عميقة في طريقة تناولها للأفكار المعقدة رغم بساطتها، وتحمل معانٍ مأخوذة عن السكان المحليين وضمن سياق حياتهم. وإضافةً إلى هذا المنتج، حفزت عملية نشر المعلومات عبر المجتمع على إحداث تغييرات إيجابية على الصعيد الفردي والمجتمعي بالإضافة إلى تغييرات اجتماعية أخرى. ووفقاً لما يقوله أحد الناشطين من أفراد المجتمع.

> « إن الذين اشتركوا منّا في إصدار هذه الكتب، انتهى بهم الأمر بأن اكتشفوا مواهب كانت خفية داخلهم وغير ظاهرة. وبدأت عيوننا تتفتح على العالم وصرنا نرى بوضوح أكثر ونفكر بطريقة أكثر إبداعاً، ونعلل الأمور بطريقة أكثر منطقية ونحلل الحقائق بحسٍّ نقدي أفضل من بعض. لقد تحررت عقولنا » (ACPT 2000, 28).

وبإرشاد من الرؤية نفسها، واستحضار لمشاريع نشر المعلومات عبر المجتمع، قامت المنظمة بتدريب شباب القرى على القيادة المحلية، وكانت الرؤية الرئيسية لهذا المشروع تهدف إلى « تحويل المجتمعات المهمّشة من حالة الفقر إلى حالة من الرخاء الاقتصادي من خلال عملية اقتصادية، اجتماعية بيئية وتنموية متكاملة ». وقد استطاعت المجتمعات منذ عقد برنامج تدريب القيادات المحلية الأول في قرية شيوبونوزيو الواقعة في شمال غوكي، أن تشنّ بنجاح حملة لإنشاء عيادة طبية، وقاعة اجتماعات، ولتحسين الطرق ولعب دور أفضل في إدارة الحياة البرية إضافة إلى إنشاء رياض للأطفال ما قبل المدرسة. كذلك ساعدت الأبحاث التي قام بها أفراد المجتمع

بأنفسهم على تحسين قدرتهم التفاوضية مع السلطات المحلية وغيرها من مانحي الخدمات (بوند، ستيوارت وآل، 2002، 4).

على الصعيد الوطني، استخدمت الإصدارات المدنية التي كتبها هؤلاء السكان من قبل الحركة الاجتماعية المدنية التابعة للتجمع الدستوري القومي من أجل ضمان عدم التصويت للدستور الحكومي الدكتاتوري المقترح، ويشكل هذا الموقف أول موقف يتحدى المدنيون فيه الحكومة منذ عشرين سنة. لقد تركت إمكانياتنا المادية الضعيفة، ونشراتنا الدستورية وحواراتنا التخيلية حول الدستور تأثيراً أكبر مما تركته حملات الحكومة الإعلامية التي كلفتها ملايين الدولارات، مستخدمة الإذاعة والتلفزيون والصحف الحكومية دون حدود (بوند – ستيوارت وآل، 2002، 5).

وتركز بوند – ستيوارت على أن هذه المقاربة تبني ثقة الناس بأنفسهم وتنمي مهاراتهم بحيث يخرجون من هذه العملية وقد امتلكوا أدوات جديدة لتحليل المشاكل بعمق وتطوير استراتيجيات لمعالجة تلك المشاكل. كذلك تركز ستيوارت على تكامل هذه المقاربة الإيجابية التي تنمي المهارات والثقة مع المقاربة المتعلقة بحل المشاكل (2002).

ونشر المعلومات عبر المجتمع يمنح الناس مجموعة من المهارات الإبداعية، والأساسية والنشطة والحذرة، والتي يمكن أن تستخدم في التعامل مع القضايا التنموية والبنيوية وقضايا النزاعات. ويوجد في صلب فلسفة المنظمة وطريقتها مبدأ احترام وحفظ كرامة الجميع، وهو مبدأ يعمل كفرضية أساسية في التنمية وبناء السلام. فأسباب العنف والتنمية غير العادلة تبدأ بالتحزب وبالفرضيات الخاطئة، وهي أمور يسعى جمهور الباحثين في المنظمة إلى معالجتها. كذلك تعلم الناس القدرة على إبداء النقد وتقبّله وخاصة تجاه الشخصيات في السلطة، كما تعلموا أهمية احترام الخصم وأن بإمكانك تعلم الكثير من خصومك. وتظهر هذه العملية مهارات أخرى تتكامل مع بناء السلام والتنمية تشمل هذه المهارات:

- الاندفاع.
- الحشد.

- القيادة المشتركة.
- الاتصال.
- التخطيط للديمقراطية.
- المشاركة في تنمية المجتمع.

ومن خلال ممارستها بهذه الطريقة، تظهر عملية نشر المعلومات من خلال المجتمع منافع استخدام المقاربات الإيجابية ضمن السياقات البنيوية العنيفة التي تحيط بالتنمية وبناء السلام. وتعكس عملية البحث التعاونية التي تمارسها المنظمة، بالتماشي مع الإنتاج العملي وتوزيع نتائج ملموسة لأعمالها، مفهوم بوشي وبيتمان حول العملية التقديرية. إذ تظهر أعمال المنظمة كيف يمكن لمبادئ العملية التقديرية في تقييمها للقوى وبناء القدرات الإيجابية للأفراد والمجتمعات، أن تخرج ببحث ذي معنى، في نفس الوقت الذي تعلم فيه المشاركون مهارات عملية جديدة وتسهم في إحداث تغيير اجتماعي عميق. وفي زمبابوي التي تعيش أغلبية سكانها في حالة من الفقر العام، ويفتقرون فيها إلى التنمية الإنسانية وخاصة غياب الفرص والخيارات، لا يمكن وصف المهارات العملية المناحي المتعلقة ببناء المجتمع بأنها أمور مبالغ فيها.

نظرياً، تشير هذه الحالة الدراسية إلى الحاجة لوجود حساسية ضمن السياق وإلى تكيف مع مقاربات البحث التقديري وأدواته، ومع مدى الفائدة التي يمكن أن تجنى من المقاربات في الظروف التي يعتبر فيها بناء السلام وتعتبر التنمية أهدافاً تغييرية للمجتمع، إضافة إلى اعتبارها نوعاً من التدخل.

وفي زمبابوي، وغيرها من الدول التي تعيش النزاعات والعنف البنيوي، يحتاج الناس إلى العمل معاً في مواجهتهم للمشاكل والتحديات والأزمات، وبطرق جديدة. لذا، ومع كون مبدأ رواية القصص التي تحمل أخباراً جيدة، مبدأً مهماً في البحث التقديري، إلا أن أعمال الصندوق الإفريقي لنشر المعلومات عن طريق المجتمع تشجع الناس على كتابة، ورسم ورواية قصص حياتهم بطرق مبتكرة أخرى، غالباً ما تتناول

قصص القمع والألم بدلاً من أن تكون أخباراً جيدة. ولكنها تبقى جزءاً من عملية التحول لرأب الصدع، أو تعلم الاتصال والاستذكار والغفران والمصالحة.

نتحول الآن إلى مناقشة لكل من هذه النواحي ونعني هنا سلسلة الروابط بين بناء السلام والتنمية وبعض التحديات النظرية في البحث التقديري، ضمن جهد لإنارة الطريق أمام استخدام هذا البحث في سياق بناء السلام والتنمية.

تطبيقات البحث التقديري في بناء السلام والتنمية

مع تزايد إدراك الأكاديميين وصنّاع السياسة وأصحاب المهن لأهمية الروابط بين التنمية وبناء السلام، تتزايد الحاجة لإيجاد مقاربات منهجية جديدة تعمل على تسهيل التفاهم والتعاون بين المجالين. والبحث التقديري يحمل معه إمكانية وجود منهجية قوية لصانعي السلام وعلماء التنمية وأصحاب المهن مما يسهل خلق تفاهم وممارسات أفضل بينهم. ومن أجل تطوير تلك الأفكار، نبدأ بنقاش حول بناء السلام والتنمية والتقاطعات الموجودة بينهما.

يُفهم بناء السلام على أنه:

> « فكرة شمولية تحتوي على سلسلة كاملة من العمليات والمقاربات والمراحل اللازمة لتحويل النزاع إلى علاقات أكثر سلماً واستدامة، إضافة إلى كونه يولّد مثل تلك لعمليات ويحافظ عليها. ويسعى بناء السلام في نفس الوقت إلى تعزيز العلاقات بين الأطراف وتغيير الظروف البنيوية التي تولّد النزاعات. ويشمل التعريف أيضاً سلسلة واسعة من النشاطات والمهمات التي تسبق اتفاقيات السلام الرسمية أو تتبعها » (ليديراخ 1997، 20).

وكما كنا قد كتبنا في كل مكان، فإن بناء السلام يركز على سياق النزاع وعلى التجارب والظروف الاقتصادية والاجتماعية التي يعيشها الناس المتأثرون من تلك النزاعات والساعون إلى بناء السلام، أكثر من تركيزه على الأمور العسكرية وعلى القضايا التي تفرق بين الفئات المختلفة. وتشمل نشاطات بناء السلام ما يلي: إقامة اتصالات وحوارات بين المجتمعات، والمصالحة وتحديد الأهداف المشتركة بين

المجتمعات وبناء الثقة ووضع الأسس لاحترام حقوق الإنسان وتشجيع التعددية السياسية وحكم القانون، واستيعاب الأقليات العرقية وتعددية الأعراق، وتقوية قدرات البنى الحكومية وتشجيع الحاكمية الراشدة، وتعزيز المشاركة في تنمية الإنسان والمجتمع (ماكاندلس وشفوبل، 2001).

ويهدف نموذج التنمية الإنسانية إلى توسيع خيارات الشعب، وهو أمر يبدأ بتشكيل القدرات الإنسانية بما فيها تحسين الوضع الصحي والتحصيل العلمي واستغلال الموارد من أجل تحقيق مستوى معيشة محترم. ثانياً، تعمل التنمية الإنسانية على منح الحرية للناس لاستخدام قدراتهم في أنشطة ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية، إضافة إلى الأنشطة الترفيهية. ويتشكل نموذج التنمية الإنسانية من أربعة عناصر أساسية هي: الإنتاجية، والإنصاف والاستدامة وتعزيز القدرات والأخيرة تعني ضمن السياق التنموي أن التنمية يجب أن تتم على يد الشعب وليس من أجل الشعب. إذ أن على الشعب أن يشارك بشكل كامل في القرارات والعمليات التي تشكل حياته (UNDP, 1995, 12).

ويتطلب تفهم سلسلة الروابط بين بناء السلام والتنمية وعياً للعلاقات بين التنمية والنزاع. فالنزاعات العميقة والطويلة الأمد غالباً ما تحمل معها بُعداً اقتصادياً أو تنموياً لحراكها وتطورها. فالنزاعات على سبيل المثال يمكن أن تنشب نتيجة وفرة الموارد (مثلاً المعادن في جمهورية الكونغو الديمقراطية) أو نتيجة لشحّ الموارد أو توزيعها الجائر (الأراضي والموارد الطبيعية في رواندا وبوروندي). وعلى العكس من ذلك، يمكن للممارسات غير الحكيمة في العملية التنموية أن تزيد التباين داخل المجتمع مما يؤدي إلى أشكال تدميرية من التنافسات والنزاعات العنيفة. والأخيرة تعمل على كبح التنمية الإنسانية المستدامة وتدمر أسباب الرزق للناس العاديين أو تمزقها، كما تعطل الخدمات التعليمية والصحية، وتحول إنفاق الأموال العامة نحو الأعمال العسكرية وحل المشاكل.

وسلسلة الروابط الناشئة عن التنمية وبناء السلام تهتم في العادة بالعنف البنيوي كما يصفه جيونغ:

« يشكل الفقر والجوع والقمع والعزلة الاجتماعية طريقة أخرى لوصف الأوضاع المسببة لمعاناة الإنسان. فالحرمان من فرص التعليم وحرية الرأي والكلام والنشاط الحزبي تخفِّض من نوعية الحياة. وتترافق هذه الظروف مع فرص حياتية غير عادلة كالتوزيع الجائر للموارد، وعدم المساواة في سلطة صنع القرار. وأمام الطبيعة الغادرة للعنف البنيوي، نجد أن هذا العنف يعمل ببطء أحياناً في تعرية القيم الإنسانية وتدميرها إضافة إلى تقصير مدد حياة الإنسان، كما نجده وكأنه ممتزج مع البنى الأساسية للمجتمع والمؤسسات الحضارية » (2000، 20).

بكلمات أخرى، يهتم مجال بناء السلام بأي نوع من العنف، سواء كان مباشراً أم بنيوياً يمكن أن يتسبب في منع التنمية الإنسانية المستدامة. ومن خلال دراستنا للأهداف والوسائل والقيم التي تنطوي عليها التنمية الإنسانية، يمكن للباحثين في شؤون السلام أن يعثروا على نقاط التقاء كثيرة مع مبدأ السلام الإيجابي.

ويلتقي البحث التقديري مع بناء السلام والتنمية ويصبح أكثر فائدة كمنهج للتواصل الأكاديمي والعملي بالنسبة لكليهما، لأنه مبني على افتراضات حول رغبة واحتمال تحقيق إمكانيات الشعب في التنمية الإنسانية، كما أنه في نفس الوقت يفترض (مثله مثل كلا المجالين) أن الحلول التي تنطوي على نصر لجميع الأطراف في حل المشاكل هي حلول محتملة. ويتناقض هذا مع نماذج السلام والتنمية المهيمنة أو المقاربة المادية والعملية للسلام والمقاربة العصرية للتنمية اللتين تعتمدان على قبول مبدأ وجود منتصرين وخاسرين في عملية التغيير الاجتماعي. وينظر جميع أصحاب النظريات إلى التغيير بشكل منهجي ويسعى العاملون في البحث التقديري للوصول إلى حلول تحقق النصر لجميع الأطراف في أوضاع ما بعد التغيير. وهذه هي المبادئ التي يلتصق بها الطامحون إلى فكرة تحويل النزاع، والتي تنظر إلى النزاع على أنه فرصة بدلاً من كونه مشكلة يتوجب حلها.

وبالإضافة إلى المبادئ العامة، يتقاطع بناء السلام وعملية التنمية مع البحث التقديري عند مفصل جوهري آخر، ونعني هنا العمليات التي تجسد تلك المبادئ. فكلا المجالين على سبيل المثال، يتزايد إدراكه أنه من أجل أن تبقى التنمية مستدامة والسلام مستمراً، يتوجب استيفاء عدة شروط. وهذه الشروط تتضمن كون العملية ونتائجها بأيدي السكان واستخدام الموارد والقدرات المحلية الموجودة بشكل إنتاجي. وتضم العمليات التي تعتبر مستوفية لهذه الشروط، المقاربات التشاركية، والمستنبطة من الواقع، والمقاربات التي تعتمد على القدرات والتي تنطلق من القاعدة إلى القمة وتتسع لكل مناحي النظام. كذلك ترتبط الاستدامة بالمقاربات التي تركز على تعزيز القدرات أي التي تعمل كمحفز للتنمية وكنتيجة لها، وكذلك على التحول الذي يأتي نتيجة لحل النزاع. ومثل هذه العمليات تبدو وكأن لها قيمة في مسيرة البحث التقديري وفي ممارسته.

ويوجد ضمن الأسس النظرية لمجال بناء السلام من يقول بأنه يجب العثور على مصادر أي نزاع على كل مستويات وفي كل نطاقات النظام. لذلك يجب أن تمارس نشاطات بناء السلام على جميع الأصعدة والمستويات، وبطريقة متكاملة ومنسقة. ويمثل هذا ابتعاداً عن المقاربات السريعة الترتيب والتي تسعى لأن تكون دواءً عاماً يشمل مستوى واحداً ونطاقاً واحداً. والطريقة الأخرى لتوضيح هذا الأمر هي في القول بأن جميع التدخلات يجب أن تكون متكاملة أفقياً وعامودياً ضمن النظام. والأهم من ذلك، أن المشاركة التي تحمل معنى وهدفاً على جميع الأصعدة والمستويات تجعل اعتماد الجميع على بعضهم البعض أمراً بيّناً.

ومع ذلك، تميل البيروقراطية التي تخطط وتنفذ مبادرات بناء السلام والتنمية لأن تجزئ المشاكل والحلول. فالناس الذين يعيشون ويعملون وسط أجواء النزاعات لا يشعرون بالضرورة بمصادر النزاعات أو بتأثيرها على حياتهم عندما تكون هذه التأثيرات أو المصادر مجزأة. وعمليات البحث التقديري، بسبب طبيعتها المستخرجة من الواقع المحلي، يمكنها تسهيل المقاربات المتكاملة المبنية على تجارب الشعوب في

المشاكل والحلول التي استطاعوا تحديدها. كذلك قد تستطيع العمليات التقديرية أن تدعم هؤلاء الذين يحملون مسؤولية تخطيط وتنفيذ التدخلات على عاتقهم في إدراك القدرات الكامنة في كل صعيد وعلى كل مستوى من أجل حملها معهم في بناء السلام والتنمية الإنسانية.

والوسائل التقديرية يمكنها أن تسهّل الممارسة المتكاملة والنمو الانضباطي بين مختلف ميادين بناء السلام والتنمية الإنسانية. ومثل هذا الأمر يشكل إسهاماً مهماً في أسس دمج هذه المجالات.

والبحث التقديري هو منهج ذو نفع بالنسبة لهؤلاء العاملين في مجالي بناء السلام والتنمية، لأنه وبشكل أدق، يتولى تطبيق العديد من هذه الأفكار العملية الجيدة. لذا فهو يعتبر وسيلة مناسبة لهؤلاء الذين يريدون تأسيس ممارساتهم على نفس نقطة الانطلاق وبرؤية إيجابية للتغيير الاجتماعي، يطمح إليها صنّاع السياسة في كلا المجالين. إضافة إلى ذلك، فهو يعتبر أيضاً وسيلة فعالة للعاملين ضمن قناعات إيجابية لاحقة مثل النظرية الأساسية، والعصرية اللاحقة، وأعمال البنى اللاحقة، حيث لا يوجد إلا القليل من الأدوات المنهجية الملائمة التي تعتبر قانونية في البحث الأكاديمي.

التحديات النظرية والعملية للبحث التقديري

كما هو الأمر في أي أداة منهجية، تبرز أسئلة تعبر عن التحدي، ولكنها تعزز القدرة على الاستخدام الأوسع إذا ما تمت الإجابة عليها بعناية. وفيما يلي بعض الانتقادات الواقعية والمعرفية والمبنية على التطبيق والتي، بحسب مقترحاتنا، تحتاج إلى المزيد من البحث إذ لطالما علقت العلوم الاجتماعية في مناقشات حول كيفية تأثير البنى والأفكار في تحديد مسار التغيير الاجتماعي أو الدفع باتجاهه. وفي أدبيات حل النزاعات وبناء السلام توجد نقاشات مشابهة تدور حول موضوع العلاقات مقابل البنى كمصدر أساسي للنزاعات. وقد تم تلخيص هذه النقاشات بطريقة مناسبة للنقاش الذي نقدمه:

يعرِّف أنصار اعتبار البنى كمصدر رئيسي للنزاع، البنى الاجتماعية على أنها مصدر النزاعات لأنها تحدد توزيع الموارد القيمة والمناصب العالية، منكرةً على فئات معينة الوصول على السلطة أو الموارد أو غيرها من الاحتياجات الإنسانية. (انظر مثال: ميتشل 1981؛ عازر 1986؛ غالتونغ 1996). أما أنصار اعتبار العلاقات كمصادر للنزاع فيركزون بدلاً من ذلك على التفسيرات الاجتماعية والنفسية، وعلى الأخص منظورات الاختلافات كمسبب للنزاعات (انظر مثال: كراي بيل 1996، ليديراخ 1997). ويوافق على ذلك عدد من منظري الهوية والقومية، إضافة إلى بعض علماء النفس والاجتماع.

وهذا النقاش يحمل معه تداعيات في التطبيق.. إذ يذكر فان دير مروي أن قضايا الهوية يمكن أن تكون بنيوية أيضاً، مبيِّناً مقاربة تكميلية تتخطى قضايا المسببات (1999) ويوضح كل من ليديراخ وغالتونغ مثل هذه المقاربة التكميلية في إدراك أهمية كل من العلاقات والبنى خلال مساعي التحول (1997؛ 1996) (ماكندليس 2001، 211).

ويتفق معهم جيونغ حين يكتب بأن الجهود المبذولة لحل النزاعات تحتاج إلى تقييم من ناحية نتائجها وكذلك تطبيقها. « وبالتالي يتوجب توجيه حل النزاع نحو إيجاد حلول للأسباب البنيوية التي تقف وراء المشاكل المسؤولة بدورها عن علاقات الخصومة.. وأي مفاوضات في سبيل إقامة علاقات سلمية لن تكون فعالة بدون مواجهة الأصول البنيوية للعداءات والمشاكل » (1999، 15-16).

وأمام أهمية مثل هذا النقاش داخل مجالات العلوم الاجتماعية، وبالتحديد داخل جميع المجالات التي تتناول موضوع التغيير الاجتماعي. فإن البحث التقديري سوف يحتاج لأن يكون أكثر وضوحاً حول مراحل التخطيط وتقرير المصير في عملياته. إذ أن هذه هي المراحل التي تعمل فيها التغييرات النفسية المتولدة خلال مرحلتي الاكتشاف والحلم على تحفيز التحركات التي تخلق التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

هناك مجموعة أخرى من الانتقادات التي يمكن للبحث التقديري أن يعالجها بشكل أكثر شمولاً، وهذه المجموعة تدور حول السؤال المتعلق بالتفكير « النقدي » مقابل التفكير « الإيجابي » ويوضح بوشي طريقة يظهر فيها هذا السؤال إمكانية

تطبيقه بشكل لا يميز بين الاثنين. فقد ذكر بوشي وجود إمكانية لدى العاملين في حقل البحث التقديري على تطوير « اهتمام متحمس ((للتقدير)) دون وجود أي تطابق نظري أو أي سبب لممارستهم. فتشجيع التقدير في الأمكنة التي كان قليلاً فيها، يمكنه بحد ذاته أن يولّد موجة من الطاقة والحماس التي سرعان ما تزول مع ظهور أي تحدٍ أو أي نكبة تالية من شأنها أن تعيد النظام الاجتماعي إلى الوراء ».

ويطرح بوشي تساؤلات حول التطبيق الإيديولوجي الأعمى للبحث التقديري ويدعو إلى مقاربة منضبطة ومبررة. وفي حين أنها قد تقدم مساعدة كبيرة إذا جاءت في الوقت المناسب أو المكان المناسب، إلا أنها، كما يبين في تساؤلاته، تحتاج بالضرورة إلى نموذج في تطبيقها لأنها لا تحمل معها دائماً تأثيرات إيجابية.

من وجهة نظر عملية صرفة، أعتقد أن الباحثين والمستشارين سيجدون بأن الأنظمة المفعمة بالأحقاد العميقة، وغير المعبِّر عنها، لن تحتمل أي بحث تقديري حتى تجد لها تعبيراً أو طريقاً للتسامح بين هذه الأحقاد. ومن منظور نظري، يوجد سؤال يتعلق بماذا سيحدث للصور السلبية ويؤثر بها إذا ما تم قمعها وكبحها خلال المناقشات الجماعية بسبب التركيز المتحمس على الإيجابية. وتبين لنا تجارب التحليل النفسي وعلم الاجتماع والطب أن الكبح يؤدي بالنتيجة غالباً إلى تأثيرات جانبية سيئة (بوشي، [2002]).

وبالتأكيد، كما أن الاتهامات التي توجه حول « عدم الواقعية » يمكن أن تنجح في إخراس أنصار التغيير الاجتماعي، كذلك قد تنجح الاتهامات بالسلبية في إخراس ضحايا الظلم الاجتماعي، لأن مثل هذه الاتهامات تنقل التركيز بعيداً عن النظام وباتجاه الفرد. من الجيد أن نسعى ونعترف بالإيجابي ولكننا قد نوصم بالتحقير أو بتبلد الشعور أمام عدم إدراكنا للحقائق التي يواجهها الناس والتي قد تمنعهم من اعتبار الجيد فقط. وقد أوضح العاملون في المصالحة ومنظرو الأزمات والعاملون فيها مدى حاجة الناس لمن يشاركهم في قصص معاناتهم كجزء من عملية رأب الصدع. وفي النهاية سوف نعود إلى مشكلة حدود التفسيرية والخيارات المتاحة أمام الناس الذين يرزحون تحت حكم أنظمة سياسية واقتصادية قمعية وشديدة الظلم أو يعيشون أجواءً من الفقر المدقع.

وهناك أسئلة ذات صلة بالنقاش تبرز حول نماذج حل المشاكل مقابل تركيز البحث التقديري على الإيجابيات والإمكانيات وحالات الممارسة الحسنة. إذ ينتقد منظرو البحث التقديري مقاربات حل المشاكل التي تقوم على توجه ناقص، ويختلفون بذلك عن النُّقّاد الذين ينطلقون من قناعات معرفية مختلفة.

يكتب كوكس:

إن المعتقدات والنماذج التي غرستها الأمثلة المهيمنة في حل المشاكل، يصعب التغلب عليها والناس يتعلقون بشكل كبير في منطقهم بما ظلوا يؤمنون به دائماً ويجدون صعوبة في توسيع مداركهم لإدخال حقيقة أكبر. والمفتاح هنا ليس في التركيز على القول بأن الطريقة الحالية هي طريقة خاطئة ولكن في تحرير أنفسنا لإدراك حقائق أكبر وأوسع، موجودة أمام أعيننا (1998).

وقد بيّن كوبر رايد وويتني أن مقاربات التغيير القائمة على العجز، تعزز الهرمية وتعري المجتمع وتغرس إحساساً بالإضعاف الذاتي (1999، 22) وبينما نوافق على مقولة أن نماذج حل المشاكل يمكن أن تحدد الخيارات وتغلق التفكير الإبداعي، إلا أن الأمر ليس دائماً بهذا الشكل. فكما توضح حالة نشر المعلومات عبر المجتمع، التي قدمناها سابقاً، فإن ممارسة حل المشاكل، وخاصة على مستوى المجتمع يمكن أن تعزز قدرات الشعب وتبني المجتمع وتعري الهرمية، وذلك اعتماداً على الأساليب المستخدمة. فأساليب المشاركة، على سبيل المثال، يمكن أن تضمن نتائج تعزز من القدرات في حالة تطبيق نموذج حل المشاكل، وفي نفس الوقت يستطيع الأفراد وتستطيع المجتمعات من خلال التفكير الناقد أن يحددوا الظروف البنيوية والقيود التي تمنعهم من تعزيز قدراتهم وأن يواجهوها، ووفقاً لما يقوله الفيلسوف الشهير في شؤون التعليم والتنمية « باولو فرير » (1972). فإن هذا يدعى إحياءً للضمير.

الخلاصة

تناسب العمليات والنظريات والممارسات التقديرية، وفي بعض الأحيان أساليب البحث التقديري، تماماً التحقيقات والتحولات ذات الصلة بالمشاكل المعقدة ضمن

سياقات بناء السلام والتنمية التي تقع تحت الاختبار ولكن التحذيرات هنا مهمة جداً، إذ يجب إعطاء اعتبارات حقيقية وشاملة للسياق الذي يتم فيه تطبيق العملية. وفي بعض الحالات أو في بعض الأحيان، قد لا يكون البحث التقديري مناسباً إذا استخدم لوحده، على سبيل المثال في حالات المعاناة الشديدة التي تحتاج إلى من يدركها أو في حالات الأحزان التي تحتاج إلى من يمتلكها.

من جهة أخرى، وحيث يواجه الناس مشاكل متداخلة ومعقدة، يمكن تطبيق البحث التقديري بشكل أساسي وإبداعي من أجل السعي لإيجاد ظروف جديدة تعالج التحديات الحقيقية التي يواجهونها. ويمكن لهذا أن يتم بطرق تواجه في الوقت نفسه البنى العنيفة التي تظلم الناس وتعمل على تحويلها. وكما بيّنا سابقاً، فإن تكيف البحث التقديري مع السياق يمكن أن يتم في حالة كانت مقاربات حل المشاكل وتعزيز القدرات تحمل معها منفعة متبادلة وتشجع على إحداث التغيير الاجتماعي في المجتمع.

كذلك ناقشنا بأن التوجه المعرفي للبحث التقديري يحتاج إلى إعادة اعتبار إذا أريد له أن يكون نافعاً للأكاديميين والعاملين من مختلف النزاعات. كما أن هذا يمكن أن يخدم قدرة البحث التقديري على معالجة المشاكل البنيوية والاجتماعية المعقدة، مثل الفقر، وغيرها من مظاهر العنف البنيوي والمباشر. وأمام المعطيات القائلة بأن البحث التقديري قد شهد تنظيراً وتطويراً بين العاملين في مجالات التنمية المؤسسية والتنمية الدولية، فإن هذا يعتبر اتجاهاً طبيعياً لتقدُّمه في النظرية ولتوسعه في التطبيق.

لقد تحركت مجالات بناء السلام والتنمية نحو مقاربات وممارسات حساسة للسياق، ومبنية على القدرات، تحمل صفات المشاركة والانطلاق من القاعدة إلى القمة، وتُظهر هذه الصفات في البحث التقديري عبر عمليات تخطيط وتنفيذ التغيير الاجتماعي، (أفضل الممارسات التي حددها المنظرون والعاملون في كل من هذين المجالين). وفيما تستمر التحديات التي تعزى إلى ممارسة العنف المباشر والبنيوي وإلى المقاومة البنيوية للتغيير واللتين تميزان السياقات المعقدة لبناء السلام والتنمية، في

مواجهة ممارسي ومنظري البحث التقديري، فإننا نعتقد أن البحث التقديري يقدم موارد متوفرة محلياً لمعالجة هذه التحديات.

ولكونه طريقة مصممة لتعزيز القدرات وتحويل النزاعات، يستطيع البحث التقديري على وجه الخصوص كما تستطيع الأدوات التقديرية بشكل عام أن تمكن الناس من الاكتشاف والحلم وتخطيط المصير الذي من شأنه خلق تغييرات مستدامة في حياتهم وحياة مجتمعاتهم.

ملاحظات :

1. Sources for this case study on the Africa Community Publishing and Development Trust (ACPDT) are primarily documents from the organization and several interviews with the organization's director. While this might seem limited, author Erin McCandless has also attended various workshops held by ACPDT, spoken with staff and participants of ACPDT programs in various parts of the country, and thus speaks with confidence about their work. Their highly favorable reputation with other civil society organizations in the country, which are in queues to work ACPDT and use its books, is an indication of the integrity and success of their methods and product.

مراجع :

ACPDT. 2000. *Democratic Governance in Zimbabwe: Citizen Power* Harare, Zimbabwe: Commonwealth Foundation.

Azar, Edward F. 1986. "Management of Social Conflict in the Third World." A paper presented at the Fourth ICES Annual Lecture, Columbia University New York, New York.

Bond-Stewart, Kathy 2002. Interview with Erin McCandless (March 20). Harare, Zimbabwe.

Bond-Stewart, Kathy with Talent Nyathi, and Lucia Chikuhuhu. 2002. "Community Publishing as a Process of Change." In *Courage and Consequence: Women Publishing in Africa.* Mary Kay and Susan Kelly eds. Oxford: African Books Collective.

Bushe, Gervase R. n.d. ~20021 "Five Theories of Change Embedded in Appreciative Inquiry." Burnaby B.C., Canada. http://wwwbus.sfu.ca/homes/ gervase/Stheories.html.

Bushe, Gervase R., and Thomas Pitman. 1991. "Appreciative process: A method for transformational change." *Organization Development Practitioner* 23:3, pp. 1-4.

Cooperrider, David L., and Suresh Srivastva. 1987. "Appreciative Inquiry in Organizational Life." In *Research in Organizational Change and Development,* Vol. 1. Richard W Woodman and William A. Pasmore, eds. Greenwich, Conn.: JAI Press.

Cooperrider, David L. and Diana Whitney 1999. *Appreciative Inquiry.* San Francisco: Berrett-Koehler.

Cox, Geof. 1998. "Appreciative Inquiry." Edinburgh, Scotland. http://www newdirections.uk. com/ai.htm.

Freire, Paulo. 1972. *Pedagogy of the Oppressed.* Harmondsworth, U.K.: Penguin Press.

Galtung, Johan. 1996. *Peace by Peaceful Means.* Oslo: Sage.

Jeong, Ho-won. 1999. "Research on Conflict Resolution." In *Conflict Resolution: Dynamics, Process and Structure.* Ho-won Jeong, ed. Aldershot, U.K.: Ashgate Publishing.

2000. *Peace and Conflict Studies: An Introduction.* Aldershot, U.K.: Ashgate Publishing.

Kraybill, Ronald S. 1996. *An Anabaptist Paradigm for Conflict Transformation: Critical Reflections on Peacemaking in Zimbabwe.* Unpublished Ph.D. dissertation, Department of Religious Studies, University of Cape Town, South Africa.

Lederach, John Paul. 1997. *Building Peace: Sustainable Reconciliation in Divided Societies.* Washington, D.C.: United States Institute of Peace Press.

McCandless, Erin. 2001. "The case of land in Zimbabwe: Cause of conflict, foundation for sustained peace." In *Reconciliation, Justice and Peace in Interethnic Conflict.* Mohammed Abu-Nimer, ed. Lanham, Md.: Rowinan and Littlefield.

McCandless, Erin, and Mary Hope Schwoebel. 2002. "Peacekeeping, Peacemaking, Peacebuilding." In *World at Risk: A Global Issues Source Book.* Washington, D.C.: Congressional Quarterly Press.

Mitchell, Christopher. 1981. *The Structure of International Conflict.* New York: St. Martin's Press.

United Nations Development Program (UNDP). 1995. *Human Development Report.* New York: Oxford University Press.

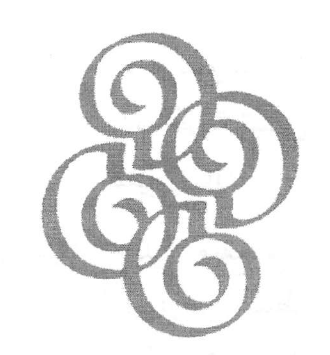
Van der Merwe, Hugo. 1999. *The Truth and Reconciliation Commission and Community Reconciliation: An Analysis of Competing Strategies and Conceptualizations.* Unpublished Ph.D. dissertation, Institute for Conflict Analysis and Resolution, George Mason University Fairfax, Virginia.

القسم الرابع

حل النزاعات

لا يشكل التغيير تهديداً طالما بقينا ثابتين على القيم التي نعيش بها ولأجلها. يمكننا السفر بثقة طالما أننا نملك خريطة ويمكننا القفز بأمان طالما أننا نعرف أن هناك من سيتلقانا إذا سقطنا. وعندما تفقد تلك الأشياء يصبح التغيير مصدراً للقلق. وعندما نعتقد بأن علينا أن نغير قيمنا مع تغير التكنولوجيا، فإننا نخلق المشاكل التي لا نستطيع أن نحلها والخوف الذي لا نستطيع أن نواجهه.

جوناثان ساكس



الفصل الحادي عشر

مبادرات التغيير

مايكل هندرسون

يوثق هذا الفصل المقاربة المتميزة والخلّاقة لبناء السلام، التي تبنتها منظمة مبادرات التغيير (إعادة التسلح الأخلاقي سابقاً). وتصف هذه الوثائق التفاعل الذي تم بعد الحرب العالمية الثانية بين امرأة فرنسية تدعى إيرين لاور ومشاركين ألمان في ماونتن هاوس الذي ما زال يعمل منذ أكثر من خمسين عاماً كمركز للمصالحة في كوكس بسويسرا. والسمات المميزة لهذه المقاربة من قبل منظمة مبادرات التغيير تشمل التركيز على التغيير الشخصي والأخلاقي والروحي كنقطة انطلاق نحو أحداث تغيير في العلاقات وفي المجتمع ككل. وكذلك التركيز على أهمية الاعتراف والغفران واستخدام القصص الشخصية عن التغيير من أجل نقل التحدي إلى الضمير وتقديم نموذج إيجابي له.

*

في عام 1946 قامت مجموعة من السويسريين، وبتضحيات شخصية كبيرة، بشراء فندق قصر كوكس المطل على بحيرة جنيف، ليكون مكاناً تجتمع فيه الأمم المتحاربة في الحرب العالمية الثانية. وجاءت عملية الشراء تحقيقاً لفكرة خطرت للدبلوماسي السويسري فيليب موتو قبل ثلاث سنوات. فقد فكّر هذا الدبلوماسي بأن سويسرا التي لم تدخل الحرب، يتوجب أن تكون مهمتها توفير مكان يلتقي فيه

الأوروبيون الذين مزقتهم الأحقاد والمعاناة والعداءات. وكان موتو والسويسريون الآخرون على صلة بحركة عالمية تعمل من أجل المصالحة وكانت هذه الحركة تسمى حينذاك بمنظمة «التسلح الأخلاقي» وتعرف اليوم باسم مبادرات التغيير (IC).

وقد أعيدت تسمية الفندق باسم ماونتن هاوس أو البيت الجبلي. ويقع هذا البيت الجبلي ذو الأبراج، الذي احتفل بعيده المئوي عام 2002 فوق أرض مبسطة ويطل على منظر أخاذ لقمم جبل Dents de Midi أو أسنان ميدي، وقد استقبل منذ العام 1946، مئات الآلاف من الناس من جميع أنحاء العالم، ممن فرقتهم النزاعات، وقد جاء هؤلاء ليجتمعوا في أرجائه ومنهم القبارصة الأتراك والقبارصة اليونانيون، ومنهم مسلمون ومسيحيون ويهود جاؤوا من الشرق الأوسط، ومنهم أيضاً كمبوديون حاولوا التحرك بعيداً عن حقول القتل التي انتشرت في بلادهم.

ولكن مركز كوكس لم يشهد تقديراً لدوره في صنع السلام العالمي مقارنةً إلا حديثاً حيث كرّمه العلماء بعد أن نبهتهم له دراسة حول إسهامات البيت الجبلي في المصالحات التي تمت عقب الحرب بين فرنسا وألمانيا.

فقد أجرى الكاتب إدوارد لوتواك بحثاً أودعه بضعة آلاف من الصور والموضوعات الأكاديمية الأدبية حول تاريخ المصالحة الفرنسية الألمانية ولم يرد في هذا البحث أي ذكر لجهود منظمة إعادة التسلح الأخلاقي. وهنا، كما يقول الكاتب كاد الأمر أن يستمر على هذه الحال إلى الأبد لولا وجود وثائق غير منشورة ودلائل غير مباشرة تثبت بما لا يقبل الشك أن هذه المنظمة لعبت دوراً مهماً منذ بداية المصالحة الألمانية الفرنسية (لوتواك 1994، ص 38).

ويلقي كتاب أكثر حداثة بقلم سكوت أبلباي الضوء على الخدمة التي قدّمها قصر كوكس في توفير مكان آمن ومحايد، يلتقي فيه الأعداء ضمن أجواء بعيدة نفسياً وجسدياً عن مناطق النزاع وفي جو من الكياسة والاحترام المتبادل، من أجل مناقشة ما يختلفون وما يلتقون عليه. ويكتب المؤلف عن دور البيت الجبلي كمنبر حوار حول الخلافات السياسية والدينية والعرقية والشخصية وكمحطة استكشاف لها فيقول:

« كان الهدف من مثل هذه المنابر يتمثل في تغيير المواقف على قاعدة شخص لشخص، وقد مثّل هذا الهدف قناعة لدى منظمة إعادة التسلح الأخلاقي بأن التغييرات السلمية والمثمرة في العلاقات العدائية بين الأمم أو بين الفئات الدينية والعرقية تعتمد على التغييرات التي تحصل بين الأفراد الذين يقفون ضد الحروب وأن هذه العملية بدورها تتطلب وجود أشخاص من كلا الطرفين، يصغون جيداً ومطولاً كل إلى غريمه. وقد أثبت هذا التوجه نجاعته في ظروف فشلت فيها مصادر أخرى اعتمدت على السلطة الأخلاقية وحسن الضيافة والحيادية في إدارة الصراع » (آبلباي 1999، ص ص 225-226).

قصة إيرين لوري

إذا ألقينا نظرة على أرشيفات منظمة مبادرات التغيير فإننا سوف نفهم هذه المقاربة المتميزة والإيجابية والمبتكرة نحو بناء السلام، والتي ألمح إليها كل من لوتواك وآبل باي. وأفضل طريقة لهذا هي تناول مَثَل المصالحة الفرنسية الألمانية، مع التركيز على زيارة السيدة الفرنسية إيرين لوري في فرنسا إلى كوكس عام 1947، أي في السنة الثانية لظهور البيت الجبلي، ولكي نأخذ فكرة عن طريقة عمل منظمة مبادرات التغيير، قام جوزيف مونتفيل باستخلاص التغير في مواقف السيدة لوري في كوكس واعتباره « حدث ذو دلالة حول الانفراج النفسي الذي طرأ في النزاع الألماني الفرنسي، وأحد أكثر الأمثلة درامية على قوة الاحتكام البسيط إلى الغفران والتسامح » (1991، ص 61).

وقد قال هارولد ساوندرز، وهو وزير خارجية أميركي سابق عام 1992 في كوكس بأنه لو لم تحصل تلك التغييرات في العلاقات الإنسانية بين الفرنسيين والألمان الذين قدموا إلى كوكس بعد العام 1945، لما كان هناك مؤسسات للمجتمع الأوروبي اليوم. أو لكان الأمر أخذ وقتاً أطول للوصول إلى تلك المؤسسات (1993، ص 17). لقد أدت رحلة الاستكشاف لأفراد قلائل، بالمقارنة إلى إحداث رؤية أكبر للتعاون والتعايش بين العديد من الأوروبيين.

في ذلك الصيف من عام 1947، شهدت كوكس لقاءات ضمت 5000 شخص قدموا من خمسين بلداً. وكان من بين هؤلاء الذين حضروا إلى كوكس، الرئيس السويسري ورؤساء وزارات كل من الدنمارك وإندونيسيا. ومبعوث الأمم المتحدة السويدي الكونت برنادوت، ولجنة من الكونغرس الأميركي وستة وعشرون برلمانياً إيطالياً، والسيد بوتن توت، أول وزير خارجية لجمهورية بروناي و ج. إل. ماندا، التي أصبحت رئيسة لوزراء الهند في المستقبل.

عندما وصلت آيرين لوري إلى المؤتمر في شهر أيلول من تلك السنة، كان لابد أنها شعرت بأنها في وطنها مع وجود العشرات من كوادر التحالف الذين كانوا قد سرّحوا من الخدمة العسكرية حديثاً واطمئنان هؤلاء بلقاء شخصيات كانت تعمل سابقاً مع المقاومة مثلها. لابد أنها قدّرت هذا الابتعاد النفسي والجسدي عن منطقة النزاع. ولكنها لم تكن على استعداد لمقابلة ألمان حتى هؤلاء الذين وقفوا ضد النازية أو عانوا منها. ولم يكن الألمان في ذلك الوقت يلقون ترحيباً في أية مؤتمرات دولية أخرى. كان من الممكن أن تجد الأمر مروّعاً لو لم يصل إلى علمها أن أول مجموعة من القادمين الألمان قد استقبلت من قبل فرقة موسيقية فرنسية تغني بالألمانية. كذلك، لم تكن تعي بالتأكيد أن الكلمات الأولى لفرانك بوخمان، أول من بادر بإطلاق منظمة إعادة التسلح الأخلاقي، لدى وصوله لحفل افتتاح كوكس ذلك الصيف كانت: أين هم الألمان؟ لن تستطيعوا إعادة بناء أوروبا بدون الألمان (لين 1988، ص 341)، وأن تحديه هذا حفّز العمل على بذل جهود رفيعة المستوى من أجل كسر القيود التي منعت الألمان من مغادرة بلادهم. وقد شهد الصيف الأول حضور 16 ألمانياً تلاهم 150 عام 1947، ووصل الرقم إلى 4000 ألماني بين الأعوام 1948 و 1951.

كان هذا توضيحاً للمقاربة الأساسية لمنظمة مبادرات التغيير، والقائلة بأن الجميع مرحب بهم على طاولة المفوضات. وما يزال هذا المبدأ يلقى تأكيداً حتى تاريخ اليوم. على سبيل المثال في جهود منظمة مبادرات التغيير نحو التفاهم بين

الأعراق التي تجري تحت رعاية منظمة « أمل في المدن » الناشطة في الولايات المتحدة أو نحو الوحدة بين الأديان في الهند والتي رعاها مركز مؤتمرات مبادرات التغيير في مدينة بانشجاين الواقعة في السهول الآسيوية. وتدعو منظمة أمل في المدن، بنفس اللغة التي ظلت تناسب عام 1947 كما هي تناسب اليوم، إلى الحوار الصادق الذي يشمل الجميع ولا يستثني أحداً، ويركز على العمل الجماعي نحو إيجاد الحلول وليس على تحديد الأعداء، كما يؤكد على الأفضل ولا يثبت الأسوأ، وينظر نحو ما هو صحيح وليس ما هو خطأ ويتحرك بعيداً عن اللوم والألم الشخصي باتجاه العمل البناء (كوركوران وغريسدورف 2001، ص 23).

جاء الألمان على قدم المساواة إلى كوكس. وقد علقت صحيفة فراي بريس، في تقريرها حول كوكس قائلة: « هنا، وللمرة الأول، استبدلت مسألة الذنب الجماعي التي كانت في الماضي بمسالة أكثر حسماً هي المسؤولية الجماعية التي تخصّ المستقبل. هنا في كوكس وللمرة الأولى، تم منح ألمانيا منبراً تتحدث منه على قدم المساواة مع العالم ». (ذكرت في هندرسون 1996، 24). وكتب غارث لين في سيرة بوخمان يقول: « أصر بوخمان على أن يكون التركيز في كوكس على مستقبل ألمانيا بدلاً من ماضيها، وعلى إمكانياتها بدلاً من ذنوبها. وسواء كان يتعامل مع فرد أو مع أمة، كان اهتمامه محصوراً في مراجعة أخطاء الماضي لتكون أسساً لاستكشاف طريق جديد للأمام. كان بوخمان ببساطة يعامل الألمان كما يعامل الباقين » (1988، ص 351).

كانت إيرين لوري وهي ممرضة من مارسيليا امرأة أمية وكانت ترعى أطفالاً ألمان في بيتها ما بين الحربين العالميتين. ولكن التجربة التي خاضتها في صفوف المقاومة بعد احتلال الألمان لبلادها، وتعذيبهم لابنها ملأ قلبها بحقد شديد. وعندما حلقت قاذفات الحلفاء في السماء، تهللت أسارير إيرين أمام الدمار الذي لحق بألمانيا. وبعد الحرب، شهدت إيرين اكتشاف قبر جماعي احتوى جثثاً مشوهة لبعض رفاقها. وتاقت إلى تدمير ألمانيا بالكامل، إذ أنها لم تكن تظن أبداً بوجود مجال للتفاهم معها كما أنها لم تكن تسعى لذلك أبداً (هندرسون 1994، ص ص 17-27).

وفي نهاية الحرب، انضمت لوري إلى الجمعية التأسيسية الفرنسية وأصبحت زعيمة لثلاثة ملايين امرأة من الاشتراكيين الفرنسيين، وعندما وُجّهت لها الدعوة إلى كوكس، ترددت في البداية لأنها كانت تعلم أنها في نقطة ما سوف تشتبك مع أحدهم في مسألة مستقبل ألمانيا. ولكنها وافقت في نهاية الأمر، مرحّبة بفرصة تريحها من المشاحنات السياسية في باريس، وتوفر بعض الطعام الجيد لأطفالها الذين عانوا من سوء التغذية نتيجة الفاقة التي لحقت بهم خلال الحرب. ولكن وجود الألمان شكّل صدمة لها، وفي كل مرة كان يتكلم فيها أحدهم، كانت تغادر القاعة. ورغم ملاحظتها بأن الألمان كانوا يقولون أشياء لم تسمعهم ينطقون بمثلها من قبل، وأنهم يواجهون أخطاء الماضي واحتياجات أمتّهم للمستقبل، إلا أن ردّة فعلها بقيت على ما هي. «لن أبقى تحت سقف واحد مع الألمان». حزمت إيرين أمتعتها للرحيل وعند تلك اللحظة اصطدمت بفرانك بوخمان الذي واجهها قائلاً: «يا سيدة لوري إنك اشتراكية» ثم كرر لها ملاحظاته التي ذكرها في السنة السابقة «كيف تتوقعين أن تعيدي بناء أوروبا إذا كنت تنكرين الشعب الألماني (بيجيه 1985، ص 9). وجاء جوابها الفوري بأن الذي يقدم مثل هذا الاقتراح لا يحمل أدنى فكرة عما مرّت هي به. ثم جاء جوابها التالي بأنه ربما يكون هناك أملاً بعمل شيء مختلف. وانسلت بعد ذلك إلى غرفتها. وقالت فيما بعد: بقيت في الغرفة يومين بلياليهما دون نوم ودون أكل وأنا أخوض معركة رهيبة في داخلي. كان عليّ أن أواجه حقيقة هذا الحقد، فمهما كانت الأسباب وراءه، فسيبقى عاملاً من عوامل إثارة حروب جديدة (هندرسون 1999، ص 146).

وعندما خرجت من الغرفة، كانت السيدة لوري على استعداد لتناول وجبة مع امرأة ألمانية. أفضت لها بكل مكنونة صدرها، وروت كل ما مرّت به حتى أنها بالكاد لمست الطعام، ثم قالت للمرأة: «إني أحدثك بهذا لأني أريد أن أتحرر من هذا الحقد». ساد الصمت ثم تحدثت السيدة الألمانية كلاريتا فوت تروت، وأخبرت السيدة الفرنسية عن تجربتها الخاصة في الحرب. فقد كان زوجها آدم أحد الذين خططوا لقتل هتلر في منتصف يوم 20 تموز/ يوليو عام 1944. ولكن المحاولة فشلت وتم إعدام

زوجها. وبقيت وحدها تربي طفليها. نحن الألمان لم نقاوم بما فيه الكفاية، ولم نقاوم باكراً ولم نقاوم على صعيد واسع بما فيه الكفاية لذلك جلبنا الويل عليكم وعلى أنفسنا، ومعاناة وحزناً لا ينتهي. أريد أن أقول لك بأنني آسفة (شلز 1983).

بعد تناولهما الطعام، جلست المرأتان ومترجماهما بهدوء على الشرفة المطلة على بحيرة جنيف. ثم قالت السيدة لوري، وهي الاشتراكية المسيحية لصديقتها الألمانية الجديدة بأنها تؤمن بأنهما إذا صلّتا فإن الله سيساعدهما. صلّت هي أولاً طالبةً من الله أن يحررها من الحقد لكي تبني مستقبلاً جديداً. بعد ذلك صلّت السيدة فون تروت باللغة الفرنسية. وعندها، وبشكل غريزي، وضعت السيدة لوري يدها على ركبة غريمتها السابقة وقالت: في هذه اللحظة، أشيد الجسر عبر الراين وهذا الجسر سيبقى صامداً لا يسقطه أحد (شلز 1983).

طلبت لوري الإذن بالتحدث إلى المؤتمر، كان الجميع يخشون ما سيحدث، فالعديد منهم كان يعي خلفيتها ولكن القليل كانوا على دراية بالنتيجة التي وصلت إليها عندما كانت لوحدها في الغرفة، أو بتأثير حوارها مع فون تروت على موقفها.

« استذكرت ما كان يحدث: كان الجميع خائفين فقد كانوا يعرفون شعوري نحو الألمان ولكنهم لم يعرفوا أني قبلت التحدي » (لوري 1980). كان الأمر يشكل مغامرة من منظمي المؤتمر. لم يكن هؤلاء يؤمنون بأن الطريقة الفضلى لإيصال أفكار جديدة إلى الألمان الذي عاشوا طوال هذه السنين تحت حكم النازية، هو أن تضعهم في قفص الاتهام. ولم تكن تلك الأيام أيضاً أفضل ما تختارها لوري. كان الدور في الكلام باللغة الألمانية. وفي الاجتماع التمهيدي، برز اقتراح بأن يتكلم وزير نمساوي، ولكن الأخير رفض قائلاً: لقد أمضيت في معسكر اعتقال أربع سنوات ولا يمكنني أن أتحدث مع الألمان، وردّ عليه شاب ألماني قائلاً إذا كان الألمان مذنبين فإن النمساويين ليسوا بأقل من ذلك (لين 1998، ص 332)، وعندها قرر بوخمان، الذي نادراً ما ترأس الجلسات أن يترأس هذه الجلسة.

تحدثت لوري أمام ستمائة إنسان كانوا متواجدين في القاعة، بمن فيهم الألمان، وأخبرتهم بكل صدق وبكل ألم عن كل ما شعرت به ثم قالت: لقد كرهت ألمانيا لدرجة أني كنت أرغب برؤيتها وقد أزيلت من خارطة أوروبا. ولكني رأيت هنا بأن حقدي هذا كان خاطئاً. أنا آسفة وأطلب المغفرة من جميع الألمان الحاضرين هنا (لين 1998، ص 353). وما أن أنهت كلمتها حتى نهضت امرأة ألمانية من بين الحضور وأمسكت بيدها، كانت هذه اللحظة بالنسبة للوري تشكل شعوراً بالتحرر، كما لو أن ثقلاً يزن مئة كيلو غرام قد انزاح عن كتفيها. قالت: في تلك اللحظة، علمت أنني سوف أحمل هذه الرسالة في التسامح والمصالحة إلى العالم طوال ما بقي من عمري (هندرسون 1994، ص 22).

وبعد مرور ثلاثين سنة على هذه اللحظة، قالت روزماري هافر وهي ابنة المرأة التي أمسكت بيد لوري في كوكس عام 1984 موجهة حديثها إلى الحضور في كوكس « إن شجاعتك في رفع حقدك إلى الله ومطالبتنا نحن الألمان بالغفران لك، كانت تجربة رهيبة لنا. فعندما رأيت أمي تذهب باتجاهك، انهار العالم حولي وشعرت بخجل عميق لما فعله الألمان بك وبعائلتك. وبدأت أفهم ببطء أن هؤلاء الألمان الذين تسببوا في معاناة شديدة أيضاً لعائلتي قد فعلوا ذلك باسم ألمانيا، أي باسمي أنا أيضاً.

ومن بين الذين رووا قصصهم في قاعة كوكس ذلك اليوم، كان بيتر بيترسن وهو شاب ألماني أصبح فيما بعد عضواً رفيعاً في برلمان ألمانيا الفيدرالية. قال بيتر:

« منذ أن كان عمري سبع سنوات وأنا أرتدي زيّاً نظامياً معيناً، ومع نهاية الحرب أصبحت لا أملك حتى زيّاً مدنياً أرتديه، وجئت إلى كوكس وأنا أرتدي بزّة جدي التي كانت قصيرة في بعض المناطق وواسعة في مناطق أخرى. كنت قد طليت ثيابي العسكرية باللون الأسود لذلك لم يكن الأمر سيئاً. وصلت إلى كوكس بمشاعر مختلطة، كنت أتوقع من الناس أن يسألوا: ماذا يفعل هؤلاء الألمان المجرمون هنا. كنت جاهزاً للرد على أي اتهام يوجّه لنا. ولكننا بدلاً من ذلك لقينا ترحيباً حقيقياً. فقد غنت لنا فرقة فرنسية، وباللغة الألمانية، أغنية تعبر عن مصير ألمانيا الحقيقي. بدا الأمر وكأن كل الأبواب قد فتحت أمامنا. كنا في حالة استرخاء تام. بعد

ثلاثة أيام من وصولي علمت بوجود السيدة لوري في كوكس. وعلمت أيضاً بأنها كانت على وشك المغادرة عندما رأتنا نحن الألمان قادمين. ثار نقاش حاد بيننا، وهو نقاش يتعلق بمسألة الذنب وعلى من يقع اللوم، كان هذا السؤال هو الذي يقسم ألمانيا في ذلك الوقت ولم يكن من الممكن تجنبه. أدركنا جميعاً أن هذه المرأة الفرنسية تملك الحق في أن تكرهنا ولكننا قررنا بأن نرد عليها في حالة عبّرت عن حقدها، بسرد قصص الاحتلال الفرنسي للغابة السوداء » (بيترسن 1947، كما ورد في مارسل 1960، ص 24).

وعندما تكلمت لوري في الاجتماع، كان بيترسن ورفاقه يجلسون في الخلف، وقد بدا عليهم الامتعاض وهم يسألون أنفسهم إذا كان من الأفضل لهم مغادرة القاعة ولكن بعد انتهاء الحديث قال بيتر:

« لقد أصبت بالذهول وأمضيت بعدها عدة ليالٍ لم أذق فيها طعم النوم، لقد شعرت بماضيً ينهض ثائراً أمام شجاعة هذه المرأة وأدركت فجأةً أن هناك أشياء لا يمكننا كأفراد أو كأمم أن نعوّضها. ولكننا عرفنا، أنا ورفاقي أن هذه المرأة أرتنا الطريق الوحيد المفتوح أمام ألمانيا، إذا أرادت أن تلعب دوراً في إعادة بناء أوروبا. وأن الأساس الذي يجب أن تبنى عليه أوروبا الجديدة هو المغفرة، كما بيّنت لنا مدام لوري. أخبرناها في أحد الأيام كم نحن آسفون وخجلون لما عانته هي وشعبها بسبب أخطائنا ووعدناها بأن نكرس حياتنا من أجل أن نمنع حدوث مثل هذه الأشياء مرة أخرى» (بيترسن 1947، كما ورد في ماربيل 1960، ص25).

كان باستطاعة إيرين لوري، ومعها كل المبررات، أن تلوم الألمان ولكنها لم تفعل ذلك، وفي الحقيقة فقد ورد على لسانها بعد عدة سنوات أنها قالت: « منذ اللحظة التي قررت فيها أن أتحدث معهم كأصدقاء بدلاً من أن ألومهم، كان الشيء الوحيد الذي خطر على بالي أن أفعله هو أن أعتذر لهم عن حقدي » (1971). وكما في عدد لا يحصى من الأمثلة التي ظهرت مع مر السنين، فقد أثار هذا الموقف النبيل الذي اتخذته نوعاً من البحث عن الروح لدى هؤلاء الذين وصلتهم كلماتها، سواء كانوا ألماناً أم من جنسيات أخرى. ويكتب بريان هاملين في تقييمه للتأثيرات الأوسع التي تركتها تجربة لوري فيقول:

« إن اعتذار شخص لآخر ليس بالشيء الجديد، فكل الناس يتعلمون بالتجربة أن مثل هذا التبادل للمشاعر ضروري للحفاظ على علاقات شخصية ناجحة. وجميع الأديان تنادي بالندم. ولكن الخطوة المتقدمة هي أن تأخذ هذه المقاربة إلى مستوى الفئة أو الوطن. ومن أجل تحقيق ذلك، تم وضع استراتيجيات مدروسة بعناية من أجل التحضير لمثل هذه المواجهات بين ممثلين عن مختلف البلدان أو الفئات العرقية » (1992، ص 12).

تجربة كوكس

خلال الأسابيع الثلاثة التي قضتها في كوكس، لمست لوري نواحي أخرى عديدة من مقاربات المركز، وساعد هذا على تعميق تفهمها كما منحها فرصة للتعبير عن قناعاتها، فقد تكلمت ست مرات خلال الاجتماع. ولعل كوكس كانت تملك ميزة لم تكن لتوجد دائماً في أعمال منظمة مبادرات التغيير الميدانية، إذ كان باستطاعتها جذب الناس الذين يميلون على الأقل إلى البحث عن طرق لحل النزاعات، حتى لو لم يكن هؤلاء الناس مدركين بأن الأمر قد يحتاج منهم لأن يجروا بعض التغييرات في أنفسهم.

ومن بين العوامل الأخرى التي أسهمت في فعالية المركز، بالإضافة إلى موقعه الهادئ، كانت طبيعة الاجتماعات وورشات العمل، وفرص التحدث الممتع خلال وجبات الطعام، واستخدام المسرح والفنون لعرض الحقائق التاريخية. وفوق هذا كله، كان ذلك الحس الكريم بحسن الضيافة والتي تظهر مدى الاحترام الذي تبديه المنظمة لكل إنسان. وقد برز الإحساس بحسن الضيافة من خلال حقيقة أن العائلات السويسرية أعطت أفضل ما عندها من أجل تهيئة المكان، ومن خلال فرق المتطوعين الذين بذلوا جهوداً لا نهاية لها في إعداد الغرف وتنسيق الورود في القاعات وإعداد الطعام الذي يأخذ في حسبانه الحساسيات الثقافية لمختلف الشعوب.

وفي الجلسات التي كانت تنعقد بجميع أعضائها، ظلت الكلمات الرسمية تقدم بالحد الأدنى فيما كان التركيز على تقاسم قصص التجارب بإيجاز من قبل المشاركين.

وحديثاً، أصبحت العادة هي تقسيم المؤتمر إلى ما يشبه الجماعات حيث يتاح المجال للناس ضمن مجموعات صغيرة أن تتعرف أكثر على بعضها البعض وأن تكتشف موضوعات المؤتمر. وفي الجلسات والحوارات التي دارت في كوكس، كان يمكن للورا أن تستمع إلى القصص الشخصية حول التغيير، وهي قصص كان القصد منها استلهام التغيير والحثّ عليه لدى الآخرين، دون استخدام وسائل الوعظ والإرشاد، تماماً مثلما ترددت أصداء قصتها عبر عقود الزمن في زوايا بعيدة من العالم.

وكما هو الأمر مع لورا والألمان عندما يلتقي المتنازعون في كوكس، يمكن لمقاربة منظمة مبادرات التغيير أن تفتح الطريق أمام تغييرات في العلاقات، وكما يبين الحبر مارك غوبن: إن الاستماع إلى الشهادات العامة للأطراف المتنازعة حول النزاع، في مركز جمعية إعادة التسلح بالأخلاق، يعتبر أمراً جوهرياً في عملية حل النزاعات. لأن التراحم يبدأ بالظهور لدى سماع أي طرف للقصة المؤلمة لدى الطرف الآخر، وهكذا ضمن هذه التركيبة الدينية يتحول كل طرف إلى دور الله في حياته. وهذا بدوره يولّد رابطة مشتركة بين الأعداء، كثيراً ما أدت، إذا ما مُنحت الرعاية الحذقة والحذرة إلى حوار أكثر صدقاً وإلى بناء علاقات أفضل (2000، ص 20).

كما أن التجمعات الهادئة التي تدور حول موائد الطعام تعتبر ظاهرة أساسية في مقاربات المنظمة في كوكس لأن هذه الوجبات تعتبر مدخلاً رئيساً للقاءات فهي تضع الناس في طريق بعضهم البعض أو تجمع بين هؤلاء الذين يصارعون أزمات الحياة القاسية وبين الذين واجهوا تحديات مشابهة بكرامة وشرف، بحيث يمكنهم نقل تجاربهم إلى الآخرين، وتتم هذه اللقاءات على موائد الطعام أحياناً عبر تخطيط حذر ومقصود من قبل العاملين في المنظمة أو عبر صدفة يطلق عليها مارسل «فرص اللقاءات الحاسمة» (1960، ص 17). ويخبرنا خبراء علم الإنسان أن من الصعب نفسياً الاستمرار في كره أحد تقاسمت معه كسرة الخبز. تماماً كما هي الحال بين السيدة لوري والسيدة فون تروت، فكم من الوجبات في كوكس استطاعت جلب الأعداء إلى مكان للتفاهمات وللاحتمالات الجديدة.

كانت تجربة لوري نفسها في تغيير عواطفها بمثابة صدمة روحية لها. فقد بدأت تؤمن الآن أن الأمر نفسه قد يحصل مع آخرين، حتى مع الموظفين القائمين على الخدمة في كوكس أنفسهم. والظاهرة الأخرى التي قد تكون السيدة لوري اكتشفتها منذ ذلك الحين أن بعض الأشخاص الذين كانوا يخدمون على طاولتها ينتمون لطبقة كانت هي تكرهها. وقد أسهمت معرفتها بأصحاب العمل هؤلاء وبخاصة الفرنسيون منهم الذين يحملون دافعاً جديداً للعمل، بتحريك عواطفها بعيداً عن مواقفها الطبقية خلال الحرب. وفي الحقيقة كانت السيدة لوري تعتقد في البداية أن كوكس هي عبارة عن « فخ رأسمالي ». ولكنها في آخر أيامها في كوكس، وجدت نفسها تعمل مع هؤلاء الموظفين للتخطيط من أجل إقامة مؤتمر صناعي في شمال فرنسا. ولعل اللقاءات التي رآها الفيلسوف الكاثوليكي الفرنسي غابرييل مارسيل في كوكس، أقنعته بأنه يشهد ظهور ضمير جديد للعالم: إن ما أدهشني قبل كل شيء هو أنك تجد في كوكس أموراً عالمية وأموراً حميمية ترتبط مع بعضها البعض بطريقة مدهشة. فلأول مرة في تجاربي التي خضتها، أشعر بوجود وعي عالمي حقيقي بدأ يظهر ويتشكل من خلال هذه اللقاءات (1960، ص 17).

بعض اللقاءات كانت تتم ضمن فرق الخدمات، التي كانت تشكل مظهراً أساسياً للحياة في البيت الجبلي. فكان جميع الضيوف يثنون على المشاركين في إدارة البيت ويذكر غوبين: « كان مركز كوكس ينظم أعماله من خلال فرق العمل، بهدف محدد هو إقامة العلاقات عبر المشاركة في العمل. كان هذا الأمر يحمل مردوداً جيداً في إنشاء علاقات متساوية وشق طريق قوية لتطوير العلاقات خارج أسلوب الحوار ». (2002، 253) ويشير في هذا إلى الروابط التي نمت بينه وبين بعض الطلاب العرب في كوكس عام 1991، عندما وجد هؤلاء أنفسهم يعملون ضمن فريق خدمات، مما اضطرهم إلى حل بعض المسائل العملية بعيداً عن الشرق الأوسط ومعتمدين على بعضهم البعض (ص ص 173-174). وفي إحدى مراحل عمل البيت الجبلي،

وخاصة في سنواته الأولى، كانت هذه الظاهرة تحمل معها سلبية معينة. فقد ظهرت صورة في إحدى الصحف الإيطالية، تظهر بعض أعضاء البرلمان وهم يغسلون الأطباق وأدى هذا إلى منع أعضاء غيرهم من الحضور إلى كوكس. وفيما بعد أصبح زوج لوري، فيكتور، الذي كان يعمل تاجراً في البحر، خبازاً منتظماً في مطبخ كوكس.

إحدى العمليات الأولى التي جرت إثر شراء فندق قصر كوكس، كانت تحويل قاعة الحفلات في الفندق إلى مسرح. وكان مارسل قد لاحظ أن بوخمان ورفاقه قد حققوا اكتشافاً حقيقياً عندما أدركوا بان الناس هذه الأيام يتأثرون بالأشياء المرئية أكثر من سماعهم لموعظة ما. (1960، ص ص 13-14). وكانت السيدة لوري قد شاهدت بعض المسرحيات التي عرضت على مسرح القصر وقد شملت هذه المسرحيات رؤىً تاريخية أحياناً وسير حياة في أحيان أخرى وكانت إحدى هذه القصص تدعى الطريق الصالح، وهي عبارة عن قطع موسيقية تتخللها مشاهد مسرحية مضحكة عن الحياة المعاصرة، كذلك مهرجانات مسرحية متحركة لقصص تاريخية تجسد بشكل درامي الأفكار الأساسية للحرية وللشروط الضرورية لإقامة مجتمع سليم. وشاهدت السيدة لوري أيضاً مسرحية « العامل المنسي » وهي دراما صناعية تضمنت المبادئ الأساسية لمنظمة مبادرات التغيير مثل: لا تسل من هو المحق ولكن اسأل ما هو الشيء الحق. وأدركت السيدة لوري ضمن النزاعات التي انطوت عليها المسرحية بين العمّال والموظفين وجود شيء مشابه لتجاربها في مارسيليا. وفي وقت لاحق طلبت عرض تلك المسرحية في فرنسا وتم عرضها باللغة الفرنسية.

كذلك، عرضت في ذلك الصيف مسرحية « وما زالوا يتقاتلون » وهي تجسد قصة حياة بطل وطني نرويجي عظيم هو فريدي رام، وقد ساعد هذا البطل في إبرام صلح بين بلاده وبين الدنمارك وتوفي بينما كان في طريق عودته إلى وطنه من معسكر اعتقال ألماني. ومع الأهوال التي أصابت العالم نتيجة أحداث الهولوكوست المرعبة، وقف الألمان موقف الدفاع عن أنفسهم، حتى أن راينولد ماير الوزير ورئيس ولاية

ورتنبرغ – بادن الألمانية، بعد أن شاهد مسرحية « وما زالوا يتقاتلون » انسلّ إلى خارج المسرح ورمى بنفسه على الفراش وقد حطّمه العار لما فعلت بلاده وكتب لاحقاً يقول: « كانت المسرحية عرضاً لا حقد فيه ولا شكوى لذلك جاءت قوية في تأثيرها » (ماير 1964، ص 383).

القصة الشخصية كصورة إيجابية للتغيير

كان على لوري أن تغادر كوكس وتعود إلى وطنها لمتابعة حملة انتخابات. وفي كلمة ألقتها قبل مغادرتها، وأشارت فيها إلى المدى الذي وصل إليه تفكيرها، قالت لوري: « أطلب منكم أن تتفهموا معاناة واحتياجات الطبقة العاملة، كما سأتذكر دائماً أن أذكر في خطاباتي خلال حملة الانتخابات أن أصحاب العمل ليسوا دائماً على خطأ ». كما وعدت الألمان بأنها ستكافح من أجل إجراء مصالحة بين ألمانيا وفرنسا مضيفة: « هنا في كوكس، تحرر قلبي من المرارة التي كان يكّنها ضد ألمانيا. سوف أستخدم موقعي السياسي لأن أرى أن فرنسا وغيرها من البلدان لا تملك أي رغبة في تجويع ألمانيا. فقد كانت فرنسا تعاني من الاحتلال الذي تعاني منه ألمانيا اليوم. لقد كنا جميعاً على خطأ وعلينا الآن أن نبني جسراً من الحنان عبر الراين.

وفي معرض ردّها على لورا، قالت مادلين بيشيل من برين، التي كانت معتقلة مع زوجها في إحدى معسكرات الاعتقال النازية: سوف أحمل معي كلمات السيدة لورا إلى نساء ألمانيا. لقد انهمرت دموعي مرات عديدة في كوكس ولا أظن أنني فرحت من كل قلبي منذ عام 1934 وحتى عام 1947 مثلما فعلت في الثمانية عشر يوماً السابقة، هنا خاصة بين أناس يملكون كل الحق في أن يكرهونا نحن الألمان (منظمة إعادة التسليح الأخلاقي، 1947).

في عام 1948، سافرت لورا وزوجها إلى ألمانيا، وجابوا البلاد من أدناها إلى أقصاها خلال 11 أسبوعاً قضياها هناك، تحدثا خلالها في مائتي لقاء بما فيها عشرة من بين الأحد عشر برلماناً للولايات. وقد رافقهم بعض مواطنيهم ممن فقدوا عائلاتهم في

غرف الغاز بالإضافة إلى رجال ونساء من دول أخرى كانت قبل وقت قصير تخوض حرباً ضد الألمان. في كل مكان رددت اعتذارها، وأشارت أنها بعد أن كانت تنهي كلماتها، كان العديد ممن استمعوا إليها وبينهم جنرالات وضباط وسياسيون وشباب عملوا سابقاً مع النازيين، يعتذرون لها. (هندرسون 1996، ص 29) وقد كتب روبين موات حول سفر لوري ورفاقها إلى ألمانيا يقول: « مثل هذه الأفعال لعبت دوراً في تجهيز الساحة أمام القرارات السياسية التي أتاحت الفرصة للسياسيين أن ينقلوا عمل المصالحة إلى مستويات أخرى وفتحت طريقاً جديداً نحو مستقبل أوروبا الغربية (1991، ص 197).

وخلال سنوات حياتها، قطعت لوري آلاف الأميال في السفر لتشارك الناس تجربتها في الرد على الحقد. أحياناً كانت تسافر لوحدها وأحياناً برفقة زوجها، وغالباً مع مجموعات صغيرة أو كبيرة من الناس. وقد بقيت هذه الطريقة في السفر ضمن مجموعات طريقة مفضلة لدى منظمة مبادرات التغيير من أجل نقل قوة وتعددية ردّ ما إلى الجمهور واستمرت حتى في السنين الأخيرة مع أفارقة رفيعي المستوى قادمين من قرن إفريقيا بهدف زيارة العواصم الأوروبية، ومع فريق مختلط من كافة الأديان، يمثلون مسيحيين ويهوداً ومسلمين، زاروا إسرائيل وفلسطين أو حتى مع شباب يعملون في حركة « العمل من اجل الحياة » زاروا دول جنوب أفريقيا.

وفي العقود التي تلت زيارة لوري إلى كوكس، استمرت أعمال المصالحة القائمة على المبادئ التي ذكرناها سابقاً، وقد كتب آبل باي في هذا الصدد يقول:

> لعبت منظمة إعادة التسلح الأخلاقي أدواراً داعمة لحلول العديد من النزاعات خلال العقود التي تلت ظهورها المؤثر على الساحة وقد كان بناءها التنظيمي الحر كشبكة من المحترفين الشجعان والمندفعين المتمركزين في سويسرا إضافة إلى عدد من الفروع القومية التي تضم عاملين دائمين مدعومين بتمويل محلي، ملائماً لأخلاقياتها الداعية إلى إقامة العلاقات الشخصية عبر خطوط القتال (1999، 225-226).

أصبحت كوكس محور عمل بناء السلام ضمن جدول أعمال عنوانه المصالحة وعبر مكتبها الذي يعمل أيضاً ضمن المنظمات غير الحكومية في مبنى الأمم المتحدة بنيويورك.

وحول العالم، وحتى تاريخ اليوم أي بعد مضي خمس عشرة عاماً على وفاة السيدة لوري ما زال هناك رجال ونساء يعملون بنشاط من أجل بناء السلام، ويعزون التزامهم وتأثرهم بهذا العمل إلى حياة إيرين لوري، سواء كانوا قد قابلوها شخصياً أم قرأوا سيرة حياتها (بيجيه، 1985). أو شاهدوا أفلاماً عنها مثل «من أجل حب الغد» (شانر 1983. وإحدى هؤلاء هي رينيه بان، وهي راهبة بوذية كان زوجها يعمل كنائب لرئيس وزراء كمبوديا واغتيل على يد الخمير الحمر لدى استلامهم السلطة في البلاد عام 1975. تمكنت هي من الهرب إلى الولايات المتحدة حيث كافحت من أجل استقلالها اقتصادياً، ولكنها شعرت مع مرور الزمن أن عقلها قد استهلك من قبل ما تسميه الديانة البوذية «النيران الثلاثة في الأرض» وهي الجشع والغضب والغباء. وفي إحدى فترات هبوطها، حين شعرت بأن قلبها قد تخدر وأن دماغها أصبح فارغاً، قررت التحدث مع لوري التي أعطتها المفتاح للتغلب على حقدها ضد الخمير الحمر: «إعطاء وقت للصمت» (هندرسون 1999، ص ص29–41).

وفي وسط تجربة كوكس ومن ضمن العمل المستمر لمنظمة مبادرات التغيير تبرز مسألة إعطاء الوقت للصمت، وهي التوصية التي قدمتها السيدة لوري إلى بان. وهي ليست عقيدة دينية قدر ما هي تجربة عملية، كما أن كل إنسان يفسرها بطريقة مختلفة. فالسيدة لوري التي سجلت أفكارها في دفتر ملاحظات، نظرت إلى هذه الممارسة ضمن بُعد أوسع (شانر 1983). وأطلقت على الوقت الهادئ لقب « أقوى الأسلحة على الإطلاق ». فبدلاً من إلقاء القنابل وإطلاق الرصاص، اهدئ واصغي. بالنسبة للبعض يعتبر الأمر صوتاً لله، وبالنسبة لآخرين هو صوت للضمير ولكن كل واحد منا، سواء كان رجلاً أم امرأة، يملك الفرصة للمشاركة في عالم جديد، إذا استطعنا أن نصغي بهدوء لما يعتمل في قلوبنا (بيجيه 1985، 58).

كذلك أكدت لوري لبان على أهمية التسامح والغفران. وكانت رسالتها بالنسبة لهذا الموضوع واضحة حين قالت: « تعلمت في كوكس كيف أسامح وهذا أمر عظيم لأن الإنسان قد يموت من شدة الحقد. ولو استمر الأمر معي كما كان، لنشرت الحقد داخل أسرتي. ولبدأ أطفالي يكرهون الألمان ثم يكرهون رؤساءهم ومن يا ترى سيكون التالي؟ (شانر 1983). وقد دفع لقاء بان بلوري إلى أن تعامل الخمير الحمر بطريقة مختلفة. وتقول بان في هذا الصدد: « كان من الصعب عليّ أن أسامحهم لما فعلوه بي وبعائلتي وبأصدقائي، ما فعلوه لبلادي الحبيبة، ولكن حمل الانتقام الذي حملته لعقد من الزمن خفَّ عليَّ كثيراً منذ اللحظة التي بدأت فيها بالتسامح ». (هندرسون 1994، 33).

شخص آخر تأثر بحياة لوري كان إليازر سيفوينتس من غواتيمالا، وقد كان محظوظاً لبقائه على قيد الحياة، ففي ليلة من عام 1980، هاجمته أربع سيارات محملة بالمهاجمين بعد أن كمنوا لسيارته وأطلقوا عليه النار. ولكنه استطاع تجنب مطارديه بعد اختبائه وراء المقود واستخدام أطراف المنازل في قيادة سيارته وبعد أن أصيب بطلقة في ذراعه. بعد ذلك تخلص اليازر من سيارته واختبأ في إحدى الدكاكين لمدة خمس ساعات. وعند منتصف الليل استقرض من صاحب الدكان سيارة وخرج متخفياً بزي امرأة ثم قادَ السيارة إلى مدينة غواتيمالا والتجأ هناك إلى سفارة كوستاريكا وبعد أربعة أشهر من المفاوضات، سُمح له بالسفر إلى سان خوزيه في كوستاريكا (هندرسون 1999، 143-144).

وفي منفاه، تنامى حقد سيفوينتس على مهاجميه، لم يعد يتحمل رؤية شرطي وانتابته موجات من الصداع. وفي أحد الأيام، وإثر رؤيته لفيلم يتحدث عن إيرين لوري، خاض تجربة غيّرت حياته. فقد أدرك سيفونتس مدى العدوانية التي خلفها الحقد في قلبه ضد العسكر وضد الولايات المتحدة الذي كان يشعر أنها تدعمهم. وأدرك أنه لم يعد يعمل بمبدأ المحبة الذي طالما كان يدعو إليه. يقول: لقد بدأت أشعر بشيء جديد في داخلي، قلب مشاعر الحقد ورغبة الانتقام..

إن التخلي عن الحقد تجربة شخصية رائعة ولكن الخطر كان يكمن في ترك الأمور عند هذا الحد (هندرسون 1999، ص ص 143-144). قرر سيفوينتس أن يذهب لرؤية ضابط استخبارات غواتيمالي سابق، كان يعتقد بأنه مسؤول عن وضع لوائح بأسماء الأشخاص الذين كانت الاستخبارات تنوي اختطافهم. وبعد عدة لقاءات استطاع سيفوينتس أن يتأكد من صدقه تجاه الحقد على العسكر وقد أدى هذا إلى تغيير في موقف الرجلين وإلى عقد اجتماع خارج البلاد مع مسؤول عسكري رفيع، أبدى استعداداً للعمل معه على إجراء مصالحة وطنية. وبعد صراع مع عائلته، قررت زوجته كليمانسيا وأولاده أن يغفروا أيضاً. ويقول سيفوينتس عن تجربته في مشاهدة فيلم « من أجل حب الغد »، أن الألمان يمثلون بالنسبة لهذه المرأة الفرنسية تماماً ما يمثله العسكر بالنسبة لي. لقد وضع الله في قلبي مهمة هي القيام بمصالحة بين العسكر والمدنيين في بلادي (هندرسون 1999، ص 145).

وتروي أبيبا فاغورغيس قصة السيدة لوري التي تركت فيها أثراً كبيراً وإبيبا هي مؤلفة كتب من أريتريا، شكك الأثيوبيون الذين يحتلون بلادها بأنها تعمل مع المقاومة السرية. واعتقلت وواجهت في يوم ما فرقة إعدام كخدعة لأخذ المعلومات منها ولكنها نجت. وفي السجن قابلت إبيبا وجهاً لوجه الشخص الذي وشى بها وسامحته وحاولت بعد ذلك أن تساعد السجناء الآخرين على إدراك أن الضرر سيلحق برفاقهم الذين لم يصمدوا في التحقيق واعترفوا أو سقطوا، إذا لم يقوموا بمسامحة أعدائهم. وقالت « نحن نصلي معاً من أجل إطلاق سراحنا ومن أجل السلام ولكن الله لن يستجيب لصلواتنا إذا واصلنا تغذية الحقد والكراهية لبعضنا البعض » (هندرسون 1999، ص ص 43-53).

وبعد أن نالت بلادها الاستقلال، أنشأت إبيبا مركزاً للتنمية وحقوق الإنسان. وفي إحدى كلماتها التي ألقتها خلال ندوة أقيمت حول التعاون الإقليمي، قالت إبيبا: دعونا نتخلص من أعدائنا ليس باعتقالهم أو قتلهم كما تفعل معظم الأنظمة

الإفريقية، وليس بتحقيرهم وإذلالهم بل بحل النزاعات معهم. « إنها قصة تلك المرأة الفرنسية » كما أخبرت إيبيا السجناء الآخرين معها في الزنزانة. « تماماً مثلما لم تكن إيرين تأمل أن ترى أوروبا موحدة، تعيش في سلام، دون ألمانيا، فإننا لا يمكننا الادعاء بأننا نحب بلادنا ومن ثم نرفض التفاهم مع زملائنا الإريتريين أو التسامح معهم. (هندرسون 1999، ص ص 51-53).

نحن نسلّم جدلاً بأن الحقد يمكن أن يمرر من جيل إلى جيل. ولكن تجربة السيدة لوري تبين أيضاً أن المحبة، بكل رقتها المفترضة يمكن أن تتواصل كذلك على نحو مشابه. وهكذا نرى أن أشخاصاً لم يقابلوا لوري أبداً، تأثروا بأمثولتها وساروا تجربتها إلى الأمام بطرق غير متوقعة. في تلك الليالي من عام 1947، عندما كانت تصارع السؤال حول إذا ما كان يجب عليها أن تتخلى عن حقدها من أجل السعي لبناء أوروبا جديدة، لم تكن لوري لتذهب في تفكيرها بُعداً يمكنها من رؤية كيف أن أعمالها لم تلهم هؤلاء الأشخاص فحسب بل ألهمت الآلاف من الناس حول العالم. كانت حياتها مثلاً للقناعة القوية التي حملتها مبادرات التغيير بأن الله يمكن أن يستخدم الشخص العادي ليقوم بأعمال غير عادية.

مرت على هذه القصة خمسون سنة، وما يزال البيت الجبلي يعمل بنفس المبادئ التي عمل بها منذ سنواته الأولى. تلك الوقفة الشريفة التي واجه بها الماضي ما زالت حتى اليوم تعطي ردوداً جذرية.

إليكم هذا المثل من لبنان.

في شهر فبراير/ شباط من عام 2000، أي بعد عشر سنوات من نهاية الحرب الأهلية في لبنان، والتي ذهب ضحيتها سبعون ألف لبناني، و 17 ألف مفقود، ظهرت في إحدى صحف بيروت اليومية رسالة غير عادية، كانت الرسالة عبارة عن اعتذار من قبل أسعد شفتري وهو ضابط رفيع في الميليشيا المسيحية، عما فعله باسم المسيحية نفسها. ومما قاله: نحن جميعنا نتحمل المسؤولية، من حمل السلاح منا، ومن أعطى

الأوامر وحتى من هتف لنا من المدنيين! ويقول شارلز سينوت الذي يكتب في صحيفة بوسطن جلوب بأن الشفتري قد أدهش لبنان بتصريح رائع في صدقه وبساطته (2000).

وفي إحدى المؤتمرات التي عقدت في كوكس بعد عدة أشهر كرّر الشفتري اعتذاره أمام جمهور دولي، وشرح أفكاره السابقة أمام المؤتمر، فقد كان الشفتري يعتبر المسلمين خطراً، وقال: نعم لقد كانوا أخوة لنا ولكن من إله أقل قيمة. كان الشفتري يعتبر المسلمين خونة لأنهم كانوا ينظرون في رؤيتهم السياسية إلى العالم العربي وليس إلى الغرب. وقام خلال الحرب بقصف مناطق سكن المسلمين وأصدر الأحكام لقتل أعدائه المرتبطين بالمسلمين بضمير صاف. لقد كنت أذهب إلى الكنيسة يوم الأحد بعد أسبوع من إيقاع الأذية بالناس وأصلي براحة بين نفسي وبين الله (منظمة إعادة التسلح الأخلاقي 2000 أ و 2000 ب).

ومع اقتراب الحرب من نهايتها، قابل الشفتري بعض اللبنانيين الذين كانت لهم علاقات مع كوكس ومع منظمة إعادة التسلح الأخلاقي والذين كانوا يهيئون لعقد منتدى للحوار بين المسيحيين والمسلمين. هنا أيضاً، كان هناك رابطة مع السيدة لوري، بالنسبة لإحدى النقاط التي لعبت دورها. يقول الشفتري: « ربما أثر فيّ ذلك الفيلم حول حياتها دون أن أعي ذلك» (شفتري 2002). وخلال الحوار الذي دار في تلك المناسبة، استمع الشفتري إلى أحلام لبنانيين آخرين وإلى آمالهم وآلامهم. وفي آذار من عام 2000، كان قد صلّى في أحد المساجد، ويقول الشفتري حول تلك التجربة: لأول مرة شعرت وكأنني أصلي إلى نفس الإله. إني خجل جداً من الماضي، أعلم أنني لا أستطيع تغييره ولكني أعلم أيضاً أنني أستطيع أن أكون مسؤولاً عن مستقبل بلادي (منظمة إعادة التسلح الأخلاقي 2000 أ).

وفيما وقف المشاهدون في البيت الجبلي يصفقون بحماس، صعد لبناني آخر يدعى هشام شهاب إلى المنبر وعانق الشفتري وهو يصيح: أنا مسلم كنت أطلق النار

على أبناء شعبي من الجهة الأخرى للخط الأخضر وأنا أعتذر أيضاً وأقبل اعتذار زميلي وسوف أساعده بكل ما أستطيع من طرق. قال شهاب « لقد تدربت وأنا شاب بأن أطلق النار مباشرة مع تحذير يقول: « تخيل مسيحياً أمامك ». ولكن ضميره عاد وأنبه بعد أن أدرك أن جميع القضايا السياسية لا تستحق إراقة دماء « أتعهد أن أسير يداً بيد مع الشفتري » (منظمة إعادة التسلح 2000 ب).

وفي السنة التالية، وعلى المنبر نفسه، وقف محي الدين شهاب وهو مسؤول منتخب من بيروت، واعتذر عن الفظائع التي ارتكبها حين كان قائداً لمجموعة ميليشيا إسلامية خلال الحرب الأهلية، وقال: لا شيء في الدنيا أخطر من رجل يخاف على حياته وعلى ممتلكاته، إن الدفاع عن النفس قد ينقلب بسرعة إلى انتقام وقتل. إن ما دفعني ودفع شعبي لامتشاق السلاح كان شرّاً مطلقاً. وقد تبعته بعد ذلك إلى المنبر جوسلين خويري التي كانت تقود مجموعة من الفتيات المسيحيات المحاربات على الجهة الأخرى من متاريس محي الدين وبدورها وجدت جوسلين نفسها وقد غيّرت مواقفها من أعدائها (لين 2000، ص 5).

وفي عام 2001، حضر إلى أوروبا لبنانيون من عدة جهات وديانات، وكان يرافقهم الشفتري وأبناء شهاب ليتحدثوا عن تجربتهم في اكتشاف الوحدة والشفاء. لقد أصبح هؤلاء الأعداء السابقون أصدقاء، وأقاموا علاقات عميقة ومؤثرة في صدقها. وفي كل مكان تحدثوا فيه، كانوا يروون قصصاً مؤثرة عن اشتراكهم في ارتكاب الفظائع، ليس فقط ضد الفئة الأخرى، بل أيضاً ضد فئات منافسة من نفس ديانتهم. ولكن كل واحد منهم جابه تلك اللحظة المحددة عندما أدرك أن العنف ليس طريقاً للأمام. ورغم الخطر الذي يهددهم، قام كل منهم بلقاء الآخرين على الطرف الآخر، « ليكتشف أنهم بشر مثله » وحتى اليوم ما زال الشفتري قلقاً على مستقبل بلاده ولكنه يرحب دائماً بإشارات الأمل ويقول أن طلب الصفح صعب والتسامح يبدو مستحيلاً ولكنه أمر أساسي في إعادة إعمار البلاد (منظمة إعادة التسلح 2002 أ).

مبادئ منظمة مبادرات التغيير حول التغيير الإيجابي

ماذا يخبرنا جوهر هذا التغير الذي طرأ على السيدة لوري وهذا الالتزام الذي حملته، وحمله آخرون ممن تبعوها، عن منهجية منظمة إعادة التسلح الأخلاقي أو مبادرات التغيير؟ بعض الذين يعملون فيه قد ينكرون وجود مثل هذه المنهجية أو يحرصون على أن يضعوا ذلك الشعور العفوي الذي ينجم عن الاهتمام بالآخرين، ضمن معادلة صغيرة. بالتأكيد، لا يخلو الأمر من مصادفات في مثل هذه الأمور، ولكن حتى هذه المصادفات، تضعها المنظمة في سياق أعمال الله. وهم يبينون أن الانفتاح أمام الطرق غير المتوقعة هو أمر أساسي في هذا السياق. ويكتب غوبين قائلاً: لقد ظهرت قوتهم الكبيرة في نموذج بنائهم للعلاقات والارتباطات غير الرسمية، والتي تحمل أسساً لاهوتية مهمة بالنسبة لهم وهم يرون في مفاجآت العلاقات الإنسانية ومصادفات اللقاءات يداً إلهية ترشد البشر نحو المصالحة مع بعضهم البعض ومع الله (2002، ص 161). ومع ذلك تبقى هناك مبادئ بارزة لديهم، وموجودة لدى الأشخاص الملتزمين بمبادئهم حيثما التقيتهم، وحيثما حاولت التعلم منهم.

لذلك، ليس من قبيل الصدفة، أن نرى كلمة التغيير محورة في اسم منظمتهم « مبادرات التغيير ». كما أن منظمة إعادة التسلح الأخلاقي تتحدث دائماً عن البُعد الكامل للتغيير. ومنذ عام 1921، ظل بوخمان يصف هدفه على أنه برنامج لإطلاق الحياة بالتغيير الشخصي والاجتماعي والعرقي والقومي والأممي. وقد شدد في حديثه عام 1932، على أن الحياة يجب أن تتغير إذا كان لابد من حل المشاكل. وفي عام 1932 شدد بوخمان على هذا مكرراً قوله أننا يجب أن نغير حياتنا إذا أردنا أن نحل مشاكلنا. كما أن السلام العالمي لا يمكن أن ينبع إلا من السلام في قلوب الرجال. إن تجربة فعالة لروح الله الحرة هي الجواب للعداءات الإقليمية والركود الاقتصادي والتمييز العنصري والنزاعات العالمية. (1961، ص 3).

ويكتب آرشي ماكنزي، وهو دبلوماسي بريطاني تعامل مطولاً مع منظمة مبادرات التغيير ومع قصر كوكس، في مذكراته التي نشرها حديثاً أنه حين كان يحضر

المؤتمرات العالمية، كان يفكر دائماً بأن المشاكل المطروحة على الطاولة ليست بصعوبة المشاكل التي تجلس حول الطاولة، ومع ذلك لم يكن أحد ليفعل شيئاً حول الأخيرة. وكانت إحدى ظواهر إسهاماته الدبلوماسية، هي أنه حاول أن يفعل شيئاً بخصوصهم ونجح في بعض الأحيان (2002، ص 54).

ومنذ انطلاقتها، كان جوهر فلسفة المنظمة يقول بأنك إذا أردت أن تحدث تغييراً في العالم، فإن أفضل الوسائل العملية لتحقيق ذلك هي أن تبدأ بتغيير نفسك وتغيير بلدك. وغالباً ما كانت السيدة لوري تشير في السنين اللاحقة بأنه إذا كان لديك حق أقل من الطرف الآخر ترغب في إظهاره فلماذا لا تكون أنت البادئ بذلك؟ إن التركيز على أن يكون البدء من طرفك ومن مجموعتك يمكن أن يسهم في إيقاف دوائر اللوم والعقاب التي لا تنتهي ولعله ما يثير الدهشة أن لوم الألمان واليابانيين في مؤتمر كوكس وبعد سنتين من انتهاء الحرب العالمية الثانية جاء فقط من قبل أشخاص مقهورين من تجاربهم خلال الحرب. فقد خرج بعض الضباط البريطانيين المسرحين من الخدمة عن طريقهم ليعبروا عن أسفهم للطريقة التي تمت فيها معاملة الألمان من قبل حكومات الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى. وقد عكس سؤال بوخمان إلى السيدة لوري حول إعادة بناء أوروبا عامل رؤية بالنسبة للألمان، رغم كل ما جرى.

وقد قدمت منظمة مبادرات التغيير، ممارسة إعطاء وقت للصمت، كفرد واحد أو ضمن مجتمع – وهو الصمت الذي تحدثت عنه السيدة لوري للسيدة بان – من أجل مساعدة كل فرد على أن يجد لنفسه طريقاً سليماً للتحرك. وكوسيلة مساعدة في تحديد الخطوات القادمة التالية، ووضع معايير للحياة الشخصية والعامة، أوصت المنظمة بوضع مؤشرات للاستقامة والطهارة والتضحية والمحبة. وكانت السيدة لوري قد وصفت هذه المعايير بأنها تلك التي تعطي القدرة للوقت الهادئ. وإلا فإن الشخص قد يخرج من وقت التأمل بشعور غامض من النهوض الشخصي ولكن دون أن يكون قد واجه حقائق الحياة. ولعل وسط هذه الأوقات التي تتسم بالصمت، وإطاعة ما هو أعمق في النفس، « استطعت أن أحقق الأشياء التي تعتبر في الحديث الإنساني، وبالنسبة لي، من المستحيلات » (مارسيل 1960، ص 20).

ويكتب غوبين الذي درس الموضوع بشمولية بأن منهجية منظمة إعادة التسلح الأخلاقي في بناء السلام والعلاقات تتضمن ما يلي:

« وجود نمط عميق ومتواصل من بناء العلاقات مع الأشخاص الأساسيين على طرفي النزاع، واستخدام الصحوة الروحية للحث على مراجعة النفس وتغيير العلاقات. كذلك تشمل دعم وتعزيز روح المسؤولية الشخصية التي تدرك من الأساس دور الشخص نفسه في فشل علاقاته. أيضاً، تتضمن هذه المبادئ إيقاظ روح الله في داخلك وبينك وبين الآخرين، والتركيز على أخلاقياتك في التعامل مع الأمور. وبالتأكيد فإن أي شخص يرتبط مع هذه المنظمة، سيجد أن الأخلاقية الشخصية والأخلاقية الحضارية التي ينتمي إليها هي في صلب رسالتها وتعاليمها، بينما تأخذ مسألة صنع السلام المرتبة الثانية في اهتماماتها ».

أن الرغبة في تقديم الأفضل للشخص الآخر تأخذ على وجه التأكيد أسبقية على النتائج، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية. وبكلمات أخرى، أن السلام يأتي كثمرة للتغيير الذي يطرأ على الناس. وتظهر أمام الناس رؤية للدور الأوسع الذي يمكنهم لعبه في بلادهم وفارق تأثير هذا الدور في النتيجة. فهؤلاء الذين كانوا يحيطون بالسيدة لوري، على سبيل المثال، كانوا يرغبون في الاعتماد على رغبتها في رؤية أوروبا جديدة وعلى عاطفتها التي كانت تتوجه حيثما كانت هناك معاناة على وجه الأرض. لم يكن عليهم أخبارها بأن حقدها كان خاطئاً أو أن عليها الاعتذار إلى الألمان. ولم يكن لدى أحد أي فكرة عن شكل التغيير الذي ستتّبعه. كان الأمر يتعلق بالتطور الروحي للسيدة لوري الذي شكل أولوية لهؤلاء الذين عاشوا بجانبها، وساعدوها على التأهب لقبول الخطوة التالية التي أرادها الله لها، مهما كانت هذه الخطوة. وتقول لورا حول مقابلتها لبوخمان في ردهة القصر بينما كانت تستعد لمغادرة كوكس: لو أنه في تلك اللحظة أظهر شفقته علي لكنت غادرت على الفور، ولكنه تحداني في المحبة، كانت صفاته النوعية هي التي استوقفتني؛ كإنسان تطابقت حياته مع مبادئه، كان ينقل إليك شعوراً بالثقة بأنك إذا قبلت التغيير فإنك ستأخذ دوراً في تغيير العالم (لين 1981، ص 353).

ويرى مونتفيل في تجربة السيدة لوري نموذجاً لتلطيف الشعور بكونك ضحية وبتخفيف وطأة العنف المصاحب له والذي غالباً ما يتحدى المحاولات الدبلوماسية التقليدية للوصول إلى حلول. وعلى الرغم من أن الزعماء القوميين في العادة، نادراً ما يعترفون بما سببوه من أذى سابق، إلا أنه يعتقد بأن ممثلين فرديين لقومياتهم مثل السيدة لوري كانوا يستحملون هذه المسؤولية. فمن خلال إبداء تسامحهم وندمهم، يمكن لهؤلاء أن يشقوا الطريق أمام ظهور طريقة جديدة في التفكير ويعطوا صورة جديدة لبلادهم وقومياتهم (1991، ص 161).

كان استعداد السيدة لوري للاعتذار، ليس فقط عما كانت تحمل من حقد ضد الألمان ولكن عن الأخطاء التي ارتكبتها فرنسا في شمال إفريقيا وجنوب شرق آسيا، هو المفتاح لمساعدة أهالي تلك الأجزاء من العالم على التحرر من مرارة الماضي. مثل هذا الاستعداد لقي تشجيعاً على جميع المستويات من قبل منظمة إعادة التسلح الأخلاقي على مدى السنين بناءً على الاعتقاد بأن وجود شخص صادق ومستعد للاعتراف بالأخطاء التي ارتكبتها بلاده قد يخفف من العداء الذي يشعر به شخص آخر من بلد ارتكبت فيه هذه الأخطاء، ولم يكن باستطاعته أن يفتح قلبه لأي نوع من الحوار. وكما رأينا في مثل السيدة لوري وفي المثل اللبناني، فقد شهدت مؤتمرات كوكس مثل هذه الاعتذارات غير الرسمية. وقيل أن أثرها كان ملموساً في قضايا مختلفة مثل نيل تونس الاستقلال دون إراقة دماء وحل النزاعات بين المتحدثين باللغة الألمانية والمتحدثين باللغة الإيطالية من سكان جنوب تيرول (1996، ص ص37-43، ص ص148-160).

كان دور المنظمة التقليدي يقوم على إتاحة القدرات. ويقول جورج ميسمين وهو عضو في البرلمان الفرنسي أن الشخصيات السياسية التي تأتي إلى كوكس تجد ثلاثة أشياء هي:

- احترام لجميع الآراء: رغم وجود بعض الملاحظات التي قد تكون مؤلمة، إلا أن الناس لم يغضبوا. لقد استمعنا إلى آراء الجميع واستفدنا جميعنا من ذلك.

- انفتاح على الآخرين وعلى التسامح، حتى عندما يظن المرء أن الشخص الآخر على خطأ. نحن السياسيين نميل إلى التنازع على مستويات شخصية، الشيء الذي نتعلمه ببطء في كوكس هو التمييز بين المعارك مع الأفكار والمعارك مع الشخص الذي قد يكون عدوك اليوم ولكنه قد يصبح صديقك غداً.
- جو من الصداقة. في هذه البناية يمكنك أن تصنع أصدقاء لا يطلبون منك شيئاً. هنا نملك رؤية لعالم من النوايا الحسنة، عالم يهتم فيه الفرد بالمصالح الحقيقية للآخرين وليس بمصالحه. إنها طريقة للعيش لا تعرف الأنانية. (هندرسون 1996، ص 15).

ويضعها هاملين بالطريقة التالية:

يجب التركيز أيضاً أنه بعد إزالة هذه العداوات الشديدة أو تخفيفها، يبقى أمامنا مناقشة الخلافات السياسية والاقتصادية. وقد رأت المنظمة أن دورها هو توفير القدرات لهؤلاء الذين سيجلسون أخيراً على طاولة المفاوضات لمناقشة الحلول، لكي يكونوا قادرين على التفاوض أو يكونوا راغبين في ذلك. لذلك فهو عمل يسبق الدبلوماسية الرسمية، ونادراً ما يدخل في عملية التفاوض نفسها، ولكنه يعمل بشكل خاص خلف الكواليس وبين طرفي النزاع لتجهيز الأطراف المتفاوضة وتمكينها من التفاوض.

ويؤمن ريتشارد رافن وهو مدير تنفيذي لمبادرات التغيير في الولايات المتحدة أن التحدي الذي يكمن أمام صانعي السلام الإيجابي هو بناء علاقات ثقة طويلة الأمد بين الناس على جميع أطراف النزاع. ويضيف: للمرة الأولى في التاريخ الحديث، يدرك صنّاع السياسات في الأمم الكبرى أن الأفكار التقليدية للعلاقات الدولية لم تعد تستطيع تفسير هذا العالم الذي تعيش فيه والذي أصبح يعتمد على بعضه البعض. كذلك لم تعد الآليات السياسية التقليدية تفعل مفعولها المتوقع منها. وقد أدى هذا إلى إدراك أن الحقيقة الحالية تتطلب توجهاً لحل النزاع يشمل لأم الجراح وبناء علاقات جديدة عبر نطاق واسع. وهذا الإدراك بدوره، جلب تفهماً للبعدين الأخلاقي والروحي لصناعة

الدول وهما بُعدان يحفزان مجتمع السياسة الخارجية على الاعتماد على مصادر وخبرات الأشخاص والجماعات الروحية في بحثها عن الحلول (1993، ص 10).

مراجع :

Appleby, Scott. 1999. *The Ambivalence of the Sacred.* Lanham, Md.: Rowan and LittleField.

Buchman, Frank N. D. 1961. *Remaking the World* (collected speeches). London: Blandford Press.

Chaftari, Assaad. 2002. Email message to the author (April 13).

Corcoran, Robert L., and Karen Elliott Greisdorf, eds. 2001. *Connecting Communities.* Richmond, Va.: Initiatives of Change.

Channer, David (producer and director). 1983. *For the Love of Tomorrow* London: MRA Productions.

Gopin, Marc. 2000. *Between Eden and Armageddon: The Future of World Religions, Violence, and Peacemaking.* New York: Oxford University Press.

2002. *Holy War~ Holy Peace: How Religion Can Bring Peace to the Middle East.* New York: Oxford University Press.

Hamlin, Bryan. 1992. *Forgiveness in International Affairs.* London: Grosvenor Books.

Henderson, Michael. 1994. *All Her Paths are Peace: Women Pioneers in Peacemaking.* West Hartford, Conn.: Kumarian Press.

_____1996. The Forgiveness Factor London: Grosvenor Books.

_____1999. Forgiveness: Breaking the Chain of Hate. Portland, Ore.: Arnica Publishing.

Laure, Irene. 1971. *Cross Road.* Juliet Boobbyer, Ailsa Hamilton, and Ronald Mann, playwrights. London: Westminster Productions.

_____n.d. [1980]. Conversation with the author. Portland, Ore.

Lean, Garth. 1988. *On the Tail of a Comet.* Colorado Springs, Cob.: Helmers and Howard.

Lean, Mary. 2001. "The house of love has many rooms." *For a Change* 14:5, pp. 4—7.

Luttwak, Edward. 1994. "Franco-German Reconciliation: The Overlooked Role of the Moral Re-Armament Movement." In *Religion, The Missing Dimension of Statecraft.* Douglas Johnston and Cynthia Sampson, eds. New York: Oxford University Press.

Mackenzie, Archie. 2002. *Faith in Diplomacy* London: Grosvenor Books.

Maier, Reinhold. 1964. Em *Grundstein wird gelegt 1945—47.* Tuebingen, Germany.

Marcel, Gabriel, ed. 1960. *Fresh Hope for the World.* London: Longmans.

Montville, Joseph. 1991. "The Arrow and the Olive Branch: A Case for Track Two Diplomacy" In *The Psychodynamics of International Relationships,* Vol. 2.
Vamik Volkan, Joseph Montville, and Demetrios Julius, eds. Lexington, Mass.: Lexington Books.

Moral Re-Armament (MRA). 1947. Caux press release (September 23). MRA archives, Caux, Switzerland.

_____ 2000a. "Former Lebanese militiaman now works for reconciliation." Caux press release (August 14). MRA archives, Caux, Switzerland.

_____ 2000b. "Former militiaman pledges to work for reconciliation in Lebanon." Caux press release (August 15). MRA archives, Caux, Switzerland.

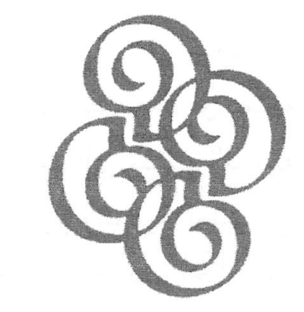


Mowat, R. C. 1991. *Decline and Renewal.* Oxford: New Cherwell Press.
Petersen, Peter. 1947. Transcript. MRA archives. Tarporley United Kingdom.
Piguet, Jacqueline. 1985. *For the Love of Tomorrow.* London: Grosvenor Books.
Ruffin, Richard W B. 1993. "Breakthroughs in Peacemaking." Transcript of speech given at Hubert Humphrey Institute, University of Minnesota, Minneapolis (December 8).
Saunders, Harold. 1993. "The Missing Dimension of Statecraft: Six scholars from CSIS report on their findings." Transcript from presentations given at Mountain House, August 1992. London: Grosvenor Books.
Sennott, Charles. 2000. "Apology of Lebanese figure breaks silence on civil war." *Boston Globe* (February 28).

إذا كنت حكيماً، عليك أن تظهر بمظهر الخزان وليس القناة لأن القناة تصب الماء بالسرعة التي تتلقاه فيها ولكن الخزان ينتظر حتى يمتلئ قبل أن يفيض وبذلك ينقل فائضه...

نحن نملك القليل من هذه الخزانات في الكنيسة حالياً، رغم أن لدينا العديد من القنوات التي ترغب في أن تصب ماءها حتى قبل أن تتلقاه أي أنها أكثر استعداداً للكلام منها للإصغاء، وأكثر حماساً لتعليم ما لا تعرفه وأكثر اهتماماً بممارسة سلطتها على الآخرين رغم أنها لم تتعلم بعد كيف تحكم نفسها... املأ نفسك أولاً ثم اجعل صبّك بحكمة... ومن خلال امتلائك ساعدني إذا استطعت، وإذا لم تستطع فاحفظ نفسك.

برنارد أوف كليرفو



الفصل الثاني عشر

عالـج النـزاع جيـداً

تحويل النزاعات لدى الكنيسة الموحدة الإصلاحية (الميثوديست)

توماس. دبليو. بورتر ومارك كونراد مانكاو

يعتقد مركز السلام العادل للتوسط وتحويل النزاع بان إقامة سلام عادل عبر تحويل النزاع يشمل تجهيز النفس وإشراك الآخرين في العمليات التي تتحرك في اتجاهات إيجابية. « أحسن التعامل مع النزاع » هو نموذج منبثق عن الكنيسة الإصلاحية الموحدة، يستكشف المراحل المتداخلة في تحويل النزاع. ويقدم هذا الفصل من الكتاب إيجازاً عن كل عنصر من عناصر النموذج وبعد ذلك يعرض نقاشاً أكثر عمقاً حول الظواهر الثلاث الأكثر صلة بهذا الكتاب: عملية الدائرة، مواثيق العلاقات والأسئلة التقديرية.

*

تبين نتائج الدراسة الكنسية الوطنية التي جرت عام 1998، بأن 26٪ من الكنائس تخوض نزاعات كثيرة (شافز وآل 1999). فيما تبين مشاريع دراسات أخرى أن بين كل خمسين كنيسة، يتم مقاضاة واحدة سنوياً، مما يسبب نزيفاً هائلاً في الموارد المالية والبشرية ويسهم في تآكل سجلات العضوية. ويقدم تقرير صادر عن المجلس العام لرجال الدين التابعين للكنيسة الإصلاحية الموحدة، معلومات حول النزاعات في هذه الكنائس، جمعت من قبل مشروع جمعيات الإيمان اليوم في أكتوبر/ تشرين

الأول 2000. وورد في التقرير أن نصف الكنائس الستمائة وواحد التي تم مسحها من كنائس الطائفة الموحدة الإصلاحية خاضت تجربة من نوع معين تتعلق بالمال أو العبادة أو الرسالة التي تنقلها أو بأسلوب قيادتها خلال الخمس سنوات التي سبقت الدراسة والكنائس التي ينظر إليها كمراكز للسلام والعدل أصبحت اليوم وبتجربة العديد من الناس تشكل أماكن للخلافات والنزاعات المدمرة. وتبرز عناوين الصحف أخباراً عن آخر الفضائح وقصص النزاع التي تسيء إلى الكنائس أو يتم تجاهلها.

تأسس مركز السلام العادل للتوسط وتحويل النزاعات عام 2000، وهو مركز تابع للكنيسة الإصلاحية الموحدة، وكان ضمن أهدافه تجهيز الكنيسة الإصلاحية ومساعدتها في التعامل مع النزاعات بطرق بناءة تكافح من اجل العدالة والمصالحة والحفاظ على الموارد وإعادة إصلاح مجتمع الكنيسة والمجتمع في العالم.

ومع إدراكه بأن الدين يمكن أن يشكل مصدراً للنزاع أو مورداً للسلام، يعمل مركز السلام العادل على بناء السلام من خلال التركيز بشكل رئيسي على الموارد الإيجابية للسلام التي تتضمنها التجربة المسيحية والتقاليد المسيحية والكتاب المقدس وعلم اللاهوت. وهذا يعني النظر إلى نظام لاهوتي شامل ووفير وليس نظاماً شحيح الموارد ومنعزل. وفي تصميمه لمقاربة بناء السلام، جهد مركز السلام العادل للتعلم من الموارد الإيجابية الخارجة عن تقاليدنا، معتمداً بشكل رئيسي على تحويل النزاعات ومجالات استعادة العدالة بالإضافة إلى البحث التقديري الذي تم تطويره ضمن حقل التطوير التنظيمي (كويزريد ووتني 1999).

يقوم معهد السلام العادل بتوحيد هذه الموارد المختلفة في دليل لتحويل النزاع داخل الكنيسة الإصلاحية: « تعامل مع النزاع بشكل جيد » وهو دليل يستخدم في تجهيز نفسك وإشراك الآخرين في تحويل النزاع (2002). وفي هذا الفصل نقدم نظرة شاملة وموجزة للنموذج بكامله، وثم نناقش بتفصيل أكبر ثلاثة عناصر ضمن هذا النموذج هي عملية الدائرة، ومواثيق العلاقات والعملية التقديرية. ونحن نعلم أن

الديانات الأخرى تملك موارد مشابهة تعتمد عليها، ونأمل من تقديم هذا النموذج أن نشجع هذه الديانات على إدخال مقارباتهم المميزة والخاصة بهم ضمن أدبياتهم لإغناء تعلمنا وممارساتنا جميعاً. والنموذج يبدأ باستعداد الفرد للدخول في عملية تحويل النزاع ومن ثم الانتقال إلى إشراك الباقين.

جهز نفسك لتحويل النزاع

تكرس مجتمعاتنا موارد كبيرة وتتبّع تدريباً منضبطاً في التحضير للحروب. كيف لو أننا نظهر الالتزام والانضباط نفسه في تحضير أنفسنا للتعامل مع بعضنا البعض بشكل بنّاء؟ يعتبر التحضير عنصراً جوهرياً في قدرتنا على أن نكون بناة للسلام. والأمر ليس شأناً تقنياً فقط، بل هو يتضمن تحضير أنفسنا، وفتح قلوبنا، والوصول مع الذين نتنازع معهم إلى نقطة تمكننا من إقامة اتصال حقيقي معهم. ويشمل نموذج تحويل النزاع أربعة عناصر تحضيرية.

شيّد بئراً وليس جداراً

اجعل تفكيرك منفتحاً لفهم النزاع على أنه مدفوع من قبل الله من أجل إيجاد فرصة للنمو والتأمل. فالنزاع ينتج عن الاختلافات التي تخلق توتراً. ولكن مواقفنا تجاه هذا النزاع هي التي تحدد إذا كان ردّنا بناءً أم مدمِّراً. والموقف المعتاد الذي يصف النزاع بأنه سلبي ومدمر، يُولِّد الخوف والقلق والمواقف الدفاعية، ويدفعنا لبناء جدران نقاتل من ورائها أو نتدارى بها. ولكن يمكننا أن نختار بناء البئر بدلاً من بناء الجدار ونفعل هذا من خلال رؤيتنا للنزاع على أنه جزء طبيعي وضروري من خلق عقلاني ومتنوع وأساسي في قهر الظلم ورفع القمع ومحاربة الشرور وكمصدر طاقة لفعل هذه الأشياء. والنزاع يمكن أن يخلق جواً للاكتشاف ويمكنه أيضاً أن يكون محفزاً للنمو والتعلم والتغيير الإيجابي في أنفسنا وفي علاقاتنا وفي مجتمعنا. من أجل تحويل النزاع بطريقة إيجابية، يتوجب علينا الاستعداد لاتخاذ موقف بناء، والعمل على كسر حلقات ردّات الفعل والعنف ورأب الصدع في النهاية. إن بناء بئر وسط النزاع هو تحدٍّ ينطوي على خطر ويتطلب وقتاً وعملاً دؤوباً.

اسمح للبئر بأن يمتلئ

افتح قلبك وذهنك لمحبة الله، خفّف من قلقك واتجه نحو المصالحة وتقبل الصلح. تتفق جميع الأديان في أسسها على أن الله محبة وأنه خالق كل شيء على الأرض وأن الخلق جميعه مترابط ومعتمد على بعضه البعض. ويذكر والتر بروجيمان حركة الإنجيل منذ قدسيته في الفصل (فصل شعب الله المختار في دينهم) وحتى قدسيته كالاشتراك في العلاقات (التفاعل مع الآخرين بطريقة تصلح الأمور). مثل هذه القدسية تعني العيش نتيجة محبة الله الغزيرة وليس نتيجة الشحّ أو القلق. كما تعني تجربة قوة التسامح التي يتولد منها الخير. إذ أن عبر المشاركة في العلاقات، يصبح كل شيء جديداً (بروجيمان 2000، 54).

تجهز جيداً

كن مستعداً للإصغاء لكي تفهم ما يحدث، قل الحقيقة بمحبة، استخدم مخيلتك وكن متسامحاً. والقدسية هي رابط للعلاقات، تتطلب مهارات محددة. والإصغاء يخاطب أحد أعمق احتياجاتنا وهي أن نكون مفهومين، كما أنه يخلق إمكانية التعلم والتغيير. وتدخل الأصالة والرعاية والفضول الحقيقي في جوهر الإصغاء الجيد. أما قول الحقيقة بمحبة فيعني التركيز على تقديم معلومات محددة حول احتياجاتنا وعواطفنا وتأثير الوضع علينا؛ وليس حول التطلب واللوم وقراءة الأفكار. كذلك يساعد استخدام مخيلتنا على إطلاق الأفكار الخلاقة ويفتح أذهاننا وقلوبنا على قيادة الروح التي يمكن أن تأخذنا إلى أماكن وأفكار لم نكن نحلم حتى باحتمال وجودها. والتخيل ينطوي على إطلاق فرضياتنا ونظرياتنا، حتى ولو كانت مؤقتة، إضافة إلى إطلاق رغباتنا للسيطرة على النتائج أو على الحلول. وأخيراً فإن كوننا متسامحين يجعلنا نختار بحرية إخلاء سبيل من آذانا من عبودية الشعور بالذنب، والتخلي عن مشاعر سوء النية وإيقاف أي محاولة للانتقام، وبالتالي إفساح الطريق أمام المصالحة وإصلاح العلاقات (مارشال 2001).

وتدلنا تجاربنا التي اكتسبناها من ورش العمل ومن التدخلات بأن قدرة الفرد في تلك المجالات الأساسية تترك تأثيراً هائلاً على اتجاه النزاع، وحتى ولو كان هناك شخص واحد من بين الأشخاص المشتركين في النزاع يملك مهارات في هذا الموضوع. وهذه المهارات ليست كاملة أبداً ولكن بدونها تتقلص فرص التحول والمصالحة ورأب الصدع.

كن إنساناً جيداً

تقبل التسامح ورأب الصدع لكي تكون قادراً على التوسط في النزاعات. إذا تقبلنا الشمولية على أنها حالة جيدة وتامة، فإن علينا أن نكون في حالة جيدة لكي نحقق التسامح ورأب الصدع لدى الآخرين. وإذا ما استقينا من بئرنا الخاص فإن كلاً منا يمكنه أن يكون جيداً وينقل هذا الحال إلى الآخرين كوسيط يجمع الناس ببعضهم البعض ويساعد على إفساح مجال آمن للحوار، ويشجع على رواية القصص والإصغاء لها. ويعترف بالعواطف ويعزز استخدام الوسائل الروحية، ويساعد الناس على حل معضلاتهم ونزاعاتهم ومصالحة بعضهم البعض. يمكننا أن نفعل هذا حتى ولو كنا منخرطين في النزاع، إذا لم نستطع أن نكون وسطاء به. وباتباعنا لهذا النموذج، نتحرر من اعتقادنا بأن علينا أو بأننا يمكننا أن نكون المفاوضين، والمعالجين والمنقذين.

والتحضير للنزاع هو عملية قد تتطلب العمر كله، ومثل هذا التحضير يعتبر جوهرياً لساعة الأزمة. وكلما كنا على استعداد أفضل، ازدادت فرص نجاتنا من فيضان بئرنا، ويتوجب علينا دائماً أن نتعامل مع نزعاتنا للقتال أو للهرب. ولكن إذا كنا مستعدين جيداً، فقد نتمكن من التحرر من نطاق رد الفعل والدخول في عملية بناءة تتميز بعدم وجود العنف، وبرأب الصدع وبالوحدة والاتفاق وبخلق جديد.

أشرك الآخرين في تحويل النزاع

يعتبر الإشراك البنّاء للآخرين في تحويل النزاع عملية ذات صلة بالعلاقات تتضمن حدوث اتصال مباشر بين الأطراف ضمن عملية تعاونية. والممارسات التالية

تعتبر ممارسات مترابطة بشكل متحرك مع بعضها البعض ومع ممارسات التحضير الشخصي التي ذكرناها سابقاً.

أنشئوا بئراً مشتركاً معاً

قوموا بتحليل النزاع معاً وضعوا خطة لعملية تعاونية يشترك فيها الجميع ويتحملون المسؤولية. والعملية هي بأهمية النتيجة وربما أكثر أهمية عندما يتعلق الأمر بالعلاقات. فكل شخص يحتاج لأن يشعر بقيمته وأن يُعامل بإنصاف. وغالباً ما يستطيع الناس التعايش مع قرار قد لا يرغبون به في الواقع لو كان لهم فيه صوت أو رأي.

وفي الكتاب المقدس (الإنجيل)، وفقاً لمتى (18: 17-15) علّم المسيح تلاميذه كي يتبعوا هذه الطريقة بقوله:

« إذا أخطأ معك عضو في الكنيسة، أره خطأه عندما تكونان لوحدكما، فإذا أصغى إليك تكون قد كسبته ولكن إذا لم يُصغِ إليك، خذ معك شخصاً أو شخصين، وتكلم معه بحيث يكون لكل كلمة من حديثك شاهد أو ثلاث. وإذا رفض أن يستمع لك أيضاً فأبلغ أمره إلى الكنيسة ».

هذا التوجه الذي يأخذه السيد المسيح في النص المقدس، يضمن أن تقوم الأطراف بالاتصال المباشر، ما لم تكن هناك أية قيود ضد السلامة. ويساعد هذا التوجه على منعنا ومنع الآخرين من الانجرار نحو النزاع. يمكننا، على أي حال، أن ندرب الأطراف من أجل التحضير للمشاركة المباشرة، تماماً مثلما دربنا أنفسنا. وفي حال فشل الاتصال المباشر، نتحرك عندئذ لأن نصبح وسطاء أو شهوداً بحيث نسعى لتطوير عملية تعاونية. فقط في حالة فشل العملية التعاونية، يمكننا اعتبار أن النزاع يجب أن يحل من قبل آخرين غيرنا.

تبدأ العملية الجيدة، في تحويل النزاع بإعطاء جميع اللاعبين الرئيسيين دوراً في تحليل النزاع وتخطيط عملية تحويله. والعملية الجيدة تعني أن تكون واضحاً ومنفتحاً

على الهدف وعلى جدول الأعمال وعلى التوقيت وعلى كيفية اتخاذ القرارات وإعطاء الفرصة لجميع الأطراف كي تسمع صوتها. والدائرة (وهو موضوع ستتم مناقشته بشكل أفضل تفصيلاً فيما بعد) تقدم الوعاء الذي ستتم داخله المشاركة الإيجابية، موفرة السلامة والأمن ضمن مواثيق للعلاقات (انظر القسم التالي) من أجل أن يتحدث المشاركون مع بعضهم البعض. وتحترم العملية تجربة وحكمة كل عضو من الدائرة، كما أن كل عضو يتحمل مسؤولية متساوية عن نتيجة العملية.

شاركوا في البئر

أوجد مواثيق علاقات تقر وتوضح كيف ستتم معاملة كل شخص في هذه العملية. والميثاق هو اتفاق متبادل يربط الناس ببعضهم البعض ويحافظ على كرامة أعضائه في الوقت الذي يتطلب منهم محاسبة متبادلة وتحمل للمسؤولية. وميثاق العلاقات هو مجموعة من الوعود التي يقدمها الواحد للآخر أو المجتمع ككل، تتضمن التوقعات والطموحات المشتركة حول كيفية تعامل الأعضاء مع بعضهم البعض داخل مجتمع ما. وتعتبر مواثيق العلاقات أكثر من مجرد قواعد مسلكيات أو تدابير لحل المشاكل، من حيث أنها تثبّت رؤى المجتمع وقيمه، إضافة إلى المسلك الإيجابي الذي يعبر عنه (ديوكس وآل 2000).

انسجموا معاً بعمق

استنباط قصص عن تجارب هامة ولحظات رائعة وأحلام بمستقبل منشود. إننا نؤمن أن علينا وبقدر المستطاع أن نبدأ عملية تحويل النزاع بأسئلة تفتح أذهان المشاركين على تذكر قصص نجاحهم وروايتها. ونعني هنا الأوقات التي كانت فيها العلاقات تعمل بشكل جيد بالنسبة لهم، على سبيل المثال: مشاركة ذات معنى في مشاكل الكنيسة وخلافاتها. مثل هذه القصص يمكن أن تولّد طاقة للتحرك قدماً، بناءً على مواضيع مشتركة وارتباطات ومعالجة المشاكل بشكل بناء وأكثر سهولة. والأسئلة الإيجابية القوية تتيح للجميع حرية الحلم والتعبير عن الأمل بالمستقبل، وهذا بدوره

يلهم الإبداع والابتكار. كذلك، يظهر تقاسم الآمال والأحلام قيماً عميقة ورغبات وخيارات قوية، ويكشف الطريق أمام نقاط ارتباط محتملة في تحديد المستقبل المنشود.

وخلال تجمعات مركز السلام العادل، وكلما استطاع المشرفون على عملية تحويل النزاع اكتشاف تجارب إيجابية لاستخدامها كأداة للتدخل، كان المشاركون يتجاوبون مع هذا البديل لحل المشاكل، بإحساس مفعم بالأمل، وعندما كانوا يمارسون عملية طرح الأسئلة الإيجابية، كانوا يلاحظون كيف يتحرك الحوار بنبرته وتوجهه نحو طرق بناءة للعلاقات وسط النزاع.

دعها تفيض

تحرك من المواقف إلى المصالح والاحتياجات، واخلق خيارات تحقق إجماعاً. كذلك تحرك من العقاب إلى الإصلاح أي إصلاح الضرر، والتأكيد على المحاسبة، وبناء علاقة جديدة. عند نقطة ما، يصبح من الضروري أن تخلق خيارات من أجل الوصول إلى حلول يجمع عليها الجميع، وكذلك من الضروري أيضاً تقييم هذه الخيارات. ويتم هذا الأمر بشكل أفضل من خلال مناقشة مصالح الأطراف واحتياجاتها، بدلاً من مناقشة مواقفها ومطالباتها (فيشر ويوري 1991). والمواقف هي تصريحات أو مطالب يتم التعبير عنها على أنها حلول، بينما هي تشير في أغلب الوقت إلى مصالح واحتياجات أكثر عمقاً. وبدلاً من تحدي المطالب التي يضعها الناس، يمكننا تحريك النقاش نحو الحصول على المعلومات التي تبين المصالح والاحتياجات. وغالباً ما تكتشف الأطراف المتنازعة أنها تتقاسم الكثير من هذه المصالح أو أن تلبية مصالحها واحتياجاتها ليست مقتصرة على كل منها. وهنا تأتي الخطوة التالية وهي إطلاق خيارات تلبي مصالح واحتياجات كل من الطرفين وتقييم هذه الخيارات وفقاً لذلك، وإذا ما تم الوصول إلى إجماع على أحد الخيارات، يتم تلخيص الاتفاق كتابة. أما إذا لم يتحقق إجماع شامل، عندها تذكر باقي القضايا ضمن الاتفاق على أن يتم النظر إلى التقدم التي حصل بشأنها وما هي العملية التي تم الاتفاق عليها لمواصلة التعامل مع هذه القضايا.

أيضاً، عند نقطة ما في عملية تحويل النزاع، سوف تحتاج الأطراف المتنازعة لتسمية المشكلة والإبلاغ عن الأذى الذي لحق بها من جرائها. ويؤمن مركز السلام العادل أننا بحاجة للتحرك نحو نموذج من العدالة المتجددة التي تركز على الأذى الذي لحق بالناس والعلاقات، بدلاً من المقاربة المتبعة في الأنظمة السائدة وهي العدالة العقابية، التي تهدف إلى تأكيد الذنب وإيقاع العقوبة. والتركيز على الأذى الذي حصل بدلاً من اللوم والذنب يساعد الأطراف على التحرك باتجاه المحاسبة ورأب الصدع وإصلاح العلاقة (زيهر 1990). والعدالة الإصلاحية، تشرك في عمليتها على وجه الخصوص مرتكبي الاعتداءات والضحايا والمجتمع ضمن مسعى تعاوني لتحديد الالتزامات والحلول وتشجيع رأب الصدع بين الأطراف وتشدد كذلك على محاسبة المعتدي أي على تفهمه للأذى الذي تسبب به وتحمله المسؤولية لإصلاح الضرر إلى أبعد مدى ممكن، سواء كان الإصلاح مادياً أم رمزياً. أما العقاب فهو من ناحية أخرى لا يأخذ المحاسبة في اعتباره في حين يقوم المجتمع عبر عملية العدالة الإصلاحية بالمشاركة في دعم وضع محاسبة حقيقية وإصلاح الضرر، ومع إدراكه لدوره في التسبب بالأذى، فيما لو كان دور المجتمع يقتضي إعادة كل من المعتدي والمعتدى عليه إلى أحضانه. إذاً فالعدالة الإصلاحية تعمل على تكوين المجتمع.

كونوا جيدين معاً

شاركوا في كل خطوة نحو رأب الصدع والتعاون، واظبوا على الصلاة وكونوا صبورين ومثابرين. إن إصلاح العلاقة ورأب الصدع هو عمل تشاركي. لن نكون جيدين إلا إذا كنا كذلك مع بعضنا البعض، لأن سلامة مجتمعاتنا وشموليتها تتحددان بمعاملتنا للمهمشين في هذه المجتمعات وفي علاقاتنا معهم. فإذا ما عملنا معاً على إصلاح العلاقات وإنشاء علاقات جيدة بين جميع الخلق فإننا نكون قد أوجدنا مجتمعاً تعاونياً وتشاركياً. نحن نؤمن بالمشاركة في العمل الدؤوب الذي يؤدي إلى رأب الصدع وإلى التعاون، بكل خطواته الصغيرة التي تدفع إلى الأمام، وكما قال دانيل وليمز: المحبة لا تحل كل نزاع، ولكنها تتقبل النزاع على أنه المجال الذي يتوجب عليها أن تعمل فيه.

بعض المقاربات الإيجابية تحت المجهر

في القسم الأخير من هذا الفصل، سوف نلقي نظرة أقرب على ثلاث ممارسات مذكورة سابقاً هي عملية الدائرة ومواثيق العلاقات والعملية التقديرية:

عملية الدائرة

في المرحلة الثانية من النموذج، والتي تنطوي على إشراك الآخرين في عملية تحويل النزاع، لن تجد عملية تعاونية تعمل باتجاه بناء سلام إيجابي في الكنيسة أفضل من عملية الدائرة (روس 1996). وغالباً ما وجد المشاركون في دورات التدريب التي يقيمها مركز السلام العادل، هذه الطريقة أهم الطرق التي تعلموها وأفضلها فائدة. وتجري العملية خلال جلوس المشاركين على شكل دائرة بحيث يكون كل منهم على مسافة متساوية من منتصفها، وعلى مسافة متساوية من مرأى الآخرين. وتأخذ الصلوات والطقوس الافتتاحية والختامية معظم الوقت ومعظم المساحة، على أساس كون المكان آمناً بما فيه الكفاية لقول الحقيقة والاستماع لها. ويشعل القائمون على مركز السلام العادل شمعة في وسط الدائرة لتذكر الحاضرين بحضور الله.

وتخصص قطعة رمزية، ربما تكون ريشة أو مفتاحاً أو نصاً مقدساً، على أساس أنها قطع متكلمة يحملها المتحدث بينما يصغي الباقون. وتستخدم هذه القطع لمساعدة الناس على الإصغاء من أجل التفهم وعلى قول الحقيقة في محبة. ومن خلال تحريك القطعة المتكلمة بشكل متتابع حول الدائرة، في الدورات القليلة الأولى على الأقل، يعلم كل واحد متى سيأتي دوره في الكلام، كما أن لكل شخص فرصة متساوية للحديث، حيث يصغي إليه الجميع دون مقاطعة أو تعليق. وقد يحجم الشخص عن الكلام عندما يأتي دوره أو دورها ولكن القطعة المتكلمة تستمر في الدوران حول الدائرة بحيث تتاح الفرصة للذين أحجموا عن التحدث أن يتحدثوا في فرصة لاحقة.

أما القائم على تسهيل عملية التحدث فيدعى « مضيف الحلقة » ضمن نموذج السلام العادل، وهو مسؤول عن تواصل العملية. وهذه الأخيرة تشمل افتتاح وختام

الحلقة بالطقوس والاتفاق على مواثيق العلاقات وطرح الأسئلة التي يتم من خلالها استنباط القصص وتلخيص إسهامات الحلقة بعد كل دورة ومساعدة المشاركين في الدائرة في التركيز على القضايا واستخدام خيالهم لاستكشاف الخيارات والأرضيات المشتركة، والإمساك بالقطعة المتكلمة أحياناً لإتاحة المجال أمام المجموعة لإجراء عصف ذهني وأخيراً تلخيص الإجماع الذي اتفق عليه، وإذا لم يكن هناك إجماع، تلخيص ما تم إنجازه وما لم يُنجز.

ويستخدم مركز السلام العادل، الدوائر أو الحلقات حيث كان الأمر ممكناً، حتى ضمن ورشات العمل التدريبية. وقد دلتنا تجربتنا أن استخدام الدائرة يساعد على منح المشاركين فرصة لتقاسم قصصهم التي تنطوي في معظم الأحيان على نزاعات صعبة، وللانفتاح على تلقي الدعم والرأي السديد من الآخرين في الحلقة. وكآلية للتعليم وللتدخل، تقدم الحلقة الوعاء الذي تتم في داخله المشاركة الإيجابية ضمن جو آمن يتيح أمام المشاركين التحدث بانفتاح مع بعضهم البعض. ويتم تعزيز الأمن من ناحية طبيعة ومحتوى التفاعلات من خلال جعل المهمة الأولى للحلقة، التدريب على مواثيق العلاقات.

عهود العلاقات

وهذه العهود تعتبر أساسية في تكوين المجتمع ورعايته. وإذا كان تكوين المجتمع هدفاً لعملية تحويل النزاع، فإننا نعتقد بأن وضع هذه العهود والعمل بها هما بأهمية القرارات التي تأخذها المجموعة، إن لم تكن أكثر أهمية منها. وفي الواقع، تضع عهود العلاقات تعريفاً إيجابياً وصورة إيجابية للطريقة التي ترغب فيها المجموعة بالبقاء معاً ضمن المجتمع. كما أنها تعبر عن الرؤى والقيم والقدرات الموجودة في المجتمع، كما اختبرها هذا المجتمع وكما امتلكها أعضاؤه.

والنزاعات هنا ما تزال موجودة ولكنها متداخلة بشكل بناء. فكل مجتمع يملك قوانين متضاربة على الأغلب، أو غير معبر عنها بالنسبة لكيفية التعامل مع الناس.

ولكون هذه القوانين غير معبر عنها، فهي لا تقدم أية مساعدة في إحداث تفهم ومحاسبة داخل المجتمع. كما أن كونها متضاربة، يؤدي إلى خلق المزيد من النزاعات. ففي الكنائس، على سبيل المثال، يتم التعامل مع النزاع داخل مواقف السيارات بعد انتهاء القداس، أو على الهاتف، أو عبر البريد الإلكتروني، أو خلال اجتماعات سرية. مثل هذه الطرق في التعامل، تقوض الحوارات المباشرة والنظيفة التي يجب أن تحدث من أجل الوصول إلى تفهم صحيح، والسماح للناس بإظهار أفضل نيّاتهم وسط جو من الشفافية.

نحن نعتقد بأن وضع عهود علاقات مشتركة ومعبر عنها، هو أهم عمل يمكن أن نقوم به من أجل منع نشوب النزاعات المدمرة في الكنيسة، ولكن من أجل أن تكون هذه العهود قيمة ومحترمة من قبل المجتمع، يجب عليها أن تنمو من داخل حياة المجتمع. فالقوانين الملزمة التي يتم فرضها على المجتمع لا تلقى القبول الكافي الذي يجعل منها عهود. ولا تدخل في حياة أو في أخلاقيات المجتمع.

بعض القضايا التي يمكن معالجتها لدى إعداد العهود هي: كيف ترغب أن تُعامل؟ كيف توجد الاحترام لكل فرد في المجتمع على أساس أنه من أبناء الله؟ كيف يمكن أن نوجد ملجأ أو ملاذاً آمناً لكل فرد في المجتمع؟ كيف يمكن أن نصغي من أجل أن نفهم، وأن نقول الحق في محبة، وأن نستخدم خيالنا وأن نكون متسامحين؟ كيف سنتخذ القرارات؟ كيف سنتعامل مع قضايا الخصوصية والشفافية؟ كيف سنتعامل مع محاسبة المواثيق؟ وكيف نحافظ على جو من الانفتاح من أجل مراجعة هذه المواثيق عند الضرورة؟

وكأول تحرك تعاوني لعملية الدائرة، تعمل عهود العلاقات على تشكيل المواقف وتعريف الطموحات المشتركة لكيفية معاملة كل شخص. وبعد التوصل إلى اتفاق حول العهد، تقع على المضيف مسؤولية طرح السؤال الأول للمشاركين في الدائرة، إضافة إلى متابعة هذه الأسئلة. وهنا نجد العملية التقديرية أفضل ما ينفع.

الأسئلة التقديرية

تبدأ عملية السلام العادل، حيثما كان ممكناً، بالأسئلة التقديرية التي تعمل على استنباط قصص التجارب الناجحة وأحلام المستقبل المنشود. ونحن نعتقد أن الاعتماد على القدرات وعلى ما هو معروف ومقدر هو عمل بنّاء أكثر من محاولة تخيل شيء مجرد، أو مثال لم تتم تجربته في صنع إنسان أو مجتمع أفضل.

والأداة الأكثر قوة في هذه المقاربة هي السؤال الإيجابي المنفتح الأطراف. فالأسئلة الإيجابية تعزز دفع العملية الجيدة إلى الأمام. على سبيل المثال، « إذا تم تحقيق آمالك من اجتماعنا، كيف سيكون شكل علاقتنا، أو رعيتنا الكنسية أو عالمنا؟ والسؤال الأكثر دفعاً في نموذج السلام العادل لتحويل النزاع هو دائماً: ماذا تريد منا محبة الله أن نفعل وكيف تريدنا أن نكون؟ والسؤال الجيد غالباً ما يكون كبيراً جداً بحيث أن مجرد طرحه يفتح آفاقاً لاكتشاف النفس. وندعوكم هنا لتذكر نصيحة رانير ماريا ريلك في رسائله إلى شاعر شاب »: كن صبوراً مع كل ما لم يتم حله داخل قلبك، وحاول أن تحب الأسئلة نفسها مثل غرف مغلقة أو مثل كتب كتبت بلغة غريبة جداً. لا تسعى الآن للحصول على الأجوبة التي لا يمكن أن تُعطى لك لأنك لن تستطيع أن تعيشها. فالنقطة هنا هي أن تعيش كل شيء. عش الأسئلة الآن (1972، ص 4).

الخلاصة

سعى مركز السلام العادل إلى دمج المقاربات الإيجابية في جميع نواحي النموذج المدعو « تعامل مع النزاع بشكل جيد ». وهو نموذج يشمل تطوير مواقف إيجابية تجاه أهداف وإمكانيات النزاع. والتعايش مع نظرية لاهوتية تقوم على الوفرة، وتأكيد أهمية تطوير المهارات والعيش الرغيد، سواء على مستوى الفرد أم على مستوى المجتمع، وعبر المشاركة في عمليات تعاونية تعمل باتجاه رأب الصدع وإقامة علاقات جديدة. وفي صلب هذا النموذج الإيجابي، تأتي الأسئلة التقديرية القوية ضمن سياق عملية الدائرة وبعد أن يتم وضع مواثيق العلاقات وتثبيتها.

مراجع :

Brueggemann, Walter. 2000. "Vision for a New Church and a New Century, Part II: Holiness Become Generosity" *Union Seminary Quarterly Review* 54, pp. 45—64.

Chaves, Mark, Mary Ellen Konieczny, Kraig Beyerlein, and Emily Barman. 1999. "The National Congregations Study: Background, Methods, and Selected Results." *Journal for the Scientific Study of Religion* 38:4, pp. 458—476.

Cooperrider, David, and Diana Whitney 1999. *Appreciative Inquiry.* San Francisco: Berrett-Koehler.

Dukes, F. Franklin, Marina A. Piscolish, and John B. Stephens. 2000. *Reaching for Higher Ground in Conflict Resolution: Tools for Powerful Groups and Communities.* New York: Wiley.

Fisher, Roger, and William L. Ury. 1991. *Getting to Yes.* New York: Viking Penguin.

JUSTPEACE Center. 2002. *Engage Conflict Well: A Guide to Prepare Yourself and Engage Others in Conflict Transformation.* Evanston, Ill.: JUSTPEACE Center for Mediation and Conflict Transformation.

Marshall, Christopher. 2001. *Beyond Retribution: A New Testament Vision for Justice, Crime and Punishment.* Grand Rapids, Mich.: Eerdmans.

Rilke, Rainer Maria. 1972. *Letters to a Young Poet.* New York: W W Norton.

Ross, Rupert. 1996. *Returning to the Teachings.* Toronto: Penguin.

This, Craig, and Karen Smith. 2002. *Do You Know How We See Ourselves? A Snapshot of The United Methodist Church.* Dayton, Ohio: General Council on Ministries, Office of Research and Planning.

Williams, Daniel Day 1968. *The Spirit and the Forms of Love.* New York: Harper and Row.

Zehr, Howard. 1990. *Changing Lenses: A New Focus for Crime and Justice.* Scottdale, Penn.: Herald Press.

مصادر إضافية :

Buber, Martin. 1958, *I and Thou.* New York: MacMillan.

Evans, Alice F., and Robert A. Evans. 2001. *Peace Skills Leaders' Guide.* San Francisco: Jossey-Bass.

Kraybill, Ronald S., with Robert A. Evans and Alice Frazer Evans. 2001. *Peace Skills Manual for Community Mediators.* San Francisco: Jossey-Bass.

Leas, Speed B. 1985. *Managing Your Church Through Conflict.* Bethesda, Md: Alban.

Lederach, John Paul. 1999. *The Journey Toward Reconciliation.* Scottdale, Pa.: Herald Press.

يمكنك أن تعرف إذا كان الشخص ذكياً من خلال أجوبته ولكن يمكنك أن تعرف إذا كان حكيماً من خلال أسئلته

نجيب محفوظ



الفصل الثالث عشر

البحث التقديري كأداة لحل النزاعات

مورييو. أو. ريوس وسكوت. دي. فيشر

يفحص هذا الفصل احتمالات استخدام البحث التقديري في مجال دبلوماسية المسار الثاني غير الرسمية، كوسيلة تحويل للنزاع والمصالحة بين أطراف متنازعة. ومن خلال عرض مثال لأحد النزاعات الذي مضى على نشوبه مدة طويلة دون أن يشوبه أي عنف، داخل إحدى دول أميركا اللاتينية، يستكشف المؤلفان إمكانية استثمار الميزات الإيجابية في البحث التقديري من أجل مساعدة الأطراف المتنازعة على تحويل علاقاتهم. وتستخدم ورشة العمل الحوارية التقديرية المقترحة أسئلة إيجابية من أجل مساعدة المشاركين على اكتشاف القيم والأهداف المشتركة، والاحتمالات الجديدة وكذلك من أجل مساعدتهم في المشاركة ببناء صورة مثالية مشتركة لمستقبل علاقاتهم. ويعرض هذا الفصل الإسهامات المحتملة لتطبيق البحث التقديري ضمن سيناريو النزاع بالإضافة إلى بعض المحذورات ذات الصلة به.

*

في العقود الأخيرة، تم تحقيق تقدم ملموس في مجال حل النزاعات مع إدخال العلماء والعاملين في هذا المجال مقاربات إبداعية إلى الحلبة. ففي الستينات من القرن العشرين، على سبيل المثال بدأ العالم جون بيرتون، وكان يعمل أيضاً في مجال حل النزاعات بتطوير منهجية ورش العمل لحل المشاكل، والتي استخدمها أساساً كنموذج

لاتصالات موجهة تهدف إلى جمع ممثلي الأطراف المتنازعة من اجل مناقشة وتحليل القضايا التي تعد في أساس نزاعاتهم (1969).

ولاحقاً، تمكن بيرتون من تجاوز هذا النموذج باستخدام نظرية الاحتياجات الإنسانية الأساسية لإظهار أن الدوافع الإنسانية تحمل ثقلاً أكبر من البنى في توليد النزاعات أو حلها (1990). وتبع بيرتون عدد من العلماء العاملين في هذا المجال، وقدّم هؤلاء إسهامات إضافية إلى ورش العمل المقامة من أجل حل المشاكل، من ناحية بنيتها وتحليلها. (انظر، على سبيل المثال، دوب 1973، كيلمان 1990، ميتشيل وبانكس 1996، وفيشر 1997). ورغم اختلاط نتائج هذه الورشات الدولية وتأثيراتها على صنع السياسات وعلى حلول النزاعات، إلا أن منهجية ورش العمل استطاعت رغم ذلك، تقديم مساهمة حيوية في تطوير مجال حل النزاعات.

وقد ارتفع مستوى التعقيد في النزاعات الدائرة في العالم المعاصر وتواصل العنف، أصبحت هناك حاجة لوضع مقاربات إبداعية جديدة لحل النزاعات. فعلى صعيد الدبلوماسية غير الرسمية أو التي تتبع المسار الآخر (مونتفيل 1995) يحمل البحث التقديري (كوبررايد روويتني 1999) إمكانيات ملموسة لأن يكون بديلاً إبداعياً أو مكملاً للطرق المتبعة في حل النزاعات. ورغم أن البحث التقديري، كان قد سبق وطبّق على تحولات واسعة النطاق ضمن المؤسسات والمجتمعات، إلا أن هذا الفصل يقترح تمديد تطبيقه عبر ورشات العمل الحوارية التقديرية. وسوف نعرض هنا حالة دراسية حول نزاع لا يتسم بالعنف بين دولتي بوليفيا وتشيلي، كمثل توضيحي للنموذج المقترح، وفرضياتنا هنا أن المقاربة الإيجابية التي سنبينها في هذا الفصل لن تسهل الاتفاق على معالجة القضايا المتنازع عليها باستخدام أطر مرجعية جديدة ولكنها ستساعد أيضاً على دفع الأطراف المتنازعة نحو إجراء تحول في علاقاتها.

وتركز أساليب ورشات العمل التي تستخدم اليوم على تحديد المشاكل الرئيسية في نظام النزاعات، كما أنها تحلل الأسباب الكامنة في جذور تلك النزاعات، وتقدم

الحلول المحتملة وتطور خطط التحرك. وبينما أعطت مقاربة حل المشاكل نتائج بناءة في عدة حالات، يفترض منظرو البحث التقديري أن الأنظمة الإنسانية تميل إلى النمو باتجاه الأسئلة التي تطرحها، كما أن التركيز على المشكلة يميل إلى إطالة تلك المشكلة على المدى الطويل. وحيث أن معظم الأنظمة الإنسانية قد تمت برمجتها لكي تركز على حل المشكلة كوسيلة لتحقيق التغيير المطلوب، تبقى هذه الأنظمة عالقة في الدائرة السلبية للنقص (كوبررايدر وويتني 1999).

أما مقاربة البحث التقديري فهي تعتمد من ناحية أخرى على الفرضية القائلة بأن أي وضع محدد هو حل يجب تقبلّه بدلاً من أن يكون مشكلة يجب حلها. وتركز هذه المقاربة على الاكتشاف والتقييم والتصور والحوار المفتوح والمشاركة في بناء مستقبل مشترك. وتؤدي الطاقات والأفكار الإيجابية التي تتولد من الاكتشاف ومن الحوار حول ما الذي يعمل جيداً في النظام أو في الأنظمة المشابهة إلى إحداث تغييرات إيجابية ومستدامة في العديد من الحالات، وتعتمد القدرة على تحقيق نتائج إيجابية، على الفرضية القائلة بأن المؤسسات أو الأنظمة الإنسانية تعكس طبيعة حوارها الداخلي (أنماط التفكير التي يتبعها الناس والقصص التي يروونها) وبينما ينزع الحوار الداخلي القائم على العجز إلى إبراز النواقص، تعمد المنهجيات التي تقوم على استنباط النواحي الإيجابية للتجربة إلى تحويل الحوار الداخلي واستغلال القدرة على إدراك واعتناق القدرات، ودفع المؤسسة أو النظام نحو عالم من الاحتمالات المفتوحة أمام النمو الإيجابي.

عملية البحث التقديري

يتم تفعيل منهجية البحث التقديري من خلال مراحله الأربع وهي الاكتشاف، والحلم، والتصميم أو التخطيط، والتسليم أو تحديد المصير. ورغم أن هذه الحلقات الأربع قد تمتد إلى أسابيع أو ربما أشهراً، إلا أنها تتم في العادة على شكل قمة بحث تقديري، يلتقي فيها النظام المؤسسي بأكمله أو ممثلون عن كافة الأطراف المعنية، معاً

للعمل من خلالها على مدى فترة قد تمتد لأيام (انظر وصف القمة في الفصل الثاني). وبغض النظر عن الشكل الذي يتم فيه العمل، يعمل القائمون على البحث التقديري، على إطلاق العنان لعبقرية المجموعة وإبداعها وإمكانياتها المفتوحة، بينما هم في نفس الوقت يرشدون المشاركين في هذه العملية من خلال استخدامهم للأسئلة التقديرية التي تركز في منهجها على القيم والقدرات ومصادر القوة والإمكانيات الإيجابية للنظام. ويعتمد نجاح العملية على مدى قدرة تفهم وتطبيق فن البحث. فكلما كان البحث عميقاً، كان الرد أكثر إبداعاً (كوبررايدر، 2001).

الوضع الذي يتم فيه العمل

من أجل توضيح مسألة تطبيق ورشة عمل الحوار التقديري ضمن سيناريو النزاع، نبدأ بخصائص الوضع الملائم لهذا التطبيق، والذي يشترك في العديد من صفاته مع ورشة عمل حل المشاكل. والمعايير التالية تضمن أن تفضي البيئة التي سيتم فيها إجراء البحث إلى إقامة حوار بناء:

- أن يكون القائمون على الورشة نزيهين غير متحيزين وموضوعيين.
- أن ينظر كلا الطرفين إلى البيئة التي يتم فيها البحث على أنها أرضية محايدة.
- أن تكون بيئة العمل، ملائمة جسدياً، ومنعشة ومساعدة نفسياً.
- أن توفر بيئة العمل، مساحة كافية للأطراف بأن تنقسم أو يعاد تجميعها كما تقتضي الحاجة.

كذلك تعتبر مواقف المشاركين وتوقعاتهم حيوية في نجاح عملية البحث التقديري، فعلى الرغم من اختلاف طرق إجراء البحث، إلا أننا نعتبر أن الشروط الأساسية التالية ضرورية من أجل أن تسير أمور ورشة العمل الحوارية التقديرية على ما يرام:

- أن يكون المشاركون، مجهزين للاشتراك في حوار.

- أن يتفهم المشاركون غاية وأهداف حلقة الحوار.
- أن يكون المشاركون راغبين بالتعاون في استخدام المقاربة التقديرية.
- أن يمثل المشاركون قطاعات متنوعة من المجتمع المدني وأن يكونوا قادرين على الوصول إلى صنّاع القرار في بلادهم.

ولكي نوضح النموذج المقترح لورشة العمل الحوارية التقديرية، نستخدم مثال النزاع البحري الذي مضى عليه زمن طويل بين بوليفيا وتشيلي في أميركا الجنوبية. وكما سنفعل لاحقاً، فقد اخترنا هذا النزاع لأننا نؤمن أن خصائصه تعكس إمكانية استخدام البحث التقديري في وضع يتم فيه تحول واسع المدى للنزاع بين الأمم.

النزاع البحري بين بوليفيا وتشيلي

يعود هذا النزاع في جذوره إلى حرب الباسيفيك التي وقعت عام 1879 والتي خسرت إثرها بوليفيا سيادتها في الوصول إلى المحيط ضد تشيلي. منذ ذلك الحين وبوليفيا تحاول بالطرق السلمية أن تستعيد مدخلها البحري عبر الأراضي التشيلية. من ناحية أخرى ظلت تشيلي تؤكد عدم وجود أية قضايا عالقة متعلقة بالأراضي مع جارتها بوليفيا وأن الأخيرة لها حق التحرك بحرية كاملة باتجاه المحيط الهادي (الباسيفيكي) عبر الأراضي التشيلية. ونتيجة لهذا النزاع، وإثر فشل عدة محاولات لحله، بقيت الدولتان دون تمثيل سياسي كامل بينهما منذ عام 1978.

وقد اختير هذا النزاع في تقرير وضعته أكاديمية السلام الدولية ليكون واحداً من بين خمس حالات دراسية تبين تعقيدات النزاعات المعاصرة على الكرة الأرضية إضافة إلى سلسلة المقاربات الموضوعة لحل هذه النزاعات أو احتوائها (شايلد 1987). وكانت إحدى فرضياتنا تقول أنه في حالة وجود نزاع متجذر ولكن غير عنيف مثل النزاع بين بوليفيا وتشيلي، (رغم دخوله في نقطة ما من التاريخ في دائرة العنف وبقاء احتمال انفجار العنف وارداً فيه)، يمكن لمنهجية البحث التقديري أن تطلق مبادرة لعملية مصالحة تعترف بكل القضايا والاحتياجات لدى كل دولة وتعالجها من خلال جمع الطرفين معاً لتحويل علاقاتهما وبالتالي نزاعاتهما القائمة.

هناك عدة أسباب تؤيد ملاءمة هذا النزاع للتدخل عبر البحث التقديري. أولاً أن الناحية التشاركية في عملية البحث التقديري جديرة بالذكر لأن تشيلي لم تحبذ الوساطة أو التحكم اللذين يمكن أن يفرضا حلاً من قبل طرف ثالث. فالحل في مقاربة البحث التقديري ينبثق من التفاعل بين الأطراف ولذلك فهو سيرضي كلاً من الطرفين ويلبي جوهر حاجاتهما. ثانياً، وعلى النقيض من المقاربة القانونية التي تنطوي على الجدل والاتهام والتي تميل أعراف النزاعات إلى تأييدها (كيلمان 1990، ميتشيل وبانكس 1996) يمكن لورشة عمل حوارية تستخدم البحث التقديري أن توفر بيئة تشجع الحوار المفتوح، والإصغاء اليقظ للآراء والاحتياجات المتعارضة، وتركز على النواحي الإيجابية للعلاقة، إضافة إلى تقديم فرص للإبداع الحقيقي.

وثالثاً قد تعمل ورشة العمل الحوارية التقديرية على تحقيق هدفين ثنائيين هما هدف تثقيفي تنتج عنه تغييرات في المواقف والرؤى، وأفكار جديدة لتحويل النزاعات والعلاقات. وهدف سياسي حيث أن المشاركين المتنفذين من مختلف قطاعات المجتمع المدني يمكن أن تتاح لهم الفرصة للتأثير على الحوار السياسي الدائر داخل كل دولة (كيلمان 1990) وهذا بدوره قد يعمل على تبديد النماذج السلبية، عدم الثقة وسوء الفهم المتبادلين اللذين ابتليا علاقات الدولتين.

ورابعاً، يمكن لورشة العمل الحوارية التقديرية أن تشكل أداة إيجابية لمرحلة ما قبل المفاوضات ووضع الحلول، مما يعزز آليات الانتقال إلى الفعاليات السياسية وقيادات مختلف القطاعات والدبلوماسيين. وتكمن أهمية هذا الأمر في النزاع بين بوليفيا وتشيلي في كون البلدين بحاجة إلى تطوير البيئة السياسية الملائمة إذا رغبتا في تجديد علاقتيهما.

وخامساً، يمكن لمقاربة البحث التقديري أن تسهم في تطوير معادلة فك التزامات، تؤهل المشاركين من كلا البلدين على التخلص من القيود المفروضة على النقاشات والتي ربما يكونون قد ورثوها أو فرضت عليهم (ميتيل وبانكس 1996).

وهذه المعادلة هي بالضبط ما يحتاجه زعماء بوليفيا وتشيلي من أجل البدء بحوار مثمر يركز على الخصائص الإيجابية لهذه العلاقة.

وأخيراً، فإن مثل هذه الورشة لا تنطوي على تكاليف سياسية أو مالية أو موارد بشرية مقارنة مع المكاسب السياسية التي ستحققها. وفي هذه الحالة قد يتطلب الأمر تكاليف سياسية قليلة بسبب فشل عدة محاولات رسمية سابقة كانت قد جرت لحل النزاع البحري، وأدى فشل هذه المحاولات المتكررة إلى إحداث إحباط شمل قطع العلاقات الدبلوماسية في بعض الأحيان وسط علاقة ثنائية حساسة أصلاً.

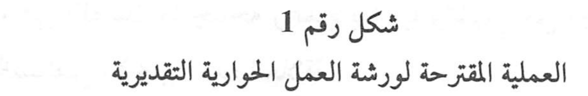
ورشة العمل الحوارية التقديرية – نموذج إيجابي

نتحول الآن إلى التطبيق العملي من خلال اقتراح إطار عملي لإقامة ورشة عمل حوارية تقديرية تدور حول تحسين العلاقات المتوترة بين الدولتين وبالتالي تحويل النزاع في حالة بوليفيا وتشيلي. ونقدم هنا نموذجاً مفصلاً لهذه الورشة ذا صلة بالنزاع البحري بين الدولتين. ولكننا نلاحظ هنا أن منهجية ورش العمل الحوارية التقديرية، مثلها مثل منهجيات حل المشاكل التحليلية وغيرها من منهجيات حلول النزاع، يجب أن تتكيف مع كل سياق جديد، وهي تتطلب في الحقيقة مرونة كافية في تخطيطها من أجل إتاحة المجال لإجراء تعديلات على الطريق خلال تنفيذها. لذلك فإن النموذج الذي نعرضه هنا يهدف إلى تبيان احتمالات استخدام البحث التقديري في تصميم ورشة الحوار.

وورشة العمل الحوارية التقديرية المقترحة تمر عبر المراحل الأربع للبحث التقديري على مدى فترة تمتد إلى أربعة أيام، ويشارك فيها من 16-20 شخص يمثلون شريحة من أطياف المجتمع المدني الرئيسية في البلدين من أجل ضمان تمثيل واسع ومتنوع.

مرحلة الاكتشاف

تشمل مرحلة الاكتشاف في هذا النموذج واحدة من عدة حلقات بحث تغطي العملية برمتها . فعبر المقابلات التقديرية ، تستطيع الأطراف المتنازعة أن تكشف عن



شكل رقم 1

العملية المقترحة لورشة العمل الحوارية التقديرية

مرحلة الاكتشاف
- إجراء مقابلات تقديرية
- إجراء حوار عبر البلدين
- رسم خارطة إيجابية الجوهر

مرحلة الحلم
- تحديد العلاقة المثالية بين الدول
- تطبيق هذه العلاقة على الحالة التي أمامنا.
- وضع تصور مشترك للمستقبل

تشيلي
التعاون
بوليفيا

مرحلة التسليم
- حشد فرق العمل.
- وضع خطط تحرك لدفع العملية
- وضع نقاط مراقبة للنجاح

مرحلة التصميم
- وضـــع تصـــميم ملمـــوس للمستقبل
- تحديد المبادئ الإرشادية
- تحديد الإرشادات

القدرات والقيم المشتركة والخاصة لكل من بلديهما، كما تستطيع تفهم هذه القدرات، إضافة إلى تفهم الخصائص المثالية للعلاقات بين الدول. وهذه المواضيع سوف يتم استخدامها عبر مسيرة حلقات الحوار أو ضمن سلسلة هذه الحلقات. وعملية الاكتشاف تسبق عقد ورشة العمل من خلال إجراء سلسلة مقابلات تقديرية تتراوح بين عشرين وثلاثين مقابلة وتجرى عبر القطاعات المتنوعة ضمن كل دولة.

وتساهم القصص المأخوذة عن أجيال من الرجال والنساء والأطفال عبر مسيرات الحياة المتعددة في توسيع منظور مرحلة الاكتشاف في ورشة العمل كما تقدم أساساً غنياً للمقابلات التقديرية التي تحفز على التفكير بين المشاركين في الحلقة.

وباستخدام المعلومات التي تم تجميعها خلال مقابلات ما قبل الورشة، يمكن صياغة نوعين من الأسئلة لاستخدامها خلال الورشة هما (1) أسئلة تتعلق بالقدرات والمميزات التي يتحلى بها تاريخ كل دولة وتتحلى بها ثقافتها وشخصيتها القومية ضمن تفكير يقول بأن الفهم العميق للخلافات يمكن أن يساعد على استخدام أفضل هذه الخلافات في المراحل المستقبلية. (2) أسئلة تستنبط قصصاً عن التاريخ المشترك والحضارة المشتركة للدولتين بالإضافة إلى أمثلة عن التعايش الإيجابي وأنواع أخرى من التفاعل بينهما.

وتشمل مرحلة الاكتشاف إجراء مقابلات على أساس شخص لشخص بين أفراد من كلتا الدولتين من أجل إبراز إنسانية الطرف الآخر وإتاحة المجال للمشاركين بالتبصر العميق في قيم وثقافة ومواقف ومنظورات وتجارب حياة الشريك الذي تجري معه المقابلة من الطرف الآخر. ومن خلال التحرك من هذه المقابلات الثنائية نحو تقاسم العناصر الرئيسة الواردة في المقابلات أمام مجموعات صغيرة، ثم نحو مشاركة ومعالجة أفضل للمعلومات المستقاة عبر عملية الاكتشاف أمام المجموعة الكبرى، تستطيع هذه المرحلة الأولى أن تمنح المشاركين فرصة لبناء معلوماتهم ومفاهيمهم عن بعضهم البعض وتشكيل إطار مرجعي أكثر إيجابية فيما يتعلق بالعلاقات بين الدول. وبعض هذه الأسئلة المطروحة قد تكون على الشكل التالي:

- اروِ لنا قصة لتجربة خضتها شخصياً أو تجربة في حياة أمتك تشكل مثالاً لجوهر قيمها وقدراتها المميزة وطابعها الوطني الفريد؟ .
- استذكر الزمن الذي خضت فيه تجربة لعلاقة غنية ومزدهرة أو كنت واعياً لها، بين مجتمعات أو فئات أو أفراد من البلدين، إذا كان ذلك ممكناً، سواء كانت تلك

العلاقة أكاديمية أو مهنية أو فنية أو علمية أو رياضية أو أي شكل آخر. اذكر بعض الخصائص التي تعرِّف العلاقة، وما هي فرص التفاعل والتعاون الموجودة ضمن هذه التجربة وكيف استطعت تحقيقها؟

- استذكر مثالاً عن علاقة ثنائية قوية بين بلدك وبلد آخر. ما هي العوامل التي ساعدت على إطالة عمرها؟ ما هي الطريقة التي تم فيها التعبير عن التفهم أو التعاون أو الدعم المتبادل أو حتى عن التعاون المشترك حول موضوع ذي اهتمام مشترك؟.

أما الموضوعات التي تنبثق من مرحلة الاكتشاف فسوف يتم استخدامها كنقاط للنقاش طوال فترة الورشة الحوارية، كما أن الموضوعات المتبقية ذات الصلة بالعلاقات الثنائية الفعالة، مثل الارتباطات الدبلوماسية المتينة والتكامل الاقتصادي وتبادل المعلومات الفنية الثقافية والعلمية، فقد يمتد استخدامها إلى مراحل لاحقة تتعلق بتصور العلاقة المثالية بين الدول وخاصة العلاقة بين بوليفيا وتشيلي.

كذلك يمكن أن يتم رسم الموضوعات والرؤى الرئيسة ضمن خارطة إيجابية الجوهر تظهر كلاً من القدرات والإمكانيات الفردية والثنائية (كوبر رايدر وويتني 1999). وعلى المشتركين أن يفارقوا مرحلة الاكتشاف بتأكيدات على قيمهم وقدراتهم الوطنية، وبتفهم أعمق لقيم وقدرات الدولة الأخرى، وكذلك برؤىً للأبعاد المختلفة التي تنطوي عليها العلاقة الثنائية الفعالة.

مرحلة الحلم

تتحرك العملية الآن نحو مرحلة الحلم التي يعتمد فيها المشاركون من الفريقين على أكثر مكتشفاتهم قيمة من أجل تحديد العلاقة المثالية بين دولهم. وسيعمل الفريقان معاً لتطوير صور مثالية عن المستقبل وكشف المواضيع عبر تلك الصور وبناء إجماع في النهاية حول الموضوعات التي تتيح لهما وضع تصميم مثالي. وفي نموذجنا الذي وضعناه، يتم التركيز في هذه المرحلة على تصور كل فرد للوضع المثالي دون الرجوع إلى العلاقة الحالية الموجودة بين الدولتين المتنافستين والهدف من هذا هو

الابتعاد عن إطار النزاع السائد ومساعدة المشاركين على توسيع أفكارهم لكي تتجاوز علاقة النزاع بين بلديهم، والتي يمكن من ناحية أخرى أن تشكل تأثيراً مقيداً على أفق الحوار والاحتمالات التي يمكن تصورها من خلالها.

ويمكن للمشاركين أن يستخدموا التعليقات والأفكار والصور التي تنبثق عن المجموعة لوضعها في ملصق من الصور من أجل مناقشتها لاحقاً. والأسئلة التي يمكن استخدامها في هذه المرحلة هي:

- ارسم تصورك عن العلاقة المثالية بين الدول، ما هي الخصائص الرئيسية لتلك العلاقة؟ ما هي العوامل التي ترعى هذه العلاقة وتحافظ عليها؟
- ما هي فرص التعاون والمشاركة الخلاقة التي يمكنك إيجادها من أجل نشر الازدهار الاجتماعي والثقافي والاقتصادي داخل هذه الدول وبينها؟ .
- كيف يمكن أن يكون شكل القصص الصحفية التي يمكنها التقاط الأبعاد الحيّة لهذه العلاقة المزدهرة بين الدول؟ .

ولدى الانتهاء من هذه الجولة من المقابلات التقديرية، يصبح لدى المشاركين مجموعة من الصور والأفكار المشتركة. ومع تقاسم هذه الصور والأفكار ضمن المجموعة الكبرى، يتم تحديد موضوعات وعناصر مشتركة يمكن استخدامها. لرسم صورة جماعية مشتركة للعلاقة المثالية بين الدول. وبعض هذه الاحتمالات قد تشمل ما يلي:

- علاقات مرنة وبناءة.
- تعاون في القطاعات الاقتصادية والتجارية.
- شراكات خلاقة وريادية في مجال الأعمال.
- فرص تعليمية غنية ومتبادلة بين الدول والحضارات.
- برامج تبادل ثقافي تتكفل بها الحكومات أو القطاع الخاص.
- تقدم في العلوم والتقنيات عبر الأبحاث التنموية المشتركة.
- تقدم في مجالات حماية بيئة المصادر الهوائية والمائية المشتركة.

عند الانتهاء من تصور ومناقشة العلاقة المثالية بين الدول، يقوم المشاركون بالبحث عن هذه المثالية عبر وضع تصورات وأفكار خاصة بالعلاقة بين بوليفيا وتشيلي. وعبر رؤيتهم لمسارات التعاون الاقتصادي. على سبيل المثال، يمكنهم أن يروا العلاقة المتبادلة بين مصدرين للقوة هما استخدام الموانئ التشيلية، والاكتشافات الحديثة لاحتياطات الغاز الطبيعي الضخمة في بوليفيا، والتي يمكنها مجتمعة أن تفتح المجال أمام فرص تنموية واقتصادية لكلا البلدين.

هذه الرؤية، قد تفتح الطريق أمام حوار متين برسم صورة إيجابية لمستقبل ثنائي مشترك أكثر تفصيلاً وتعزيزاً. وعندما يتحقق الإجماع على المسارات عامة لهذه الصورة، يتم نقلها إلى المرحلة التالية التي تتحدد فيها هذه العلاقة الواقعية الجديدة بين بوليفيا وتشيلي في تفاصيل عملية.

مرحلة وضع التصاميم أو التخطيط

بعد أن تم تحديد صورة مشتركة للعلاقة المثالية بين بوليفيا وتشيلي، تنتقل عملية الحوار إلى مرحلة التصميم. وفي الجزء الأول من هذه المرحلة، تتم ترجمة الصورة المثالية إلى تصميم واقعي. ويلتقط المشاركون العناصر التي تم تحديدها في مرحلتي الاكتشاف والحلم، ليتأكدوا من أن القدرات والخصائص القومية المتميزة التي حددت سابقاً لم تخضع لأي تغيير نتيجة حلول وسط أو نتيجة عدم رغبة.

وخلال هذه المرحلة، قد يتفق المشاركون على وضع أهداف لإقامة علاقة طموحة وجريئة مثل علاقات دبلوماسية أقوى أو اتفاقيات اقتصادية. بعد ذلك تجرى حلقة أخرى من المقابلات التقديرية من أجل وضع أسس سليمة لتحقيق أهداف هذه المرحلة ومن أجل تحديد وتعريف صفتين مميزتين رئيسيتين: المبادئ التي يجب أن ترشدهم والإرشادات التي تعمل لخلق التفاعل والتعاون. فعلى سبيل المثال، يحتاج الأمر المتعلق بتحقيق أهداف إقامة علاقات دبلوماسية أقوى إلى مبادئ إرشادية مثل الثقة المتبادلة واحترام الخلافات والحوار المفتوح وحل المشاكل بدون عنف. وإذا ما وافق المشاركون

على مبدأ احترام الخلافات كأحد المبادئ الإرشادية، يمكنهم صياغة الإرشادات العملية التي تصف كيفية إظهار الاحترام وتواصله على أسس متقدمة باستمرار.

وخلال العمل من أجل بناء إجماع حول التصميم، يزداد احتمال ظهور مشاكل وقضايا معينة تسبب إرباكاً في العلاقات الخلافية بين الطرفين. وعندها يصبح لزاماً على الذين يديرون الورشة أن يعيدوا اتجاه الحوار الذي بدأ يتركز حول المشكلة نحو المهمة التي بين أيديهم. وفي نفس الوقت يحثون المشاركين على إدخال أكبر قدر ممكن من الصورة المثالية في التصميم الجديد. ورغم احتمال وجود ميل للمشاركين للعودة إلى أطر النزاع التقليدي فيما هم يتحركون نحو تفاصيل عملية التصميم إلا أن الأمر يتطلب من القائمين على الورشة أن يظهروا أنه من خلال حبْك الموضوعات والأفكار التي انبثقت من مرحلتي الاكتشاف والحلم، داخل نسيج مرحلة التصميم، فإن ردوداً واقعية على موضوعات الجدال سوف تنبثق أيضاً.

ونحن نعتقد أن التركيز على إقامة علاقة واقعية لن يكون عاملاً محبطاً ولكنه يشكل وسيلة لإطلاق الحماس والثقة والالتزام بتحقيق هذا التصميم. في نفس الوقت، يجب أن يتم إقامة توازن بين الواقع وبين تحدي الوضع الراهن من خلال توسيع الأفكار والتصورات لتصل إلى احتمالات جديدة. على سبيل المثال، إذا فرضنا أن المشاركين سوف يحددون مسألة إقامة علاقات دبلوماسية أقوى كعنصر أساسي في بناء علاقة مثالية في المستقبل فعندها يجب تشجيعهم على تحديد الوسائل التي يتم بها إنجاز ذلك، وهاكم بعض الأسئلة التي يمكن تصورها للبحث في هذه المرحلة.

- تخيل، أنه تم بعد خمس سنوات في المستقبل إقامة علاقات دبلوماسية كاملة بين بوليفيا وتشيلي وأن كلا البلدين بدأا يشهدان ازدهاراً نتيجة الفرص الجديدة والنمو. ما هي المبادئ والممارسات السياسية في العلاقات التي أتاحت إنجاز هذه التطورات؟ ما هي البنى أو الوسائل الإبداعية التي وضعت وما هي النشاطات التي مورست لإشعال فتيل التحول؟

- من هم الأفراد الذين لعبوا أدواراً رئيسية في هذه الإنجازات؟ كيف استطاعوا أن يشكلوا محفزات للتغيير؟

مرحلة التسليم

وأخيراً تأتي مرحلة التسليم التي تنطوي على العنصر الأساسي في تخطيط التحرك. ومن الواضح أن تحولاً على مستوى واسع في العلاقات بين الدول لا يمكن تحقيقه فقط ضمن بيئة حوارية للمجموعة. فالأمر يتطلب القيام بتحركات وممارسات وعمليات من قبل المشاركين بعد عودتهم إلى أوطانهم لفتح الطريق أمام بداية جديدة.

وهذه المرحلة تتطلب العمل ضمن مجموعات صغيرة من أجل بناء إجماع حول المهمات المطلوبة وإدارة التحركات على أصعدة محددة تم الاتفاق عليها حتى الآن. (مثلاً أصعدة سياسية ودبلوماسية وتجارة وصحية وتعليمية وثقافية ورياضية... الخ). وإذا كانت إقامة علاقات دبلوماسية ثنائية أقوى هي واحدة من الأولويات التي تم تحديدها، فإن أحد التحركات التي يجب القيام بها هي تطوير مقترح يحدد الإجراءات والخطوات الرئيسية التي يتوجب اتخاذها من اجل تحقيق هذا الهدف. وهناك تحركات أخرى قد تشمل ما يلي:

- إعداد خطة لتقديم المقترح إلى القيادات الحكومية.
- رفع درجة الوعي والتثقيف بين مواطني الدولتين حول ورشة العمل الحوارية التقديرية وحول الفرص التي تم تحديدها.
- إشراك الجهات الإعلامية كي تشكل جسراً بين المجتمعين وتفتح آفاقاً لتبادل الآراء والأفكار والقصص التي تحيي الآمال.
- تحديد الشروط والتحركات اللازمة لتطبيق السياسات الجديدة.
- تحديد الوسائل لتشجيع وتطوير الدعم المستمر من القيادات الحكومية.
- إطلاق مبادرات لإشراك المواطنين مثل برامج تبادل الصحفيين والفنانين وطلاب المدارس الثانوية.

- وضع خطط لتشكيل مجموعات ضغط على المربين من أجل إدخال موضوع منع نشوب النزاعات وإدارتها ضمن المساقات الدراسية في المناهج التعليمية المتبعة.

وحين يتم تحديد تفاصيل وخصوصيات التحرك، ينتقل التركيز إلى تحديد عدد من ضوابط النجاح من أجل مراقبة تقدم العمل. ولا يجب استخدام معيار التقدم من أجل مراقبة المشاركين ولكن من أجل الحفاظ على دفع العملية إلى الأمام وإبقاء الأطراف على المسار الصحيح للوفاء بالالتزامات التي قطعوها خلال ورشة العمل، وضوابط النجاح يمكن أن تتيح الفرص لانبثاق منظورات وأفكار جيدة عبر تطور العملية.

وبما أن التحول الحقيقي في العلاقات بين الأمم قد يأخذ سنين أو عقوداً من الزمن، فقد تتفق الأطراف على اللقاء مرات أخرى بشكل دوري أو في فترة ما لتقييم التقدم ومناقشة الدروس المستقاة وإجراء إصلاحات في وسط الطريق ومثل هذا الأمر يسمح للأطراف بتطوير خطط التحرك ومتابعة أفكار أكثر جرأة في مبادراتهم الثنائية. وهناك خيار أقوى هو عقد قمة للبحث التقديري بعدد أكبر من المشاركين من الأطراف المعنية بحيث يمكن استخدام النتائج وقصص النجاح التي نجمت عن مجموعة الحوار الأولى كمدخل لبذل جهود متابعة أكثر من أجل إشراك شريحة أعرض من فئات المجتمع المدني في كل من الدولتين.

محاذير في استخدام ورشة العمل الحوارية التقديرية

رغم نجاح تطبيقات البحث التقديري داخل بيئات الشركات والمجتمعات في معالجة القضايا المعقدة، إلا أن السيناريوهات المتعلقة بالنزاعات العميقة الجذور والعالقة منذ زمن طويل بين الدول تحمل في باطنها تحديات مختلفة. ففي النزاعات بين الدول مثل النزاع البحري بين بوليفيا وتشيلي، توجد شبكة معقدة من القضايا الاقتصادية، والسياسية والعسكرية والعرقية والاجتماعية، إضافة إلى تحركات فريدة متعلقة بالنزاع نفسه مثل القيود السياسية والداخلية، وأعراف للنزاع مثل الأعمال المتكررة، من شأنها أن لا تسمح للدول ولا لمسؤوليها الحكوميين أن يتوسعوا في عملية تحويل نزاعاتهم وفي تحركهم نحو إيجاد الحلول.

ولما كان البحث التقديري لم يجد له تطبيقاً بعد ضمن سياق النزاع بين الدول، فإنه ليس من الواضح بعد كيف يمكن لهذه المنهجية أن تساعد على تناول الحاجات الأساسية التي لم تتم تلبيتها بعد بالنسبة للأطراف المعنية. وبدون معالجة هذه الحاجات الأساسية مثل الحاجة إلى أرض أو إلى سيادة أو الحاجة إلى توفر الكرامة والاحترام العالميين، فإن الأطراف لن تستطيع أن تستخدم قوة البحث التقديري وأن تتخلى ببساطة عن حساباتها السلبية أو أنها قد تجد صعوبة في تحديد الجوهر الإيجابي في علاقاتها (كوبررايدر وويتني 1999).

وليس من الواضح كذلك، كيف يمكن للبحث التقديري أن يسهم في معالجة التعارضات أو الاحتياجات غير المتناسقة التي تعرضها أطراف النزاع على طاولة البحث مثل (القوة الاقتصادية والسياسية، أو الدافع لمعالجة النزاع). ففي العديد من المناسبات، على سبيل المثال، أعطت تشيلي انطباعاً بأن كل شيء سيكون أسهل بكثير لو أن بوليفيا تناست موضوع حاجتها لمدخل بحري، وبذا تجاهلت تشيلي وجود دافع للسعي وراء إحداث أي تغيير في الوضع الراهن.

إضافة إلى ذلك، ما زال علينا أن نرى ما إذا كان الفرقاء المنخرطين في مثل هذه النزاعات العميقة المشاعر مثل النزاع الذي أوردناه هنا، سوف يظهرون أية نية أو قدرة للتحرك عبر عملية البحث التقديري ومتابعة أهدافهم دون أن تؤثر فيهم أية مشاعر مكبوتة من الغضب أو السلبية. وفي الحالة التي أمامنا، على سبيل المثال، يُنظر إلى التشيليين على أنهم لا مبالين بالمطلب البوليفي فيما ينظر إلى البوليفيين على أنهم لا يرغبون في احترام الاتفاقات الدولية السارية المفعول.

وأخيراً، ليس من الواضح أيضاً كيف يمكن للبحث التقديري أن يعالج عوامل الاستياء بين المشاركين في الورشة. فعلى الرغم من أن التمارين الصارمة المتعلقة بالتخطيط للتحرك توفر القدرة لتطوير خطوات مفصلة لاحقاً، إلا أنه من المتفق عليه أن المشاركين العائدين إلى بلدانهم بعد مواجهة مع الخصم يحتاجون إلى تحضير للتعامل مع البيئة العدائية المفعمة بالمشاعر والمنظورات والنماذج السلبية المعاكسة.

الإسهامات المحتملة لورشات عمل الحوار التقديري

على الرغم من كل هذه الشكوك، إلا أننا نعتقد بأن هذه المقاربة التي تعتمد على البحث التقديري ونعني بها ورشات العمل الحوارية التقديرية تملك إمكانية إطلاق نتائج لم تتم رؤيتها مسبقاً في مجالات حل النزاعات، سواء كانت هذه المجالات محلية أم وطنية أم دولية. كذلك يملك نموذج الورشة، كما نراه، عدداً من الخصائص والفوائد الأساسية التي يتشارك بها مع ورشات العمل التحليلية لحل المشاكل، طوّرها بيرتون وكيلمان وميتشيل وفيشر لتشمل:

- دور تسهيلي في عملية التغيير الأوسع.
- تركيز على الاهتمام بالعلاقات.
- تركيز على إطلاق أفكار وتحركات ومنتجات ونتائج محددة.
- دور تثقيفي وسياسي.
- معادلة فك الالتزام التي توفر مجالاً للأطراف المتنافسة للخروج من مواقعهم التي تخندقوا فيها ومن أطر النزاع نفسها.

مثل هذه القواسم المشتركة مع ورشات العمل التي تعتمد حل المشاكل، تعزز دور البحث التقديري المحتمل في العمليات التفاعلية لحل النزاع. كما أنها توفر إمكانية أن يقوم ممارسوها بتكملة مقاربات أخرى (تسهيل الحوار والتفاوض والتوسط وحتى التحكيم) مع عناصر تقديرية مختارة، اعتماداً على طبيعة النزاع والأهداف المباشرة للعملية المستخدمة، والحالة التي تجري فيها عملية السلام برمّتها.

ويعمل البحث التقديري على تعزيز مجالات حل النزاعات بإسهامات فريدة يمكن أن تصبح تحويلية، خاصة في تقدم عمليات الحوار غير الرسمي والمصالحة كما سبق واقترحنا في هذا الفصل.

التركيز الإيجابي

إن أحد أعظم الإسهامات التي يمكن للبحث التقديري أن يقدمها في مجال تصميم ورشات العمل والمجال الأوسع لحل النزاعات هو التركيز الإيجابي على

الأسئلة التقديرية. فالأسئلة التي تكشف العوامل الباعثة للحياة في أي مؤسسة أو مجتمع أو بلد، والتي تُخرج إلى السطح ما يقدره معظم الناس ويأملون به، يمكنها أن تفتح طرقاً جديدة لمعالجة بعض القضايا الأساسية والجوهرية في النزاع. والأسئلة التقديرية يمكنها أن تستخرج ردوداً عميقة وأن تلهم الأمل وترفعه درجة الإبداع.

القدرة على إشراك أنظمة أوسع

على الرغم من أن النموذج المقترح قد فُصِّل على قياس مجموعة ورشة عمل صغيرة ومؤلفة من ستة عشر إلى عشرين مشاركاً، إلا أن الفائدة التي تحملها منهجية البحث التقديري تكمن في القدرة على إشراك أعداد أوسع من الناس. لقد تمكنت قمة البحث التقديري الواسعة من استيعاب مجموعات تقارب في عددها الألفي مشارك في وقت واحد. كما تستطيع بيئة القمة أن توفر فرصة هائلة لحل النزاع بين بوليفيا وتشيلي، على سبيل المثال من خلال مشاركة ممثلين عن جميع قطاعات المجتمع المدني في تحديد مستقبل مثالي للعلاقة الثنائية وفي تصميم استراتيجيات وخطط تحرك أوسع قبولاً لتحقيق هذه العلاقة المثالية. مثل هذه المشاركة الواسعة للأطراف المعنية يمكن أن تترجم في تمثيل أوسع وأتم للقيم والمصالح المتعددة المنخرطة في النزاع، بما فيها تحديد مختلف المنظورات والقضايا الأساسية التي تؤثر في النزاع.

وبما أن البحث التقديري يملك القدرة على التأثير في أداء الأشخاص والعلاقات والمجموعات بشكل أعمق، وفي نفس الوقت في وضعية المؤسسات، فإنه يملك أيضاً إمكانية التأثير على مسلكية البلاد بشكل عام إذا ما تسنى له ضم مجموعات أوسع وأكثر تنوعاً من المجتمع، على استعداد للالتزام بالعملية. وغالباً ما يتطلب الأمر التزاماً على مستوى الأمة من أجل إنهاء نزاع متجذر، ومزمن. لذلك فإن قدرة البحث التقديري هي في إشراك آلاف المشتركين في عملية تزيد من إمكانية الالتزام الأوسع ليصبح رؤية تشاركية. وكما هو الأمر في النزاعات الأخرى، تملك مختلف الأحزاب السياسية والجماعات والقطاعات المختلفة في بوليفيا وتشيلي رؤى وأفكاراً

مختلفة لكل منها حول كيفية حل النزاع البحري. ويمكن لقمة البحث التقديري أن تفتح الطريق أمام سماع واستيعاب كافة الآراء والأحاسيس من أجل صياغة الاستراتيجيات وخطط العمل التي يمكنها تحقيق الإجماع والمحافظة على الالتزام.

إلا أننا هنا نرغب في إدخال نقطة تحذير وهي: أنه إذا كانت مسألة إحضار بضع عشرات من ممثلي الطرفين وجمعهم معاً في غرفة واحدة، تعتبر أمراً دقيقاً وصعباً، فإن هناك تساؤلاً حول جدوى محاولة إحضار المئات أو حتى الآلاف من ممثلي الأطراف المتنازعة وجمعهم معاً تحت سقف واحد. وبينما يبدو الأمر واضحاً أن وجود فئة صغيرة قد يشكل تحديات أمام استخدام البحث التقديري للتدخل في النزاعات، فإن جهداً عظيماً من التخطيط والحذر يجب أن يبذل لتحقيق إدارة آمنة لمجموعة أكبر من الناس تعالج نزاعاً أشد حساسية، مثل النزاع البحري بين بوليفيا وتشيلي.

تحسين العلاقات عبر بناء الثقة

تملك منهجية البحث التقديري إمكانية تحويل العلاقات بين الأشخاص والجماعات والأمم بشكل جذري. وتحسين العلاقات بين الأطراف المتنازعة يعتبر خطوة أولى وأساسية في بناء الثقة التي بدورها تشكل أساساً لمعالجة القضايا الجوهرية التي ينطوي عليها النزاع. وقدرة البحث التقديري على نقل المشاركين إلى أبعد من أطرهم المرجعية التقليدية يمكن أن تفتح طرقاً جديدة لرأب الصدع والمصالحة. وليس من الممكن تخيل تحول كل من النزاع البحري والعلاقات بين تشيلي وبوليفيا بدون بناء الثقة بين الدولتين وبين قياداتهما ومجتمعاتهما بعد عقود من سوء الاتصال وقوالب التفكير السلبية بالنسبة للطرفين، إضافة إلى سوء التقدير وغياب التفاهم المتبادل لقضايا النزاع.

الشراكة والتعاون

هناك فائدة أخرى للبحث التقديري في سياق حل النزاعات، وهذه الفائدة تأتي من تركيزه على بناء الشراكات والانتقال من العلاقات العدائية إلى العلاقات

التعاونية، وكشف المواقف والتقاليد الإيجابية التي تدعم هذا الانتقال. وعندما يتم تطبيق البحث التقديري في أي مقاربة شمولية، يصبح الجوهر الإيجابي ملكاً مشتركاً وواضحاً للجميع (كوبررايدر ويتني 1999). وهذا الأمر يمهد الطريق أمام تحديد حل يعتبر أيضاً ملكاً مشتركاً، وإعطاء شرعية لذلك الحل وسط المجتمع بأكمله. ومن خلال إتاحة المجال لجميع القطاعات بالمساهمة، ومن خلال البحث والحوار لاستنباط الأفكار من التجارب الخاصة للمشاركين، يمكن للبحث التقديري أن يتجاوز الحواجز الاجتماعية التقليدية لأنه يسمح بمشاركة جميع القطاعات في وضع التصاميم لحل النزاع وفي عمليات المصالحة. وفي النزاع بين بوليفيا وتشيلي على سبيل المثال، يحمل البحث التقديري إمكانية إقامة جسور بين القطاعات المختلفة في المجتمعين المدنيين عبر فتح طرق جديدة، وتعزيز قدرات هذين المجتمعين من أجل المشاركة في البحث عن أفضل الحلول لنزاعهما المشترك. وهي حلول غابت عن القيادات السياسية والدبلوماسية لعقود خلت.

الاتصال المفتوح وتعزيز القدرات

فائدة أخرى للبحث التقديري أيضاً تتمثل في قدرته على إقامة اتصالات ضرورية وملائمة عبر جميع المستويات في المجتمع من القواعد الشعبية إلى صنّاع السياسة.

وفي الأنظمة المؤسسية الكبرى، نجح البحث التقديري في تأسيس بنىً استطاعت إطلاق قدرات المؤسسة وتحريرها ومكّنت الأفراد على جميع المستويات من تعزيز قدرات بعضهم البعض للارتباط والتعاون وإيجاد رؤية جديدة. مثل هذا التعزيز للقدرات يعتبر أساسياً في خلق ملكيات اجتماعية لحلول النزاعات وهذا بدوره يعتبر أساسياً أيضاً في إضفاء الشرعية على الحلول وفي تطبيقها، مثل اتفاقيات ما قبل المفاوضات، واتفاقيات السلام، ومبادرات المصالحة بين الأطراف. ولا يوجد هناك إلا القليل في الشك بأن إطلاق الملكية الاجتماعية لحل النزاع البحري بين مجتمعات

بوليفيا وتشيلي يعزز قدرة الزعماء السياسيين في كلا البلدين على الخروج من أنماط مسلكياتهم وقيودها والتحرك بجرأة لتغيير الوضع الراهن القائم على جانبي الحدود.

المرونة في مواجهة التحديات الاستثنائية

وأخيراً، تتيح الأسئلة التقديرية المجال أمام كل عملية حوار من أجل مواجهة التحديات الاستثنائية لكل نزاع قائم. ويعطي هذا للمنهجية المرونة الضرورية للتكيف مع مختلف سيناريوهات النزاعات سواء كانت دولية أم محلية. ورغم أن الإطار الأساسي للبحث التقديري – أي المراحل الأربع – يبقى ثابتاً لدى تطبيقه عبر مختلف الحالات، إلا أن فن صياغة الأسئلة التقديرية يوسع احتمال معالجة كل نزاع من نقطة أفضلية ملائمة.

الخلاصة

مع ازدياد فشل المحاولات لإجراء المصالحات وتحويل النزاعات على الصعيد الدولي، لم يعد هناك شك بأن البحث التقديري يقدم احتمالات جديدة وهامة على صعيد حل النزاعات وخاصة في الدبلوماسية ذات المسار الآخر. وبهذا الخصوص تظهر هناك ثلاث فرص ملموسة:

الأولى: يمكن لمنهجية البحث التقديري أن تكمل الجهود التي تبذلها الدبلوماسية التقليدية في مراحل ما قبل المفاوضات وما قبل الوساطات وفي أدوات الحوار غير الرسمية. واستخدام منهجية البحث التقديري، المعدلة عبر ورشات العمل الحوارية التقديرية المقترحة، قد يعطي نتائج فذّة يمكن على أساسها تطوير استراتيجيات للتفاوض والتوسط. ولكن هذه الطريقة يجب أن تمتحن ضمن بيئات عدة (إحداها من باب الأمل، هي الحالة البوليفية التشيلية) من أجل تحدي الشروط الأفضل لتطبيقها.

ثانياً: من الواضح أن منهجية البحث التقديري تختلف عن المقاربات التي تستخدم أسلوب تشخيص المشاكل أو تحليل العجز من أجل التغيير، والتي تعتمد

بشدة على تحليل النزاع وأسبابه. وتجربة البحث التقديري ممارسة هي فقط التي ستحدد إذا كان سينجح في دفع الأطراف بعيداً عن ضغط اهتماماتهم الفورية نحو تركيز أكثر على قدراتهم الموجودة وعلى إمكانياتهم الإيجابية.

ثالثاً: أثبت البحث التقديري قدرته على تحويل النزاعات وعلاقات الأطراف عبر الزمن. كما أثبت أن بإمكانه لعب دور متزايد في الأهمية ليس فقط كأداة لحل النزاعات بل كأداة لمنع نشوبها أيضاً. والقول بأن البحث التقديري ينتج علاقات قوية وتحركات منسقة يمكنها أن تؤدي إلى حلول أكثر بساطة وفاعلية، يمثل في الحقيقة تحولاً أساسياً في الطريقة التي يتعامل بها اللاعبون المحليون والدوليون مع النزاعات. لذا يجب بذل جهود إضافية من أجل المشاركة في القدرة الموجودة في نموذج البحث التقديري وفي الوسائل التي يمكن تطبيقها من خلالها في مختلف الظروف والنزاعات.

ورغم ضرورة القيام بقدر كبير من التجارب قبل فهم الإمكانيات الكاملة للبحث التقديري، وإطلاقها، إلا أنه لا يوجد شك بأن البحث التقديري يمثل فرصة مثيرة لا سابقة لها للاستكشاف والاكتشاف. ومع تزايد التعقيدات في البيئة السياسية العالمية اليوم، يصبح من الضروري ومن الجدير بالاهتمام أن نستكشف المقاربات الإبداعية والبناءة والإيجابية التي تعمل لمنع نشوب النزاعات أو حلها. هناك عالم جديد ينادي من أجل تدخلات جديدة، وعلينا أن نجيبه.

مراجع :

Burton, John W 1969. *Conflict and Communication: The Use of Controlled Communication in International Relations*. New York: Free Press.

Burton, John W, ed. 1990. *Conflict: Human Needs Theory*. New York: St. Martin's Press

_____ 1995. "Track Two: An Alternative to Power Politics." In Conflict

Resolution: Track Two Diplomacy John W McDonald, Jr., and Diane B. Bendahmane, eds. Washington, D.C.: Institute for Multi-Track Diplomacy

Child, Jack. 1987. "Interstate Conflicts in Latin America and the Search for Solutions: Five Illustrative cases." In *Regional Cooperation for Development and the Peaceful Settlement of Disputes in Latin America*. A report by the International Peace Academy Jack Child, ed. Dordrecht, Netherlands: Martinus Nijhoff Publishers.

Cooperrider, David. 2001. A talk given at the "Positive Approaches to Peacebuilding Conference," September 28, American University, Washington D.C.

Cooperider, David, and Diana Whitney 1999. *Appreciative Inquiry.* San Francisco: Berrett-Koehler.

Doob, Leonard W, WilliamJ. Foltz, and Robert B. Stevens. 1973. "The Fermeda Workshop: A Different Approach to Border Conflicts in Eastern Africa." In *Conflict Resolution Through Communication.* Fred E. Jandt, ed. New York: HarperCollins.

Fisher, RonaldJ. 1997. *Interactive Conflict Resolution.* Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press.

Kelman, Herbert C. 1990. "Applying a Human Needs Perspective to the Practice of Conflict Resolution: The Israeli-Palestinian Case." In *Conflict: Human Needs Theory.* John Burton, ed. New York: St. Martins Press.

Mitchell, Christopher, and Michael Banks. 1996. *Handbook of Conflict Resolution: The Analytical Problem-Solving Approach.* London: Pinter.

Montville, Joseph V 1995. "The Arrow and the Olive Branch: A Case for Track Two Diplomacy" In *Conflict Resolution: Track Two Diplomacy* John W McDonald, Jr., and Diane B. Bendahmane, eds. Washington, D.C.: Institute for Multi-Track Diplomacy



الجزء الخامس

رأب الصدع والمصالحة

معظم المشاكل الهامة والكبيرة في الحياة لا يمكن حلها بشكل أساسي بل يمكن التخلص منها

كارل يونغ



الفصل الرابع عشر

إعادة كتابة الروايات في جنوب إفريقيا الجديدة

قصة مصالحة

انتسازيا وايت

يستكشف هذا الفصل مفهوم رواية القصص في الأوضاع التي يكون فيها النزاع متجذراً، ويبحث بشكل خاص كيف يمكن لتغيير الروايات أن يفتح مجالاً للمصالحة. وباستخدامها عدسة من التغيرات الاجتماعية البناءة والمقاربات الإيجابية لحل النزاعات، تعرض الكاتبة تجربتها في جنوب إفريقيا في الفترة ما بعد حكم التمييز العنصري وكيف أدت هذه التجربة إلى إعادة كتابة الروايات في حضور عدو سابق. ومن هذه التجربة تستسقي الكاتبة دروساً حول عملية المصالحة وتأثيرها الحاضر على الروايات الموجودة. يختتم الفصل بتبيان إسهامات المقاربات الإيجابية في جعل العلاقات أكثر إنسانية بين الأعداء، وكيف يمكن لهذه العملية الإنسانية أن توجد إطاراً لتفهم المصالحة ومفاهيم العدالة.

*

في يناير/كانون الثاني عام 2001، وبعد مضي أربعة أشهر على اندلاع الانتفاضة الثانية للفلسطينيين ضد إسرائيل، شاركت في وفد سلام مشكل من عدة ديانات، قام حينها بزيارة إلى إسرائيل وفلسطين ومصر. وعبر رؤيتي للنزاع في الشرق الأوسط من خلال عيون الذين يعيشونه، بدأت في تقييم تجربتي حول حل النزاعات

في وطني جنوب إفريقيا، بطرق جديدة وأصبت بدهشة متواصلة بسبب إحساسي بسهولة أن أضع نفسي وسط القصص التي كنت أسمعها من كلا الجانبين. فأنا أيضاً ولدت وسط أجواء الحرب وترعرعت كمشاركة حددت خياراتي بمقاومة ما كنت أعتبره نظاماً غير أخلاقي وأخيراً أصبحت صانعة سلام وسط هذا النزاع نفسه.

كان اعتقادي دائماً أن النظريات والممارسات التي تم تطويرها لحل النزاع أو لتحويله يجب أن تكون متجذرة في التجربة الحياتية للمشاركين أنفسهم. فقط هؤلاء الذين يواجهون الحقائق القاسية للحرب يمكنهم بحق أن يتفهموا طبيعتها وأسبابها. وهم أنفسهم في النهاية الذين يتوجب عليهم شق طريقهم قدماً. لقد أثارت رحلتي إلى الشرق الأوسط أفكاراً جديدة في ذهني حول مجالات حل النزاعات وحول عملي كصانعة سلام في جنوب إفريقيا. وقد أدخلت هذه الأفكار في البحث الذي أقوم به لنيل الدكتوراه والذي يسترشد بالأسئلة التالية: «ما هي تجارب الناس الذين يعيشون النزاع وكيف يجدون معنى له؟ وما هي مضاعفات هذه التجربة على التحليلات المتعلقة بالنزاع وعلى ممارسات التدخل به؟».

أشترك في هذا الفصل بقصتي حول تحويل النزاع في جنوب إفريقيا الجديدة، وهي عملية شخصية للمصالحة ورأب الصدع، ينظر إليها من باب التفسير الاجتماعي البناء، وأقدم فيها مجموعة من الدروس حول عملية المصالحة ثم أنهي الفصل بمجادلة حول دور المقاربات الإيجابية في المصالحة. أشارك في هذه القصة بروح مستقصية، وعلى أمل أن تسهم في معالجة أوسع لإمكانيات استخدام المقاربات الإيجابية في الجمع بين أعداء سابقين معاً من أجل بناء مستقبل مشترك. وهذا الأمر يحمل درجة خاصة من الأهمية في جنوب إفريقيا حيث يتشارك البيض والسود في محبة عميقة والتزام عميق للمكان الذي يسمونه وطنهم.

قراءة تفسيرية اجتماعية بناءة للنزاع

يلخص جون بول ليديراخ قراءة تفسيرية اجتماعية بناءة للنزاع بطريقة توفر إطاراً مساعداً لهذا الجزء من الكتاب.

« تبين النظرة التفسيرية البناءة أن الناس يتصرفون بناءً على معنى الأشياء بالنسبة لهم. ويبنى المعنى من خلال معرفة مشاركة ومتراكمة. وقد طوّر الناس من مختلف البيئات الثقافية عدة طرق لإطلاق النزاعات والتعبير عنها والتعامل معها وتفسيرها. والجدالية الرئيسة في هذا الكتاب تناقش بأن تفهم النزاع ووضع نماذج ملائمة للتعامل معه سوف تكون متجذرة في ثقافات الشعوب، وعليها أن تحترم هذه الثقافة وتنهل منها » (1995، ص 10).

ويمكن استكشاف التوضيحات المتعلقة بالقراءة الاجتماعية التفسيرية البناءة لدور المعنى والمعرفة في النزاعات من خلال فكرة « الروايات ذات الصلة بالنزاعات » وهذه الفكرة ما تزال جديدة نسبياً في حقل حل النزاعات وبناء السلام. وقد انبثقت عبر تمسك هذا الحقل بالطبيعة المتجذرة والعنيدة للعديد من النزاعات الحديثة التي تؤثر على العالم. ومن الواضح أن هناك حاجة لطرق جديدة من أجل تفهم طبيعة ومصادر النزاعات المعاصرة، إضافةً إلى الحاجة لوضع مقاربات للتدخل.

والنزاعات التي تتميز بعمقها وطول مدتها وتجذرها في مكان ما، تصبح هي الطبيعة المستهلكة تماماً للوجود، وهذا بدوره يخلق روايات حولها، بحيث يستطيع الناس من خلال تلك الروايات اكتشاف موقعهم وإضفاء معنى على الأحداث والتجارب، ويمكن فهم تلك الروايات على الشكل الأفضل بأنها قصص عن هوية الطرف الذي يمثلها أو أنها اللغة التي يستخدمها هذا الطرف لتركيب ماضيه كشعب، أو الكلمات التي تتضمن وجوده والتي يمررها إلى الأجيال الجديدة القادمة. والقصة هي خيط الاستمرارية الذي يغذي حياة الأمة أو الشعب، ويهدف إلى مساعدة أفراد أي مجموعة على عبور مشاكل الحياة، كأنه منارة وسط العواصف أو طريقة للمشاركة في الحياة اليومية وتشكل هذه القصص خلال الحروب مفاهيم مركزية وثابتة حول « من نحن » وأطراً نتفهم من خلالها تجاربنا اليومية. إضافةً إلى أنها تنظم المشاعر وتعالج الإدراكات وتعزز حدود الهوية بالنسبة لأي مجموعة وتربط أفرادها معاً.

وبهذا تبني روايات النزاعات العلاقة باتجاه العدو وتشكل أسس التجربة الفردية. ولكن ما يجعل من روايات النزاعات تبرز بمثل هذا التحدي لجهود صنع السلام هو أن كل فريق يصنع رواياته المميزة بناءً عل علاقته بالنزاع وعلى تفسيره للأحداث والتي غالباً ما تترك مساحة هامشية فقط أمام تشكيل نقطة بداية مشتركة. ومن منظور حديث معاصر، تشيد هذه الروايات الهوية والإيديولوجية، فيما يدعي محدثوها بأنها تأتي من التجربة والذاكرة ضمن سياق مفروض عليهم، لم يصفوه ولا يستطيعون تغييره. (كوب، 2002).

وتعتبر مسألة نزع إنسانية العدو أو الطرف الآخر، أحد أكثر المظاهر التي تشترك فيها الروايات. فالقدرة على تبرير العنف تعتمد على المبادئ الكامنة وراء إنكار كرامة الطرف الآخر وحقوقه الإنسانية. ومثل هذه الحركة تسمح لكل طرف مشارك في النزاع بأن يؤطر أعماله على أنها مبررة أخلاقياً في وجه تهديد لا أخلاقي وتسمح له بتفهم تلك الأعمال على أنها ردود انتقامية وليست اعتداءات. مثل هذه الحركة المعقدة تحمل تداعيات هامة لطريقة انتشار النزاع. فهي تعطي بشكل خاص، المبرر الأخلاقي للمشاركين في النزاع من أجل القيام بأعمال كان يطلق عليها بالعادة انتهاكات سافرة لحقوق الإنسان. ويصعب إنهاء سلسلة دوائر العنف التي يطلقها مثل هذا الإعلام بسبب سلسلة اللوم التي تتحرك نتيجة لها. فكل طرف ينظر لنفسه على أنه الضحية وعلى أن المعتدي هو الطرف الآخر، مما يجعل من المصالحة التقليدية التي تعتمد على قيام المعتدي بالاعتذار للضحية أمراً فائق الصعوبة.

لقد قمت باستخدام المنظور التفسيري البنّاء للنزاع وفكرة روايات النزاع من أجل استكشاف تجاربي الخاصة كشريك في النزاع وكشريك في حله. وفيما يلي عرض لجزء من تجربتي في جنوب إفريقيا، وهي التجربة التي شكلت تحدياً لمفهومي عن النزاع وأوجدت دافعاً لي لتطوير إطار ومنظور عالميين أستطيع من خلالهما فهم الدور الذي يمكن لجيل الروايات الإيجابية أن يلعبه في رأب الصدع والمصالحة.

روايتي الشخصية

حسناً، هناك قلة من الناس في الحقيقة يطلقون اسماً على أشخاص مثلي. يدعوننا بالجيل الضائع أو بأطفال الحروب أو حتى بالجنود الأطفال. أما نحن فلدينا أسماء مختلفة لنطلقها على أنفسنا. ففي جنوب إفريقيا، أطلقنا على أنفسنا اسماً محبباً هو « الأشبال » كما دعونا أنفسنا أيضاً بـ « الرفاق » أو « أخوة السلاح » أو « طلائع الكفاح ». لا أدري أي من الصور قد يستحضرها القارئ لهذه الأسماء: ربما لقطات مصورة لشباب يصنعون من أنفسهم قنابل بشرية في فلسطين أو ربما جيش من مدمني الكوكاييين ذوي الثياب الرثة في سيراليون أو ربما تلك الصور التي تظهرها شبكة CNN لوجوه أطفال يعيشون في مناطق الحروب بوجوه مهملة ومتعبة. ولكنني شخصياً لا أبدو كذلك. فأنا أبلغ من العمر الآن الثانية والثلاثين، قامتي طويلة تصل إلى خمس أقدام وست بوصات وشعري أسود غامق وعيناي خضراوان ولدي نمش على وجهي. وأكثر الناس يطلقون تعليقاتهم على صوتي عندما يقابلونني فصوتي ناعم وغريب، وليس له أي لهجة محددة. وإذا ما نظرتم إليّ، فلن تصدقوا الرواية التي أقولها. حتى أن أصدقائي أحياناً يحاولون إثارة دهشة الغرباء لكي يخمنوا ماذا كان ماضيّ. فأنا عبارة عن تناقضات من كل الأنواع، ولكنني في النهاية أتيت من مكان مليء بهذه التناقضات.

وأكثر الأسئلة المألوفة التي أواجهها هذه الأيام، خلال دراستي في الولايات المتحدة هي: كيف تكونين ناشطة ضد التمييز العنصري وأنت بيضاء؟ فالدماء التي تجري في عروقي جاءت من مستعمري بلادي. إذ قدم أسلاف والدتي في القرن السابع عشر إلى هذه البلاد ربما هاربين من الظلم والاستبداد في ألمانيا أو هولندا أو ربما كانوا مجرمين مدانين فرّوا إلى هذه البلاد. أما سلسلة نسب والدي فتعود إلى المستوطنين الذين قدموا من إنكلترا عام 1820 وقد أكون امتلكت حديثاً بعض الدم الإيرلندي الذي بدا واضحاً في النمش البارز على وجهي. وأمام هذه السلسلة من

النسب، لا يتطابق نشاطي ضد التمييز العنصري مع التعريف الواضح للكفاح في جنوب إفريقيا كونه نزاعاً بين الأعراق ولكنه يظهر بعض التعقيد في الوضع الموجود هناك. فرغم أن معظم البيض كانوا مع نظام التمييز العنصري ومعظم السود كانوا ضده إلا أنه كانت هناك بعض الاستثناءات وكانت عائلتي واحدة منها.

ترعرعت في مجتمع مؤلف من ناشطين ضد التمييز العنصري، وهو مجتمع نما وتواصل من خلال مجموعة من الكنائس المسكونية. وعندما استلمت حكومة التمييز العنصري الحكم عام 1948، التقت مجموعة من رجال الدين المسيحي واتفقوا في الرأي على أن هذا النظام بدا وكأنه يهدف إلى التمييز بين الأعراق ثم قرروا وضع خطة لشراء قطعة أرض تجتمع فيها الأعراق معاً. كان إحساسهم بنوياً، وأصبح المكان الذي اشتروه مركزاً للاجتماعات وأرضية لتدريب الناشطين ضد التمييز العنصري من جميع الأطياف السياسية وقد أطلق على المركز اسم: مركز أصدقاء ولغسبروت. وفي عام 1964 عُيّن والدي من قبل الكنيسة الإنجليكانية ليكون مراقباً للمركز. هنا في هذا المجتمع ولدت وهنا قضيت معظم أيام حياتي.

وقصة ولغسبروت هي قصة أناس عاديين، أخضعهم إيمانهم لاختبار العيش كجماعة تعيش حياة ذات نظام خاص في الوقت الذي كان المجتمع بأكمله يؤمن بالتفرقة العنصرية. كذلك هي تروي حكاية إنسانية أكبر حول الإيمان بخير الإنسان في وجه المعاناة والاضطهاد. ومن قلب تلك القصة الكبرى، أشارك أنا في جزء من رحلة حياة على أمل أن أنقل تجربتي هذه إلى آخرين مثلي ولدوا وسط حرب عملت على تشكيل مسيرة حياتهم.

السياق الذي سار فيه نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا

تعتبر المؤسسة الشُرَطية، جسماً مقبولاً لدى المجتمع من حيث أنها موجودة لخدمة المواطنين وحمايتهم. ولكن ضمن سياق الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، لعبت الشرطة دور حامي النظام وحامي الوضع العرقي الراهن ضد الإرهابيين

والشيوعيين وغيرهم من العناصر غير المرغوب فيها والتي كانت تلتزم بمبادئ سياسية واجتماعية مختلفة. وقد وضع هذا الأمر عائلتي والجماعة التي حولها في نزاع مباشر مع جهازي الشرطة والأمن التابعين للدولة. لم نكن نحظى بحمايتهم أو بمنافعهم قدر ما كنا أهدافاً لنشاطاتهم. وكان هذا هو المقياس الذي حدد تجربتي مع رجال الشرطة والأمن، وشكّل منظوري للجهاز الأمني بشكل خاص.

كنا نواجه مشكلتين مع هذا الجهاز هما: أولاً، لم يكن هذا الجهاز يحتاج إلى مذكرة تفتيش قضائية عند اقتحامه أي ملكية خاصة لأنه كان يعمل خارج النظام القانوني العام. فقد كان بإمكان رجاله اعتقالك دون تهم ودون محاكمة لمدة غير محدودة من الزمن، دون أن يحاسبهم أحد ودون أن يرجعوا إلى أي جهاز قانوني يُمكّن أفراد عائلتك من معرفة مكانك أو يُمكّن أهلك ومحاميك وطبيبك من زيارتك. وكان هذا يعني أنك إذا وقعت في أيدي الجهاز الأمني فإن بإمكانهم أن يفعلوا بك ما يشاءون، وهذا يشمل التعذيب والحجز الانفرادي أو القتل. وكان الناشطون يعلمون أن حياتهم وأمنهم يعتمدان على البقاء بعيداً عن الاعتقال أو الحجز من قبل هذا النظام الأمني وقد استطعنا تطوير استراتيجيات متقنة في هذا الصدد لكي نبقى خارج قبضتهم. وثانياً: كونك أصبحت هدفاً لاعتداءات الشرطة يعني أن لا أحد يستطيع حمايتك أو حماية عائلتك. لذلك كان الناشطون عرضة لأن يكونوا قنصاً سهلاً من قبل أي كان. فعلى مدى فترة طفولتي، كان هناك أشخاص بيض عشوائيون يدخلون إلى منطقتنا ويحاولون إطلاق النار على أفراد جماعتنا. وحين كنا نستدعي الشرطة، كان هؤلاء إما يتغيبون أو يحذروننا من الاستمرار في نشاطاتنا الهدّامة لأنهم لا يستطيعون تحمل مسؤولية مواطنين غاضبين. ولم يتم اتهام أحد من هؤلاء المعتدين ولم يتم حتى توجيه إنذار لهم بالكف عن أعمالهم هذه.

وبعد وصول أول حكومة ديمقراطية مختلطة الأعراق إلى الحكم في جنوب إفريقيا عام 1994، تغير هذا الوضع بشكل جذري بالنسبة للناشطين. فبعد أشهر من

الانتخابات، كان يخطر لي فجأة وأنا أقود سيارتي أن نلسون مانديلا قد أصبح الآن رئيساً لجنوب إفريقيا وأن عليّ أن لا أخاف بعد اليوم. فقد أصبحت معتقدات عائلتي وجماعتي هي المقبولة قانونياً واجتماعياً اليوم. وأصبح المتعصبون العنصريون هم المهمشون في بلادنا، ولم يعد هناك من يخشاهم.

ضمن هذا السياق، قابلت ولأول مرة الكولونيل فان دير ميروي (ليس اسمه الحقيقي).

الشراكة غير المحتملة

عقب انتخابات عام 1994، طلب مني وزير الأمن والحماية في غوتنغ، وهي المقاطعة التي أعيش فيها، أن أساعد على إنشاء منتدى مشترك بين الشرطة والمجتمع في كل مخفر شرطة محلي في غرب راند. وهذه المنطقة تشمل سويتو، وهي كبرى مدن السود في جنوب إفريقيا ونقطة بارزة في النضال ضد التمييز العنصري. وقد كلفني الوزير بالجمع بين قيادات المجتمع وبين كوادر الشرطة من أجل وضع استراتيجية شُرَطية مشتركة للمنطقة وإعادة بناء العلاقات التي هدمها النظام العنصري. كانت هذه العملية تهدف إلى تقديم توصيات تشريعية حول إعادة بناء جهاز الشرطة، بالإضافة إلى كتابة مواد تدريب جديدة لأفراد الشرطة. وقد جاءت الحاجة إلى المصالحة نتيجة تاريخ من النزاع بين الشرطة والمجتمع تحت الحكم العنصري في جنوب إفريقيا. وكان السبب وراء كون هذه المصالحة جوهرية هو أن جزءاً من الاتفاقية الانتقالية كان يحتوي على بند يضمن بقاء الموظفين المدنيين في وظائفهم لمدة ثلاث سنوات، وكان ذلك يعني أن أحداً من كادر الشرطة لن يتغير.

وقد تم تعييني من قبل جهاز شرطة جنوب إفريقيا كمساعد في تسهيل إقناع قيادات المجتمع للحضور إلى طاولة المفاوضات بسبب علاقاتي الطيبة مع هذه الجماعة، وكان دور زميلي هو إحضار الطرف الآخر أي الشرطة. وخلال اجتماعي الأولي مع زميلي، تطوّع الكولونيل فإن ميروي للمساعدة بصفته كان عضواً في الفرع الأمني، وهو وحدة خاصة من الشرطة كانت مكلفة بمضايقة وإقصاء الناشطين

المعادين للتمييز العنصري وبصفته كان مسؤولاً في ذلك الوقت عن ملف عائلتي. كانت هذه أول مرة أستطيع فيها تمييز وجه من الوجوه التي ظلت تضايقنا وترهبنا منذ سنين. فحتى قبل أن أولد، كان هذا الجهاز يراقب بيوتنا وخطوط هواتفنا، ويتدخل لاحتجاز وضبط زوارنا، ويهاجم ممتلكاتنا، محاولاً خلال مرتين على الأقل أن يصادر أسلحة لم نكن نملكها وأن يعتقل أعضاء من أحزاب أو من جماعات منشقة محظورة، كانوا أحياناً يتواجدون لدينا، كذلك كان هذا الجهاز يتجاهل نداءاتنا لطلب المساعدة حين كان رجال مسلحون يدخلون إلى أرضنا ويطلقون النار.

وقد أدى القرار بالعمل مع الكولونيل فإن دير ميروي إلى واحد من أشد التحولات الشخصية العميقة التي خضتها. وكان المفتاح في قدرتي على العمل كمحترفة معه وبالتالي تطوير درجة ضرورية من الثقة لجعل عملنا ناجحاً، هو تحدي وإعادة كتاب روايتي عن النزاع. وكانت هذه الرواية تصف أشخاصاً مثله بالعدد، وقد حافظت هذه الرواية على موقفي ضد التمييز العنصري وعلى هويتي في عصر الحكم العنصري. ولكن ما أعطى عملنا دفعاً وقوة أكبر هو أن علاقتنا عكست التحرك الذي كان يدور في كل اجتماع قمنا بإدارته بين أفراد المجتمع وأفراد الشرطة، مما منحنا درجة من التبصر لم تكن موجودة لدى غيرنا من فرق العمل. كما أنها رفعت من درجة شرعيتنا بين المشاركين لأننا كنا مدركين تماماً للتغيير الذي كان على كل شخص أن يخوض فيه في سبيل إنجاح العملية.

والأجزاء التالية من الفصل ستكشف تلك العملية وتلتقط الأدوات المهمة ونقاط التحول في علاقتنا.

الاجتماع الأول

كان لقاؤنا الأول في مكتب الكولونيل فان دير ميروي للعلاقات الشرطية المجتمعية. وكان هذا المكتب تابعاً لدائرة جديدة أنشأتها وزارة الأمن والحماية، رغم أن معظم كوادرها كانوا من عناصر الشرطة العاملين حالياً. دخلت إلى المكتب وعرّفت

بنفسي. وكان ردّه أنه يعرفني من قبل، وقد أحرجني هذا الرد لأني افترضت أنني قابلته من قبل، ولمعرفتي أنني كنت أميل دائماً إلى نسيان الأسماء رغم أنني نادراً ما كنت أنسى الوجوه. ولكن الكولونيل ردّ على اعتذاري بسرعة بأن أوحى لي أنه لم يقابلني شخصياً وأنه بحكم عمله في جهاز الأمن كان يعلم عني من ملف عائلتي. عندها أصبت بالصدمة وسألته عن كيفية تعيينه في دائرة العلاقات الشرطية المجتمعية. وقد تبين لي أنه عندما تمّ إغلاق الفرع الأمني، خُيّر العاملون بين ترك العمل أو الانتقال إلى هذه الدائرة الجديدة. وقد تابعنا اجتماعنا هذا بشكل رسمي أكثر من اللازم، وناقشنا شروط المرجعية والإرشادات المتعلقة بتوجهنا كما حددنا التشريع الجديد حول العمل الشرطي بمشاركة المجتمع وافترقنا بعد أن اتفقنا على عقد اجتماع لقيادات المجتمع في بلدة بيكرسدال في الأسبوع القادم، وهذه بلدة للسود تقع غرب راند، وكانت قد شهدت نزاعات شديدة بين الشرطة المحلية والسكان.

تركت مكتبه وأنا أرتجف من الغضب فلم أكن أستطيع استيعاب كيفية قيام الوزارة بملء شواغر هذه الدائرة المكلفة بأعمال المصالحة؛ بأعداد من أسوأ مجرمي فترة التمييز العنصري. ورغم احترامي لصدق الكولونيل إلا أنني لم أكن واثقة من الدوافع وراء كشفه لي عن ماضيه. أخذت أتساءل إذا كنت قد دخلت في وضع قد تستخدم فيه مصداقيتي وشرعيتي بين المجتمعات كغطاء لجدول أعمال الشرطة؟ إذا لم يكن هدف هذه العملية في الحقيقة يتجه نحو تعزيز قدرات المجتمعات ومحاسبة الشرطة، هل يتوجب علي أن أتخلى عنها؟ ماذا سيحصل لسمعتي وقدرتي على العمل في الميدان إذا تبين أن هذا المشروع هو أداة تلاعب من قبل الشرطة الذين لا يرغبون أن يحاسبهم أحد على أعمالهم في الماضي أو في المستقبل؟ من ناحية أخرى، ماذا لو كنت على خطأ؟ ماذا لو كانت هذه العملية تتضمن إمكانية حقيقية بالسير نحو مجتمع ما بعد الحكم العنصري، الذي كرّست حياتي له؟ هل يمكنني أن أدير ظهري بكل أمانة إذا كان الوضع كذلك؟ كيف يمكنني أن أسمح لمشاعري الشخصية بأن تمنع إعادة البناء الاجتماعي للعلاقات إذا لم أكن أريد لأطفالي أن يترعرعوا وسط عالم منقسم ومليء بالأحقاد؟ شعرت أن

شيئاً يتحداني في أعماقي لكي ألتزم بهذا التحول الشخصي والاجتماعي. لابد أنه أصعب تحدٍّ سأواجهه فيما لو تبين أن هذه العملية ستكون مفيدة بحق، لأن تكلفة ارتكابي خطأ هنا ستكون مصداقيتي في المستقبل وسمعة عائلتي.

لماذا اخترت البقاء ضمن هذا المشروع؟ أحد الأسباب كان في الإمكانيات التي يتضمنها هذا المشروع من اجل المشاركة الحقيقية للعلاقات الاجتماعية على المستوى المحلي، فمن وجهة نظري، كانت بعثة الحقيقة والمصالحة، تشكل اتفاقية سياسية يتوجب دعمها وتكملتها بمبادرات من المجتمع المدني، هذا إذا كنا نرغب فعلاً في فرض مصالحة حقيقية في العلاقات. وسبب ثانٍ كان في ثقتي بأنني أمتلك فهماً كافياً للموضوعات التي أمامي بحيث يمكنني أن أقرر إذا كنت أرغب في الاستمرار أم لا — وأنني في كوني جزءاً من العملية، سوف أمتلك قدرة أكبر على نتائجها من التأثير. ولكن أحد أهم الأسباب كان في شعوري بأن هناك سبباً لاختياري لهذا العمل من قبل الكولونيل فإن دير ميروي، من بين الآلاف من الناس، فقد شعرت وكأن الحياة تمنحني فرصة لا يمكن أن أتراجع عنها.

الاجتماعات بين أفراد المجتمع والشرطة

سرعان ما اعتمدنا روتيناً للعمل معاً. فقبل انعقاد أي اجتماع بين أفراد الشرطة والمجتمع، كنا نجهز جدول أعمال للمناقشات ونتقاسم مهمات إدارة الاجتماع ونتحدث عن التحركات المحتملة التي يمكن أن تخرج العملية عن خطها والتي تحتاج إلى إدارة. كنت غالباً أتولى بداية الاجتماعات ثم يقوم الكولونيل فان دير ميروي بتعزيز النقاط المهمة من خلال إعادة التعبير عنها بكلمات أقرب إلى ثقافة الشرطة وفي نهاية كل اجتماع، كنا نستخلص النتائج ونقرر خطوات العمل القادمة.

عقد الاجتماع الثاني الذي قمت بإدارته في مخفر للشرطة يقع في ميدولاندز، وهي ضاحية من ضواحي سويتو كانت قد شهدت أعنف الاشتباكات الدموية في السابق. وبسبب حدة العداوة بين كادر الشرطة وأفراد المجتمع، تم الاتفاق على أن

ألتقي بقائد المخفر لكي أشرح له طريقة سير الاجتماع. وقد وجدت في الأمر بعض السخرية إذ اعتبرت مدرباً مناسباً لقائد هذا المخفر، في حين أن أول وآخر زيارة لي لهذا المخفر بالذات كانت عندما اعتقلت وأنا في عمر الثانية عشرة.

كان عبئاً نفسياً ثقيلاً عليّ، بأن أدخل عالم ومكان عمل الشرطة. فقد علمتني التجارب التي خضتها في حياتي أن أتجنب الشرطة بأي ثمن. وقد كان مستوى الأدرنالين يتصاعد عندي كلما دخلت مكاناً مغلقاً مع الشرطة. إضافةً إلى ذلك كنت أجد صعوبة في التحدث بصدق، وأشعر بعدم الأمان وأنا أشاركهم أفكاري. ولكن الكولونيل فان دير ميروي رفع عني كل هذا الضغط من خلال اطلاعي باستمرار قبل أي اجتماع عن أي كادر من الشرطة كان يعمل في الجهاز الأمني، وأي منهم كان يعرفني من خلال ملفاتي. وقد ساعدتني هذه المعلومات على الدخول في كل الأوضاع وأنا أشعر بأني أقل عرضة وأكثر ثباتاً حين أكون معروفة، أو عندما يرجعون في الحديث إلى خلفيتي. وكنت ممتنة جداً لأني أعلم أنه كان بإمكانه إخفاء هذه المعلومات عني وبذلك يعيق قدرتي على إدارة العملية بطريقة تعود بالنفع على المجتمع.

الاجتماعات الشخصية

بسبب ثبات الكولونيل فان دير ميروي على الصدق ومشاركة المعلومات، أصبحت أكثر اهتماماً بقصته الشخصية وصرت أسأله بشكل مكشوف عن دوافعه. وقد أدى هذا إلى سلسلة من اللقاءات الشخصية التي كانت تمتد لساعات تحت شعار « لجنة الحقيقة والمصالحة المصغرة ». وقد بدأت هذه الاجتماعات من خلال تقاسم المنظورات حول الأحداث التي جرت، على سبيل المثال، كان منزل عائلتي ومكتب والدي قد تعرضا للتفجير عندما كنت في عمر السادسة عشرة، ورغم شكنا دائماً بأن الجهاز الأمني كان وراء ذلك إلا أننا لم نكن نملك دليلاً. وعندما سألت الكولونيل مباشرة حول دور الجهاز الأمني في هذه العملية اعترف بأنهم زرعوا القنبلة من أجل تدمير مهربات كانوا يعتقدون أننا ننتجها أو نوزعها.

مثل هذه المحادثات كانت صعبة على كلينا. بالنسبة لي كنت أشعر بالألم لدى سماعي تبريراته التي تتفّه الأعمال التي كانت بالنسبة لنا أعمالاً مؤذية. أما بالنسبة له فقد كان يجد صعوبة في الاعتراف بأن ما كان يدعوه أمراً عادياً في مضايقتنا وقمع نشاطاتنا، كان بالنسبة لنا يعتبر انتهاكاً خطيراً لسلامتنا ولكرامتنا كمجتمع. وقد أصبحت المواجهة بيننا في الأحاديث تشكل إحدى ظواهر هذه الاجتماعات بسبب ارتفاع مستوى الارتياح للعلاقة. وقد استطعت من خلال هذه العلاقة أن أعرف الإطار الذي كان الكولونيل يضع فيه نشاطاته والرواية التي كان يرويها للحفاظ على إحساسه بهدفه. ومع مرور الوقت أدى هذا إلى إدراكي أننا كلينا كنا نتقاسم شعوراً مشتركاً بالكفاح، رغم أنه شعور من طرفين مضادين. ولعلني كنت سأتصرف مثل تصرفه لو كنت في مكانه. أصبح الخط بين المعتدي والضحية ضبابياً بالنسبة لي وقد أتاح لي فرصة لإدراك إنسانية الكولونيل فان دير ميروي، وامتد هذا ليشمل المجموعات التي حددته ضمنها.

ببطء، أصبحت أثق بدوافعه في الرغبة بتسهيل إدارة عملية إعادة بناء ناجحة للعلاقات بين الشرطة والمجتمع. كانت دوافعه الأساسية للالتحاق بالشرطة هي إيجاد جو آمن للمدنيين، والآن حين أصبح السود يعدّون ضمن المدنيين الشرعيين، أصبح يعدِّهم ضمن عالم مسؤولياته. وقد شهدت شعوره بألم شخصي لدى إدراكه أن التمييز العنصري كان نظاماً مدمراً سلب من الناس كرامتهم وحقوقهم الإنسانية كمدنيين. ومن خلال أحاديثنا، بدأ يواجه خرافة « تفوق البيض » و« الهوية الأفريكانية » وهي مفاهيم استخدمت لنشر هذا الشر المتعلق بالتمييز العنصري. بالنسبة لكلينا فتحت هذه العملية تساؤلات كثيرة حول أعمالنا ومعتقداتنا، وأدت إلى إعادة كتابة جذرية لروايتنا الشخصية.

عندما يكتسب العدو أو الطرف الآخر وجهاً إنسانياً، تصبح جميع التبريرات التي كانت تخدم إحساس الإنسان بالهدف، عرضة للتساؤل والتحدي. إذ لا يمكنك بعد أن

يتحقق إدراك هذا الوجه الإنساني أن تبقى محتفظاً بفروقات واضحة بين الأسباب، وهذا بدوره يجعلك تعيد تقييم أعمالك السابقة في ضوء بروز الوجه الإنساني للطرف الآخر.

الدخول في الحياة الشخصية

بعد أن عملنا بما فيه الكفاية عبر هذه العملية، بدأ كل منا يفاتح الآخر عبر دعوته للدخول في حياته الشخصية. وأعتقد أننا كلينا شعرنا بجادة لدمج هذا المنظور الذي تغير وهذه الرواية التي تبدلت، في عالمنا، أي داخل مجموعتنا الاجتماعية. وقد جاءت مفاتحة الكولونيل فان دير ميروي على مستويين. المستوى الأول كان في دعوتي إلى منزله لتناول العشاء وللتعرف على زوجته. وقد تحول الحديث فيما بعد إلى حياته الاجتماعية حيث برزت قصة غريبة وساخرة. فمع وضع قانون إعادة الأملاك إلى أصحابها الشرعيين، أخذت المجتمعات السوداء التي كانت قد أجبرت في السابق على ترك أراضيها من أجل إنشاء مجتمعات متجانسة عرقياً، بالمطالبة بحقها في هذه الأراضي التي كانت تاريخياً تعتبر ملكاً لها. وتشاء الصدف أن تكون الجماعة التي ينتمي إليها الكولونيل فان دير ميروي من ساكني هذه الأراضي وقد وجد نفسه في نزاع حول ملكية الأرض. وطلب مني مساعدته للتوسط في هذا النزاع.

أما من جهتي، فقد كانت مسألة تقديم الكولونيل إلى عائلتي خطوة هائلة في علاقاتنا، في مواجهة الدور الذي لعبه سابقاً. شعرت بأن عليّ أن أدافع عنه وأخذت تحدوني الرغبة بأن ينظر أهلي إلى ما توصلت إلى فهمه عن إنسانيته. من جهته كان الكولونيل في حالة عصبية شديدة وهو يعلم أنه جاء يطلب الصفح عن أعماله السابقة كجزء من الزيارة. كانت حركة غريبة، تصرفت فيها كالوسيط والمترجم بين الكولونيل وبين عائلتي. وكانت النتيجة أن اكتشفنا محدودية قدرة كل منا لأن يبدأ العمل في عالم الآخر، ولكنها رغم ذلك كانت تسمح لنا بتطوير علاقة صداقة. وقد وجدت هذه الصداقة تعبيراً محسوساً لها عندما كتبت رسالة توصية إلى الوزارة بترقية الكولونيل، وكتب هو بدوره توصية في الطلب الذي تقدمت به لبرنامج الدكتوراه.

تضمينات لعملية الإصلاح ورأب الصدع

عندما أفكر بالمراحل المهمة ونقاط التحول التي مرت في علاقتي مع الكولونيل فان دير ميروي، تبرز أمامي خمسة عناصر مكّنتنا من إحداث تغييراتنا المشتركة. وفي الجزء التالي في الفصل، سوف أناقش كلاً من هذه العناصر وأشرح كيفية ظهورها ضمن تفاعلنا ثم أستقي منها درساً عاماً. أقدم هذه التضمينات كنقطة انطلاق لتفهم عملية إعادة صياغة الروايات السابقة من أجل السماح بظهور علاقة جديدة:

الفرصة للتفاعل مع الطرف الآخر

كنت أعلم منذ نعومة أظفاري بأن الكفاح ضد التمييز العنصري سيكون نهج حياتي. لم تكن هناك حياة لي في غيره، بل إن جميع خياراتي وطموحاتي كانت خاضعة لهذا النداء الأعلى. وكنت أؤمن بأني لست ممن يعيشون في مجتمع عادي وإن هذا النهج في الحياة هو ميراثي للجيل القادم. وقد يشكل انتهاء نظام التمييز العنصري والانتقال إلى جنوب إفريقيا جديدة تجسيداً لهذا الحلم ولكنه كان زمناً مربكاً بالنسبة لي. فقد شعرت بأن الحياة قد انكشفت فجأة أمامي وأنه كانت هناك حياة مليئة بالخيارات التي توفرت لي الآن رغم أنها تحتاج إلى إعادة تعريف عن نفسها. ماذا سيكون هدفي الآن وإسهامي في هذه الحياة؟ هل كنت أملك مهارات في هذه الحياة تؤهلني لمواجهة هذه البيئة الجديدة؟ من كنت أنا حقيقة في داخلي وما هي مواهبي؟

وقد شكلت هذه المساحة الجديدة التي ظهرت في حياتي نتيجة لما حدث انعكاساً لما حدث في المجتمع بحيث أن كل فرد فيه واجه مثل هذا التحدي. وقد سمح لي توقيت المشروع مع الكولونيل فان دير ميروي بأن أكتسب مرونة جديدة في ردودي على الطرف الآخر بطرق لم تكن متوفرة أيام الكفاح السابقة لأن أي تحرك باتجاه تفهم إنسانية العدو كان يعني في المرحلة السابقة خطوة خيانية. فقد كانت الناس تقتل في ذلك الوقت لأسباب أقل خطراً من هذا. ولكن مع بروز عملية الحقيقة والمصالحة وضرورة بناء جنوب إفريقيا جديدة، أصبحت المصالحة هي المشروع الوطني الجديد.

كانت طبيعة نظام التمييز العنصري تقتضي الفصل بين الأعراق ومنع اختلاطها على أي مستوى، من الزواج حتى استخدام وسائل الراحة. ولكن سوء التفاهم والقوالب الجامدة والأحقاد التي انطلقت بين المجموعات لم يكن لها وجود في العلاقات الشخصية. فقد كان النظام هو الذي وضع معايير التفاعل، ومع إعادة بناء النظام، دخل الناس في علاقات جديدة مع بعضهم البعض وأتاح هذا المشروع الوطني فرصة للكشف عن قوالب كانت موجودة من قبل عبر كشف الوجه الإنساني للأطراف الأخرى.

كان عدم نجاح هذا المشروع الوطني يعني إمكانية استمرار الحرب الأهلية. ولكن جنوب إفريقيا كانت تختلف عن الدول الإفريقية الأخرى التي ظل سكانها المستعمرون يرتبطون بنوع من الولاء للأمم الأوروبية. فالأفريكانرز البيض في جنوب إفريقيا، بشكل خاص وسائر البيض بشكل عام لم يكونوا يملكون خيارات للذهاب إلى أي مكان، لذلك كانت عدم قدرتهم على التعايش ستؤدي إلى إبادة مجموعات معينة أو عودة سياسات التفرقة العنصرية. والدرس المستقى هنا هو أنه في النزاعات التي تتميز بغياب التفاعل الشخصي بين الفئات الاجتماعية والتي تُبنى المشاركات الفردية فيها على أسس روايات النزاعات، يحتاج الأمر إلى وجود فتحة أو مساحة اجتماعية من أجل إعادة بناء الروايات بحيث تظهر أشكال جديدة من العلاقات. ونجاح هذه العلاقات يعتمد على تطابق وملاءمة توقيت التفاعل الجديد بين الأطراف المتنازعة مع التغييرات الاجتماعية الكبرى ومع تعزيزه لها.

المسالمين الذين نقتدي بهم

هذه العملية تحتاج إلى مساءلة عميقة لنظرة الشخص إلى العالم وللطريقة التي يبني فيها هذا الشخص ردوده على العالم. من نواحٍ كثيرة، يشبه هذا الأمر منطقة لا وجود لها على الخريطة يحمل الولوج فيها تداعيات مخيفة. ولعل بعض ما يجعل روايات النزاع مغريةً هو وضوحها في تحديد اللوم الأخلاقي، إذ أنها تعتمد فلسفة

بسيطة وواضحة هي: « أنت على حق وهم على خطأ ». وهي فلسفة تمكنك من تبرير كثير من التصرفات التي تعتبر غير سليمة ولا يمكن التفكير بها، خارج إطار الحرب. ضمن هذه الأدغال الأخلاقية، يصبح مهماً أن نجد أصواتاً تمتلك سلطة أخلاقية تساعد في إرشادك إلى الطريق. بالنسبة لي كانت هي السلطة هي يسوع المسيح ونلسون مانديلا.

بعد انتخابات إبريل/نيسان 1994 بوقت قصير، عقد منتدانا للشرطة والمجتمع اجتماعاً في سويتو دعا إليه الفئات المتعارضة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلتقي فيها أناس ظلوا يخوضون نزاعاً عنيفاً ضد بعضهم البعض، لحضور مهرجان مشترك والاحتفال بنجاح الانتقال إلى الحكم الجديد. لهذا، كان من المهم إبراز الرموز الجديدة مثل العلم الجديد والنشيد الوطني الجديد. كان الرئيس مانديلا مدعواً ليكون ضيفاً خطيباً. كانت هذه أول مرة أنشد فيها النشيد الوطني، وهو خليط من نشيد فترة التمييز العنصري ونشيد حركات التحرير. ورغم التزامي الشديد بالنقلة الوطنية التي حدثت، بقيت حتى تاريخ اليوم غير قادرة على ترداد نشيد حكم التمييز العنصري، بل وكنت أفضل أن أبقى واقفة بصمت حتى يحين وقت نشيد ولائي. كنت أقف في ذلك المهرجان على مقربة من مانديلا ورأيته يغني النشيد بكامله، وقلت لنفسي: إذا كان مانديلا يستطيع أن يفعل ذلك فأنا أيضاً أستطيع. ومنذ ذلك الوقت صرت أنشده بكامله.

إن قدوة مثل هذه تمنحك الإلهام عندما تشعر أنك لم تعد قادراً على الفهم أو على الغفران. ماذا سيفعل المسيح في مثل هذه الأوضاع؟ كانت فلسفته في الغفران ومعاملة العدو، تحمل إرشادات هامة أتاحت لي الفرصة لتجاوز مرارتي وغضبي خلال علاقتي مع الكولونيل فان دير ميروي.

هناك ناحية أخرى تتعلق بدور القدوة وتتمثل في قدرتك على أن تكون قدوة للآخرين. وأمام العمل المشترك الذي كنا نقوم به أنا والكولونيل فان دير ميروي، كان المشاركون معنا يدرسون تفاعلنا بحذر واهتمام. وفي النهاية كان نجاح مشروعنا مرتبطاً

بشكل مباشر بنجاح تفاعلنا. وعبر عملية المصالحة بيننا، استطعنا أن نقدم مثلاً عن التعاون الناجح لمشاركين في برامج أخرى. وكانت هناك أوقات عديدة استطاع فيها أحدنا إقناع المشارك بالاستمرار في العملية لأننا ظهرنا بمظهر العازمين على استمرارها.

الحكمة: مع انتهاء روايات النزاع الموجودة، يظهر تحدي التصنيفات الجامدة السابقة للصحيح وللخطأ. وهذا بدوره يؤدي إلى وضع من الارتباك وإعادة تقييم شخصية للمسلكيات التي كانت مقبولة سابقاً، وهنا يسهم دور النموذج في إرشاد الأفراد للسير في طريق إعادة البناء.

لا اعتذار أبداً

طوال مدة محادثاتنا، لم يقم أي منا، سواء أنا أم الكولونيل فان دير ميروي بتقديم أية اعتذارات عن أعمالنا أو عن جماعتنا أم عن قضيتنا. فلم أطلب منه شيئاً من هذا القبيل ولم أكن أرغب بالطبع في إعطائه مثله. وفي الحقيقة لم تستخدم بعثة المصالحة والحقيقة معياراً مثل هذا أبداً للعفو، بل كان معيار العفو، يتضمن الكشف الكامل عن النشاطات وإثبات القدرة على العمل ضمن جدول أعمال سياسي.

وتشكل هذه الناحية تعارضاً مع نظريات المصالحة بين الضحية والمعتدي، والتي تتطلب من المعتدي أن يعترف بالأذى الذي تسبب به من أجل تحريك عملية المصالحة إلى الأمام، أما في الظروف التي يستمر فيها النزاع، فإن التمييز بين الضحية والمعتدي يصبح غير واضح فكل جهة تعتبر في الوقت نفسه ضحية للعنف وناشرةً له. وضمن هذا التحرك، تبرر كل جهة اعتداءاتها على الجهة الأخرى بأنها ردود شرعية على انتهاكات ظالمة. لذا لم يكن أي منا يعتقد بأن نشاطاتنا التي بذلناها لتعزيز قضايانا، كانت خاطئة، واحتفظ كلانا برواياته عن النزاعات، من أجل تبرير ذلك.

إذن، كيف وصلنا إلى نقطة المصالحة؟ المهم في الأمر أن كلاً منا كان قادراً على إدراك أن نشاطه حتى تلك النقطة ترك عواقب غير مرئية على الآخر. وقد تطلب منا هذا الإدراك أن يدخل كل منا إلى عالم الآخر من أجل تفهم روايته التي كان قد

وضعها، وبالتالي من أجل الاعتراف بأننا لو عكسنا أدوارنا في تلك المرحلة، لتصرف كل منا بشكل مشابه. ووسط تلك العملية، اختبرت ذلك الإحساس العميق بالاعتراف بي كإنسان تبع اختيارات شرعية في ردّه على وضع غير قانوني. كان هناك خطأ رفيع في تحملي مسؤولية أعمالي، حتى ولو لم أبدِ أي إحساس بأنها كانت أعمال سليمة ضمن ذلك السياق.

الاعتراف بالمسؤولية يختلف عن اعتقادنا بأن أي منا كان على خطأ، فأن اعتبر نفسي مخطئة، يعني أن أستنكر حياتي ووجودي حتى تلك النقطة واعتبرهما بلا معنى أو في أحسن الحالات، أعتبر نفسي مضللة. أما اعتقاد الكولونيل بأنه على خطأ، فقد كان يعني تحويله إلى إنسان مثير للشفقة، بدلاً من إنسان له قناعات قوية ويملك شجاعة وضع معتقداته موضع التنفيذ. مثل هذا القاسم المشترك بيننا، كان يعني أننا كنا جاهزين للتخلي عن حياتنا من أجل شيء نؤمن به. كان يمكن أن أحترمه لهذا وكذلك كان يمكنه أن يحترمني أيضاً.

الدروس المستفادة: قد لا تأتي الرواية المشتركة نتيجة لمشاركة الآخرين، بل يمكن أن يتم فهم تلك المشاركة على أنها عملية خلاقة مشتركة يكافح فيها الأفراد لكي يتجاوزوا بأفكارهم حدود الرواية الموجودة. إذ أنه حين يعترف الطرف الآخر بك، ترى أنت نفسك من منظور الطرف الآخر، تصبح الاعتذارات غير ضرورية. مثل هذه المشاركة الإيجابية مع الطرف الآخر، تشكل أساساً لإعادة صياغة الفرد وبالتالي صياغة روايات جماعية.

أنسنة الآخر

كان كل منا، أنا والكولونيل فان دير ميروي، محاربين من أجل قضية.

وخلال تنقيبنا عن الأسباب التي جعلت كلاً منا يتخذ مثل هذا الموقف، شعر كل منا بإحساس بالولاء للوطن. وقد أتاح لي هذا الإحساس المشترك بإدراك أن المواقف التي اتخذناها كل على جانبه، أصبحت مسألة مكان وتاريخ ومنظور لرؤية الحل الصحيح.

فمع انتقال جنوب إفريقيا إلى وضعها الجديد أدرك كل منا أن الوقت قد حان للتعايش معاً عل نفس الأرض وأن محبتنا المشتركة لبلادنا هي التي دفعت بنا إلى المصالحة.

بطريقة غريبة، يتقاسم الجنود عهد الشرف والولاء الذي يربطهم ببعضهم البعض، حتى وهم يواصلون ممارسة العنف في سبيل قضيتهم. كان هذا الإحساس بالولاء والشرف هو ما لمسته في الكولونيل دي ميروي، وقد أتاح لي هذا الإحساس فرصة لرؤية نفسي في الآخرين. فلو لم يكن الكولونيل يؤمن تماماً بما فعله، لكان من الصعب جداً عليه أن يتقبل فكرة أن ما فعله كان بلا معنى.

ورغم شكي بدوافعه في اللقاء الأول، إلا أني قدّرت فيه صدقه، إذ أعطاني هذا الصدق فكرة عن الشخص الذي أتعامل معه. وكان هذا الصدق المتواصل فيه هو الذي شجعني على المغامرة بسؤاله عن ماضيه. كما أن رغبته وقدرته على وصف تجربته بشكل كافٍ من أجل أن أتفهمها، كانتا أساسيتين في إعطائي القدرة على عدم أخذ موقف دفاعي في علاقتنا الشخصية مما سمح للصداقة بأن تنمو بيننا. كانت عوامل الصدق، والمواجهة والرغبة في المغامرة، عوامل أساسية في قدرتي على تقاسم المعلومات الكافية التي أهّلتني لإعادة صياغة الروايات.

الحكمة: تصبح المصالحة أسهل عندما يستطيع الطرفان تحديد الإحساس المشترك وراء دوافعهما. مثل هذا الإحساس يعطي الخيارات وجهاً إنسانياً من قبل الطرف الآخر، حتى ولو لم يكن هذا الطرف يتفق معها.

الدمج

نتج عن التفاعل مع الكولونيل فان دير ميروي تحول شخصي عميق انعكس في إعادة بناء روايتي. فقد تغيرت من عدة نواحٍ عميقة وذات معنى، وتطلب مني هذا الأمر فيما بعد أن أعيد دمج نفسي في مجموعتي الأساسية بطريقة تستوعب هذه الرواية الجديدة. لم أكن أستطيع أن أسامح الكولونيل فان دير ميروي على أعمال لو كان هذا

الأمر سيكلفني إخراجي من مجتمعي، لذلك كان هدفي أن أدفع أعضاء مجموعتي لتقبل كون هذا التغيير في روايتي شيء حقيقي حتى ولو كان تقبلهم محدوداً نوعاً ما.

الدرس هنا هو «إن دمج الروايات التي يعاد بناءها يحتاج أن يتم على المستوى الفردي وعلى مستوى المجموعة أيضاً».

الخلاصة

خلال تجربتي مع الكولونيل دي ميروي، لم أكن قد استكشفت بعد أي قراءات حول وجهة النظر الاجتماعية البناءة للنزاعات ولا اختبرت أية مقاربات إيجابية لحلها. ولدى استخدامي لتلك المقاربات الآن، أصبحت أشعر بانعكاساتها على تجربتي الشخصية والمهينة، وأصبحت أواجه عدة أسئلة مهمة.

أكثر الانتقادات المعروفة للقراءة الاجتماعية البناءة للنزاع تتمثل في كونها تميل نحو النسبية الأخلاقية في تفسيرها للعلاقات والأحداث. وينظر إليها على أنها تتجاهل الأنظمة البنيوية والمؤسسية الموجودة والتي هي بطبيعتها غير عادلة وغير أخلاقية، ولذا فهي تستنكر أو تنفي أية مسؤولية للأفراد في إيجاد تلك الأنظمة والحفاظ عليها. مثل هذا النقد يخاطب مباشرة مسألة السلطة أو القوة وتأثير التوزيع غير المتساوي لهذه القوة على الحقائق الموضوعة وعلى الذين أوجدوها.

وبين طيّات هذا الهم يبرز السؤال حول دور المقاربات الإيجابية للنزاعات. من السهل تفسير فكرة « الإيجابية » على أنها دفاع عن تجنب ما هو سلبي، أو الطلب من الناس بأن يركّزوا على تلك النواحي من تجربتهم التي تعتبر جيدة. ولكن الخشية هي أن يؤدي هذا الأمر إلى تجاهل الألم والضرر اللذين لحقا بمن عانوا من هذه النزاعات، وما يتبع هذا التجاهل من إنكار للنفس. جوهر الأمر هو الاهتمام بالعدالة وبالاعتراف بأن النزاع غالباً ما يأتي نتيجة عدم المساواة ونتيجة انتهاكات حقوق الإنسان التي تتطلب الاعتراف بها ومواجهتها مباشرة.

وعندما ندخل في عملية المصالحة بين الأعداء السابقين، تصبح هذه الهموم أكثر جسامةً بسبب الطبيعة المتشددة للعلاقات السابقة. أحد الردود على هذه الانتقادات هي سحب سياق العملية من عالم الأفراد إلى عالم طبيعة علاقات النزاعات. فالمصالحة بجوهرها تدور حول رأب الصدع وتجديد العلاقات التي دمرتها النزاعات. وهذه العملية تتم على عدة مستويات هي:

علاقة الفرد مع نفسه، وعلاقة الفرد مع الجماعة، وعلاقة الجماعة مع غيرها من الجماعات، وأخيراً العلاقة بين الناس والنظم والبنى الاجتماعية.

تتطلب عملية إصلاح العلاقات مشاركة أصيلة وعميقة مع التجربة المعاشة، وهي مشاركة لا يمكن أن تحصل إذا ما تجاهلنا التجارب المهمة أو إذا وافقنا فقط على أن لا نتفق. كما تتطلب العملية أيضاً من المشاركين أن يبتعدوا عن لعب أدوار «الضحية والمعتدي» أو الضعيف والقوي، ويتحولوا إلى أدوار «الخلق المشترك» . وهذه النقلة محفوفة بالمخاطر التي تتسبب بها الظروف الخارجية إضافةً إلى الوعي الداخلي. ويلعب ممارسو حل النزاعات دوراً محدوداً في هذه النقلة. فالأمر في النهاية هو في يد المشاركين إذا أرادوا أن يتابعوا هذه الرحلة ويحددوا نتائجها، وضمن هذا السياق، تبرز أهمية مساهمة القراءة الاجتماعية البناءة للنزاع ومقارباتها الإيجابية.

وبالعودة إلى تجربتي الشخصية التي عشتها. فقد ترعرعت في جنوب إفريقيا خلال فترة حكم التمييز العنصري والتي كانت في ذلك الوقت تشكل سلسلة معقدة من الأنظمة الاجتماعية والقضائية والسياسية. وقد عملت هذه الأنظمة على صياغة حقيقتي، ولم يكن هناك أي مجال لتجاهلها أو لتهميش نفوذها على حياتي. فقد غزت هذه الأنظمة والناس الذين وقفوا وراءها كل جانب من جوانب معيشتي اليومية ووضعت الفرص أمامي في هذا العالم. وأصبح التحدي هو السؤال التالي: كيف ستكون علاقتي مع هذه القيود الاجتماعية والسياسية الكبرى؟ كجماعة تعيش وسط هذا الوضع، كنا نؤمن برؤية خاصة جداً، تختلف تماماً عن تلك التي نعيشها. وقد

اخترنا أن نعيش على أساس أن هذه الرؤية التي نملكها هي الحقيقة وعلى تقبل عواقب ذلك الخيار دون أن نتزحزح عن التزامنا.

وقد شكل هذا الأمر نظرتي إلى القوة. فالقوة شيء حقيقي يأتي في عدة أشكال. والمصدر الأعظم للقوة يكمن في خياراتي الخاصة المباشرة وفي كيفية إظهار هذه الخيارات في علاقتي مع الأحداث ومع الناس حولي. لذلك عندما ووجهت بالكولونيل فان دير ميروي، ووجهت بتحدٍ في أعماقي لكي أحيا ضمن رؤيتي الإيجابية للمستقبل من خلال المشاركة وتغيير علاقتي مع الماضي الذي عشته ومع دوره في صنعه.

وهذا الموضوع يقودني إلى الاكتشاف الثاني الذي أتاح لي فرصة لإجراء المصالحة ورأب الصدع. فتاريخنا ليس تاريخاً ثابتاً ونحن نكتب الأحداث ونعيد كتابتها لنخرج بروايات تحمل معنى في الظروف الحالية وتعطي معنى لحياتنا. والمصالحة تعطي الفرصة للإنسان لإعادة رؤية تاريخه في حضور الطرف الآخر، ولإخراج كل من الطرفين من أي مضاعفات سلبية، وتعيد توحيدهم. كما يعطي التسامح لكل إنسان، سواء أكان شخصية أم معتدياً، القدرة على الانفتاح على مستقبل خالٍ من دائرة العنف والانتقام، ويتم هذا من خلال إبراز الوجه الإنساني للعدو وإصلاح إنسانية الشخص نفسه. وتبرز في صلب هذه العملية الإنسانية، مسألة مراجعة منظورات الشخص للطرف الآخر باعتباره شراً وأذى. ويمكن إحداث هذا الأثر عندما ندخل في الرواية الجديدة للأحداث نبضاً إيجابياً. وفي حالة العلاقة بيني وبين الكولونيل فان دير ميروي، كان هذا النبض هو الرغبة في رؤية مستقبل موحد لجنوب إفريقيا ولهوية جماعاتنا على وجه الخصوص.

أين هو موقع العدالة في كل هذا؟ هناك العديد من التصورات المتعلقة بالعدالة. وهذه الأخيرة بالنسبة لي هي المستقبل الذي يتطلب الشفاء من الظلم السابق، وشحنه بأفكار حول مستقبل أفضل. والعالم العادل هو العالم الذي يعاد فيه تنظيم العلاقات،

ونعمل نحن فيه بطريقة تبني عالماً يتمتع فيه الفرد بكامل إنسانيته. وهذا المفهوم للعدالة يتجذر في الفكرة الإفريقية المسماة يوبونتو – والتي تقول أن البشر هم بشر بسبب وجود بشر آخرين. والعيش مع مفهوم اليوبونتو، يدفع كلاً منا لإعادة ترتيب علاقته مع الآخرين وإقامة بنى اجتماعية وسياسية واقتصادية عادلة. لذلك فمفهوم العدالة لا يتصل كثيراً بالعقاب بقدر ما يتعلق بالمسؤولية. وهو لا يعني عقوبة بقدر ما يعني مصالحة، وأقل صلة بردود الفعل منه بالفعل المسبق. فالعدالة هي خلق مشترك يولد من حياتنا وخياراتنا اليومية التي نتشبث بها بشجاعة وشهامة من أجل بناء مستقبل جدير بطموحاتنا.

وأوجز هنا ردي الشخصي على منتقدي النظرية الاجتماعية البناءة في حل النزاعات ومقارباتها الإيجابية، من خلال هذه الكلمات لكارل يونغ:

> معظم المشاكل الكبيرة والأكثر أهمية في الحياة، لا يمكن حلّها ولكن يمكن إيقاف نموها... إذ تظهر في الأفق اهتمامات أوسع للناس، ويؤدي هذا التوسع في المنظور إلى أن تصبح المشاكل التي لا حل لها مشاكل غير ملّحة. أي أن هذه المشاكل لم تحل منطقياً ضمن شروطها الخاصة ولكنها ذوت عندما واجهتها احتياجات حياتية أجدد وأقوى وأكثر إلحاحاً. (1938، كما ذكرت في ستور 1999، ص 533).

إن إيقاف نمو المشاكل كما يقول يونغ، يحتاج إلى مستوى جديد من الوعي. من وجهة نظر معينة، يمكن فهم قصتي ببساطة على أنها قصة مسلية لشخصين ضمن صورة أكبر. وفي هذا الصدد يمكن للدروس المستفادة منها أن تطبق فقط على الأوضاع التي تنطوي على تحركات مشابهة مثل الأوضاع التي وصلت فيها النزاعات إلى نقطة الحل، أو التي يرغب فيها أطراف النزاع بمشاركة بعضهم البعض أو تلك التي يسعى فيها الطرفان لمشروع مشترك أو عوامل خاصة أخرى.

من وجهة نظر أخرى، تبدو قصتي وكأنها تظهر منظوراً أوسع وأكثر شمولاً، ويتعلق بكيفية تعزيز الإحساس بالأمل ورأب الصدع من خلال مشاركة إيجابية

وأصيلة مع الطرف الآخر. بالنسبة لي، تبقى الدعوة الكبرى هي تفهم أن المصالحة ورأب الصدع هما أمران يمكن تحقيقهما بغض النظر عن الظروف الخاصة والتاريخ. وهذه الدعوة تكتسب تأثيراً أكبر من خلال الحقائق الموجودة على الكرة الأرضية والمتعلقة بعدم المساواة في مجالات العلاقات والبنى. وهي دعوة تصبح أكثر ضرورة مع استمرار تزايد الخيارات للسعي نحو شنّ الحروب.

مراجع :

Cobb, Sara. 2002. Abstract of "Talking Transformation: Narrative Evolution in Conflict Processes." Paper presented at a meeting at the University Of Arizona Department Of Psychology (April), Tucson, Arizona.

Jung, Carl C. 1938. "Commentary on 'The Secret of the Golden Flower'." CW 13, paras 18 and 70.

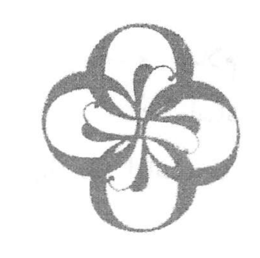
Lederach, John Paul. 1995. *Preparing for Peace: Conflict Transformation Across Cultures.* Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press.

Storr, Anthony 1999. "Is analytical psychology a religion? Jung's search for a substitute for lost faith." *Journal of Analytical Psychology 44, pp.* 531—537.

رحلة الاكتشاف الحقيقية تنطوي على بناء رؤية
جديدة وليس على البحث عن مجالات جديدة

مارسيل بروست





الفصل الخامس عشر

تجاوز الأزمة

اكتشاف الموارد للشفاء من المحنة وتحقيق التطور بعدها

نانسي غود سيدر

تشكل المقابلات التقديرية التي تم إجراؤها مع صنّاع السلام ممن عاشوا المعاناة ونجوا منها، سياق هذا الاستكشاف لرأب الصدع والنمو الذي يعقب وقوع الأزمة. ويقدم الكاتب في هذا الفصل مقاربة لمقابلات تقديرية قابلة للتكيف وتوازن بين الحاجة للاعتراف بتجارب المعاناة وبين الحاجة الأخرى المساوية لها في الأهمية وهي تحديد مصادر القدرة على التكيف والنمو التي يحتاجها الأمر من أجل تجاوز الضرر ولأم الجراح. ويعرض الفصل نتائج المقابلات في سياق أوسع عبر النظر إلى التحولات التي تجري باتجاه اتباع مقاربات إيجابية وقائمة على القدرات في مختلف الميادين. كما يعرض الفصل أيضاً تطبيقات هذه المقاربات في العمل الجاري لرأب الصدع ولأم الجراح وهو عمل يُعرف باسم التطور الحاصل بعد الصدمة. ثم يستكشف الفصل المقابلات التي أجراها صُنّاع السلام من أجل التبصر في العمليات والمواد اللازمة لتجاوز الصدمة. وبفعله هذا، يبرز أهمية المقابلات التقديرية من حيث كونها أداة اكتشاف أساسية في استعادة قصص تجاوز الصدمات وتوسيع لغة الأمل وتعزيز المساعي لرأب الصدع والتطور بالنسبة لكل من الناجين والمهتمين بالأمر.

*

قابلت حديثاً، السيدة سوميتاغوز، وهي سيدة من الهند وأم لمراهقين، اختُطف زوجها من قبل مجموعة مسلحة. وحين كنت أقابلها بعد خمس سنوات من اختطاف

زوجها ورغم عدم علمها بمصيره حتى الآن، إلا أنها ظلت تتبنى رؤية صنع السلام والتنمية التي تقاسمتها مع زوجها لمدة 12 سنة. وحين تستذكر سوميتا مأساة الاختطاف، تدرك أن موارد التطور ولأم الجراح التي كشفت عنها هذه المأساة قد أتاحت لها الاستمرار في عملها هذا.

مثل آخر عن صانعي السلام هو سام غبيايدي دو الذي تعرض للتهديد لدرجة اضطر معها أن يختبئ ثم يغادر وطنه ليبيريا. وقد اختار سام أن يعيش فيما يسميه « الغضب الرحيم » وهو ينظر إلى عدوّه على أنه الرجل الذي يحب أطفاله بدلاً من أن ينظر إليه كرجل قتل أطفالاً إفريقيين آخرين. وبينما كنت أقابل أشخاصاً مثل سام وسوميتا، اكتشفت قصصاً تحمل الموضوعات نفسها، ففي وسط المأساة وفي أعقابها، يملك الناس موارد للأم الجراح والخروج منها.

يمثل سام وسوميتا كثيرين من صنّاع السلام الذين خاضوا تجربة المعاناة في حياتهم ولكنهم بعد ذلك وعبر عملهم في صنع السلام، خاضوا تجارب معاناة أخرى من خلال الإصغاء لقصص الآخرين. ومع ذلك وجدوا طريقهم في تجاوز هذه المحنة. كيف تم ذلك؟ كيف يقاوم سام الردّ العنيف والانتقام ممن هددوا حياته؟ كيف يستمر في العودة إلى تلك النزاعات العنيفة المحتدمة من أجل أن يغيرها؟ لماذا ترفض سوميتا البقاء آمنة ضمن قصة الضحية التي تحياها وبدلاً من أن تسعى إلى الانتقام تستمر في دعم المجتمع والمنطقة التي خطف منها زوجها. كيف استطاعت كسر دائرة الضحية ورفضت أن ترد الاعتداء بنفسها؟ إن هذين الممثلين لصنّاع السلام اختارا طريقاً آخر.

هذه النوعية من الأسئلة هي التي دفعتني إلى إجراء البحث وحملتني على إجراء المقابلات مع سوميتا وسام وأشخاص مثلهم. لماذا لا ترد الضربة أو تستسلم بكل بساطة. لماذا يكتم هؤلاء غضبهم وحزنهم الذي يشكل الرد الطبيعي كما هو معروف على أي معاناة أو تجربة غير طبيعية؟ كيف يمكنهم الاستمرار في حياتهم بروح الرحمة والتسامح، ويتجاوزون معاناتهم؟ ولماذا إذن يختارون مهنة صنع السلام وسط

النزاعات العنيفة ويعرضون أنفسهم لسماع تجارب الآخرين وللإجهاد النفسي المترتب عن ذلك؟ .

يقول الطبيب النفسي، فيكتور فرانكل، وهو أحد الناجين من سنوات الاعتقال في معسكرات النازية بأنه غالباً ما يسأل مرضاه: لماذا لا تنتحرون؟ قد يبدو السؤال فظّاً وجافاً كي تسأله لإنسان يعاني من ألم وضياع. ولكن فرانكل يستخدم السؤال ليكتشف موضوعاً لعلاجه النفسي. فهو يؤمن بأن الناجين حين يجدون بعض المعنى في معاناتهم وفي تعاستهم، يصبح بإمكانهم النجاة والاستمرار. وفي شرحه لهذه المقاربة، يقتبس فرانكل غالباً من المفكر الألماني فريدريش نيتشة حين يقول: من يعرف لماذا يعيش يمكنه تحمل كيف يعيش.

وفي معرض بحثي عن « لماذا » و« كيف »، استخدمت نموذج المقاربة التقديرية لمقابلة عشرة من صنّاع السلام الذين تحملوا تجربة الألم الأولى في قصتهم وتجربة الألم الثانية في سماعهم قصص الآخرين. وقد كشفت هذه المقابلات من خلال قصص معاناتهم موارد يستطيع هؤلاء أن يطوروها ويعتمدوا عليها في تجاوز محنتهم.

ويتناول هذا الفصل مثل هذه القصص والاكتشاف ضمن سياق أوسع عبر الطرق التالية: أولاً: إلقاء نظرة موجزة على النقلات التي تتم باتجاه الإيجابية في عدة ميادين ذات صلة، وثانياً: النظر إلى التطبيقات التي أخذت تبرز لهذه الإيجابية فيما يسمى بالتطور الحاصل بعد المحنة، وبعد ذلك إلقاء نظرة عميقة على قصص أربعة من بناة السلام من أجل كسب المزيد من التبصر في العمليات والموارد التي تسهم في تجاوز المحنة إضافة إلى أمثلة حية عن الرؤى التي تعطي معنىً للحياة والتي يمكن للمقابلات التقديرية أن تظهرها.

استراتيجيات من أجل التطور الإيجابي: التقاء الميادين

حتى مدة قريبة حديثاً، ظلّ الأطباء النفسيون يركزون جلّ اهتمامهم على تحليل أسباب الأمراض ومعالجتها، وفي معرض بحثهم عن إثبات المرض، لم يعطوا سوى

اهتمام شحيح إلى طبيعة الصحة النفسية. فقد أولى هؤلاء الأطباء اهتمامهم الأوسع إلى انحرافات الناس وأوهامهم ونقاط ضعفهم وأخطائهم. وفي الحقيقة، كان التركيز على المشكلة خطوة مهمة في تحديد الصعوبات الاجتماعية والنفسية، أدت إلى أيجاد أدوات وعلاجات لتحليل المشكلة وحلّها. ولكن الأمر الذي أخذ يزداد وضوحاً هو أن الوظائف الطبيعية لبني البشر لا يمكن اعتبارها ضمن أطر مرجعية سلبية تتمحور في تركيزها حول المشاكل.

في العقود الزمنية الحديثة، بدأت عدة مدارس علاجية تركز على أهمية الأنظمة الإيجابية والباعثة للأمل في حل المشاكل والنزاعات الحياتية. وهذا الالتقاء على المقاربات الإيجابية المبنية على القدرات بدأ يظهر في ميادين مختلفة مثل علم النفس والعدل الجنائي والعمل الاجتماعي. وقد بدأ العاملون بنهج هذه المدارس بإدراك أن عملهم كان يركز بشكل عام على تشخيص المشاكل في نظام الفرد أو نظام المجتمع. ووفقاً للطبيبين النفسيين كينون شيلدون ولورا كنغ، تميل الاستراتيجيات التي تعتمد التركيز على المشكلة إلى أن تكون سلبية ورجعية في منظورها إضافةً إلى تجاهلها للنبض الإبداعي الأساسي في الطبيعة الإنسانية. ويناقش هؤلاء بأن الأطباء النفسيين قد دُرّبوا لينظروا بشك إلى الإيجابية، وأن هذا التشكك إذا ما تجاوز الحد، فقد يصبح هو نفسه نزعة سلبية تحجب الفهم الواضح للحقيقة (شيلدون وكنغ 2001، 216-217) وفي الحقيقة، يصل أغلبية الناس إلى حالة من الازدهار بحيث يعتبرون أنفسهم سعداء وراضين بحياتهم.

وفي معرض اهتمامهم بالمخاطر التي تنطوي عليها المقاربات المبنية على المشاكل أخذت أعداد متزايدة من الأطباء والمنظرين بإعادة توجيه تركيزهم على الاستراتيجيات الإيجابية والخلاقة والآملة. وفيما يلي مسح موجز لبعض الأمثلة الرائدة.

الممارسة المبنية على القدرات في العمل الاجتماعي

منذ أواسط عقد التسعينات من القرن العشرين، شهدت الخدمات الإنسانية تغييرات عديدة. وكانت إحدى الابتكارات في العمل الاجتماعي تتمثل في تطور

منظور القدرات ونموذج الممارسة. ويقول المربي والخبير الاجتماعي في هذا الحقل دينيس صليبي أن هذا المنظور، ومعه أدبيات القدرة على التكيف، يظهران بأن العاملين في الحقل الاجتماعي يمكنهم التعلم من هؤلاء الأشخاص الذين ينجون من القمع والظلم والمرض والإحباط وسوء المعاملة، وفي بعض الحالات يحققون نجاحات كبيرة في حياتهم. إذ يتوجب على العاملين في الحقل الاجتماعي أن يعلموا ما هي الخطوات التي اتّبعها هؤلاء الناجون وما هي المناهج التي اتبعوها والموارد التي استخدموها (2000، ص ص 127-136).

والمقاربة التي تعتمد على القدرات، كانت في الأصل محدودة في مجالات الأمراض العقلية الدائمة والشديدة أما الآن فهي تستخدم مع كبار السن ضمن رعاية طويلة الأمد، ومع الشباب المضطربين عاطفياً ومع عائلاتهم، كذلك مع الأشخاص الذين أسيئت معاملتهم أو على شكل خدمات وقائية للبالغين. كذلك شهد حقل الإصلاحات تطبيقات أولية لهذه المقاربة التي أصبحت بالإضافة إلى ذلك تقدم معلومات لمجالات بعيدة عن التطبيق المباشر مثل مؤسسات المجتمع، والإدارات الاجتماعية ومراكز تحليل السياسات. كما تم تطوير مواد تدريبية ومناهج للعاملين في هذا الحقل بينما أصبح الأساتذة يميلون نحو تطوير نظرية القدرات (صليبي، 1997).

علم النفس الإيجابي

خلال العقد الأخير، وسّع حقل علم النفس تركيزه على الخلل ليشمل بعض الفضول حول الصحة والتطور والإيجابية. ورغم أن شيلدون وكنغ ينتقدان بقسوة مدى جهل علماء النفس نسبياً بالنجاح الإنساني وبكيفية تشجيعه (2001، 216-217) إلا أن دانا دون وفي مراجعتها نشرة «كتيب علم النفس الإيجابي» الصادر عام 2002، ترى نجاحاً ملحوظاً باتجاه المنظور التقديري. وتقول في هذا الصدد: «إن ما ليس مطروحاً للنقاش بشكل أكيد هو نشر كتيب يؤسس لموضوعات القدرة الإنسانية والقدرة على التكيف على أنها موضوعات تدخل ضمن التيار العام. (2002، ص281).

وفي هذا الكتيب، يشرح الباحث مارتن سيلجمان وهو باحث اقترن اسمه بمصطلح « علم النفس الإيجابي » ما يلي:

> علم النفس لا يعني فقط دراسة المرض والضعف والضرر، بل يعني أيضاً دراسة القدرة والقوة. والعلاج لا يشمل فقط إصلاح ما هو خطأ بل يشمل أيضاً بناء ما هو سليم. وعلم النفس ليس مسألة مرض أو صحة بل هو أيضاً عمل وتثقيف وبصيرة ومحبة وتطور ولهو. (دون 2002، ص 580).

العدالة الإصلاحية

تم تحقيق تقدم ملموس في بعض قطاعات القضاء الجنائي بحيث انتقل التركيز من فرض العقوبة على مرتكبي الجرائم إلى إصلاح الفرد والمجتمع. وقد ذكر الطبيب النفسي جيمس غيليغان في وثائقه بأن المعالجة التقليدية لمرتكبي الجرائم عبر العقاب لا تؤدي إلى إيقاف العنف. بل تسببه، وإضافةً إلى ذلك فهي تشكل أحد أنواعه (2001، ص 18). وفي العقود الزمنية الحديثة، بدأ العديد من أساتذة الطب النفسي والأطباء النفسيين بالنظر إلى الجريمة والعنف عبر عدسة جديدة تركز اهتمامها على الضرر الذي تسببه الجرائم للفرد وللمجتمعات وللعلاقات، وتحدد القدرات والإمكانيات التي تكمن في الفرد والمجتمعات لإصلاح هذا الضرر، بما فيها تلبية احتياجات الضحايا والمجتمع. ونورد بهذا الصدد المقتطف التالي: « بدلاً من التعامل مع العدالة على أساس أنها عقاب، سوف نحدد العدالة على أنها إصلاح فإذا كانت الجرائم مسببة للجروح، فإن العدالة سوف تضمد هذه الجروح وتعجل بشفائها (زيهر 1995، ص 186، انظر أيضاً أخيل وزيهر، 2001).

التطور الإيجابي بعد المحنة

كتب فرانكل بأن التفاؤل إزاء المحنة يمكن أن يحول المعاناة إلى إنجاز بشري، وهذا ما يسميه فرانكل « التفاؤل في المحنة ». ففي معسكرات الاعتقال، على سبيل المثال، تضافرت كل الظروف لتدفع السجين إلى فقدان سيطرته على نفسه إذ انتزعت منه كل

أسباب حياته ولم يبقَ بحوزته إلا « آخر حريات الإنسان » وهي القدرة على اختيار موقفه من هذه الظروف ([1959] 1992، ص 9). وقد سمحت له هذه القدرة بالتطور الإيجابي حتى في أحلك الساعات.

في هذا القسم من الفصل، سوف ننظر إلى تطبيقات مفردات ومقابلات التطور الإيجابي في العمل وسط المعاناة، سواء كانت معاناة من تجربة شخصية أو من تجارب آخرين.

المعالجة على أساس الحل

تعتبر هذه الطريقة في المعالجة وسيلة علاجية خاصة ولدت من رحم التركيز الإيجابي على قدرات الناس وإمكانياتها. ويشجع بيل أوهانلون، وهو أول البادئين بالعمل بهذه المقاربة في كتابة « افعل شيئاً واحداً مختلفاً » (1999)، الأطباء والممرضين على مساعدة المرضى بالنظر إلى المستقبل من خلال طرح السؤال العجائبي التالي: إذا وقعت معجزة في حياتك وأزالت هذه المشكلة، ما هو الشيء المختلف الذي ستفعله وما الذي سيختلف فيك؟، مثل هذه المعالجة تشجع المرضى على نقل اهتمامهم مما يحدث إلى ما يرغبون بأن يحدث ويساعدهم على كسر أنماط المشكلة من خلال القيام بشيء مختلف.

التطور الإيجابي في التدخل بالأزمات

العديد من العاملين في معالجة الأزمات ينظرون إلى الأزمة على أنها معاناة ووقوع لضرر، إضافة إلى كونها مفصلاً لاحتمالات التطور والفرص. والناس يعالجون أزماتهم من خلال الاتصال بآخرين، فيعطون لتجربتهم معنى إيجابياً ويتخذون الإجراءات للتحرك. كما أن العديد من الناس يظهرون تكيفاً مع الأزمة ويملكون القدرة على تطوير تقدير أعمق للحياة من خلال هذه الأزمة. (اشترلنغ وآل 2003، 3) وفي الحقيقة، بدأ يظهر الآن أن التكيف هو القاعدة وليس الاستثناء في العديد من الأزمات التي تواجه الناس بغض النظر عن أعمارهم.

الأوهام الإيجابية

تنظر شيلي تيلور في كيفية امتلاك الناس لتقييمات إيجابية بعد مواجهتهم لأحداث تهددهم. وفي كتابها بعنوان الأوهام الإيجابية (1989)، تصف تايلور قدرة الدماغ الإنساني السليم على تحطيم المعلومات السلبية التي تفرزها الأزمة، بما يسمح له بإيجاد ما تسميها تايلور « أوهام إيجابية » لتساعده على التكيف.

التطور الحاصل بعد الأزمة

تبرز نتائج التطور حتى في أعقاب أكثر الظروف محنة، مما يظهر أن التوترات والتطورات التي تعقب المحنة والتي ينظر إليها على أنها متعارضة يمكنها أن تتعايش معاً. وفي اقتباسهما لعدة مظاهر تم تجميع بيانات معتمدة عنها، يكتب لورنس كالهون وريتشارد تيديشي ما يلي: من الواضح أن بعض الأفراد الذين واجهوا سلسلة عريضة من التحديات السلبية في حياتهم، أفادوا بأن كفاحهم ضد هذه الصعوبات قد خلّف آثاراً إيجابية عليهم، رغم التناقض البارز في الأمر. ولكنه الكفاح الشخصي الذي تعجّل به الاحتياجات المحيطة، وليس الأحداث نفسها، هو الذي يحرك مجموعة التغييرات التي نطلق عليها اسم « التطور الحاصل بعد المحنة ». (1998، ص 215) ويتحدى كالهون وتيديشي العلماء والأطباء العاملين في مجال معالجة التوترات أن يعيدوا مراجعة فرضياتهم ويتنبهوا بشكل منهجي إلى التطور الحاصل بعد المحنة بالنسبة لأغلبية الأشخاص الذين يعيشون المعاناة حتى قبل وقوع المحنة (1998، ص 234-235، انظر أيضاً تيديشي وكالهون 1995).

المقابلات التقديرية: منهجية ومنطق

في هذا الفصل، أعرض لكم قصصاً لأربعة أشخاص تلقي الضوء على الأسئلة التي يتم استكشافها هنا « ما هو الطريق المتَّبع لتجاوز مرحلة ما بعد الأزمة؟ وكيف يمكن للمعالجين أن يساعدوا المرضى على تجاوز الأزمة من خلال المقابلات التي تلقي

الضوء على تكيّفهم الشخصي وتطورهم ». وفي قلب هذا الاستكشاف، تقف عملية المقابلات التقديرية التي، مثلها مثل التطورات في المجالات ذات الصلة، توازن بين الحاجة لإدراك تجارب المحنة وبين الحاجة المساوية لها في الأهمية وهي تحديد الموارد اللازمة لتجاوز هذه المحنة.

السؤال الأول ماذا؟ توسيع الأسئلة

من أجل أن أستطيع استخراج هذه القصص عن المحنة وتجاوزها، اضطررت إلى توسيع مجموعة الأسئلة التي اعتاد العاملون في هذا المجال على طرحها. كما احتجت إلى صياغة أسئلة يمكنها أن تكشف النقاب عن موارد التطور ورأب الصدع الموجودة أصلاً في الفرد، حتى ولو كان الجرح ما زال فجّاً يهدد حياة الشخص بالخطر. وهذه الأسئلة تستطيع كشف القدرات والآمال الكامنة وسط حالة الضعف الظاهرة، كما تستطيع استخراج التقدير لما تبقى ولما قد اكتُسب، حتى ولو لم ينتهِ إحصاء الخسائر بعد.

هذه الحاجة لتوسيع إطار مرجعيّتي تظهر واضحة في محنة رجل يجر نفسه على جانب الطريق بعد هبوط الليل. يصل ضابط شرطة ويجد الرجل يدور حول نفسه ويتحدث لوحده تحت ضوء الشارع. يسأله الضابط ماذا يفعل ويجيب الرجل بصوت متهدج: لقد أسقطت مفاتيح منزلي بالخطأ. يحاول الضابط مساعدته في البحث عن المفاتيح ولكن بعد مضي خمس عشرة دقيقة دون ظهور أي أثر للمفاتيح يسأله الضابط: دعنا نعود خطوات إلى الوراء. أين كنت في آخر مرة كانت مفاتيحك معك حسب ما تذكر ويجيبه الرجل: آه إن هذا سهل، لقد أسقطتهم وأنا أقطع الشارع. أفعلت هذا؟ يسأله الضابط والدهشة تعلو وجهه، إذن لماذا تبحث هنا؟ ويجيب الرجل: أبحث هنا لأنه يوجد ضوء أكثر. يجيب الرجل (أوهانلون 1999، 1).

وهكذا، وفي العديد من ميادين المساعدة، نجد أنفسنا غالباً ما نبحث عن مكان تركيز الضوء بدلاً من توجيه هذا الضوء لإنارة أماكن حساسة أخرى. إن تحليلنا وتفسيرنا لوجود مشكلة لدينا يوفر لنا في الغالب طرقاً ملموسة عديدة لنتقدم في الحياة بفعالية وإبداع.

السؤال الثاني «لماذا»: لماذا نستخدم المقابلات التقديرية؟

في ميدان معالجة المحنة والنهوض منها، يمكن للمقابلات التقديرية – أو ما نطلق عليها مرحلة الاستكشاف في البحث التقديري، أن توقظ قوى الشفاء الإيجابية وتكشف النقاب عنها. وتشمل المقابلات التقديرية فن وعلم طرح الأسئلة التي تعزز قدرات الناس على إطلاق وتشجيع قدراتها الإيجابية (كوبر رايدر وآل، 2000) وإذا تحرك الناس باتجاه الأسئلة التي يطرحونها وبالاتجاه الذي يركزون عليه اهتمامهم، تؤدي صياغة أسئلة بمفردات تنم عن السلبية والآلام والضياع إلى دفع العجلة للوراء بدلاً من تحريكها للأمام نحو التطور والأمل. في حين تسهم الأسئلة التي تستخدم مفردات الأمل في إعادة توجيه الاهتمام نحو إمكانيات الشفاء والتطور التي تبرز من وسط الخسارة والضياع. مثل هذا النوع من الأسئلة يبدأ بإنارة وكشف العمليات الإيجابية والإصلاحية الموجودة والتي لا يمكن أن تظهر لولاها.

وتبين العالِمة النفسية بربارة فريدريكسون أن استراتيجيات التدخل التي تراعي المشاعر الإيجابية، تعتبر ملائمة لمنع حدوث المشاكل المتجذرة في المشاعر السلبية ومعالجها. ويضع لنا نموذجها الموسع والمبني على المشاعر الإيجابية أساساً لتطبيق هذه النظرية (2002). ووفقاً لهذا النموذج يعتبر شكل ووظيفة المشاعر الإيجابية والسلبية متميزاً ومكملاً.

> المشاعر السلبية كالخوف والغضب والحزن، تضيّق من مساحة التفكير والعمل لدى الفرد ومن إمكانياته الموجهة نحو تلك الأعمال التي تخدم وظيفته الأصلية في البقاء. وعلى النقيض من ذلك توسع المشاعر الإيجابية كالفرح والاهتمام والرضا من هذه القدرة مما يمكن المرء من بناء موارده الشخصية للتحمل والنجاة (2000).

ويحدد جيمس لوديما مدى ملاءمة المقابلات التقديرية في العملية الإيجابية والشفاء. ويقترح بأن الهدف من البحث الاجتماعي والمؤسسي يجب أن يتناول نسج مفردات للأمل تعمل كمحفزات على التحول الاجتماعي والمؤسسي من خلال توفير صور إرشادية للإنسانية حول إمكانية إقامة العلاقات والتعايش. (2000، 266).

والبحث التقديري الذي يدرك تماماً أن الأسئلة التي نطرحها تحدد ما نلقاه من نتيجة، يركز على أهمية إيجاد الموضوعات المناسبة والصحيحة للبحث. فهناك حاجة لإقامة توازن بين المفردات التي تركز على المشكلة وبين تلك التي تطلق الرؤية والأمل وتدفع إلى اكتشاف الموارد للتطور والشفاء.

السؤال الثالث «كيف» منطق التكيف مع المقابلات التقديرية

في محاولة استكشافنا لكيفية تعزيز التطور الحاصل بعد المحن، يبقى مهماً أمام الناجين بأن تتاح لهم فرصة رواية وإعادة رواية القصة المؤلمة وتذكرنا جوديث هيرمان بأن علينا أن نحث هؤلاء الذين يعانون من محنة على قول ما لا يقال كخطوة أولى ومهمة على طريق النهوض.

الشفاء من المحنة هي رحلة. والتحرك باتجاه التطور قد يختلف جذرياً اعتماداً على الأفراد والظروف. فبالنسبة للبعض، وأمام عمق المحنة وقسوتها، يعتبر البقاء على قيد الحياة أمراً فيه ما يكفي من الشجاعة، وعلى المعالجين أن يتجنبوا وضع مدد زمنية محددة لتوقعاتهم بالنسبة للتطور الذي قد يحصل بعد المحنة. كما أن على الناجين أن يرضوا بإمكانياتهم الداخلية الخاصة، إذ تكفيهم مواجهة المتطلبات الخارجية العديدة التي يضعها المعالجون للتعجيل في عملية الشفاء. ولا يجب علينا أن نفترض بأن كل شخص يستطيع أن يدخل فسحة الأمل في وقت محدد لأن عملية النهوض والشفاء هي عبارة عن رحلة، قد تكون طويلة دون أن يظهر لها ضوء في آخر النفق. (سايدر، 2001).

ومع ذلك، تتضمن عملية التحول أو تطور ما بعد المحنة، حتى مع تواصل هذه المحنة، خيارات وفرصاً عديدة للتغيير على الطريق. كما تتضمن عملية تجاوز المحنة إمكانية تجنب الوقوع في فخ الضحية والارتفاع إلى مستوى جديد من التجربة. وفي السنين القليلة الماضية، وكما ذكرنا سابقاً، أخذت الاستراتيجيات الإضافية الموضوعة للنهوض من المحنة تشمل اكتشاف موارد للتطور بعيداً عن المعاناة.

مقاربة (معاً – و). يتحدث هنري نووين عن التحرك من العداء إلى حسن الضيافة، وذلك في وصفه الحاجة إلى إفساح المجال أمام التغيير في الظروف العدائية. ويكتب قائلاً: «حسن الضيافة لا تعني تغيير الناس بل تعني توفير المجال للتغيير كي يتم» (1975، ص 71).

وكصنّاع للسلام نعمل في فترات ما بعد المحنة، يجب أن يبقى هدفنا توسيع هذه الفسحة بحيث يتمكن الناس من استكشاف الخسائر والأرباح التي تتأتى نتيجة لهذه المحنة، أي إيجاد الفسحة التي تسمح للتغيير بأن يتم.

ونحن نفعل هذا من خلال الأسئلة التي تستدعي طيفاً كاملاً من الخيارات والالتزامات الممكنة التي على الشخص أن يحددها من أجل السير في رحلته.

وفي معرض دفاعي عن المقابلات التقديرية في حالات المحنة، أنادي لاستخدام مقاربة أسميها « معاً » و « و » دون أن أحدد البحث والرواية في الإيجابيات فقط. وعلى قول المثل: « تفهم الحياة على أفضلها عندما ننظر إلى الوراء ولكنها لا تعاش إلا عندما ننظر إلى الأمام ». ومن وسط الألم، يمكن للناجين أن يتحدثوا عمّا ضاع وعما يبدو ميئوساً منه كما يمكنهم أن يستكشفوا الحاضر والمستقبل بحيث لا يحد الماضي من خياراتهم. ويبقى الهدف من المقابلات التقديرية هو إبقاء الأمل للناجين في مستقبلهم، بتوفير منظور التطور لهم دون التقليل من التأثيرات السلبية للمحنة.

ومن أجل فهم أفضل لكيفية توفير فسحة لخيارات التطور وفرصه، استخدمت المقابلات التقديرية لاستكشاف كيف ولماذا يتطور بعض الأشخاص في أعقاب المحنة. وقد كشفت هذه المقابلات التي أجريت مع صنّاع سلام واجهوا التجربة الأولى بأنفسهم ولتجربة الثانية باستماعهم لقصص الآخرين، عن قدرات يمتلكها هؤلاء تساعدهم على تجاوز محنتهم. فقد تمكنوا من كسر حلقة كونهم الضحية في محنتهم الشخصية والمهنية واختاروا أن لا يردوا الإساءة بل انطلقوا في رحلة التغيير الإيجابي (انظر الملحق من أجل الحصول على كامل إرشادات المقابلات المستخدمة في إجراء المقابلات).

لمحة عن المقابلات

ومن أجل فهم هذا التوازن الدقيق، اخترت من أجل مقابلاتي صنّاع سلام تنبهوا للجروح التي نالتهم في محنتهم واستطاعوا تقدير قدراتهم لتجاوز تلك المحنة. ولأسباب متعلقة بهذا الفصل، قمت باختيار أربع من هذه المقابلات وركزت على ذلك الجزء منها الوثيق الصلة بنقاشنا هنا. وسوف أعرض قبل كل مقابلة مقدمة موجزة عن الشخص الذي قابلته ثم ألقي الضوء على الموارد الأساسية التي مكّنته من إكمال رحلته لتجاوز محنته.

خوزي «شنشو» آلاس

لسنين عديدة، بدءاً من عام 1961، بقي خوزي «شنشو آلاس» يخدم ككاهن كاثوليكي في موطنه الأصلي السلفادور. وفي عام 1968 أصبح كاهن رعية إقليم سوشيتوتو الذي يبلغ عدد رعيته 45 ألف شخص يعيشون في قرى فقيرة معزولة. وبينما كان يعمل هناك، ساهم شنشو في عمليات إصلاح أراضٍ نُظّمت من أجل رفع وعي المواطنين المحليين للمظالم التي لحقت بهم على أيدي الحكومة. وكان هدفه إضفاء بعض الكرامة والعدالة على حياة هؤلاء الفقراء.

وفي الثامن من يناير/كانون الثاني عام 1970، قامت مجموعة شبه عسكرية باختطاف شنشو إلى الجبال وخدّرته وعذبته وتركته ملقى هناك عارياً يعاني سكرات الموت. ولكن شنشو نجا من الموت بعد خمسة عشر يوماً، وبعد ذلك تلقى دعوة من الاتحاد الدولي للمعلمين بالتحدث علناً حول محنته. ورغم الاعتداءات والتهديدات بالقتل تابع شنشو رسالته الرعوية في شوشيتوتو حتى عام 1977 حين قرر الاختباء بناءً على طلب رئيس الأساقفة أوسكار روميرو.

وخلال خمس عشرة سنة في المنفى، استمر شنشو بالعمل من أجل الفقراء في أميركا الوسطى وعبر عدة مؤسسات، وتلقى العديد من المكافآت، بينها وسام شجاعة

الضمير التي تلقاها من دير السلام عام 1991 وكان من بين الذين تلقوا هذا الوسام الأم تيريزا والدالاي لاما (آلاس 2002 أ، 2002 ب).

وشنشو متزوج الآن، ويعمل مديراً تنفيذياً لمؤسسة الاكتفاء الذاتي في أميركا اللاتينية، وهي مؤسسة غير ربحية أسسها شنشو عام 1996 وتكافح، كي تصبح شريكة في العمل من أجل العدالة الاجتماعية والسلام في أميركا الوسطى من خلال توفير الأدوات التي يحتاجها السكان المحليون لبناء مستقبل مستدام لهم ولأطفالهم (آلاس 2002 ب. انظر أيضاً الفصل 5 من هذا الكتاب).

وفي حديثه عن المحن التي عانى منها، أخبرني شنشو أنه استطاع أن يدرك إمكانية أن يشلّه داء الخوف، وقال: إن هذا الخوف يكمن في نفسك وفي جسدك، وخاصة ذلك الجزء الخامل منه والأعمى الذي يجعلك تردّ دون تفكير ويقول شنشو أنه من أجل أن يمنع الخوف من السيطرة عليه، تذكر نصيحة مدرب الطيران الذي كان يعلمه قيادة الطائرات الصغيرة حين كان يقول له دائماً: إذا وقع حادث وبقيت حياً عليك أن تسيطر على خوفك فوراً. ابحث عن طائرة صغيرة أخرى وطر بها فوراً وإلا فلن تطير أبداً لأن الخوف يسيطر عليك. لذلك يقول شنشو قمت بتطبيق هذه النصيحة إثر حادثة اختطافي (آلاس 2002 أ).

سوميتا غوز

بعد نيلها شهادة الماجستير في الاقتصاد بقليل، تخلت سوميتا غوز عن خططها للعمل في مجال الإعلان في المدينة الكبيرة ورحلت مع زوجها ساجوي ليعملا مدة ثماني سنوات كناشطين في مجال التنمية بمنطقة راجستان الريفية في الهند. لم تستطع سوميتا التغلب على الاضطراب الذي شعرت به في داخلها وهي ترى الظلم والجور حولها، مثل سكان الأرصفة والعنف في الأحياء الفقيرة وسوء معاملة النساء والظلم الذي يعانونه.

وفي عام 1996، ذهبت سوميتا مع زوجها سانجوى وطفليهما ضمن فريق صغير من عُمّال التنمية للعيش والعمل على جزيرة آسام النهرية. وكان المنطق الذي دفعهم

للذهاب إلى هناك يتلخص في أن الناس إذا وجدوا تعبيرهم في أعمال التنمية البناءة فسيشكل هذا لهم فرصة أفضل للسلام والتقدم. ولكن، وبعد مرور سنة ونيف على بدء العمل، اختطفت جماعات عسكرية زوجها. ومضت خمس سنوات منذ ذلك الحين وحتى كتابة هذا المقال وما زال سانجوي في عداد المفقودين.

مرت فترة توقف فيها عمل سوميتا ولكنها في السنين الأخيرة وبعد فترة من البحث عاودت العمل في مجال التنمية وتبني قضايا الناس، وقامت بكتابة عدة مقالات، أعقبتها بكتاب عنوانه آسام سانجوي (غوز 1998 ب). وتعمل حالياً كمنسقة عليا لبرنامج يتعلق بالجوع في الهند ويتضمن عملها تعزيز القيادات النسائية الهندية التي تم انتخابها للمجالس القروية.

وبعد أن عاشت نتائج محنتها، تقول سوميتا أن عالمها تحطم بعد اختطاف سانجوي وظلت تشعر لمدة سنة بأنها مهزوزة عاطفياً. فقد ظل الإرهابيون يمطروننا بأنباء متناقضة سواء عن جهل أو عن قصد بالأذى. وانقلب عالمنا رأساً على عقب من عدة نواحٍ. ويكفي أنها من الناحية الشخصية ظلت تشعر بالألم، ألم فراق زوجها وألم ناتج عن عدم معرفتها بما حصل له.

ولكن سوميتا تشدد مرات ومرات على أهمية الخروج من الأعراض التي ترافق كونها ضحية لأن هذه الأعراض تمنعها من التطور ومن العيش. كما أنها قد تؤدي إلى تدهور الوضع وتدهور النفس (غوز 1998 أ) وترى سوميتا في عقلية الضحية سبباً رئيساً في تواصل دائرة العنف.

سام غداييي دو

غادر سام غداييي دو ليبيريا إلى سراليون وهو ما زال في رحم أمه، وكانت أمه قد قررت الذهاب للعيش مع أخيها في سيراليون بعد أن حصل الطلاق بينها وبين والده. وفي عمر السابعة، عاد سام إلى ليبيريا مع والدته ودرس بعدها مادة إدارة الأعمال في جامعة ليبيريا.

اندلعت الحرب الأهلية في ليبيريا. وفي عام 1993 تعرضت قرية سام للتدمير، وقتل أعمامه وأقاربه خلال هجوم وقع على القرية واضطر سام إثر ذلك لمغادرة ليبيريا مرة أخرى عام 1996، ومرة أخرى عام 2002 بسبب التهديدات التي تلقاها من وحدة مكافحة الإرهاب التابعة لحكومة ليبيريا. خلال تلك الفترة كان سام قد درس في جامعة إيسترن مانونايت في الولايات المتحدة وحاز على شهادة ماجستير في علم تحويل النزاعات. واليوم يعمل سام مديراً تنفيذياً لشبكة غرب إفريقيا لبناء السلام التي كان هو مؤسسها، ومقرها مدينة أكرا في غانا. وتقدم المؤسسة خدمات تدريبية وتنسيقية من بين أكثر من 125 منظمة للسلام والعدالة في أربع عشرة دولة من دول غرب إفريقيا (دو 2002، انظر أيضاً الفصل الثامن من هذا الكتاب).

يقول سام في معرض استذكاره للأعمال الوحشية التي شهدها وتحملها في ليبيريا وكصانع للسلام في بلدان أخرى مزقتها الحروب، بأنه أدرك خطر الوقوع في فخ الخوف. وهو خوف يبقيه في دائرة الضحية ويدفعه إلى السعي وراء الانتقام. ويضيف قائلاً: « نعم يمكنني أن أتصرف كضحية ولكنني لا أستطيع أن أكون كذلك فأن تكون ضحية يعني أن تكون لا حول لك ولا قوة. وأمام هذا الواقع، أحاول أن أفكر كيف أسير إلى الأمام ». أدى الدمار الذي وقع خلال الحرب إلى نقل تركيز سام من دراسة الاقتصاد والمال إلى دراسة العلوم الإنسانية أي كما يقول سام « الآن أفهم من نحن كبشر وما هي الإمكانيات التي نملكها في بناء علاقاتنا ومجتمعاتنا. وهذا هو الطريق الذي أقوم باستكشافه على مدى الإثنتي عشرة سنة التي مرت ».

سوزان راسل

حتى وهي بعد طفلة، ذاقت سوزان راسل تجربة المعاناة حين سُلّمت للتبني في الشهر السادس من عمرها. ترعرعت سوزان في بيت أهلها بالتبني حتى عمر الخامسة. وفي عام 1992، عندما كانت تعيش في فيرمونت بعد بلوغها سن الرشد، اختُطفت من قبل رجل مجهول لم تكن تعرفه وقد قام الرجل بالاعتداء عليها واغتصابها ثم تركها

لتموت في منطقة موحشة ونائية. كانت سوزان قد تدربت في السابق كعاملة فنية في طب الطوارئ وقد أدركت عندما استفاقت أنها بحاجة إلى عناية فورية وتقول سوزان أنها تعتبر ما حدث معها عندما نهضت من غيبوبتها بمثابة أعجوبة وذلك حين شاهدها جمع من المراهقين الذين جاءوا ليقيموا مخيمهم في تلك المنطقة حيث طلبوا الإسعاف فوراً. وبعد مضي عشر سنوات على هذه الحادثة، تؤكد سوزان أنها لم تنجُ فقط من محنة محاولة قتلها بل نجت أيضاً من النظام الجنائي العدلي الذي زاد من إحساسها باليأس لفشله في تلبية احتياجاتها كضحية حين استمر المجتمع في إلقاء اللوم عليها كضحية. فقد كان العنف يتفاقم حينها دون وجود أي نهاية منظورة له (راسل، 2002 أ).

ومنذ تلك السنة، عملت سوزان كمحامية للضحايا وهي تعمل حالياً كمستشارة جنائية عدلية في وارن بولاية فيرمونت. وقد تمت دعوتها عدة مرات للتحدث حول موضوعات تتعلق بالقدرة على النجاة، وحقوق الضحايا والعدالة الإصلاحية وإعادة تأهيل المعتدي في المجتمع. وتؤكد سوزان أنها منذ أن عانت من تلك المحنة، ظلت توجه عاطفتها بإصرار على إسماع صوت الضحية. وينصب تركيزها الرئيسي في عملها كمدافعة عن حقوق الضحايا على دفع آخرين وخاصة هؤلاء الذين يعملون مع المعتدين إلى تعلم وتقدير تأثير العنف على حياة الضحايا. وحلم سوزان اليوم هو أن يبدأ القائمون على العدالة الجنائية بإدراك بأن ضحايا الجريمة هم الخبراء حين يصل الأمر إلى حقوق الضحايا والخدمات التي يجب أن تقدم لهم فهم الذين يعرفون ما هو الأفضل لهم (2002 أ).

اكتشافات ومنظورات مكتسبة من المقابلات

بينما ننظر الآن بتعمق أكبر إلى تلك المقابلات، تظهر لنا عدة موضوعات يمكن أن تسلط الضوء على الموارد والعمليات المتعلقة بالتطور الحاصل بعد المحنة وما يرافقه من رأب الصدع والشفاء منها.

إيجاد المعنى

أجمع جميع صنّاع السلام بأن النجاة من المحنة لا يكفي. وقد عقد كل منهم العزم على إيجاد معنى وهدف لتجربتهم المأساوية. وفي كل حالة، جاء هذا المعنى نتيجة لوجود دافع لمساعدة الآخرين. وكانت محبتهم العميقة والمتواصلة للآخرين هي التي دفعتهم لأخذ الخطوة التالية إلى الأمام. وقد أثبت هؤلاء الأفراد ما أكدّ عليه فرانكل بأن المعاناة تفقد معنى معاناتها عندما تجد معنى في محبة الآخرين ومساعدتهم ([1959] 1992، ص ص105–107). أما هيرمان فيدعم أهمية إيجاد معنى لتجاوز المحنة فيقول: « في حين لا توجد طريقة للتعويض عن المحنة، توجد طريق لتجاوزها من خلال اعتبارها هدية للآخرين. ولا يمكن أن ننجو من المحنة إلا إذا أصبحت مصدراً لرسالة يحملها الناجي معه ». (1002، ص 38). وقد اكتشف كل شخص تمت مقابلته رسالته في الحياة عبر العمل من أجل السلام والعدالة والخروج من المحنة التي خبرها.

مركزية الاختيار

لم يختر هؤلاء الشجعان من صنّاع السلام، تلك المحن التي دخلت حياتهم ولا اختاروا نوعها ولا تكرارها، هكذا هي طبيعة المحنة إذ أنها لا تأتي اختياراً. ولكن ما يعقب تلك المحنة يتطلب اختيار الطريق. وإذا ما استخدمنا تشبيه لدغة الأفعى المميتة، فإن الإنسان يمكنه اختيار مطاردة تلك الأفعى وهدر الكثير من الطاقة ومن الوقت في محاولة الرد عليها، كما يمكنه أولاً معالجة جرحه الذي تسببت فيه تلك اللدغة ومن ثم تقرير ما يريد أن يفعله بشأنها. وإذا ما ذهب الإنسان ليطاردها في مرحلة ما فإن عليه أن يقرر كيف سيقترب منها بطريقة لا يؤذي فيها نفسه ولا يؤذي الآخرين.

وعلى نسق مشابه، توجد خيارات عديدة في أعقاب المحنة. وقد أعطى الوعي الذي تحلى به صنّاع السلام، خياراً لهم ومؤشرات أولية بأنهم يعبرون درب النهوض من هذه المحنة وتجاوزها بعيداً عن وضع الناجي والضحية. فقد اختار سام طريق « الغضب الرحيم » كلما فكّر بهؤلاء الذين هددوه أو اعتدوا عليه وعلى شعبه. أما

شنشو فاختار الدعوة للتحدث أمام الناس مستخدماً المسرح الذي منحته إياه عملية الخطف من أجل تحقيق هدف نبيل. وكذلك سوالتي اختارت طرد المعتدي من رأسها بما أنها لم تكن ملزمة بدفع أجرة له واختارت بدلاً منه مستأجراً آخر (راسل، 2002 أ). واختارت سوميتا أن لا تؤذي نفسها عبر تغذيتها بعقلي الضحية والمرارة.

وتبرز مركزية الاختيار بعد المحنة في صورة هذه القصة لجدٍّ أميركي من أهل البلاد الأصليين، كان يناقش مأساته في الحياة لحفيده حين قال الجد: يبدو الأمر وكأن في قلبي ذئبين يتقاتلان، الأول غاضب، وقلبه مشحون برغبة الانتقام والثاني رحيم عطوف. سأله الحفيد: أي منهما باعتقادك سوف يربح معركة قلبك؟ أجابه الجد: إنه الذئب الذي أغذيه.

والدرس الذي أستقيه من هذه القصة يشبه الدرس المستقى من الأشخاص الذين قابلتهم وهو أن كلاً من الذئبين يجب تدجينه في مرحلة ما. ولكن مع مرور الزمن، علينا أن نختار أيّاً منهما سنقوم بتغذيته. وفي العديد من النقاط على الطريق واجه صنّاع السلام هؤلاء شوكة على الطريق وكان عليهم أن يجيبوا عن أسئلة اختيارهم: هل هزمتني المحنة أم أني أتجاوزها؟ هل ترفع طاقتي من درجة العنف في نفسي وفي العالم أم أنها تقدّم قيم السلام والعدالة؟ .

مواجهة الخوف وتحويل الألم

من خلال قراءتها لنسخ عن مقابلات أخرى، تبدي سو ملاحظاتها بأن كل شخص تمت مقابلته، كان قد ذكر موضوع الخوف كجزء من رحلة محنته. وتقول سو أنها الآن ترى الخوف كرفيق لها في رحلتها، وكأنه شيء يتعايش معها ولكنه لا يسيطر عليها. « أنا أدرك الخوف وأحاول أن أعمل معه على أساس أنه رفيق لي ». أما شنشو فيحذر بأن الخوف قد يجمدك ويشلّ حركتك « إذا لم تعد إلى ركوب الطائرة وتحلق بها في نفس اليوم الذي وقع فيه الحادث ». وهو يحاول بذلك تشبيه الخوف بما حدث معه في قصته (آلاس، 2002 أ). وبكلمات أخرى، فإن هذا يعني أنك إذا لم

تتعامل مع الخوف فسيتولى هو التعامل معك. وبالنسبة لسوميتا، فقد دفعها الخوف والألم إلى استكشاف جذور روحية أكثر عمقاً كانت هي في حاجة لها قبل حدوث الأزمة. ولم تتمكن من السيطرة على الخوف إلا بعد أن قامت برحلة شفاء داخل نفسها (غوز، 2002).

ولكن ما الذي على الإنسان أن يفعله بهذا الألم الحارق وهذه المعاناة في داخله؟ بدلاً من الهرب من الألم أو التجمد من الحزن، وجدت سوميتا طريقاً لتغييرهما. وفي إحدى الكتابات التي توردها سوميتا عن مقال لم ينشر، تقول:

لقد مرت خمس سنوات على الحادثة. ما زال الألم موجوداً ولكن الفرق هو أنني لم أعد أعاني بسببه. وحين أنظر إلى الوراء أدرك أن إدراكي للألم ومعاناتي منه بدلاً من تجميده أو التهرب منه، كانا جزءاً من عملية شفائي. وتدريجياً تحول هذا الألم الذاوي إلى شيء أكثر هدوءاً بدلاً من أن يحرق مهجتي ويذيبني. (غوز، 2002).

لقد قاومت سوميتا ردة فعلها تجاه الإرهابيين ورأت أن لا حاجة لها للرد عليهم بأي طريقة. تقول « أنا لا أريد أن أكون ضحية » لهذا الألم ولا أريد الرد على الإرهابيين بنفس الأسلحة التي استخدموها بل يتوجب عليّ أن أنهض من هذا الوضع وأرد بقوة أعلى بكثير (غوز، 1998 أ).

رفض أن تكون ضحية

أكّدت سوميتا على أن طريقة التعامل مع أزمات المحنة، سواء أكانت تقدماً أم تراجعاً في الألم والمعاناة، تعتمد بدرجة كبيرة على الموقف الذي نتخذه. وقالت بهذا الصدد: « إن مساعدة الناجين من المحنة هو أمر جوهري. فعليك أن تلغي صورة الضحية وتبني لنفسك صورة تحترم الذات، لعلك بذلك تكتشف إمكانيات مخبأة بداخلك تستطيع أن تحولها إلى طاقة تستخدم في عمل بنّاء ». تقول سوميتا أيضاً أن ما ساعدها في الخروج من دائرة الضحية كان إدراكها لحقيقة أن بقاءها في تلك الدائرة يعني اعترافاً منها بأنها تحت سيطرة المجموعة العسكرية التي خطفت زوجها. ولكنها

كانت تعلم أن ذلك ليس صحيحاً وأن قوة الإرهاب والبطش ليست هي القوية في حقيقة الأمر، فالقوة التي تنبع من الداخل هي الأقوى. « لقد كان إدراك ذلك أمراً يشبه التحرر » (غوز، 2002).

أما سام فقد ساعده إيمانه على مقاومة مفهوم الضحية. ويقول في معرض حديثه عن فقدان عائلته على يد مجموعة عرقية أخرى في النزاع الذي دار في ليبيريا:

« لكنني لن أبدأ الحقد على المجموعة التي ارتكبت ذلك. ربما فضل ربي هو الذي منعني من أن أفعل ما فعلوه. أنا لا أستطيع أن أكون ضحية.. وقد تعلمت أن لا يهزمني شيء. فكل شيء يواجهني أعتبره تحدياً يتطلب مني التغلب عليه أو فرصة أتعلم منها شيئاً جديداً يجعلني إنساناً أفضل. إن الله يخلق الأشياء باستمرار وعلينا أن نساعده في ذلك فكل يوم يواجهنا تحدٍّ يمكن أن ندعوه بالشر، يوّفر لنا فرصة لنعمل على خلق الأشياء (دو، 2002).

وكما ترى سو الأمر في حديثها حين تقول: يمكنك أن تصبح ضحية لكن ردك عقب الجريمة يحدد إمكانيتك في الانتقال من الضحية إلى النجاة (راسل، 2002 ب).

إن كوني أصبحت ضحية لجريمة وتجربتي في مواجهة العنف عن قرب وفي مواجهة النظام الجنائي العدلي، دفعني إلى بذل كل جهد مستطاع لكي أضع حداً لهذا العنف الذي يدور في العالم اليوم والعمل باتجاه بناء عالم يتمتع بسلام مستدام (2002 أ).

والمؤشر الأكيد لدى سو، هو أنها كانت تتحرك من هوية الضحية إلى هوية الناجية، وكانت نظرتها تمتد إلى أبعد من اكتشافها بأن المعتدي كان يحتل مساحة في رأسها دون أن ينفعها في شيء. لذلك قامت بطرده لكي تكتشف بعدها أنها تملك القدرة للسيطرة على كل ما يحتل مساحة تفكيرها (2002 أ).

قدرة الإيمان على التغيير

بينما كان المتحدثون في المقابلات يروون قصص آلامهم ومآسيهم، كنت أتساءل ما هي المصادر الخارجية والداخلية التي ساعدتهم على التحول وبالتالي على تجاوز محنتهم.

ويصف سام هذه المصادر على شكل أربع زوايا لمخدة يجد فيها ملاذه وسنده وتجديده في الأوقات الصعب. وهذه الزوايا الأربع هي الإيمان، والعائلة، وزملاء العمل وإيمانه بجوهر الخير في الناس (دو 2002). ومن الملاحظ أن زوايا سام الأربع تحمل قاسماً مشتركاً مع الموارد التي أسهمت في شفاء آخرين ممن أجريت معهم المقابلات.

الإيمان الذي يمنح الحياة. كان لإيمان شنشو الكاثوليكي أثر في تذكيره بأن الحياة ذهبت إلى أبعد من محنته. ويقول شنشو أن الجسد قد يموت ولكنني لن أموت كإنسان. والحياة ليست فقط على هذه الأرض أو على هذا الكوكب وليست ضمن حدود الجغرافية التي أعيش فيها الآن ولكنها حياة أبدية تستمر مع الإنسان وهذا الاستمرار شكل دعماً كبيراً لي في عملي من عدة نواحٍ (آلاس، 2002 أ). كذلك تحدث شنشو كيف أن إيمانه أرشده ليس إلى لعن آسريه ولكن إلى الذهاب إليهم لرؤية إذا كان بإمكانه مساعدتهم على إعادة صياغة حياتهم.

الإيمان الذي يحدد الهدف. وعلى نفس الوتيرة، يذكر سام إن إحدى زوايا مخدته هي إيمانه المسيحي وهو يقرّ بأنه لا يقوم بعمله لوحده أو يعتبر هذا العمل مجرد عمل آخر لأنه لو كان الأمر كذلك لاستمر في دراسته عن الاقتصاد ويقول بهذا الصدد:

« إن بناء السلام هو مهمة ونداء من الداخل لا أستطيع التحكم فيه، فأنا فقط أداة من الأدوات التي يستخدمها الخالق لتحقيق أهدافه. وما تفعله هو أنها تبعد الأنانية عن طريقي. حديثاً ذهبت إلى ليبيريا رغم علمي بمخاطر الذهاب إلى هناك ولكنني ببساطة صليّت وكنت أؤمن أني ذاهب إلى هناك لأن أمامي مهمة يجب أن أنجزها. وسواء عشت أم مت فالأمر ليس بيدي. هناك ستة بلايين إنسان على وجه الأرض. بطريقة أو بأخرى يجب للعمل أن يُنجز والله سوف يجد من ينجزه حتى ولو لم أكن موجوداً. ولكنني حين أكون موجوداً، أقنع نفسي بأنني جزء من هذا العمل وأن عليّ أن أذهب لأنجزه. ويبقى الأمر بعد ذلك بيد الله بأن يحميني. أنا أفعل الجزء المطلوب مني، وأنت كذلك، هكذا تدور المفاوضات بيني وبين ربي بحيث أبقى ملتزماً بالجزء المطلوب مني عمله. عليك أن تكون مؤمناً بدورك في الحياة » (دو، 2002).

بالنسبة لسو، وفّر الإيمان لها سياقاً للسعي نحو تنفيذ خطة الله في حياتها. وتقول في هذا الصدد: « لقد لعب الإيمان دوراً كبيراً في حياتي وهو إيمان بوجود قوة عليا تضع خططاً أكبر لي. لقد حدثت عدة معجزات حقيقية معي، مثلاً وجود هؤلاء الأطفال الذين كانوا يخيّمون قربي. كل هذه الأشياء جعلتني أفكر وأفكر أكثر بحقيقة أن النجاة قد كتبت لي وأنه لم يكتب لي أن أموت. كان هذا الأمر عزاءً حقيقياً لي ». (راسل 2002 أ).

الإيمان الذي يمنح قوة داخلية. تقول سوميتا بأنها تعرضت إلى تغيير داخلي قوي وتعبر عن ذلك في هذه الفقرة المقتطفة من حديثها:

« عبر رفضي تصديق الأكاذيب ومعرفتي بأن الحقيقة موجودة في مكان آخر، تعلمت أن أنظر إلى داخل نفسي، وكان هذا الأمر في جزء منه نوعاً من فطرة البقاء، وفي جزء آخر نتيجة لمساعدة الأصدقاء الذين أدخلوني إلى عالم جديد من السلام. ورغم أنني كنت أؤمن دائماً بوجود قوة إلهية إلا أنني لم أكن متدينة، بل كنت أعيش حياتي على مستوى جسدي وعاطفي وذهني دون أن أفكر باستكشاف عوالم أخرى من وجودي. وعندما توجهت إلى داخلي لأبحث عن أجوبة للسلام وجدت أنني كنت غريبة عن نفسي وبدأت أنجذب شيئاً فشيئاً نحو هذه النفس وخلال العملية لمحت ما كنت أبحث عنه – السلام والحقيقة. ومهما كان العالم حولي قاسياً ومضللاً، لم يخني داخلي أبداً بل أعطاني القوة للاستمرار والتكيف ومنحني نظرة جديدة للحياة تميز بين الحقيقة وبين الضلال» (غور، 1998 أ).

العلاقات الداعمة والمستدامة. كانت قدرة صنّاع السلام هؤلاء على إدراك نعمتهم والاعتماد على العائلة والأصدقاء وأفراد المجتمع الذين قدموا لهم الرعاية ومنحوهم الثقة والمحبة في وجه معاناتهم، مسألة حيوية في تجاوزهم لهذه المعاناة. ويستذكر هؤلاء الأشخاص الذين قابلتهم باستمرار فضل الذين منحوهم روح الإيجابية وجمعوا شتاتهم وقوتهم وساعدوهم على تجاوز محنتهم.

العائلة. واستمراراً للزاوية التالية من مخدته يقول سام: عائلتي هي ملجأ آخر لي وهم يذكرونني دائماً بأن لا أتجشم مخاطر لا نفع منها. فوجود عائلة لديك تعيش من

أجلها يساعدك كثيراً في القرارات التي تتخذها والأماكن التي ترتادها. وأولادي هم إلهام حياتي، وهم يذكرونني بطفولتي وبالتزاماتي كشخص بالغ بإبقائهم سعداء، إضافة إلى أنهم مصدر راحة لي (دو، 2002).

وتقول سو: «أني أستطيب حظي الجيد لكوني متزوجة منذ عشرين سنة بشخص ظل بجانبي طوال فترة محنتي. كل ما أطلبه هو أن أحصل على هذا الدعم عندما أحتاجه» (راسل، 2002 أ).

زملاء العمل. الزاوية الثالثة من مخدة سام تشمل الأشخاص الذين يعمل معهم. ويقول سام في هذا الصدد: نحن جميعاً نتحمل الخطر معاً كما أننا جميعنا مقتنعون بما نفعله وتوجد بيننا صداقة حميمة كوننا نحمل الإيمان نفسه ونصلي من أجل الأشياء نفسها. كما أننا نستخدم هذا الوقت لتقاسم مخاوفنا وغضبنا وإحباطنا من العمل، أو نتحدث عنه ثم نستمر. إن وجود مثل هذه الشبكة من الدعم يجعلني أواصل عملي في هذا المكان (دو، 2002).

المجتمع. يصف شنشو أهمية الاعتماد على أشخاص يدعمونك بأنه أمر أساسي في تطورك ويقول: عندما تصاب بأذى، فإن الطريقة الوحيدة لكي تتعافى هي أن تعود إلى جماعتك وإلى أهلك وزملائك في العمل وتحظى بالرعاية منهم... بدلاً من أن تعزل نفسك وتغرق في التفكير بما حدث لك، كأن تسأل: لماذا أنا، ولماذا وقع هذا لي. أنصحك أن تذهب إلى الناس وتبقى معهم وتعمل وتفرح معهم. إن هذا هو الكفيل بشفائك.

وتقول سو التي وجدت دعماً كبيراً من الناس في حياتها.

عندما وقع حادث الاختطاف والاعتداء الجنسي عليّ ثم محاولة قتلي، أصيب المجتمع حولي بالصدمة والغضب لوقوع جريمة مثل هذه في منطقتنا الريفية. انطلق الجميع للعمل وقدموا لي كل الدعم والمساعدة كما دعموني ودعموا عائلتي لكي نسترد عافيتنا من هذه المحنة (راسل، 2002 أ).

الأطفال. تستذكر سو بفرح كبير، وكأن الأمر حدث البارحة كيف أنها وبعد سنة من وقوع الحادث التقت بامرأة صديقة لها كانت قد تعرضت مثلها لحادث اعتداء جنسي وطلبت من سو أن تعتني بابنها البالغ من العمر خمس سنوات يومين كل أسبوع. تقول سو: لقد أخذت الولد إلى كل مكان، تزلجت معه على الجليد وتسلقنا الجبال وركبنا الدراجات وتمشينا، كنت أشاركه كل شيء أعرفه عن الغابات وفي المقابل منحني هو سعادة لا توصف ورؤية للحياة مرة أخرى. تصف سو كيف أن الطفل وأمه كانا بمثابة إلهام لها (راسل، 2002 أ).

تقدير الشيء الجيد

الجوهر الجيد في الإنسان. عندما سئل سام كيف يمكنه أن يحب أعداءه بدلاً من أن يتمنى الأذى لهم، يعزو ذلك إلى كونه نعمة فيقول:

بسبب هذه النعمة الإلهية، أستطيع أن أستخدم الوقت الصعب لأصنع منه فرصة للتعلم ولتقدير العالم. إن إيماني بالإنسانية يذهب أبعد من كل ما يحدث للإنسان لأنه حتى الإنسان الشرير ينادي من أجل الخير ويلتمس شيئاً جيداً... كثير من الأشخاص الذين عملت معهم كانوا يعتبرون أشراراً في منطقتنا ولكنني عملت معهم عن قرب وشاهدتهم في حياتهم الشخصية كيف يحبون أطفالهم ويريدون لهم الخير وللأشخاص الذين يهتمون بهم. إني أعتبر هذا الأمر مؤشراً على شيء أعمق لا يعني فقط أن يكون الإنسان في الظاهر شريراً.

أما سام فيعطي مثلاً عن فوداي سنكوح، أحد قادة التمرد في سيراليون والذي يحمل تاريخاً رهيباً من الشرور وأعمال القتل، وينتظر اليوم محاكمته كمجرم دولي فيقول:

هذا القائد المتمرد في سيراليون ارتكب العديد من الأعمال الوحشية التي نتحدث عنها. أنا أعلم أن لديه أطفالاً وأنه يحبهم، لذلك كيف يمكنه أن يعبر عن هذا الحب في الوقت الذي يفعل فيه كل هذا؟ متى أرغب أن أراه؟ عندما ينظر إلى صور أطفاله ويبتسم لهم ويتحدث معهم. هل هكذا أريد أن أعرفه أم أريد أن أعرفه في ساحة القتال وهو يقطع رؤوس أطفال في عمر أطفاله. هكذا أحاول أن أراه أباً حنوناً على أطفاله. (2002).

مثل هذه القناعة في جوهر الخير الإنساني تتيح المجال لسام لتطوير ما يدعوه «الغضب الرحيم». «وهذا الأخير يعتبر نعمة إلهية، تقول لفاعل الشر بأنك إنسان رائع ولكنك رفضت أن تترك جوهر الخير فيك كي يخرج ويعبر عن نفسه. والغضب الرحيم ليس ذلك النوع من الخوف الذي يؤدي بالمرء إلى تدمير عدوّه بل هو غضب يدفع الشخص الغاضب للسعي إلى تخليص وإنقاذ من هو غاضب منه» (2002) .

نعم الخير التي تقدمها الحياة. لخّصت سوميتا تأثير تلك النقلة التي شفتها من الغضب والألم في حياتها، وهي تدرك تماماً كيف أصبحت قوية وسط الدمار. تقول سوميتا:

> إن المعاناة من الألم والظلام ساعداني على تقدير واختبار الطرف الآخر بشكل أكمل. كذلك ساعدني الهدوء والفرح وسعادة الوجود في الحياة على أن أصبح أكثر وعياً في كثير من النواحي. كثير من الأشياء التي كنت أسلّم بها جدلاً في السابق أو أستخف بها بحيث لم أكن أستمد منها طاقة ولا قوة أصبحت الآن أعيها وأعي أهميتها. أشياء مثل شروق الشمس وأصوات العصافير ورائحة أوراق الشجر والورود والهواء الذي أتنشقه والابتسامات والعطف في عيون الناس والكلمات اللطيفة وغيرها.. (غوز 2002).

وسو أيضاً وجدت أنها أصبحت تقدر الأشياء الصغيرة التي تقدمها لها الحياة وتعبر عن امتنانها لبقائها حية وتقول بهذا الصدد: أذكر أنني عندما عدت إلى منزلي قادمة من المستشفى بعد أن كاد الرجل أن يقتلني، أمضيت ساعات أراقب السناجب وهي تركض حولي وتلتقط حبّات الجوز لتخزنها في أعشاشها. مثل هذه الملاحظة البسيطة ساعدتني على التفكير في أشياء بسيطة تمنحها لنا الحياة، وشعرت بالسعادة والامتنان لكل يوم أقضيه على وجه الأرض. ثم تتابع وهي تضحك: «إنني أستمع إلى نفسي هنا وأفكر وأقول: يا إلهي إنني أتيت من مسافة طويلة». (راسل، 2002 أ).

القيام بالأعمال الصالحة. رغم التقدم العظيم الذي حققته، تقترب سو الآن من مرحلة دقيقة أخرى في حياتها، فقد اقترب موعد إطلاق سراح الرجل الذي اعتدى

عليها. كانت سو قد اعتمدت على الموارد التي اكتشفتها خلال العقد الزمني السابق من أجل إقامة مناسبة عامة دعتها باسم « تعالوا لنتحد »، تهدف إلى رفع الوعي لدى المجتمع المحلي الذي تعيش فيه حول موضوع الأشخاص الذين يقومون بالاعتداءات الجنسية، وإطلاق سراحهم وإعادة إدخالهم إلى المجتمع. كما كانت رؤيتها تتوسع وعزيمتها تشتد حول هذا الأمر. وتقول سو: «إن من العار أننا لا نعيش في عالم آمن يثق ببعضه البعض ولكن بإمكاننا أن نحشد طاقاتنا ونعمل معاً، وبإمكاننا تثقيف شبابنا والمشاركة في تطبيق القانون مع مؤسسات التأهيل والإصلاح والشركات المحلية. بإمكاننا إحداث تغيير إيجابي».

وهكذا تستمر سو في السعي لإيجاد طرق خلاقة للعمل مع مجتمعها وبناء شبكة أمان لجميع الناجين (2002 ب).

بالنسبة لشنشو، فقد فتحت الدعوة التي وجهت له للتحدث أمام الاتحاد الدولي للمعلمين فرصة جديدة وكاملة أمام الخير. يقول شنشو: عندما سمعت بهذه الفرصة التي تؤهلني بأن أتحدث فوراً، اغتنمتها فوراً. وكان هذا الأمر إيجابياً جداً بالنسبة لي لأنه دفعني لأن أفكر في نفس الوقت بأنني أصبحت شخصية وطنية معروفة وأصبحت قضيتي تذكر في الصحف والراديو والتلفزيون، وأصبح هناك من يقدّر شجاعتي لذلك فإن الوقت مناسب للاستمرار. لقد كان هذا شيئاً إيجابياً (آلاس، 2002 ب).

وكان الجواب بالنسبة لسوميتا هو الاستمرار في البقاء كجزء من المجتمع وتشجيع قوى التقدم والإصلاح والبناء فيه. وتقول سوميتا « لن تجعلنا الهزيمة أمام الحياة والهروب من التحرك منيعين أمام الألم والمعاناة فنحن جميعاً في النهاية مرتبطون ببعضنا البعض، تؤثر فينا آلام الآخرين كأننا في عائلة إنسانية واحدة. (غوز، 2002).

إذا كنا هناك كما تقول الأدبيات شيء اسمه « اليأس المكتسب »، يضرب عندما تضرب المحنة ويفقد الناس أملهم وثقتهم (جانوف بولمان، 1992) فقد كشفت هذه المقابلات أهمية ما يمكن أن نسميه « المصادر المكتسبة » في تجاوز المحنة مثل هذه

المصادر تعتمد على الدعم الداخلي والخارجي. ومثلما تعالج الجروح في الجسد، تتطلب معالجة المحنة العناية بالجرح نفسه من خلال تحصين وتقوية البيئة السليمة حوله للتعويض عن الألم الذي يتسبب به.

الخلاصـــة

هذه القصص التي استطاعت المقابلات التقديرية استنباطها حول تجاوز المحن، تحمل في طياتها تأثيراً دافعاً ومحركاً لكل من يطّلع عليها. وبنفس الطريقة التي أحبس فيها أنفاسي أمام الأخبار المروّعة للمحن، أجد هذه القصص المتعلقة بالانتصار على المحن قصصاً تحبس الأنفاس أيضاً. وكشخص ملمّ بإجراء المقابلات، أصغي إلى تسجيل المقابلات التي أجريها مرات ومرات، وأشعر أن كل مرة هي المرة الأولى. فهذه القصص تمنحني الإلهام لأعيش حياتي كاملة وأسعى وراء عملي في بناء السلام بأمل متجدد وعاطفة متوقدة وأفكر ملياً بالزوايا الأربع لمخدة سام التي استخدمت كاستعارة وتشبيه لما يحدث.

كل من أصحاب هذه المقابلات كان يحمل منظوراً جديداً في داخله وقد اكتشفت هذا الأمر سواء خلال المقابلة أو عند قراءتي لنصّها المكتوب فيما بعد. فالبعض منهم أكد التزامه بتأليف كتاب أو كتابة مقال حول تجربته حتى يتم تشجيع ناجين آخرين على تجاوز محنتهم. والبعض الآخر عبّر عن دهشته بشجاعته وإعجابه بالتقدم الذي أحرزه خلال سنة أو خمس سنوات أو عشر. كما أن إدراكه لهذا التقدم لم يكن سبباً لكي ينشد الراحة بعد أن شعر بأنه أتم واجبه في تجاوز الأزمة، ولكنه على ضوء تأمله بما وصل إليه أعاد توضيح رسالته والتزامه بالنداء الإلهي. قالت سو بأنها اكتسبت القوة والشجاعة من خلال قراءتها لنصوص المقابلات الثلاث الأخرى، مبدية ملاحظتها حول قدرة كل من أصحاب المقابلات على الإبداع وحول تشابه طريقة تطورهم وخروجهم من المحنة، حتى ولو اختلفت طبيعتها. وأملي أن نصبح نحن كصانعي سلام أكثر شجاعة في ممارساتنا، نلقي الضوء بشكل روتيني على قدراتنا ونستنبط القصص حول التطور الحاصل بعد المحنة، تماماً كما كنا قد تدربنا على التنبه

لحزننا ومعاناتنا. ولكي نفعل هذا، يتوجب علينا أن نكون واضحين حول هدفنا وأن نتبنى مفردات الأمل ونوسع أدواتنا لتجاوز المحنة. وفي نهاية الفصل أرغب هنا في إلقاء الضوء على ثلاث استراتيجيات للتقدم إلى الأمام.

فتح مجالات للأمل والقدرة على التكيف

حتى لا ينتهي الأمر عند النجاة من المحنة أو تحمل معاناتها، بل يتعداه إلى البقاء منفتحين على استمرار تجاوزها، ينبغي على الأفراد والجماعات أن يجدوا المجال الملائم للتفكير الإيجابي ويعتمدوا على طاقة الأمل بدلاً من جر الذيل إلى اليأس والوقوع في شباك الخوف ويحثنا شنشو عبر التشبيه بقصته أن نطير مرة أخرى بأسرع وقت ممكن قبل أن تتمكن المخاوف منا وتطلق جذورها في قلوبنا. وكصديق ومعالج في هذا المضمار، أنا لا أحمل أي ضرر في البحث عمّا يبقي الناجين أحياء، وعن كيفية تطور أفكارهم بالنسبة للمعتدين أو الأعداء مع مرور الزمن. وفي الحقيقة أود أن أؤكد هنا أن الضرر من قبلي قد يقع إذا ما تغاضيت عن إجراء البحث أو إذا ما أخطأت بفقداني شجاعة السؤال عن شيء إيجابي، دافع للتطور ومانحٍ للحياة. ولكن التزامي هو في طرح الأسئلة بطريقة مضيافة ومساعدة ومشجعة، تدفع برفق نحو مستقبل مفعم بالأمل مع إدراكي بأن الأجوبة قد لا تكون متوفرة الآن.

نحن كصانعي سلام نحمل مسؤولية توسيع المجالات التي نوفرها من أجل أن يتم تحقيق إمكانيات التحول الإيجابي بعد المحن. وهذا لا يعني تحويل الاتجاهات بأكملها ولكن بأن نصبح خبراء في كل من البحث والإصغاء والتعلم أي أن نشعل ضوءاً على الفرح بعد المحن وعلى الألم أيضاً، على المكاسب والنعم وعلى الخسائر، على البركات وعلى اللعنات. وبدون هذه المقاربة الثنائية، قد يتحول المرء من ضحية إلى ناجٍ ولكن دون أن يمتلك الأسس للتحرك أبعد من مرحلة النجاة نحو تحويل المحن وتجاوزها.

وتتطلب العناية بالأشخاص الذين يعبرون طريق تجاوز المحن، سرعة الخاطر والخفة في التعامل مع التناقضات. مثلاً:

- لكي نصنع المستقبل، علينا أن نكون في سلام مع الماضي.
- ترافقنا مع مخاوفنا، يطلق فينا التفكير الخلاق والحركة.
- قد تحرمنا المحنة من الاختيار. ولكن العودة إلى الاختيار ينير طريقنا أمام تجاوز المحنة.

إبقاء الحركة مستمرة

والآن مع تسليط المزيد من الأضواء من قبل مختلف الميادين على البحث الإيجابي وتطور ما بعد المحنة، تبرز هناك حاجة إلى إيجاد المزيد من مفاتيح تجاوز المحن والتغلب عليها. وأنا هنا أشارك الأخصائية في هذا المجال ساندرا بلوم إحساسها بضرورة التعجيل في هذا المجال وتركيزها على الحاجة للاستمرار في استكشاف هذه القضية أي قضية التحول الاجتماعي بعد المحنة. وتقول الأخصائية:

« نحن نعلم أن أية محنة لم يتم تحوّلها ولا هضمها، سوف تتدخل في قدرة الفرد على التكيف السليم. فالفرد يتكيف عادة مع بيئة معادية ثم يستمر في إيجاد بيئات شبيهة من أجل الاستخدام الأفضل لهذا التكيف. وإذا ما تصرفت المجتمعات أو الدول أو ردت بمثل هذه الطريقة فإننا نصل هنا إلى التعامل مع أوضاع خطرة ومتفجرة ».

ومن أجل استمرار الدفع، علينا أن نوسع مفردات الأمل بعيداً عن النصوص المألوفة للتفاؤل المأساوي. وهذه اللفتة الجديدة يجب أن تصاغ عبر المهن المساعدة، التي تتجاوز المجالات القليلة المذكورة في هذا الفصل. وعلى العلماء والأطباء العاملين في مجال معالجة تأثير المحن وتجاوزها أن يستخدموا أسلوباً متوازناً في معالجتهم لآلام المحنة وتغذية التطور الحاصل بعدها.

البحث عن أمثال غاندي، في حياتنا اليومية

وأخيراً، علينا أن نجمع المزيد من القصص عن أشخاص مثل سو وسام وشنشو وسوميتا. أشخاص عاديون يشكلون أمثال غاندي يومياً (ترافيس ن. د [2002]).

والمقابلات التقديرية هي أداة اكتشاف أساسية لتجديد هذه القصص وتوسيع لغة الأمل وتعزيز السعي من أجل الشفاء من المحنة وتحقيق التطور بعدها.

ملاحظات :

1. An increasing amount of research has been done in the past five years on compassion fatigue, also referred to as secondary or vicarious traumatization. Peacebuilders and other caregivers working in trauma situations are vulnerable to secondary trauma, with symptoms similar to those of direct trauma victims. Dr. Charles Figley (1995), a psychologist who has written the most on this topic, calls compassion fatigue an "occupational hazard of caring service providers," with the more empathic caregivers being the more susceptible. There is also growing evidence to support the transgenerational and societal transmission of compassion fatigue.

مراجع :

Achilles, Mary, and Howard Zehr. 2001. "Restorative Justice for Crime Victims: The Promises, The Challenges." In *Restorative Community Justice.* Gordon Bazemore and Mara Schiff, eds. Cincinnati, Ohio: Anderson Publishing.

Alas, José Chencho. 2002a. Personal interview, Harrisonburg, Virginia; telephone conversations; and email communications with the author (June-December).

_____ 2002b. "Foundation for Self-Sufficiency in Central America." http://fssca.net!.

Bloom, Sandra L. 1998. "By the crowd they have been broken, by the crowd they shall be healed: The social transformation of trauma." In *Posttraumatic Growth: Positive Changes in the Aftermath of Crisis.* Richard C. Tedeschi,

Crystal L. Park, and Lawrence C. Calhoun, eds. Mahwah, N.J.: Lawrence Erlbaum Associates.

Calhoun, Lawrence C., and Richard C. Tedeschi. 1998. "Posttraumatic Growth: Future Directions." In *Posttraumatic Growth: Positive Changes in the Aftrermath of Crisis.* Richard C. Tedeschi, Crystal L. Park, and Lawrence C. Calhoun, eds. Mahwah, NJ.: Lawrence Erlbaum.

Cooperrider, David L., Peter Sorensen, Jr., Diana Whitney, and Therese F Yaeger. 2000. *Appreciative Inquiry: Rethinking human organization toward a positive theory of change.* Champaign, Ill.: Stipes Publishing.

Doe, Sam Gbaydee. 2002. Personal interview, Harrisonburg, Virginia, and email communications with the author (October-December).

Dunn, Dana. 2002. "Charting New Courses, Generating Positive Momentum: A Handbook For Positive Psychology" *Journal of Social and Clinical Psychology* 2 1:5, pp. 580—582.

Echterling, Lennis C., Jack Presbury andJ. Edson McKee. 2003. *Crisis Intervention: A resolution-focused approach.* Upper Saddle River, NJ.: Merrill/Prentice Hall. Forthcoming.

Figley, Charles. 1995. *Compassion Fatigue: Coping with secondary traumatic stress disorder in those who treat the traumatized.* Florence, Ky: Brunner/Mazel Psychosocial Stress Series.

Frankl, Viktor E. 1992 [1959]. *Man's search for meaning: An introduction to logotherapy.* Boston: Beacon Press.



Fredrickson, Barbara L. 2000. “Cultivating Positive Emotions to Optimize Health and Well-Being.” *Prevention & Trauma* 3, article 000la (posted March 7). www.journals.apa.org/prevention/volume3/pre0030001a.html.

_____ 2002. “The Role of Positive Emotions in Positive Psychology: The Broaden-and-Build Theory of Positive Emotions.” *The American Psychologist* 56:3, pp. 218—226.

Chose, Sumita. 1998a. “Dealing with conflict and violence: The power of attitude.” In *The Awakening Ray.* New Delhi: Gnostic Centre.

_____ 1998b. Sanjofs Assam: Diaries and Writings of Sanjoy Chose. New Delhi: Penguin Books.

_____ 2002. Personal interview, Harrisonburg, Virginia, and telephone conversations with the author (August-December).

Gilligan, James. 2001. *Preventing Violence.* New York: Thames and Hudson.

Herman, Judith Lewis. 1992. *Trauma and Recovery.* New York: Basic Books.

Janoff-Bulman, Ronnie. 1992. *Shattered assumptions: Towards a new psychology of trauma.* New York: The Free Press.

Ludema, James. 2000. “From deficit discourse to vocabularies of hope.” In *Appreciative Inquiry: Rethinking human organization toward a positive theory of change.* David L. Cooperrider, Peter F Sorensen, Jr., Diana Whitney, and Therese F Yaeger, eds. Champaign, Ill.: Stipes Publishing.

Meyers, David C. 2000. “The Funds, Friends, and Faith of Happy People.” *The American Psychologist* 55:1, pp. 55—67.

Nouwen, HenriJ. M. 1975. *Reaching out: The three movements of the spiritual life.* New York: Doubleday

O’Hanlon, Bill. 1999. *Do One Thing Different: Ten simple ways to change your life.* New York: First Quill.

Russell, Susan. 2001. “I fell into this deep, dark hole with no steps.” In *Transcending: Reflections of Crime Victims.* Portraits and interviews by Howard Zehr. Intercourse, Pa.: Good Books.

_____ 2002a. Personal interview, Montpelier, Vermont, and telephone conversations with the author (October-December).

_____ 2002b. “Community Awareness: A New Approach to Offender Re-Entry.” The Crime *Victims Report* 6:4, pp. 49—60.

_____ 2003. Email message to the author (February 1).

Saleeby, Dennis. 1997. *The Strengths Perspective in Social Work.* New York: Longman.

_____ 2000. “Power to the People: Strengths and Hope.” Advances in Social Work 1:2 (fall), pp. 127—136.

Sheldon, Kennon, and M. Laura King. 2001. “Why positive psychology is necessary.” *The American Psychologist* 56:3, pp. 216—217.

Sider, Nancy Good. 2001. “Fork in the Road.” *Conciliation Quarterly* 20:2 (spring), pp. 7—11. Also at http://www.emu/etp/bse-forkinroad.html.

Taylor, Shelley 1989. *Positive Illusions.* New York: Basis Books. Tedeschi, Richard, and Lawrence C. Calhoun. 1995. *Trauma and Transformation:*

Growing in the aftermath of suffering. Thousand Oaks, Calif.: Sage Publications.

Travis, Cynthia. nd. [2002]. *“everyday gandhis” Website.* wwweverydaygandhis.com. Zehr, Zehr, Howard. 1995. *Changing Lenses: a newfocusfor crime and justice.* Scottdale,

Pa.: Herald Press.

ملحق

دليل المقابلات التقديرية

اكتشاف الموارد من أجل الشفاء من المحنة وتحقيق التطور بعدها

الدافع نحو بناء السلام

- ما الذي جذبك في البداية إلى العمل في نشر السلام؟ ما الذي دفعك للاعتقاد بأن هذا العمل جوهري بالنسبة لك وأنك يمكن أن تساهم بهذه الطريقة؟ .
- دون إبداء أي تواضع، ما هي أقوى قدراتك في هذا العمل؟ ما هي القيم والصفات والمهارات التي تسهم في قدراتك لهذا العمل؟

المنطق الكامن وراء هذه الأسئلة هو أنها تستهل الحوار بإعطاء صانع السلام فرصة لاستذكار السبب الذي دعاه لاختيار هذا العمل، بشكل إيجابي. كما تساعد على استذكار الأحلام والتوقعات التي أدت به إلى قبول التحدي أو تلبية النداء. كما أنها توفر له لحظة من إعادة التقييم وتجديد الالتزام.

قاعدة دعم لعملك

ما هي أكثر أشكال الدعم نفعاً لك في عملك من أجل السلام وتجاوز المحن؟ من هو أو ما هو الذي يلهمك أو يدفعك لهذا العمل؟ ما هي العناصر الجوهرية التي تعطيك الحيوية والقدرة على التكيف في عملك؟ .

باستخدام التشابيه، إذا كان عملك يشبه الترامبولين (وهي شبكة للقفز تقذف الذي يقفز عليها إلى أعلى وإلى أسفل). من هو أو ماذا هو الذي يقدم لك الدعم من أجل أن تعود للارتفاع إلى الأعلى؟ ربما إذا فكرت في عائلتك أو مؤسستك أو مجتمعك، ما هي المصادر الخارجية التي تعطيك القوة في عملك؟ .

المنطق وراء هذه الأسئلة هو أن التفكير بقاعدة الدعم تذكر الإنسان بأنه لا يعمل وحده بل يعمل ضمن سياق مجتمع يدعمه. ومثل هذا الوعي يغلق الطريق أمام العزلة واليأس اللذين يتجذران في المحنة. ويصلح تقدير الذات أن يكون نموذجاً للرعاية السليمة للنفس التي تعتبر طريقة أساسية في استدامة عمل صانع السلام.

تجارب الحياة التي تمنح الأمل

احكِ لنا قصة تجربة في حياتك منحتك الأمل؟ خلال الأوقات الصعبة، ما هي العوامل التي ساعدت على استمرار الأمل والالتزام في عملك بصنع السلام؟

المنطق وراء السؤال هو أن وصف تجربة رائعة تعطي الفرد فرصة لاستخلاص العبر من عدد من التجارب الأخرى. والسؤال لا يفترض أن تكون قصة التجربة ذات علاقة بالمحنة ولكنها قد تساعد على استذكار قصص أخرى تعتبر مركزية في تحديد جوهر الإنسان وربما تنعش قصصاً لم يروها منذ وقت طويل.

القدرة على التكيف مع المحنة

في وجه كل محنة، غالباً ما يعلق الناس في دائرة الضحية أو يسعون للانتقام، بسبب شعورهم بعدالة الرد. أنا مهتم هنا بأن أسألك كيف استطعت إيجاد طريقك خارج هذين الدورين وأعني بقاءك في دور الضحية أو الانتقام؟ كيف كسرت الطوق وتقدمت؟ كيف استطعت التكيف مع الوضع؟ قل لي كيف سرت عبر هذه التجربة؟ .

المنطق وراء السؤال هو أن التركيز لا يجب أن يكون فقط على قصة المحنة رغم أن من الأساسي الإصغاء تماماً إلى ما يريد المتحدث أن يقوله، فقد تم إفساح المجال في السؤال للتركيز على قدرات الشخص على التكيف مما يساعده على تحديد فصول حياته التي أعقبت فترة المحنة.

استخدام شبيه لالتقاط التحول في المحنة

هل يوجد لديك تشبيه ذو معنى يمكنه أن يصف النقلة من دائرة الضحية أو المنتقم؟.

كيف يمكنك إكمال الجملة التالية: التقدم إلى الأمام كان يشبه...

المنطق هنا هو أن التشابيه المأخوذة من التجارب الشخصية للإنسان توفّر له الكلمات اللازمة لتعبيد طريق الشفاء والتطور. فالتشابيه تعطي الإنسان منظوراً وبصيرة وتعزز قدرته على العمل الذي يتحدى المحنة ويتجاوزها، وعلى الحلم بمستقبل جديد للعيش.

الدروس المستقاة من رحلة الشفاء من المحنة

ما هي الدروس التي تعلمتها من رحلتك الشخصية للشفاء من المحنة أو من عملك مع الآخرين؟ كيف غيرت هذه الدروس من رؤيتك لنفسك؟ ما الذي شكل المساعدة الأكبر لك في رحلتك؟ هل لديك كلمة أو كلمتان حكيمتان تقولهما لآخرين يرون أنك قد تقدمت مسافة كبيرة عنهم؟ .

المنطق هنا هو أن رؤيتك لشخص يملك شيئاً ليقدمه للآخرين، تلقي الضوء على إمكانية أن يخرج شيء جيد من هذه الرحلة المنهكة والمؤلمة. ففي الكثير من الأحيان تجد الناجين يقولون: إذا استطعت أن أساعد شخصاً آخر من خلال.... فإن هذه التجربة لن تضيع سدى. أما السؤال الأخير فقد يساعد الإنسان على إدراك الحركة المهمة التي قام بها. فهذه الحركة هي التي تلقي الضوء على التطور الحاصل بعد المحنة وسط التوتر والاضطراب اللذين يعقبانها.

اكتشاف النور والأمل والمعنى من النهوض من تحت الرماد

أين تجد النور والأمل وكيف تعثر عليه وسط الألم والدمار؟ كيف تستطيع الاستمرار في لعب دور مرح في حياتك؟ كيف تستطيع الاحتفاظ بمرونتك وقدرتك على التكيف؟ .

في خضم الأوضاع الشديدة والصعبة، ينادي بعض الناس بأهمية إيجاد معنى من هذا الألم. ويتحدث فكتور فرانكل عن الناجين من معسكرات الاعتقال في الحرب

العالمية الثانية وعن استطاعة بعضهم إيجاد طريق للنور والأمل. وهذه الأمور يمكن التعبير عنها بطرق عديدة منها الروحانية، والهزل والمسرح والصلاة.

تأثير التجارب الحياتية على العمل مع الناس

أنا أؤمن أن وعينا الذاتي وتطورنا يشكلان قدرتنا على مساعدة الآخرين. والتعلم من تجاربنا يفتح الطرق أمامنا للوصول إلى الآخرين. لذلك أنا أرغب جداً في معرفة كيف أثرت تجاربك في الحياة على عملك مع الناس الآخرين. أخبرني قصة تصلح كمثل على ذلك؟ .

المنطق هنا: هو أن هذا السؤال ينطوي على شحذ للتفكير والتأمل، وهو بالإضافة إلى أشياء أخرى يساعد الشخص على تفهم أن تجارب حياته تؤثر في العمل الذي يقوم به. كذلك يمكن للسؤال أن يثير وعي الشخص على أن طريق الشفاء تحتوي على دروب كثيرة وأن آخرين قد يسعون للحصول على أشكال للمساعدة تختلف عن تلك التي ساعدتنا ومنحتنا الأمل.

نحلم بأكثر طريقة مثالية للشفاء من المحنة

ما هي باعتقادك الطريقة التي يمكنك أن تجدها لمساعدة الآخرين على الشفاء من محنتهم بحيث يستطيعون مساعدة آخرين غيرهم على تجاوز محنهم أيضاً؟ أيمكن لهذه العملية أن تحدث؟ من سيقودها؟ أين ترى نفسك وسط تلك الصورة؟ صف العملية بأكثر تفصيل ممكن، سواء كانت رؤية صغيرة أم كبيرة.

المنطق هنا يقول بأن الدعوة إلى الحلم عادة ما تفتح مناطق غير مكتشفة وتخلق إبداعات جديدة. فهي تحرر الإنسان من التصلب والاشتراط والتوقعات الوهمية التي يمكن أن يرزح تحت ثقلها. كل شيء ممكن في الحلم. والسؤال الذي يقول: أين تجد نفسك في الحلم، يساعد الشخص الذي تتم مقابلته على كشف مصادر قوته من خلال رؤيته لنفسه كنقطة مركزية في هذا العمل.

الردود وردود الفعل على هذه المقابلات

تأمل بالمقابلة التي تمت، ما هي الناحية التي تعتبرها ذات معنى أكبر في هذه المقابلة؟ هل أوجدت لديك منظورات جديدة في حياتك أو في عملك أو في رحلة شفائك؟ بأي الطرق، يمكنك استخدام إجراء المقابلات في عملك؟ أو في حالات أخرى؟ أو لأي سبب آخر؟ .

منطق السؤال هو أنه يهدف إلى تلقي تغذية راجعة من الذين تمت مقابلتهم، من أجل تشجيعهم على المزيد من التأمل والتفكير وعلى إدخال هذه الطريقة في البحث والسؤال ضمن ممارساتهم الهادفة إلى الشفاء من المحنة.

سأل أحد الأساتذة الروحانيين تلاميذه: كيف يمكنكم معرفة أن الليل قد انتهى وأن النهار هو في طريقه إلى الظهور:

سأله أحد التلاميذ: هل يمكن أن يكون الجواب هو أنك عندما تجد حيواناً عن بُعد وتستطيع تمييز إذا كان كلباً أم خاروف؟

كلا. أجابه الأستاذ.

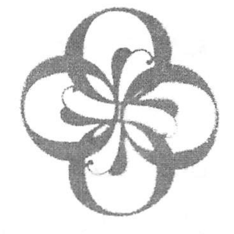
وسأل تلميذ آخر: هل يمكن أن يكون الجواب هو أنك عندما تنظر إلى شجرة عن بُعد تستطيع التمييز إذا كانت شجرة تين أم شجرة دراق.

كلا. قال الأستاذ.

حسناً! كيف ذلك؟ سأله التلاميذ.

وأجاب الأستاذ: عندما تنظر إلى وجه أي امرأة أو رجل وتعلم أنه أخاك أو أنها أختك. لأنك إذا استطعت أن تفعل ذلك فلن يهمك الوقت حتى ولو كان ليلاً.

غير معروف



الفصل السادس عشر

القوة الإيجابية للصوت في بناء السلام

باولا غرين وتامرا بيرسون دي ستري

تعمل الرواية كخيط يربط الأشياء ببعضها ضمن عملية إنعاش المجتمعات التي مزقتها الحروب. ولعل الحديث عن المعاناة والنجاة، ووجود شواهد على العداءات والانتصارات الصغيرة التي تتم من قبل أطراف النزاع، توّسع إمكانية الشفاء وتمهد الطريق لإعادة إحياء المجتمع. وهذا الفصل يصف خليطاً من مجموعتي حوار عرقيتين: واحدة من حرب البوسنة والثانية من الناجين من الهولوكوست، إضافة إلى قيمة صوت المشاركين مجتمعين. ويتم هنا مناقشة البحث التقديري على أساس كونه أداة تدخل في الحوار الدائر بين الجماعتين، وكوسيلة لتأطير الأسئلة الإيجابية التي تكشف عما يعطي الحيوية للناجين ولسلالاتهم، لاكتشاف الروايات والاستفسارات التي تمكن المشاركين من الانتقال من وضع الضحية إلى وضع الشخص الذي يمكنه رؤية الأشياء. كذلك يُعنى الفصل باكتشاف البنى الأخرى التي توظف الروايات في سبيل إحياء المجتمعات، مثل بعثات كشف الحقيقة وتوثيق قصص الناجين.

*

تقوم العلاقات الإنسانية على القصص والذكريات، سواء كانت قصصاً مأساوية أو أمجاداً يختارها (فولكان، 1997). كل فرد، وكل مجتمع يحيك رواياته المؤلفة من الأساطير والرؤى والانتصارات والمآسي. والروايات تبني جسوراً من التفاهم بين

الناس كما أنها تجرح وتهين وتهدم شبكة العلاقات التي تربطهم. والرواية التي نحييها يمكنها أن تحدد تاريخنا.

كان أحد الجدود من مواطني البلاد الأصليين يحدث حفيده عن شعوره فقال: أشعر وكأنما يوجد في صدري ذئبان يتقاتلان. الأول غاضب وعنيف ومنتقم والثاني محب وحنون. سأله حفيده أي من الذئبين سيربح المعركة في صدرك، أجابه الجد: الذئب الذي أغذيه.

البحث التقديري وحل النزاعات

يتساءل ساميسون (2002، ص 2): «كيف يمكننا أن نعثر على الإلهام والأمل وسط الدمار واليأس؟ كيف يمكننا أن ننهض من التفرقة والانقسام لنضع رؤية مشتركة معاً للمستقبل الذي نرغب في إيجاده؟» يمكننا أن نسلم بأن الحوار هو طريقة إيجابية للتغيير، على الرغم من محاولة القائمين على الأسئلة تأطيرها وتوجيهها لتشجيع الروايات والشعارات التي تسهم في إعادة إنعاش الحياة بدلاً من أن يوجهوها نحو جوهر الموضوع الإيجابي. ويطمح الحوار الدائر بين المجتمعات إلى رفع الصوت إضافة إلى الوصل والإنعاش. وتسهم لحظات التغيير في الحوار الدائر بين الجماعات إلى نفخ الحياة في عملية بناء السلام، إضافة إلى توفير الإلهام والأمل وبذور المستقبل الجديد. أما النعمة الكبرى هنا فتكمن في حقيقة أن المشاركين قد يتحركون بعيداً عن دائرة « الضحية والمجرم » باتجاه دائرة جديدة يصبح فيهما كل من الطرفين على حد سواء فريقاً ذا رؤية.

والبحث التقديري يدعونا إلى أن نحشد أفضل ما عندنا من روايات شخصية وجماعية، وأن نعثر على الجوهر الإيجابي الذي يمنحنا الحياة (سامبسون، 2002). كما يخبرنا البحث التقديري أيضاً أن الأسئلة التي نطرحها يمكنها أن تحدد تاريخنا. من ناحية أخرى، يتم توجيه الأطراف المتنازعة خلال إجراءات حل النزاعات للتركيز على المشكلة أو على العلاقة المضطربة، وبعد أن كانوا يُسألون دائماً عما هو خطأ وما هو صحيح. وإذا ما تبعنا روح البحث التقديري، والتي تبين لنا أن ما نركز عليه،

سوف يميل إلى التزايد، فإننا سنستنتج بأن المقاربات الأكثر تقليدية في حل النزاعات يمكن أن توسّع من إبعاد النزاعات وربما الأبعاد الأكثر تدميراً، حتى وهي تحاول حل هذه النزاعات. أما في داخل روح البحث التقديري فنحن نواجه تحدياً يتمثل في حساب كيف سيكون الأمر حين نركز على أسئلة تنعش الحياة خلال عملنا مع الجماعات المتنازعة.

ولكننا لا يمكن أن ننكر بأن رد فعلنا الأوّلي على البحث التقديري كان يقول بأن التركيز على الناحية الإيجابية وحدها من النزاع قد يكون غير ملائم وقد يفضي إلى نتائج خطرة. فالنزاعات تستمر بسبب المظالم الحقيقية والمعاناة وإنكار المعتدي وتصرفاته العنيفة. ولعل تجنبنا لمواجهة هذه الحقائق خلال عملية السلام يمكن أن يتغاضى عن القضايا الجوهرية التي تشجع احتدام النزاعات أو إشعالها على أقل تقدير. كما أن استهلال العملية بإبداء التقدير قد يبدو ساذجاً يخرس الأطراف المظلومة وينتهك حقوقها. لأننا إذا قمنا بتشجيع التقدير قبل أن يحين أوانه فإننا سنبدو وكأننا نتواطأ مع الأكاذيب أو نعمل كشركاء في إنكار الجريمة. ويبين فريدمان (2002) بطريقة مقنعة بأن التركيز على « الوجه الجيد » في مثل هذه السياقات يفسح المجال أمام الطرف الأقوى بأن يتجنب تلقّي أية أسئلة قاسية حول المسؤولية التي يتحملها. وفي نفس الوقت يشعر وكأنه قد أسهم في عملية السلام من خلال مشاركته. ولكن كوبر رايد ويتني (1999) أوضحا أن السؤال الذي يقف وراء البحث التقديري لا يتعلق بالضرورة بما هو إيجابي أو جيد ولكن بما يدفع إلى إحياء الأمور وإنعاشها. ونحن نسلّم ضمناً بأن عملية حل النزاعات تملك صفة جوهرية في مجال إحياء الأمور وهي الرواية أو القدرة على إيجاد الصوت الذي يروي القصة أو التجربة المُعاشة فروايات صنع السلام تكشف صفة بعث الحياة في المشاركين من ناحية المشاركة في قصصهم ورواياتهم وحقائق حياتهم.

ومن خلال التفكير في جذور البحث التقديري المترسخة في التطوير المؤسسي، نجد أن هذا البحث ظل يستخدم بشكل تقليدي كأداة تغيير إدارية وسط بيئات تختلف

تماماً عن بيئات مثل مخيمات اللاجئين والمناطق التي تمزقها الحروب وغيرها من المواقع التي يمكن تهيئة الأجواء فيها لإجراء حوار بين الجماعات المتنازعة. ظل البحث التقديري في أوسع مجالاته تقنية تستخدم في أماكن العمل، وفي أفضل حالاته، وسط ظروف تدعم فيها البنى الموجودة المشاركة في إحداث تغيير منهجي. ولكننا الآن نواجه تحدّياً يتمثل في تطبيق تلك التقنية في صياغة حلول للنزاعات تكون فيها الأطراف محطمة نفسياً، فاقدة الثقة، ولا توجد فيها بنىً قيادية جاهزة لتبني التغيير. ضمن هذه الظروف، كيف يمكننا تسخير أسئلة البحث التقديري من أجل تحرير الروح الإنسانية وإيجاد الوعي المطلوب لبناء مستقبل أفضل. (كوبررايدر وويتني 1999، ص 10).

حالة دراسية حول الصوت في الحوار

العثور على الصوت الذي يستطيع التحدث عن الألم، ويلقى اعترافاً من كلا الطرفين المتنازعين قد يكون عاملاً مهماً في إحياء عملية السلام رغم عدم كونه صوتاً تقديرياً مثالياً أو أصيلاً. فالصوت يثبّت الهوية وينقل السلطة ويحافظ على إنسانية الفرد. ولكن صوت المتحدث نفسه كضحية لا يشكل وحده أساساً لنجاح الحوار، بل أن إدراك سامع الصوت لكونه صوت ضحية واعترافه بهذا الأمر وتأكيده عليه، هو عامل جوهري أيضاً، خاصة إذا كان هذا المستمع هو جزء من المجتمع المعتدي. وفي المثال الذي يلي، كانت دموع الندم التي انهمرت من الوزير الألماني بمثابة مصادقة على أصوات المحاورين المشاركين من مسلمي البوسنة، وهو اعتراف طالما كانوا يتوقون لسماعه بعد أن طال كبحه من قبل شركائهم الصرب. وفي عملية شملت نقاطاً ونقاطاً مضادة، استطاعت أصوات الضحايا وأصوات المعتدين أن تخلق معنى جماعياً من رواياتهم المنفصلة، لتبني تدريجياً جسور الثقة والتفهم والعلاقات الودية. وفي الحالة الدراسية التالية التي تتضمن حوار بين جماعات، عملت إحدانا وهي باولا غرين في إدارة جلسة الحوار وهي التي ستروي لنا الحكاية.

تظهر أهمية الصوت والاعتراف به في الحوار الدائر بين الجماعات، من خلال هذا الاجتماع التغييري بين مجموعتين: الأولى من الناجين من الهولوكوست خلال عقد الأربعينات من القرن العشرين، والثانية من الناجين من حرب البوسنة خلال عقد التسعينات من القرن العشرين أيضاً. وقد تم الجمع بين المجموعتين في البوسنة من أجل استكشاف الإمكانيات الموجودة في الروايات للشفاء من المحنة، ومن أجل التعلم من معاناة بعضهما البعض ومن تجاربهما العملية في لأم الجراح والتغلب على آثار المحن. وسط هذا الحوار غير العادي والساخن والناجح ضمن اعتبارات مزج المجموعات في الحوارات، التقت مجموعة من المربين الصرب والمسلمين للمشاركة في حوار بين الأعراق مع مجموعة من الجيل الثاني للناجين من الهولوكوست مؤلفة من ألمان ويهود، واستغرقت جلسات الحوار أربعة أيام.

كان الفريق البوسني التابع لمشروع الحوار وبناء المجتمع (Diacom) يتألف من مربّين قدموا من مدن إقليم سانسكي موست في فيدرالية البوسنة ومن بلدة بريجيدور في جمهورية الصرب وهما الكيانان اللذان يكوّنان ما يسمى بالبوسنة. أما مجموعة الناجين من الهولوكوست التي تسمى « واحد واحد » أو (ون باي ون) فتجتمع في الولايات المتحدة وألمانياً وتشمل أعضاء تأثرت عائلاتهم بشكل مباشر من الهولوكوست.

كنت أقد أطلقت مشروع الحوار البوسني قبل أربع سنوات بناء على طلب المربين الصرب المسلمين الذين تقطعت علاقاتهم نتيجة للعنف الذي ضرب البوسنة بعد أن كانوا يعيشون مع بعضهم البعض في ترابط حياتي. كانوا يرغبون في استكشاف علاقاتهم وتجهيز أنفسهم للمهمات الشاقة المتعلقة لإعادة إصلاح المجتمع. كذلك قمت بإدارة حوارات متقدمة لفريق (ون باي ون) لما بعد الهولوكوست من أجل تعميق العلاقات بين الأعضاء. وعبر سنين من التواصل والحوارات الصعبة، تلاحم أعضاء هذه المجموعة من الألمان واليهود بشكل أعمق وقد جمعتهم ببعضهم البعض تلك الظروف الخاصة المتعلقة بماضي عائلاتهم.

تم دعوة أربعة أعضاء من مجموعة « ون باي ون » للانضمام إلى رحلة البوسنة حيث يمكنهم استخدام خبراتهم « كمعالجين مجروحين » لمساعدة البوسنيين في عملية النهوض من الحرب. وقد تبين أن هذه العملية كانت نعمة بالنسبة للمجموعات الأربع بأكملها وهذه المجموعات هي: الألمان البروتستانت، واليهود الأميركيون، والمسلمون البوسنيون الصرب البوسنيون الأرثوذكس.

التقينا في فندق بإقليم سانسكي موست، وهي منطقة مزقتها الحروب ووقعت فيها أحداث تطهير عرقي بحيث أصبحت الآن موطناً للاجئين والعائدين من مسلمي البوسنة (البوشناق). وقد اشتمل الأسبوع الذي تضيناه معاً على محاضرات قدّمها أعضاء جماعة ون باي ون في كل من سانسكي وبلدة بريجيدور الصربية المجاورة التي عانت أيضاً من الإبادة العرقية. ولكن صلب عملنا تجلى في أربعة أيام من الحوار الدافئ بين مجموعة التدريب البوسنية المؤلفة من المسلمين والصرب وبين أعضاء ون باي ون من اليهود والألمان.

وقد شاركت أميركية تدعى ماري من منظمة ون باي ون، وهي ابنة ليهودية رومانية نجت من معتقل أوشفيتنر. وكتبت ماري هذه الملاحظة في بداية الجلسة:

> « هناك شعور بالجرح في هذه القاعة. إني أسجل صدمة في نفسي وأنا أحدق في الوجوه التي خلّفتها الحرب. أعود بالزمن إلى الوراء وأرى أمي بعد خمس سنوات من الحرب، في حين ينظر البوسنيون إلى الأمام ويرون فينا أطفالهم بعد خمسين سنة من الحرب. نحن نمثل جيلين من المذابح العرقية يواجهان بعضهما البعض عبر الزمن. إن الأشباح في القاعة أعلى صوتاً من الأحياء وأشعر نفسي مغمورة بحزن غير معبّر عنه. يجلس الجميع بصمت والغرفة تعج بالصور، لا يذرف أحد منهم دمعة، كأنهم تجمدوا من قسوة الألم الحالي».

وفي إحدى الجلسات المغلقة التي ضمت عشرة زعماء بوسنيين تحت التدريب، بالإضافة إلى أربعة أعضاء من جماعة « ون باي ون »، ومدير الجلسة وفريق الترجمة. عملنا بجهد دؤوب من أجل استكشاف العلاقات. وقد بدأ أحد أعضاء جماعة ون باي ون وهو قس لوثري متقاعد في ألمانيا، كان في السابق عضواً في شبيبة هتلر بتقديم

عرضه بشكل غير متوقع ودموعه ملء عينيه. وبذا استطاع أن يضع عرفاً بعاطفة وجوده وأصالة صوته واعترافه. فقد اعتذر بنحو فريد من الصرب عن الاعتداء الذي شنّته ألمانيا في الحرب العالمية الثانية واعتذر للمسلمين عن تواطؤ ألمانيا والعالم بوقوفهم جانباً تاركين البوسنة تؤول إلى الدمار. وتحدثت إيونا وهي ألمانية أخرى من جماعة « ون باي ون » عن حبها لأبيها وعن الخيانة المطلقة التي شعرت بها عندما علمت عن ماضي أبيها النازي. ذكرت عار وصمت المتفرجين وأبدت قلقها على الجيل القادم. فهذا الجيل سيحمل ذنب أهله إذا لم يقم الأهل بالتعامل مع هذا الذنب.

وبسبب تجاربها السابقة وذكرياتها عن رومانيا، شعرت ماري بضعفها وسط التركيبة الشيوعية السابقة لأوروبا الشرقية. وقد استثارت الدموع في عيون الجميع حين وصفت عدم قدرة أمها على نسيان معسكرات الاعتقال. وتأثير هذه المعتقلات على مسيرة حياتها. وفيما هي تتحدث دخل محمد وهو أحد المشاركين من مسلمي البوسنة في مخاطرة عاطفية هائلة حين ذكر ملاحظة والألم يعتصر قلبه بأن الصرب أظهروا قلقاً أكبر على ماري التي قابلوها لتوهم مما أظهروه على معاناته الحالية رغم كونه معهم في الفريق منذ مدة طويلة. قال محمد: « إن مجموعتنا تظهر عطفاً أكثر مع اليهود من جماعة ون باي ون أكثر مما تظهره للضحايا هنا – إن قصصنا ليست أقل تأثيراً من قصصهم ».

عندما لاحظنا أن الصرب قد أداروا وجوههم بعيداً عن عيون محمد الدامعة اضطررنا للتدخل كمديرين للجلسة من أجل تشجيع المجموعة على الانتباه لمحمد ولطريقة ردّهم. وقد لمسنا أن استماع الصرب لمحمد كان يعني بالنسبة لهم امتلاك حقيقة ما حدث لهم في بريجيدور، بلدتهم ووطنهم بكل معسكراتها والجرائم التي ارتكبت فيها خلال الحرب. أما محمد زميلهم منذ مدة طويلة، فقد كان يطلق العنان في تلك اللحظة لغضبه الصامت الطويل على أعضاء المجموعة من الصرب. كان وجهه أشبه بخريطة من الحزن. كان استقبالهم لقصته يثير على ما يبدو حزناً وعاراً وشعوراً بالذنب والضعف

أمام وقوفهم كمتفرجين لا قدرة لهم على إيقاف دائرة العنف والألم ضد جيرانهم وأصدقائهم السابقين. أما استقبالهم لقصة ماري حول الهولوكوست، فلم تكن تتطلب منهم من ناحية أخرى كمشاركين صرب أية مشاعر شخصية.

وقد وصل الفريق إلى نقطة تحول، هي نقطة تكررت كثيراً في حضور أعضاء « ون باي ون » وظهر على السطح صوت عاطفي أعطى شكلاً للعلاقات بين جميع البوسنيين الممثلين في الحوار. شعرنا جميعاً بوجود روايات أكثر لدى البوسنيين المسلمين المشاركين ولكن هذه القصص المؤلمة لم تظهر إلا بعد رحيل فريق « ون باي ون ».

بعد مغادرة أعضاء مجموعة « ون باي ون » كان قد بقي لدينا يوم واحد نقضيه مع المتدربين البوسنيين وهو الفريق الذي وضعنا ثقلاً كبيراً لتدريبه على مدى السنوات الثلاث السابقة. وقد أخبرتنا فيرا التي توجب علينا عدم ذكر اسمها الحقيقي قصة لم تذكرها في السابق مطلقاً. قصة محنة ورعب لا تصدق ظلت محفورة في جسدها تبعث فيها هبّات من اليأس والصدمة من وقت لوقت. وفيما كانت تحكي مأساتها، تدخل شاب بوسني مسلم ليمسك بها ويبكي معها وهو ينتحب على تجربتها وعلى ستة وثلاثين فرداً من عائلته فقدوا خلال الحرب. كان قلبي يتزعزع من مكانه لهول ما سمعت بينما ظل ذهني متوقداً يراقب المشاركين. كان الصرب الخمسة الموجودون بيننا، وجلّهم نساء يتحاشون النظر وقد دفنت إحداهن وجهها في دفتر الملاحظات.

أدرك رفيقي في التدريب كما أدركت أنا بأننا وصلنا إلى نقطة دقيقة تتطلب التدخل. بدت الأرض وكأنها تهتز تحتنا لرهبة الصوت ولهول ما نسمعه. لم تكن جماعة « ون باي ون » موجودة بيننا ولكنهم ظلوا كأنهم شهود غير مرئيين. إذا لم تتجاوب المجموعة مع هذا التدفق من الحزن، وإذا بقي الصرب متجمدين في خوفهم وولاءاتهم المنقسمة، فإننا نخشى أن لا نستطيع تحريك المجموعة إلى الأمام ليصبحوا إداريين للجلسات. إذا لم تستطع المجموعة أن تعبر هذه الحادثة المحورية، فسيبقى أعضاؤها المسلمون والصرب متقوقعين في عزلتهم ويأسهم وانقسامهم لا يستطيعون

الانضمام للعمل مع بعضهم البعض في هذه اللحظة من التاريخ، ولا يمكنهم بالتالي صنع مستقبل مشترك قائم على الحقيقة.

وبنعمة إلهية، استطعنا إيجاد الكلمات لتهدئة فيرا وتعزيتها وفي الوقت نفسه إراحة النسوة الصربيات من شعورهن بالعجز والعار بحيث استطعن التعامل مع فيرا. فقد نهضت إحداهن وتدعى ندى، وهي امرأة قوية وشجاعة وعبرت القاعة باتجاه فيرا وعانقتها وهي تهدئ من روعها وتقول: إن ما عانى منه والداي خلال الحرب العالمية الثانية كان رهيباً ولكنه لم يكن بقسوة ما عانيت منه ». في تلك اللحظة الحاسمة من الحوار بين الأعراق، اعترفت ندى بأن قصة فيرا كانت حقيقية وأنها تقارن ما حدث من إبادة عرقية مع تجربة أهلها الذين وقعوا ضحايا لهذه الإبادة قبل خمسين سنة.

بعد ذلك نهضت ميلكا وهي المربية الصربية الأكثر صدقاً مع مشاعرها بين المجموعة، وطلبت الصفح من زملائها المسلمين والمصالحة معهم وقد اغرورقت عيناها بالدموع. وهنا أيضاً تدخلنا في الحوار لكي نتأكد من أن الجميع قد سجلوا في مخيلتهم هذه اللحظة الغفرانية وهي المرة الأولى التي يحدث فيها مثل هذا الشيء بين هذه المجموعة الملتزمة والمكافحة. وسط هذا التعاظم في المشاعر، انتقلت المجموعة لتقضي بعض الوقت في التفكير والتأمل.

في الجلسة الختامية التي تلت قال فائق وهو معلم رياضيات من إقليم سانسكيموست: لقد أعطتني مجموعة « ون باي ون » الشجاعة لأروي قصتي. إن الإرشادات التي نتبعها في استماعنا إلى القصص هي جوهر عملنا وعلينا أن نصغي إلى بعضنا البعض وقد قامت ندى التي كانت تعتقد أنها خرجت من الحرب سليمة إلى حد ما بتجميع فتات الأساطير والقصص التي يجب أن تظهر في حقيقة أكثر أمانة وأملاً لتحقيق الانفراج وقالت في هذا الصدد: « أشعر بالانزعاج. ربما أنا في مأزق داخلي مع نفسي. كما أن ذهني مشوش. كنت أظن أني سعيدة حقاً فلدي زوج رائع

وولدان وعمل جيد وكل شيء كان على ما يرام. أما الآن، فأشعر أني محطمة ويجب عليّ أن أستخدم مشاعري الجديدة لأتبين ماذا حدث معي. لا أعرف إذا كانت سعادتي سعادة حقيقية ».

لم يكن فائق هو الوحيد الذي علق على مدى قوة تأثير هذا المزيج من الحوار فقد كتبت ماري ببلاغة عندما عادت إلى الولايات المتحدة ».

« لو لم أذهب إلى ساكسيموست وبريجيدور لكنت ما زلت أحتفظ ببعض براءتي ولكنني كنت هناك ولا يمكنني أن أنكر ما تعلمته من أن الإبادة العرقية ما زالت ممكنة بعد مضي خمسين عاماً على معتقل أوشفيتز وأن الهولوكوست قد انتهى فقط بالقدر الذي تعلم كل منا دروسه. هناك خطر كبير في تجاهلنا ما يحدث، وفي سماحنا لشرور الإبادة العرقية بأن تتسرب إلى قلوبنا. في عالم ابتُلي بأناس على استعداد ليضعوا إنسانيتهم جانباً ويقوموا بذبح جيرانهم، هناك نداء يدعونا جميعاً للتحرك».

تأملات حول الحالة الدراسية المتعلقة برفع الصوت

في تجميعنا لهذا المزيج من مجموعات الحوار برزت عدة أسئلة مهمة بالنسبة لي فمن خلال ملاحظتي لمهارات مجموعة « ون باي ون » في عملية الحوار ولمدى الحميمية التي حققوها في اختراق حواجز بدت مستحيلة، أخذت أتساءل ما الذي يمكنهم تعليمه للبوسنيين حول قول الحقيقة لبعضهم البعض. فمعظم أعضاء المجموعة من اليهود والألمان المنتمين إلى جماعة « ون باي ون » هم من الجيل الثاني للناجين من الهولوكوست أو أشخاص كان أهلهم جزءاً من الرايخ الثالث والقليل منهم كانوا من الجيل الأول الذي خبر هول الهولوكوست مباشرةً بنفسه. أما البوسنيون من الناحية الأخرى فجُلّهم ضحايا مباشرون أو أفراد في عائلات معتدية أو متفرجة أو هم أنفسهم معتدون ورغم هذه الاختلافات الجوهرية بين المنحدرين من الهولوكوست والناجين من حرب البوسنة، يبقى النضال في كلتا الحالتين من أجل تقديم الشهادة ورفع الصوت نضالاً قوياً.

من شاهد إلى مستقبل الخدمات للآخرين

قبل أن تحدث الواقعة التي سردناها سابقاً، وفي إحدى النقاشات غير الرسمية التي كانت تدور حول البوسنة بعد الحوار مع جماعة « ون باي ون » ذكر أحد الأعضاء اليهود من هذه المجموعة بأنه كان يتمنى لو أن مساعي بناء السلام ورأب الصدع كانت متوفرة لدى أهله بعد الحرب العالمية الثانية. لم يستطع زميلي تصور أهله وهم يدخلون في حوار مع الألمان ولكنه تمنى لو أنه كان هناك بعض الاهتمام أو الاعتبار لمشاعرهم المحطمة بعد أن تعرضوا لتدمير إنسانيتهم ولعنف قاسٍ في معسكرات الاعتقال. ويعلق العضو اليهودي قائلاً: لو أن أهلي تلقوا دعماً نفسياً خلال تلك الأعوام، لربما كنت نعمت بطفولة أقل تدميراً من طفولتي بعد الهولوكوست.

وقد شجعت ملاحظات هذا الشاب تفكيري بأن جماعة « ون باي ون » تملك خبرات مفيدة لمشروع Diacom للمشاركين البوسنيين، الذين كانوا يكافحون بشجاعة من أجل التحدث مع بعضهم البعض. أحسست بأن المجموعة اليهودية والألمانية يمكن أن تقف شاهدة على أهمية إعطاء الحقيقة في الجيل الأول صوتاً أمام إرث من المحن التي لم يتم ذكرها أو التي خانتها عوامل الصمت والأسرار العائلية والأكاذيب والأحداث التاريخية المشوهة. على هذا الأساس، قمت بدعوة جماعة ون باي ون من أجل اختيار مندوبيهم لمرافقتي إلى البوسنة.

برزت هناك منفعة غير متوقعة في التأثير الذي سوف يتركه البوسنيون على جماعة « ون باي ون » من حيث إرشادهم إلى مدى صلة تجربتهم في الحوار بتجارب آخرين يعانون من إرث الحرب، وبذلك يشقون طريقاً نحو مستقبل يقدم الخدمات للآخرين.

متى يحين الوقت لمواجهة حقيقة التاريخ؟

هناك مسألة أخرى تتعلق ببناة السلام وهذه المسألة هي تأثير مرور الوقت على الحوار ورفع الصوت وعملية الشفاء. فقد انتهت الحرب في البوسنة قبل خمس سنوات

وما زالت ذكرياتها حاضرة ودمارها مرئي وجراحها واضحة. بالنسبة لليهود والألمان الذين يشترك أحفادهم في الحوار الدائر بين الضحايا والمعتدين، كانت الحرب قد انتهت منذ أكثر من خمسين عام. ما هو الوقت المناسب لبدء الحوار بين الإثنيات بعد الحرب؟ متى يعتبر الوقت مبكراً؟ وما هي العوامل الزمنية والعوامل المتعلقة بالجهوزية التي يجب أخذها بالاعتبار بالنسبة للأصوات الصاعدة إلى جانب طلب المشاركين والحاجة إلى الأمن والسلامة؟ وما هي أنواع الأسئلة التي سوف تستنهض القوى المانحة للحياة الموجودة والنشطة، من ناحية البحث التقديري؟

واحد مقابل واحد، تعلمت شيئاً عن مدى عمق المعاناة التي تعانيها مجموعة المعتدين. فأنا أستطيع أن أرى مدى الأسى الذي يحمله أعضاء المجموعة الألمانية حول تصرف أفراد عائلتهم وأمتهم. وأنا أعلم أنهم تواقون إلى دمل هذه الجراح والدخول في تجربة كونهم أشخاصاً طيبين، ليس عبر الإنكار ولكن عبر مواجهة التاريخ. كانت رسالتهم إلى البوسنيين تشدد على أن الطريق إلى التسامح واستعادة الكرامة والحس المجتمعي تتكشف عبر الصوت والاعتراف والتكفير عن الخطايا. إذ أن على الأطفال أن يتعلموا حقيقة العنف الذي ارتُكب من قِبَل الكبار وحقيقة معاناة الضحايا التي تحملتها عائلاتهم. فالعائلات الثكلى والتاريخ المجتمعي لدى كل من الضحية والمعتدي، تعيد تفعيل نفسها، جيلاً إثر جيل لتنقل المأساة وتخرج الأشباح التي تطالب بالثأر. فقط الحقيقة هي التي يمكن أن تجعلنا أحراراً. من أفضل تأهيلاً لنقل مثل هذه الرسالة من أحفاد الهولوكست والرايخ الثالث؟ من وجهة نظر البحث التقديري، إن شهادة واحد مقابل واحد تقول: إن الحقيقة هي التي تعطي الحياة.

يتوقون للاعتراف بأصواتهم

تأثر المربون البوسنيون كثيراً وهم يلاحظون التقارب في الحوار بينهم وبين مشاركيهم من اليهود والألمان. فما زال المربون المسلمون والصرب، الذين كانوا زملاء، وجيراناً وحتى أقارب سابقين، يشعرون حالياً ببعض الغربة عن بعضهم

البعض. هم يعيشون في كيانات سياسية مختلفة ويحملون في صدورهم أزمات متعارضة نتيجة للحرب نفسها. وهذه المحن هي الشعور بأنهم ضحايا والشعور بالخسارة العميقة إضافة إلى الشعور بمحنة اضطرارهم إلى الدخول في عضوية مجموعة عرقية معتدية. ويطمح الأعضاء المسلمون إلى جعل صوتهم مسموعاً وإلى تلقي اعتراف من الصرب بأنهم أساؤوا معاملتهم على الأقل ضمن حدود المجموعة، فيما يستمر الأعضاء الصرب في إنكار المذابح والاعتداءات التي ارتكبها أبناء عرقيتهم في البوسنة. وقد كنا نأمل أن تؤثر الأخطار الكبيرة التي تجشمها أعضاء جماعة ون باي ون في إظهار صدقهم وفي التزامهم بالحوار، في تقديم الإلهام العميق للبوسنيين. وقد حصل هذا فعلاً.

الفوارق الحضارية في الحوار

في نواحٍ عديدة، لم تكن أوضاع مجموعتي الحوار متناسبة. فالعوامل الحضارية والاقتصادية إضافة إلى عوامل مثل العزلة والتدمير الاجتماعي والضغط السياسي وعودة اللاجئين إلى أوطانهم والتدخل الدولي، وقضايا أخرى، تركت أثرها في عملية الحوار. فالألمان واليهود من الجيل الثاني للهولوكوست في مجموعة ون باي ون يطورون بشكل متكرر مهاراتهم في الحوار عبر طرق مثل المعالجة النفسية، والعمل ضمن مجموعات والأعراف المتضمنة في الثقافة التي تتلاءم مع التعبير العاطفي وإفشاء مكنونات النفس. أما البوسنيون فقد قدموا من عائلات تنتمي إلى عشائر كبرى ومن خلفية خمسين سنة من الحكم الشيوعي إضافة إلى خبرة محدودة في العمليات التي تشمل مجموعات منظمة. وكما ذكرتني المربية الصربية ميلكا: لقد تعلمنا بألا نتدخل في السياسات الحكومية، وأن لا نعبر عن مشاعرنا أو نتحدث عن مشاكلنا خارج الأطر العائلية.

الأبعاد السياسية للحوار

تؤثر البيئات الاقتصادية والسياسية التي تحيط بالحوار، بشكل واضح في عملية الحوار نفسها وفي نتائجها، وعلى عكس أبناء الهولوكوست، يتوجب على البوسنيين

أن يوجدوا تاريخاً مشتركاً لهم كجيران. وبالإضافة إلى الهموم التي حملوها، يواجه البوسنيون صراعات مع اقتصاد راكد، وبنىً تحتية ممزقة وشعب يعاني من البطالة وهبوط المعنويات وفي هذه المنطقة من شمال البوسنة يعيش المواطنون في كيانين مُغربين ومتباعدين يظل فيهما الحوار بين الأعراق خارج نطاق العادات الاجتماعية السائدة حتى قبل نشوب الحرب. في مثل هذه البيئة الكئيبة، كيف يمكن للمشاركين في الحوار أن يلأموا جراحهم ويبنوا مجتمعهم؟ ما الذي يمكنهم أن يفعلوه ليسمعوا صوتهم وما هي نتيجة ذلك؟

ولكن التراحم والحنان، وهما النتاج الذي نأمله من عملية الحوار، لا يظهران بسهولة في أوقات الصراع والحرمان. كذلك غالباً ما يتعرض المشاركون في الحوار إلى ضغوط عائلية ومجتمعية تحثهم على عدم التعاون مع العدو المنظور كما أن السياسيين الذين يحمون حياتهم ومصالحهم الخاصة يمكن أن يعملوا على تهديد المشاركين في الحوار بفقدان وظائفهم أو بالأسوأ من ذلك. ولكن انقسام الولاءات التي مزقت العائلات البوسنية المختلطة خلال الحرب أخذ الآن يجمع العائلات حول قضايا بناء العلاقات بين الأعراق، وهي قضايا تشابه ما حصل مع جماعة « ون باي ون ». وفي أفضل الظروف يمكن أن يلقى الحوار دعماً وتأييداً من الطقوس العامة لبناء السلام مثل أيام الحداد والمناسبات التذكارية وبعثات التحقق ومحاكمات مجرمي الحرب. ولكن هذه الحالات غائبة عن البوسنة على الأقل في الفترة الحالية. إلا أن هناك مؤشرات قد بدأت تظهر حول الإصلاح الاقتصادي أو الانتعاش وعمليات بناء المجتمع مما قد يسهم في تغذية الرؤية الداعية نحو بوسنة موحدة.

تسهيل إدخال عمليات الحوار

كنت أنظر إلى مهمتي في إدارة الحوار بين هذه المجموعة المختلطة من الأشخاص الشجعان والمثقلين بالجروح، على أنها بناء لإطار يحتوي الأشياء، أي إيجاد بيئة مقدسة وآمنة لحضور الحقيقة بحيث يمكن للقصص المعاشة أن ترفع صوتها وحيث يمكن

للاعتراف بمحنة الفريق الآخر أن يخفف من ألمه. إن ما جعل من إسماع الصوت أمراً ممكناً وسط ذلك الإدخال للحوارات هو الجمع الحذر والدقيق لهاتين المجموعتين اللتين تثقان بإداريي الحوار واللتين تملكان خبرة في العمل كمجموعة. كل يوم كنا نلتقي جميعنا في دائرة تشاركية صغيرة ونعمل عبر أسئلة منظمة ومشاعر تلقائية، ونشترك في سرد القصص الشخصية والحكم الجماعية. كانت القاعة تضم خمسة ديانات وتجربتان للإبادة الجماعية، والعديد من الثقافات، وتعقيدات في استخدام المترجمين، ولكن كل شيء كان إيجابياً هنا كل شيء ابتداءً من الحضور والأصوات والنوايا والشجاعة والالتزام والإرادة لإعادة البناء ورأب الصدع، وقد شكّل هذا كله جوهراً إيجابياً.

في هذه التجربة التي تدور على مستوى حواري متعدد مُطعّم بتاريخين للإبادة العرقية، اكتشف أعضاء جماعة « ون باي ون » مدى أهمية رحلتهم المجهدة بالنسبة لهؤلاء الذين يحاولون النهوض من آثار الحرب والخيانة. قد شعر أعضاء مشروع دياكوم Diacom بدرجة من الحميمية وسط أعداء سابقين وسلالاتهم لم يعهدوها من قبل ولم يتصوروا أنها قد تحدث إذ شارك هؤلاء في الاعتراف بماضيهم المأساوي كجسر لرأب الصدع وإعادة بناء المجتمع في البوسنة. أما نحن الذين أدرنا الجلسة فقد وقفنا في روعة أمام جميع المشاركين من معلمين وصرب يهود وألمان فيما هم يحيكون قصصاً جديدة من تاريخهم المتشابك. ولكن تلك القصص كانت ملتزمة بالأمانة ومراجعة المشاعر والأفكار، والمسؤولية المدنية والتراحم. شعرنا بأهمية احترام جميع أطراف الحوار، واضعين في ذاكرتنا أن لا حياة دون عناء خاصة خلال الحرب وأن الطريق إلى رأب الصدع قد تبدأ بعبارة واحدة ربما تكون: نعم لقد وقعت هذه المأساة، أنا أصغي لصوتك وأعترف بتجربتك وأقبل حقائقك.

نحن لا نستخدم في حوارنا لغة الغفران والمصالحة ولكننا ننتقي كلمات أكثر توجهاً للحاضر مثل: الروايات، العلاقات، بناء المجتمع، التعاون، ورأب الصدع، لأننا

نشعر أن الغفران والمصالحة، إذا ما تناميا أو تطورا فسينموان ويتطوران من وسط هذه الرحلة الكبرى ليجدا الصوت ويبنيا الثقة ويعيدا بناء العلاقات.

ونعتقد بأننا لا يمكننا الانتظار خمسين سنة لكي يقوم الجيل الثاني برعاية عملية رأب الصدع، ونؤكد على أن تأجيل عملية الرواية العامة تشكل خيانة للجيل التالي. لأن الجروح تتراكم فوق الجروح ويصبح تنظيفها أكثر وأكثر صعوبة. ونعتقد أيضاً بأننا في حاجة إلى طقوس عامة تربط المجتمع، إضافة إلى أحداث خاصة مثل الحوارات لكي تعزز الروابط المميزة وتشجع التطور التعاوني. من الصعب ولكن ليس من المستحيل أن نوقف دائرة اللوم والحقد والاهتمام وأن نوازن بين الحاجة إلى العقاب والحاجة إلى التراحم. ويبقى التزامنا معقوداً على الحوار بين الأعراق على أمل أن ينبثق التغيير من خلال قوة الصوت لبناء الروابط والاهتمام ولفكفكة العجز الذي يفرزه الصمت. والحوار ليس دواءً شافياً لكل الأمراض ولكنه عنصر مهم في عملية مواجهة التاريخ، وتغذيه الثقة واستعادة العلاقات بين المجموعات.

بنى أخرى متعلقة بإعطاء الصوت

إذا كان الصوت يعتبر الغذاء الذي يعطي الحياة لحل النزاعات، دعونا إذن نذكر أمثلة أخرى عن تلك العمليات البنيوية التي بالإضافة إلى الحوار يمكنها أن ترفع أكثر من قيمة الصوت. تشمل هذه العمليات المشاركة في القصص المروية حول موضوعات أو مشاكل مشتركة، وتجميع الأصوات من أجل زيادة قدرتها، والإدلاء بالشهادات وتجميع الروايات المتعلقة بالإنقاذ وتخليد ذكريات معينة. إضافة إلى هذا كله، فإن كل حضارة تتيح فرصاً لظهور روايات وشهادات تشكل سلسلة كاملة تمتد من المعالجة النفسية إلى تبادل الأحاديث حول فناجين القهوة، والطقوس الدينية والثقافية وكتابة التاريخ، وهذه الأخيرة تصبح في أغلب الأوقات رواية المنتصر.

المشاركة في سرد القصص ضمن مجموعات

هناك وسيلة قوية لإعلاء صوت تجارب المعاناة والتهميش والقمع، تتمثل في المشاركة في سرد القصص من قبل مجموعات تشترك في تجارب متشابهة. فالمجموعات

التي تنبثق عن الحركات النسائية، على سبيل المثال أو عن مدمني الخمور مثل منظمة ALCOHOLICS ANONYMOUS أو عن اجتماعات Alanon توفر البنى من أجل أن يستمع الآخرون إلى قصة غيرهم مما يخفف من الشعور بالعزلة والعار. ويكتسب العثور على قضية مشتركة ضمن المجموعة قدرة تتسبب غالباً في خلق شعور لدى المظلوم بعدم الاعتراف به أو إدراك ما يحصل له (كيرل، 1971). فعلى سبيل المثال، قامت مجموعات إدارة الحوارات في تشيلي خلال فترة حكم الدكتاتورية بالتركيز على مشكلة الخوف، مما ساعد على تحرير المشاركين من عقدة الخوف التي كانت تمنعهم من التحرك ضد النظام.

ولكننا، رغم ذلك، شهدنا وجود ثقافات تعتبر فيها حتى الاجتماعات المغلقة والسرية مكاناً غير آمنٍ بما فيه الكفاية ولذلك فهي غير ملائمة. وفي بعض الحالات، يمكن للكشف عن تجاربِ الأذى والظلم ضمن مجموعة ما أن يشكل خطراً يؤدي إلى العزلة أو العقاب أو حتى إساءة المعاملة. وفي مثل هذه الحالات، ربما يتطلب الأمر أن يجد الضحايا طريقة أخرى للمشاركة في الروايات التي لا يمكنهم التعبير عنها، عن طريق حوارات شخصية مع أشخاص موثوقين.

وفي المجتمعات المغلقة والعائلات الموسعة المتشابكة الموجودة في بعض المجتمعات التقليدية، حيث تنسب المرأة بشكل متغير دائماً إلى أزواج نساء أخريات، لا يمكن لسرّ أن يكون آمناً، وحتى بين النساء. فأصواتهن تخرس عبر الولاء للعائلة وللتقليد، وبسبب الخوف أو القمع الذي يكتنف معيشتهن. في مثل هذه الحالات التي تم توثيقها من قبل الكاتبتين، استطاعت النساء التعبير عن شعورهن بالوحدة ورغبتهن في المشاركة بإظهار صعوبة معيشتهن مع نظيراتهن ولكن القلق من العقاب ظل يحكم حياتهن ويخرس أصواتهن.

التنظيم: الصوت الذي يستثير

أحياناً، لا يكون إخراج قصة ما لكي ترى النور كافياً لمعالجة همّ معين، خاصة إذا كان هناك من يشكك في حقيقتها من اجل أن يبقيها طي الكتمان بحجة وجود

أولويات أخرى أحياناً. هكذا هو الحال الذي ينتاب قصص النساء خلال الحرب. على سبيل المثال، قامت إحدى المشاركات في ورشة تدريب أقيمت من أجل حل النزاعات في أحد مخيمات اللاجئين برواندا بإطلاق مناشدة قوية للمجموعة من أجل تناول موضوع الاغتصاب من قبل لاجئين آخرين في المخيمات نفسها وهو موضوع تتغاضى عنه سلطات المخيمات. في تلك اللحظة التزمت المجموعة الصمت، وراحوا يحوّلون بصرهم عن اتجاه المتحدثة وقد بدا عليهم الارتباك. وقام الرجال الذين كانوا يشكلون أكثرية في المجموعة بالاحتجاج بسبب عدم وجود أدلة كافية لحدوث الاغتصاب وبسبب عدم وجود صلة للموضوع ضمن أولويات طارئة أخرى مثل إعادة اللاجئين إلى أوطانهم. ولكن المرأة تشبثت برأيها. وبدعم من إداريي الورشة، تحول موضوع الاغتصاب في مخيمات اللاجئين إلى موضوع مركزي في التحقيقات حول الوسائل المطلوبة لتنظيم جماعات تلبي احتياجاتها وترد على المسلكيات العنيفة وتحول دون حدوث اعتداءات مدمرة أخرى.

وكإداريين للجلسة، نحتاج إلى توفير البنى التي تتحدى الصمت بالإكراه وترفع هموم الجماعات المحرومة المهمشة. وقد يقال عادة للفئات الأكثر حرماناً أن تنتظر مناسبة أخرى أكثر ملاءمة، وهي مناسبة قد لا تظهر أبداً. في مثل هذه الحالات، يتوجب بذل الجهود من أجل تعزيز أصوات الأفراد وتجاربهم عبر منتدى عام يمكن عبره إسماع الأصوات حول المواضيع نفسها.

المشاهدة والإدلاء بالشهادة: الصوت العام

قدمت بعثة جنوب إفريقيا للمصالحة وكشف الحقيقة نموذجاً رائعاً للعالم حول قول الحقائق التي لم يكن من الممكن قولها أمام منتدى جماهيري عام من أجل رأب الصدع والشهادة والمصالحة. ورغم وجود بعض الانتقاد وبعض الاستحسان للبعثة، إلا أن معظم المشاركين والمراقبين أجمعوا على أن جنوب إفريقيا قدمت للعالم نموذجاً جديداً للشهادة يمكن اعتباره آلية لرأب الصدع بالنسبة للتاريخ الماضي الواقع بين نورمبرغ وفقدان الذاكرة الوطنية (توتو 1999، 10).

ويستذكر الأسقف الإنجيلي ورئيس البعثة دزموند توتو (1999) أن المبعوثين العاملين معه كانوا قلقين من أن الناس الذين عانوا بشدة تحت نير عقود زمنية من التمييز العنصري لن يتقدموا إليها ولن يتعاونوا معها. فقد يقوم هؤلاء الذين أساءوا معاملة الناس بتهديدهم وإرهابهم كما أن الناس قد يرفضون اعتبارهم ضحايا لأنهم يعتقدون أنهم مناضلون في كفاح مرير أو أنهم قد يقعون في الوهم القائل بأنهم لا يمكنهم توقع شيء جدير بالذكر من هؤلاء الذين ظلوا يقدمون الوعود منذ الأزل ويتباطئون بشكل موجع في الوفاء بها.

إن على المبعوثين أن لا يقلقوا، فالناس يرغبون بالتأكيد في الإدلاء برواياتهم بعد أن تم إخراسهم وإلقاؤهم جانباً منذ وقت طويل يمتد إلى عقود من الزمن. كما تمت معاملتهم على أنهم غير مرئيين أو مجهولين من قبل نظام شرير يتصف بالظلم والقمع. لقد خبأ العديد من الناس مشاعرهم لمدة أطول مما يستطيعون وعندما لاحت الفرصة لهم للتعبير عنها، انهالت كمياه الفيضان.

لقد قدمت بعثة جنوب إفريقيا للمصالحة وكشف الحقائق، نموذجاً مذهلاً ورائعاً لرأب الصدع على مستوى الوطن ولأم جراح الأمة، مهما قيل عن نواقصها. وفي حين تتطلب رحلة المصالحة سقفاً عالياً من الوقت والعمليات المتعددة، اقتربت جنوب إفريقيا من هذا السقف بقوة الصوت الذي دفع إلى الاعتراف بتاريخها المأساوي وإلى التغيير التدربي.

لنتذكر صوت المنقذ

في العديد من مجتمعات ما بعد الحروب، جمع الباحثون روايات هؤلاء الذين تحدوا الأنظمة القمعية لإنقاذ أصدقائهم أو جيرانهم. والناجون من الهولوكوست أصبحوا الآن كباراً في السن ولكن الراغبين في استذكار بطولاتهم وتمجيدها يسعون للحصول على قصص هؤلاء الناجين. إحدى الباحثات وتدعى إيفا فوغلمان (1994) كتبت تقول: « كانت عملية الإنقاذ تعتبر تعبيراً عن القيم والمعتقدات التي يحملها

الإنسان في الجوهر. العديد من الناس لم يرووا قصصهم أبداً وقد دفعوا ثمناً غالياً لهذا الصمت إذ تم إخماد جزء حيوي من نفوسهم كما خلّف الأمر جروحاً نفسية في بعضهم ». بُعَيْد الحرب اليوغوسلافية التي شبّت في أعوام التسعينات من القرن العشرين، قامت حفيدة المارشال تيتو، زعيم يوغوسلافيا السابق بتجميع قصص حول الإنقاذ من أصدقاء وجيران سابقين وقعوا في شرك تلك الأحداث المفجعة. وسيتم نشر هذه الروايات باللغة الإنجليزية في الأعوام القادمة.

بالنسبة للمنقِذ والمنقَذ، وبالنسبة للأغلبية التي تنحت جانباً خلال عهود القمع والحروب، رفعت هذه القصص من قيمة المسلكية الإنسانية في أكثر نواحيها الإيجابية. ويقترح البحث التقديري خلق فرص للمشاركة في القصص التي تحمل أنباءً جيدة (كوبر رايدر ووتني 1999، ص 9) ماذا يوجد أفضل من الأنباء التي تقدم الثناء والتقدير إلى الذين شرفوا الحياة الإنسانية؟ .

إحياء الذكرى: الصوت الصامت

ما يجب أن يحدث أحياناً لا يتضمن فقط إطلاق القصة ولكن المصادقة عليها وتثبيتها ضمن متاحف مثبتة ونصب تذكارية تزيد من الاطمئنان بأن الزمن لن يمحوها من الذاكرة. ولعل تمرير الذكرى إلى الجيل التالي يمكن إما أن يسهم في إطالة النزاع وزيادة العزلة والانفصال أو خلق تفاهم مشترك حول الثمن الذي تم دفعه لهذا النزاع العنيف. كذلك تسهم إقامة الذكرى بإعلان عدم انتصار الصمت لأن الأذى الذي سببّه إنكار الصوت المرافق لضحايا العنف لن يكرر نفسه في الجيل التالي.

والذكريات الحية مثل معسكرات الاعتقال ومواقع القبور وميادين القتل، تقف في شهادة صامتة لتاريخنا. أما المتاحف والنصب والأراضي المقدسة فهي تكمّل هذه الشهادات وتظل تروي القصة حتى بعد رحيل آخر إنسان ناجٍ من وجه الأرض. وفي غرب إفريقيا ما زالت الزنازن التي كان يُحشر فيها العبيد من أجل تسفيرهم عبر الأطلنطي تذكر الزائر بماضٍ مفجع ومأساوي. فيما تحتفظ مدرسة في فنوم بنه

بسجلات حول أعمال الإبادة الجماعية التي ارتكبها نظام بول بوت في كمبوديا، وما تزال الكنائس التي شهدت مذابح بشرية تقف صامتة في رواندا. وفي غواتيمالا ما زال السكان الأصليون يعتنون بالأراضي المقدسة. ولكن على المرء أن يكون حذراً كي لا تتحول هذه المواقع إلى مثار للانتقام كما حدث في كوسوفو في ميدان بلاك بيردز حيث توعد ميلوسوفيتش بالانتقام للمعركة التي خسرها الصرب عام 1389. يجب على نصبنا وتذكاراتنا أن تقف إلى جانب الروايات الإنسانية كذكرى لأعمال فظيعة جرت في الماضي وكشهادة على التزام مشترك بتحقيق « حلمنا بإنسانية ندرك فيها أننا أفراد من عائلة واحدة نرتبط ببعضنا البعض بشبكة دقيقة من الاعتماد على بعضنا البعض أيضاً ». (توتو 1999، 222).

خلاصة

خلال عملنا كإداريين وكأساتذة لحل النزاعات، غالباً ما يواجهنا سؤال يقول: ما الذي يوقف أو يمنع تكرار النزاعات العنيفة. لقد شجعنا البحث التقديري كإطار للتفكير على تركيز اهتمامنا بنحو مختلف. فهذا الإطار يعزز تركيزنا على الأشياء التي تعطي الحياة وعلى المسلكيات والإدراكات والتغييرات التي نرغب في رؤية المزيد منها. مثل قول الحقيقة، ورفع الصوت والسماح لمستقبل جديد بأن يزهو. ويمكن للعديد من عمليات حل النزاعات أن تركز أو أن يتم إعادة تركيزها على تغذية تعابير الروايات التي تدعم النمو الحياة.

لقد رأينا كيف أن الحوار بين الأعداء السابقين، إذا ما تم تسهيله بشكل جيد، يمكن أن يمنح الصوت والحياة. وإيجاد مكان آمن وثابت يؤمن السلامة المطلوبة للتحدث عن الفظائع والأضرار. ولعل حدوث الحوار نفسه يشكل مانحاً للأمل ويبين لنا أننا نستطيع على الأقل التحدث مع بعضنا البعض. كما رأينا على وجه الخصوص مدى أهمية المزج في الحوارات بين مجموعات متشابهة في القضايا. مثل هذه الطريقة في إقامة الحوارات لا تغير فقط من التحرك نحو تغذية المزيد من رفع الأصوات والتعبير

عن الحقائق، ولكن تغير أيضاً من الأدوار الكلاسيكية التي يلعبها الضحايا إلى أدوار يستطيعون فيها القيادة والمساعدة. إذن ما الذي يمنح هذه الطريقة في الحوار ضمن الحوار لأن تكون فعالة بهذا الشكل في رفع الأصوات؟ .

أولاً: يمكن لمجرد وضع نموذج لإطلاق الصوت أن يسمح لآخرين ممن التزموا الصمت أن يطلقوا العنان لأصواتهم وأن يقولوا الحقيقة. مثل هذا التعبير والتيقظ من قبل المجموعة يشكل مصادقة على الحقيقة وعلى الحديث. لقد ساهمت القصص والأفكار الجبارة التي تم تقاسمها مع مجموعة ون باي ون اليهودية والألمانية ذات الخبرة لدى زيارتهم للبوسنة، بتثبيت نموذج للتعبير كان يمكن أن يتعرض للإسكات من قبل المجتمعات الكبرى التي قدم منها المشاركون البوسنيون. كذلك تم تفعيل أعراف بديلة لإطلاق الصوت مما سمح لآخرين بالتفكير بالمشاركة بقصصهم.

ثانياً: يوجد بين هؤلاء الذين عاشوا مثل هذه الفواجع والأحزان نوع من الإدراك لتجارب بعضهم البعض، منها الأسى والخوف والخيانة واليأس والحزن والفرحة المؤقتة، ولا يتكاتف مع هذه المشاعر إلا الذين خبروها أو خبروا أحداثاً متشابهة. كذلك يملك هؤلاء مصداقية أكبر بين الذين عانوا نفس التجربة لا يملكها أناس من خارج التجربة نفسها. كما أن شهادة هؤلاء الأخيرين حول تقاسم الحقائق وشهاداتهم حول حقائق أخرى وبالتالي إمكانية صنع مستقبل إيجابي، يمكن أن تغري المتشككين.

ثالثاً: يولد المعنى عبر العمل الاجتماعي، أي بكلمات أخرى يخلق البشر معاني في عوالمهم من خلال تصنيف الأشياء مع آخرين، خاصة في الحالات التي تكون فيها الأشياء غامضة ومسببة للتوتر كما بيّن شاشتر سابقاً بواكير عام 1959. فالناجون حديثاً من النزاع يكافحون لفهم تجاربهم أو إعطائها معنى. ويمكن لهذه الأفضلية التاريخية التي يتمتع بها الناجون من النزاع أن تضيف منظوراً وحكمة أفضل للقصص.

رابعاً: أتاح الحوار الذي تم مع جماعة ون باي ون للمجموعة البوسنية المشتركة في الحوار أن تضع في حسابها إمكانيات بديلة للمستقبل. وكما تبين من كلمات ماري

سابقاً ومن خلال الاستماع إلى قصص أبناء الناجين من فواجع سابقة، يمكن لحديثي الجرح أن يروا كيف يمكن لمأساتهم الحالية أن تتطور عبر الأجيال القادمة. فقد فتحت لهم هذه التجربة في الحوار نافذة على المستقبل من أجل أن يعتبروا كيف أن خياراتهم الحالية يمكن أن تشكل أجواء علاقاتهم المستقبلية بحيث يمكنهم اختيار الرواية التي يتوجب عليهم تغذيتها في قلوبهم. لقد أصبح الصوت آلية لتوسيع الخيارات وتعزيزها.

وأخيراً أتاحت النماذج التي قدمتها مجموعة الألمان واليهود في رأب الصدع فرصة للمشاركين البوسنيين في اختبار الدليل على إصلاح العلاقات وتعديلها وعلى مستقبل يشرق بالأمل. فوسط الانتهاكات الصارخة وأجواء عدم الثقة شهد المشاركون حالة أخرى من العداء العميق الذي بدأ يشكل مستقبلاً يمكن فيه على الأقل إقامة علاقات شخصية قائمة على الثقة.

نحن نقر بأن هذه العملية التي يقوم فيها شهود متضررون من أوضاع مفجعة في الماضي بمساعدة متضررين من أحداث حالية في بناء معانٍ بناءة، ليست ظاهرة جديدة، فمجموعات الدعم، والبرامج الدينية وغيرها تستخدمُ مثل هذه العمليات لرأب الصدع عبر رفع الصوت وبناء نماذج لإحداث تغييرات آمنة. وقد لمسنا حديثاً ميلاً لدى الناجين للسفر من أجل حضور مثل هذه الحوارات التي تشمل فواجع وقعت حديثاً. كما رأينا في حالة التفجير التي وقعت في مدينة أوكلاهوما حيث أجريت لقاءات بين ناجين منها وبين ناجين آخرين من تفجيرات نيروبي ونيويورك.

وكإداريين لمثل هذه الحوارات، نحاول أن نحفز زملاءنا الذي يمارسون هذه الأعمال على أن يمتلكوا الشجاعة لرفع الصوت وأن يكونوا خلاقين بما فيه الكفاية لكي يستخدموا هذا الصوت بطريقة إيجابية.

وبدلاً من إبداء الخوف لما يمكن أن تثيره هذه الروايات من تدمير للمستقبل أو إسكات الأصوات الذي يؤدي في النهاية إلى توليد الكراهية للنفس وللآخرين، علينا أن نخلق الظروف التي ترفع الصوت وتفسح المجال أمام طرق سرد الروايات حول

مستقبل أكثر إيجابية. ولعل إعطاء المصداقية وإتاحة المجال للضحايا برفع الصوت يسمح بنمو الأمل والمشاركة في الرؤى والبدء بالحياة مرة أخرى.

مراجع :

Cooperrider, David, and Diana Whitney 1999. *Appreciative Inquiry.* San Francisco: Berrett-Koehler.

Curie, Adam. 1971. *Making Peace.* London: Tavistock Press.

Fogelman, Eva. 1994. *Conscience and Courage: Rescuers of Jews During the Holocaust.* New York: Anchor Books.

Fridman, Orli. 2002. "An Appreciative Critique." *Conciliation Quarterly* 21:1 (winter), pp. 14—16.

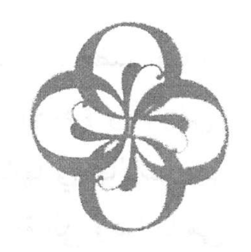
Sampson, Cynthia. 2002. "What Do We Choose to Learn From? *Conciliation Quarterly* 21:1 (winter), pp. 2—3.

Schacter, Stanley. 1959. *The psychology of affiliation.* Stanford, Calif.: Stanford University Press.

Tutu, Desmond. 1999. *No Future Without Forgiveness.* London: Random House.

Volkan, Vamik. 1997. *Blood Lines: From Ethnic Pride to Ethnic Terrorism.* New York: Farrar, Straus and Ciroux.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: 24].



الفصل السابع عشر

رحلة رأب الصدع

أميلا وراندي بولجك شارك

بناءً على المقابلات التي تم إجراؤها مع عاملين في مجال صنع السلام، وبناءً على تجارب شخصية للمؤلفين، يسبر هذا الفصل أغوار عملية الشفاء من المحنة كجزء من الجوهر الإيجابي الموجودة في عملية بناء السلام نفسها. ومن خلال دراسة أمثلة عن لحظات الشفاء وعن الطقوس والاستعارات والنماذج المنظورة يحاول هذا الفصل الإجابة عن السؤال التالي: كيف يحصل رأب الصدع؟ والموضوع غير المتوقع الذي ينبثق عن هذا السؤال هو مساهمة الأشكال غير الشفهية للتفاهم مثل الرموز والصور والطقوس في الظروف التي تمكن من حصول رأب الصدع أو التئام الجروح. ويخلُص هذا الفصل إلى استخدام المبادئ الخمسة للبحث التقديري في اختبار ما مدى ملاءمته للتفاهم وتعزيز الظروف التي تتم فيها عملية رأب الصدع.

*

عندما جئنا لنقرر الكتابة حول عملية رأب الصدع، وجدنا أنفسنا على ملتقى طرق عدة، إحدى هذه الطرق كانت تجربتنا الشخصية في حرب البوسنة والهرسك. فقد نجت أميلا من تلك الحرب وخبرت بعض أحلك فتراتها، وفي النهاية غادرت بلدتها هرباً وعملت خلال الحرب مع أناس من مختلف الأعراق والأديان من أجل إيصال المساعدات الإنسانية والمساعدة في عودة اللاجئين. وقد تمثل جزء مهم من عملها في

فتح المجال أمام الناس لرواية قصصهم والأحداث التي جرت لهم حتى في خضم تصاعد موجة العنف. وقد وفّر هذا العمل مقدمة للدخول في عملية رأب الصدع والنهوض. بعد الحرب غادرت أميلا إلى الولايات المتحدة حيث تابعت دراساتها في مجالات علم النفس وتحويل النزاعات. وخلال دراستها أدركت أميلا مدى الدرجة التي وصلتها هي شخصياً في محنتها وبدأت بإجراء استشارات شاركها فيها راندي، وهو شاهد أميركي للحرب على الخطوط الأمامية. وخلال هذه العملية وعبر عملها اللاحق في التوسط وفي إدارة ورشات العمل والحوارات وجدت أميلا في نموذج أولغا بوتشاروفا حول التسامح والغفران مساعداً لها في تفهم عملية النهوض من المحنة ويركز هذا النموذج على أهمية الحداد على الأموات وتقبل الخسارة من أجل خلق تاريخ مشترك للأطراف المنخرطة في النزاع ومن أجل كسر حلقة العنف والانتقام، (2001).

طريق أخرى قادتنا إلى هذا الاهتمام، جاءت من انفتاح راندي على البحث التقديري في حقل التطوير المؤسسي (كوبر رايدر وسريفاستفا، 1987). فالبحث التقديري يعتبر منهجاً ذا نظام شمولي في التغيير يقوم على قوة تأثير القصص الإيجابية والأحلام المتجذرة في تلك القصص. وقد دفع اقتراح سابق لما أصبح يسمى فيما بعد « مؤتمر المقاربات الإيجابية في بناء السلام » والذي عقد في سبتمبر 2001 بواشنطن دي سي، براندي إلى استكشاف إمكانيات نجاح مشروع يستخدم البحث التقديري على مستوى الجماعات في البوسنة والهرسك. وقد استمع راندي عدة مرات إلى نقاشات كانت تدور في الولايات المتحدة وفي البوسنة والهرسك إلى الرأي القائل بأن الناس خلال النزاعات ليسوا على استعداد للبحث في الإيجابيات ولكنهم يحتاجون أولاً إلى إسماع قصصهم والإصغاء إليها. وقد تم فهم سؤاله حول « المقاربات الإيجابية » على أنه محاولة لتبرئة وتبييض النزاعات والأضرار الملموسة التي وقعت. ولكنه، وبينما كان يتصدى لتلك الاعتراضات، شهد ورشة عمل تدريبية حول البحث التقديري، بدأ بعدها يثمّن قيمه المنظور القائل بأنك قبل أن تبدأ بإحداث عملية تغيير، من المفضل أن تسأل نفسك: ما الذي نرغب بإيجاده أكثر من ذلك؟

أحد الأجوبة على هذا السؤال هو بالتأكيد أنه في وضع يقع فيه الأذى على جميع الأطراف، فنحن نرغب بالمزيد من رأب الصدع، وهذا الأخير يعتبر عملية تبدأ مع بداية الجرح ولكنها تشمل إيجاد شمولية جديدة. ورأب الصدع أو التئام الجروح النفسية والاجتماعية والروحية والعاطفية تفتح الطريق أمام تجربة غنية تتعلق فينا جميعاً من حيث لأم جراح أنفسنا. فنحن نؤمن أن رأب الصدع هو مفهوم قوي التأثير يستحضر روح التجديد الضرورية للعمل في أوضاع النزاعات. وباستخدام التشابيه الطبية، فإننا نعني هنا الشفاء في أعمق معانيه وليس تضميده باللفافات أو دهنه بمرهم أو بزيت.

هذه هي النقطة التي التقت فيها مصالحنا حول السؤال التالي: كيف يحدث رأب الصدع؟ من خلال مناقشتنا لنموذج بوتشاروفا ونموذج البحث التقديري، بدأنا نرى هذين النموذجين على أنهما مكملان لبعضهما البعض وهذا السؤال بمعناه الإرشادي يبدو وكأنه يناسب لكي يكون نقطة البداية لهذا الاستكشاف لأن كلمة الشفاء أو رأب الصدع تملك قوة إيجابية ولكنها مع ذلك متجذرة في التجارب الواقعية الصعبة. والاعتراضات الأقوى ضد استخدام البحث التقديري في مجالات النزاع تتعلق أكثر ما يكون بماهية نقطة البداية في عملية الشفاء من المحنة. هل يجب أن تبدأ العملية برواية القصص المؤلمة والتفجع على الخسائر. (بوتشاروفا وآخرون) أم هل يجب أن تبدأ باستعادة القصص الإيجابية؟ (البحث التقديري) إذا كان السؤال هو « أين نبدأ؟ » فإن المقاربتين تصطدمان ولكن التركيز على عملية رأب الصدع يعني التركيز على السؤال التالي: إلى أين نريد أن نصل؟ وللإجابة على هذا السؤال، يصبح اهتمامنا هنا هو مسح بعض المجالات التي يحتمل أن تكون مكملة لبعضها البعض.

أما الطريق الأخير التي أوصلنا إلى البحث فقد مرّ عبر التعلم من برنامج تحويل النزاعات لجامعة إيسترن مانونايت، إضافة إلى زملاء أميلا الذين يعملون مع برنامج « بذور السلام » وهو برنامج يشمل العمل مع شباب وشابات قادمين من مختلف أماكن النزاعات في العالم. أردنا أن ندرك عمل هذه البرامج في العديد من أوضاع

النزاعات وتعزيز فهمنا لذلك العمل. ولهذا السبب قمنا بمقابلة خمسة عشر شخصاً من العاملين في بناء السلام ويحملون خبرات من مناطق النزاعات الشديدة حول تجاربهم في رأب الصدع. سألناهم عن متى اختبروا تجربة رأب الصدع بأنفسهم، ومتى شهدوا لحظات حدوثها ومتى وضعوا أسئلة أو شاهدوا صوراً أسهمت في رأب الصدع. وشكلت هذه المقابلات مصدراً لملاحظاتنا وقد أوردنا العديد من هذه الأمثلة في هذا الفصل.

توجد العديد من الأمثلة حول رأب الصدع في العمل نحو بناء السلام. ونحن لا نعتبر بأننا اكتشفنا شيئاً جديداً هنا ولكننا نسعى لتسليط الضوء على الظروف التي اكتشفنا من خلال تجربتنا وتجربة غيرنا ممن عملوا في هذا المضمار، بأنها تساعد على جعل عملية رأب الصدع أكثر احتمالاً، وبالتالي نعمل أيضاً من أجل تعزيز هذه الظروف. بعض الذين تمت مقابلتهم علّقوا على قلة وندرة الأوقات التي شهدوا فيها حدوث لأم حقيقي للجراح. ولكن يبقى أملنا بأن تبين القصص التي جمعناها بوضوح عملية رأب الصدع. فقد رأينا كيف أن هذه القصص بقيت محفورة بقوة في قلوب العاملين في هذا المجال وكلنا أمل أن إعادة سردها لكم هنا سوف تجعل منها مصدراً للأمل ودافعاً للآخرين الذين يعملون في هذه الميادين.

يوجد لدينا هدفان لنحققهما في هذا الفصل. الأول أن نكون صادقين في طرح هذه القصص حول رأب الصدع والثاني أن نكتشف نبضاً جديداً يمكن للبحث التقديري أن يوفره في عملية لأم الجراح. وقد اكتشفنا وجود بعض التوترات بين هذين الهدفين. فمن ناحية نحن نريد تكريم ما ورد في القصص ومن ناحية أخرى نرغب في توسيع فهمنا لمفهوم رأب الصدع ونعتبر عملنا هنا استكشافاً مفتوحاً آملين أن ينضم إلينا القراء بروح بحثية مشابهة.

وفي سعينا لتحقيق الهدف الأول، سوف نستخدم ثلاث مقاربات للإجابة عن السؤال: « كيف يحدث رأب الصدع؟ » المقاربة الأولى هي سرد قصص معينة عن

لحظات رأب الصدع مأخوذة من المقابلات التي تم إجراؤها. وأحد أهم الموضوعات التي مررنا عليها في تلك المقاربة كانت تتعلق بأهمية الطقوس في عملية رأب الصدع. والمقاربة الثانية هي استكشاف اللغة والتشبيهات المتعلقة برأب الصدع والتي برزت خلال المقابلات. فقد سألنا العاملين في هذا المجال كذلك حول نماذج رأب الصدع التي وجدوا ووجدت الأطراف الباحثة عن رأب الصدع مساعدة فيها. أما مقاربتنا الثالثة فهي النظر في هذه النماذج. ومن خلال تلك المقاربات خرجنا بأربع خصائص لرأب الصدع. أما الهدف الثاني فسوف نتطرق إليه في القسم الأخير من هذا الفصل نختبر عملية رأب الصدع على ضوء مبادئ البحث التقديري.

قصص حول رأب الصدع

أخبرنا أحد العاملين في بناء السلام عن ورشة عمل امتدت عدة أسابيع وشملت شباباً وشابات من الشرق الأوسط. وقد استهل هؤلاء يومهم الأول بالحديث عن أفراد عائلاتهم الذين يشعرون معهم براحة أكثر. وتحدث أحد الشباب الفلسطينيين بحرارة عن أخيه الذي أصيب بشلل جزئي بعد أن كان الناجي الوحيد من حادث سير. وقال أن أخاه خضع لعشر عمليات جراحية لمساعدته على رفع درجة حركته. وبعد أن أنهى الشاب الفلسطيني حديثه قال أحد الشباب الإسرائيليين أنه فهم ما كان الفلسطيني يتحدث به لأن والده توفي في السنة السابقة. ومع سرد هاتين القصتين في مستهل عمل المجموعتين معاً، دخلت الورشة في حوارات أكثر عمقاً مما شكل مفاجأة للقائمين عليها. وسرعان ما بدأ باقي أعضاء المجموعتين بالتحدث عن صعوباتهم وآلامهم. وقد ساعدت هذه التجربة المشتركة من القصص المؤلمة بين أعضاء المجموعة على أن يرتبطوا ببعضهم البعض على المستوى الإنساني، كما استطاع الشباب بعد ثلاثة أيام أن يصبحوا صادقين مع بعضهم البعض فيما يتعلق بمشاعرهم من النزاعات بما فيها بعض النقد الموجه لأفراد من داخل مجموعتهم. ورغم أن هذه الصراحة كانت صعبة بالنسبة للمشاركين وبالنسبة للذين يديرون

الورشة ممن أجرينا معهم المقابلات، إلا أن تسمية المشاعر على حقيقتها بدت وكأنها تساعد على تخفيف الانقسامات. فقد أظهر الشباب الفلسطينيون والإسرائيليون تقارباً منح القائمين على الورشة شعوراً بالانتعاش في طاقتهم وأحيت فيهم الآمال.

كذلك وصف أحد العاملين في بناء السلام نزاعاً حاداً نشب بين ثلاث رعويات دينية حول أحد القساوسة الذي طرد ثلاث مرات من الرعويات الثلاث في نفس الوقت وقد اقترح القائم على إدارة ورشة العمل الحوارية، عملية يتم فيها تخصيص أمسية واحدة لكل مجموعة من أجل الإدلاء بحديثها من منظورها الخاص. ولكنه أوضح قبل البدء بما يلي: «عليكم أن تعلموا أن الأمر ليس سهلاً، بل ستكون المناقشة حادة وقد تأخذ بعض الوقت، كما أنها قد تبدو غريبة بعض الشيء ولكنني سأديرها إذا رغبتم بذلك» وقد أجابه الجميع بنعم. وصار كلما تطرق إلى موضوع يغضب إحدى الرعويات، يختار ممثلاً عن المجموعتين الأخريين ليعيّن كمستمع ويعيد رواية الأحداث التي يستمع إليها بكلماته الخاصة. في الجلسة الثالثة بدأت تظهر لحظة رأب الصدع وساد إحساس بأن الجميع على استعداد للتقدم إلى الأمام... نهضوا جميعاً وأبدوا ملاحظات ملموسة تنم عن الاعتذار والاعتراف بالخطأ، وكانت كل ملاحظة تلقى رداً إيجابياً من الآخرين. لذلك «فأنا أعتبر هذه اللحظة واحدة من تلك اللحظات الحادة بإيجابيتها والتي تشعر فيها بأن الأمور تسير بدفع إلى الأمام».

خلال عملية رأب الصدع التي شهدتها أميليا، كانت تعوّل على إمكانية أن يقدم الصرب الذين عاشوا معها في بلدتها والذين غادروا البلدة فيما بعد وراحوا يقصفون سكانها بالمدفعية مما دفع بالسكان إلى الهجرة خارجاً كلاجئين، بتحمل مسؤولية أعمالهم. ولم تكن تعلم بأنه لو حصل مثل هذا الأمر لأحرزت هي تقدماً ملموساً في عملية شفائها من الأسى الذي يمزقها. وقد فوجئت تماماً عندما اعترف بعض الأفراد من الصرب بمسؤوليتهم عن الخطأ الذي ارتكبه الصرب في البوسنة واعتذروا عن ذلك. لم تكن أميلا تتوقع مدى قدرة هذه التصريحات على بعث إحساس عميق في

نفسها برأب الصدع وبالشفاء من محنتها. فقد أوجد الاعتذار حقيقة جديدة أصبح فيها التسامح أمراً محتملاً. وكانت الدرجة التي تحمّل فيها هؤلاء الصرب مسؤوليتهم عن أعمال مجموعتهم بمثابة دفع لإحساس أميلا بالمسؤولية نحو شفائها من محنتها ونحو إقامة أسس جديدة لبدء حياة مشتركة.

هذه القصص الثلاث تبين لنا بعض الخصائص التي تكرر ظهورها خلال عملية البحث التي قمنا بها للإجابة عن سؤال «كيف يحصل الشفاء». فلحظات الشفاء تبدأ بالظهور خلال عملية المواجهة مع الذين تسببوا بالأذى أو مع الممثلين عنهم. وسوف نناقش في الجزء التالي بعض الأمثلة التي لم تطبق فيها مثل هذه الحالة. ولعل توقيت ظهور لحظات الشفاء أو رأب الصدع تبين لنا أنه على الرغم من وجود فترات معينة وحدوث تحركات معينة يمكن اعتبارها لحظات شفاء إلا أن اللحظة الحقيقية جاءت تراكماً لعملية أخذت وقتاً أطول.

طقوس رأب الصدع

فيما نحن نبحث في الظروف المحيطة بلحظات الشفاء من المحنة، سمعنا عن العديد من الأمثلة حول طقوس الشفاء. كان مفهومنا للطقوس هو أنها تشمل استخدام الرموز ضمن حدث عام أو خاص (رمانوف ويترنزيو، 1998). وكان لتكرار ظهور العناصر الرمزية والطقوس في قصص الشفاء على نحو لم نكن نتوقعه، ما جعلنا ندرك أن هذه العناصر تشكل ناحية مهمة من عملية الشفاء نفسها.

إحدى الأمثلة جاءتنا من ورشة عمل استمرت أسبوعاً، وأقيمت في ليبيريا، في أعقاب الحرب الأهلية التي فتكت بذلك البلد. وكان أحد المشاركين وهو قسّ شهد مصرع أهله أمام عينيه. استهلّ القس الورشة بتصريح قال فيه أن له الحق بقتل أي من الإثنية الأخرى الموجودة في القاعة وكان يعني القتل بمعناه الحقيقي. ثم راح يعبر عن غضبه الشديد ويقول إن كل ما كان يفكر به هو الانتقام بينما كان الآخرون ينصحونه بالغفران والتسامح. في اليوم الأول أبلغه القائمون على الورشة بأن من الطبيعي بالنسبة

له أن يشعر بالغضب وسألوه إذا كان يشعر بالذنب أو بالإحباط وأجاب بنعم. بعد ذلك أتيحت له الفرصة لسرد قصة ثم جاء دور أداء أحد الطقوس حيث يدعى المشاركون جميعاً لتسمية موتاهم، المقربين منهم. كان هذا الأمر مهماً لأن تلك الحضارة مثلها مثل غيرها من الحضارات كانت تولي أهمية جوهرية لدفن الموتى وهو أمر قد يكون مستحيلاً إذا لم يكن هناك تحديد لمكان هؤلاء الموتى أو لمكان بقاياهم. وكان من المتفق عليه في تلك الحضارة أن تسمية الموتى تخلي سبيل أرواحهم من الاستمرار في السير على وجه الأرض وفي مثل هذه الطقوس، كان الناس يدعون لإحضار رموزهم وقراءاتهم الدينية وصور موتاهم وكل ما يعزز ذكرى هؤلاء الأحباء على قلوبهم.

بعد أسبوع من العمل معاً ضمن المجموعة لتفهم تأثيرات المحنة، تم استخدام طقوس أخرى يقوم فيها المشاركون بكتابة الأشياء التي يرغبون بالتحرر منها على قصاصات ورق أو قولها بصوت عال إذا رغبوا في ذلك ومن ثم إحراق هذه الأوراق. في تلك اللحظة، قال القس أنه لا يملك بعد القدرة على الغفران ولكنه يعتقد أن ذلك قد يحصل في غضون سنوات عدة. كانت لحظة الشفاء تتمثل في إيجاد تلك الإمكانية ولكن هذا لم يكن يعني بأن شفاء القس قد اكتمل. فمن بعض النواحي يظل الدافع للانتقام أسهل للاستيعاب من القضايا المعقدة التي أثارتها مسألة فقدانه لوالديه وعقدة الذنب المتمثلة في رؤيته لما حدث دون أن يكون قادراً على منع حدوثه.

طقس آخر من طقوس الشفاء، شمل عائلات ضحايا التفجيرات بالقنابل التي وقعت في بلدة أوماغ في شمال إيرلندا. فبعد فترة قصيرة من وقوع التفجيرات ذهب بعض سكان بلدة إينيسكيلن الذين خبروا هم أنفسهم تأثير تفجيرات مثل هذه لتناول العشاء مع أفراد من عائلات أوماغ. وفي وقت لاحق كان لابد من التخلص من العديد من الورود التي تركت هناك أو جاءت من أنحاء العالم لإحياء ذكرى الضحايا. وبناءً على اقتراح أحد الفنانين في المنطقة، تم عقد عدة ورشات عمل صنع السكان المحليون فيها أعمالاً فنية بواسطة هذه الورود. وضعوا سيقان الورد في ورق ثم زيّنوا

الأوراق ببتلات الورود. وقام الناجون من كلا الجانبين بتقديم هذه الإبداعات على سبيل الذكرى إلى عائلات كل من الثلاثين شخصاً الذين قضوا في التفجيرات. وفي هذا الصدد يقول أحد العاملين في صنع السلام ممن شهدوا هذه القصة بأنه صعق لمدى أهمية دور الإبداع في المساعدة على الشفاء.

تحدث أحد العاملين في صنع السلام حول أهمية « شفاء الهوية » التي فسّرها ضمن السياق التالي: « في العديد من النزاعات، تتعرض هوياتنا للهجوم أو للأذى ربما كرجال أو كنساء أو كأشخاص بيض أو كغيرهم. والشفاء أو رأب الصدع هنا يتعلق باحترام الذات والشعور الطيب بأنفسنا والثقة بكياننا ». وقد أعطى هذا الشخص مثلاً عن واقعة لرأب الصدع في مسالة الهوية جرت في جزيرة فيجي خلال ممارسة الأهالي لطقوس شرب الكافا معاً. فقد اجتمع في تلك الليلة خلال ورشة عمل تهدف إلى المصالحة الوطنية ممثلون عن مجموعتين عرقيتين هما الهنود والفيجيون من أهل البلاد الأصليين. وتوجد بين هاتين المجموعتين بالإضافة إلى مجموعات عرقية صغيرة أخرى اختلافات ثقافية كبيرة في طريقة التصرف في هذا العالم إضافة إلى منظوراتهم السياسية ورؤيتهم لمستقبل بلادهم. ففي الطقوس المتبعة لدى أهل البلاد الأصليين يجلس الجميع في دائرة ويحتسون شراب الكافا. كذلك يتحدث المشاركون عن أنفسهم ومن أي يأتون. أما بالنسبة للهنود فقد كان شرب الكافا أمراً جديداً عليهم ولكنهم بعد ذلك قاموا بتأدية بعض رقصاتهم وأخذوا يعلمون الفيجيين من أهل البلاد بعض هذه الرقصات. وخلال ممارسة طقوس حضارة أخرى يرتكب الناس الأخطاء ويضحكون على أخطائهم وأخطاء الآخرين وقد ساهمت هذه التفاعلات بالإضافة إلى مظاهر التركيز على الهويات الحضارية المختلفة عن الآخرين في رأب الصدع.

ومع بروز أهمية الطقوس في عملية رأب الصدع، أخذنا نتساءل من أين جاءت قوة الطقوس في رأب الصدع. هناك لحظات يتم فيها تعداد الخسائر أو تسميتها كما هي الحال في تسمية الأموات، أو في الاعتراف بالخسائر من قبل الآخرين كما حصل

مع عائلات أومباغ. وفي العادة تشمل الطقوس أعمالاً إنسانية فنية أو سلسلة من الحركات. كانت الأعمال تشمل أشياء مثل حرق الأوراق ووضع الورود لإحياء الذكرى إضافة إلى كؤوس الكافا. أما الحركات فشملت كتابة الأوراق ثم حرقها وتقديم الكتب وشرب الكافا والرقص المشترك. وتظهر إحدى نواحي قوة الطقوس بالتأكيد في إشراكها لمشاعرنا وأحاسيسنا.

الطقوس التي سمعنا عنها هي طقوس مشتركة. والإدراك المشترك للتجارب الصعبة يحمل في طياته قوة خاصة. وتذكر ليزا شيرش أن الاتصال عبر الطقوس يعتبر قوياً لأنه رمزي ولأن الطقوس نفسها تعتبر مؤشراً رمزياً إلى عملية التحويل بالإضافة إلى الإسهام فيها (2001). وفي واقع الحياة، تعتبر الطقوس أيضاً طرقاً لوضع خطط تمرير شعائر مهمة. ونحن نرى أن الطقوس ضمن أوضاع النزاعات تمتلك القوة للحث على التنقل من مرحلة إلى أخرى، بما فيها مرحلة رأب الصدع. ونعتقد أن إحدى نواحي القوة في قدرة الطقوس على رأب الصدع تكمن في أنها تلامس بشكل عملي وغير لفظي التجارب والمشاعر التي تصعب تسميتها.

الاستعارات (التشابيه)

خلال عملنا في بناء السلام وعبر رحلتنا الخاصة نحو رأب الصدع، بدأنا نتعلم أن نولي اهتمامنا نحو الاستعارات، معناها استخدام شيء أو فكرة ما تحمل معنى واقعياً مكان شيء أو فكرة أخرى من أجل إظهار الشبه بينهما. صرنا نولي اهتمامنا للصور التي تطرأ على الذهن عندما نفكر بالمحنة وبرأب الصدع. والاستعارات التي يستخدمها الناس غالباً ما تكون خرائط تكشف أين وصلوا في تفكيرهم وفي مشاعرهم وما الذي يتراءى لهم وراء المنحنى التالي.

وفقاً لأحد العاملين في مجال بناء السلام، ممن تمت مقابلتهم فإن الانتقال من الجرح إلى الشفاء هو مسألة تغيير في الاستعارات أو التشابيه. ما يتوجب علينا فعله هو أن نساعد الناس على تحديد الاستعارات التي تحكم الأمر وثم العثور على

استعارات جديدة يمكنها أن ترشدهم إلى حيث يريدون الوصول. مثل هذا الانتباه للاستعارات يتلاءم مع تجربتنا الخاصة مع عدة استعارات ساعدتنا على تفسير ما شعرنا به بالغريزة بالنسبة لعملية الشفاء التي حصلت مع أميلا.

إحدى هذه الاستعارات هي كرة الخيطان وهي تمثل تشابك المشاعر الداخلية التي يمكن أن تحل ببطء وثبات بحيث نقترب أكثر إلى جوهر التجارب والآلام. استعارة أخرى هي القشرة التي تظهر على الجرح وتجلب الانتباه. فمن الذي يترك القشرة لوحدها؟ وهذه القشرة، سواء بقيت أم لم تبقَ، تكشف الجلد الجديد الذي يظهر تحتها، ويبقى الجلد حساساً لمدة من الوقت بالنسبة للبيئة المحيطة به. أما الآلام التي تبدأ بالتراجع خلال عملية الشفاء فتشبه أفعى تسقط جلدها القديم لتكشف عن جلد جديد ولكن بعد أن تتغلب على القديم. وعلى نفس المنوال، نشبه العمل الداخلي المطلوب من أجل رأب الصدع بالتحول غير المرئي للشرنقة قبل أن تظهر الفراشة من داخلها.

وهناك استعارة أخرى سمعناها من بعض الأشخاص الذين استخدموها لفهم محنتهم الخاصة وهي متعلقة بالبركان. فالبركان يغلي من الداخل ثم ينفجر بعد فترة من الزمن. وعندما ينفجر البركان، تدمر الحمم التي تتدفق منه كل شيء في طريقها وتترك خلفها أرضاً محروقة تماماً. ولكن بعد مضي عدة سنوات، تعود الحياة لتدب ببطء، وتعتمد على المعادن التي أطلقتها هذه الحمم. وهذه الاستعارة تشبه العملية الداخلية بالغليان الذي لا يمكن رؤيته من السطح. أما الحمم فتمثل المشاعر الملتهبة كالغضب والحزن والمخاوف التي تعتبر تدميرية في طريقها. ولكن بعد مضي فترة من الوقت يبدأ النهوض وتنبثق الحياة من هذا المزيج المأساوي للأحداث.

كذلك استخدم أحد العاملين تشبيهاً ليقارن بين الطريقة التي يحدث فيها رأب الصدع مبكراً وبين تلك التي يحدث فيها في مراحل متأخرة. ففي البداية تتدفق المياه ولكنها تنتظم عبر قنوات إسمنتية نحو لحظات لا تتسع لرأب الصدع. ولكن في

المستقبل المثالي، تبدأ الدوامات في الظهور وسط التيار المائي، بشكل عفوي غير مخطط له وتُشبّه المحنة بنافذة تفتح على عدة منظورات وتجارب يخوضها الناس الذين يعيشون في حالة نزاع. فالنافذة تكشف ما هو في الداخل وتوفر فتحة يعبر منها الضوء. وربما يمكن النظر إلى المحنة على أنها عدسة مكبر تضخّم الاحتياجات والتأثيرات.

وقدّم أحد العاملين الآخرين قصة استخدم فيها تشابيه لعملية رأب الصدع ولدور من يساعد في هذه العملية: تخيل أنك قد سقطت في بئر ومرّ بك أحد رجال الدين ولما ناديت عليه ليرمي لك حبلاً نظر في البئر وقال: هل أنت في حفرة ما؟ ثم تابع طريقه. بعد ذلك مرّ بك أحد الأطباء، وناديته كي يخرجك من البئر فنظر هو الآخر في البئر وقال قبل أن يتابع طريقه، يا إلهي إنها حفرة صعبة. بعد ذلك مرت إحدى الصديقات وعندما ناديتها لتخرجك من البئر قفزت فيه نحوك. وعندها استشطت غضباً ووبختها لأنها لم ترم لك حبلاً للخروج ولكن فوجئت بها تقول لك: لا بأس لقد سقطت في هذا البئر من قبل وأعرف طريق الخروج.

إن الدور الذي يقوم به الصديق في عملية رأب الصدع هو دور واضح وملهم. والعملية قد لا تكون سريعة لأنها تتطلب الالتزام والعمل. ولكن العمل لن يكون من ذلك النوع الذي تتوقع أن ينتهي بسرعة إلا أنه عمل يحتاج إلى جهد مشترك ورفقة ثابتة وهو يميز بعض العلامات على الطريق.

وكما هو الأمر سابقاً بالنسبة للطقوس، فإننا في هذه المرة مدفوعون للسؤال حول ما الذي يجعل الاستعارات والتشابيه من المساهمين في رأب الصدع. إحدى خصائص العديد من الاستعارات التي كنا قد استخدمناها بأنفسنا هي أنها تنطوي على بُعد من التغيير والتطور. والاستعارات مثلها مثل الطقوس وصفية وتنبؤية فهي تصف ما يحدث حالياً وتنذرنا بما سيحدث لاحقاً. كذلك يمكنها أن تسهّل علينا التعبير عن شيء بالغ التعقيد أو صعب أو مؤلم لدرجة لا يمكن وصفه بالكلمات، وهي تستخدم صوراً أو حركات مألوفة من أجل أن تصف عملية رأب الصدع التي يمكن أن تكون رحلة إلى المجهول.

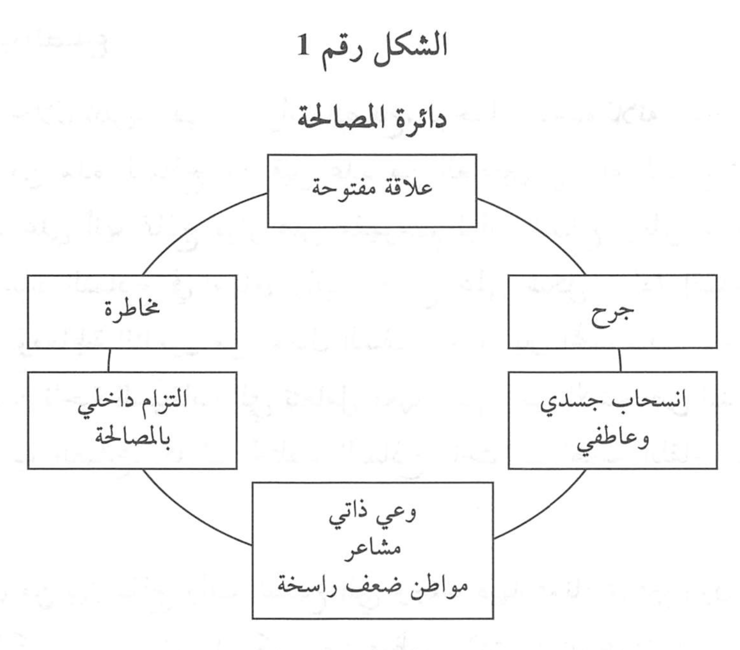
نماذج رأب الصدع

من خلال تطوير مفهومنا لرأب الصدع، توخينا مساعدة ثلاثة نماذج. وقد ورد ذكر كل من هذه النماذج من قبل عدد من العاملين في بناء السلام ممن جرت مقابلتهم، على أنها نماذج تؤثر على مفهومهم لرأب لصدع وعلى ممارستهم له. وتدخل هذه النماذج في سياق رأب الصدع على شكل إعادة إصلاح علاقة موجودة، ومعالجة الناجين من أعمال العنف وحوار بين المجموعات. وتختلف هذه النماذج من ناحية السياقات التي تتعامل معها ومن ناحية الأشخاص المنخرطين في عملية رأب الصدع. كذلك تختلف النماذج باختلاف أهمية اللقاء بين مختلف الجماعات.

كان من بين نماذج رأب الصدع التي وجدنا فيها عوناً، نموذج رون كراي بل (انظر الشكل 1). وكراي بل يكتب من منظور الأذى الذي يحدث في سياق علاقة بين شخصين. ويميز بين بعدين من أبعاد المصالحة، الأول يتعلق بالرأس والثاني يتعلق بالقلب. إذ أنه حتى عندما يعتقد الناس بوجوب المصالحة بينهم أو يرغبون بذلك، فإن هذا لا يعني بالضرورة أن هذه المصالحة ستدخل قلوبهم. والناس غالباً ما يتجاوبون بطرق تعزز رسالة الرأس ولكنها تتجاهل أو تسفّه نداء القلب (كراي 1988، 2). وبعد أن يطال الأذى علاقة ما، تشهد هذه العلاقة فترة من الانسحاب الجسدي والعاطفي، أحياناً، وخلال انسحابهم، يعتقد الناس بأن عليهم أن يسامحوا بعضهم البعض ويجبروا أنفسهم على إجراء المصالحة دون أن يكونوا مستعدين تماماً لها داخل قلوبهم. ولكن الوعي الذاتي والقبول بالعواطف ومواطن الضعف التي قد تتأثر نتيجة النزاع هي أمور تعتبر ضرورية للوصول إلى المصالحة بين القلوب. كذلك من المهم أيضاً أن يكون الإنسان مدركاً لإسهاماته الشخصية وقوته في النزاع. وهذا الوعي الذاتي يتيح له مجال الاختيار للدخول في عملية مصالحة أكثر عمقاً. ولكن الدخول في مثل هذه العملية يعني ركوب المخاطر الضرورية في أي علاقة مكشوفة.

الشكل رقم 1

دائرة المصالحة



المصدر: كراي بل (1988، ص 3) أعيد طبعها بموافقة الناشر.

تكتب جوديث هيرمان (1997) عن تجربتها كطبيبة نفسية تعالج ضحايا الانتهاكات الجنسية كتلك التي تحدث في الحروب أو مع الأطفال فتقول: « إن المفتاح الرئيسي للشفاء هو تعزيز قدرة الناجين. وتتبع هذه الطريقة ثلاث خطوات، ولكنها خطوات تتقاطع مع بعضها البعض وليست دائماً محددة المعالم. المرحلة الأولى هي مرحلة وضع أسس الأمان. وأهم ما يميز هذه المرحلة هو تسمية المشكلة واستعادة الناجين للسيطرة على أنفسهم وعلى محيطهم. وتأتي المرحلة الثانية وهي مرحلة الحداد والذكرى لتشمل إعادة تركيب القصة وتغيير الذاكرة المأساوية والحداد على المفقودين. وتسهم إعادة تركيب القصة وسردها في مساعدة الذاكرة المأساوية على الاندماج في حياة الناجين أي أن الوصول إلى تفاهم مع الماضي المأساوي يدفع الناجي إلى التصدي لمهمة إيجاد المستقبل. « لقد أكملت حدادها على ماضيها وفكفكت أواصر محنتها والآن عليها أن تبني حياتها الجديدة » (1997، ص 196). وهنا تدخل

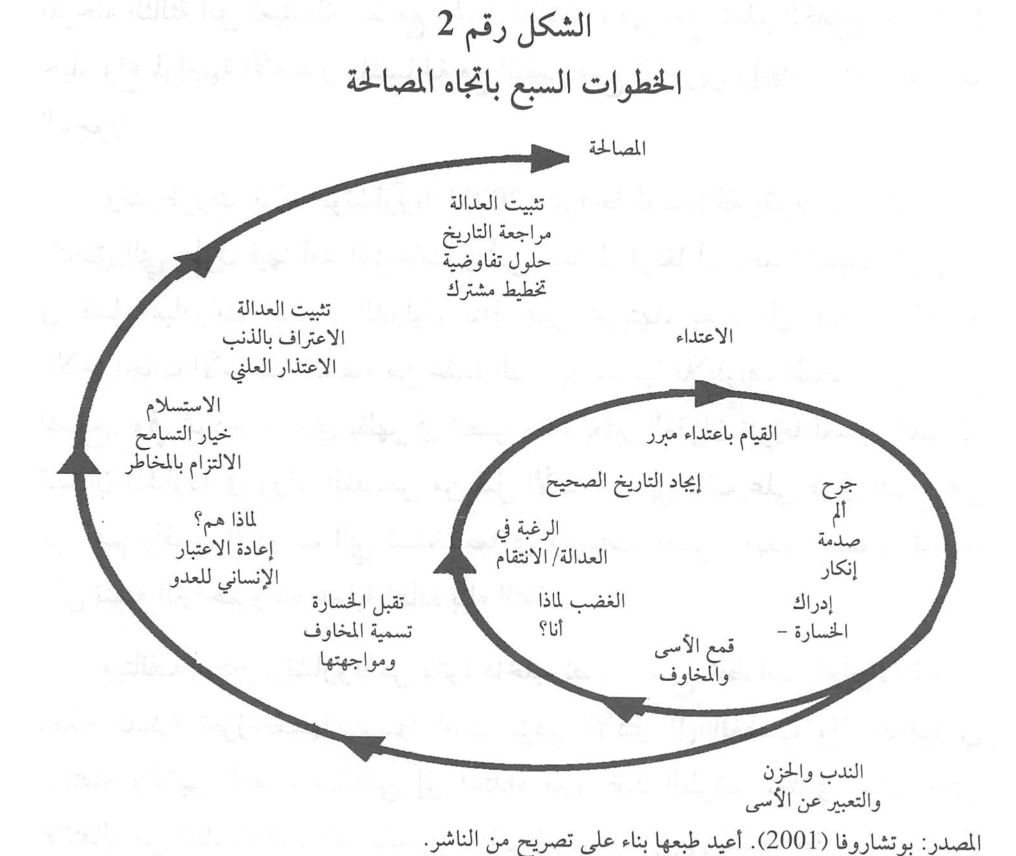
المرحلة الثالثة التي تعيد الترابط مع الحياة العادية. وهي تعني تعلم الكفاح أي امتلاك خيار واعٍ لمواجهة الأخطار والمصالحة مع النفس ومع الآخرين وإيجاد رسالة يعمل بها الناجون.

وقد طورت أولغا بوتشاروفا (2001) نموذجاً للمصالحة يقوم على عملها في المناطق التي يطول فيها أمد النزاعات والمحن. وتقول أولغا أن أحد الأسباب الرئيسية في فشل مبادرات السلام الدولية، بناءً على تجربتها، يعود إلى غياب الاهتمام بالاحتياجات الأساسية للشفاء من عقدة الضحية بالنسبة للأطراف المنخرطة في النزاع المسلح. وفي نموذجها الذي يظهر في الصورة 2، يعتبر الغفران تتويجاً لعملية المصالحة كما أن المشاركة في رواية القصص من قبل الأطراف التي تقف على طرفي النزاع هي من أهم وأقوى الأدوات التي تستخدمها في ورشات العمل. فهذه القصص تساعد على تنمية التراحم وبدء عملية إعادة بناء الثقة.

ويتألف نموذج بوتشاروفا من دائرة داخلية تضم « سبع خطوات باتجاه الانتقام ». وهذه الدائرة تعزز نفسها بنفسها بحيث يؤدي الأذى إلى الغضب وإلى الرغبة في الانتقام وتحقيق العدالة وبالتالي إلى اعتداء مبرر ضد الطرف المعتدي. بينما يعتبر الانتقال من تلك الدائرة الداخلية إلى المجال اللولبي الخارجي للمصالحة خياراً للحزن ولقبول الخسارة التي ألّمت به.

كذلك يعتبر خيار الغفران والالتزام بتلقي المخاطر، خياراً مهماً في لولب الحركة الخارجية إذ ينظر إلى الغفران على أنه غامض ودائم التطور وأنه مفهوم لا يمكن تعليمه أو فرض اعتناقه ببساطة ولكن يمكن رعايته وتثبيته عبر حوار واعٍ وحساس بين الأطراف المتنازعة (بوتشاروفا 2001، ص293). وتمثل نماذج الشفاء الثلاثة مراحل سلاسل مختلفة لإحداث الشفاء. وقد رأينا أن نموذج بوتشاروفا يوفر للأطراف المتنازعة إحساساً بالصورة الكبرى والعملية الأكبر التي قد تستغرق سنين أو عمراً بأكمله. ولكن مقابلاتنا التي أجريناها وخبراتنا التي اكتسبناها كشفت لنا أن هذه

الشكل رقم 2
الخطوات السبع باتجاه المصالحة



المصدر: بوتشاروفا (2001). أعيد طبعها بناء على تصريح من الناشر.

النماذج ليست نقشاً في حجر. وفي الحقيقة، أن عملية الشفاء ليست أكثر من خليط من المشاعر والتجارب والاحتياجات التي تتناقض مع بعضها البعض. فالخطوات تتداخل في بعضها البعض دون أن يكون لها حدود معينة وثابتة وتبقى مسألة تحديد الاحتياجات الشخصية وإيجاد نموذج فردي هي جزءاً مهماً من عملية تعزيز القدرات.

أي من عناصر المقاربات الإيجابية نجدها في تلك النماذج الثلاثة لرأب الصدع؟ على الرغم من أن البحث التقديري لا يبدأ بالحديث عن التجارب المؤلمة، إلا أن هناك عناصر مشتركة تجمع بين طرق سرد التجارب والاعتراف بها. وهذه الأخيرة

تفسح المجال للتحدث عن التجارب والمصادقة على صحتها وتمتلك القدرة في كلتا الحالتين. كما يعتبر الخيار عنصراً آخر من العناصر التي تشترك فيها النماذج ويعرّف على أنه قدرة الناس الذين تعرضوا للأذى على اختيار ردودهم وتحديد علاقتهم الخاصة مع الذين سببوا لهم هذا الأذى. وإدخال الخيار في النماذج يبعث على الأمل أو ربما يشكل عملاً إيمانياً ينفذ في أوضاع لا تدرك وجود الخيارات، فالجرأة على مرافقة الشخص الذي وقع عليه الأذى لمجرد رؤيتك لاحتمال شفائه يعتبر عملاً إيجابياً إذا ما أدرك الشخص المذكور حقيقة الأمر وأبدى تفهماً لما يحدث منذ بداية العملية وأخيراً يمكننا ملاحظة المقاربات الإيجابية في تلك النماذج من الخيارات التي تفتح المجال أمام عملية إبداعية تخلق هوية جديدة وعلاقة جديدة.

خصائص لحظات الشفاء أو رأب الصدع

من خلال مراجعتنا لقصص رأب الصدع، بما فيها الطقوس والاستعارات والنماذج، يمكننا تحديد عدة خصائص مشتركة هي:

1- سرد أحداث القصة في جو آمن ومشجع.

2- تحديد الضرر.

3- أهمية المواجهة.

4- أهمية أشكال الاتصال والتجربة غير اللفظية.

5- السماح للناجي نفسه بان يختار المسلكيات والتسلسلات والأوقات التي سيتبعها في رأب الصدع.

سرد القصة في جو آمن

في الأمثلة التي مرّ ذكرها، كان رأب الصدع يحدث عندما تسرد قصص المعاناة والأوقات الصعبة في جو يؤيدها، أو كما يحلو للبعض أن يصفه «جو من الأصغاء التنبؤي». وقد عرّفت أليس بولدنغ هذا الوصف الأخير بأنه الإصغاء للآخرين

بطريقة تُنبت فيهم بذور تفهمهم الأقصى وطاعتهم ورؤيتهم الخاصة التي لم يكونوا هم أنفسهم يعلمون بوجودها داخلهم (1980، ص 74). وقد وصف أحد الذين قابلناهم من العاملين في هذا المجال، هذا الأمر على أنه شاهد مؤثر يرافق الضحية عبر رحلة الشفاء. فالقصص تبقى بحاجة إلى أن تروى وأن يعاد سردها إلى أن يشعر الفريق المتضرر بأن الوقت قد حان للانتقال إلى مرحلة أخرى من مراحل الشفاء. وهذه الظاهرة برزت في الصراع الكنسي حول القس المطرود ومع القس الليبيري الذي شهد مصرع أهله أمام عينيه، وهما قصتان ورد ذكرهما سابقاً.

مثل هذا التركيز على نوعية الإصغاء والجو الذي تُروى فيه القصص يبين أن سرد القصص من أجل الشفاء يتعدى مسألة سردها فقط. إلا أن الأمر المهم أيضاً هو اعتراف هؤلاء الذين يصغون بالحقيقة، فالاعتراف هو تأكيد بأن الحقيقة قد قيلت. وقد توصلت باولا غرين وتامرا بيرسون دي ستري إلى النتيجة القائلة بأن السماح بإطلاق الصوت يعطي عملية بناء السلام حياة جديدة (انظر الفصل 16) فالشخص الذي يعترف بقصة مؤلمة رويت أمامه، يصبح شاهداً غير مباشر لها وربما مشاركاً فيها. وبينما تركز نماذج رأب الصدع على البيئة الآمنة، إلا أنها لا تسلط الضوء على أهمية دور الشخص الذي يصغي وعلى أهمية الاعتراف في عملية الشفاء. أما نحن فقد اكتشفنا من خلال تجربتنا أن الاعتراف غالباً ما يأتي من أشخاص عانوا هم أنفسهم من جرح أو ضرر سابق.

ويعتبر تسمية ما حدث جزءاً من سرد القصة، وهو جزء يعكس حقيقة تجربة ذلك الشخص. وتحمل هذه التسمية في طياتها قوة هائلة خاصة إذا جاءت ضمن سياق ضرر لم تتم تسميته سابقاً. وقد نوّه أحد العاملين في هذا المجال أن قوة التسمية تعتبر أفضل قوة يملكها أطراف النزاع.

ومن خلال تجربتنا مع قصص الشفاء، استمعنا لأهمية الخيار إذ أنه عندما تقترب مرحلة رواية القصص من اتخاذ قرار بشأن الوقت المناسب لاتخاذ الخطوات

التالية، يصبح من المهم أن يتم تعزيز قدرة الناجين لاختيار هذا الوقت وفقاً لاحتياجاتهم. ومن خلال تجربتنا أيضاً، شهدنا لحظات تم فيها اختيار الدخول في تجربة صعبة. وبالنسبة لراندي الذي رافق عملية رأب الصدع، تطور الوعي لديه عندما أصبح واضحاً أن ميله الشخصي كان نحو إدارة ظهره لتعابير أميلا الغاضبة ومخاوفها أو الهروب منها. ولعل الوعي الذاتي لمثل هذه النزعات يتيح المجال أمام بقاء الخيار موجوداً رغم قسوة المشاعر. وفي سياق هذه العملية وجد راندي مساعدة في إدراكه بأن تثبيت الضرر ليس مطلوباً منه وبالتأكيد ليس أمراً ممكناً.

ضمن قصص الشفاء، تتجه الخيارات بطبيعتها للدخول في إعادة إحياء تجارب مؤلمة وحزينة أو ربما إعادة التذكير بها. وهناك عبارة سمعناها تتردد دائماً على الألسن وهي « البقاء ضمن العملية » أي إبقاء المشاعر عميقة والسماح للجسد والفكر والروح باستيعاب تلك المشاعر وتنظيمها. هناك حاجة إلى استيعاب المشاعر والأعمال من أجل إتاحة المجال للبدء بعملية الشفاء. وهذه العملية قد تبدأ بخطوات بسيطة ولكن الجزء الأهم فيها هو تقبلها للمحنة التي وقعت لأن الناجين غالباً ما يشعرون بأن ما حدث لهم لا يتعدى كونه حلماً مزعجاً سوف يزول عندما يستيقظون. ولكنهم عندما يحصل هذا يدركون أنه حقيقة وأن هناك صراعاً دائماً بين العيش في الماضي والعيش في الحاضر. ولعل استيعاب المشاعر يساعد على تقبل الماضي، مما يساعد بالتالي على العيش في الحاضر وفي نهاية الأمر إيجاد المستقبل.

برزت العديد من لحظات الشفاء عبر مواجهات بين الشخص المتضرر والشخص الذي ارتكب الأذى أو أحد أفراد جماعته. وغالباً ما يحدث الشفاء خلال تلك المقابلات على سبيل المثال في ورشة عمل بجنوب إفريقيا بين ناشطين سود ورجال بوليس بيض كانوا يستجوبونهم ويعذبونهم، أو في قاعة محكمة في الولايات المتحدة بين أفراد من عائلة الضحية وبين المعتدي، أو في لقاء اجتماعي في نيكارغوا بين محاربين سابقين من أطراف مختلفة في تلك البلاد التي خاضت حرباً أهلية.

ومواجهة العدو السابق أو الطرف الآخر كما يقال (وهنا ننوه أننا نعني بالمواجهة، الجلوس وجهاً لوجه) تكتسب أهمية يمكن أن يساء فهمها أو استخدامها. فليس المقصود هنا أن المواجهة ستؤدي بالضرورة إلى رأب الصدع أو أنها أساسية في عملية الشفاء ورأب الصدع، لأنها ليست ممكنة دائماً خاصة حين لا يرغب الناجي في مقابلة المعتدي أو يشعر بعدم الأمان إذا فعل ذلك أو عندما لا تتوفر إمكانية مقابلة المعتدي أو أحد الموكلين عنه أو عندما لا يكون المعتدي منفتحاً بعد لإجراء مثل هذه المقابلة. وخلال مناقشاتنا لطقوس رأب الصدع، لاحظنا بأن الأمثلة التي قدمناها حول القس الليبيري وعائلات ضحايا التفجير في أوماخ حول الطقوس التي تبعت، كانت أمثلة قوية رغم غياب مثل ذلك النوع من المواجهة.

البُعد الروحي لرأب الصدع

لقد توصلنا إلى فهم مسألة رأب الصدع على أنه عملية تتعدى الجانب النفسي والجسدي إلى الجانب الروحي. وهذا الصراع الروحي يتمحور حول السؤال التالي: لماذا؟ وهو سؤال لا توجد له إجابات سهلة. كانت أميلا قد انخرطت في عملية رأب الصدع لسنوات عدة قبل أن تدرك أن الطريقة التي تصورتها في الأساس عن رأب الصدع كانت إعادة تأسيس الهوية التي كانت تحملها قبل نشوب الحرب. وقد شملت هذه الهوية البلد الذي تعيش فيه كمواطنة (البوسنة والهرسك) والمكان الذي نشأت فيه (جايسي) وموقعها داخل عائلتها وثقافتها. لقد تم تدمير معظم هذه العناصر أو تغييرها تماماً خلال الحرب. وقد ساعدها الاحتفاظ بتلك العناصر على البقاء سليمة العقل وعلى عدم اليأس مما حصل. ولكنها أدركت أن عملية رأب الصدع لا تعني فقط إعادة بناء الهويات القديمة بل اكتشاف هويات جديدة أيضاً. إذ يجب أن تتعدى عملية رأب الصدع مرحلة بناء الذات التي كانت موجودة سابقاً والتي لم تعد تصلح للوضع الجديد.

وفي نموذج هيرمان، تبرز عملية تحديد رسالة الناجين كمرحلة من آخر مراحل رأب الصدع. ولكن هذا لا يشكل إجابة كاملة على سؤال: لماذا تحدث هذه التجارب

القاسية، إلا أن أميلا خاضت هذه التجارب وهي تعيد اكتشاف الأسباب للحياة ولإعادة تأكيد قداسة هذه الحياة. وتبدأ هذه العملية الروحية عند نقطة الوصول إلى الشفاء الكافي على المستويات الجسدية والنفسية. ولكن القدر الذي يوصف بالكافي لا يمكن قياسه أو تحديده بوضوح. هناك وقت يشعر فيه المرء بأن شيئاً قد تغير، فينتابه إحساس بالخفة والفرح والمسالمة. وتساعد هذه التغييرات من ناحيتها على تحريك عملية الشفاء باتجاه مرحلة أكثر عمقاً. وعملية الشفاء الروحي تعني اكتشاف الجوهر الذي يصنع منه الإنسان أي اكتشاف جوهر ووجوده مع إدراكه أن هذا الجوهر لم يتعرض للتدمير جراء العنف بل على النقيض من ذلك، يبدو وكأن هذا الجوهر قد تراجع إلى زوايا بعيدة بوجود الحياة وبقدسيتها. هذه هي اللحظة التي تنسجم فيها النفس مع الروح في طريقة هادئة ولطيفة يتجدد فيها الإحساس بالحياة ويستعيد الإنسان حقه بالعيش وتنفّس الهواء. هي عملية خاصة جداً ومقدسة جداً تحدث بطريقتها الخاصة وبزمنها الخاص. وقد رأت فيها أميلا نعمة من الله ساعدتها على استعادة إنسانيتها وحقها في الحياة والأمل والخلق.

ويعتبر مفهوم الدمج مفهوماً قوياً في هذه المرحلة إذ أنه يدمج التجربة القاسية بمفهوم المرء لهويته. وقد يتطلب هذا الأمر إجراء تغييرات في بعض نواحي الهوية القديمة لأنها لم تعد تصلح للظرف الحالي. وهذا يعني الإدراك بأن الحياة أصبحت تحمل معنىً آخر في ظل تلك التجربة كما أنها تعني إدراك قيمة الحياة من جديد وإيجاد فسحة في عمق النفس مملوءة بالسلام.

على الرغم من أن رأب الصدع يتم وفقاً لاستعداد الناجي للسير في كل خطوة وليس باتباع سلسلة موضوعة، إلا أن العناصر المشتركة التي لمسناها في قصص ونماذج رأب الصدع توفر بعض العلامات على الطريق. وهذه العلامات تشمل: إيجاد بيئة آمنة وسرد القصة والوصول إلى درجة الوعي للغضب أو للرغبة في الانتقام، والحزن على الخسائر وعلى المفقودين، وملاحظة أن هذا الحزن يخف وطأة مع مرور الزمن،

وأخيراً دمج التجربة. حتى نظرة الإنسان إلى نفسه كمتضرر أو كشخص يتماثل للشفاء تعتبر من العناصر المميزة. ولعل الطرق البليونية التي يمكن لعملية رأب الصدع أن تسير بها، هي أبعد من أن يستطيع نموذج واحد حصرها، ولا يبدو المثل المأثور والقائل بأن الزمن كفيل بلأم جميع الجروح صحيحاً هنا، ولكن مقابل كل قصة شفاء توجد قصص لا تحصى من الأذى الذي يستمر لسنين وربما لحياة بأكملها. وتدلنا تجربتنا على أن الوقت عامل مهم ولكنه لا يفتح وحده أبواب الشفاء دون أن يرافقه خيار، يتكرر مرات ومرات للانطلاق في رحلة رأب الصدع.

البحث التقديري ورأب الصدع

حتى هذه النقطة من الفصل، استكشفنا السؤال المتعلق بكيفية حدوث الشفاء. ولكننا سنتحول الآن إلى التفكير بما يمكن أن يحمله البحث التقديري من نبضات جديدة في عملية رأب الصدع. ونأمل أن نسلط الضوء على المجالات التي يمكن لنماذج البحث التقديري الموجودة أن تكون مكملة أو للمجالات التي يمكن أن تكون مختلفة فيها. في بداية الأمر، نحن نعتبر أن قصص رأب الصدع هي أفضل الأمثلة التي تصور عمل بناء السلام. فرأب الصدع يؤثر على حياة الأطراف المتنازعة في نواحٍ عميقة وإيجابية قوية لأنه يعتبر رحلة من الأذى إلى الشمولية، تؤكد على الأمل والحياة في المستقبل. فإذا شبهنا النزاعات التي تدور في العالم والمعاناة اليومية والأضرار التي تتسبب بها، بنار هائجة تحرق الغابات، فإن عملية رأب الصدع هي برعم الشجرة الذي يخرج من الأرض المحروقة. وهي التي تلهم العاملين من أجل السلام وتدفع بعملهم نحو الاستدامة وتمنح الحياة لبذل مساعٍ أكبر من أجل بناء لسلام.

وإذا أردنا أن نختبر مدى ملاءمة البحث التقديري لعملية رأب الصدع، فإن أفضل ما نبدأ به هو المبادئ الأساسية الخمسة التي يقوم عليها (كوبررايدر ووتني 2001؛ انظر أيضاً الفصل الثالث من هذا الكتاب). وسوف نقوم باستعراض كل منها بدوره.

يقر مبدأ العمل البنّاء بأن اللغة الجديدة والحوار الجديد يمكنهما إيجاد حقيقة اجتماعية جديدة. وهذا المبدأ ينسجم مع ممارسة بناء السلام بشكل عام والتي تكافح من أجل دفع الناس للتحدث أو للتحدث مع بعضهم البعض بطرق جديدة، تشمل إعادة تأطير القضايا لفتح المجال أمام احتمالات جديدة للاتفاق على الحلول. كذلك تظهر أهمية استخدامات اللغة في كل وقت من أوقات عملية رأب الصدع. وكما هو مهم، على سبيل المثال، استخدام مصطلح ضحية في فترة ما من فترات عملية رأب الصدع والاعتراف بحقيقة ما حدث، كذلك من المهم أيضاً التحدث عن كونك « ناجٍ » ولا تستخدم فقط عبارة متلقي الاعتداء بل تعزز قدرتك لإعادة تعريف نفسك بطرق جديدة. ويمكن لعملية إعادة التعريف هذه أن تصل إلى درجة النجاح بعد أن تتمكن من دمج التجربة الأليمة. مثل هذه الفوارق تعتبر مهمة لأن اللغة التي نستخدمها تعكس فهمنا للأمر وتؤثر عليه. ويؤيد هذه النظرية الدور الذي يلعبه الإصغاء وتلعبه القصص في عملية رأب الصدع. فالحديث عن المحن وسط بيئة مشجعة وداعمة للقدرات أو التحدث عما لا يمكن التحدث به يمكن أن يوجد حقيقة جديدة حول ما حدث. ورغم أن الأحداث والأضرار لا تتغير ولكن المعنى ينتقل من كونه حدثاً محبطاً إلى حدث باعث للحياة.

هناك العديد من الأمثلة حول النظرية الإيجابية أو قوة الإيجابية المتضمنة في قصص رأب الصدع مثل تقاسم الأفضل من الحضارات المختلفة والمشاركة في الذكريات الإيجابية أو الحديث عن الناس المهمين في حياتك. فالمقاربات الإيجابية، بكلمات أخرى، ليست شاناً جديداً في بناء السلام وتستخدم غالباً لأنها تعطي طاقة وقوة وتبني تراحماً ووئاماً وألفة.

أما النظرية الشاعرية فتتناول القدرة عل التصور والتخيل. وقد اطّلعنا على عدد من تمارين تعزيز الرؤية التي تستخدم في بناء السلام وتقوم على إطلاق أو توليد صور إيجابية عن المستقبل. وتظهر قصة أوماخ في إيرلندا الشمالية قدرة العمل الإبداعي في

رأب الصدع، وهو في هذه الحالة صور مصنوعة من الورود التي أحضرها المعزّون. ويبرز الدعم لهذه النظرية في أهمية الأشكال غير اللفظية في التجربة والمتمثلة بالرموز والطقوس المستخدمة في تعزيز عملية رأب الصدع. وتوازي ذلك في الأهمية الفكرة التي تقول بأن رأب الصدع يشمل مساعدة الناس على اكتشاف التشابيه أو الاستعارات السائدة ومن ثم إطلاق تشابيه واستعارات جديدة يمكنها المساعدة على إرشادهم إلى مكان أفضل. والسؤال المستمر بالنسبة لنا هو فهم كيفية تطبيق النظرية الشاعرية في ممارسة رأب الصدع وإمكانية تعزيزها في أعمال أخرى متعلقة ببناء السلام. كما أن أهمية النظرية الشاعرية كعنصر في البحث التقديري يمكن أن تعني أن صانعي السلام يستطيعون الاستفادة من توجيه اهتمامهم بشكل أكبر إلى البحث التقديري والتعلم منه.

وتشدد نظرية التزامن على أن التغيير يبدأ مع أول أسئلة نطرحها. وقد رأينا في ورشة العمل التي أقيمت للشباب القادمين من الشرق الأوسط أن الذي ساعد على خلق حركة تراحم بين المشاركين كان سؤالاً إيجابياً طرح منذ البداية. وقد أفسح التراحم الذي حصل مجالاً للمجموعة بأكملها كي تختبر بعض جوانب عملية رأب الصدع رغم بقاء الاختلافات الملموسة على حالها ورغم صعوبة التفاعل بين الشباب خلال وجودهم معاً.

وبالاشتراك مع ممارسين آخرين اتبعوا النماذج المذكورة أعلاه، لم نكن نميل إلى رؤية عملية رأب الصدع على أساس أنها عملية طرح أسئلة بل بدلاً من ذلك كنا نرى فيها عملية تدفع نحو إيجاد جو آمن ونحو تعزيز قدرات الناجين أنفسهم.وعبر هذه المواجهة مع البحث التقديري، أخذنا نولي اهتماماً أكبر بالأسئلة التي نطرحها وبمدى تأثيرهذه الأسئلة على اتجاه عملية رأب الصدع.

وأخيراً تأتي النظرية التوقعية. وتعتبر هذه النظرية حجر الزاوية في البحث التقديري لأنها تشدد على أن ما نفكر وما نتحدث به يؤثر على ما سنكون عليه.

وكما رأينا سابقاً تلعب مسألة رواية القصص حول الأيام الصعبة دوراً رئيسياً في عملية رأب الصدع. ولكن هل يعني هذا أننا حين نتكلم عن الألم في البحث التقديري نعزز هذا الألم؟ يدخل بنا هذا إلى صُلب ما هو صعب في مسألة البحث التقديري بالنسبة لصانعي السلام. فإحدى الخصائص المميزة والمهمة للبحث التقديري هو أنه لا يتعاطى بالإنكار أو بعدم الإصغاء بل هو يخلق بدلاً من ذلك بيئة تسهل الاستماع إلى قصص الناس بطريقة تجعل هذه القصص جديرة بالتصديق. ومع ذلك هل يمكن للحديث عن الإيجابيات أن يُشغل الناس الذين تعرضوا للأذى. إن الأهمية الموضوعة لتسمية الخسارة والضرر والتحدث عنها، تجيب علينا بلا. وهذا يعتبر حقيقياً بشكل خاص إذا فرضت مناقشة الموضوعات الإيجابية من الخارج مما يشكل انتهاكاً لأهمية تعزيز قدرات الناجين والسماح لهم بقيادة عمليتهم بأنفسهم. ولكننا مهتمون بالطرق التي يكمل فيها البحث التقديري أو يوسع الممارسة الحالية لعملية رأب الصدع والنواحي المكملة للعملية التقديرية. إحدى التطبيقات قد تأتي في المراحل الأخيرة في عملية رأب الصدع وهي ما يطلق عليها هيرمان اسم تحديد رسالة الناجين ونعتبرها البُعد الروحي للعملية.

هذا هو المكان الذي يمكن للناجين من المحنة أن ينشغلوا بعملية بحث عن معنى في وسط هذه التجارب القاسية ولعل تحديد هذا المعنى ومدى عمقه منذ بواكير حياتهم ومن تجارب الشجاعة وسهولة التكيف ونبذ الأنانية والتراحم والشفقة في وجه الأعداء يمكن أن يشكل طريقاً طبيعياً لأفضل هوية جديدة يصنعونها لأنفسهم. ومثل هذه العملية يمكن أن تستفيد من تقاسم الخبرات والتعلم من آخرين واجهوا وضعاً مشابهاً.

نحن نعلم أن فرق الحوار في البوسنة كانت قد استهلت عملها بالجمع بين فئات متنازعة ولكنها اكتشفت بعد فترة من الوقت أن من الأفضل لها العمل فردياً مع كل مجموعة أولاً من أجل إيضاح إحساسها بالهوية قبل لقائها مع الفئات الأخرى. وهذا

العمل الفردي الهوية أثبت أهميته من ناحية كونه أرضية عمل مهمة لجمع الناس معاً بالإضافة إلى تطوير القدرة لكل مجموعة على النظر بعين ناقدة لأعمالها. ويمكننا تصور أن العملية التقديرية التي تعيد مراجعة القصص حول أفضل التجارب المتعلقة بكونك مسلماً بين مجموعة من المسلمين أو كونك صربياً بين مجموعة من الصرب قد تشكل مكاناً آمناً للبدء بالعمل أي نقطة انطلاق لهؤلاء الذين لم يجهزوا بعد للبدء بالتحدث عن التجارب القاسية التي ينطوي عليها كونك مسلماً أو صربياً. وللتأكيد على ذلك نحن لا نرى في العملية التقديرية دعوة لإنكار ما هو مشترك إذا كان الأمر صعباً ولكن دعوة إلى تركيز الانتباه على الأسئلة التي نطرحها وعلى الاستمرار في البحث عن الأفضل.

ذكرنا سابقاً أن صنّاع السلام لا يركزون دائماً على التأثيرات العلاجية للإصغاء إلى قصص الخسارة والاعتراف بها. وإذا كان للاعتراف قدرة على رأب الصدع فإننا يمكن أن نفهم قدرة البحث التقديري على ضوء جديد هو أن البحث التقديري يشمل سرد القصص لشريك في مقابلة ثم إشراكه في تلك القصص وفي قصص أخرى لأناس آخرين واعتبر هذه العملية حجر أساس لعملية التغيير. وهذا يعني أن الأمر يتعلق باعتراف فردي وجماعي بالقصص ومن ثم التأكيد على أن الرؤىً والموضوعات المنبثقة عنها ستصبح طريقاً لتجديد رؤى جديدة للمستقبل. قد يكون البحث على سبيل المثال حول طرق تجاوز الناس للظروف القاسية أو حتى عن اللحظات المضحكة وسط المحنة. والبوسنيون يملكون العديد من هذه القصص، وقد تجد الناس يتحدثون عنها فوراً في سياق أي مناقشات للمشاكل والصعوبات الحالية والماضية حتى الناس الذي عانوا من محن شديدة. ولكن ما لم يتم اختباره هو تأثير سرد هذه القصص الإيجابية والاعتراف بها.

هذه بالتأكيد بعض الطرق التي يمكن من خلالها دمج البحث التقديري وغيره من المقاربات الإيجابية في ما تم معرفته أو تعلمه عن رأب الصدع. ونحن نتمسك بالإمكانيات التي لم تكتشف بعد والتي يمكن للبحث التقديري أن يوفرّها في مراحل مختلفة من عملية رأب الصدع.

ملاحظات :

1. Interviews were conducted with Olga Botcharova, Jayne Docherty, OrLi Fridman, Barry Hart, Vernon Jantzi, Ron Kraybill, Tammy Krause, Sonja Kuftinec, John Paul Lederach, Lisa Schirch, Nancy Good Sider, Marieke van Woerkom, and Howard Zehr, between December 2001 and February 2002. Many thanks to them for sharing their time and wisdom!

مراجع :

Botcharova, Olga. 2001. "Implementation of Track Two Diplomacy: Developing a Model for Forgiveness." In *Forgiveness and Reconciliation: Religion, Public Policy, and Conflict Transformation.* Raymond C. Helmick, Sj., and Rodney L. Peterson, eds. Philadelphia: Templeton Foundation Press.

Boulding, Elise. 1980. Talk given at New Call to Peacemaking Conference. In *Mediation and Facilitation Training Manual* (4th edition). Akron, Pa.: Mennonite Conciliation Service.

Cooperrider, David, and Suresh Srivastva. 1987. "Appreciative Inquiry in Organizational Life." In *Research on Organizational Change and Development,* Vol. 1. Richard W Woodman and William A. Passmore, eds. Greenwich, Conn.: JAI Press.

Cooperrider, David L., and Diana K. Whitney, eds. 2001. *Appreciative Inquiry: A Constructive Approach to Organizational Development and Social Change.* Taos, N.M.: Corporation for Positive Change.

Herman, Judith Lewis. 1997. *Trauma and Recovery.* New York: Basic Books. Kraybill, Ron. 1988. "From Head to Heart: The Cycle of Reconciliation."

Conciliation Quarterly 7:4 (fall), pp. 2—3, 8.

Romanoff, Bronna D., and Marion Terenzio. 1998. "Rituals and the Grieving Process." *Death Studies* 22:8, pp. 697—711.

Schirch, Lisa. 2001. "Ritual, Reconciliation, and Transformation." Harrisonburg, Va.: Conflict Transformation Program.

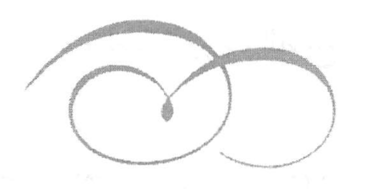


الجزء السادس

تصميم منظمات بناء السلام

العالم ينتظر قديسين جدداً. رجال ونساء يتمسكون بصوفيّتهم. تجذّروا عميقاً في محبة الله. وأحراراً في تصورهم لنظام عالمي جديد

هنري نوين



الفصل الثامن عشر

مبادرة الديانات المتحدة والبحث التقديري

شراكة ناشئة

شارلز غيبس وباربرا هارتفورد

قامت مبادرة الديانات المتحدة (URI) بتطوير مقاربة إبداعية وإيجابية لبناء السلام بين الأديان عبر شراكة فريدة مع البحث التقديري. وهذا الفصل يوثق هذه الشراكة منذ انطلاقتها عام 1997، وهي شراكة تأطّرت عبر سلسلة من اجتماعات القمم الإقليمية والدولية التي صممت ثم عقدت باستخدام البحث التقديري مما أوجد جماعة دولية متدربة على ممارسة البحث التقديري. وقد تميزت هذه الممارسة بمرونة سمحت للبحث التقديري بأن يتكيف مع العمل المركز والمتعلق بتكملة إنجاز دستور مبادرة الديانات المتحدة وإنشاء مؤسسة مصممة لخلق التعاون اليومي بين الأديان وتثبيت مبدأ التسامح والتحمل.

وتركز المبادرة حالياً على تطوير برنامج لبناء السلام يشمل تدريب القيادات الشعبية وإقامة مشاريع محلية ضمن سياق البرنامج، وتطوير منهج لبناء السلام بين الأديان وإجراء بحث عالمي لصياغة رؤىً واستراتيجيات جديدة للسلام بين الأديان في القرن الواحد والعشرين.

*

« نحن أناس من ديانات وتعابير روحية وتقاليد أصلية متعددة عبر العالم نقوم هنا بإطلاق مبادرة الديانات المتحدة لتعزيز التعاون والتسامح اليومي بين الأديان،



ولإنهاء العنف القائم على دوافع دينية وإيجاد ثقافات للسلام والعدالة ورأب الصدع في الأرض بين جميع الكائنات الحية » (URI 2000).

بهذه الكلمات التي تمثل الآلاف من الأصوات عبر العالم، تم شن حملة التمهيد لوضع دستور مبادرة الديانات المتحدة. وهي ثمرة رحلة مضنية استمرت أربع سنوات بهدف إيجاد شبكة عالمية مكرّسة لإقامة تعاون بين الأديان من أجل مصلحة البشرية. وانبثقت من صلب هذه الرحلة شراكة بين مبادرة الأديان المتحدة وبين البحث التقديري، لم تؤد فقط إلى إنشاء مؤسسة جديدة بل أيضاً إلى صياغة مقاربة إيجابية واعدة نحو بناء السلام بين الأديان. وقد سارت المؤسسة برفقة مقاربتها الإبداعية نحو بناء السلام كوسيلة وآلية رئيسية للدخول إلى المستقبل على أمل المساعدة في تغيير التاريخ البشري.

بقيت النظرة إلى بناء السلام عبر التعاون بين الأديان تعتبر رؤية مركزية لدى مبادرة الديانات المتحدة منذ أن غرست بذرة نموها الأولى في شتاء عام 1993. وقد دعت الأمم المتحدة الراعي الأسقفي المحترم لأبرشية كاليفورنيا وليام سوينغ لأداء خدمة قداس بين الأديان ولمدة ساعة في كاتدرائية النعمة يوم الخامس والعشرين في حزيران عام 1995. وكان من المفترض أن تكون جزءاً من أسبوع نشاطات لإحياء ذكرى مرور خمسين سنة على توقيع ميثاق الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو. وعندما أبدى الأسقف سعادته لإحياء هذا القداس، أبلغه ممثل الأمم المتحدة أن 185 دولة ستشارك في هذا الاحتفال وأنه سيجمع بين الأديان في العالم.

في تلك الليلة لم يستطع الأسقف سوينغ النوم فقد أدرك أنه تلقى دعوة من قبل جميع الأديان في العالم لإحياء ذكرى مرور خمسين سنة على بناء سلام غير مسبوق، أظهرت فيها دول العالم، بما فيها الدول المتنازعة شجاعة أخلاقية كافية لعقد لقاءات يومية في مركز دائم للعمل من أجل السلام. وخلال هذه السنين الخمسين، ورغم انخراط دول العالم في دوامة عنف جعلت من القرن العشرين أكثر القرون دموية في التاريخ الإنساني، إلا أنه نادراً ما بادرت الأديان إلى التحدث مع بعضها البعض.

وفي وسط هذا الإدراك برزت رؤية إنشاء منتدى يعمل فيه الزعماء الدينيون في العالم للاعتراف بمهمة جماعية تقوم على بناء السلام، يتساوون من خلالها في شجاعتهم مع الشجاعة الأخلاقية التي أبدتها دول العالم ويجتمعون في مركز دائم وعلى أسس يومية للعمل من أجل المصالحة العالمية. وهكذا تم غرس البذرة التي ستنمو لاحقاً لتشكل مبادرة الأديان المتحدة والتي أرست جذورها في قلب الأسقف الذي لم يعرف النوم في تلك الليلة.

سوف تتجذر هذه البذرة في قلوب الآلاف قبل أن يتم وضع دستور مبادرة الأديان المتحدة. في قلوب مئات الآلاف مع انطلاق الحملة لتوقيع الدستور عام 2000، حيث بدأت الرؤية تعزز إمكانياتها. بعد تلك الرحلة لم تعد الرؤية تقتصر على الأسقف فقط بل أصبحت رؤية يحملها خمسة وعشرون ألفاً من أعضاء المنتدى ينتمون إلى أكثر من ستين ديانة في سبع وأربعين دولة عبر العالم.

من الاكتشاف إلى تقرير المصير : إنشاء وتصميم مؤسسة

لم يصل تطور رؤية المبادرة ولا صياغتها في دستور مبتكر ولا ملكيتها من أناس عبر العالم، إلى حدود الإمكان لولا الشراكة التي عقدت بين المبادرة وبين البحث التقديري. وهي شراكة أسهمت في بناء مقاربة إيجابية نحو تنظيم بناء السلام على شكل دستور للمبادرة.

انطلقت هذه الشراكة في شتاء عام 1997 وقبل بضعة أشهر من انعقاد أول قمة عالمية لمبادرة الأديان المتحدة، بمبادرة من د. ديفيد كوبر رايدر الذي يعتبر بمثابة الأب للبحث التقديري. كان كوبر رايدر قد قرأ مقالاً عن رؤية الأسقف سوينغ فكتب له فوراً ليعرض دعمه وقد شكلت هذه الرسالة بالإضافة إلى زيارة لاحقة للأسقف قام بها ديفيد برفقة الأب شارلز غيبس الذي أصبح فيما بعد المدير التنفيذي المؤسس للمبادرة، بداية لعلاقة تعاونية تناغمت مع الطريقة الفطرية لعمل المبادرة ضمن منهجية تعتمد التطوير المؤسسي عبر التجارب الميدانية. بكلمة أخرى التقت المبادرة مع البحث التقديري.

أدخلت مبادرة الأديان المتحدة إلى الشراكة مطلباً يقضي بإيجاد مؤسسة يمتنع المؤمنون من خلالها عن قتل بعضهم البعض باسم الله ويتدربون على العيش معاً، إضافة إلى الإيمان بأن مثل هذه المؤسسة يجب أن تنشأ من خلال أناس من مختلف الأديان بهدف خدمتهم. وقد جلب البحث التقديري معه منهجية تنظيمية تساعد على تحقيق هذا الهدف. لأن البحث التقديري مؤسس على فكرة أن أي مؤسسة تنمو في اتجاه الأسئلة التي تطرحها وأن أكثر الأسئلة فاعلية هي تلك التي تسهم في استنباط الرؤى حول مستقبل إيجابي مشترك، واستنباط أفضل الممارسات من الماضي التي يمكن أن توجد مثل هذا المستقبل. ويقدّس البحث التقديري عملية الاستماع أو الإصغاء، لإيمانه بأن كل صوت له شأن واعتبار كما يطلب حضور جميع الأطراف المعنية إلى القاعة عندما تجري المؤسسة عمليات الاكتشاف والحلم والتصميم وتقرير المصير (4-D cycle). كذلك يؤمن البحث التقديري بأن اللقاء بين الجماعات يحمل معه ما يكفي من الحكمة، وليس بحاجة إلى تدخل الخبراء من أجل أن يضع الرؤية والخطة أو الالتزامات الضرورية لتحقيق هذه الرؤية. ولا يمكن اعتبار مؤتمر البحث التقديري اجتماعاً سلبياً أو بليداً يتكلم فيها قلة من الناس ويجلس الباقون ليصغوا لهم، إذ أنه بشكل عام مؤتمر لا يتضمن خطابات بل يحتوي على مشاركات كاملة يعمل فيها المشاركون ضمن مجموعات صغيرة ومنظمة لتغطي أقصى الاختلافات.

« حان الوقت للعمل »: اللقاء العالمي الأول

ظهرت أولى ثمرات هذه الشراكة في لقاء القمة العالمي الذي عقدته المبادرة في سان فرانسيسكو في شهر حزيران في عام 1997 وحضره خمسة وخمسون رجلاً وامرأة يمثلون مختلف الديانات والعبادات والأمم. فكان عنوان هذه القمة « حان الوقت للعمل »: اكتشاف الخطوات لوضع دستور الديانات المتحدة، والتركيز الجوهري لتصور الخطوات الضرورية لكتابة هذا الدستور.

وقد ساعد إجراء مقابلات تقديرية استهلالية على تحديد طابع المؤتمر، وكان السؤال يهدف إلى إشغال المشاركين في عملية اكتشاف للقيم التي يتوجب الاعتماد

عليها في إنشاء مبادرة الديانات المتحدة من خلال استشفاف ما جلبه كل مشارك معه من قيم، وما هي الخصائص الاجتماعية لجماعات المؤمنين وما هي التوجهات والتغيرات العالمية والمحلية التي تجلب الأمل لمثل هذه الإمكانيات. كان هناك سؤال آخر للمشاركين من أجل التقدم بمخيلتهم ثلاثين عاماً نحو المستقبل واستقراء ما يمكن أن يكون عليه حال المبادرة وكيف هو شكل العالم الذين يرغبون في رؤيته بالحقيقة.

وقد ميّزت المقابلات الفردية التي تدفقت عبر هذه الأسئلة، بداية مرحلة الاكتشاف وهي عملية تطلبت العمل ضمن مجموعات صغيرة وضمن الفريق بكامله. وفي هذا المكان الآمن أبرزت المقابلات رؤىً وخبرات وعواطف مشتركة أوجدت علاقات تقوم على الثقة. وأنعش وجود طاقة فرحة جو القاعة ومع إتمام هذا العمل، كان خمسة وخمسون شخصاً من مختلف الجهات والمنابت قد شكّلوا مجتمعاً جاهزاً للتحرك والعمل. وجاء المشروع التالي وهو جزء من مرحلة الاكتشاف ليشمل إيجاد وتفسير ثلاثة أطر زمنية وخارطة ذهنية، صُمّمت جميعها من أجل بناء إحساس مشترك بالسياق التاريخي وبالتوجهات التي يمكن أن تساعد أو تتحدى مبادرة الأديان المتحدة. وقد تحولت هذه الأطر الزمنية للأحداث العالمية والدينية والأحداث التي تمت بين الأديان لتصبح جداريات عظيمة أنشأتها المجموعة بأكملها، وأسست بذلك سياقاً تاريخياً جماعياً لعملنا. أما الخارطة الذهنية فشكلت تمريناً عالج تلك الأطر الزمنية لاستخراج التوجهات والرؤى التاريخية التي يمكنها أن تدعم أو أن تعيق جهود المبادرة. بعد ذلك تمت مناقشة هذه الموضوعات وتصنيفها ضمن درجات، وكانت أهمها التوجهات نحو تضامن عالمي ونحو إدراك متنام للقيم المشتركة بين الديانات وزيادة ملحوظة في التعاون بينها.

وجاءت مرحلة الحلم لتدعو المشاركين، فرادى في البداية ثم في جماعات صغيرة لكي يقوموا بتخيل عالم مثالي وتخيل الدور الذي قد تلعبه مبادرة الأديان المتحدة في إنشاء ذلك العالم. وخلال العملية قمنا بتخيل الشكل الذي ستكون عليه المبادرة وما

هي قيمها المرشدة ومن هم المشتركون فيها وماذا سيكون عملها في العالم. بعد ذلك قدمت كل مجموعة تصورها لهذا الحلم وعرضته أمام الجميع على شكل مسرحيات وقصص قصيرة. كانوا جميعاً يحلمون بلقاء بين الأديان على شكل « أمم متحدة روحية » تنعم بالتفاهم والاحترام المشترك وتقيم الحوارات المتواصلة، وتملك إحساساً عميقاً بالآخرين وشمولية تكسر الحواجز، ينخرط فيها جميع الناس في الكرة الأرضية لإقامة ديانات متحدة.

وبناءً على هذه الأحلام طلبت مرحلة التصميم من المجتمعين وضع تصور للتحركات الضرورية المطلوب القيام بها في السنة القادمة لتمكين المبادرة من كتابة دستورها في لقاء يضم مائتي رجل وامرأة من مختلف الديانات في العالم. وقد قامت مجموعات صغيرة خلال ذلك بوضع خطط شملت كتابة مسودة لرسالتها وتوظيف كوادر وفتح مكاتب وإيجاد الوسائل والمواد التي تمكن المجموعات من إتمام المراحل الأربع للبحث التقديري من قبل الحضور، بشكل مستقل لكل مجموعة، وإقامة شراكات استراتيجية واستضافة قمم مشابهة في مختلف مناطق العالم إضافة إلى الشيء الأساسي وهو جمع المال اللازم لتمويل هذا التحرك.

وشهدت المرحلة الأخيرة وهي مرحلة تقرير المصير التي توّجت العمل بأكمله، قيام جميع الذين تمنوا تعزيز قدراتهم بأخذ المبادرة التي يرونها أفضل من أجل تطبيق الخطط التي وضعت في مرحلة التصميم. وقد امتدت هذه المرحلة، بالتأكيد عبر الاثني عشر شهراً التي تلتها من أجل وضع الخطط موضع التنفيذ وتم توظيف كادر وفتح مكتب وإعداد أوراق عمل وإقامة شراكات استراتيجية، كما تم التخطيط لعقد ثلاث قمم محلية. وقد خُطِّط لعقد القمة الثانية وتم جمع الأموال لتحقيق ذلك.

توسيع الرؤية

ضمن اكتشافها للبحث التقديري، عثرت مبادرة الأديان المتحدة على عملية تقوم فيها بإنشاء مؤسسة تعكس القيم التي شعرنا بأن على تلك المؤسسة أن تمتلكها.

وفي مركز العمل، كان هناك إيمان بالطبيعة الجوهرية للتعاون بين الأديان التي تكرم وتحترم التعددية فيما هي تكافح من أجل اكتشاف الرؤية المشتركة التي تؤدي إلى عمل مشترك من أجل عالم أفضل. وقد كان لهذه المشاركة بين البحث التقديري والمبادرة، والتي ستشمل فيما بعد العديد من طلاب كوبر رايدر الذين تخرجوا من جامعة Case Western Reserve ومن الزملاء المحترفين، أن تصقل وتطور عبر السنين الأربع القادمة وعبر أربع قمم عالمية وعشر قمم إقليمية مشاورات لا تحصى، وأن تصل في النهاية إلى ولادة مبادرة الأديان العالمية المتحدة وظهور مقاربة إبداعية فريدة من نوعها تعمل على بناء السلام بين الأديان.

تم تصميم كل من هذه القمم باستخدام البحث التقديري واتبعت كل منها نظام المراحل الأربع كما استهلت كل منها عملها بمقابلة تقديرية وبرؤية مشتركة لعالم أفضل يجمع بين فئات مختلفة وأفراد من أديان متنازعة ضمن مجتمع متحالف يعملون فيه معاً. وقد عرضت كل من هذه القمم مرحلة تصميمية دفعت عمل المبادرة إلى الأمام إقليمياً دولياً. وخلال العملية، قمنا بإيجاد جماعة دولية تدربت على ممارسة البحث التقديري، وهي ممارسة ركزت على التكيف مع السياقات المحلية من أجل إتاحة المجال أمام البحث التقديري نفسه للتكيف وإتمام وضع الدستور وتأسيس المنظمة العالمية الجديدة.

قمنا معاً بإيجاد منظمة متناغمة مع الرؤية الأصلية التي تركز على التسامح والتحمل والتعاون اليومي بين الأديان والتي تعتمد الصلاة والتأمل والحوار الذي يصل بها إلى التعاون في التحرك. ولكن بعض نواحي الرؤية بالأصلية شهدت تغيراً. فقد أخذت جماعتنا العالمية المنبثقة والمتنامية تركز، ليس على جذب القيادات الدينية العالمية الكبرى فحسب ولكن على بناء شبكة دولية واسعة بين الديانات تنطق من الشعب أي من القاعدة إلى القمة مع تركيز شديد على مشاركة متساوية من قبل النساء والرجال. قمنا بتوسيع رؤيتنا الأصلية لتتجاوز الحدود الضيقة لعالم الأديان

ولتشمل الأساليب الروحية والتقاليد الأصلية، ولتضمن الترحيب بأي شخص مدفوع بالقيم الروحية العميقة للانضمام إلى هذه الجهود. وكذلك لتتجاوز أيضاً عالم الناشطين الدينيين والناشطين في العمل بين الديانات لتشمل أشخاصاً من جميع المهن من أجل ضمان إدخال حكمة العمل والفن والتربية وبناء السلام والطب والإعلام والعلوم ضمن هذا الجهد ومن أجل تشكيل مستقبل أكثر إيجابية للحياة على الأرض.

ينشط محلياً ويتواصل عالمياً

عملنا أيضاً لضم الأصوات التي لم يكن يسمعها أحد، خاصة أصوات السكان الأصليين حول العالم (انظر غيبس، 2002). وبدلاً من إيجاد بنية سلطوية مركزية، أنشأنا مؤسسة مرتبطة دولياً، ولكنها تعترف بحق جميع الفئات المحلية، وقد جاءت على شكل حلقات تعاونية تنظم بأي طريقة وضمن أي مدى وفي أي منطقة، وحول أي موضوع أو نشاط ذي صلة بمقدمة وبهدف وبمبادئ دستور مبادرة الأديان المتحدة. ومن أجل ضمان التعاون بين الأديان، كان المطلوب من كل حلقة تعاونية أن تضم سبعة أشخاص على الأقل ضمنها وثلاثة تقاليد أو أديان مختلفة.

كل هذا الجهد أثمر في وضع دستور لمبادرة الأديان المتحدة وخلق جماعة مركزية مؤلفة من خمس وثمانين حلقة تعاونية كرست نفسها لجعل الدستور وثيقة حية. وقد ظهر الدستور إلى الحياة، حتى قبل توقيعه بمدة ثلاثة أيام ليلة انتهاء الألفية الثانية وبدء الألفية الثالثة من 31 ديسمبر 1999 وحتى الثاني من يناير عام 2000 ضمن مشروع عالمي من بناء السلام بين الأديان استمر 72 ساعة. وإلى هذا المشروع، دعونا المؤمنين من جميع أنحاء العالم لحشد مجتمعاتهم من أجل بناء السلام. وكان من ضمن النشاطات المقترحة إقامة الصلوات من أجل السلام والتأمل والصلاة لأجل الجيران الروحيين، ووضع مشروع محسوس لبناء السلام ضمن المجتمع المحلي ودعوة الزعماء السياسيين للعب دور قيادي في إيقاف العنف خلال هذه الساعات الاثنتين والسبعين أو دعم التضامن بين الأديان لدى العاملين من اجل السلام في مناطق النزاعات. وقد نتج عن

هذه المبادرة مائتا مشروع في ستين بلداً، بما فيها إقامة الصلوات للأديان المختلفة في جميع أنحاء العالم وتخصيص نصب للسلام في إثيوبيا وإطلاق مسيرة حج مؤلفة من عدة أديان من أجل السلام من كراتشي إلى خيبر باس في الباكستان وعقد دورات تدريب على التأمل في السلام بين الأديان في سريلانكا. وقد وفرت هذه المشاريع توقعاً مبدئياً لمدى قدرة مقاربات البحث التقديري على تحريك الناس ودفعها نحو التعاون في العمل من أجل السلام.

تكرار العمل: تصميم الرؤية التي تحملها مبادرة الأديان المتحدة وتطبيقها

بمعنى معين، يمكن اعتبار تاريخ المبادرة منذ توقيع الدستور في حزيران عام 2000 مرحلة موسعة من التطبيق أو التسليم بناءً على ما تعلمناه خلال عملية وضع الدستور حول الجمع بين الفئات المختلفة من الناس في مكان آمن يمكن فيه التغلب على جميع العداوات وبناء المستقبل الذي تم تصوره.

وقد ظهر مثال صارخ لهذا التطبيق في نيسان عام 2001 خلال اجتماع إقليمي للمبادرة عقد في برلين بألمانيا من أجل أوروبا والشرق الأوسط. فقد جلست نانسي وهي شابة أردنية مسلمة ولأول مرة في حياتها إلى جانب سيدة يهودية تدعى إيلانا. وقد تلاشت مخاوف نانسي وربما حقدها على اليهود عندما استمعت إلى قصة ابن إيلانا الذي لقي مصرعه حديثاً إثر تفجير انتحاري، وكيف استطاعت إيلانا بدلاً من أن تهزمها المرارة والكراهية أن تلزم نفسها بالعمل من أجل السلام لكي لا تعاني باقي الأمهات وأبناؤهن مما عانته هي وابنها. وهكذا تحول الأعداء المحتملون إلى حلفاء يحملون التزاماً مشتركاً بالعمل من أجل بناء مستقبل جديد للسلام والعدالة ورأب الصدع في مجتمعاتهم.

وفيما توغل عمل المبادرة في حياة ما بعد توقيع الدستور، أصبح السؤال الأهم هو كيف ستعمل هذه الشبكة المؤلفة من حلقات تعاونية ذاتية التنظيم على تحقيق رؤية الدستور. وقد قامت المبادرة في محاولة منها لاستكشاف الأجوبة على هذا

السؤال بطرح برنامج لبناء السلام عام 2001 بإرشاد من باربرا هارتفورد إحدى الكوادر العالمية للمبادرة. وكنتاج لشراكة البحث التقديري ومبادرة الأديان المتحدة التي اكتشفت وحلمت ببناء ثقافات للسلام وإنشاء أماكن آمنة لحل النزاعات ورأب الصدع والمصالحة، شق برنامج بناء السلام طريقه نحو مرحلتي التصميم وتقرير المصير في العمل التقديري. وعلى نحو ملائم، بدأنا بتنفيذ هذا البرنامج من خلال طرح أسئلة على الشكل التالي:

- كيف يمكننا إيجاد أماكن آمنة لأشخاص من ديانات مختلفة من أجل العمل على حل النزاعات ورأب الصدع والمصالحة؟ .
- يمكننا ملاحظة الخوف والانقسام ليس بين الديانات فحسب ولكن بين المجتمعات الدينية أيضاً. كيف يمكننا تعميق الحوار بين الديانات وداخل كل ديانة من أجل رأب الصدع.
- كأشخاص نحمل مبادئ مشتركة، كيف نقوم بتطوير وعينا وأدواتنا ومهاراتنا للتعامل مع الاختلافات من وجهة نظر تقوم على اللقاء بين الديانات.
- باحترامنا وتقديرنا لتنوع تقاليدنا وحكمتها، كيف يمكننا التعلم جماعياً وليس هرمياً.

من خلال استرشادنا بالإجابات على تلك الأسئلة وأسئلة غيرها. ومن خلال عملنا بموجب مبادئ البحث التقديري وأهدافه وانتقاء ما أمكن من التصاميم على أسس الشمولية الدولية، بدأنا ببناء برنامج لصنع السلام.

إطلاق برنامج بناء السلام

تم إطلاق هذا البرنامج من قبل مبادرة الأديان المتحدة، رسمياً في صيف عام 2002 ضمن ثلاثة أحداث متسلسلة. الحدث الأول في أيار/ حزيران عام 2002 حيث تلقى ستة قياديين من مبادرة الأديان المتحدة تدريبات على بناء السلام في المعهد الصيفي لبناء السلام (SPI) التابع لجامعة إيسترن مانونايت وهو معهد اختير لتماشيه مع قيم المبادرة ومع المقاربة الإيمانية والإرشادات الاستنباطية التي تعطي أهمية كبرى

لخبرات المشاركين. فقد تعلم هؤلاء مهارات تحويل النزاعات وجلبوا إلى مجموعتهم الالتزام بالتعاون اليومي بين الأديان. كما جلبوا البحث التقديري إلى المعهد الصيفي لبناء السلام من خلال توفير ورشة عمل حول البحث التقديري لصانعي السلام، خلال فترة نهاية الأسبوع. وقد قامت كلوديا ليبلير مستشارة البحث التقديري ومدرّبة القيادات بإدارة ورشة العمل التعليمية.

وفيما كان هؤلاء القياديون يدرسون معاً خلال النهار، كانوا يعملون في الأمسيات على تصميم برنامج تدريبي خاص بالمبادرة من أجل بناء السلام، بمساعدة ليبلير ومحمد أبو النمر الأستاذ المساعد في حل النزاعات الدولية في الجامعة الأميركية. وقد بدأت هذه المجموعة من خلال التجارب التي حملتها معها من مجتمعات وطنها الأم ومن خلال تعلمها في المعهد ووقوفها على مبادئ المبادرة بالعمل في مرحلة الحلم ومرحلة التصميم خلال مساق استمر خمسة أيام من أجل تقديم برنامجها حول « المشاركة في الأعمال المقدسة، وخدمة العالم » إلى الزملاء في مؤتمر المبادرة العالمي الأول الذي كان سيعقد في ريودي جانيرو بالبرازيل في آب 2002.

والحدث الثاني كان قيام مبادرة الأديان المتحدة برعاية مساق لبناء السلام استمر خمسة أيام خلال الأسبوع الذي سبق عقد المؤتمر العالمي تحت عنوان « المهارات المطلوبة لصنّاع السلام الروحيين ». قام بتدريس المساق أبو النمر وليبلير بمساعدة من المجموعة الأساسية في المعهد الصيفي لبناء السلام، وحضر المساق سبعة وعشرون رجلاً وامرأة جاؤوا من بين أعضاء الجماعات التابعة للمبادرة العالمية وكانوا يمثلون 10 دول و 10 ديانات، وتراوحت أعمارهم بين 19-75. وقد شكلت هذه المجموعة فيما بعد فريقاً لبناء السلام.

أما الحدث الثالث فكان قيام فريق بناء السلام بمساعدة المعلمين أبو النمر وليبلير بتحضير وتقديم ثلاث حلقات تدريب نصف نهارية لثلثمائة وعشرين شخصاً تجمعوا من جميع أنحاء العالم لحضور مؤتمر مبادرة الأديان المتحدة. وقد تم

تسليط الضوء في هذه الحلقات على النواحي المميزة لبناء السلام بين الأديان والتي انبثقت عن مساق الأيام الخمسة.

وقد شكلت المقاربة التقديرية للقاءات مجموعات الأديان المتحدة، بدءاً من المقابلات التقديرية ومن خلال استخدام الوسائل التقديرية، مفتاحاً لتوفير فسحة آمنة من الثقة والاحترام تم فيها اختبار مدى عمق إيماننا المشترك بصدق، وبدون اتخاذ مواقف دفاعية. وكان التمرين الأساسي للمؤتمر العالمي هو القيام باستكشاف بين الأديان لمعرفة كيف كانت الطقوس والتعاليم والممارسات الدينية والروحية التقليدية تستخدم لتعزيز التسامح والسلام والشمولية وكيف يمكن استخدامها لاحقاً في هذا الصدد. كذلك تم إجراء تمرين خلال القمة الأولى لمبادرة الأديان المتحدة حول كيفية استخدام التقاليد ذات الصلة بالموضوع لتشجيع الانعزالية والتعصب والعنف ضد الآخرين وكيف يمكنها أن تستخدم لاحقاً. وقد وفّر هذا التمرين فحصاً حيّاً للذات ونقاشاً مع الناس الذين يعتنقون نفس الديانة ومن ثم مع مجموعات دينية مختلفة. وصرّح أحد المشاركين بهذا الصدد: « أنا أتسامح أكثر مع الأخطاء التي ترتكبها الديانات الأخرى عندما أرى أخطائي من خلال هذا التحليل ».

أخذت عمليات بناء السلام الجارية من قبل مبادرة الأديان المتحدة تتخذ أشكالاً عدة. مع بروز مشاركة بين النماذج المحلية ذات الصلة ببناء السلام بين الأديان وسط المجتمعات حول العالم. ففي الفليبين على سبيل المثال، أطلقت عملية « الحوار بين الأديان لبناء الأمة » عبر ورشة عمل استغرقت ثلاثة أيام، برنامجاً استمر سنة كاملة. وفي كاليفورنيا، أقامت هيئة Bridge ورشة عمل تعاونية بين مبادرة الأديان المتحدة وبين مجلس برلمانات الأديان العالمية. كما قام صانعو السلام العاملون ضمن المبادرة في البرازيل بتصميم آلية عمل متعددة الإعلام بعنوان « الناس يبنون السلام ». وفي زمبابوي، بدأ العمل ببرنامج متعدد السنوات يهدف إلى تشجيع اللاعنف والإعلام غير المتحيز، كذلك عقدت في يوغندا ورشة عمل للقيادات الشبابية.

وبناءً على هذه الأسس المتينة، أصبح تطوير منهج الأديان المتحدة للتدريب على صنع السلام مشروعاً عالمياً رئيسياً في الوقت الحاضر. ويأتي هذا المنهج مكملاً للمنهجيات المتبعة حالياً في بناء السلام ولكنه يتميز عنها بمنظوره التقديري الفريد الذي أرسى دعائمه في العملية التقديرية. وتضيف هذه الميزة الفريدة للمقاربة المنبثقة حديثاً حول بناء السلام من قبل الأديان المتحدة، روحاً أو نفساً إلى العمل التقليدي الذي يقوم به العقل كالتفكير والإلهام والاتصال، والعمل الذي يقوم به القلب كالعواطف والرحمة والذي تقوم به اليدان كالمساعي المتجهة للعمل. فنحن ننخرط في تفكير شخصي عميق، يجد عمقاً في ارتباطنا بتقاليدنا الإيمانية كما ننخرط في قدرتنا الروحية الخاصة على التسامح والمصالحة بينما نحن نطور قدراتنا على التعامل مع الاختلافات ويأخذنا هذا العمل نحو إجراء نقاشات ذات معنى بين أدياننا وأديان أخرى وحتى داخل أدياننا نفسها. وهذه المقاربة في بناء السلام بالترافق مع التصميم الفريد لمؤسستنا من حيث التركيز على القواعد الشعبية والمنظور العالمي واتباع الطريق التقديرية في إقامة العلاقات، تعتبر طريقنا نحو إيجاد ثقافة يزدهر السلام في أوساطها. وسوف يتم توفير منهج بناء السلام للشبكة الشعبية العالمية التي تديرها مبادرة الأديان المتحدة إضافة إلى المجالس والمؤسسات الدولية ومعاهد بناء السلام ومراكز التدريب المحلية والمؤسسات العالمية التي تعمل بين الأديان وغيرها العديد من الشركاء الاستراتيجيين.

رؤى للسلام بين الأديان

يوجد مشروع آخر في برنامج الأديان المتحدة لبناء السلام مستلهم من البحث التقديري وقد تم وضع تصور لهذا المشروع بعد مدة قصيرة من توقيع الدستور في حزيران عام 2000. كما تم اقتراح مشروع « رؤى من القرن الواحد والعشرين للسلام بين الأديان » VPAR كبحث يتجه نحو تحرك عالمي يجمع بين إمكانيات البحث التقديري وبين شبكة مبادرة الأديان المتحدة الدولية الفريدة من نوعها. كما تم

أيضاً تصميم هذا المشروع ليشارك فيه ملايين الناس على مدى فترة ثلاث سنوات في مقابلات تقديرية، تجمع تجاربهم وخبراتهم وآمالهم وأحلامهم لبناء السلام والسعي من أجل إقامة العدالة ورأب الصدع بين ديانات العالم المتنازعة.

ولكن ما يعتبر في صلب الأهمية هو أن المشروع يهدف إلى إطلاق صور مشتركة وإيجابية بالإضافة إلى استراتيجيات للسلام بين الأديان. وعلى مدى الثلاث سنوات القادمة، سيتم تطوير مؤلفات لأفضل القصص والآمال والأحلام والأفكار لتوضع ضمن مقترح لإقامة معيار عالمي للسلام بين الأديان يمثل مجموع الأصوات الحكيمة والأخلاقية لكل من شارك في العملية. بالإضافة إلى ذلك سيغذي المشروع نمو جماعة عالمية ملتزمة ببناء السلام بين الأديان وإطلاق مشاريع بناء سلام محلية حول العالم. مثل تلك المشاريع ستشمل مشاريع عمل اجتماعية وإصدار كتب وأعمال فنية ومناهج تربوية.

عرض إلى العالم: رؤىً وفرص وتحديات

مع تطور مبادرة الأديان المتحدة عبر السنين، وصل عملنا في البحث التقديري إلى بعض الرؤى البسيطة والواضحة والملحوظة بنفس الوقت. أحدها كان الإصغاء المتبادل إلى تجاربنا وتجارب الناس بمصداقية، وتعلم شؤون شخصية عميقة وإيجابية. مثل هذا التبادل في الاستماع يخلق إمكانية للتغيير الإيجابي خاصة عندما يكون هؤلاء الذين يتبادلون الاستماع والحديث قد واجهوا بعضهم البعض سابقاً في ظروف عدائية.

إن الإصغاء والتحدث بمصداقية يرسيان أسساً لبناء السلام يحمل معنىً في طياته. إذ أنهما يبنيان العلاقات ويوطدان الثقة بين الناس بشكل يمكنهما من تغيير الأنماط المدمرة للماضي والحاضر، أي يجعل من الناس صنّاعاً للسلام. فالمشاركة في الأفكار الإيجابية لمستقبل يرغب أهل الإيمان ببنائه معاً يوجد فرصاً للتغيير الإيجابي. ويلهم إحياء الموارد ويفتح الباب أمام تفاعل مستدام ويفرض بناء السلام.

مرة تلو مرة، خبرت مبادرة الأديان المتحدة بأن توق الإنسان لإيجاد طرق أفضل يجري عميقاً بداخله وأن الحكمة الجماعية هي أداة قوية للتغيير. وبناءً لتجربتنا التي تبقى بحاجة إلى اختبارها في مناطق النزاع العنيفة، يمكن تنشيط ذلك التوق وتلك الحكمة وإشراك الناس فيها بسهولة. فالبحث التقديري يعتبر محفزاً استثنائياً ودافعاً للناس نحو المشاركة.

ولكن التحديات تظهر في استدامة ما تم تنشيطه وما تمت المشاركة فيه من أجل ترجمة الرؤية إلى عمل. ورغم أن الناس تبقى إلى ما لا نهاية قادرة على إيجاد الموارد إلا أن أي مزاوجة مغلوطة بين رؤية مضخمة والموارد اللازمة لتحقيقها يمكن أن تؤدي إلى الإحباط. من ناحية أخرى فإن الرؤيا التي لا تضخم وتمجد بما فيه الكفاية يمكن أن تفشل في استلهام القدرة على إيجاد الموارد وفي تثبيت الإرادة المطلوبة للتضحية من أن تجعل المستحيل ممكناً. ويعتبر العثور على التوازن المناسب بين هذين الأمرين شكلاً من أشكال الإبداع والتحدي.

ضمن ذلك المسعى، يمكننا اعتبار أن المبادرة ما زالت في المهد وعليها أن تبرهن في السنين القادمة على قدرتها في مساعدة المجموعات على تحقيق ذلك التوازن بشكل مناسب، وخلق استدامة التغيير.

التحدي الآخر يتمثل في وضع معيار للتجربة الانتقالية التي يوفرها البحث التقديري للانتقال من جماعات صغيرة إلى مجتمعات شاملة. من السهل نسبياً تصور نفسك توجد خميرة تغييرية يمكن ضخها في نظام يعاني من النزاعات. ولعل التحدي الأكبر يكمن في إيجاد الظروف التي يمكنها أن تمنح القدرة لهذه الخميرة على مساعدة النظام المتنازع للخروج من انعزاليته وعدائه والانتقال إلى التعاون والشمولية. مرة أخرى نقول، ما زالت المبادرة في المهد بالنسبة لهذا المسعى ولكن الأيام القادمة سوف تضع أمامنا وبلا شك تحديات لخلق الظروف المناسبة لتغيير أكثر شمولية.

وأخيراً، وكما يلوح الأمر، ما زال عمل مبادرة الأديان المتحدة بحاجة إلى اختبار منهجي في المناطق التي تنشط فيها النزاعات المسلحة ولكننا سنحتاج أيضاً لإخضاع مخيلتنا للاختبار بينما نحن نتوغل بشكل أعمق داخل المناطق المتنازعة.

إن نجاح المبادرة والوعد الذي تحمله والتحديات التي تواجهها هي التي تدفعنا للسير إلى الأمام بمزيج من المثالية والواقعية. إذ يمثل عمل المبادرة في بناء السلام مقاربة إبداعية وإيجابية نحو السلام بين الأديان وهي مقاربة انبثقت عن شراكة فريدة متميزة بين البحث التقديري ومبادرة الأديان المتحدة، وما زالت مستمرة في تحقيق النجاح منذ انطلاقها عام 1997. وفيما لا يزال المشروع بأكمله في بواكير انطلاقته إلا أن الشراكات الذي أقامها والعمل الذي استنهضه يحمل وعوداً كبيرة بمستقبل أكثر سلاماً وإيجابية للحياة على الأرض.

ملاحظات :

1. For more on the birth of the United Religions Initiative and its partnership with Appreciative Inquiry, see Swing (1998) and Gibbs and Mahë (2003).
2. The original concept was for a United Religions, paralleling the United Nations. The United Religions Initiative was created to carry forward the chartering process and prepare the way for the formal founding of the United Religions with the signing of the charter. As the mission and purpose of the organization was transformed, however, in the course of drafting the charter and designing the organization, it was decided to retain the name United Religions Initiative as more representative of the true nature of the organization.

مراجع :

Gibbs, Charles. 2002. "The United Religions Initiative at Work." In *Interfaith Dialogue and Peacebuilding.* David R. Smock, ed. Washington, D.C.: U.S. Institute of Peace Press.

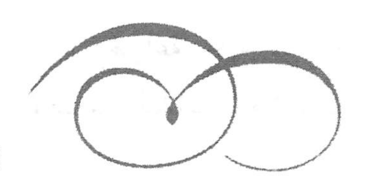
Gibbs, Charles, and Sally Mahe. 2003. *Birth of a Global Community: Appreciative Inquiry as Midwife for the United Religions Initiative.* Cleveland, Ohio: Lakeshore Press. Forthcoming.

Swing, William F. 1998. *The Coming United Religions.* San Francisco: United Religions Initiative; Grand Rapids, Mich.: CoNexus Press.

United Religions Initiative. 2000. "United Religions Initiative Charter." www.uri.org.



الأمثال 29:18



الفصل التاسع عشر

الكلمات تخلق العوالم

صياغة رؤية لبناء السلام في خدمات الإغاثة الكاثوليكية

جاكو كيللير وروبن غوليك وميغ كنغ هورن

أخذت صياغة رؤية واضحة ومرشدة لبناء السلام، ومبنية على عملية تفكير مستمرة، في تغيير ممارسات وكالة خدمات الإغاثة الكاثوليكية، وهي وكالة دولية للتنمية والإغاثة احتفلت بعيدها الستين عام 2003. في السنوات الأخيرة، توغلت الوكالة في عمق هويتها الكاثوليكية وفي عمق آمال ورغبات كادرها وشركائها حول العالم وأيضاً في عمق التجارب والحياة المعيشية للناس الذين تقوم بخدمتهم من أجل وضع تعبير أفضل وتحسين التزام الوكالة بالعمل من أجل السلام والعدالة. وقد كانت العملية التي تولتها الوكالة تقديرية بالضرورة وقدمت نموذجاً للتغيير نأمل جميعنا بتحقيقه لأننا نعتقد أن كلماتنا هي في الحقيقة التي تبني العالم الذي نأمل بالعيش به.

*

تملك وكالة خدمات الإغاثة الكاثوليكية CRS تاريخاً طويلاً من العمل من أجل السلام والعدالة. ورغم أن الوكالة ظلت تركز في البداية على تخفيف وطأة الفقر عبر نشاطات التنمية والإغاثة، إلا أن عدداً من الأحداث التي طرأت في أواسط عقد التسعينات من القرن العشرين أثر على ممارساتها ودفعها بالتالي إلى تجديد التزامها بتشجيع المصالحة والعدالة وجهود بناء السلام. والقصة التالية تحكي كيف تولت

الوكالة القيام بعملية تعليمية وتفكيرية متواصلة من أجل صياغة رؤية مرشدة وواضحة لبناء السلام. وقد تكررت هذه العملية عبر جولات من النشاطات وشملت كل جولة مجموعات جديدة أو مجموعة أكبر من المشاركين.

نحو حلم بتحقيق العدالة

بدأت رحلة وكالة الإغاثة الكاثوليكية نحو بناء السلام بحلم حول أفضل طريقة لإحداث التغيير في العالم. وجاءت مذابح الإبادة العرقية في رواندا لتشكل ليس كابوساً فحسب بل حقيقة مرعبة حطّمت آمال وأحلام العديد ممن عاشوا وعملوا في تلك البلاد وتسببت في إطلاق بحث روحي عميق بالنسبة للوكالة. فقد ظلت الوكالة تقيم مشاريع للإغاثة والتنمية في تلك البلاد منذ عقود وفجأة أزيلت جميع المكاسب التي حققتها هذه المشاريع في مدة أشهر فقط ولم يبق لها أثر. لم تكن الوكالة مستعدة لمواجهة هذا العنف الذي نبع من انقسامات واختلافات عميقة وتسبب في فقدان مئات الآلاف من الأرواح. لقد أدركنا عنده أننا كنا نعالج أعراض الوضع وليس مسببات العنف والظلم المتواصل.

حثّ هذا الأمر وكالة الإغاثة على إعادة دراسة برامجها في رواندا وحول العالم. لم نستطع النوم بل صرنا نستيقظ على حلم امتثل أمامنا. حلمنا بعالم يعمّه السلام والعدل ويعيش الناس فيه معاً في علاقات سليمة يتقاسمون خيرات الأرض ويحافظون عليها. ومن أجل تحقيق هذا الحلم، بدأنا ننظر إلى برامج الوكالة عبر عدسة العدالة من أجل ضمان معالجتنا لمسببات الظلم وليس لأعراضه.

وقد منحتنا هويتنا الكاثوليكية أرضية طيبة لفهم هذا الحلم وصياغته. وقدمت لنا هيئة مؤلفة من أصحاب الفكر والعمل، تدعى هيئة التعليم الكاثوليكي الاجتماعي، صورة أيجابية آسرة عن كيف يمكن أن يكون شكل عالم تسوده العدالة وكيف يمكننا العمل على بعث الحياة في هذه الصورة. كان توجهنا المبدئي (انظر صورة رقم 1) بناءً على إرشادات التعليم الكاثوليكي الاجتماعي، ينادي إلى دعوة

الناس في كل مكان، ولأي ديانة ينتمون للعمل معاً نحو إزالة الفقر ورفع الصوت ضد القهر والظلم والعمل الدؤوب من أجل إقامة عالم أكثر سلاماً وعدلاً. ولكن كان ينقصنا في كل هذا وجود خريطة واضحة تدلّنا على الطريق.

النظر عبر عدسة العدالة

ومن خارج هذا الحلم، جاءت ضرورة اكتشاف كيف يبدو هذا الحلم وكيف نشعر به عملياً. وكانت الخطوة الأولى أن يقوم الجميع في الوكالة بالتأمل والتفكير في فهمهم للعدالة وما الذي تعنيه هذه العدالة في الحياة اليومية للوكالة. كيف يجب أن نعامل زملاءنا في العمل؟ كيف يمكننا أن نشارك الآخرين؟ كيف يمكننا الاعتماد على التراث الفني للتعاليم الاجتماعية الكاثوليكية من أجل إلهامنا وإرشادنا؟ من أجل الإجابة عن هذه الأسئلة، انخرط كل عضو في وكالة الإغاثة الكاثوليكية حول العالم في ورشة عمل تأملية حول العدالة واستمرت هذه التأملات مع انخراط كل فرد جديد للعمل في الوكالة في كل سنة.

ولكن التأمل في العدالة أو التفكير بها لا يمكن أن يذهب بعيداً ما لم يكن هناك ارتباط بين استلهامات كادر الوكالة وبين البرمجة الحقيقية. كنا نعلم أن علينا تطبيق الرؤية من خلال عدسة العدالة في برامجنا واكتشاف التغيير الحاصل في عملنا نتيجة لهذه البرمجة. لذلك، ومن أجل رؤية القضايا بشكل أكثر وضوحاً، قامت كل منطقة من مناطق الوكالة باختيار برنامج لاستخدامه كحالة دراسية. ومع تركيز الاهتمام بشكل أكبر على السياقات التي نهجنا بها وعلى الناس الذين قدمنا لهم خدماتنا، تمكّنا من اختبار التحديات والفرص التي تحققت.

وقد تم تنفيذ الحالات الدراسية عبر عملية استغرقت ما يقارب العامين وتُوّجت بورشة عمل عقدت في بالتيمور، ميريلاند حول عدسة العدالة في ربيع عام 2001، حيث اجتمع أكثر من خمسة وثلاثين شخصاً من العاملين في الوكالة من أجل استنباط الدروس من تسع حالات دراسية إقليمية ومن تجاربهم الخاصة أيضاً في تطبيق برمجة

الشكل رقم 1
خدمات الإغاثة الكاثوليكية
المبادئ المرشدة

- كرامة الإنسان ومساواته مع الآخرين: لقد خلق بنو البشر على صورة الله ومثاله، وهم يتمتعون بكرامة أساسية ومساواة بين بعضهم البعض، استحقوها بموجب خلقهم وليس بموجب أي عمل من طرفنا.
- الحقوق والواجبات: كل إنسان يملك حقوقاً ويتحمل واجبات أو مسؤوليات، متأتية من كرامتنا الإنسانية بغض النظر عن أية بُنى سياسية أو اجتماعية.
- الطبيعة الاجتماعية: إن إمكانياتنا الإنسانية الكاملة لا تتحقق بانعزالنا ولكن بانخراطنا في جماعات أو مع آخرين. وتؤثر الطريقة التي ننظم فيها أسرنا ومجموعاتنا ومجتمعاتنا بشكل مباشر على كرامتنا الإنسانية وعلى قدرتنا في تحقيق كامل إمكانياتنا البشرية.
- الصالح العام: من أجل أن نمتلك جميعنا الفرص للنمو والتطور بالكامل، يتوجب علينا أن نوجد نسيجاً اجتماعياً داخل مجتمعنا: هذا هو الصالح العام.
- التبعية: من أجل حماية الحقوق الإنسانية الأساسية للفرد، لا يتوجب أن تقوم الحكومات أو أي بنى سلطوية باستبدال أو تدمير المجتمعات الصغيرة والمبادرات الفردية.
- التضامن: نحن جميعاً جزء من عائلة إنسانية واحدة، بغض النظر عن اختلافاتنا القومية والعرقية والدينية والاقتصادية والعقائدية. في عالم يتزايد ترابطه، تأخذ محبة الجار أبعاداً عالمية.
- الخيار المفضل هو للفقراء: يجب إعطاء الثقل الأكبر في الاهتمام لحاجات الفقراء والمحرومين، في أي قرار سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي، لأن هذا يؤدي إلى تقوية المجتمع ولأن أي ضعف في أي فرد في المجتمع يؤذي باقي أفراد المجتمع.
- الإدارة والقيادة: هناك كرامة متأصلة في جميع الخلق. وهذا الأمر يتطلب وجود إدارة يقظة لجميع مواردنا مع التأكيد على استخدامها وتوزيعها بشكل عادل متساوٍ، إضافة إلى التخطيط لمستقبل الأجيال.

عدسة العدالة. وعبر ثلاثة أيام من الاستكشاف استطاع المجتمعون اكتشاف الاستراتيجيات من أجل تعزيز العدالة في البرامج العالمية بتشجيع ودعم أكثر هذه الاستراتيجيات فعالية. كذلك حدّد المجتمعون الفرص والتحديات الكامنة في هذه الاستراتيجيات وحللوا مضامينها والسياسات التي انبثقت عنها.

من بين العديد من الدروس التي تعلمناها عبر عملية الاكتشاف، يوجد درس على جانب كبير من الأهمية وضعناه في أساس مقدمة هذا الفصل وهو أن الكلمات تخلق العوالم. فلكي تقوم بتغيير نفسها كوكالة، تعلمت خدمات الإغاثة الكاثوليكية أن تطور وتطبق رؤية واضحة للعدالة تربط بين عدسة العدالة وبين التضامن وبناء السلام، لأن إيجاد تفهم للعلاقة بين هذه المبادئ واستخدام لغة مشتركة، يتيحان للكوادر وللمشاركين الانخراط بشكل كلي في العمل حاملين معهم توجهات لرؤىً جديدة. فلكي تصبح وكالة تحمل في جوهرها توجهاً نحو العدالة، تطلب الأمر من الكوادر والمشاركين تفهم الرؤية وصياغتها ومن ثم تعزيز قدراتهم للإسهام في استراتيجية العدل والسلام. كذلك تتيح العلاقات التي تأسست بين كوادرنا ومشاركينا وبين جمهور أوسع من المانحين وفئات المجتمع، مجالاً لإيجاد فرص للتعبير عن الرؤية وعن المبادئ الجوهرية. وبالتالي، الإسهام في تشجيع الشراكة الحقيقة وفي تحقيق تغيير أوسع في المجتمع وفي البنى.

نحو حلم ببناء السلام

أدى التوقيت في وضع عدسة العدالة إلى تغذية الوكالة بعملية استراتيجية جديدة وواسعة، يمكنها فيما بعد أن تعيد تحديد رسالة الوكالة وتوضح كيف تتعزز القوة الدافعة بناءً على أفكار أساسية وتدخل في صلب حياة المؤسسة أو الجماعة.

بدأت عملية التخطيط الاستراتيجي عام 2000 ودفعت نحو التركيز بشكل أخص على بناء السلام داخل الوكالة، فقد شهد العالم تغيرات دراماتيكية خلال عقد التسعينات من القرن العشرين وأصبح لزاماً أن يتجاوب حلمنا مع هذا التغيير . وفي

الشكل رقم 2
توصيات صادرة عن
ورشة عمل عدسة العدالة

يتوجب على برامج خدمات الإغاثة الكاثوليكية أن تظهر ما يلي:

- **وضوح الاستراتيجية:** تتطلب العدالة رؤية واضحة من حيث ترابط عمليات التغيير المحلي والعام.
- **وضع إطار لعملية التغيير:** على وكالة خدمات الإغاثة الكاثوليكية أن تنقل استراتيجية تحركها من أطر لتنفيذ مشاريع إلى أطر لإجراء تغييرات عادلة موجهة نحو عملية التغيير نفسها.
- **فهم حقيقة أن التغيير يحدث من خلال العلاقات:** تتعزز قدرتنا في التأثير على التغيير البنيوي عبر العمل على تعزيز علاقاتنا مع الآخرين الذين يشاركوننا رؤيتنا والتزامنا.
- **مقاربة شمولية نحو العمل:** وكما يتبين في تعابير هيئة التعليم الاجتماعي الكاثوليكي، فإن على الوكالة أن تدخل في تصاميم برامجها عناصر التضامن والسلام والعدالة.

هذه المرة سينخرط أربعة آلاف كادر من أكثر من ثمانين دولة في عمل يهدف إلى صياغة رؤانا وتوجهاتنا، وعلينا أن نقوم معاً بتناول أسئلة مثل: ماذا يتوجب على خدمات الإغاثة الكاثوليكية أن تفعل في العالم الجديد؟ كيف يمكننا تحقيق حلمنا؟ .

عقدت كل دولة وكل مركز قيادي اجتماع قمة لتحديد التحديات التي يواجهونها والحلم الذي يعالج هذه التحديات والتغييرات المحتملة والضرورية لتحقيق هذا الحلم. وقد تم استخدام عملية تقديرية وتشاركية. كان المشاركون والكوادر يغنون ويرسمون ويناقشون إجابتهم على هذه الأسئلة. كذلك تم اتباع عملية أخرى على

المستوى الإقليمي. وخلال تسعة ورشات عمل إقليمية، تم استكشاف التوجهات الدولية والفرص الجديدة بالنسبة لبرامج الوكالة. ولم تترك فكرة، حتى الأكثر راديكالية منها إلا وتمت مناقشتها.

انبثقت توجهات مشتركة من وسط تلك القمم الإقليمية والوطنية، وأصبحت هذه التوجهات تشكل تركيز القمة العالمية التي عقدت في تامبا، بولاية فلوريدا في أكتوبر عام 2000، وبالإضافة إلى المدخلات الواردة في اجتماعات القمم الإقليمية والوطنية، تمت كتابة أوراق عن خلفيات موضوعات معينة وقضايا وهموم أرادت الوكالة معالجتها من أجل الالتزام بخوض غمار هذه المسيرة. وكان المقصود من تلك الموضوعات أن تشحذ خيال الحضور وتصوراتهم. وقد كتب أحد كوادر الوكالة في إحدى الأوراق:

« إننا نتجادل هنا بأن الهدف الأعم لعمل وكالة خدمات الإغاثة الكاثوليكية بالنسبة للنزاعات المسلحة هو نشر السلام العادل وبأن الإطار الاستراتيجي لبناء السلام يوفر مقاربة شمولية تركز فيها الوكالة وشركاؤها قدرات عديدة في خدمة الرؤية المشتركة للسلام.. إذ أن أي مقاربة لبناء السلام تتطلب قدرات معقدة ومتعددة الأبعاد. إننا نعتقد بأن بناء السلام والجهود الجارية لتحسين عملياتنا الإنسانية، هي أمور جوهرية للوكالة التي تعتبر بأن دافعها الأساسي يتجلى في تشجيع وحماية كرامة الإنسان وتطوره في عالم أنهكته النزاعات المسلحة. دعونا ننتقل إلى القرن الحادي والعشرين من خلال لعب الدور المخصص لنا بحماس ومن خلال التجاوب مع أكثر ما يرغب فيه هؤلاء الذين نقوم بخدمتهم في ظروف النزاعات، ألا وهو الحق في العيش بسلام (ريلي وسيليير 2000، ص 1).

ومن هذه القمة العالمية، ظهرت الرؤية والتوجهات المتعلقة بها (انظر شكل 3) كذلك ظهر إطار العمل الذي سيحركنا في ذلك الاتجاه.

بعد القمة العالمية، انتقلت توجهات الرؤية لتصبح أهدافاً ترشد الوكالة في خطتها الاستراتيجية الجديدة. ونحو غاية واحدة، أصبح بناء السلام رسمياً شأناً

مقروناً بعمل وكالة خدمات الإغاثة الكاثوليكية. فقد كانت اللغة المستخدمة في الأوراق لغة السلام، وكذلك الكلمات التي تعبر عن آراء كوادر الوكالة حول العالم والرؤى التي توسعت وشهدت مشاركة من قبل المجموعات الصغيرة ونقاشاتها مما أفسح المجال لولادة توجه جديد نحو عالم جديد. وتنص هذه الغاية على ما يلي:

مع حلول عام 2007، تظهر الوكالة وشركاؤها والناس الذين تخدمهم مواقف ومسلكيات تعزز السلام والتسامح والمصالحة.

يرتبط مفهوم السلام بشكل مباشر مع تعزيز العدالة. فالسلام الحقيقي ليس فقط غياب الحرب أو العنف بل هو ثمرة للعلاقات العادلة والسليمة بين أفراد الأسرة البشرية ومن خلال تغيير المجتمعات والبنى الظالمة وغير العادلة. سوف تعمل وكالة خدمات الإغاثة الكاثوليكية باتجاه إقامة علاقات سليمة في جميع ما تفعله سواء داخلياً أم خارجياً (وكالة الإغاثة الكاثوليكية، 2001، 9).

بالفوز بالحلم

والآن بعد أن أصبحت الرؤية أكثر وضوحاً، أصبحت كوادر الوكالة وشركاؤها متحمسين للبدء بالفوز الحلم وتحويله إلى حقيقة. ومن خلال استرشادنا بالكلمات الواردة في هدف الرؤية المذكورة أعلاه، اكتشفنا وجود مبادرات وأمثلة رائعة لبناء السلام داخل وخارج الوكالة يمكننا الاعتماد عليها في تصميمنا لإطار بناء السلام. قامت الوكالة بالكشف عن لائحة من ستين مشروعاً تحت الإنجاز يمكن أن تدخل تحت تعريف مشاريع لبناء السلام. ومن أهم الأمثلة على هذه المشاريع:

- الفليبين: ساعدت وكالة خدمات الإغاثة الكاثوليكية على توفير دليل واسع الاستخدام حول ثقافة السلام، بالاشتراك مع عدد من شركائها عام 1998، وتستمر الوكالة في تشجيع التدريب على تحويل النزاعات وعلى بناء شبكات صنّاع السلام في جزيرة ميناناداو.

- كمبوديا: دعمت الوكالة عام 1999 مسيرات داماييترا للسلام وغيرها من الحملات الداعية للتخفيف من العنف، إضافة إلى حقوق النساء وبرامج التدريب على الديمقراطية في كمبوديا.
- كولومبيا: طورت الوكالة في كولومبيا استراتيجية متعددة المستويات، تعرف باسم « تضامن كولومبيا ». وضعت تركيزاً خاصاً على الجهود المحلية والقومية والدولية لدعم مبادرات السلام في كولومبيا.
- الباكستان: دعمت الوكالة الحوار بين الأديان عبر إقامة ندوات وورشات عمل تبحث في التعاليم الاجتماعية للإسلام والمسيحية التي تشجع على التسامح وبناء السلام والمصالحة. وقد لقيت هذه النشاطات للحوار بين الأديان دعماً وتشجيعاً من مسيرة السلام الألفية بين الأديان التي ساعدت الوكالة في تكفلها. كذلك تدعم الوكالة مشروعاً للانسجام بين الأديان يرعاه مركز الدراسات المسيحية ويطلق عليه اسم « بناء مجتمعات من الأمل ».

ولكن تحديد خط البدء من خلال التقاط تلك المبادرات لم يكن كافياً للإبقاء على قوة الدفع. فقد كان الحلم بحاجة إلى تفاصيل من أجل إبقاء المسيرة في نفس الاتجاه. كان علينا تطوير مبادئ مرشدة للتعريف والتصميم من أجل الخروج بأفضل صيغة لما نعنيه ببناء السلام، وجاءت الخطوة الأولى في صياغة تعريف للوكالة من قبل المجموعة العاملة لبناء السلام والمؤلفة من كوادر من مختلف دوائر الوكالة في مركز قيادة بالتيمور. ومن خلال النظر في نواحٍ مثل منع نشوب النزاعات، وحلّها وتحويلها ومصالحتها، إضافة إلى ما تعنيه كل منها في سياق ممارسة بناء السلام، ناقشت المجموعة مدى صلة الوكالة وتوجهاتها وفي النهاية انتهت العملية بإصدار مسودة لتعريف بناء السلام ووضع رؤية للوكالة.

وقد أدرك جميع العاملين في مجموعة العمل لبناء السلام، رغم أن الدخول في قلوب وأذهان الكوادر والشركاء من كل أنحاء العالم كان أمراً عصيباً، إنهم هم الذين يوجهون برامج الوكالة وأن أفكارهم ومدخلاتهم لها اليد العليا في هذا السياق ،

الشكل رقم 3
نتائج قمة وكالة خدمات الإغاثة الكاثوليكية العالمية

بيان الرؤية:

التضامن سيغير العالم باتجاه:

- تعزيز قدسية وكرامة كل إنسان والحفاظ عليهما.
- الالتزام بالسلام والعدالة والمصالحة وممارستها.
- رعاية وحماية كرامة جميع الخلق.

توجيهات الرؤية:

- متابعة الحق بالسلام: ستقوم الوكالة ببناء ثقافة للسلام عبر العالم قائمة على أسس العدالة والمصالحة.
- تحويل ردودنا إلى الفقر والضعف: سوف تلتزم الوكالة بالتنمية الإنسانية الكاملة من خلال تغيير البنى والأنظمة والمسلكيات والمواقف التي تطيل أمد الفقر والظلم.
- تشجيع الحاكمية المشاركة والمتجاوبة: سوف تدعم الوكالة المشاركة النشطة وبناء الحكومات والمجتمعات المدنية التي تعزز الحاكمية الراشدة والمشاركة النشطة للشعب في تعزيز العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية العادلة بين جميع العاملين في الاقتصاد. مع اهتمام خاص بالفقراء والمهمشين في بلدانهم وفي العالم.
- توسيع المجتمع: ستحشد الوكالة شبكة دولية موسعة من الشركاء وتسترشد بهم على أسس المساواة والمساعدة، بالتناغم مع حركة حيوية للناس العاملين من أجل السلام والعدالة.
- تحويل الوكالة لتصبح مؤسسة مبدعة متجاوبة وسريعة الحركة: سوف تضع الوكالة الناس أولاً ضمن نماذج مؤسسية جديدة وحيوية، إضافة إلى ثقافة إدارية تمكنها من أن تصبح مبدعة، سريعة الحركة ومتجاوبة وذات تركيز في العمل.

ولذلك وبعد أن تفهموا تماماً وبوضوح التحديات والفرص التي تقدمها برامج العدالة والسلام، كان عليهم أن يتولوا قيادة الجهود لتصميم مبادئ بناء السلام التي يتوجب أن تكون واقعية وفي نفس الوقت يبقي السقف مرفوعاً للمزيد من التحرك والعمل.

وخلال صيف عام 2001، جاء مايقارب الثلاثين من كوادر الوكالة وشركائها من جميع أنحاء العالم إلى بلدة ساوث بند الصغيرة في ولاية إنديانا للمشاركة في المعهد الصيفي السنوي الأول حول بناء السلام الذي عُقد في معهد جون. بي. كروك لدراسات السلام العالمي في جامعة نوترادام. وطوال عشرة أيام من اللقاء، كافح المجتمعون عبر تعقيدات القيام بمبادرات بناء السلام وشاركوا في التدريبات وفي استخدامات المحاكاة وتجادلوا على تطوير بيان ومبادئ لبناء السلام وتقاسموا خبراتهم والوسائل المستخدمة في حل النزاعات. كانت عشرة أيام مثيرة وعصيبة.

خلال هذا الوقت، اعتمد المشاركون على تجارب الوكالة مع البحث التقديري في التطوير التشاركي والمؤسسي من أجل صياغة مبادئ بناء السلام كما اكتشف المشاركون أفضل ما كانوا يفعلونه وصنعوا الحلم الذي يجب أن تحمله الوكالة في عملها، وصمموا التفاصيل وقدّموا النتائج لباقي أعضاء الوكالة.

الاكتشاف

كانت تجربة المشاركين مؤثرة، فقد جاؤوا من أكثر بقع الأرض سخونة مثل كولومبيا وليبيريا ونيجيريا ويوغوسلافيا وكوسوفو والفلبين. وجاءوا أيضاً من مناطق تعتبر أقل سخونة مثل الهند والباكستان وهاييتي وزامبيا ومالاوي ومدغشقر والولايات المتحدة. وخاضوا مناقشات عنيدة بينما هم يستعرضون ما عملوه وما تعلموه، وجميعها أشياء تبعث على الفخر. وفيما نحن نصغي إلى قصصهم ونحدد الأشياء المشتركة بينهم، انبثقت مواضيع مشتركة شكلت بداية بيانات نوعية برامج بناء السلام مما أعطى هذا القطاع من عمل الوكالة تعريفاً ومصداقية وإدراكاً أفضل.

الحلـم

بعد أن خرجوا متنشطين من مرحلة الاكتشاف، أصبحت المجموعة متأهبة لمرحلة الحلم، فقد أخذ المجتمعون يحلمون بالرؤية وبتعريف مبادئ بناء السلام. ولما كانت عاطفتنا للعمل شديدة بحيث لم نستطع تحديد أين تنتهي الرؤية وأين يبدأ التعريف، فقد قررنا في النهاية أن ندمج الرؤية والتعريف في بيان حول الهدف. وقد ناقشت إحدى المجموعات مسألة وضع هذه البيانات في كلمات فيما حولت مجموعات أخرى الموضوعات من مرحلة الاكتشاف إلى مبادئ إرشادية. وهكذا حلقة إثر حلقة، ونقاش إثر نقاش، أصبح الناتج أكثر وضوحاً واتفقت المجموعة على أن بيان الهدف والمبادئ الإرشادية عكست مفهومهم لبناء السلام وكانوا متأثرين جداً أمام بدء تحول حلمهم ليأخذ شكله كما كانوا راغبين ومتحمسين لشرح الأمر للآخرين.

التصميم

ولكن المشاركين أدركوا وجود ثغرات بين الرؤية وبين قدرات الوكالة ومفاهيمها الحالية. كنا بحاجة إلى مفاهيم وأدوات ومهارات وأطر. وبدأت تظهر أسئلة حول التخطيط والتقدير.

ولحسن الحظ، كان أساتذة معهد كروك موجودين لتقديم المساعدة، لذلك وعبر سلسلة من ورشات العمل واستعراض الحالات الدراسية، بدأ المشاركون بوضع الأسس النظرية للتجارب التي استعرضتها المجموعة ومن ثم بدأت المنظورات الميدانية والأكاديمية بالالتقاء وإعطاء معنى لبعضها البعض. وصارت المقاربات البرامجية أكثر وضوحاً وظهرت ابتكارات وإبداعات يمكن وضعها محط الاختبار.

تقرير المصير أو التسليم

في اليوم الأخير للمعهد، قمنا معاً بوضع مصفوفة للخطوات التالية وتقديرات قصيرة وبعيدة المدى. كما حددنا الخطوات التي يجب اتخاذها في الأشهر الثلاثة القادمة

ثم الستة أشهر ثم السنة التالية فالثلاث سنين التالية وحتى عشر سنوات. ومن خلال هذا التمرين، أصبح واضحاً مدى صعوبة التفكير بشكل ملموس واستراتيجي في كل من المدى القصير والطويل.

كانت هناك نشاطات عديدة مسجلة على المدى القصير وأقل منها بكثير مسجلة على مدى عشر سنوات. ولكننا كصنّاع سلام كنا نتحدث هنا عن تفكير عقدي (نسبة إلى عقد من الزمان) ومع ذلك، كان واضحاً أن علينا تطوير قدراتنا في أنفسنا أولاً. إلا أن المشاركين غادروا ذلك المعهد الصيفي حول بناء السلام وهم مطمئنون بأنهم قد خطوا الخطوة الأولى بوضع بيان الهدف وصياغة مبادئ واضحة. كانوا على ثقة بأن هذه الخطوة كفيلة بتوفير الإرشادات للوكالة من أجل وضع معايير بناء السلام إضافة إلى الأسس لممارسة مثل هذا العمل في المستقبل.

المشاركة في الرؤية

كانت الخطوة الأخيرة لكامل هذه العملية تتمثل في جلب الموافقة على بيان الهدف ومبادئ بناء السلام، من قبل جمهور أوسع من كوادر الوكالة والعاملين فيها. وكانت هذه الموافقة من قبل الفريق الإداري التنفيذي للوكالة ضرورية لضمان أن تصبح هذه المبادئ جزءاً من سياسة الوكالة وإرشاداتها. لذلك فقد تم استدعاء « مجموعة العمل من أجل بناء السلام » إلى مركز القيادة للاستماع إلى التغذية الراجعة بخصوص البيان والمبادئ التي تم تطويرها من قبل المشاركين في المعهد الصيفي (انظر الشكل 4).

ورغم أن صياغة كلمات واضحة لإرشادات عالم بناء السلام في الوكالة، كانت شأناً مهماً، إلا أن ما يساويها في الأهمية تمثل في بناء القدرات وتوفير التدريبات ودعم الجهود الحالية لبناء السلام داخل الوكالة. قامت الوكالة بتعيين مستشارين إقليميين ومديري برامج مسؤولين عن بناء السلام في العديد من الدول والمناطق. كذلك قدمت الوكالة التزاماً مالياً ضخماً بدعم شركائها ودعم المؤسسات الأخرى

الشكل رقم 4
بناء السلام في وكالة خدمات الإغاثة الكاثوليكية

بيان الهدف

بناء السلام:

- عملية تتضمن تغيير البنى غير العادلة إلى علاقات سليمة.
- تغيير الطريقة التي تمارس فيها الجماعات والمجتمعات حياتها ولأم جروحها، وبناء علاقاتها بطريقة تعزز السلام والعدالة.
- فسح المجال لإظهار الثقة المتبادلة والاحترام المتبادل وتثبيت اعتماد الناس على بعضها البعض.

بناء السلام داخل الوكالة:

- هو أمر متجذر في المبادئ الإرشادية للوكالة وتنطوي تحته الكنيسة المحلية والمؤسسات الدينية والمنظمات وغيرها من الأدوات العاملة في الميدان ضمن عملية حوار وتغيير متبادلة.
- هو أمر يحمل تفهماً لمفهوم عريض يوفر الإرشاد والدليل لتغيير الأنظمة والممارسات غير العادلة، إضافة إلى القيام بنشاطات تؤدي إلى تغيير المواقف والمسلكيات باتجاه تشجيع السلام وروح التسامح والمصالحة.
- هو أمر أساسي لتغيير العالم عبر التضامن.

مبادئ بناء السلام

بالنسبة للوكالة، فإن بناء السلام هو:

- رد على الأسباب الأساسية للنزاعات المسلحة، يشمل تغيير العلاقات والبنى غير العادلة إضافة إلى معالجة التأثيرات والأعراض.
- قائم على التزام طويل الأمد.
- استخدام لمقاربة شاملة تركز على القواعد الشعبية بينما تعمل استراتيجياً على إشراك لاعبين من المستويات الوسطى والعليا للقيادات.
- بحاجة إلى عمق داخلي وتحليل مشترك.
- توفير منهجية لإقامة علاقات سليمة يتوجب دمجها في جميع شؤون البرمجة.
- استراتيجياً يشمل حشد التأييد على المستويات المحلية والوطنية والدولية من أجل تغيير البنى والأنظمة غير العادلة.
- يعتمد على مقاربات محلية وأصلية وسلمية من أجل تمويل النزاعات وإجراء المصالحات.
- مدفوع بحاجات محددة للمجتمع ويشرك في حسابه أكبر عدد ممكن من الأطراف المعنية.
- يتم من خلال شركاء يمثلون التنوعات والتعدديات الموجودة في أمكنة العمل، ويتقاسمون قيماً مشتركة
- يقوي إحياء مجتمع مدني نشيط ويساهم في قيامه من أجل تعزيز السلام.

التي تعمل في بناء السلام وتحويل النزاعات. وقد أقيمت حالياً عملية تدريبية لضمان توفر التدريب على بناء السلام للكوادر وللشركاء في مؤسسة كاريتاس العالمية، بمن فيهم كوادر الوكالة.

وقد نتج عن زيادة التركيز على بناء السلام داخل الوكالة أن نمت هناك حاجة لضمان بقاء البرامج والمبادرات ضمن أعلى المعايير وتم تطوير أطر تقديرية لقياس تأثير هذه البرامج وإظهارها. ولعل المرحلة التالية لعملية التعليم هذه داخل الوكالة تتمثل في تطوير هذه المعايير والأطر بناءً على مبادئ بناء السلام إضافة إلى وضع استراتيجية واضحة ومرشدة للاتجاه المستقبلي لبناء السلام في الوكالة.

خلاصة

تمثل هذه القصة شريحة قصيرة فقط من مسيرة وكالة خدمات الإغاثة الكاثوليكية التي انطلقت عام 1943 مع انطلاقة المؤسسة والتي تمتد الآن نحو المستقبل. وقد بيّنت لنا هذه الشريحة مدى الحاجة إلى وضوح في الرؤية إضافة إلى التعلم المستمر. لقد استثمر العديد من الناس وقتاً وطاقة من أجل تطوير اتجاه بناء السلام داخل الوكالة ولكن الأمر لم يتطور ليصبح واقعاً برامجياً إلا بعد أن تم تبني تعريف بناء السلام رسمياً في اجتماع القمة العالمي. ومنذ ذلك الوقت، قمنا بصقل رؤيتنا من خلال صياغة مبادئ بيان هدف وكان لهذا الأمر أثر هائل في وضع الرؤية الإرشادية للوكالة ضمن إطار متناغم ومنسجم وسط تعددية عرقية وجغرافية مما ساعد على إشراك عدد أوسع من الناس في هذه الرؤية.

في نفس الوقت، بقي العمل جارياً على تحسين شكل الرؤية من خلال التجربة والتفكير. وبينما تأثرت الوكالة كثيراً بلغة الكلمات (الكلمات تخلق العوالم) إلا أن اللغة بقيت عرضة لتأثير أكبر من خلال التجربة. فالعملية هي عبارة عن دائرة متواصلة من التعلم، يتم تسهيلها من خلال رواية القصص والتأمل. ونأمل أن تستمر قصة وكالة خدمات الإغاثة الكاثوليكية على طريق السعي من أجل الحق بالسلام.

ملاحظات :

1. During the past one hundred years, papal statements, the Second Vatican Council, and conferences of bishops have addressed urgent issues that have both national and international reach, such as human rights, economic depression, development, political participation, and war and peace. These messages form the body of Catholic Social Teaching. They are not only church doctrine, but also provide individuals with a framework for action.

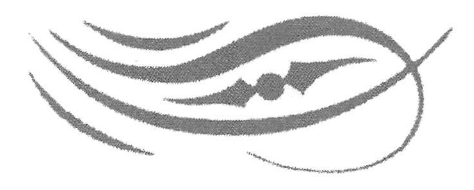
مراجع :

Reilly, Annemarie, and Jaco Cilliers. 2000. "Champions for Peace: The Role of CRS in Times of Violent Conflict?" Discussion paper prepared for Catholic Relief Services World Summit, October 8—13, Tampa, Florida.

CRS. 2001. *Catholic Relief Services Strategic Framework FY 2002—FY 2006.* Catholic Relief Services, Baltimore, Maryland.

في الحقيقة، إن الحشود المحترمة التي تمارس مئات الآلاف من أعمال الخير تتفوق عددياً وبشكل هائل على القلة القليلة التي تفسد الناس في أوساط البشرية. لذلك فإننا نملك جميع الأسباب التي تؤهلنا للحفاظ على إيماننا بوجود الخير في بني الإنسان وفي أملنا بانتصار الإمكانيات الإنسانية. إذا استطعنا فقط أن نحافظ على تدفق نبع الخير بدون قيود في نفوسنا جميعاً.

ستيفن. جي. جولد





خلاصة

وعد المقاربة الإيجابية لبناء السلام

سنثيا سامبسون، محمد أبو النمر، كلوديا ليبلير وديانا ويتني

قليلة هي المواضيع، من بين تلك التي تدْرس أو تُمارَس، التي تحمل أهمية كأهمية بناء السلام في القرن الواحد والعشرين. وقليلة هي المجالات التي تحمل وعداً ملموساً بتحسين نوعية الحياة الإنسانية مثل تلك التي يحملها بناء السلام. ومع إدراكنا لأهمية بناء السلام علينا أيضاً أن ندرك التعقيدات والتحديات التي ترافقه. فقد دلتنا تجاربنا أنه لا يوجد صعيد، سواء في العلم أم في العمل أكثر نظامية في تعدد وجوهه وأكثر عالمية في عراقيله مثل ذاك الذي يدعى بناء السلام.

وكما أظهرت لنا فصول هذا الكتاب، فإن بناء السلام هو مجال لا يقارن في تعدديته إذ يشمل فيما يشمل التغيير الاجتماعي وبناء ثقافات للسلام ومن ثم حل النزاعات بين الفئات وبين الأمم ورأب الصدع والمصالحة بين الشعوب وتشكيل المؤسسات التي تحيا وتعمل من أجل السلام. كما أن الثقافات التي يقوم عليها بناء السلام تتراوح في تعدديتها من حضارات السكان الأصليين إلى حضارات قائمة على الزراعة وحضارات صناعية وحضارات تعيش تقنية ما بعد الصناعة. ويغطي بناء السلام فيما يغطيه هويات عرقية، وأعراق وأديان ودول وأجيال وأدوار تاريخية، إضافة إلى تغطيته لقيم جوهرية ومعتقدات متجذرة في أفكار العديد من الفئات والشعوب. وقد تكون نجاحات صانعي السلام أو نواحي فشلهم صغيرة أو شخصية أو خاصة أو واسعة أو عامة في تأثيرها ولكن أثرهم يظهر في كل ناحية من نواحي الحياة الإنسانية سواء سعت نحو السلام أو غيبته.

كذلك يعتبر بناء السلام عملية عالية الخطورة. فالعاملون فيه هم أناس على استعداد لتقديم حياتهم والتضحية بهوياتهم وطرق معيشتهم على طريق خدمة المساواة والعدالة الاجتماعية والتعايش السلمي. هؤلاء هم الذين كتبوا هذا الكتاب وهم الذين يمكننا التعلم منهم كثيراً.

وهذا الكتاب، كتابهم، هو دعوة جريئة تحمل تحدياً لنا جميعاً بالتفكير بعملنا وبمقاربات إيجابية جديدة تعمل في أكثر الأوضاع الإنسانية الموجودة تعقيداً، كما أنه دعوة لإعادة التفكير في بناء السلام. ما هو هذا السلام وكيف يتم بناؤه؟ إنها دعوة للانتقال من التركيز على النزاعات والمشاكل والمعاناة إلى تسليط الأضواء على التعاون والتعايش ورؤى المستقبل الأفضل. هذه الفصول مليئة بأفكار لإحداث هذا الانتقال، العديد منها أفكار محكومة بالتجربة وبعضها محكوم بالنظرية ولكن معظمها محكوم بكلتيهما. ومن خلال إيجابية الأسس التي تقوم عليها وإيجابية البُنى التي تدفعها لإحداث التغيير، تقدم هذه الأفكار إمكانيات إيجابية لممارسة بناء السلام.

في بداية هذه الصفحات الختامية للكتاب، سنقوم بتسليط الضوء على بعض أكثر الإبداعات والرؤى الموجودة في هذا الكتاب إثارةً. بعد ذلك نتشارك في استخراج الخلاصة حول معظم التطبيقات الملائمة لهذه المقاربات الإيجابية في بناء السلام وعلى بعض أكبر التحديات التي تواجهها، مركزين اهتمامنا في كلتا الحالتين على البحث التقديري. بعد ذلك نتحرك لاقتراح جدول أعمال للمزيد من الاختبار والبحث في هذه المقاربات الإيجابية لبناء السلام، وثم نختتم الكتاب بدعوة للحريات التي تقدمها هذه المقاربات الإيجابية.

رؤىً ومقاربات إيجابية في بناء السلام

> أحياناً ننظر إلى حياتنا بصدق على أنها إيجابية وليست سلبية وكأنها مصنوعة من إرادات متواصلة وليس من قيود أو موانع.
>
> ماري باركر فوليه

ما هي الاكتشافات والرؤى والإبداعات الرئيسية التي بيّنتها هذه الصفحات؟ .

أولاً – المفاجآت: انطلقنا لنقدم بعض الأفكار النظرية الجديدة، وقد تفاجأنا وسررنا لأننا وجدنا أن كل ما تعلمناه هو قيد التطبيق. كما وجدنا العديد من الحالات التي استُلهمت فيها العناصر الإيجابية في أنظمة النزاعات بهدف، القيام بخطوات بناءة نحو السلام ونحو بناء علاقة جديدة: على سبيل المثال: كيف استطاعت القصص الشخصية الملهمة والأمثلة على نماذج الأدوار والنتائج الفنية والطقوس وحتى الأدوار التاريخية أن تقدم صوراً إيجابية لرأب الصدع والتسامح والمصالحة والتعايش من أجل إلهام الآخرين بالأمل ودفعهم للتغيير.

كذلك رأينا كيف استطاعت مقاربات بناء السلام التي جاءت في الغالب في جوهر الممارسات الجدية لبناء السلام أو تعزيزاً لها أن تفعل ما يلي:

- إيجاد بيئة آمنة يستطيع فيها الناس أن يجدوا فسحة وهوية عبر تساوي الفرص لإسماع قصصهم وكسب الاعتراف بها.
- إتاحة المجال للناس بأن يبرأوا ويتواصلوا وينجحوا بعد المحنة ثم بأن يصبحوا قوة تدعم شفاء الآخرين.
- البحث عن مصادر داخلية للقوة ومنح الشجاعة للتحرك والتعرف على العدو ومعرفته.
- تهيئة مقابلات ومواجهات تمكن الناس من إدراك الناحية الإنسانية الموجودة في أعدائهم بحيث يمكن بناء الثقة وإعادة كتابة قصص النزاع.
- إظهار أن الفرد الملتزم يمكنه صنع الفرق ولعب دور حيوي في تحقيق مثل السلام العادل.
- منح الفئات المتنازعة سبباً للأمل والحلم والإيمان بإمكانية وجود مستقبل مختلف، وبأن لهم دوراً يلعبونه في تحقيق هذا المستقبل.
- اكتشاف أحداث تاريخية جديدة وسرد قصص جديدة عن الإنسانيات والارتباطات الإنسانية والتعاون من أجل الصالح العام.
- توفير حسن الاستقبال والرعاية للشخص الذي يكافح في خضم أصعب تحديات الحياة والمحن.

- إتاحة المجال أمام الناس لمواجهة حدود إيمانهم وتوسيع تلك الحدود بناءً على تفاهمات جديدة.
- استخدام التعابير الفنية والرمزية والتشبيهية لإحداث تغيير في مفهوم ورأب الصدع والمصالحة.
- فرض تفهم لاعتماد البشر على بعضهم البعض حيث يتأثر الجميع بأقل عمل.
- تعزيز قدرة المشاركين على التعلم معاً وإيجاد نوع جديد من المستقبل معاً.

قابلية «المقاربات الإيجابية في بناء السلام» للتطبيق

> الرؤية تتجاوز الأشياء التي تمثلها إلى المفهوم الذي يمكن أن تصل إليه، أما الخيال فيقدم لك الصورة. الرؤية تمنحك النبض اللازم لكي تصنع الصورة بنفسك.
>
> روبرت كولير

ماذا علمتنا الحالات الدراسية عن قابلية تطبيق المقاربات الإيجابية في بناء السلام؟ كيف ومتى وأين يتم أفضل تطبيق لهذه المقاربات؟.

سوف نعالج السؤال حول قابلية التطبيق ضمن خطوات تبدأ بالمقابلات التقديرية وهي الوسيلة التي تبدو الأكثر استخداماً في حالاتنا الدراسية والتي نملك فيها الخبرة الأكبر في بناء السلام حتى الآن. بعد ذلك ننظر إلى سلسلة وسائل وأساليب أكثر وسعاً يمكننا تصنيفها معاً كوسائل تقديرية. ثم نختتم أخيراً بالنظر إلى مدى قابلية تطبيق البحث التقديري كعملية شاملة أي بكلمات أخرى في مراحله الأربع.

المقابلات التقديرية

المقابلة التقديرية هي ممارسة طرح الأسئلة الإيجابية سواء كانت أسئلة من فرد إلى فرد ضمن ورشة عمل أو ضمن اجتماع قمة للبحث التقديري، من قبل فريق من الذين يجرون المقابلات وسط جماعة أو وسط مجتمع أو وسط تجمع من القرويين في ظل شجرة وارفة، سواء كانت المقابلة تبدو رسمية أم غير رسمية.

وفي حالاتنا الدراسية شاهدنا المقابلات التقديرية تُجرى ضمن تقدير للفرص الاستراتيجية في غينيا كوناكري رغم أنها لم تكن تحمل ذلك التعريف حينها. كذلك شهدناها عبر ستة آلاف مقابلة أجريت في ناغالاند، وشهدناها كجزء من عملية تمويل النزاعات داخل الكنيسة الميثوديستية المتحدة، وكذلك في مقترح حل النزاع بين بوليفيا وتشيلي على مستوى المجتمع بأكمله أو داخل ورشة العمل حول الحوار التقديري، وشهدناها مرة أخرى في حلقات الحوار التي دارت بين المسيحيين الإنجيليين والمسيحيين المثليي الجنس ومع العاملين في بناء السلام الذين عايشوا المحنة وتخطوها. وأخيراً شهدناها في الاستشارات الرئيسة وفي اجتماعات القمم التي عقدتها مبادرة الأديان المتحدة وفي منهجية بناء السلام والبحث العالمي حول رؤى السلام بين الأديان. وعبر تفحصنا لهذه الحالات والتأمل بشكل خاص في سياق الشفاء من المحنة الذي يشكل مجال ممارسة يتطلب أقصى الحذر والحساسية، خرجنا باستنتاج يقول بأن المقابلات التقديرية يمكن أن تدمج في حل النزاعات وفي ممارسات بناء السلام بشكل واقعي في كل مكان وفي أي مرحلة من العملية دون أن تشكل أي خطر على الناس أو تتسبب بأي أذى لهم. ونحن نشارك عدداً من المؤلفين قلقهم من أن فرض مقاربة تقديرية شاملة في أوضاع لم تنضج بعد أي في أوضاع ما زال الناس فيها غير قادرين على تفهّمها، قد يبدو أمراً فاقداً للإحساس وقد يتسبب في إسكات الأصول وتقويض تأثير سرد القصص في رأب الصدع أو قد يبدو ضمن السياق الأوسع للنزاع وكأنه صمم لتهدئة المعارضة أو إخماد تحركات قوى النزاع. ولكن بعيداً عن محاولة فرض مقاربة إيجابية بشكل استثنائي أو إخراس التعبير الشرعي، تبقى المقاربة التقديرية ملائمة في أي وقت للمساعدة، وخاصة مساعدة الناس الذين يتعرضون للقمع والقهر والظلم أو الذين تقطعت أوصال حياتهم، في إدراك قدراتهم وتعزيز تكيفهم وشجاعتهم وإنسانيتهم وإرادتهم وقدرتهم على الحياة. ونرفق هنا النتيجة التي وصلت إليها نانسي غودسايدر في هذا الكتاب:

كمساعدة أو كصديق، أنا لا أتسبب في أي ضرر حين أبحث عما يبقي الناجين أحياء. في الحقيقة أنا أؤكد هنا أنني قد أتسبب بالأذى إذا ارتكبت خطيئة عدم المساعدة في البحث أو حين أفتقر إلى الشجاعة لطرح أسئلة إيجابية، تبعث على الانتعاش والنمو، ويتطلب الالتزام مني أن أطرح الأسئلة بطريقة ترحيبية مشجعة ومضيافة تحفز السير نحو مستقبل مشرق ولكنه في نفس الوقت يتفهم أن الأجوبة قد لا تكون متوفرة.

وفي الحقيقة نحن نحثّ على أن يصبح السؤال التقديري أكثر اندماجاً بالمقاربات الأخرى كوسيلة لمكافحة الإحباط، وتعويم الأمل ونفخ الحياة في الحوارات أو المفاوضات المستعصية، وربط الفئات المتحاورة باستمرار بالخير الموجود فيهم وبإنسانيتهم بالإضافة إلى الخير والإنسانية الموجودين في الآخرين.

ومن أجل أن نفعل ذلك، يتطلب الأمر فقط مهارة حثيثة في طرح الأسئلة وفي مساعدة الآخرين على إعادة تأطير تجربتهم بطريقة تربطهم بآمالهم وأحلامهم وأشواقهم العميقة التي تختفي وراء المشاكل والمخاوف والشكوك واليأس.

أشكال أخرى من العملية التقديرية

بيّنت لنا الحالات التي قمنا بدراستها أن هناك العديد من الطرق، بالإضافة إلى الأسئلة الإيجابية، التي يمكن فيها تقدير العناصر ذات الجوهر الإيجابي في أنظمة النزاعات، مثل البحوث العلمية وعمليات الحوار، وتمارين الرؤية والطقوس وغيرها من أشكال التعابير الفنية. وتشمل الأمثلة التي وردت في الحالات الدراسية حول هذه الموضوعات ما يلي:

- منهجية أليس بولدنغ في رؤية عالم بلا عنف.
- مشروع رواية القصص: «كيف غيّرت مدرسة ثانوية العالم».
- كتاب يوثق التعايش الإبداعي في إسبانيا المسلمة.
- تحدي قدرات الفرد كجزء من برنامج تعزيز للقدرات في زمبابوي.

- المشاركة في الطقوس الحضارية من قبل سكان فيجي الأصليين من الهنود.
- سرد القصص الشخصية والإنتاج المسرحي لمبادرات التغيير.
- الأحلام ومشاريع العمل التي نتجت عن رؤى «مشروع السلام بين الأديان».
- النواحي التدريبية التي ستدخل في المنهج القادم لمبادرة الأديان المتحدة حول بناء السلام بما فيها تمارين للتأمل الذاتي.

وكما هو الأمر مع المقابلات التقديرية، نحن نعتقد أن العديد من أنواع العمليات التقديرية يمكن أن يُدمج بسهولة مع غيره من مقاربات حل النزاعات وبناء السلام في مختلف المراحل. ويمكننا استخدام طرق متعددة في تقدير الجوهر الإيجابي، مثل الحلم والرؤية، والتأمل بالنسبة للفرد أو المجموعة، والفن والموسيقى، بطريقة مناسبة وحكيمة من أجل المساعدة على رفع المعنويات وكبح الإحباطات وإطلاق الإبداعات وإقامة مستوى أعمق من الارتباطات الإنسانية، وإحياء الحوارات والمفاوضات، ورفع درجة الإحساس بالإمكانيات والاحتمالات الإيجابية وتوجيه الفكر والعمل نحو مستقبل أكثر إشراقاً وأملاً.

البحث التقديري بمراحله الأربع

سوف نتطرق الآن إلى تطبيقات البحث التقديري بتمامه وكماله في عملية بناء السلام. رغم أننا ما زلنا في المراحل الأولى لتجربة البحث التقديري إلا أنه يبدو سليماً القول بأن منهجيته تحمل الكثير لبناء السلام. ويبقى السؤال المطروح هو متى يكون أفضل وقت لطرحه ومتى لا يكون.

رأينا في الفصل الثاني عدة أمثلة عن كيفية استخدام المراحل الأربع للبحث التقديري في العمل وفي التنمية الدولية وغيرها من مؤسسات التغيير الاجتماعي. وتشمل الحالات الدراسية المتعلقة ببناء السلام في هذا الكتاب أربع حالات هي:

1- «تخيل ناغالاند» التي انخرطت فيها الأطراف المعنية في مجتمع ناغا لتناقش موضوعات متعلقة بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية، وبالسلام وبالحاكمية الراشدة.

2- ورشة عمل الحوارية التقديرية التي شكلت قاعدة بحث تقديرية متكيفة مع ورشة عمل لحل المشاكل اقترحت لحل النزاع البحري بين بوليفيا وتشيلي.

3- تطبيقان على مستوى المؤسسات، شمل الأول إجماعاً عالمياً قام على تصميم مؤسسي وتطوير دستور لمبادرة الأديان المتحدة وشكّل الثاني جزءاً من تخطيط استراتيجي لبرنامج بناء السلام التابع لخدمات الإغاثة الكاثوليكية.

وعلى ضوء ما فهمناه حالياً عن طريقة عمل البحث التقديري، وعلى ضوء ما ذكره كتابنا وعلى ضوء حذرنا وقلقنا من تطبيق البحث التقديري في أوضاع نزاع شديدة التعقيد من حيث جوهرها وحركتها، مثل النزاعات العالمية التي يؤثر فيها لاعبون من الخارج في جميع المجالات، أو النزاعات المتفجرة والعنيفة المشوبة بالأخطار أو تلك التي تنطوي على محن شديدة وقمع وظلم، أو التي تخضع لمبادرات سلمية وإنسانية متعددة، نطرح السؤال التالي: ما هي الأوضاع الملائمة لاستخدام البحث التقديري؟ .

أولاً، نعترف بشدة بأنه لا توجد منهجية أو مقاربة يمكنها توفير كل ما هو ضروري لتحويل النزاعات المدمرة وبناء السلام العادل. إذ قد يتطلب الأمر عدة كاملة من الجهود الدبلوماسية وغير الرسمية والجانبية للتعامل مع قضايا وأبعاد وتحركات معقدة تميز العديد من النزاعات في عالم اليوم. وفي تقديمنا لبعض الأفكار حول التطبيقات المناسبة للبحث التقديري وغيره من المقاربات الإيجابية، فإننا نعترف ونتوقع أن لا تعامل هذه التطبيقات على أرض الواقع كردود استثنائية على النزاعات. ويبقى هدفنا هو اقتراح التطبيقات التي تبدو أكثر ملاءمة لعمل البحث التقديري من أجل الإسهام في دفع عملية السلام كجزء من سلسلة أكبر من المبادرات المتعلقة بنزاع معين.

بعد هذا نقول أننا نؤمن بأن لدى البحث التقديري إسهاماً يقدمه في الأوضاع التالية:

1- يمكنه أن يسهم على شكل عملية لبناء ثقافات السلام وممارسات التعايش السلمي في المجتمعات التي استقرت بعد مرحلة انتهاء النزاعات أو كوسيلة وقائية في

المجتمعات ذات النزاعات الكامنة من أجل منع اندلاع العنف، كذلك في الأوضاع التي تكون فيها أطراف النزاع جاهزة لبناء علاقة أو للعمل معاً نحو بناء مستقبل مشترك. وتعتبر الحالة الدراسية التي وردت في هذا الكتاب حول مقاطعة يوسولوتان في السلفادور والتي استخدمت فيها منهجية جديدة أوجدتها إليز بولندنغ، مثالاً رائعاً لمثل هذه الأوضاع. ولعل قدرة البحث التقديري على إشراك المئات أو الآلاف من الناس في مقابلات مرحلة الاكتشاف أو في اجتماعات القمم التقديرية، توصي به خصيصاً لمثل هذا النوع من التطبيقات وما يستطيع البحث التقديري إضافته لمنهجيات الرؤى الأخرى هو قدرته على تثبيت رؤية مستقبلية عبر مقابلات مرحلة الاكتشاف، في واقع حياة وتجارب الناس الذين سيتمكنون من العيش والعمل معاً نتيجة لهذه الرؤية. مثل هذا التثبيت يرفع من درجة الإحساس بالإمكانية الإيجابية لدى المشاركين ويسبغ على العملية درجة من الإثارة والطاقة اللتين تجيئان نتيجة استذكار قصص الأفراد ومجتمعاتهم والمشاركة فيها على أفضل وجه.

2- يعمل على شحن مضخة عملية السلام بطاقة وأفكار جديدة، كما هو الحال في مرحلة ما قبل المفاوضات أو عند المفاصل الحرجة لجهود حل النزاعات. وهذا في الحقيقة هو السيناريو الذي نراه في حال بوليفيا وتشيلي التي قدمناها في هذا الكتاب. فالنزاع المستمر منذ قرن ما زال عدائياً، مريراً وبعيداً عن أي حلول ورغم كونه الآن في حالة ركود إلا أنه يبدو ناضجاً للشحن بأفكار إبداعية جديدة من النوع الذي تطمح له أي ورشة عمل حول حل النزاعات، إلا أنه في هذه الحالة فقط يعتمد على مجموعة مختلفة من الموارد والطاقات، ونعني بها العناصر ذات الجوهر الإيجابي في كلا المجتمعين وفي علاقات الدولتين وفي حياة المشاركين.

ولكن ما هو مثير للاهتمام على وجه الخصوص هو سيناريو الانتقال من ورشة عمل يشارك فيه ستة عشر أو عشرون مشاركاً إلى منتدى أوسع عن طريق اجتماع قمة البحث التقديري والذي يمكن أن يحظى باشتراك المئات أو ربما الآلاف من المشاركين من كلتا الحكومتين ومن القطاعات الرئيسة للمجتمعات المدنية.

3- يوجه التركيز نحو تغيير إيجابي على ناحية أو مرحلة مختارة من العملية السلمية الجارية، ربما من أجل التعامل مع موضوع أقل تسييساً نسبياً ولذلك فهو أكثر أماناً نسبياً أيضاً. هنا تبرز عدة إيضاحات من حالاتنا الدراسية. فورشة العمل الحوارية التقديرية أو اجتماعات القمة حول البحث التقديري وفّرت الأمان للمشاركين للتجمع بأعداد كبيرة، ويمكن تطبيقها على سبيل المثال من أجل إحراز تقدم في بعض نواحي العلاقة بين بوليفيا وتشيلي كالعلاقات الثقافية والفنية أو البرامج والتبادلات الرياضية المشتركة. والأمل يحدونا هنا بأنه إذا تم إحراز تقدم في جميع المجتمعين ضمن علاقات إنتاجية سليمة ومتبادلة فقد يعزز هذا الأمر مع مرور الزمن الجهود المبذولة لتحسين العلاقات على المستوى الدبلوماسي.

أما في حالة « تخيل ناغالاند » فنلاحظ أن هذا المشروع لم يكن يُرى على أساس كونه جزءاً من عملية سياسية بين الانفصاليين في ناغا وبين الحكومة الهندية ولا حتى بين الفئات المتنازعة داخل مجتمع ناغا، بل يمكن وصفه بشكل أكثر ملاءمةً على أنه مشروع « تطور من أجل السلام » حيث أن هدفه الأصلي كان التطور الاقتصادي والاجتماعي مع تركيز على تحسين معيشة الأطفال. ولكن، وكما تبين الأمر فيما بعد، اختار المشاركون موضوعات إيجابية في مراحل الاكتشاف والحلم والتصميم وهي مواضيع تمثلت في « الوحدة السلام واحترام الجميع »، ثم « التعليم والتوظيف » فالبيئة والتنمية، و « التطور المنصف » و« احترام حكم القانون » و«ناغلاند التي نريدها في المستقبل »، وقد اشترطت مرحلة التسليم أو تقرير المصير تحديد التمويل الضروري لهذه الموضوعات. لذلك وبينما لم تكن مسألة بناء السلام هدفاً أصلياً لمشروع « تخيل ناغالاند »، إلا أن ما نتوقعه هو أن أي تطور في هذه المجالات سيؤدي إلى إحراز تقدم في النزاعات الاجتماعية والسياسية التي ابتلت شعب ناغا منذ عقود.

4- أن يعمل في عوالم صغيرة كجزء من النظام الأكبر للنزاعات، مثل العمل في منطقة محددة أو في جزء من مقاطعة أو إقليم. وهنا أيضاً يكون الهدف هو استخدام

البحث التقديري في وضع يوجد فيه رغبة وتقبّل لهذا العمل وربما أيضاً درجة أعلى من الأمان، على أمل المساعدة في توليد الدفع والاهتمام بإشراك النظام بكامله في وقت لاحق. أو إيجاد نموذج يمكن تكراره في وقت ما إذا أتاحت له تحركات النزاع الفرصة لذلك.

5- يعزز قدرات الفرد ويطورها ليصبح صانعاً للسلام سواء جاء الأمر عبر الاستشارة أو التدريب أو أي نوع من العمليات التي تشمل مجموعات صغيرة. يوفر البحث التقديري عملية منهجية ومهيئة لاكتشاف جديّ للذات وللتغيير الشخصي عبر ربط الأفراد بقواهم وقدراتهم الذاتية، ومساعدتهم على إدراك إسهاماتهم السابقة في سبيل الصالح العام، وإمكانياتهم المستقبلية في فعل ذلك، وتثمينها. أيضاً يعمل على شحن الأفراد بالأمل والشجاعة والثقة والرؤية ليصبحوا أدوات فاعلة في التغيير الإيجابي، عبر التخطيط للأعمال المهمة داخل مجتمعاتهم والمبادرة بها. مثل هذه العملية قد تمنح القوة والقدرة على التغيير بالنسبة للأشخاص الذين تحملوا المعاناة والمحن عبر مسيرة النزاع.

6- يضع تصاميم مؤسسية، ورسالات تتماشى مع رؤية المؤسسة للسلام ولمبادئ بناء السلام. من المعروف طبعاً أن التطور المؤسسي كان الموطن الأول والأصلي لانطلاقة البحث التقديري ويوجد في كتابنا أمثلة استثنائية عن مثل هذا التطبيق. فمبادرة الأديان المتحدة التي استخدمت البحث التقديري في كل خطوة من تطورها، وضعت شكلاً مؤسسياً وثقافة مؤسسية عاشتهما يوماً بيوم وسط أشكال من التعاون بين الأديان ومن ثقافات السلام التي تأمل المبادرة بنشرها في العالم. وقد انعكس هذا في العضوية الشمولية، وفي مشاركة القيادات وفي نظام المشاركة الشامل وفي التنظيم المحلي الذاتي، وقد جرت هذه العمليات جميعها ضمن إطار من الهدف المتفق عليه وضمن مجموعة من المبادئ المهيمنة والموجودة في دستور المبادرة.

كذلك رأينا كيف أسهم البحث التقديري في عملية خدمات الإغاثة الكاثوليكية المتعلقة بإدراك وتطوير مبادئ وأهداف بناء السلام مما ساعد الوكالة بشكل فعال على

العمل باتجاه رؤية العدالة الاجتماعية والسلام المنطوية في التعاليم الكاثوليكية الاجتماعية.

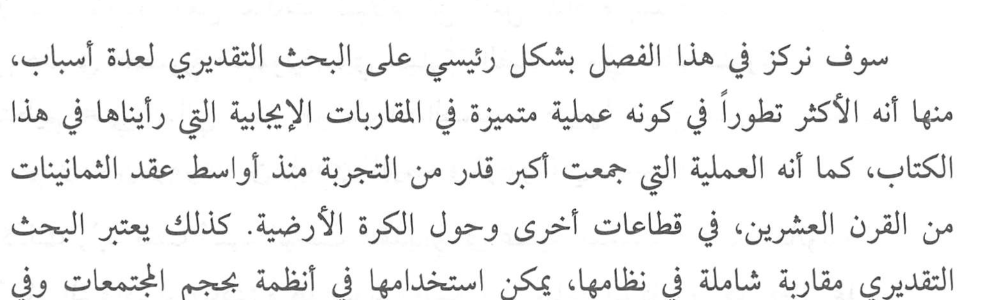
7- يعمل عبر مستويات الاتصالات والتنسيقات وقطاعات بناء السلام وغيرها من مجالات ممارسة هذا العمل.

بسبب قدرته المتميزة على استيعاب المشاركة المتعددة وإعطائها الفعالية القصوى، يحمل البحث التقديري في طياته وعداً خاصاً بتسهيل الاتصال والتنسيق على مستويات وقطاعات ومجالات الممارسة. فمرحلة الاكتشاف تمكن المشاركين من المشاركة في الافتراضات والقيم والمبادئ المرشدة والممارسات المثلى وقصص النجاحات فيما تعمل المراحل الثلاث المتبقية وهي الحلم والتصميم والتسليم على تأمين الاستمرارية للمجموعات المشاركة أو الأفراد المشاركين من أجل اختيار التحرك على أسس الوضع الذي أمامهم اعتماداً على درجة رغبتهم وقدرتهم في ترجمة هذا التزايد في اتصالاتهم وتفهمهم إلى عمل تعاوني مستغلين الفرص والظروف الملحة لأي وضع معين على أرض الواقع.

التحديات التي تواجه المقاربات الإيجابية في بناء السلام

يا عابر السبيل، لا يوجد طريق. أنت تصنع الطريق خلال مسيرتك

انطونيو ماكادو



سوف نركز في هذا الفصل بشكل رئيسي على البحث التقديري لعدة أسباب، منها أنه الأكثر تطوراً في كونه عملية متميزة في المقاربات الإيجابية التي رأيناها في هذا الكتاب، كما أنه العملية التي جمعت أكبر قدر من التجربة منذ أواسط عقد الثمانينات من القرن العشرين، في قطاعات أخرى وحول الكرة الأرضية. كذلك يعتبر البحث التقديري مقاربة شاملة في نظامها، يمكن استخدامها في أنظمة بحجم المجتمعات وفي

مؤسسات كبيرة معقدة. عبر العالم. وهو أيضاً يملك مجموعة واضحة التحديد من الفرضيات والمبادئ التي يمكن اختبار ملاءمتها ومصداقيتها في سياق أعمال بناء السلام.

إضافةً إلى ذلك، فقد ظهر أن متطلبات التلاؤم مع السياق ومع التوقيت ومع رغبة المشاركين كانت أعلى في حالة البحث التقديري منها في حالات أخرى، والسبب باعتقادنا، وكما أشرنا للتو أن المقابلات التقديرية وغيرها من أشكال العملية التقديرية يمكنها أن تكون متنوعة من حيث كيفية توقيت دمجها مع عمليات حل النزاع وبناء السلام. بكلمات أخرى نقول أنه بينما يمكن للعمليات التقديرية أن تقف لوحدها أو أن تضاف إلى ممارسات ومقاربات أخرى، فإن المراحل الأربع للبحث التقديري تفترض التزاماً بالتحرك عبر عملية ذات مراحل كما تحمل ادعاءات أكبر مما يمكنها أن تقدمه، أي تغيير شامل للنظام.

ولكن وكما لمسنا سابقاً، فإن أنظمة النزاعات في الغالب أكثر تعقيداً وأكثر قدرة على الاشتعال من أي نظمة إنسانية أخرى. إذ يمكن لهذه الأنظمة أن تكون عنيفة أو أن تجر وراءها تاريخاً من العنف، كما يمكنها أن تحمل العنف في بنيتها كأن تكون ظالمة وغير عادلة، وأن يكون السكان قد عانوا محناً شديدة أو انتُزعوا من بيوتهم نتيجة لها. وما لم يكن النزاع محدداً في مجاله أي أن يكون داخل مؤسسة معينة أو فئة محددة أو بقعة جغرافية صغيرة، فإن الأطراف المعنية قد تشمل فئات من كافة أطياف المجتمع إضافةً إلى لاعبين آخرين قوميين أو دوليين أو من الدول المجاورة والحلفاء والقوى الاستعمارية السابقة والمنظمات الإقليمية والعالمية والمتعددة الجنسيات والجماعات الدينية والشبكات الإرهابية وغيرها..

إن جمع الأطراف المعنية جميعاً في قاعة واحدة قد يكون أمراً مروعاً في أفضل حالاته أو ربما أمراً لا يمكن التفكير به.

أما وقد ذكرنا كل هذا، فإن التحديات التي تواجه البحث التقديري والمقاربات الإيجابية لبناء السلام على وسعها، لا تختلف كثيراً عن تلك التي تواجه ممارسات بناء

السلام بشكل عام، مع أنها قد تأخذ لوناً مختلفاً إلى حد ما. وتشمل التحديات الرئيسية التي تواجه بناء السلام كيفية معالجة الظلم الاجتماعي، والتباينات في القوة والنفوذ، والتغيير الاجتماعي المنهجي الواسع. والتحدي المرافق لهذه العملية هو في نقل التغيير من مستوى الفرد أو من المستوى الأصغر إلى مستوى المجتمع أو المستوى الأكبر. فنحن نعرف على سبيل المثال، أن المشاركين في ورشات العمل المعقودة لحل المشاكل يمكن أن يواجهوا الشكوك أو ربما النبذ عندما يعودون إلى جماعاتهم بعد الورشة. وهذه الظاهرة تُعرف باسم « عامل إعادة الدخول ». وقد ظل التحدي الذي يواجه بناء السلام في أغلب الأحيان، في كيفية تحقيق تغيير عميق، حقيقي وذي معنى على المستوى الأوسع داخل الفئات وإشراك شرائح أكبر من المجتمع في ذلك التغيير.

تتشابه الأسئلة التي يواجهها البحث التقديري مع تلك التي تواجهها التدخلات الأخرى المستخدمة في بناء السلام، مثلاً: هل يمكننا جلب الأشخاص المناسبين للاجتماع في القاعة معاً؟ هل يمثل هؤلاء الأشخاص جميع الأطراف المعنية المهمة؟ هل يوجد بيننا الأشخاص المناسبون الذين يمكن أن يشكلوا الخميرة الأساسية لإحداث التغيير في المجتمع الأوسع؟ هل المشاركون راغبون في التحدث إلى بعضهم البعض؟ هل ستتمكن من تطوير خطط وأعمال يمكن تطبيقها وتنفيذها؟ ما هي قدرة المشاركين على السيطرة والتأثير؟ كيف يمكن جلب آخرين للمشاركة؟ .

إننا نعترف بكل هذه التحديات وندرك أهميتها، وقد حاولنا جاهدين أن نفكر بطريقةواقعية في اقتراحاتنا لتطبيق البحث التقديري، وقد سعت بعض هذه المقترحات للعمل مع مجموعات صغرى يمكن إدارتها ضمن الصورة الكبرى لنظام النزاع.

ومع ذلك، توجد تحديات أكثر تواجه المقاربات الإيجابية لبناء السلام، وهي تحديات أقرب إلى الحدث. فكما هو الأمر في المجالات الأخرى التي تمارس فيها المقاربات الإيجابية. هناك تحيزات في الدوائر المهنية والأكاديمية وفي أنظمة التمويل باتجاه التركيز على المعالجة والألم والنواقص البشرية. ولم يبدأ علماء النفس وغيرهم

من الأطباء والمعالجين إلا حديثاً بدراسة العوامل والعمليات التي تدفع نحو سلامة صحة الإنسان وصالح معيشته، وهي عوامل تشمل التسامح والتكيف والقوة الإنسانية والأخلاق والتطور الحاصل بعد المحنة والنجاح وحب الغير والمحبة التي لا تعرف حدود. لقد اعتاد المانحون على دعم برامج تمويلية قائمة على تقدير الاحتياجات وتحليل النزاعات بدلاً من تقدير الاحتمالات والإمكانيات الإيجابية. وتوجد تحيزات في الطريقة التي يفكر فيها العديد منا ويعملون على مستوى يومي. فالعادات التي نحملها حول النظر إلى ما هو خطأ وما هو غير فعال، ومن ثم الرد وفقاً لهذه العادات، قد تكون متجذرة فينا.

كذلك، تحمل طريقتنا في عرض أفكارنا تحدياً في عملية بناء السلام. هل يبدو البحث التقديري وغيره من المقاربات الإيجابية، طرقاً ساذجة أو طرقاً لتطييب الخواطر أم أنها مقاربات ذات إمكانية ملموسة وتأثيرات استراتيجية؟ إن البحث التقديري هو وسيلة أو مقاربة للتغيير، وطريقة لتحقيق هدف، ومع ذلك فغالباً ما نتحدث عن البحث التقديري كوسيلة، بدلاً من كونه محاولة لتحقيق هدف ما. وسواء طرحنا البحث التقديري للعب دور داعم أو وضعناه في مركز الحركة، فإن الأمر يبقى مهماً أيضاً، فليس من الحكمة أو من الواقعية في تناولنا لأوضاع النزاعات أن نقترح بأن البحث التقديري لوحده يمكنه أن يحدث التغيير. ففي بعض الظروف، يمكن إنجاز أفضل ما نستطيع من البحث التقديري دون اللجوء إلى تسميته بمنهجية أو حتى إطلاق اسم عليه. وهذا ليس من باب الخداع ولكن من باب الحفاظ على تركيز العملية لكي تفي باهتمامات واحتياجات المجموعة لا أن تشكل انشغالاً مسبقاً بالتقنية نفسها للوصول إلى تلك الاحتياجات.

مثل هذا النقاش حول التحديات يؤدي بنا بطبيعة الأمر لدراسة أنواع الأبحاث والاختبارات التي ستساعدنا على توضيح الاستخدامات المناسبة للمقاربات الإيجابية، إضافة إلى طرق الابتكار والتكيف والتوسع في تطبيقها.

جدول أعمال للبحث والاختبار

لا تضع الحدود.
أولاً،
ضع المربعات والمثلثات
التي تحتوي على الإمكانيات
والاحتمالات التي سبق وفكرت بها
ثم أنفخ فيها بعض الحياة.
قلّم ما تبقى من أطرافها لكي تنتهي إلى
صنع الإمكانية.

ا. ر. أمونز

هناك العديد من المقاربات المحتملة التي يمكن اختبارها مع المقاربات الإيجابية لبناء السلام وسوف نستعرض هنا مجموعة أولية من الأفكار ونقيم نقطة انطلاقنا من بعض الأبحاث التي تم إجراؤها حول البحث التقديري ميدانياً مع أفضل الخبرات في استخدامها في حقل التطوير المؤسسي.

خلال عمله حول الثقافات المؤسسية، حدد فرانك باريت (1996) أربع كفاءات أوجدتها ثقافات التعلم التقديري (1) الكفاءة الإيجابية وتعني قدرة التركيز على ما أتقنت المجموعة عمله في السابق وما تتقن عمله في الحاضر. (2) الكفاءة التوسعية وتعني القدرة على تجاوز الطرق المألوفة في التفكير. (3) الكفاءة التعاونية وتعني قدرة الحوار على تغيير الأنظمة. (4) والكفاءة التوليدية وتعني القدرة على السماح لأعضاء المجموعة بتجربة تأثير إسهاماتهم باتجاه هدف أسمى. هذه المجموعة من الكفاءات تقترح القيام بأبحاث حول عدة طرق محتملة لتطوير الاستراتيجيات التقديرية في بناء السلام.

الطريقة الأولى هي إجراء البحث حول تلك الكفاءات على أساس أنها عناصر تحمل جوهراً إيجابياً ضمن نظام النزاع، أو بكلمات أخرى، كشف الحكايات

والقصص والأغنيات والأشعار والطقوس والخبرات التي تتحدث عن وجود هذه الكفاءات على أساس أنها قدرات لتعزيز السلام ضمن النظام. بعد ذلك يمكن تطوير الاستراتيجيات من أجل حشد تلك الكفاءات بطريقة أكمل داخل المجتمع كمساهمة نحو تطوير ثقافات السلام. ويمكن استخدام بيانات المعلومات المتعلقة بالبحث كأساس لإتمام المراحل الأربع للبحث التقديري بدءاً بتصور التغيير ووصولاً إلى تصميمه وانتهاءً بتنفيذه. أو يمكن توفير التدريب في التعلم التقديري والقيادة لكي يدخل في سياق الثقافة المحلية والبنى المعنية، من ضمن احتمالات أخرى.

الاحتمال الثاني هو في تطوير مؤشرات وآليات لتحديد وتقييم ممارسة هذه الكفاءات كوسيلة يستخدمها الباحثون والممولون في تقييم الكادر وتقييم تأثير ونجاح مبادرات المقاربات الإيجابية في بناء السلام. بكلمات أخرى، يمكن تقييم فعالية المقاربة الإيجابية بشكل جزئي من خلال قدرتها على تطوير كفاءات تقديرية في النظام الاجتماعي.

لنتحول الآن إلى بعض التحديات التي تواجه المقاربات الإيجابية لبناء السلام والتي ذكرناها أعلاه. هناك عدد من الأسئلة التي يجب تناولها من قبل العلماء والممارسين من أجل إحراز تقدم في فهم متى وأين وكيف تكون أفضل طريقة لدمج المقاربات الإيجابية في عملية بناء السلام. هناك سؤالان يرتبطان بحركة القوى في النزاع وفي العلاقات اللامتماثلة لهذه القوى.

السؤال الأول يتعلق بمعالجة التوتر بين السعي إلى العدالة وبين إدارة استكشاف التفاعل الإيجابي داخل المجتمعات المتنازعة. كيف يمكن لمجتمع يحمل إحساساً تاريخياً بالقهر والظلم أن يتبنى نظرة إيجابية في اختباره لعلاقته مع الطرف الآخر، عندما يمكن تفسير مثل هذه النظرة أو النقلة في الموقف بأنها استسلام أو تغيير في الموقف؟ والسؤال المرتبط بهذا الأمر هو: كيف تمنع النزعة العامة لهؤلاء الذين هم على الطرف الأقوى من أن يستخدموا أي تعبير إيجابي يبديه الطرف الأضعف حول النزاع، من أجل ضمان أو إعادة فرض هيمنتهم أو المجادلة للإبقاء على الوضع الراهن؟

السؤال الثاني الذي مرّ ذكره أعلاه هو كيف سنبني مبادرات واسعة النطاق من أجل حشد شرائح واسعة من السكان الموجودين في منطقة نزاع معينة.

لدى البحث التقديري القدرة على إشراك أنظمة كبيرة في موضوع فردي مثل قمة البحث التقديري ولكن كيف يمكن تطبيق مثل هذا التصميم في سياق بناء السلام من أجل تحريك الأكثرية الصامتة التي غالباً ما تسمح للأقليات المتطرفة أن تملي أجندتها السياسية وتمنع الحل السلمي؟ .

هناك سؤال ثالث يتعلق بكيفية استخدام المقاربات الإيجابية للربط بين مستويات وقطاعات وأشكال الممارسات في عملية بناء السلام، مثل الربط بين القواعد الشعبية والتدخلات على المستوى الجزئي وبين صانعي السياسة والعكس بالعكس، بحيث تضمن تنفيذ السياسية التقدمية أو الاتفاقيات المتعلقة بعملية السلام على المستوى الشعبي أو بين الفئات غير المرتبطة بالنخبة الحاكمة. أو هل يمكن للعمليات الاجتماعية الواسعة والمبنية على أطر البحث التقديري أن تكون مفيدة في وصل الروابط المفقودة خلال عملية بناء السلام.

على سبيل المثال: هل يمكنها ترجمة آلاف ورشات العمل المعقودة حول بناء السلام عبر عقد من الزمن لتصبح سياسات أو حركات اجتماعية تعمل من أجل السلام؟ .

إننا بحاجة إلى كل من البحث الموجه ميدانياً وإلى الإبداعات على أرض الواقع من أجل تناول هذه النوعيات من الأسئلة ومن أجل التقدم بفهمنا وبفعالية عمل المقاربات الإيجابية لبناء السلام. ومع ذلك هناك احتمالات أخرى بالنسبة للبحث العملي أو الأكاديمي وهذه الاحتمالات تشمل ما يلي:

- بحث وتوثيق أمثلة أخرى عن مقاربات إيجابية لبناء السلام، خاصة تلك الموجودة في ثقافات السكان الأصليين أو تلك التي يجريها العاملون المحليون والمنظمات غير الحكومية، بما فيها استخدام الطقوس ورواية القصص والموسيقى والفن.

- تجميع أسئلة إيجابية حول بناء السلام وتجربة هذه الأسئلة في حالات مختلفة.
- إجراء أبحاث منهجية ومنتظمة حول أفضل الشروط التي تفضي إلى إعطاء البحث التقديري فعالية في بناء السلام.
- دراسة التأثير طويل الأمد لتطبيقات التحقيقات التقديرية في بناء السلام.
- إيجاد منتدى تعليمي يجتمع فيه صنّاع السلام والعاملون في التنمية من أجل تبادل خبراتهم وتجاربهم في المقاربات الإيجابية.
- القيام بمجموعة من المشاريع الريادية التي تستخدم المقاربات الإيجابية كجزء من برنامج عملي وتعليمي، وتسهيل تبادل الخبرات والتعلم بين المنفذين.
- دراسة مسألة توقيت تطبيق المقاربات الإيجابية في العمليات الدائرة لحل النزاعات وبناء السلام.
- إجراء بحث اختباري ريادي بين الأجيال بحيث يقوم الصغار بمقابلة الكبار حول الزمن الذي عاشوا فيه بسلام.
- إجراء بحث اختباري ريادي على شكل زوجي من قبل الذين يجرون المقابلات على أن يكونوا قادمين من أطراف مختلفة في النزاع من أجل إجراء مقابلات مع أشخاص قادمين من كافة أطراف النزاع.
- دراسة أساليب القيادة التقديرية وتأثيراتها، بما فيه صانعو السلام. وتجميع وتحليل القصص عن أعمالهم وتصرفاتهم والنتائج التي حققوها.
- استخدام البحث التقديري لوضع مقاربة حول التعاون بين الميادين والقيام بمشاريع ريادية داخل البلاد.

دعوة إلى «الحريات»

> بدلاً من البحث عن السلام في الأعداد وملاحظة هؤلاء الذين يشعرون أنهم حلفاء أو رفاق سفر ماذا يمكننا أن نخلق إذا سعينا لاكتشاف تلك الرؤى التي تختلف كثيراً عن رؤانا. ماذا لو اجتمعنا معاً ولو على الأقل من أجل أن نغيّر عقولنا بين الفينة الأخرى.
>
> مارغريت ويتلي

حدد العلماء والعاملون في ميدان التطوير المؤسسي ست حريات غالباً ما يربط المشاركون في عمليات البحث التقديري بينها وبين تحرير السلطة أو ما نسميها الرحلة من الظلم إلى السلطة داخل المؤسسات (ويتني وتروستن - بلوم 2003، 237-251) وهذه الحريات هي:

- حرية أن تكون معروفاً في علاقة.
- حرية أن يكون صوتك مسموعاً.
- حرية أن تحلم في المجتمع.
- حرية اختيار المشاركة.
- حرية أن تعمل بدعم.
- حرية أن تكون إيجابياً.

ما زال الوقت مبكراً لمعرفة إذا كانت هذه الحريات نفسها أو أشكال جديدة منها على وجه الاحتمال، سيتم تجربتها من قبل المشاركين في سياقات بناء السلام. ولكنها احتمالات تحمل من قوة الإثارة ما يجعلها تنتظر ظهور مستكشف جريء في بناء السلام وفي مواجهة التحديات الكبيرة.

دعونا نختتم كتابنا بأن نتشارك في أحلامنا وآمالنا، لأجلكم ولأجلنا جميعاً ولأجل مجالات عملنا ولأجل مستقبل هذا العمل.

نأمل من خلال هذا الكتاب أن نكون قد أشعلنا روح التجربة والمغامرة. نأمل أن يحفز هذا الكتاب، العلماء والعاملين في بناء السلام على مساءلة أطر عملهم وتعديل أساليبهم - وأن يتمكنوا من دمج المقاربات الإيجابية في عملهم بحيث يستطيعون إنتاج مشاريع قائمة على البحث العملي ونأمل أن تصبح المقاربات الإيجابية جزءاً أساسياً من التدريب على بناء السلام وممارسته وأبحاثه.

ونأمل أيضاً أن يكون العاملون في البحث التقديري والعلماء قد تأثروا أو استلهموا من إمكانيات استخدامه في مجال بناء السلام وأن يتم تطوير نظريات

وممارسات جديدة من قبل ممارسي البحث التقديري وصانعي السلام الذين يعملون مع بعضهم البعض.

ونأمل أن يتم تحدي هذه الفرضيات وأن تظهر فرضيات جديدة ونظريات جديدة منبثقة عن المشاركة في التجربة.

ونأمل أن يتم تحفيز الاحترام المتبادل والتعلم المشترك عبر التعاون بين كافة الأصعدة وأن تبرز شراكات أكثر في العلم والممارسة

ونأمل أن يحفز هذا الكتاب الخطوة التالية نحو تطوير إرشادات ملموسة حول كيفية دمج المقاربات الإيجابية في مختلف عمليات حل النزاعات مثل الحوار والتوسط والتحكيم وحل المشاكل.

ونأمل أن يشجع هذا الكتاب المولين بإيجاد أصناف جديدة من المنح في المقاربات الإيجابية لصنع السلام.

ونأمل من الذين يقيّمون مشاريع بناء السلام أن يجدوا الطرق الكفيلة لإدراك وتقييم وتقدير تأثير العمليات في خلق الأمل والطاقة الإيجابية، والإحساس الأعلى بالإمكانيات والشجاعة والثقة من أجل التغيير، وإدراك القدرات الإيجابية الكامنة في الأشخاص والمجتمعات العالقة في النزاع.

والآن يبقى أملنا بكم بأن تجدوا الإفادة من هذه الأفكار وأن تلتقطها مخيلتكم وأن تقوموا بتطبيقها لا بل وتتجاوزوها وأن تنضموا إلى هؤلاء الكُتّاب في إدراك الوعد الذي تحمله المقاربات الإيجابية في بناء السلام وأن تسعوا للعثور على حريات جديدة في بناء السلام أيضاً.

ملاحظات:

1. It bears noting, however, that Imagine Nagaland did not proceed entirely without controversy, having raised the suspicions of the Naga Peoples Movement for Human Rights, which charged inadequate consultation and representation of the Naga people, lack of transparency and interference of outside parties. This controversy points up the considerable challenges facing



Al applications in complex situations of social conflict in which it may be much more difficult to identify and win the trust and engagement of all stakeholder groups.

مراجع :

Barrett, Frank 1. 1996. "Creating Appreciative Learning Cultures." *Organizational Dynamics 4* (autumn), pp. 36—44.

Whitney Diana, and Amanda Trosten-Bloom. 2003. *The Power of Appreciative Inquiry: A Practical Guide to Positive Change.* San Francisco: Berrett-Koehler.

أحد أهم الأدوار التي يمكننا أن نلعبها فردياً وجماعياً هو فتح ثغرة أو الإصغاء إلى المضمون وهو ينكشف ومن ثم إيجاد الأحلام والرؤى والقصص التي نشعر في داخلنا بالرغبة في حدوثها - وكما قال بوبر - نريد تحقيقها بالروح الإنسانية والعمل الإنساني.

جوزيف جاورسكي